

الكتاب الثاني كاملاً

رجل عاشق

كارل أوفه كناوسغارد

ترجمة: الحارث النبهان

«ربما هو أهم مشروع أدبي في عصرنا»

راشيل كاسك - الغارديان

مكتبة | 483

كارل أوفه كناوسغارد



الكتاب الثاني - 1

رجل عاشق

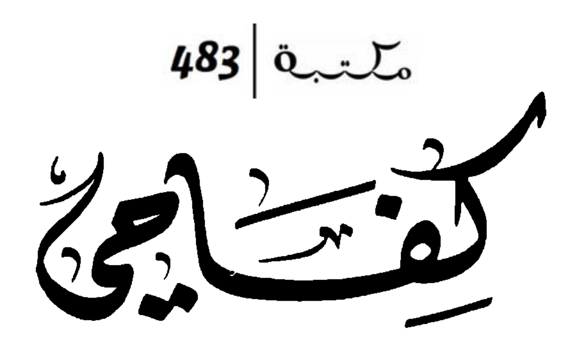
الكتاب: كفاحي/ الكتاب الثاني - I : رجل عاشق
المؤلف: كارل أوفه كناوسغارد
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 384 صفحة
الطبعة الأولى لدار التنوير : 2018
الترقيم الدولي: 978-9938-941-21-0
رقم الإيداع: 2018/127-373

This Arabic text has been translated from Don Bartlett's English translation A Death in the Family of Karl Ove Knausgaard's Min kamp Første bok

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - جاردن سيتي 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقاً) - الدور الأرضي - شقة رقم 2
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

كارل أوفِه كناوسغارد

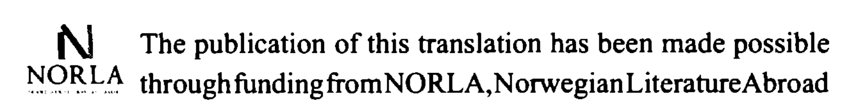


الكتاب الثاني - I

رجل عاشق

ترجمة: الحارث النبهان




NORLA
The publication of this translation has been made possible through funding from NORLA, Norwegian Literature Abroad

29 تموز 2008

كان صيفًا طويلًا؛ ولمّا ينتهِ بعد.

أنهيت القسم الأول من الرواية في 26 حزيران. وبعد ذلك ظلّت حضانة الأطفال مغلقة أكثر من شهر فبقيت فانيا وهيدي في البيت مع كل ما يعنيه هذا من عمل إضافي. لا أفهم أبدًا معنى هذه العطلات، ولا أشعر أبدًا بالحاجة إليها، بل أحب أن أعمل دائمًا. لكن، إن كان لا بد من العطلات، فلا بد منها! كنا قد خطّطنا لقضاء الأسبوع الأول في الشاليه الجبلي الذي أصرَّت ليندا على أن نشتريه في الخريف الماضي ليكون مكانًا للكتابة من ناحية، ولقضاء عطلات نهاية الأسبوع من ناحية أخرى. لكنّنا تخلينا عن الفكرة بعد ثلاثة أيام أمضيناها هناك وعدنا إلى المدينة. إن وضع ثلاثة أطفال صغار مع شخصين بالغين ضمن مساحة صغيرة يحيط بها الناس من كل ناحية من غير أن يكون لدى المرء ما يفعله غير تعشيب الحديقة وجزّ المرج ليس فكرة حسنة بالضرورة، وخاصة إذا كان الجو العام مَشوبًا بالاضطراب حتى قبل الذهاب إلى هناك. خضنا عدة مشاجرات عنيفة في ذلك المكان؛ وأظن أنها كانت مسلية للجيران. كما أن وجود مئات من الحدائق المعتنى بها جيدًا والعامرة بهؤلاء الناس المتقدمين في السن، أنصاف العراة، جعلني أشعر بانزعاج دائم وبرُهاب الأماكن المغلقة الضيقة. يتحسّس الأطفال هذه الحالات المزاجية بسرعة غريبة، ويتلاعبون بها ويستغلونها، وعلى الأخص فانيا التي تكون لها ردود أفعال شبه فورية على تغيرات نبرة الصوت وشدته. إذا كانت هذه التغيرات واضحة فإنها تروح تفعل الأشياء التي تعرف أننا لا نحبها فينتهي الأمر بأن نفقد أعصابنا إن أصرت على الاستمرار في ذلك. نمتلئ إحباطًا وانزعاجًا ونصير، عمليًا، غير قادرين عن الدفاع عن أنفسنا،

فنواجه الأهوال كلها: الزعيق والصراخ والبؤس. استأجرنا سيارة في اليوم التالي وذهبنا بها إلى تيورن القريبة من غوتنبرغ حيث دعتنا ميخائيلا (هي صديقة ليندا وعرّابة فانيا) للإقامة في بيت صيفي يملكه صديقها الذي تعيش معه. سألناها إن كانت تعرف معنى العيش مع ثلاثة أطفال، وإن كانت واثقة حقًا من أنها تريد وجودنا هناك، فقالت إنها واثقة من الأمر وإنها قد وضعت خططًا لصنع الخبز مع الأطفال وأخذهم إلى السباحة وجمع السرطانات حتى يُتاح لنا وقت نخصّصه لنفسَينا. استجبنا لتلك الدعوة. ذهبنا إلى تيورن، وأوقفنا السيارة إلى جانب البيت الصيفي على أطراف ريف سورلاند الجميل، ثم دخلنا مع أطفالنا وحقائبنا وأمتعتنا كلها. كنا نعتزم البقاء هناك أسبوعًا، لكننا حزمنا حقائبنا بعد ثلاثة أيام فوضعناها في السيارة وانطلقنا جنوبًا من جديد. كان ارتياح ميخائيلا وإيريك لذهابنا واضحًا تمامًا.

نادرًا ما يكون الناس الذين ليس لديهم أطفال قادرين على فهم ما ينطوي عليه وجود الأطفال، وذلك بصرف النظر عن نضجهم وذكائهم في الأمور الأخرى. هكذا كان الأمر معي أنا، على الأقل، قبل أن يصبح لديّ أطفال. يهتم كل من ميخائيلا وإيريك أشد الاهتمام بتطوير حياته المهنية: منذ أن عرفتُ ميخائيلا لم تكن تعمل إلّا في وظائف عليا في ميدان الثقافة؛ أما إيريك فهو مدير لمؤسسة دولية مقرها في السويد. لديه اجتماع في باناما بعد هذه الفترة التي يمضيها في تيورن، وبعدها سيسافر مع ميخائيلا لقضاء عطلة في منطقة بروفانس. هكذا يعيشان: يتنزهان في أماكن لا أعرفها إلّا من خلال القراءة عنها. إلى هذا الجو أتت أسرتنا ومعها خرق الأطفال وحفّاضاتهم، وجون الذي يزحف في أرجاء المكان كله، وفانيا وهيدي تتشاجران وتضحكان وتزعقان وتصيحان. أطفال لا يأكلون على الطاولة أبدًا ولا يفعلون ما يُقال لهم عندما نكون في زيارة لأشخاص آخرين، عندما نريدهم حقًا أن يسلكوا سلوكًا حسنًا؛ وذلك لأنهم يدركون ما يحدث! كلما كنا أكثر حرصًا على أن يسلكوا سلوكًا حسنًا صاروا أكثر شغبًا. ومع أن ذلك البيت الصيفي كان كبيرًا متسعًا، فإنه لم يكن بالنسبة إليهم كبيرًا ولا

متسعًا إلى الحد الذي يمكن معه الكف عن مراقبتهم باستمرار. كان إيريك يتظاهر بعدم الاهتمام: أراد أن يبدو شخصًا كريمًا محبًا للأطفال. لكن لغة جسده كانت تناقض هذا الزعم دائمًا... ذراعاه المُسبلتان إلى جانبيه، ومُضيِّه هنا وهناك لإعادة الأشياء إلى أماكنها، وتلك النظرة البعيدة في عينيه. كان قريبًا من الأشياء ومن هذا المكان الذي عرفه طيلة حياته، لكنه كان شخصًا بعيدًا كل البعد عن أولئك الذين يشغلون هذا المكان الآن... ينظر إليهم بطريقة تشبه كثيرًا طريقة نظر المرء إلى قنافذ تتجوّل من حوله. كنت أعرف إحساسه، وقد أعجبني هذا الرجل. لكني أتيت معي بهذا كله فصار اللقاء الحقيقي بين عقلينا مستحيلًا. تلقى إيريك تعليمه في جامعتي أكسفورد وكامبردج، وعمل وسيطًا عقاريًا في المدينة طيلة سنوات كثيرة، لكنه ذهب ذات يوم في نزهة مع فانيا إلى سفح الجبل عند البحر، ثم تركها تتسلق وحدها وتسبقه بمسافة طويلة بينما وقف ساكنًا في مكانه يتأمل جمال المنظر الطبيعي من غير انتباه إلى أنها في الرابعة فقط وإلى أنها غير قادرة على تقدير المخاطر. وهكذا كان عليَّ أن أجري مسافة طويلة حاملًا هيدي بين ذراعيَّ حتى أتدارك الموقف. وبعد أن جلسنا في مقهى بعد نصف ساعة من ذلك (تيبست ساقاي من هذا الجري المفاجئ)، طلبت منه أن يعطي جون قطعة من لفافة خبز وضعتُها أمامه لأنني كنت مضطرًا إلى الانتباه إلى هيدي وفانيا والعثور لهما على شيء تأكلانه، فأومأ برأسه وقال إنه سيفعل ذلك، لكنه لم يترك الصحيفة التي كان يقرأها، بل حتى لم يرفع رأسه، ولم يلاحظ أن جون الجالس على مسافة نصف متر منه قد انزعج كثيرًا وغضب ثم بدأ يصرخ بصوت مرتفع حتى احمر وجهه كله لأن الخبز الذي أراده كان أمامه تمامًا لكنه لا يستطيع الوصول إليه. أغضب هذا ليندا الجالسة إلى الناحية الأخرى من الطاولة، رأيت الغضب في عينيها، لكنها عضت على لسانها ولم تقل شيئًا: انتظرتْ إلى أن صرنا وحدنا في الخارج فقالت لي إن علينا أن نعود إلى بيتنا... الآن، وعلى الفور. وبما أنني ألِفْتُ طباعها فقد قلت لها إن عليها أن تطبق فمها وتمتنع عن اتخاذ أي قرار من هذا النوع

عندما تكون في هذا المزاج السيء. زاد هذا الكلام في انزعاجها، بالطبع، وظلت الأمور هكذا إلى أن صرنا جالسين في سيارتنا صباح اليوم التالي.

السماء الزرقاء الصافية، ومنظر الريف المبرقش الرائع رغم الريح التي تعصف بنا، الى جانب سعادة الأطفال وحقيقة أننا مسافرون في سيارة لا في مقصورة قطار ولا على متن طائرة (فهكذا كان نمط أسفارنا في السنوات القليلة الماضية)... عمل هذا كله على تلطيف الجو، لكننا لم نلبث أن عدنا إلى الحالة نفسها من جديد لأنه كان علينا أن نأكل ولأن المطعم الذي وجدناه وتوقّفنا عنده كان ملكًا لأحد نوادي اليخوت. لكن أحد العاملين فيه قال لي إن هنالك مطعمًا آخر على مسافة خمسمئة متر، وإنه ليس علينا إلّا أن نجتاز الجسر وندخل البلدة. وهكذا وجدنا أنفسنا بعد عشرين دقيقة نسير على جسر ضيق مرتفع شديد الازدحام وندفع عربتي الأطفال أمامنا، جائعين كلنا، وليس أمام أنظارنا غير منطقة صناعية. كانت ليندا حانقة تمامًا، أظلمت عيناها: نتورّط دائمًا في مواقف من هذا النوع؛ مواقف لا يتورّط فيها أحد غيرنا؛ إننا عديمو النفع؛ كان يجب أن نكون، الأسرة كلها، جالسين إلى مائدة الطعام الآن، وكان يمكننا أن نمضي وقتًا ممتعًا لنا كلنا؛ وبدلًا من ذلك نجد أنفسنا في الخارج هنا، في مهب الريح، وسط السيارات التي تمر بنا مسرعة وتخنقنا بدخانها على هذا الجسر الملعون. هل رأيت في حياتك كلها أسرًا أخرى مع ثلاثة أطفال، خارج البيت، في أوضاع تشبه هذا الوضع؟ انتهى الطريق الذي سلكناه ببوابة معدنية تحمل لافتة عليها شعار شركة حراسة أمنية. وحتى نصل البلدة التي بدت لنا متداعية كئيبة، كان علينا أن نسلك طريقًا تلتف عبر المنطقة الصناعية لمدة لا تقل عن خمس عشرة دقيقة. كان يمكن أن أتركها لأنها تئن وتشتكي دائمًا، وتريد دائمًا شيئًا آخر غير ما هو موجود، ولا تفعل شيئًا لتحسين أي شيء، تئن فقط، وتشكو، ولا تستطيع مواجهة الحالات الصعبة؛ وإذا اتضح لها أن الواقع لا يلبي ما تطلعتْ إليه، فإنها تلومني أنا، في الأمور الكبيرة والصغيرة. نعم، في ظل شروط طبيعية، كنا سنذهب في طريقين مختلفين، لكن المقتضيات العملية تعيدنا دائمًا

معًا من جديد: لدينا سيارة واحدة وعربتا أطفال، وهذا ما جعلنا مضطرين إلى التصرف كما لو أن ما قيل لم يُقل أبدًا، رغم كل شيء، وإلى دفع عربتي الأطفال المبقّعتين الكسيحتين فوق ذلك الجسر فنعود من جديد إلى نادي اليخوت الفاخر حيث نضع العربتين في السيارة، ثم نُجلِس الأطفال وننطلق إلى أقرب ماكدونالدز الذي اتضح لنا أنه موجود في محطة للوقود قرب مركز مدينة غوتنبرغ. وهناك جلست على مقعد آكُل النقانق بينما كانت فانيا وليندا تتناولان طعامها في السيارة، أما جون وهيدي فظلا نائمين. كان في خطتنا أن نذهب إلى مدينة الملاهي في لايزبيرغ، لكننا ألغينا هذه الفكرة لأنها ستجعل الوضع أسوأ بالنظر إلى الجو السائد بيننا الآن. وبدلًا من ذلك، توقفنا بعد بضع ساعات عندما مررنا بمكان بائس رخيص أطلقوا عليه اسم «أرض الحكايات» حيث كان كل شيء منخفض الجودة إلى أقصى حد، فأخذنا الأطفال أولًا إلى «سيرك» صغير مؤلف من كلب يقفز عبر أطواق محمولة على ارتفاع الركبة، وسيدة ممتلئة أشبه بالرجال ترتدي البكيني (لعلها من مكان ما في شرق أوروبا). كانت ترمي الأطواق نفسها في الهواء وتديرها حول ردفيها... حركات كانت تستطيع تأديتها كل فتاة في مدرستي الابتدائية! كان في ذلك السيرك أيضًا رجل أشقر الشعر، في سني تقريبًا، يرتدي عمامةً وحذاء معقوفًا إلى الأعلى عند مقدمته، ويلف إطارات احتياطية كثيرة فوق بنطلونه الفضفاض ويملأ فمه بالبنزين ثم ينفث النار أربع مرات صوب السقف المنخفض. كان جون وهيدي يحدقان في ذلك كله تحديقًا شديدًا حتى كادت عيونهما تنفر من مكانها. أما فانيا فكانت مصرة على العودة إلى الكشك الذي مررنا به حيث يمكن أن يلعب المرء ويفوز بدمية ظريفة. ظلت تقرصني وتسألني متى ينتهي هذا العرض في السيرك. ومن وقت لآخر، كنت أنظر إلى ليندا التي جلست ووضعت هيدي في حضنها. كانت الدموع في عينيها. سألتها عن سبب دموعها عندما خرجنا وبدأنا السير في اتجاه منطقة المعرض الصغيرة وكل منا يدفع عربة أمامه، مررنا ببركة سباحة كبيرة لها منزلق طويل انتصب عند أعلاه تمثال ضخم لقزم لعل طوله يبلغ ثلاثين مترًا.

قالت: «لست أدري. لكني أتأثر بالسيرك دائمًا».

«لماذا؟».

«في الحقيقة، إنه سيرك حزين، صغير جدًا، رخيص جدًا. لكنه جميل جدًا في الوقت نفسه».

«حتى هذا السيرك؟».

«نعم. ألم ترَ هيدي وجون؟ كانا مسحورَين تمامًا».

قلت مبتسمًا: «لكن فانيا لم تكن كذلك». وردت ليندا على ابتسامتي بابتسامة.

قالت فانيا وهي تستدير صوبنا: «ماذا؟ ماذا قلت يا بابا؟».

«لم أقل غير إنك لم تكوني في السيرك تفكرين بشيء غير تلك الدمية».

ابتسمت فانيا بطريقة خاصة مثلما تفعل غالبًا عندما نتحدث عن شيء فعلَتْه. ابتسامة سعيدة، لكنها متطلعة توّاقة أيضًا... تطالب بالمزيد.

سألتني: «وماذا فعلتُ؟».

أجبتها: «كنت تقرصين ذراعي. قلت أيضًا إنك تريدين تجريب حظك في تلك اللعبة».

سألتني: «لماذا؟».

قلت لها: «وكيف لي أن أعرف؟ أظنك راغبة في الحصول على دمية».

سألتني: «إذن، هل نذهب الآن؟».

قلت: «نعم، إن الكشك هناك».

أشرت صوب الممر الإسمنتي المفضي إلى منطقة المعرض والألعاب التي كنا نراها من خلال الأشجار.

سألتني: «هل تستطيع هيدي أن تحصل على دمية أيضًا».

قالت ليندا: «إذا كانت تريد ذلك».

قالت فانيا وهي تنحني فوق هيدي الجالسة في العربة: «إنها تريد! أتريدين دمية يا هيدي؟».

قالت هيدي: «نعم، أريد دمية».

أنفقنا تسعين كورونًا على البطاقات قبل أن تحصل كل منهما على فأر قماشي صغير. كانت الشمس حارة في السماء، وكان الهواء تحت الأشجار ساكنًا، وأصواتٌ زاعقة آتية من ناحية الألعاب ممتزجة بموسيقى ديسكو الثمانينيات المنبعثة من الأكشاك التي حولنا. أرادت فانيا أن تشتري «غَزْل البنات»، وهكذا كنا بعد عشر دقائق جالسين حول طاولة إلى جانب الكشك، وكانت تحوم من حولنا زنابير غاضبة ملحاحة وتطن في تلك الشمس الحارة التي جعلت السُّكر يلتصق بكل شيء يمسه: الطاولة، وظهر العربة، والأذرع والأيدي، مما أزعج الأطفال وأغضبهم كثيرًا. ليس هذا ما توقعوه عندما رأوا السُّكّر الملون يدور في الحوض في ذلك الكشك. كانت قهوتي مُرة المذاق، غير صالحة للشرب تقريبًا. جاء صوبنا طفل صغير قذر على دراجته ذات العجلات الثلاث فاصطدم بعربة هيدي ثم نظر إلينا منتظرًا ردة فعلنا. كان أسود الشعر، داكن العينين... لعله روماني أو ألباني، أو لعله يوناني. جعل دراجته تصطدم بالعربة بضع مرات إضافية، ثم أوقفها بطريقة تجعلنا غير قادرين على الخروج ووقف هناك مسدلًا عينيه نحو الأرض.

سألتُ ليندا: «هل نذهب؟».

قالت: «تريد هيدي أن تركب الحصان. هل نستطيع أن نفعل هذا قبل ذهابنا؟».

جاء رجل قوي البنية، قاتم البشرة أيضًا وله أذنان ناتئتان، فحمل الصبي مع دراجته ومضى به إلى الفسحة أمام الكشك، ثم ربّت على رأسه مرة أو مرتين ومضى إلى الأخطبوط الميكانيكي الذي يشغّله. كانت على أذرع الأخطبوط سلال صغيرة يمكن الجلوس فيها فترتفع وتنخفض بينما تدور ببطء. بدأ الصبي يقود دراجته عبر فسحة الدخول تلك حيث كان الزائرون بملابسهم الصيفية يصلون ويغادرون من غير انقطاع.

قلت: «بالطبع!»، ونهضت وأخذت غزل البنات من فانيا وهيدي ورميت به في سلة المهملات، ثم دفعت جون الذي كان يؤرجح رأسه من جهة إلى أخرى في العربة حتى يرى كل ما حوله من أشياء مثيرة، ومضيت

عبر الساحة صوب الممر المفضي إلى بلدة الكاوبوي. لكن بلدة الكاوبوي هذه كانت كومة من الرمل فيها ثلاثة أكواخ مبنية حديثًا تحمل لافتات كتب عليها بالترتيب «المنجم»، «الشريف»، «السجن». وكانت تكسو الكوخين الأخيرين ملصقات «مطلوب حيًا أو ميتًا» وتنتشر إلى جوارهما أشجار البتولا إضافة إلى منحدَر يتزلج عليه بعض الفتيان بألواحهم، أما من الناحية الأخرى فكانت منطقة ركوب الخيل، لكنها كانت مغلقة. وداخل السور، مقابل المنجم تمامًا، رأيت امرأة من أوروبا الشرقية جالسة تدخن.

قالت هيدي وهي تنظر من حولها: «ركوب الحصان!».

فقالت ليندا: «علينا أن نذهب إلى منطقة ركوب الحمير قرب المدخل».

رمى جون زجاجة الماء على الأرض. وزحفت فانيا تحت السور فجرت صوب «المنجم». عندما رأت هيدي ذلك، نزلت من عربتها ولحقت بأختها. رأيت آلة بيع الكوكاكولا ذات اللونين الأحمر والأبيض إلى جانب «مكتب الشريف» فأخرجت محتويات جيب بنطلوني القصير ورحت أنظر إليها: «مشبكان للشعر، ودبوس للشعر مزين بخنفساء حمراء، وقدّاحة، وثلاثة أحجار صغيرة، وصدفتان بيضاوان وجدتهما فانيا في تيورن، وورقة من فئة عشرين كرونًا، وقطعتان من فئة خمسة كرونات، وتسعة قطع من فئة الكرون الواحد.

قلت: «سوف أدخن بينما تلعبان قليلًا. سأكون هناك».

أشرت صوب جذع الشجرة المستلقي في نهاية الفسحة. رفع جون ذراعيه.

قالت ليندا وهي تحمله: «اذهب إذًا! هل أنت جائع يا جون؟ أوه، إن الطقس حار. ألا يوجد ظل في مكان ما حتى أجلس فيه مع جون؟».

قلت لها: «هناك، في الأعلى». وأشرت إلى المطعم على قمة التل. كان المطعم على شكل قطار تحتل منطقة البيع قاطرتَه وتتوزع الطاولات في العربات. لم أرَ أي شخص هناك. وكانت الكراسي مقلوبة فوق الطاولات.

قالت ليندا: «هذا ما سأفعله. سوف أُرضعه! هل تراقب البنتين؟».

أومأت برأسي ومضيت إلى آلة البيع فاشتريت علبة كوكاكولا وجلست على جذع الشجرة، ثم أشعلت سيجارة ونظرت إلى الكوخ المبني على عجل حيث كانت فانيا وهيدي تركضان فتدخلان وتخرجان من بابه.

صاحت فانيا: «إنه مظلم تمامًا هنا. تعال وانظر!».

رفعت يدي ولوّحت لها؛ ولحسن حظي بدا أن ذلك قد أرضاها. لا تزال قابضة على فأرها الصغير في يدها.

بالمناسبة، أين هو فأر هيدي؟

نظرت فوجدته على الأرض عند «مكتب الشريف» تمامًا. كان رأسه مدفونًا في الرمل. وفي المطعم، سحبت ليندا كرسيًا صوب الجدار وجلست، ثم بدأت ترضع جون الذي راح يرفس في البداية ثم هدأ تمامًا. كانت امرأة السيرك تسير صاعدةً التل. لسعتني ذبابة خيل في ربلة ساقي. سحقتها بضربة شديدة فانهرست على جلدي. بدا طعم السيجارة فظيعًا في ذلك الحر، لكني تابعت استنشاق الدخان إلى رئتي مصممًا، ثم جالت عيناي على قمم أشجار الصنوبر التي بدت خضرتها كثيفة جدًا في المواضع التي تضيئها الشمس. حطت ذبابة خيل أخرى على ساقي فلوحت بيدي وطردتها، ثم نهضت ورميت السيجارة على الأرض وسرت صوب الفتاتين حاملًا بيدي علبة الكوكاكولا التي صارت نصف فارغة الآن لكنها لا تزال باردة.

قالت فانيا وهي ترفع رأسها وتشير بعينيها: «بابا، اذهب إلى الخلف بينما نكون في الداخل وانظر إن كنت تستطيع رؤيتنا عبر الشقوق».

قلت لها: «نعم، سأذهب»، ثم سرت ملتفًا حول الكوخ. سمعتهما تجريان وتقهقهان في الداخل. قربت رأسي من أحد الشقوق وحاولت النظر منه. لكن الاختلاف الكبير بين الضياء في الخارج والظلمة في داخل الكوخ لم يسمح لي برؤية أي شيء.

صاحت فانيا: «بابا، هل أنت في الخارج»؟

أجبتها: «نعم».

قالت: «هل تستطيع رؤيتنا؟».
قلت: «هل صرتما غير مرئيتين؟».
«نعم».
وعندما خرجتا من الكوخ، تظاهرت بأنني لا أستطيع رؤيتهما. نظرتُ في اتجاه فانيا وناديت: فانيا.
قالت لي وهي تلوّح بذراعيها: «إنني هنا».
«فانيا! أين أنتِ يا فانيا؟ اخرجي الآن! لم يعد الأمر مضحكًا».
«إنني هنا!... هنا!».
«فانيا...؟».
«ألا تستطيع رؤيتي حقًا؟ هل صرت غير مرئية؟».
بدت سعيدة من غير حدود رغم أنني لمستُ شيئًا من الغضب في صوتها.
بدأ جون يزعق في تلك اللحظة. رفعت رأسي ونظرت فرأيت ليندا تنهض حاملة إياه إلى صدرها. لا يبكي جون بهذه الطريقة عادة!
قلت لفانيا: «أوه، ها أنتِ هنا! هل كنت هنا طيلة الوقت؟».
قالت لي: «نعم».
«هل تسمعين بكاء جون؟».
رفعت رأسها ونظرت صوبه.
قلت: «علينا أن نذهب الآن. هيا بنا!».
مددت يدي لأمسك بيد هيدي.
قالت لي: «لا أريد! لا أريد أن تمسك بيدي».
قلت: «لا بأس. اقفزي في العربة إذن».
قالت: «لا أريد العربة».
«هل تريدين أن أحملك؟».
«لا، لا أريد أن تحملني».
نزلت فأحضرت عربتها. كانت قد تسلّقت على السياج عندما عدت. كانت فانيا جالسة على الأرض. وعلى قمة التل، كانت ليندا قد غادرت

المطعم. رأيتها واقفة على الطريق تنظر إلى الأسفل وتلوّح لنا بيدها. لا يزال زعيق جون مستمرًا.

قالت فانيا: «لا أريد المشي. تعبتْ ساقاي».

قلت لها: «لم تسيري إلّا خطوات قليلة طيلة اليوم. كيف تعبت ساقاك؟».

«لم تعد لديّ ساقان. عليك أن تحملني».

«لا يا فانيا، هذا كلام فارغ. لا أستطيع حملك».

«بل تستطيع».

قلت: «اصعدي إلى العربة يا هيدي! وسنذهب في نزهة».

قالت: «لا أريد العربة».

قالت فانيا: «ليست لديّ ساقاااان!» قالت الكلمة الأخيرة صارخة.

أحسست بالغضب يتصاعد في داخلي. كان هنالك شيء يدفعني إلى رفعهما عن الأرض وحملهما، واحدة تحت كل ذراع. لن تكون المرة الأولى التي أسير بهما وهما ترفسان وتزعقان تحت ذراعيّ من غير أن ألقي بالًا إلى الناس العابرين الذين يحدّقون إلينا دائمًا باستغراب واضح عندما تحدث هذه المشاهد الفاضحة... كما لو أنني أضع قناع قرد أو شيء ما.

لكني أفلحت في تمالك أعصابي هذه المرة.

سألتها: «هل تستطيعين الصعود إلى العربة يا فانيا؟».

قالت: «إذا حملتني».

«لا، عليك أن تفعلي هذا بنفسك».

قالت: «لا... ليست لديّ ساقان».

لو لم أتراجع أمامها لبقينا واقفين هناك حتى اليوم التالي؛ فمع أن فانيا قليلة الصبر، ومع أنها تتنازل أحيانًا عندما تواجه أدنى مقاومة، إلّا أنها تكون قادرة على إظهار عناد لا نهاية له عندما يتعلّق الأمر بإصرارها على نيل ما تريد.

قلت لها وأنا أرفعها إلى العربة: «لا بأس... لقد فزتِ هذه المرة!».

سألتني: «فزت بماذا؟».

أجبتها: «لا شيء! هيا يا هيدي. سنذهب».

حملتها عن السياج فصاحت مرة أو مرتين من غير إصرار شديد: «لا، لا أريد»، ثم سرنا فتسلّقنا التل، هيدي على ذراعي، وفانيا في العربة. وفي طريقنا، التقطتُ فأر هيدي القماشي فأزلتُ عنه التراب ووضعته في حقيبة التسوق الشبكية أسفل العربة.

قالت ليندا عندما وصلنا إلى القمة: «لا أدري ما أصابه! بدأ يبكي فجأة. من الممكن أن يكون قد لسعه زنبور أو شيء ما. انظر هنا...».

رفعت كنزته وأرتني علامة حمراء صغيرة. كان يتلوى بين يديها وقد احمر وجهه وبلّل العرق شعره لشدة الصراخ.

قالت: «يا صغيري المسكين!».

قلت: «لقد لسعتني ذبابة خيل. قد يكون هذا ما أصابه. ضعيه في العربة، مع ذلك، ودعينا نذهب. لا نستطيع أن نفعل شيئًا الآن».

بعد أن صار في العربة، بدأ يتقلّب خافضًا رأسه. واستمر في الصراخ.

قلت: «لنذهب إلى السيارة».

أجابت ليندا: «نعم! لكن يجب أن أغيّر حفّاضه أولًا. إن غرفة تغيير الحفّاضات هناك، في الأسفل».

هززت رأسي وبدأنا النزول. مرّت بضع ساعات منذ وصولنا إلى هذا المكان. صارت الشمس أكثر انخفاضًا في السماء. ذكّرني شيء في الضياء الذي ألقته الشمس على الأشجار بأمسيات الصيف في البيت عندما كنّا نذهب بالسيارة إلى آخر الجزيرة مع أبي وأمي لنسبح في البحر، أو نسير نزولًا حتى الهضبة التي عند الخليج، خلف المزرعة. ملأت هذه الذكريات رأسي لحظات قليلة. لم يكن حضورها على هيئة أحداث بعينها، بل جوًا عامًا. وروائح، وأحاسيس. كيف يصير الضياء، الذي كان أكثر بياضًا وحيادية في منتصف النهار، كثيفًا ممتلئًا في فترة بعد الظهر ويجعل الألوان تبدو داكنة أكثر من ذي قبل! أوه... الجري في الدرب التي تخترق الغابة الظليلة في يوم صيفي في السبعينات!... الغوص في الماء المالح والسباحة

حتى جيرستادهولمن على الناحية الأخرى! والشمس تُشعّ على الصخور البحرية الصقيلة فتجعلها ذهبية تقريبًا. والعشب الجاف المتيبّس الذي نما في الفجوات بين تلك الصخور. والإحساس بالأعماق تحت سطح الماء، ذلك السطح الذي يبدو قاتمًا لأنه قابع في الظل تحت المنحدر الجبلي. والأسماك تنزلق عابرة. ثم... ذرى الأشجار الطويلة فوقنا، وأغصانها الرشيقة التي تهتز في النسيم البحري! لحاء الشجرة الرقيق، وجسدها الناعم الذي يشبه ساقًا بارزة من تحت ذلك اللحاء. وأوراق الأشجار الخضراء...

قالت ليندا مشيرة إلى بناء خشبي صغير ثماني الأضلاع: «ها هي. هل ستنتظروننا؟».

أجبتها: «سوف نسير ببطء».

بين الأشجار التي خلف السياج، كان هنالك قزمان منحوتان على الخشب. هكذا كانوا يؤكدون على أن هذا المكان حديقة ألعاب... «أرض الحكايات».

صاحت هيدي: «انظروا! تومبين!».

تومبين، أو «تومتين» في اللغة السويدية السليمة، تعني «قزم».

ظلت تحدّق في القزمين المنحوتين مدة غير قليلة. كانت مسحورة حقًا.

في الربيع الماضي، ظلّت هيدي فترة غير قليلة تشير إلى الشرفة حيث ظهر القزم ليلة عيد الميلاد وتقول: «تومبين آتٍ». وعندما كانت تلعب بهدية من الهدايا التي جاء بها، فإنها تعلن قبل كل شيء عن مصدر هذه الهدية: «تومبين»! إلّا أن تحديد المكانة التي يشغلها القزم لديها لم يكن أمرًا سهلًا لأنها رأت ذات مرة، بعد عيد الميلاد، ملابس القزم في خزانة ثيابي فلم تظهر عليها أي مفاجئة أو أي انزعاج. لم نقل لها شيئًا، لكنها أشارت إلى تلك الملابس وصاحت: «تومبين» كأن هذا هو المكان الذي يغيّر القزم ثيابه فيه عادة! وعندما كنا نصادف المتشرّد العجوز صاحب اللحية البيضاء الذي يتسكع في الساحة قرب بيتنا، كانت تقف في عربتها وتصيح «تومبين»... تصيح بأعلى صوتها.

انحنيت فوقها وقبّلت خدها الممتلئ.

قالت: «لا أريد قبلات!».

ضحكت، وقلت: «هل أستطيع تقبيلكِ أنتِ يا فانيا؟».

قالت فانيا: «لا».

كانت حركة الناس المارين بنا مستمرة، وإن لم يكن عددهم كبيرًا. كان أكثرهم في ملابس الصيف الخفيفة: بنطلونات قصيرة وقمصان من غير أكمام وصنادل. وكان بعضهم في ملابس وأحذية رياضية... فاجأتني بدانة عدد كبير منهم؛ وتقريبًا، لم أجد بينهم من هو حسن الملبس.

صاحت هيدي مبتهجة: «بابا في السجن». استدارت فانيا في عربتها وقالت: «لا، بابا ليس في السجن!».

ضحكتْ من جديد، ثم توقّفت.

قلت لهما: «علينا أن ننتظر ماما هنا».

أبوك في السجن: هذا ما كان الأطفال يقولونه في الحضانة، أحدهم للآخر. فهمت هيدي هذه العبارة على أنها مديح كبير؛ وغالبًا ما كانت تقولها عندما تريد التباهي بي. في آخر عودة لنا من البيت الصيفي، هكذا أخبرتني ليندا، قالت هيدي هذه الكلمات لامرأة متقدمة في السن جالسة خلفهما في الباص. بابا في السجن. لم أكن هناك، بل كنت منتظرًا عند موقف الباص مع جون، فظلت عبارتها معلقة في الهواء... لم يصحّحها أحد.

انحنيت ومسحت العرق عن جبهتي بكم قميصي.

قالت فانيا: «هل أستطيع أن أحصل على بطاقة أخرى يا بابا؟».

أجبتها: «لا! لقد ربحتِ هذه اللعبة».

قالت: «بابا اللطيف... بطاقة أخرى؟».

استدرت فرأيت ليندا آتية إلينا. كان جون جالسًا منتصبًا في عربته. بدا راضيًا تحت قبعته الشمسية.

سألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

«أظن هذا. غسلت البقعة الحمراء بماء بارد. لكنه مرهق، رغم ذلك».

قلت: «هذا يعني أنه سوف ينام في السيارة».

«كم تظن الوقت الآن؟».

«أظنها الثالثة والنصف!».

«هل يعني هذا أننا يجب أن نصل إلى البيت في الثامنة؟».

«في الثامنة تقريبًا».

عبرنا منطقة الألعاب من جديد، ثم اجتزنا سفينة القرصان التي كانت واجهة خشبية بائسة تمتد من خلفها عدة ممرات فيها تماثيل رجال بساق واحدة أو بذراع واحدة وسيوف وعمامات، ومن حولهم حيوانات اللاما وبضع نعامات، ثم مساحة مرصوفة صغيرة فيها أطفال يركبون عربات رباعية العجلات. وأخيرًا وصلنا إلى المدخل حيث كان هناك شيء يشبه مضمارًا للسباق فيه حواجز وبضعة جذوع خشبية، إضافة إلى جدران قصيرة من دعائم خشبية تمتد بينها شِباك. ثم منصة عليها حبال مطّاطية للقفز، وبعدها حلبة ركوب الحمير التي توقّفنا عندها. أخذت ليندا هيدي فحملتْها حتى خط البداية ووضعت خوذة واقية على رأسها في حين بقيتُ واقفًا مع فانيا عند السياج ننظر إليهما، ومعنا جون.

كان في الحلبة في تلك اللحظة أربعة حمير. وكان يقودها أهل الأولاد الراكبين عليها. لا تتجاوز مسافة الدورة في الحلبة ثلاثين مترًا، لكن معظم الحيوانات كان يستغرق زمنًا طويلًا لإكمالها... لأنها كانت حميرًا، لا مُهورًا، ولأن الحمير تتوقّف حيث يَعنّ على بالها التوقف. كان الأهل الذين أسقط في أيديهم يشدون أرسان الحمير بكل قوتهم، لكن تلك الكائنات لم تكن تتحرّك. عبثًا كانوا يربّتون على ظهورها لأن تلك الحمير الملعونة ظلت ترفض الحركة. راح أحد الأطفال يبكي. ظلت المرأة التي تستلم التذاكر تصيح بنصائح موجّهة إلى أهل الأولاد: شدّوا بأقصى ما تستطيعون من قوة! أقوى! شدّوا فقط... هذا لا يزعج الحمار! شدّوا بقوة! هذه هي الطريقة، هذه هي الطريقة الصحيحة!

قلت لفانيا: «هل ترين يا فانيا؟ إن الحمير ترفض أن تتحرّك!».

ضحكت فانيا. وأسعدني أنها سعيدة. لكني كنت، في الوقت نفسه، قلقًا بعض الشيء في ما يتعلق بقدرة ليندا على تدبّر أمرها. لم تكن أكثر صبرًا من فانيا. لكنها نجحت عندما جاء دورها؛ نجحت بكل ثقة بالنفس. كلما توقف الحمار، كانت تستدير وتقف مديرة ظهرها إليه وتصدر صوت اصطفاق من شفتيها. لقد اعتادت ركوب الخيل في صباها. وكانت الخيل تشكل جزءًا غير قليل من حياتها. ولهذا فهي تعرف كيف يجب أن تتصرّف في هذه اللحظات.

كانت هيدي تبتسم ابتسامة عريضة فوق ظهر الحمار. ثم توقف الحمار عن الاستجابة لحيل ليندا، فأمسكت بالرسن وشدته شدًا عنيفًا بحيث لم تترك لصاحبه أي قدرة على المعاندة.

صحت مخاطبًا هيدي: «إنكِ تركبين الحمار بمهارة!» ثم نظرت إلى فانيا وسألتها: «هل تريدين ركوب الحمار أنتِ أيضًا؟».

هزّت فانيا رأسها بحزم، ثم عدّلت وضع نظارتها. لقد بدأت ركوب المهر منذ كان عمرها ثمانية عشر شهرًا. وفي الخريف الذي بلغ فيه عمرها سنتين ونصف السنة، انتقلنا إلى مالمو فبدأت تذهب إلى مدرسة لركوب الخيل. كانت المدرسة في وسط منتزه فولكيتس: صالة ركوب حزينة متواضعة تكسو أرضها نشارة الخشب. لكن ذلك المكان كان تجربة رائعة بالنسبة إلى فانيا. كانت تلاحظ كل شيء وتحب التحدث عن كل شيء رأته عندما ينتهي الدرس. كانت تجلس منتصبة القامة فوق مهرها الحرون فتقوده ليندا، دورة بعد دورة... أو كانت تقوده (عندما يتصادف أن أذهب معها أنا) واحدة من فتيات في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة كان يبدو لي أنهن يمضين حياتهن في ذلك المكان، بينما يسير المدرب في وسط الحلبة وهو يعطيهن تعليماته. لم يكن مهمًا أن فانيا غير قادرة على فهم تلك التعليمات أحيانًا؛ وذلك أن الشيء الرئيسي هو تجربة الوجود مع الخيول وفي البيئة المحيطة بها. الإسطبل، والقطة مع صغارها في القش، والقائمة التي تحدّد من سيركب كل حصان في فترة بعد الظهر، والخوذة

الواقية التي اختارتها، ولحظة دخول الحصان الباحة، ثم الركوب نفسه، وفطيرة القرفة وعصير التفاح عندما تتناولهما في المقهى بعد ذلك. كانت تلك ذروة الأسبوع بالنسبة إليها. لكن الأمور تغيّرت خلال الخريف الذي أعقب ذلك. صار لديهم مدرب جديد؛ وواجهت فانيا، التي كانت تبدو أكبر من سنواتها الأربع، مطالب لم تستطِع تلبيتها. ومع أن ليندا أخبرت ذلك المدرب بحقيقة عمرها، إلّا أن الوضع لم يتحسّن فبدأت فانيا تحتج عندما يأتي وقت الذهاب إلى التدريب. لم تعد تريد الذهاب، لم تعد تريد الذهاب أبدًا. وفي النهاية، توقّفنا عن المحاولة. ظلّت غير راغبة في الركوب حتى عندما رأت هيدي راكبة ذلك الحمار الصغير في الحديقة من غير أن تكون مطالبة بالاستجابة إلى تعليمات أي مدرب.

سجّلناها أيضًا في صالة ألعاب للأطفال حيث يغني الأطفال معًا بعض الأحيان، لكنهم يرسمون أيضًا ويمارسون نشاطات إبداعية أخرى. وفي المرة الثانية لذهابها، كان من المفترض أن يرسموا بيتًا، فلوّنت فانيا العشب باللون الأزرق. ذهبتْ المشرفة على الصالة إليها وقالت لها إن العشب أخضر، وليس أزرق اللون وطلبتْ منها أن تعيد الرسم من جديد! مزّقت فانيا الورقة التي رسمت عليها ثم أظهرت انزعاجها بطريقة جعلت أهالي الأطفال يرفعون حواجبهم ويعتبرون أنفسهم محظوظين لأن لديهم أطفالًا مهذّبين. فانيا عدة أشياء في وقت واحد، لكنها حسّاسة قبل كل شيء. تقلقني حقيقة أن هذه الصفة تتعزّز لديها. كما أن مشاهدتها وهي تكبر تجعلني أغيّر نظرتي إلى مرحلة نموي أنا. ليس هذا بسبب النوعية تحديدًا بل بسبب الكمية... إنه مقدار الوقت الذي تمضيه مع طفلك... وقت غير قليل أبدًا. ساعات كثيرة، وأيام كثيرة، وعدد لا نهائي من المواقف التي تنشأ على نحو مفاجئ، المواقف التي يعيشها الطفل. لا أذكر من طفولتي إلّا عددًا محدودًا من الأحداث التي أعتبر كل واحد منها حدثًا أساسيًا بالغ الأهمية؛ لكني أفهم الآن أنها ليست إلّا أحداثًا معدودة من بين أحداث أكثر عددًا بكثير لم تكن من غير معنى، فكيف أستطيع معرفة أن هذه الحالات بعينها التي ثبتت

في عقلي كانت أحداثًا حاسمة الأهمية وليست تلك الأحداث الأخرى كلها التي لا أذكر الآن شيئًا منها؟

أناقش هذه الأمور مع غيير الذي أتحدّث معه على الهاتف ساعة كل يوم. لقد اعتاد أن يستشهد بسفين ستولبه الذي كتب في مكان ما عن زعم برغمان بأنه كان سيصبح برغمان نفسه بصرف النظر عن مكان نشأته. يعني هذا، بكلمات أخرى، أنك تظل أنت نفسك مهما اختلف محيطك. ما يصوغك هو شكل علاقتك بأسرتك، أكثر من الأسرة نفسها. علّموني عندما كنت أكبر أن أبحث عن تفسير للخصال البشرية كلها، ولأفعال البشر وللظواهر الموجودة في المحيط الذي نشأوا فيه. ليست المُحددات العضوية أو الجينية، أي الأشياء المعطاة مسبقًا، خيارًا بالنسبة إلينا. وحتى عندما تكون خيارًا فإنها ليست أشياء مؤكدة تمامًا لأنها تظل موضع ريبة. من الممكن أن تبدو وجهة النظر هذه إنسانوية للوهلة الأولى، وذلك بالنظر إلى أنها على ارتباط حميم بفكرة أن الناس متساوون جميعًا؛ أما عند النظر بشكل أدق، فإن من الممكن تمامًا أن تكون تعبيرًا عن نظرة ميكانيكية إلى الإنسان الذي يُولد فارغًا ثم يترك حياته تتشكّل بفعل محيطه. لقد تمسّكتُ زمنًا طويلًا بموقف نظري من هذا الأمر، وهو في الواقع موقف أصولي يمكن استخدامه نقطة انطلاق إلى أي مناقشة إذا كانت البيئة مثلًا هي العامل الفعّال، وإذا كان البشر، منذ البداية، متساوين وقابلين للتشكيل بحيث يمكن أن يُصاغ الإنسان الجيد من خلال هندسة محيطه، فإن هذا يستتبع أن إيمان جيل أبي وأمي بالدولة والنظام التعليمي والسياسة هو ما أنتج رغبته في رفض كل ما كان من قبل (أي أن هذه حقيقة جديدة عندهم لا يمكن العثور عليها في جوهر الإنسان الداخلي وفي فرادته المنفصلة عن غيره، بل على العكس تمامًا، لأنها واقعة في مناطق خارج ذاته الأصيلة، واقعة في ما هو عام وجمعي. ولعلنا نجد أوضح تعبير عن هذا لدى داغ سونستاد الذي كان دائمًا مؤرّخًا لزمانه، في نص كتبه سنة 1969 احتوى على عبارته الشهيرة «لا نستطيع إعطاء فنجان القهوة أجنحة»: فلنخرج من الروحانيات، فلنخرج من المشاعر، ولنعتمد

المادية الجديدة!). لكنهم لم ينتبهوا أبدًا إلى أن هذا الموقف نفسه يمكن أن يكون منطلقًا لهدم أجزاء المدينة القديمة من أجل إقامة طرق وساحات لإيقاف السيارات. وهذا ما كان اليسار المثقف يعارضه طبعًا. لعل إدراك ذلك ما كان ممكنًا قبل الآن، قبل أن تصير الصلة بين المساواة والرأسمالية، بين دولة الرخاء والليبرالية، بين المادية الماركسية والمجتمع الاستهلاكي، صلة واضحة؛ وذلك لأن المال هو الخالق الأكبر للمساواة... إنه يُسوّي الاختلافات كلها! وإذا كان مصيرك وشخصيتك كيانين تشكلهما بنفسك، فإن المال هو العامل المُشكِّلُ الأكثرُ طبيعيةً. يسمح هذا ببروز تلك الظاهرة الساحرة حيث تؤكد حشود من الناس على فردانيتها وأصالتها من خلال التسوق بطريقة واحدة، في حين يقف من أطلقوا هذا كله من خلال إصرارهم وتأكيدهم على القيم المادية والإيمان بالتغيير فيهاجمون ما صنعته أيديهم مقتنعين بأنه من صنع العدو. لكن، وعلى غرار كل مناقشة منطقية بسيطة، فإن هذا أيضًا لا يمثل الحقيقة تمثيلًا كاملًا لأن الحياة ليست معادلة رياضية، ولأنه ما من نظرية للحياة... إنها ممارسة فقط. ورغم شدة إغراء أن نفهم رغبة جيل كامل في إعادة نظر جذرية في المجتمع انطلاقًا من نظرته إلى العلاقة بين الوراثة والبيئة المحيطة، فإن هذا الإغراء إغراء أدبي ناشئ في أكثره عن مَسرّة التفكير التأملي، أي عن نسج المرء أفكارَه عبر ميادين النشاط البشري الأكثر تنوعًا... إنها ليست مسرة الجَهر بالحقيقة. السماء واطئة في كتب سونستاد، حيث يظهر وعي لا يصدِّق بتيارات الأزمنة الحديثة، من الإحساس بالاغتراب في الستينيات إلى الاحتفاء بالمبادرات السياسية أوائل السبعينيات ثم إلى المضي حتى نهاية الشوط آخر الأمر، تمامًا عندما بدأت رياح التغيير تهب. لا شيء يدعو إلى أن تكون هذه النغمة شبه العبثية نقطة ضعف أو نقطة قوة عند الكاتب، بل هي ببساطة جزء من مادته، جزء من توجهه؛ وفي حالة سونستاد، فإن السمة الأكثر أهمية كانت دائمًا موجودة في مكان آخر: إنها لغته التي تتألّق ببهائها الجديد الذي يبدو قديم الطراز، لغة تتقد حماسة وتشع ألقًا فريدًا لا سبيل إلى تقليده. لا يمكن

تعلم هذه اللغة، ولا يمكن شراؤها بالمال! وهنا تكمن قيمتها. ليس الأمر مسألة ما إذا كنا نُولد متساوين ثم تجعل ظروف العيش حيواتنا غير متساوية؛ الأمر على العكس تمامًا: إننا نُولد غير متساوين، ثم تأتي شروط عيشنا فتجعل شروط حيواتنا أكثر تساويًا.

عندما أفكر في أطفالي الثلاثة، فإن وجوههم المميزة ليست وحدها التي تظهر أمامي، بل يظهر أيضًا ذلك الإحساس المتميز الذي يُشعّ من كل واحد منهم. هذا الإحساس، الذي هو إحساس ثابت لا يتغيّر، هو ما «هُم» بالنسبة لي. وقد كان ما «هم» موجودًا في كل منهم منذ أول يوم أراه فيه. ما كان الواحد منهم في ذلك الوقت يستطيع أن يفعل شيئًا تقريبًا. والشيء الذي كان قادرًا عليه، كالرضاعة أو رفع ذراعيه بحركة انعكاسية والنظر إلى ما يحيط به وتقليد حركات الآخرين... كانوا كلهم قادرين على فعله... كان كل منهم يفعل الأشياء نفسها، وبالتالي فإن ما «هم» لا علاقة له بخصائصهم أو صفاتهم، ولا علاقة له بما يستطيعون أو لا يستطيعون فعله، بل هو أميل إلى أن يكون الضوء الذي يتألّق فيهم.

لم تتغيّر أيضًا سمات شخصياتهم التي بدأت تفصح عن نفسها ببطء بعد بضعة أسابيع فقط. وقد كان كل منهم مختلفًا، في داخله، إلى حدٍّ يجعل من الصعب علي أن أتخيّل أن شروط العيش التي وفّرناها لهم (من خلال سلوكنا ونمط وجودنا) كان لها أي تأثير حاسم الأهمية. إن طبع جون معتدل، ودّي. وهو يحب شقيقتيه، ويحب الطائرات والقطارات والباصات. أما هيدي فهي منفتحة، منطلقة، تتكلم مع كل من تلقاه؛ وهي شغوفة بالأحذية والملابس، ولا تحب أن ترتدي شيئًا غير الفساتين؛ ثم إنها مرتاحة تمامًا في ما يتعلّق بجسدها الصغير... وقفت ذات مرة عارية أمام مرآة حوض السباحة وقالت للبيندا: «ماما! انظري إلى هذه المؤخرة اللطيفة التي عندي!» وهي تكره أن يوبّخها أحد: إذا رفعت صوتك عليها فإنها تشيح بوجهها وتبدأ البكاء. وأما فانيا، فهي تعطي بقدر ما تأخذ، وهي صاحبة مزاج خاص تمامًا وإرادة قوية، ثم إنها حسّاسة تندمج مع الناس بسهولة. لديها ذاكرة جيدة، وهي تحفظ

معظم القصص التي قرأناها لها، إضافة إلى أجزاء كثيرة من حوارات الأفلام التي شاهدناها. لديها أيضًا حس الدعابة، وهي تجعلنا نضحك دائمًا عندما نكون في البيت. أما عند وجودنا في الخارج، فهي سهلة التأثر بما يجري حولها. وإذا كان الوضع جديدًا عليها تمامًا، أو غير مألوف، فإنها تختبئ في قوقعتها. بدأ ظهور خجلها وانكفائها عندما كان عمرها سبعة شهور تقريبًا لأنها صارت تغمض عينيها كأنها نائمة عندما يقترب شخص غريب. تغمض عينيها فحسب... كأنها نائمة. لا تزال تفعل هذا في مناسبات نادرة: إذا كانت جالسة في السيارة ومررنا بواحد من أهل الأطفال الذين معها في الحضانة مثلًا، فإن عينيها تغمضان فجأة. بعد بداية متعثّرة متردّدة في تلك الحضانة في ستوكهولم (كانت قبالة شقتنا تمامًا)، صارت فانيا على صلة متينة بصبي في سنها اسمه ألكسندر. راحا يثيران الشغب ويعبثان بتجهيزات ملعب الأطفال إلى حد جعل العاملين يقولون إنهم مضطرون إلى حماية ألكسندر منها لأنه يعجز أحيانًا عن مجاراة قوّتها. لكنه كان يُشرِقُ كله عندما تأتي، ويحزن عندما تذهب. صارت تفضّل اللعب مع الأولاد منذ ذلك الوقت. هنالك شيء في انطلاقهم وتركيبهم الجسدي من الواضح أنها في حاجة إليه... ربما لأنه غير معقد، ولأنه يمنحها بسهولة إحساسًا بالسيطرة.

عندما انتقلنا إلى مالمو، ذهبت فانيا إلى حضانة جديدة قرب ميناء فاسترا في الجزء حديث البناء من المدينة حيث يعيش معظم الموسرين. وبما أن هيدي صغيرة جدًا، فقد كان عليّ أن أتولى مسؤولية إيصال فانيا إلى الحضانة. كنّا نذهب بالدرّاجة كل صباح فنجتاز المدينة ونمر بأحواض بناء السفن القديمة ونتّجه صوب البحر، فانيا بخوذتها الواقية الصغيرة على رأسها تلف ذراعيها على وسطي، وأنا أقود الدراجة النسائية التي كان مقاسها صغيرًا بحيث ترتفع ركبتاي حتى مستوى بطني عند قيادتها. كنت أذهب سعيدًا، مبتهجًا، لأن كل شيء في المدينة لا يزال جديدًا عليّ ولم تشبع عيناي بعدُ من تغيرات الضوء في السماء كل صباح وكل بعد ظُهر. كانت فانيا تقول لي كل صباح، مع الدموع المعتادة، إنها لا تريد الذهاب

إلى الحضانة، فأقول في نفسي إن هذه ليست أكثر من مرحلة انتقالية وإنها ستحب حضانة الأطفال بعد حين... ستحبها بالطبع! لكننا كنا نصل فترفض الخروج من حضني مهما يكن الجهد التي تبذله في إقناعها الشابات الثلاث اللواتي يعملن هناك. كنت أظن أن من الأفضل أن أرميها إليهن وأذهب، أن أتركها تتدبّر أمرها بنفسها؛ لكن الشابات الثلاث، وليندا أيضًا، لم يكنّ ليقبلن بهذه القسوة. وهكذا كنت أجلس على كرسي في زاوية الغرفة وتجلس فانيا في حضني، ويحيط بنا أطفال يلعبون بينما تشع الشمس في الخارج رغم أن الطقس يتحوّل تدريجيًا إلى طقس خريفي مع مرور الأيام. وفي الاستراحة المخصّصة لتناول بعض المأكولات الخفيفة المكوّنة من شرائح التفاح والإجاص، كانت فانيا تقبل المشاركة بشرط أن نجلس على مسافة عشرة أمتار من الآخرين. وعندما أوافق على ذلك وتعلو وجهي ابتسامة اعتذار، لم أكن أشعر بأي دهشة أو مفاجأة نتيجة سلوكها لأن هذه طريقتي أنا أيضًا في الصلة مع الناس الآخرين: كيف تمكنتْ، هي التي لم تتجاوز السنتين ونصف السنة من عمرها، من التقاط هذا الطبع مني؟ من الطبيعي أن الشابات العاملات هناك تمكنَّ آخر الأمر من إغرائها وجعلها تبتعد عني فصرت قادرًا على ركوب دراجتي والعودة لإنجاز بعض الكتابة بينما تذرف فانيا دموعًا حارة بعد ذهابي. وبعد مرور شهر، صرت أوصلها وأعود لأخذها بشكل طبيعي. لكنها استمرت تقول في بعض الصباحات إنها لا تريد الذهاب؛ وظلت تبكي من حين لآخر. لم نتردّد أبدًا عندما اتصلوا بنا من حضانة أطفال قريبة من بيتنا وأخبرونا بأن لديهم مكان شاغر لفانيا. كان اسم حضانة الأطفال هذه «لود جوريت»، وكانت تُدار بشكل تعاوني بين أهالي الأطفال. يعني هذا أن على أهل كل طفل أن يُقدموا أسبوعي عمل كل سنة من أجل رعاية الأطفال، بالإضافة إلى القيام بهذه أو تلك من المهام الإدارية أو العملية. لم تكن لدينا فكرة عن مقدار ما ستأكله حضانة الأطفال هذه من حياتنا. تحدثنا فقط عن المكتسبات التي تحققها لنا: سوف نتعرّف على زملاء فانيا من خلال القيام بنصيبنا من العمل هنا، ومن خلال الاجتماعات

أيضًا؛ وستتعرّف على أهلهم أيضًا. وقد قيل لنا إن من الطبيعي أن يذهب الأطفال إلى بيوت رفاقهم بحيث تكون لنا فرصة لنيل استراحة عندما نكون في حاجة إليها. فوق هذا (لعل هذه كانت الحجة الأكثر أهمية)، فإننا لم نكن نعرف أحدًا في مالمو، لا نعرف أحدًا على الإطلاق؛ وكانت تلك طريقة سهلة للتعرّف على الناس. كان هذا صحيحًا لأننا دُعينا بعد أسبوعين إلى حفلة عيد ميلاد إحدى الطفلات. كانت فانيا توّاقة حقًا إلى الذهاب إلى تلك الحفلة، وخاصة لأننا كنا قد اشترينا لها حذاءً ذهبيًا للحفلات حتى ترتديه عند ذهابها؛ لكن كان من المفهوم تمامًا أنها غير راغبة في الذهاب أيضًا لأن معرفتها بالآخرين لا تزال قريبة العهد. وُضِعت الدعوة على رف في حضانة الأطفال بعد ظهر يوم الجمعة، وكانت الحفلة بعد أسبوع من ذلك، يوم السبت. وفي كل صباح من ذلك الأسبوع، كانت فانيا تسأل إن كانت حفلة ستيلا ستُقام اليوم. وعندما نجيبها بالنفي تسألنا إن كانت ستُقام بعد غد: كان ذلك أبعد أفق زمني في المستقبل بالنسبة إليها. وفي الصباح الذي صرنا عنده قادرين على أن نقول لها «نعم إننا ذاهبون إلى ستيلا اليوم» قفزت من سريرها وانطلقت إلى الخزانة لتضع حذاءها الذهبي. كانت تسألنا مرتين في الساعة الواحدة إن كان وقت الذهاب قد اقترب. لعل ذلك الصباح كان يمكن أن يكون صباحًا لا يُطاق من الإلحاح ونوبات الغضب، لكن كانت هنالك نشاطات لإشغالها، لحسن الحظ. أخذتها ليندا إلى المكتبة لشراء هدية من أجل صديقتها؛ وبعد ذلك جلستا إلى طاولة المطبخ وصنعتا بطاقة عيد ميلاد من أجلها. حمّمنا البنتين، ومشّطنا شعرَيهما، وألبسناهما فستاني الحفلة مع جوارب بيضاء. ثم تغيّر مزاج فانيا فجأة، لم تعد راغبة في ارتداء الجوارب والفستان، ولم تعد تريد الذهاب إلى الحفلة، ورمت بحذائها الذهبي إلى الجدار. لكننا نجحنا في جعلها ترتدي ثيابها بعد جلوسنا صابرين بضع دقائق حتى انتهت نوبة الغضب؛ وجعلناها أيضًا تضع الشال الأبيض المحبوك التي جاءها هدية في يوم تعميد هيدي. ومن جديد، صارت البنتان متلهفتين إلى الذهاب بعد أن جلستا في العربة التي دفعناها

أمامنا. كانت فانيا هادئة جادة تحمل حذاءها الذهبي في إحدى يديها والهدية في اليد الأخرى. وكانت ابتسامة تظهر على شفتيها كلما استدارت لتقول لنا شيئًا. جلست هيدي إلى جانبها، سعيدة مستثارة، فرغم أنها لم تكن تدرك إلى أين نحن ذاهبون، إلّا أن الملابس والاستعدادات قد أوحت لها بأن هنالك شيئًا غير مألوف على وشك الحدوث. كانت الشقة التي تُقام الحفلة فيها على مسافة بضع مئات من الأمتار من بيتنا وفي شارعنا نفسه. كان الشارع مليئًا بالنشاط والحركة اللذان يميّزان أمسيات يوم السبت: آخر المتسوّقين بحمولاتهم الثقيلة، والمراهقون القادمون إلى مركز المدينة للتسكع بين برغركينغ وماكدونالدز، وتيار لا ينقطع من السيارات العابرة على غير النمط المألوف في أيام العمل... سيارات داخلة إلى مواقف السيارات متعدّدة الطوابق، وأخرى خارجة منها. في هذه الأيام، صارت هنالك أعداد أكبر من السيارات الواطئة اللامعة السوداء التي تهتز هياكلها بفعل الموسيقى الصاخبة والتي يقودها مهاجرون رجال في العشرينيات. كان الازدحام كبيرًا أمام السوبر ماركت فاضطررنا إلى التوقف لحظة. كانت هناك أيضًا السيدة النحيلة حكيمة المظهر التي تجلس عادة في كرسيها ذي العجلات في هذا الوقت من النهار. عندما رأت تلك المرأة هيدي وفانيا انحنت صوبهما وقرعت جرسًا محمولًا على عصا، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة من المؤكد أنها أرادتها ودية، لكن من المؤكد أيضًا أنها كانت مفزعة للبنتين. لكنهما لم تقولا شيئًا... نظرتا إليها فحسب! وإلى الناحية الأخرى من المدخل، كان مدمن مخدرات في سني تقريبًا جالسًا وفي يده الممدودة قبعة قماشية. كانت إلى جانبه قطة في قفص، وعندما رأتها فانيا استدارت إلينا قائلة: «أريد قطة عندما ننتقل إلى الريف».

قالت هيدي مشيرة إلى القفص: «قطة!».

دفعتُ العربة خارج الرصيف وسرت بها في الشارع حتى أتجاوز ثلاثة أشخاص يمشون ببطء مقيت؛ لعلهم يظنون أنهم يملكون هذا الرصيف! سرت بضعة أمتار بأسرع ما استطعت حتى تجاوزتهم وعدت بالعربة إلى الرصيف.

قلت: «قد يطول انتظارك كثيرًا يا فانيا، هل تعرفين هذا؟».
قالت لي: «لا يمكن الاحتفاظ بقطة في شقة».
قالت ليندا: «هذا صحيح تمامًا».
عادت فانيا تنظر إلى الأمام. كانت تشد بيدها على الكيس الذي يحتوي على الهدية.
نظرت إلى ليندا: «ماذا كان اسم ذلك الرجل، والد ستيلا؟».
قالت: «لا أستطيع التذكر... أوه، إنه إيريك، أليس كذلك؟».
أجبتها: «هذا صحيح. وما عمله؟».
قالت: «لست واثقة... شيء له علاقة بالتصميم».
مررنا بمحلات غوتروفان فانحنت فانيا وهيدي إلى الأمام حتى تنظرا إلى الواجهة. كان بعده متجر للرهونات. وكانت في المحل التالي تشكيلة من الحلي والتماثيل الصغيرة... تماثيل ملائكة، وتماثيل بوذا، إضافة إلى البخور والشاي والصابون وغير ذلك من توافه «الزمن الجديد». كان في واجهة المحل أيضًا ملصقات فيها معلومات عن مواعيد قدوم كبار معلمي اليوغا ومشاهير العرّافين إلى المدينة. محلات على الجهة الأخرى من الشارع أيضًا: محل يبيع ماركات الملابس الرخيصة، «ريتشو جينز آند كولدينغ»، كان مكتوبًا عليه «أزياء للأسرة كلها». وإلى جانبه محل اسمه «تابو»: نوع من المتاجر الجنسية يغري المارة بأدوات الجنس وبدُمى نسائية في مشدات وملابس داخلية مثيرة معروضة في الواجهة عند الباب بشكل يجعلها غير ظاهرة كثيرًا في اتجاه الشارع. ومن بعده محل «حقائب وقبعات بيرغمان» الذي أظن أن محتوياته لم تتغيّر منذ تأسيسه في الأربعينيات، وبعده «راديو سيتي» الذي أفلس لكنه لا يزال يعرض واجهة مليئة بشاشات التلفزيون المضاءة تحيط بها مجموعة واسعة من السلع الكهربائية التي كتبت أسعارها على بطاقات كبيرة برتقالية وخضراء تكاد تكون مضيئة. كانت القاعدة هنا أنك كلما تقدمت في هذا الشارع صارت المحلات أرخص وأكثر إثارة للريبة. يسري الأمر نفسه أيضًا على الناس الذين يرتادون المنطقة. فعلى

العكس من ستوكهولم، حيث كنا نعيش في مركزها أيضًا، يمكنك أن ترى الفقر والبؤس في الشوارع هنا. أعجبني هذا!

قالت ليندا وهي تتوقّف عند أحد الأبواب: «إنه هنا!».

بعد المدخل بمسافة بسيطة، كانت هنالك صالة ألعاب بينغو وقفت ثلاث نساء في الخمسينيات يدخنّ أمامها. فتشت عينا ليندا في قائمة الأسماء إلى جانب الإنترفون، ثم ضغطت على أحد الأرقام. هدر باصان مرّا في الشارع، الواحد بعد الآخر. وبعد ذلك صدر عن الباب أزيز وانفتح فعبرناه إلى مدخل البناية المظلم حيث وضعنا العربة عند الجدار وصعدنا السلم إلى الشقة الواقعة في الطابق الثاني. كنت أحمل هيدي بين ذراعي، أما ليندا فكانت ممسكة بيد فانيا. كان الباب مفتوحًا عندما وصلنا، وكان داخل الشقة مظلمًا بعض الشيء أيضًا. أحسست بنوع من الانزعاج عندما عبرت ذلك الباب. كنت أفضّل قرع الجرس لأن هذا يجعل وصولنا أكثر وضوحًا. أما طريقة دخولنا هذا، فقد جعلتنا نقف في تلك الصالة من غير أن نجد أحدًا يعيرنا أدنى اهتمام.

أنزلتُ هيدي ونزعت عنها سترتها. كانت ليندا موشكة على فعل الشيء نفسه مع فانيا، لكن فانيا اعترضت وقالت إنها يجب أن تخلع حذاءها أولًا حتى تستطيع ارتداء الحذاء الذهبي.

كانت هنالك غرفتان إلى جانبي تلك الصالة. أطفال يلعبون بصخب في الغرفة الأولى، وفي الغرفة الثانية أشخاص كبار واقفون هنا وهناك، يتحدّثون. وفي آخر الصالة الممتدة داخل الشقة، رأيت إيريك واقفًا وظهره في اتجاهي. كان يتحدث مع واحد من الآباء وواحدة من الأمهات في حضانة الأطفال.

قلت: «مرحبًا».

لم يستدر.

وضعت سترة هيدي فوق معطف ملقى فوق إحدى الكراسي، ثم نظرت إلى ليندا. كانت تبحث عن مكان تعلق فيه سترة فانيا.

قلت لها: «هل ندخل الآن؟».
طوّقت هيدي ساقي بذراعيها فحملتها وسرت بضع خطوات إلى الأمام. التفت إيريك.
قال: «مرحبًا».
أجبته: «مرحبًا!».
انحنى: «مرحبًا يا فانيا!».
أشاحت فانيا بوجهها عنه.
سألتها: «ألن تقدّمي الهدية إلى ستيلا؟».
قال إيريك: «يا ستيلا! فانيا هنا!».
قالت فانيا: «أعطها الهدية أنت».
نهضت ستيلا، كانت ضمن مجموعة من الأطفال الجالسين على الأرض. ابتسمت.
قلت لها: «عيد ميلاد سعيد! لقد أحضرت لكِ فانيا هدية».
نظرت إلى فانيا: «ألا تريدين تقديم هديتكِ؟».
قالت بصوت منخفض: «أعطِها الهدية أنت».
أخذت الهدية وقدمتها إلى ستيلا قائلًا: «هذه هدية من فانيا وهيدي».
قالت لي: «شكرًا!» ثم مزّقت الغلاف الورقي. عندما رأت الكتاب، وضعته على الطاولة إلى جانب بقية الهدايا وعادت إلى الأطفال الذين كانت جالسة معهم.
قال إيريك: «هل أنتم بخير؟ هل كل شيء على ما يرام؟».
أجبته: «نعم، نحن بخير». أحسست بأن قميصي ملتصق بصدري. سألت نفسي: هل هذا ظاهر للآخرين؟
قالت ليندا: «يا لها من شقة لطيفة، هل لديكم ثلاث غرفة نوم؟».
قال إيريك: «نعم».
كان يبدو لي دائمًا شخصًا في غاية السخف. يبدو دائمًا كأن في نفسه شيء تجاه الشخص الذي يحدثه. من الصعب أن تستطيع تحديد وضعك

بالنسبة إليه... تلك الابتسامة النصفية الملتبسة، نصف الابتسامة التي يمكن أن تكون متهكّمة أو ودية أو متردّدة! لو كانت له شخصية واضحة أو قوية، فمن الممكن أن تكون تلك الابتسامة مزعجة لي. لكنه كان شخصًا متردّدًا بطريقة مهتزة خفيفة العقل، وما كان لأي شيء يمكنه التفكير فيه أن يقلقني على الإطلاق. كان اهتمامي منصبًا على فانيا، لأنها وقفت بالقرب من ليندا وعيناها مسدلتان إلى الأرض.

قال إيريك: «الآخرون في المطبخ. هنالك بعض النبيذ إذا أحببت أن تشرب كأسًا».

كانت هيدي قد دخلت غرفة الأطفال. وقفتْ أمام الرف وهي تحمل حلزونًا خشبيًا في يدها. كانت للحلزون عجلات وخيط يمكن جره منه.

حييتُ الرجل والمرأة الواقفين مع إيريك في الصالة بهزة من رأسي، ثم قلت لهما: «مرحبًا».

هذا الرجل، ما اسمه؟ يوهان؟ أو لعله جاكوب؟ وما اسمها؟ هل اسمها ميا؟ أوه، إلى الجحيم. نعم، بالطبع، اسمه روبين. هذا هو اسمه.

قلت له: «مرحبًا».

أجابني: «مرحبًا، كيف حالك؟».

«بخير، وكيف حالكما؟».

«كل شيء بخير، شكرًا لك».

ابتسمت لهما فابتسما لي. تركتْ فانيا أمها ودخلتْ الغرفة مترددة حيث كان الأطفال يلعبون. وقفت تنظر إليهم بعض الوقت. ثم بدا عليها أنها قررت أن تدخل دائرتهم.

قالت لهم: «لديّ حذاء ذهبي!».

انحنت وخلعت حذاءها ثم رفعته في الهواء... إن أراد أحدٌ أن يراه. لكن أحدًا لم ينظر إلى الحذاء. عندما أدركت ذلك، عادت فارتدت حذاءها.

قلت لها: «ألا تريدين اللعب مع هؤلاء الأطفال؟ هل ترين هذا؟ إن لديهم بيت دمى كبير».

ذهبتْ إليهم، وجلست إلى جانبهم، لكنها لم تفعل شيئًا. جلست تنظر إليهم فقط.

حملت ليندا هيدي وأخذتها إلى المطبخ فلحقتُ بهما. رحّب بنا الجميع، فحييناهم وجلسنا إلى الطاولة الطويلة. جلستُ قريبًا من النافذة. كانوا يتحدّثون عن تذاكر الطيران الرخيصة وكيف تبدأ من أسعار برخص التراب ثم تصير أغلى ثمنًا، شيئًا فشيئًا، لأنك تضطر إلى دفع رسم إضافي بعد الآخر إلى أن تجد نفسك وقد دفعت من أجل تلك البطاقة ما تدفعه ثمنًا لبطاقة مماثلة في أغلى شركات الطيران. ثم تحوّل الحديث إلى مسألة قيام الدول بشراء حصص الانبعاثات الضارة، وبعد ذلك انتقل إلى رحلات القطار المستأجرة التي ظهرت مؤخرًا. من المؤكد أنني كنت قادرًا على الإدلاء بدلوي وإبداء رأيي في هذه الأمور، لكني لم أفعل ذلك لأن تلك الأحاديث الصغيرة ليست من بين المواهب القليلة التي أمتلكها. وهكذا جلست أشارك في الحديث بهز رأسي، كالمعتاد، والابتسام عندما يبتسم الآخرون، لكني كنت راغبًا كثيرًا في أن أكون على مسافة أميال منهم. كانت فريدًا، والدة ستيلا، واقفة أمام طاولة العمل في المطبخ، وكانت تعدّ نوعًا ما من صلصة السلطة. لم تعد تعيش مع إيريك؛ ورغم أنهما يتعاونان جيدًا في ما يتعلّق بستيلا، فإن المرء يلاحظ أحيانًا ذلك التوتر والانزعاج بينهما في اجتماعات لجنة الأهالي في حضانة الأطفال. كانت امرأة شقراء لها وجنتان مرتفعان وعينان ضيقتان وجسد طويل رشيق. كان ذوقها في الملابس جيدًا، لكنها شديدة الانشغال بنفسها... امرأة تهتم بنفسها إلى حد يجعلني غير قادر على اعتبارها امرأة جذّابة. ليست عندي مشكلة في الأشخاص غير الأصيلين، أو الذين لا يثيرون اهتمامًا، فقد تكون لديهم خصال أخرى أكثر أهمية، كالدفء، أو الاهتمام بالآخرين، أو اللطف، أو حس الدعابة أو مواهب أخرى من قبيل القدرة على جعل الحديث يجري بحيث يخلق جوًا مريحًا من حولهم أو القدرة على جعل حياتهم العائلية ناجحة. لكني أحس ما يكاد يكون ألمًا جسديًا عندما أكون مع أشخاص مملين يظنون أنهم يثيرون اهتمام الآخرين... يزعجني تشدقهم بإعجاب عن أنفسهم.

وضعت فريدا الطبق الذي يحتوي على ما ظننته صلصة من أجل السلطة في صينية إلى جانب أطباق فيها أصابع من الجزر والخيار. اتضح أنه شيء يؤكل عن طريق غمس هذه الأصابع فيه. وفي تلك اللحظة، جاءت فانيا إلى الغرفة. وعندما رأتنا أتت إلينا ووقفت بالقرب منا.

قالت لنا: «أريد أن أعود إلى البيت».

قلت لها: «أتينا منذ وقت قصير فقط!».

قالت ليندا: «سوف نبقى هنا بعض الوقت. ثم انظري... سوف تُقدم إليكم الآن مأكولات لذيذة!».

هل كانت تقصد تلك الخضار في الصينية؟

لا بد أنها تقصد ذلك. إنهم مجانين في هذا البلد!

قلت لفانيا: «سأذهب معك، هيا».

سألتني ليندا: «هل ستأخذ هيدي أيضًا؟».

أومأت برأسي، ثم حملتها إلى الغرفة وفانيا تسير خلفي مباشرة. كان الأطفال يلعبون في تلك الغرفة. أتت من خلفنا فريدا حاملة صينيتها فوضعتها على طاولة صغيرة في الوسط.

قالت: «ها هو شيء للأكل قبل أن تصل الحلوى».

تابع الأطفال اللعب ببيت الدمى. كانوا ثلاث بنات وصبي. كان طفلان يجريان في تلك الغرفة. وأيضًا كان إيريك في الغرفة واقفًا عند جهاز الستيريو حاملًا قرصًا مدمجًا في يده.

قال لي: «لدي شيء من أغاني الجاز النرويجية هنا. هل أنت من المهتمين بالجاز؟».

قلت: «لا بأس!».

قال: «إن في النرويج فرق جاز ممتازة».

سألته: «لأي فرقة هذا الألبوم الذي معك؟».

جعلني أرى الغلاف. إنه لفرقة لم أسمع باسمها من قبل.

قلت له: «عظيم».

كانت فانيا واقفة خلف هيدي. تحاول حملها. أما هيدي فكانت تحتج.

قلت لها: «إنها لا تريد يا فانيا. اتركيها!».

لكنها تابعت محاولاتها، فذهبت إليهما.

سألتهما: «ألا تريدان أن تأكلا الجزر؟».

قالت فانيا: «لا».

قلت: «لكن هناك شيئًا لتغميس الجزر به». ذهبتُ إلى الطاولة وتناولت إصبعًا من أصابع الجزر وغمسته بتلك المادة البيضاء التي تشبه الكريما. وضعت إصبع الجزر في فمي وقلت: «ممم، إنه لذيذ!».

لماذا لا يقدمون للأطفال النقانق أو الآيس كريم أو المياه الغازية؟ لماذا لا يعطونهم مصّاصات؟ أو جيلو؟ حلوى بالشوكولا، مثلًا؟

أي بلد معتوه هذا! تشرب الشابات كلهن كميات كبيرة من الماء. يشربن حتى يكاد الماء يخرج من آذانهن لأنهن يعتقدن أنه «مفيد» و«صحي». لكن مفعول ذلك الإكثار من الماء منحصر في الزيادة الصاروخية لأعداد الناس المصابين بالسلس البولي. ويأكل الأطفال معجَّنات مصنوعة من القمح الكامل، وخبزًا من القمح الكامل، ومختلف أنواع الأرز العجيبة المطحونة طحنًا خشنًا إلى حد يجعل معداتهم غير قادرة على الهضم السليم. لكن لا أهمية لهذا كله لأنه طعام «مفيد»، ولأنه «صحي»... إنه من «الحبوب الكاملة». أوه، إنهم يخلطون بين الطعام والعقل ويظنون أنهم يستطيعون أن يأكلوا بطريقة تجعلهم بشرًا جيدين من غير أن يفهموا أن الطعام شيء والأفكار التي يخلقها هذا الطعام شيء آخر. وإذا قلت لهم هذا، إذا قلت أي شيء من هذا القبيل، فإما أن تكون شخصًا رجعيًا، أو أنك مجرد «نرويجي»! بكلمات أخرى، أنت متخلّف عنهم عشر سنين.

قالت فانيا: «لا أريد الجزر. لست جائعة».

قلت لها: «لا بأس، لا بأس! هل رأيتِ هذا؟ إنه قطار! هل نقوم بتركيبه معًا؟».

وافقتْ، فجلسنا خلف الأطفال الآخرين. بدأتُ تركيب سكة القطار على

شكل قوس ورحت أعلّم فانيا كيف تركب تلك القطع معًا. كانت هيدي قد ذهبت إلى الغرفة الأخرى حيث سارت مقابل خزانة الكتب تنظر إلى كل شيء فيها. وكلما ازداد ضجيج الطفلين اللذين يلعبان في تلك الغرفة تستدير صوبهما وتنظر إليهما غاضبة.

وضع إيريك أخيرًا القرص المدمج في الجهاز ورفع الصوت. بيانو، وغيتار، وعدد كبير من الآلات الإيقاعية التي يعشقها كثير من عازفي الجاز: ذلك النوع من العازفين الذين يقرعون حجرين معًا أو يستخدمون أي مواد يتصادف وجودها تحت أيديهم. في نظري، لا يعني هذا أي شيء أحيانًا، وأجده سخفًا في أحيان أخرى. أكره تصفيق الجمهور في حفلات الجاز!

كان إيريك يهز رأسه مع الموسيقى. ثم استدار صوبي وغمز بعينه وذهب إلى المطبخ. قُرع جرس الباب في تلك اللحظة. كان ذلك لينوس مع ابنه أخيلس. كان أثر التبغ الرطب ظاهرًا تحت شفة لينوس العليا، وكان مرتديًا بنطلونًا أسود ومعطفًا قاتمًا مع قميص أبيض من تحته. رأيت شعره الأشقر مشعثًا بعض الشيء، أما عيناه اللتان راحتا تنظران في الشقة، فكانتا صادقتين، ساذجتين.

قال لي: «مرحبًا، كيف حالك؟».

أجبته: «لا بأس، ماذا عنك أنت؟».

«أنا بخير، نعم، أمارس رياضة الجري وحدي».

خلع أخيلس سترته وحذاءه. كان ولدًا صغير الحجم له عينان واسعتان داكنتان. راح ينظر إلى الأطفال الذين خلفي. الأطفال يشبهون الكلاب: إنهم يستطيعون دائمًا العثور على ما يريدونه في الزحام. كانت فانيا تنظر إليه أيضًا. إنه المفضّل لديها، فقد وقع عليه اختيارها ليحل محل ألكسندر. لكنه خلع سترته، ثم ذهب إلى الأطفال الآخرين، وما كانت فانيا قادرة على فعل شيء لإيقافه. دخل لينوس المطبخ. لا يمكن أن تكون تلك اللمعة التي رأيتها في عينيه ناتجة إلّا عن ترقب فرصة الحديث مع أحد ما.

نهضت ونظرت إلى هيدي. كانت جالسة إلى جانب نبتة اليوكا تحت

النافذة. كانت تأخذ التراب من الأصيص وتضعه في أكوام صغيرة على الأرض. ذهبت إليها ورفعتها، ثم أعدت بيدي ما استطعت إعادته من ذلك التراب ومضيت إلى المطبخ لأبحث عن ممسحة. لحقت بي فانيا وجلست في حضن أمها. أما هيدي فبدأت تبكي في غرفة المعيشة. نظرت إليّ ليندا نظرة استفهام.

قلت لها: «سوف أهتم بها. لكني أريد شيئًا أمسح به الأرض».

كان الناس مجتمعين حول الطاولة كأن هنالك وجبة يجري إعدادها! بدلًا من الانضمام إليهم، ذهبت إلى الحمام وأخذت كمية كبيرة من ورق المرحاض فبلّلتها بالماء وعدت إلى غرفة المعيشة لأنظف الأرض. حملت هيدي التي كانت تبكي وذهبت بها إلى الحمام لأغسل يديها. كانت تقاوم وتتلوّى بين ذراعي.

قلت لها: «هيا، هيا يا حبيبتي. سينتهي هذا سريعًا. لحظة واحدة... الآن، الآن، لا بأس! لقد انتهينا».

توقّف بكاؤها عند خروجنا من الحمام، لكنها لم تكن سعيدة تمامًا. لم تقبل أن أنزلها إلى الأرض؛ أرادت أن تظل محمولة بين ذراعي. كان روبين واقفًا في غرفة المعيشة طاويًا ذراعيه على صدره يتابع حركات ابنته تيريزا التي كانت أكبر من هيدي ببضعة شهور فقط لكنها قادرة منذ الآن على قول جمل طويلة.

قال لي: «مرحبًا! أنت تكتب الآن، أليس كذلك؟».

أجبته: «نعم، أكتب قليلًا».

«هل تكتب في البيت؟».

«نعم، في البيت. إن لديّ غرفة خاصة بي».

«أليس هذا صعبًا؟ أقصد... ألا تشعر أبدًا برغبة في مشاهدة التلفزيون أو غسل بعض الملابس أو فعل شيء ما بدلًا من الكتابة؟».

«لا بأس بهذا! صحيح أن الوقت المتاح لي أقل مما لو كنت أعمل في مكتب، لكن...».

أجابني: «نعم، بالطبع».

كان له شعر أشقر طويل ينسدل متموّجًا على امتداد رقبته، وعينان زرقاوان صافيتان، وأنف مسطّح، وفكّان عريضان. لم يكن شخصًا قويًا، ولا ضعيفًا. أما ملابسه فكانت مما يستخدمه الشباب في أواسط العشرينيات رغم أنه في آخر الثلاثينيات. ليست عندي فكرة عما يفكر فيه، ولم يكن هنالك ما يشير إلى ذلك، لكنه كان شخصًا ليس فيه أسرار. على العكس تمامًا، كان وجهه موحيًا بالانفتاح. لكن فيه شيئ آخر، رغم ذلك... هكذا أحسست، فيه ظلٌّ لشيء آخر. كان عمله إدماج اللاجئين في المجتمع، هكذا أخبرني ذات مرة، وبعد أن طرحت عليه بضعة أسئلة عن عدد اللاجئين المسموح لهم بدخول البلاد، وأشياء من هذا القبيل، أهملت الموضوع كله لأن الآراء والعواطف التي عندي مختلفة تمامًا عن المعايير التي افترضت أنه يمثّلها. لا بد أن تظهر هذه المعايير عاجلًا أو آجلًا فأبدو عند ذلك شخصًا سيئًا، أو شخصا أحمق؛ وهذا ما جعلني لا أجد سببًا لمتابعة الحديث.

كانت فانيا جالسة على الأرض منفصلة قليلًا عن بقية الأطفال. كانت تنظر إلينا. وعندما أنزلت هيدي، بدا كأن فانيا تنتظر هذه اللحظة، فنهضت من فورها وجاءت إليّ فأمسكت هيدي من يدها وقادتها إلى رف الألعاب حيث ناولتها الحلزون الخشبي ذي القرون الطويلة التي تهتز عندما يُجرّ بالخيط على الأرض.

قالت لها: «انظري يا هيدي!» ثم أخذت الحلزون من بين يديها ووضعته على الأرض... «اسحبي الخيط هكذا فيسير خلفك ويصدر رنينًا. هل ترين؟».

أمسكت هيدي بالخيط وجذبته فانقلب الحلزون.

قالت فانيا: «لا، ليس هكذا. سوف أريك كيف تفعلين ذلك».

وضعت الحلزون على الأرض من جديد وجرّته عدة أمتار.

قالت بصوت مرتفع: «إن لديّ أختًا صغيرة».

كان روبين قد ذهب إلى النافذة وراح ينظر إلى الباحة الخلفية في

الخارج. أما ستيلا التي كانت نشطة حيوية لأن الحفلة بمناسبة عيد ميلادها، فقد صاحت بشيء ما لم أفهمه وأشارت إلى إحدى الطفلات الصغيرات التي ناولتها الدمية التي كانت ممسكة بها، فأخرجتْ من الخزانة عربة صغيرة ووضعت الدمية فيها، ثم بدأت تدفعها أمامها في الغرفة. كان أخيلس قد عثر على بنيامين الذي كان أكبر من فانيا بسنة ونصف سنة وكان عادة ما يجلس مستغرقًا بعمق في شيء ما، في لوحة أو لعبة ما أو سفينة قراصنة مصنوعة من البلاستيك. كان صاحب مخيلة، مستقلًا، حسن السلوك. إنه جالس مع أخيلس الآن يركّبان سكة القطار التي بدأنا تركيبها، أنا وفانيا. جرت البنتان الصغيرتان خلف ستيلا. أما هيدي فكانت تبكي. أظنها جائعة. ذهبت إلى المطبخ وجلست إلى جانب ليندا.

«هل تذهبين لمتابعة البنتين قليلًا؟ أظن أن هيدي جائعة».

ذهبت ليندا بعد أن ربّتت على كتفي عند نهوضها. مرّت بضع لحظات قبل أن أستوعب موضوع الحديثين المنفصلين الجاريين حول طاولة المطبخ. كان أحد الحديثين يدور حول الرحلات المشتركة في سيارة واحدة، وأما الحديث الثاني فكان يتعلّق بالسيارات أيضًا. استنتجت أن الحديثين ماضيان في اتجاهين متناقضين. صارت الظلمة خارج النوافذ شديدة. وكان الضوء في المطبخ شحيحًا، اقتصاديًا. الغضون في الوجوه السويدية حول تلك الطاولة غارقة في الظل، والعيون تلمع عندما تعكس ألق الشموع. كان إيريك واقفًا مع فريدا وامرأة أخرى لم أستطع تذكر اسمها عند طاولة العمل في المطبخ وظهورهم إلينا ويعدون طعامًا. أحسست أن نفسي ممتلئة تمامًا بالرقة والعطف تجاه فانيا، لكني لم أكن قادرًا على فعل شيء لها. التفتُّ إلى الشخص الذي يتكلم. كنت أبتسم ابتسامة خفيفة كلما أحسست أن هنالك من ينظر إليّ، وأرشف من كأس النبيذ الأحمر الذي وضعه أحد ما أمامي على الطاولة.

كان الشخص الوحيد الذي رأيته متميزًا بين الآخرين جالسًا قبالتي. وجه كبير، وخدان عليهما ندوب، وتقاطيع خشنة، وعينان حادتان. كان الكفان

اللذان وضعهما على الطاولة أمامه كبيرين أيضًا. كان هذا الرجل في قميص على نمط الخمسينيات وبنطلون جينز طواه حتى ربلتي ساقيه، وشعره يُذكّر بالخمسينيات أيضًا، وكذلك سالفاه الطويلان. لكن، ليس هذا ما جعله مختلفًا بل هي شخصيته: تستطيع أن تحس بوجوده جالسًا هناك حتى وإن لم يقل الكثير.

دُعيت مرة إلى حفلة في ستوكهولم. وكان أحد الحضور في تلك الحفلة ملاكمًا. كان الرجل جالسًا في المطبخ. وكان حضوره الجسدي محسوسًا. لقد زرع في نفسي إحساسًا واضحًا مزعجًا بالنقص، إحساسًا بأنني أقل منه. ومن الغريب حقًا أن تلك الأمسية برهنت على صدق إحساسي هذا. كانت مضيفتنا واحدة من صديقات ليندا اسمها كورا. وكانت شقتها صغيرة مما جعل الناس يتحدثون واقفين في كل مكان. صوت الموسيقى الصاخبة منبعثٌ من جهاز ستيريو في غرفة المعيشة؛ أما الشوارع في الخارج فكانت بيضاء تحت الثلج. كانت ليندا في آخر أيام حملها. ولعل هذا هو ما جعل تلك الحفلة آخر حفلة نذهب إليها قبل أن تولد طفلتنا الأولى ويتغيّر كل شيء في حياتنا. صحيح أن ليندا كانت متعبة، إلّا أنها رغبت أن تبقى في تلك الحفلة بعض الوقت.

شربتُ بعض النبيذ وتحدثت مع توماس الذي كان يعمل مصوّرًا. كان توماس من أصدقاء غيير، وقد أتت معرفته بكورا من خلال صديقته ماري التي كانت شاعرة وكانت إحدى معلمات كورا في مدرسة بيسكوبس آرنو الثانوية. كانت ليندا جالسة على كرسي أبعدته قليلًا عن الطاولة بسبب انتفاخ بطنها. كانت تضحك، وكانت سعيدة؛ وربما كنت الشخص الوحيد الذي يرى ذلك الألق الخافت الذي صار ينبعث منها في الشهور الأخيرة. بعد قليل، نهضت ليندا وخرجت من الغرفة، فابتسمت لها وعدت أركز انتباهي على توماس الذي كان يقول شيئًا عن جينات أصحاب الشعر الأحمر الذين كان عددهم كبيرًا في هذه السهرة.

سمعت صوت طرق على أحد الأبواب.

وسمعت صوتًا ينادي: «كورا! كورا!».

هل هي ليندا؟

نهضتُ ومضيت إلى الممر. كان الصوت آتيًا من الحمام.

سألت: «أهذه أنتِ يا ليندا؟».

قالت: «نعم. أظن أن قفل الباب عالِق، هل تستطيع أن تنادي كورا؟ لا بد أن لديها طريقة للتعامل معه».

ذهبت إلى غرفة المعيشة ونقرت على كتف كورا. كانت تحمل طبقًا من الطعام في إحدى يديها وكأسًا من النبيذ الأحمر في اليد الأخرى.

قلت لها: «ليندا عالقة في الحمام ولا تستطيع أن تفتح الباب».

قالت: «أوه! لا». ثم وضعتْ الطبق والكأس واندفعت خارجة من الغرفة.

تشاورتا عبر الباب المغلق بعض الوقت، وحاولت ليندا تنفيذ التعليمات التي تلقتها، لكن ذلك لم يفد شيئًا: كان قفل الباب عالقًا، وظل عالقًا. انتبه كل من في الشقة إلى ما يحدث، أحس الناس بالإثارة، وبشيء من التسلية أيضًا. واحتشد في الممر جمع من الناس الذين راحوا يقدمون النصائح إلى ليندا في حين ظلت كورا قلقة حائرة، وظلت تقول إن ليندا في أيام حملها الأخيرة وإن على أحد ما أن يفعل شيئًا الآن. وفي الآخر الأمر، تقرر استدعاء اخصائي في الأقفال. وبانتظار وصوله، ظللت واقفًا عند ذلك الباب أتحدث مع ليندا في الداخل وأنا مدرك إدراكًا مزعجًا أن الواقفين من حولنا يستطيعون سماع كل ما أقوله ويستطيعون الإحساس بعجزي في هذا الموقف. ألا أستطيع خلع الباب وإخراجها؟ ألا أستطيع القيام بهذا الأمر البسيط الفعال؟

لم أخلع بابًا من قبل. ولم أكن أعرف مقدار صلابة هذا الباب. تخيلوا أن أفشل في خلعه! كم سيبدو موقفي غبيًا في هذه الحالة؟ وصل أخصائي الأقفال بعد نصف ساعة. وضع حقيبته القماشية التي تحتوي معداته إلى جانبه وبدأ يعبث بالقفل. كان رجلًا صغير الحجم يضع نظارة وقد بدأت بقعة من الصلع تظهر في رأسه. لم يقل شيئًا لدائرة الأشخاص الواقفين من

حوله بل راح يجرب أداة بعد أداة، لكن عبثًا. لم يستسلم القفل المعلون. استسلم الرجل في النهاية وقال لكورا إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا... لا يستطيع فتح هذا الباب.

سألته كورا: «ماذا نفعل إذن؟ من الممكن أن تبدأ ولادتها في أي لحظة!».

رفع الرجل كتفيه وقال: «عليكم أن تخلعوا الباب».

ثم بدأ يجمع أدواته.

من الذي سيخلع الباب؟ لا بد أن أكون أنا. أنا زوج ليندا، وهذه مسؤوليتي.

كان قلبي يخفق عنيفًا.

هل أتراجع إلى الخلف خطوة أمام الجميع وأرفس الباب بقوتي كلها؟ ماذا لو لم ينفتح الباب؟ وماذا إن انفتح وأصاب ليندا؟

عليها أن تبتعد عنه وأن تحتمي في الزاوية.

بهدوء، رحت آخذ أنفاسًا عميقة. لكن ذلك لم ينفعني لأنني ظللت أرتجف في داخلي. كان اجتذاب انتباه الناس بهذه الطريقة شيئًا بغيضًا بالنسبة إلي. وإذا كان هنالك احتمال للفشل، فإن الأمر يصبح أسوأ.

نظرت كورا من حولها وقالت: «علينا أن نخلع هذا الباب. من يستطيع فعل هذا؟».

خرج اخصائي الأقفال مغادرًا الشقة. إن كنت أنا من سيقوم بالأمر، فإن هذا هو الوقت المناسب لأن لأتقدم.

لكنني لم أستطع إرغام نفسي على فعل ذلك.

قالت كورا: «استدعوا مايك! إنه ملاكم».

أسرعتْ لإحضاره من غرفة المعيشة.

قلت: «يمكنني أن أطلب منه ذلك». بهذه الطريقة، لن أتمكن من الاستمرار في إخفاء المذلة التي شعرت بها... سأقول له مباشرة إنني، باعتباري زوج ليندا، لا أجرؤ على رفس الباب لخلعه، وإنني أطلب منه أن يفعل هذا من أجلي لأنه ملاكم ولأنه رجل ضخم.

كان واقف عن النافذة وفي يده كأس من البيرة. كان يتحدث مع فتاتين.

قلت له: «مرحبًا يا مايك!».

نظر إليّ.

«إنها لا تزال عالقة في الحمام. قال اخصائي الأقفال إنه غير قادر على فتح الباب. هل تظن أنك قادر على خلعه؟».

قال بعد أن نظر إليّ لحظة: «بالطبع»، ثم وضع كأسه وذهب إلى الممر. سرت من خلفه. تحرك الناس جانبًا ليفسحوا له الطريق.

سألها مايك: «هل أنت في الداخل؟».

أجابت ليندا: «نعم».

«قفي في أبعد مكان ممكن عن الباب، سوف أخلعه».

قالت ليندا: «لا بأس».

انتظر لحظة ثم رفع قدمه ورفس الباب بقوة جعلت القفل ينفتح. وتطايرت شظايا خشبية.

صفّق بعد الناس عندما خرجت ليندا.

قالت كورا: «مسكينة أنتِ. وأنا آسفة جدًا، آسفة لأنك تعرّضت لهذا الموقف، ثم...».

استدار مايك وعاد إلى غرفة الجلوس.

سألت ليندا: «كيف حالك الآن؟».

قالت: «لا بأس، لكني أظن أنّه علينا أن نعود إلى البيت».

قلت لها: «بالطبع».

خفضوا صوت الموسيقى في غرفة المعيشة لأن امرأتين في أوائل الثلاثينيات كانتا على وشك قراءة قصائدهما التي تفيض إحساسًا. ناولتُ ليندا سترتها، وارتديت سترتي ثم ودّعت كورا وتوماس وقد راح خجلي من نفسي يحرق داخلي؛ لكن لا يزال أمامي واجب أخير لأن عليّ أن أشكر مايك على ما فعله. سرت مجتازًا جمهور الشِّعر فوقفت عند النافذة، أمامه.

قلت له: «أشكرك جزيل الشكر يا مايك، لقد أنقذتها».

قال وهو يرفع كتفيه الضخمين: «أوه، إنه لا شيء... هذا أمر بسيط».

لم أنظر إلى ليندا في سيارة التاكسي خلال عودتنا إلى البيت. لم أكن على مستوى المسؤولية! كنت جبانًا إلى حد جعلني أترك شخصًا آخر يقوم بالمهمة، وكان ذلك كله واضحًا في عينيّ. لقد كنت شخصًا بائسًا تعيسًا.

عندما صرنا في السرير، سألتني ليندا عما يزعجني. قلت لها إنني خجل من نفسي لأنني لم أخلع الباب. نظرت إليّ بدهشة. لم تخطر هذه الفكرة في بالها أبدًا. لماذا أخلع الباب؟ أنا؟ لست من الناس الذين يفعلون هذه الأشياء، أليس كذلك؟

كان الرجل الجالس إلى الناحية الأخرى من الطاولة يبعث إحساسًا يشبه الإحساس الذي كان يبعثه ذلك الملاكم في ستوكهولم. لا علاقة لهذا بحجمه أو جسده أو عضلاته لأن في المكان الآن عدد من أصحاب العضلات ممن يملكون أجسامًا قوية لكنهم لا يتركون أكثر من انطباع خفيف الوزن... أشخاص كان حضورهم في الغرفة «عابرًا» قليل الأهمية مثلما تكون الفكرة العابرة التي لا تترك أثرًا... لا، هنالك شيء آخر يزعجني كلما صادفته لأنه يجعلني أرى الرجل الضعيف المرتبك الذي كنته، الرجل الذي يعيش حياته في عالم من الكلمات. جلست متأمّلًا في هذه الفكرة، لكني كنت أنظر إليه من حين لآخر وأصغي إلى الحديث الجاري نصف منتبه إلى ما يُقال. تحوّلت أحاديثهم الآن إلى أنواع رحلات القوارب وإلى المدارس التي يفكّر كل منهم في إرسال أطفاله إليها. وبعد فاصل قصير تحدّث خلاله لينوس عن اليوم الرياضي الذي شارك فيه، انتقل الحديث إلى أسعار البيوت. كانوا متفقين على أن أسعار البيوت في السويد قد ارتفعت خلال السنوات الماضية. لكن ارتفاعها في ستوكهولم أكثر من ارتفاعها هنا. وقالوا إنه لن يمر وقت طويل قبل أن تنخفض الأسعار مجددًا، وقد تهبط سريعًا مثلما صعدت. استدار لينوس صوبي.

سألني: «ماذا عن أسعار البيوت في النرويج؟».

قلت: «إنها مثل الأسعار هنا تقريبًا. أوسلو غالية مثل ستوكهولم. لكن الأسعار أقل بعض الشيء في بقية الأقاليم».

ظلت عيناه مثبتتان عليّ بعض الوقت... إذا أحببت استغلال الفرصة التي أتاحها لي. لكنه أدرك أنني لا أريد استغلالها، فاستدار من جديد وواصل حديثه. كان قد فعل الأمر نفسه تمامًا في أول اجتماع عام حضرناه رغم أنني لمست في ما قاله ذلك الوقت نبرة انتقادية لأن الاجتماع (كما عبّر هو عن الأمر) كان على وشك الانتهاء، لكن ليندا وأنا لم نقل شيئًا بعد. الفكرة من الاجتماع أن يدلي كل امرئ بدلوه: تلك هي فكرة تعاونية الأهالي كلها. لم تكن لديّ أي فكرة أقولها عن الموضوع الذي تجري مناقشته، فانبرت ليندا للحديث وراحت، محمرّة قليلًا، تعدد الإيجابيات والسلبيات في ما يتعلق بالأسرة بينما كان الحاضرون ينظرون إليها جميعًا. كانت أول نقطة في جدول الأعمال مناقشة ما إذا كان على حضانة الأطفال أن تستغني عن الطبّاخة التي تعمل فيها وتستعين بدلًا منها بشركة لتقديم الطعام. كان ذلك الحل أرخص تكلفة. لكن، إذا قررنا ذلك، فما نوع الطعام الذي يجب اختياره: وجبات نباتية أم وجبات اعتيادية؟ كانت حضانة لودجوريت للأطفال نباتية لأنها قامت على هذا المبدأ في الأصل. أما الآن، فليس بين أهالي الأطفال إلّا أربعة أشخاص نباتيين. وبما أن الأطفال لا يأكلون معظم أنواع الخضار التي تُقدّم إليهم في الحضانة الآن، فإن أهالي كثيرين منهم صاروا أميل إلى التخلي عن مبدأ الوجبات النباتية. استمرت المناقشات ساعات كثيرة ولم تترك نقطة واحدة في هذا الموضوع لم تُقتل بحثًا. جرت مناقشة نسبة اللحم في مختلف أنواع النقانق. صحيح أن اللصاقة المثبتة على عبوات النقانق التي يشتريها المرء من المتاجر تحدد نسبة اللحم فيها، لكن نسبة اللحم في النقانق التي تصنعها شركات التزويد بالطعام أمر مختلف: كيف يمكن معرفة نسبة اللحم فيها؟ في نظري أنا، النقانق نقانق فحسب. لم تكن لديّ أي فكرة عن هذا العالم الذي انفتح أمام عيني في ذلك المساء، ولم أكن أعرف أبدًا أن هنالك أشخاصًا يستطيعون الغوص فيه

إلى هذا العمق كله! أليس أمرًا لطيفًا أن يكون لدى الأطفال طبّاخة تعدّ لهم طعامهم في مطبخهم؟ هذا ما فكرت فيه، لكني لم أقل شيئًا. بدأت أتمنى أن تنتهي المناقشة كلها قبل أن نضطر إلى قول أي شيء. كان ذلك قبل أن ينظر إلينا لينوس بعينيه الفطنتين الساذجتين.

جاء صوت بكاء هيدي من غرفة الجلوس. فكرتُ في فانيا من جديد. عادة ما تواجه هذه المواقف بأن تفعل تمامًا ما يفعله الآخرون. إذا سحبوا كرسيًا فإنها تسحب كرسيًا، وإذا جلسوا فإنها تجلس، وإذا ضحكوا فهي تضحك حتى إذا لم تفهم سبب ضحكهم. إذا جروا هنا وهناك وهم يصيحون بشيء، فإنها تجري معهم وتصيح معهم. هكذا كانت طريقتها. لكن ستيلا كشفت أمرها. كنت موجودًا مصادفة عندما سمعتها تقول لها: «أنت تقلّديننا فحسب، أنت ببغاء! أنت ببغاء!» لكن هذا لم يمنع فانيا من الاستمرار. أثبتت هذه الطريقة نجاحها حتى ذلك الوقت. إلّا أن ستيلا هي التي واجهتها الآن، وأظن أن ذلك ترك أثرًا على فانيا. أعرف أنها فهمت ما قالته ستيلا تمام الفهم لأنها، هي نفسها، كانت تقول الأمر نفسه لهيدي مرات كثيرة، تقول لها إنها تقلدها وإنها ببغاء.

كانت ستيلا أكبر من فانيا بسنة ونصف السنة؛ وكانت فانيا معجبة بها أكثر من إعجابها بأي شخص آخر. عندما يُسمح لها بأن تمارس حضورها فإن هذا يكون كرمًا من ستيلا التي كان لها هذا الحضور والتأثير على أطفال الحضانة جميعًا. كانت طفلة جميلة بشعر أشقر وعينين واسعتين؛ وملابسها لطيفة دائمًا، كما أن مسحة القسوة التي لديها ليست أسوأ مما يمكن أن يظهر لدى أي طفل آخر يحتل مركزَ أي مجموعة من الأطفال. لم يكن هذا سبب مشاكلي معها! المشكلة عندي هي أنها تدرك تمامًا تأثيرها على الكبار، إضافة إلى طريقتها في استغلال براءتها الساحرة. لم أقع تحت هذا التأثير أبدًا خلال أسبوع العمل الإلزامي الذي أمضيه في حضانة الأطفال. مهما لمعت عيناها اللتان تنظر إليّ بهما عندما تطلب مني شيئًا، فإن ردة فعلي تظل لا مبالية. وهذا ما كان يحيّرها ويجعلها تضاعف محاولتها لإيقاعي

تحت تأثير سحرها. وذات يوم، ظلّت معنا بعد الحضانة لكي نذهب إلى الحديقة فجلستْ إلى جانب فانيا في العربة بينما حملتُ هيدي بإحدى ذراعي ورحت أدفع العربة بالأخرى. قفزَتْ من العربة قبل وصولنا إلى الحديقة بعدة مئات من الأمتار لكي تجري بقية المسافة. كانت ردة فعلي حادة على تصرفها هذا. ناديتها لكي تعود وقلت لها إن عليها أن تجلس بهدوء في العربة إلى أن نصل لأن هناك سيارات من حولنا. نظرت إليّ بدهشة؛ فوجئت لأنها لم تألف هذه النبرة. ورغم أنني ما كنت راضيًا عن طريقة حلي هذه المشكلة، فإنني قلت لنفسي أيضًا إن كلمة «لا» ليست أسوأ شيء يمكن أن يصيب إنسانًا. لكنها حملَتْ ذلك في نفسها. أقول هذا لأنني، بعد نصف ساعة من ذلك رحت أؤرجحهما من أقدامهما ففرحتا كثيرًا، ثم ركعتُ لأصارعهما (كانت فانيا تحب هذه المصارعة كثيرًا، عندما تفوز خاصة وتدفعني فأقع على العشب)؛ لكن ستيلا ركلتني على ساقي عندما جاء دورها. كان ذلك أمرًا لا بأس به إن حدث مرة واحدة! لكنه حدث مرتين... وعندما فعلتها ثالث مرة قلت لها: «هذا مؤلم! كفّي عن الركل الآن يا ستيلا». تجاهلتْ ذلك بالطبع، وصار الأمر مثيرًا الآن فركلتني من جديد وهي تضحك بصوت مرتفع. ضحكت فانيا أيضًا، فهي تقلدها دائمًا، أما أنا فنهضت وأمسكت بستيلا من وسطها وجعلتها تقف. أردت أن أقول لها «استمعي الآن أيتها الطفلة المزعجة». وكنت على وشك فعل ذلك لو لم تكن أمها آتية لأخذها بعد نصف ساعة. قلت بدلًا من ذلك: «اسمعي يا ستيلا...» قلت هذا منزعجًا، بطريقة فظة، وأنا أنظر في عينيها... «عندما أقول لا، فإنني أقصد لا، هل تفهمين؟» خفضت عينيها ورفضت الإجابة. رفعتُ ذقنها. سألتها من جديد: «هل تفهمين؟» أومأت برأسها فتركتها. «سوف أجلس على ذلك المقعد هناك. يمكنكما اللعب كما تشاءان ريثما تأتي أمكما». نظرت إليّ فانيا نظرة حيرة. لكنها ضحكت بعد ذلك وانطلقت إلى ستيلا. بالنسبة إليها، كان هذا شيئًا يحدث كل يوم. من حسن الحظ أن ستيلا تجاوزت الأمر من فورها. أقول هذا لأنني كنت قد دخلت منطقة

خطرة: ماذا يمكن أن أفعل إذا بدأت تبكي أو تصرخ؟ لكنها ذهبت مع فانيا إلى «القطار الكبير» الذي كان مزدحمًا بالأطفال. ثم جاءت أمهما حاملة فنجانين من القهوة مع الحليب. عادة ما أذهب فور وصولها، لكنها ناولتني فنجاني فلم يكن لديّ خيار غير أن أجلس وأستمع إلى ثرثرتها عن عملها وأضيّقُ عيني عندما أنظر إلى شمس تشرين الثاني المنخفضة، مع بقاء قسم من انتباهي منصبًا على الطفلتين.

كان أسبوع العمل في حضانة الأطفال (أسبوع أعمل فيه كأنني في وظيفة) يسير كما تسير الساعة تقريبًا. لقد سبق لي العمل في مؤسسات كثيرة، وسرعان ما اعتدت روتين هذا المكان. لم يكن العاملون معتادين على رؤية الأهالي يتصرفون بهذا الشكل، ولم أكن شخصًا لم يألف إلباس الأطفال وتبديل ثيابهم وتغيير حفاضاتهم، بل حتى اللعب معهم إذا كان ذلك ضروريًا.

كان الأطفال يستجيبون إلى حضوري بطرق مختلفة. فعلى سبيل المثال، كان هناك صبي طويل القامة أبيض الشعر يتجوّل في المكان دائمًا من غير أصدقاء، وقد أراد أن يظل في حضني طيلة الوقت إما لكي أقرأ له قصة أو لكي يجلس هناك فحسب. كما لعبت ذات مرة نصف ساعة مع طفل آخر بقيَ بعد ذهاب رفاقه لأن أمه تأخّرت، فنسيَ ذهاب الأطفال ونسيَ تأخر أمه عندما بدأنا نلعب لعبة «سفينة القراصنة». سُرّ كثيرًا لأنني كنت أضيف إلى اللعبة عناصر جديدة، كأسماك القرش والزوارق المهاجِمة، والحرائق. أما من ناحية أخرى، فكان هنالك ولد ثالث، أكبر سنًا من الاثنين السابقين، استطاع أن يكتشف سريعًا واحدة من نقاط ضعفي: أخذ رزمة المفاتيح من جيبي بينما كنا جالسين إلى طاولة الطعام. الحقيقة أنني لم أوقفه عن ذلك، رغم غضبي، وهذا ما جعله يتبع تلك «الرائحة». سألني في البداية إن كان لديّ مفتاح سيارة. وعندما هززت رأسي نفيًا سألني عن سبب عدم وجود سيارة لدي. قلت له إنني لا أملك سيارة. سألني: «لماذا لا تملك سيارة؟» فقلت له إنني لا أملك رخصة لقيادة السيارة. سألني: «ألا تستطيع

قيادة سيارة؟ ألست شخصًا كبيرًا؟ كل كبير يستطيع قيادة السيارة؟ أليس كذلك؟» ثم راح يلوح بالمفاتيح تحت أنفي. تركته يفعل ذلك، وظننت أنه سيمل الأمر سريعًا. لكنه لم يمله، بل ازداد إصرارًا على المتابعة. كان يقول لي: «إن مفاتيحك معي، وأنت لا تستطيع أخذها مني». ظل يلوّح بالمفاتيح تحت أنفي. كان الأطفال الآخرون ينظرون إلينا، وكذلك الموظفون الثلاثة في حضانة الأطفال. ارتكبت غلطة الاندفاع لأخذ المفاتيح. أفلح الصبي في إبعادها في الوقت المناسب، ثم راح يضحك ويسخر مني. بدأ يصيح: «ها ها، لم تستطِع أخذها مني!» حاولت، من جديد، عدم إظهار انزعاجي. بدأ يضرب الطاولة بالمفاتيح، فقلت له: «لا تفعل هذا». لكنه ابتسم ابتسامة خبيثة واستمر بضرب الطاولة بالمفاتيح. طلبت منه إحدى العاملات في الحضانة أن يتوقّف، فتوقّف. لكنه، ظل يلوّح بالمفاتيح في يده ويقول لي: «لن تتمكن من أخذها أبدًا». لكن فانيا تدخّلت عند ذلك.

قالت له: «أعد المفاتيح إلى أبي!».

هل هذا موقف طبيعي؟ تصرفتُ كما لو أن شيئًا لم يحدث. وعدت إلى الطعام من جديد فتابعت الأكل. لكن الشيطان الصغير واصل مضايقتي. واصل التلويح بتلك المفاتيح. تلويح، تلويح. قررت أن أتركها معه إلى أن ننتهي من الطعام. شربت بعض الماء وأحسست، يا للغرابة، بأن وجهي قد احتقن واحمرّ قليلًا نتيجة هذه المسألة التافهة. هل كان هذا ما رآه أيضًا مدير الحضانة، أولاف؟ على أي حال، أمرَ أولاف ذلك الطفل، اسمه جوكه، بأن يعيد المفاتيح. أطاعه جوكه من غير أن ينبس بكلمة واحدة!

حرصت طيلة حياتي بعد أن صرت شخصًا راشدًا على حفظ مسافة تفصلني عن بقية الناس. كانت هذه طريقتي في التلاؤم مع المواقف المختلفة لأنني أغدو قريبًا من الآخرين إلى حد لا يصدق، في أفكاري ومشاعري بالطبع، فلا يقتضي الأمر أكثر من أن يشيح أحدهم بوجهه عني حتى تنفجر عاصفة في داخلي. ومن الطبيعي أن هذا القرب ينطبق على علاقتي بالأطفال أيضًا، وهذا ما يسمح لي بالجلوس واللعب معهم. لكن،

بما أنهم مفتقرون إلى قشرة اللباقة واللياقة التي تكون لدى الكبار، فإن هذا يعني أيضًا أنهم يمكن أن يخترقوا بسهولة الغلاف الخارجي الذي أحمي به شخصيتي فيحدثون فيها ما يشاؤون من خراب. وعندما يبدأ هذا، لا يكون لديّ ما أدافع به عن نفسي غير اللجوء إلى القوة البدنية العارية (التي لا أستطيع استخدامها في هذه الحالة)، أو التظاهر ببساطة أنني لم أنزعج، وهذا ما قد يكون الطريقة الأفضل. لكنه كان أيضًا شيئًا لا أنجح فيه كثيرًا لأن الأطفال، أو الأذكياء منهم على الأقل، يكتشفون فورًا مقدار انزعاجي في حضورهم.

أوه، كم كان هذا الموقف مهينًا!

سرعان ما انقلب كل شيء رأسًا على عقب. أنا، الذي لم أكن معجبًا بحضانة الأطفال التي تذهب إليها فانيا، أنا الذي أردت منهم أن يعتنوا بفانيا حتى أستطيع العمل في سلام بضع ساعات كل يوم من غير أن أعرف شيئًا عن حالها وعما تفعله، أنا الذي ما كنت راغبًا في أي قُربٍ في حياتي كلها وما كنت قادرًا على الابتعاد عن الناس مسافة تريحني وما كنت قادرًا على أن أكون وحيدًا إلى الحد الذي يكفيني، صار عليّ فجأة أن أمضي أسبوعًا في العمل هناك وأصير على علاقة بكل شيء يحدث في ذلك المكان. لكن الأمر لم يتوقف هنا لأنك تذهب لإيصال أطفالك أو لأخذهم فيكون من الطبيعي أن تجلس بضع دقائق في غرفة اللعب أو في صالة الطعام أو حيثما يكونون وتتحدّث قليلًا مع بقية الأهالي، وقد تلعب مع الأطفال قليلًا، ثم يحدث هذا كل يوم من أيام الأسبوع... عادة ما كنت أحاول إبقاء هذه الأشياء كلها في حدها الأدنى. فآخذ فانيا وألبسها معطفها قبل أن ينتبه أحد إلى وجودي. لكني كنت أعلَق في الممر من حين لآخر، فيبدأ حديث ما، ثم يطول الأمر، ثم أرى نفسي جالسًا على واحدة من تلك الأرائك العميقة المنخفضة أهمْهِم متفقًا مع ما يُقال رغم أنه لا يثير لديّ أدنى اهتمام في حين يهاجمني صراخ الأطفال من كل ناحية... يطلب هذا مني أن أقذفه إلى الأعلى، ويطلب الآخر أن أحمله، أو أن أمسكه من ذراعيه وأدور به. أما جوكه الذي كان، بالمصادفة،

ابن غوستاف، محب الكتب اللطيف الذي يعمل في أحد المصارف، فكان مكتفيًا بأن يطعنني بأي شيء مدبب يقع بين يديه.

كان قضائي بعد ظهر السبت، ومسائه أيضًا، محشورًا بين الآخرين عند طاولة نأكل عليها الخضار وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة متوترة لكنها مهذّبة، جزءًا لا يتجزأ من هذه الواجبات نفسها.

حمل إيريك كدسًا من الأطباق من خزانة المطبخ، بينما راحت فريدا تعد السكاكين والشوكات. رشفتُ قليلًا من النبيذ. أحسست بأنني جائع حقًا. وقفت ستيلا بباب الغرفة محمرة الوجه متعرقة قليلًا.

صاحت: «هل حان وقت الحلوى؟».

استدارت فريدا وقالت لها: «قريبًا جدًا يا حبيبتي. لكن علينا في البداية أن نتناول بعض الطعام الجيد».

تحول انتباهها من الطفلة إلى الأشخاص الجالسين حول الطاولة.

قالت لهم: «الطعام جاهز. تفضّلوا! ها هي الأطباق وأدوات الطعام. يمكنكم أن تأخذوا بعض الطعام لأطفالكم أيضًا».

قال لينوس وهو ينهض: «آه، يبدو هذا جيدًا. ماذا لدينا هنا؟».

كنت قد قرّرت البقاء جالسًا إلى أن يتناقص عدد الناس المصطفّين للحصول على الطعام. لكني نهضت وذهبت إلى المطبخ عندما رأيت ما عاد به لينوس من الفاصوليا والسلطة والكسكس الحاضر دائمًا، إضافة إلى طبق حار افترضت أن فيه بازلاء.

ذهبت إلى ليندا التي كانت جالسة مع فانيا التي تحتضن ساقيها وهيدي بين ذراعيها وتتحدث مع ميا. قلت لها: «الطعام جاهز. هل تريدين أن آخذ الطفلتين عنكِ؟».

قالت ليندا: «نعم، هذا جيد. إنني جائعة كثيرًا».

قالت فانيا: «هل نستطيع الذهاب إلى البيت الآن يا بابا؟».

قلت لها: «لكننا نأكل الآن. وهنالك حلوى بعد الأكل. هل آتي لكِ ببعض الطعام؟».

قالت: «لا أريد شيئًا».

قلت وأنا أمسك بذراع هيدي: «لكني سأحضر لك شيئًا على كل حال. تعالي معي يا هيدي».

قالت ليندا: «أكلت هيدي موزة. لكنها قد تكون راغبة في بعض الطعام أيضًا».

قالت ميا لابنتها: «هيا يا تيريزا لنأتي لك ببعض الطعام».

سرت خلفهما. حملت هيدي بين ذراعي ووقف في الصف. أراحت صغيرتي رأسها على كتفي. لا تفعل هذا إلّا عندما تكون متعبة. أحسست أن قميصي ملتصق بكتفي. كان كل وجه أراه، وكل التفاتة، وكل صوت أسمعه، ثقيلًا كالرصاص. عندما يسألني أحد عن شيء، أو عندما أطرح السؤال بنفسي، أحس نفسي مضطرًا إلى إجبار الكلمات على الخروج من فمي. لكن وجود هيدي معي جعل الوضع أسهل قليلًا. كانت نوعًا من الحماية لأن لديّ الآن شيء أنشغل به من ناحية، ولأن وجودها يحوّل انتباه الآخرين عني. كانوا يبتسمون لها ويسألونها إن كانت متعبة ويربّتون على وجنتيها. كان جزء كبير من علاقتي بهيدي قائمًا على حملها. كان هذا أساس العلاقة بيننا! تحب أن تُحمل دائمًا، ولا تريد أن تمشي أبدًا. ترفع ذراعيها كلما رأتني وتبتسم مسرورة كلما صارت بين ذراعي. ثم إنني أحب أن تكون قريبة مني، تلك المخلوقة الصغيرة المكتنزة ذات الفم الشره.

سكبت في الطبق شيئًا من الفاصولياء، ومعلقتين من البازلاء مع مقدار من الكسكس وعدت بالطبق إلى غرفة المعيشة حيث كان الأطفال كلهم يجلسون حول طاولة منخفضة موضوعة في الوسط ومن خلف كل واحد منهم أبوه أو أمه لمساعدته.

قالت فانيا عندما وضعت الطبق أمامها: «لا أريد شيئًا».

قلت: «لا بأس يا فانيا. لست مضطرة إلى الأكل إذا كنت غير راغبة. لكن، هل تظنين أن هيدي تريد أن تأكل شيئًا؟».

حملت بعض الفاصولياء بالشوكة ورفعتها إلى فم فانيا التي ضمت شفتيها بقوة وأدارت رأسها بعيدًا.

قلت لها: «هيا الآن! أعرف أنكما جائعتان».

سألتني فانيا: «هل نستطيع اللعب بالقطار؟».

نظرت إليها. في الأحوال العادية، كان من المتوقّع أن تنظر في هذه اللحظة إلى القطار أو إلى وجهي، وأن ترجوني أن أوافق على ما أرادته. لكني وجدتها الآن تنظر في خط مستقيم أمامها.

قلت لها: «طبعًا، نستطيع اللعب بالقطار».

أنزلت هيدي ومضيت إلى زاوية الغرفة حيث وجدت نفسي مضطرًا إلى أن أجلس ضاغطًا بركبتي على جسدي، وعلى صدري تقريبًا، حتى أفسح مجالًا بين قطع الأثاث الصغيرة الخاصة بالأطفال وبين صناديق الألعاب. فككت سكة القطار وصرت أعطيها لفانيا، قطعة بعد قطعة. بدأت تحاول تركيبها. كانت تضغط بكل قوتها عندما تفشل في تركيب قطعتين غير متناسبتين. أما أنا فانتظرت حتى كادت تصل إلى نقطة رمي القطعتين معًا غاضبة قبل أن أتدخّل. أما هيدي، فكانت ترغب دائمًا بتفكيك القطع التي تركبها أختها، وهذا ما جعلني أنظر من حولي بحثًا عن شيء يمكن أن ألهيها به. دمية قماشية؟ أحجية؟ مُهر بلاستيكي صغير له رموش طويلة وجُمّة شعر من خيوط طويلة وردية اللون؟ رمتْ هيدي بعيدًا بهذه الأشياء كلها.

قالت فانيا: «بابا، هل تساعدني؟».

قلت لها: «سأساعدك طبعًا. انظري! ما رأيك أن نضع جسرًا هنا حتى يستطيع القطار أن يسير فوقه وتحته، سيكون هذا جميلًا، أليس كذلك؟». أخذت هيدي قطعة من قطع الجسر.

قالت فانيا بنبرة تهديد: «هيدي!».

أخذتْ القطعة منها فبدأت تصرخ. حملتها بين ذراعي ونهضت واقفًا.

قالت لي فانيا: «لا أستطيع تركيبها!».

أجبتها: «سأعود على الفور. سآخذ هيدي إلى ماما».

ذهبت إلى المطبخ حاملًا هيدي على وركي مثلما تفعل أي ربة منزل خبيرة. رأيت ليندا تتحدث مع غوستاف الذي كان الوحيد بين أهالي الأطفال في حضانة لودجوريت الذي لديه وظيفة جيدة على الطراز القديم، والذي كانت لليندا علاقة طيبة به، لسبب ما. كان شخصًا مرحًا لامع الوجه. وكان جسده القصير، المتأنق دائمًا، ممتلئًا قويًا. رقبته قوية أيضًا. وذقنه عريضة، ووجهه ممتلئ، لكنه منفتح مبتهج. كان يحب الحديث عن الكتب التي استمتع بقراءتها. وآخر هذه الكتب لريتشارد فورد.

كان يقول لها: «كتاباته رائعة. هل قرأت له شيئًا؟ يتحدث هذا الكتاب عن سمسار عقارات، رجل عادي، نعم، ويتحدث عن حياته، حياة عادية. لكن فورد يلتقط الروح الأميركية كلها! يلتقط المزاج الأميركي، يلتقط نبض البلد بالضبط!».

كان غوستاف يعجبني، وخاصة لباقته التي هي ليست ناتجة عن شيء أكثر من أن لديه عمل حقيقي شريف، عمل لا يمتلك مثله، بالمناسبة، أحد من أصدقائي، ولا أمتلكه أنا. كان في مثل سني، لكني كنت أنظر إليه على أنه أكبر من مظهره بعشر سنين. كان شخصًا ناضجًا بالطريقة التي كانها أهلنا عندما كنت شابًا صغيرًا.

قلت: «أظن أن هيدي ربما يجب أن تذهب بعد قليل لكي تنام. تبدو متعبة. ولعلها جائعة أيضًا. هل يمكنك أخذها إلى البيت؟».

«نعم، لكن عليّ إنهاء طعامي أولًا. هل هذا ممكن؟».

«بالطبع».

قال دافيد: «لقد أمسكت كتابك بيدي! كنت في المكتبة فرأيته. بدا لي كتابًا يلفت الأنظار. هل هو صادر عن نورستيدتز؟».

قلت وأنا أبتسم ابتسامة متوترة: «نعم، إنه صادر عنها».

سألته ليندا، ليس من غير نبرة خبيثة في صوتها: «هل اشتريت الكتاب إذن؟».

قال وهو يمسح فمه بمنديل: «لا، لم أشتره هذه المرة. إنه عن الملائكة، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي. كانت هيدي قد انزلقت بين ذراعي قليلًا. وعندما رفعتها لاحظت كم كان حفاضها ثقيلًا.

قلت: «سأغير حفاضها قبل أن تأخذيها. هل أتيت بكيس الحفاضات؟».

«نعم، إنه في المدخل».

قلت: «لا بأس»، ثم خرجت لإحضار الحفاض. وفي غرفة المعيشة، كانت فانيا تركض مع أخيلس ويقفزان من الأريكة إلى الأرض ضاحكين، ثم يصعدان ويقفزان من جديد. أحسست بدفقة من الدفء في صدري. انحنيت وأخذت الحفاض وعبوة المناديل المعطرة في حين كانت هيدي متعلقة بي كأنها واحد من صغار الكوالا. لم أجد طاولة لتغيير الحفاضات في الحمام فوضعت هيدي على الأرض ونزعت عنها جواربها الطويلة، ثم فككت حفاضها ورميته في سلة المهملات تحت المغسلة في حين كانت هيدي تنظر إليّ بتعبير جاد على وجهها.

قالت لي: «بي بي فقط!» ثم أدارت رأسها جانبًا ونظرت إلى الجدار غير مهتمة بحركاتي عندما بدأت أضع الحفاض النظيف. إنها تفعل هذا منذ كانت طفلة ترضع.

قلت: «هكذا انتهينا الآن». أمسكت بيدها فأوقفتها. وبعد ذلك طويت جواربها الطويلة التي كانت رطبة بعض الشيء فوضعتها في حقيبة العربة، ثم ألبستها بنطلونًا رياضيًا وجدته في الحقيبة وسترة قصيرة الأكمام مخططة برسوم فقاعات صغيرة. أهداها إنغفه هذه السترة في عيد ميلادها الأول. جاءت ليندا عندما كنت أُلبس هيدي حذاءها.

قلت لها: «سوف أعود إلى البيت بعد قليل». تبادلنا قبلة، ثم حملت ليندا الحقيبة في إحدى يديها وحملت هيدي بذراعها الأخرى وذهبتا.

جاءت فانيا راكضة بأقصى سرعتها وأخيلس من خلفها فدخلا غرفة أظنها غرفة النوم. ومن هناك، جاء صوتاهما المتحمسين بعد ذلك. لم أجد

شيئًا مغريًا في العودة إلى المطبخ والجلوس إلى الطاولة هناك، ففتحت باب الحمام ودخلت، ثم أغلقت الباب خلفي وبقيت واقفًا بضع دقائق من غير حركة. وبعد ذلك، غسلت وجهي بماء بارد، ثم جفّفته بعناية مستخدمًا المنشفة البيضاء ونظرت إلى عينيَّ في المرآة... عينان مظلمتان كثيرًا في وجه متوتر كثيرًا. كدت أجفل عندما رأيت هذا الوجه.

لم يلاحظ أحد في المطبخ عودتي باستثناء امرأة ضئيلة الحجم صارمة المظهر لها شعر قصير وتقاطيع وجه عادية، وجه مثلث تقريبًا. نظرت المرأة إليّ لحظة قصيرة من خلف الكؤوس. ما الذي تريده الآن؟

كان غوستاف ولينوس يتحدثان عن ترتيبات التقاعد. أما الرجل الصموت صاحب قميص الخمسينيات، فكان معه ابنه جالسًا في حضنه، صبي شقي بشعر أشقر كثيرًا يكاد يكون أبيض اللون. كان يحدثه عن مدينة مالمو السويدية، في حين كانت فريدا تتحدث مع ميا عن نادي السهرات الذي تعتزم إطلاقه مع بعض من أصدقائها. وفي أثناء ذلك، كان إيريك وماثيو يقارنان الأنواع المختلفة من الشاشات التلفزيونية. كان لينوس مهتمًا بهذا الحديث وأراد الانضمام إليه. استطعت رؤية ذلك من التفاته الطويل صوبهما ومن التفاتاته السريعة صوب غوستاف حتى لا يبدو شخصًا قليل التهذيب. كانت المرأة ذات الشعر القصير الشخص الوحيد غير المشارك في أي حديث من هذه الأحاديث. ورغم أنني كنت أنظر في كل اتجاه غير اتجاهها، إلّا أنها مالت صوبي من فوق الطاولة وسألتني إن كنت راضيًا عن حضانة الأطفال. قلت لها إنني راضٍ عن الحضانة... «قد نكون مضطرين إلى القيام بعمل كثير، لكن الأمر يستحق الجهد بكل تأكيد، فهكذا يستطيع المرء أن يعرف أهل زملاء أطفاله». قلت إن هذا لا يمكن إلّا أن يكون أمرًا جيدًا.

ابتسمت المرأة عندما سمعت ذلك، لكن ابتسامتها كانت من غير حماسة. كان فيها شيء حزين، شيء من التعاسة.

قال لينوس فجأة وهو يدفع بشعره الطويل إلى الخلف: «ما هذا بحق الجحيم؟ ماذا يفعلان هناك؟».

نهض وذهب إلى الحمام، وفي اللحظة التالية، خرج وهو يدفع أمامه فانيا وأخيلس. كانت فانيا مبتسمة ابتسامة عريضة. أما أخيلس فبدا عليه الإحساس بالذنب، بعض الشيء. كان كُمّا سترة بدلته الصغيرة غارقين في الماء. وكانت ذراعا فانيا العاريتان لامعتين، مبللتين.

قال لينوس: «عندما دخلت، كانا قد أدخلا أيديهما في المرحاض إلى أقصى حد استطاعا الوصول إليه». نظرت إلى عيني فانيا فلم أستطع منع نفسي من الابتسام.

قال لينوس وهو يقود أخيلس إلى الممر: «علينا أولًا أن ننزع عنك هذه السترة أيها الفتى، ثم يجب أن تحرص على غسل يديك حتى تصيرا نظيفتين تمامًا».

قلت وأنا أنهض بدوري: «وأنت أيضًا يا فانيا! سأذهب إلى الحمام معك».

مدت فانيا ذراعيها فوق المغسلة ورفعت رأسها ناظرة إلي.

قالت لي: «إنني ألعب مع أخيلس!».

قلت: «أرى هذا! لكن، لا يصح أن تدخلا أيديكما في المرحاض، هل تفهمين هذا؟».

قالت: «أفهم، لا يصح ذلك!» ثم ضحكت.

بللت كفيّ ثم وضعت فيهما بعض الصابون السائل وغسلت ذراعيها من أطراف أصابعها حتى كتفيها. وبعد ذلك جففتهما وقبلتها على جبهتها وأخرجتها من الحمام. كانت ابتسامة الاعتذار التي ارتسمت على وجهي عندما عدت إلى الطاولة أمرًا غير ضروري لأن أحدًا ما كان مهتمًا بمتابعة هذا الحدث الصغير، ولا حتى لينوس الذي سرعان ما عاد فتابع قصة كان يرويها عن رجل رآه يتعرض لهجوم من القرود في تايلاند. لم تظهر ابتسامة على وجهه عندما ضحك الآخرون بل بدا كأنه يتنفس ضحكهم، يستنشقه، كما لو أنه يمنح قصته حيوية جديدة، وهذا ما حدث بالفعل. ابتسم عندما انفجرت موجة الضحك الثانية؛ لم يبتسم كثيرًا، ولم يضحك لما في قصته

من فكاهة بل كانت تلك ابتسامة تكاد تكون تعبيرًا عن الرضا الذي أحسه عندما جلس مستمتعًا بالمرح الذي أثاره لدى الآخرين وهو يلوح بيديه في الهواء.

المرأة الصارمة التي كانت تنظر عبر النافذة إلى الخارج، جذبت كرسيها إلى الأمام وانحنت فوق الطاولة من جديد.

سألتني: «أليس صعبًا أن يكون لديك طفلين متقاربي السن؟».

أجبتها: «نعم ولا! الأمر مرهق بعض الشيء. لكن وجود طفلين يظل أفضل من وجود طفل واحد. يبدو سيناريو الطفل الوحيد حزينًا بعض الشيء، إذا أردت رأيي. أفكر دائمًا في أنني أريد ثلاثة أطفال. في هذه الحالة يكون هنالك كثير من تبادل الأدوار بينهم عندما يلعبون. أنت ترين كيف يكون أكثر الأطفال وحيدين أمام أهلهم...».

ابتسمت، فلم تقل شيئًا. وأدركت أن لديها طفلًا وحيدًا.

قلت: «لكن الطفل الواحد يمكن أن يكون أمرًا عظيمًا».

أراحت رأسها على كف يدها.

قالت لي: «لكني أتمنى لو كان لدى غوستاف أخ أو أخت. إن وجودنا نحن الاثنين فقط أمر صعب كثيرًا».

قلت: «ليس صعبًا على الإطلاق. سيكون لديه الكثير من الأصدقاء في حضانة الأطفال، وهذا شيء ممتاز».

قالت: «المشكلة هي أنني ليس لديّ زوج، وبالتالي فإن الأمر ليس ممكنًا».

نظرت إليها نظرة تعاطف، ثم ركزت انتباهي على منع عيني من التجول هنا وهناك. يمكن أن يحدث هذا بسهولة في ظروف من هذا النوع.

تابعت تقول: «ثم إنني لا أستطيع تخيّل الرجال الذين أقابلهم آباء لأطفالي».

قلت لها: «هذه الأمور تجد حلولها بأنفسها».

قالت: «لا أظن أنها تجد حلولها بأنفسها. لكني أشكرك على أي حال».

من زاوية عيني، لمحت حركة فاستدرت ونظرت صوب الباب. كانت فانيا قادمة في اتجاهي. توقفت إلى جواري.

قالت لي: «أريد الذهاب إلى البيت. ألا نستطيع الذهاب الآن؟».

قلت: «علينا أن نبقى قليلًا. سرعان ما سيأتون بالحلوى. نريد أن نأكل بعض الحلوى، أليس كذلك؟».

لم تعلّق.

سألتها: «هل تريدين الجلوس في حضني؟».

أومأت بالإيجاب فأزحت كأس النبيذ وحملتها.

«اجلسي معي قليلًا، وبعد ذلك نعود معًا إلى الغرفة. أستطيع البقاء معك هناك، ما رأيك؟».

«موافقة».

جلست في حضني تنظر إلى الآخرين حول تلك الطاولة. تساءلتُ عما يكون دائرًا في ذهنها الآن. كيف يبدو هذا كله لها؟

رحت أنظر إليها. كان شعرها الطويل الأشقر قد بلغ كتفيها. أنف صغير، وفم صغير، وأذنان ضئيلتان لكل منهما طرف مستدق كآذان العفاريت. عيناها الزرقاوان اللتان تفضحان مزاجها دائمًا، فيهما حَوَل بسيط؛ وهذا ما يجعلها في حاجة إلى نظارة. كانت فخورة بنظارتها أول الأمر، أما الآن فإنها أول شيء تنتزعه عندما تكون غاضبة. ربما تفعل هذا لأنها تعرف مدى اهتمامنا بأن تضع نظارتها دائمًا!

في حضورنا، تكون عيناها نشطتين مبتهجتين، لكنهما تعتمان وترفضان أي تواصل عندما تنتابها واحدة من نوبات غضبها الكبرى. كانت دراماتيكية إلى حد كبير وقادرة على حكم الأسرة كلها بمزاجها الصعب. وكانت تؤدي قصصًا درامية طويلة معقدة مع ألعابها، وتحب أن نقرأ القصص لها، لكنها تحب مشاهدة الأفلام أكثر، وخاصة الأفلام التي فيها شخصيات كثيرة وقدر كبير من الدراما فتسألنا عنها وتناقش فتنفجر أسئلتها الغزيرة وتستمتع بعيش القصة من جديد. انصبّ اهتمامها فترة من الزمن على قصة ماديكين

لآستريد ليندغرين حتى جُنّت بها. جعلتها هذه القصة تقفز عن الكراسي وتستلقي على الأرض مغمضة عينيها. كان علينا أن نحملها ونظن أول الأمر أنها ماتت، ثم ندرك أنها فقدت وعيها وأصيبت بارتجاج دماغي فنحملها مغمضة العينين متدلية الذراعين ونضعها على سريرها لتظل مستلقية عليه ثلاثة أيام؛ ومن الأفضل أن ندندن في تلك الأثناء بالأغنية الحزينة في هذا المقطع من الفيلم. ثم تقفز واقفة على قدميها بعد ذلك وتجري إلى الكرسي، ويبدأ المشهد كله من جديد.

في حفلة عيد الميلاد التي أقيمت في حضانة الأطفال، كانت فانيا الطفلة الوحيدة التي انحنت عندما صفق الجمهور. ومن الواضح أنها كانت مستمتعة بأن تستقطب الأنظار. غالبًا ما تعني لها فكرة الشيء أكثر مما يعنيه الشيء نفسه. يتضح هذا في ما يتعلق بالسكاكر: من الممكن أن تتكلم عن السكاكر وأن تنتظرها طيلة النهار؛ وعندما تصير السكاكر أمامها، فإنها تضع واحدة في فمها قليلًا ثم تبصقها. لكنها لم تكن تتوقف بعد هذه التجارب، إذ في يوم السبت التالي، تكون تطلعاتها في ما يتعلق بالسكاكر الرائعة في أَوجها من جديد. أرادت كثيرًا أن تذهب لتتزلّج على الجليد. وعندما صرنا هناك، عند حلبة التزلج، وصارت الزلاجتان الصغيرتان اللتان اشترتهما لها أم ليندا في قدميها وعلى رأسها خوذة هوكي الجليد الواقية، زعقت غاضبة لأنها رأت أنها لا تستطيع حفظ توازنها وظنّت أنها لن تتمكن من تحقيق ذلك في وقت قريب. لكن فرحتها كانت عظيمة عندما رأت أنها تستطيع أن تتزلّج فعلًا. وهذا ما حدث فعلًا عندما كنا على بقعة الثلج الصغيرة في حديقة أمي نجرّب التجهيزات التي أتينا بها معنا. لكن حتى في هذه المرة، كانت فكرة التزلّج، وفرحة القدرة على التزلّج، أعظم من التزلّج في حد ذاته. يمكنها أن تكون سعيدة تمامًا من غير أن تتزلج فعلًا. كانت تحب السفر معنا، وتحب أن ترى أماكن جديدة وأن تظل عدة شهور بعد ذلك تتحدّث عن الأشياء الصغيرة التي حدثت هناك. لكنها، بطبيعة الحال، تحب اللعب مع الأطفال الآخرين أكثر من أي شيء آخر. كانت تجربة كبرى بالنسبة إليها عندما جاء

أطفال الحضانة معها إلى البيت ذات يوم. وعندما كان من المقرر أن يأتي بنجامين إلى بيتنا أول مرة، أنفقتْ الأمسية التي سبقت ذلك اليوم في التحقق من ألعابها كلها. أقلقها كثيرًا احتمال ألّا تعجبه. كانت قد أتمّت السنة الثالثة قبل وقت قصير. وعندما وصل بنجامين، لعبا معًا بحماسة كبرى واختفت المخاوف كلها في دوامة الإثارة والفرحة. قال بنجامين لأبويه إن فانيا ألطف طفلة في الحضانة. وعندما أخبرتها بما قاله (كانت جالسة في السرير تلعب بدمى باربي)، استجابت بطريقة أظهرت انفعالات لم تظهر عليها من قبل. قلت لها من باب الغرفة: «هل تعرفين ما قاله بنجامين؟».

قالت وهي ترفع رأسها وتنظر إليّ باهتمام مفاجئ: «لا، لا أعرف، ماذا قال؟».

«قال إنكِ ألطف بنت في الحضانة».

لم أرَ الفرحة تملؤها بهذا الشكل من قبل! كانت تتوهّج سعادة. أدركت أنني لا أستطيع أن أقول لها، ولا تستطيع ليندا أيضًا، أي شيء يجعلها تستجيب هذه الاستجابة؛ وأدركت ببصيرة داخلية واضحة مفاجئة إنها ليست لنا. إن حياتها ملك لها وحدها.

أجابتني: «ماذا قال؟».

أرادت أن تسمعها من جديد.

«قال إنكِ ألطف بنت في الحضانة».

كانت ابتسامتها خجلى، لكنها سعيدة. جعلني هذا سعيدًا أيضًا، لكن ظلًا ظل معلقًا فوق سعادتي: أليس من المبكّر إلى حد ينذر بالخطر أن تعني لها الكثير آراء الآخرين وما يفكرون فيه؟ أليس من الأفضل أن يأتي كل شيء منها هي حتى يكون نابعًا من نفسها؟ فاجأتني بهذه الطريقة مرة أخرى عندما كنتُ في حضانة الأطفال. ذهبت لآخذها فجرت صوبي في الممر وسألتني إن كانت ستيلا تستطيع أن تذهب معها إلى إسطبلات الخيل بعد ذلك. قلت لها إن الأمور لا تسير بهذه الطريقة وإن التخطيط المسبق أمر ضروري. علينا أن نتحدّث مع أهلها أولًا! وقفت فانيا تنظر إليّ عندما كنت أقول لها ذلك،

وكانت خيبة الأمل واضحة عليها. لكنها لم تستخدم منطقي عندما ذهبت لتخبر ستيلا، ولم تستخدم الأسباب التي قلتها لها. سمعت ما قالته عندما كنت أبحث في الغرفة عن معطفها الواقي من المطر.

قالت لستيلا: «سيكون الذهاب إلى الإسطبل مملًا بالنسبة إليك. إن الفرجة وحدها ليست أمرًا ممتعًا».

كان هذا شيئًا ناتجًا عن التفكير، عن الاهتمام بردود أفعال الآخرين قبل ردود أفعالها. أدركت هذا لأنني أفعل مثلها. عندما صرنا في اتجاه حديقة فولكيتس تحت المطر، رحت أتساءل في نفسي: كيف التقطتْ هذا الأمر؟ هل التقطته لأنه موجود من حولها، غير مرئي، لكنه موجود كالهواء الذي تتنفسه؟ أم لعله جاءها عن طريق الوراثة؟

لم أعبّر أبدًا عن هذه الأفكار التي كانت عندي في ما يتعلّق بالأطفال، إلّا أمام ليندا بالطبع، لأن هذه الأسئلة المعقّدة منتمية إلى حيث تنتمي... أسئلة منتمية إلى نفسي وإلى ما هو بيني وبين ليندا. في العالم الواقعي، العالم الذي تعيش فيه فانيا، كان كل شيء بسيطًا، وكل شيء يجد تعبيرا بسيطًا عنه. لا يظهر التعقيد إلّا عند جمع هذه الأجزاء معًا. ومن الطبيعي أنها ما كانت تعرف شيئًا عن هذا الجمع. ثم إن حقيقة أننا نتحدث عن البنتين كثيرًا لم تكن ذات نفع على الإطلاق في حياتنا اليومية حيث كان كل شيء متداخلًا، وحيث يقف كل شيء دائمًا على حافة السقوط في الفوضى. خلال أول «أحاديث التقدم» في ما يتعلّق باللغة السويدية التي جرت بيننا وبين العاملين في الحضانة، كان هنالك كلام كثير عن أن فانيا لا تتواصل مع معلماتها وعن عدم رغبتها في الجلوس في أحضانهن ولا في أن يربّتن عليها ويلاطفنها، إضافة إلى خجلها بشكل عام. علينا أن نعمل على تقوية شخصيتها، وعلى تعليمها كيف تمارس دورًا أكثر حضورًا في الألعاب، وأن تكون مبادرة وتتحدّث أكثر؛ هكذا قالت المعلّمات لنا. أجابت ليندا بأن فانيا قوية الشخصية بما فيه الكفاية في البيت. وقالت إنها تتولى دور القيادة في الألعاب كلها، وتظهر روح المبادرة دائمًا؛ كما أنها تتكلم كثيرًا جدًا. قالت

المعلمات لنا إن الأشياء القليلة التي تقولها في الحضانة ليست واضحة لأن لغتها السويدية غير صحيحة، كما أن المفردات التي لديها ليست كثيرة؛ وهذا ما جعلهن يتساءلن عما إذا كنا نستحسن اللجوء إلى اخصائي معالجة بالكلام. وفي هذه اللحظة من حديثنا، ناولتنا المعلمات كراسة تخص عيادة أحدهم في المدينة. إنهم مجانين في هذا البلد! هكذا قلت في نفسي... اخصائي معالجة بالكلام؟ أيجب أن يكون كل شيء مؤسساتيًا؟ إنها في الثالثة من عمرها فحسب!

قلت لهن: «لا، لا أريد أن تذهب إلى اخصائي المعالجة بالكلام». حتى تلك اللحظة، كانت ليندا هي من يتكلم... «سوف تُحل هذه المسألة من تلقاء نفسها. أنا لم أبدأ الكلام إلّا عندما بلغت الثالثة. لم أقل شيئًا قبل ذلك باستثناء كلمات منفردة لم يستطع أحد فهمها غير أخي».

ابتسمت المعلمات.

... «وعندما بدأت الكلام، كنت قادرًا على قول جمل طويلة متماسكة. إن الأمر كله معتمد على الشخص. لن نرسلها إلى اخصائي المعالجة الكلامية».

قال أولاف الذي كان مدير تلك الحضانة: «لا بأس، الأمر عائد إليكما. لكن من الأفضل أن تأخذا هذه الكراسات وأن تفكرا في الأمر قليلًا».

«لا بأس في هذا».

جمعتُ شعرها في يدي ومسّدت بإصبعي على رقبتها وعلى أعلى ظهرها. تحب هذه الحركة عادة، قبل الذهاب إلى النوم خاصة، لكنها انكمشت مبتعدة هذه المرة.

إلى الجهة الأخرى من الطاولة، كانت المرأة الصارمة قد بدأت حديثًا مع ميا التي أولتها الآن اهتمامها كله لأن فريدا وإيريك شرعا في رفع الأطباق وأدوات الطعام عن الطاولة. كان قالب الحلوى المغلّف بطبقة بيضاء البندَ التالي على جدول الأعمال، وكان يقف شامخًا على طاولة العمل في المطبخ مزينًا بالتوت البري وبخمس شمعات صغيرة، وإلى جانبه صف من

علب الكرتون المربعة التي تحتوي على شراب التفاح «برافو» الخالي من السكر.

كان غوستاف طيلة الوقت جالسًا إلى جانبي مديرًا ظهره إليّ تقريبًا، لكنه التفت الآن صوبنا.

قال: «مرحبًا يا فانيا! هل أنتِ مستمتعة بهذه الحفلة؟».

نظر إليّ عندما لم يلقَ استجابة منها، بل حتى لم تنظر إليه.

قال لي وهو يغمز بعينه: «يجب أن تأتي وتلعبي مع جوكه ذات يوم. هل تحبين أن تأتي لتلعبي معه؟».

أجابته فانيا وهي تنظر إليه بعينين صارتا مهتمين فجأة: «نعم». كان جوكه أضخم الأولاد في الحضانة. وكان الذهاب إلى بيته يتخطى أكثر أحلامها جرأة.

قال غوستاف: «سوف نرتب شيئًا ما»، ثم رفع كأسه وتناول رشفة من النبيذ الأحمر ومسح فمه بظهر يده.

سألني: «إذن... هل تكتب شيئًا الآن؟».

رفعت كتفي وقلت: «نعم، إنني أشغل وقتي».

«وهل تعمل في البيت؟».

«نعم».

«ماذا تفعل عندما تكتب؟ هل تجلس هكذا منتظرًا أن يأتيك الإلهام؟».

«لا، هذا لا يجدي نفعًا. عليّ أن أعمل كل يوم، مثلما تفعل أنت».

«عظيم، عظيم. هذا يعني أنه ليس لديك أشياء كثيرة تشتت تركيزك في البيت!».

«إنني أتدبر أمري».

«آه، أنت تتدبر أمرك، أنت تتدبر أمرك! في الحقيقة...».

قالت فريدا: «فلنذهب كلنا إلى غرفة المعيشة الآن. وهناك يمكننا أن نغني لستيلا».

أخرجت ولاعة من جيبها فأشعلت بها الشمعات الخمس.

قالت ميا: «ما أروع هذه الحلوى!».

قالت فريدا: «نعم، إنها جميلة! وهي صحية أيضًا. ليس في الكريما إلّا القليل جدًا من السكر». قالت هذا ثم حملت قالب الحلوى.

أضافت عندما بدأ الناس يتركون كراسيهم ويخرجون من الغرفة: «إيريك، هل تذهب وتطفئ الضوء؟».

لحقت بالناس وأنا ممسك بيد فانيا. ولم أكد أفلح في العثور على مكان قرب الجدار أبعد ما يمكن عن الطاولة حتى دخلت فريدا الغرفة المظلمة حاملة بين يديها قالب الحلوى بشموعه المضاءة. وعندما اقتربت من الطاولة بدأت تغني «يا، ما، هون، ليفا». فانضم إليها الكبار على الفور وترددت أصداء أغنية احتفال عيد الميلاد في أرجاء الغرفة بينما استقر القالب على الطاولة أمام ستيلا التي كانت تنظر إليه بعينين لامعتين.

قالت ستيلا: «هل أنفخ الشمعات الآن؟».

أومأت فريدا برأسها وهي تغني.

صفّق الجميع بعد ذلك، وأنا صفّقت معهم. ثم عاد الضوء من جديد ومرّت بضع دقائق كانت شرائح الحلوى خلالها تُوزّع على الأطفال. لم تُرِد فانيا أن تجلس إلى الطاولة، بل على الأرض عند الجدار حيث كنا معًا. جلست ووضعت طبقها في حضنها. لم ألاحظ قبل الآن أنها لا ترتدي حذاءها.

سألتها: «أين حذاؤك الذهبي؟».

قالت: «إنه حذاء غبي».

قلت لها: «لا، ليس غبيًا. إنه حذاء جميل، حذاء أميرة حقيقية».

كررت عبارتها: «إنه حذاء غبي».

«لكن، أين هو الآن؟».

لم تجبني.

قلت: «فانيا!».

رفعت رأسها ونظرت إليّ. كان فمها أبيض بسبب الكريما.

قالت وهي تشير صوب الغرفة الأخرى: «إنه هناك». نهضت وذهبت إلى تلك الغرفة ونظرت فيها... لم أجده. عدت إليها.

«أين وضعت الحذاء؟ لم أستطِع العثور عليه في الغرفة».

قالت لي: «عند الأزهار».

عدت إلى الغرفة ونظرت إلى أصص الأزهار المصفوفة على طوار النافذة، لكني لم أجد شيئًا.

هل كانت تقصد نبتة اليوكا؟

نعم، هذا صحيح! لقد وضعت الحذاء في الأصيص. رفعته ونفضت عنه التراب فوق الأصيص، ثم أخذته إلى الحمام فأزلت بقية التراب عنه. وبعد ذلك وضعته تحت الكرسي الذي علقتُ سترتها عليه عندما وصلنا.

ظننت أن هذا الانقطاع الذي حدث بسبب قالب الحلوى وشغَل اهتمام الأطفال كلهم يمكن أن يكون فرصة لها من أجل بداية جديدة. قد يكون من الأسهل عليها الآن أن تكون في الغرفة مع الأطفال.

قلت لها: «سوف آخذ قطعة من الحلوى أيضًا. سأكون في المطبخ. تعالي إذا أردت مني شيئًا. اتفقنا؟».

«اتفقنا يا بابا».

لم يتجاوز الوقت السادسة والنصف بحسب الساعة المعلقة في المطبخ. لم يذهب أحد بعد. وهكذا كان علينا أن ننتظر قليلًا. قطعت لنفسي شريحة صغيرة من قالب الحلوى الموضوع في الزاوية، ثم وضعتها في طبق وجلست إلى الناحية الأخرى من الطاولة لأن الكرسي الذي كنت جالسًا عليه من قبل صار مشغولًا الآن.

قال إيريك وهو ينظر إليّ بابتسامة محمّلة بشيء ما كأن سؤاله يحمل معنى أكثر مما قاله، معنى تدركه العين وحدها: «هنالك قهوة أيضًا إذا أردت شيئًا منها». على حد علمي، كان هذا أسلوبًا تعلمه حتى يبدو شخصًا أكثر أهمية؛ إنه شيء يشبه الخدع التي يلجأ إليها الكاتب العادي عندما يحاول إكساب قصصه مظهر العمق.

أجبته: «نعم، أريد قهوة». ثم نهضت فأخذت فنجانًا وملأته قهوة من سخان القهوة الرمادي. وعندما عدت إلى مكاني، كان إيريك في طريقه إلى الخروج من الغرفة. كانت فريدا تتحدث عن آلة القهوة التي اشترتها: إنها غالية الثمن، دمرَتْها تمامًا، لكنها ليست آسفة لأنها تستحق ثمنها بكل تأكيد فقهوتها رائعة، ومن المهم أن يدلل المرء نفسه بأشياء من هذا النوع؛ قد يكون هذا أكثر أهمية مما يظنه الناس عادة! كان لينوس يتحدث عن اسكِتش لسميث وجونز حضره قبل فترة: رجلان جالسان إلى طاولة عليها آلة كبيرة لصنع القهوة، يضغط أحدهما مقبض الآلة فينهمر كل شيء... لا ينهمر البن المطحون فقط، بل كل شيء، إلى أن تفرغ الآلة كلها. لم يضحك أحد. هدّل لينوس كتفيه ورفع كفَّيه إلى الأعلى، وقال: «قصة بسيطة عن القهوة. هل لدى أحد منكم قصة أفضل منها؟».

وقفت فانيا بالباب. جالت عيناها حول الطاولة. وعندما وجدتني، جاءت إليّ.

قلت لها: «هل تريدين الذهاب إلى البيت؟».

أجابتني: «نعم».

قلت: «لا بأس، لكن... هل تعرفين ماذا؟ أريد الذهاب إلى البيت أيضًا، لكني سأنهي هذه الحلوى أولًا. وسأشرب فنجان القهوة. هل تريدين الجلوس في حضني ريثما أنتهي منهما؟».

أطرقت برأسها فرفعتها ووضعتها في حضني.

قالت فريدا مبتسمة لها من الطرف الآخر من الناحية الأخرى من الطاولة: «أنا مسرورة لأنك أتيت يا فانيا. سرعان ما سيأتي وقت اصطياد الهدايا بعد قليل. ألا تريدين المشاركة؟».

أومأت فانيا برأسها فاستدارت فريدا عائدة إلى حديثها مع لينوس. كان هنالك مسلسل تلفزيوني شاهدَته على محطة «HBO»، ولكن لم يشاهده هو. راحت تمتدح المسلسل بحماسة شديدة.

سألتُ فانيا: «هل تريدين المشاركة في صيد الهدايا؟ هل ننتظر حتى تنتهي لعبة الصيد، ثم نذهب؟».

هزت فانيا رأسها... بإشارة أنها لا تريد.

في هذه اللعبة، يعطون كل طفل سنارة صيد صغيرة، ثم يلقي الأطفال بخيوط سناراتهم من فوق حاجز قماشي يختبئ خلفه شخص كبير يربط بكل خيط كيسًا يحتوي على جائزة: بعض السكاكر، أو لعبة، أو أشياء من هذا القبيل. في هذه الأسرة، من الممكن تمامًا أن يضعوا للأطفال في أكياس الهدايا حبات من البازلاء أو بعض الخرشوف. هكذا قلت في نفسي وأنا أناور بشوكتي من أمام فانيا حتى وصلت إلى الطبق فقطعت جزءًا من الحلوى بحافة الشوكة (قشرة بنية تحت الكريما البيضاء، وقلب أصفر فيه خطوط حمراء من المربّى)، ثم فتلتُ معصمي حتى تظل قطعة الحلوى على الشوكة ورفعتها مرورًا بفانيا فوضعتها في فمي. كان أسفل الحلوى شديد الجفاف، وكان السكر في الكريما أقل بكثير مما يجب؛ لكن ذلك كله يمكن أن يكون شيئًا مقبولًا مع رشفة من القهوة.

سألتُ فانيا: «هل تريدين بعض الحلوى؟» فأومأت برأسها. حملت بالشوكة قطعة إلى فمها فرفعت رأسها وابتسمت لي.

قلت لها: «يمكنك الذهاب إلى غرفة المعيشة معي، وهناك نستطيع رؤية ما يفعله الآخرون. قد ننضم إلى لعبة الصيد أيضًا».

قالت: «لقد قلت لي إننا ذاهبان إلى البيت».

«صحيح، قلت هذا، فلنذهب إذن». وضعت الشوكة على الطبق، وأنهيت فنجان القهوة. ثم وضعت فانيا على الأرض ووقفت. نظرت من حولي. لم أرَ أحدًا ينظر إلينا.

قلت: «إننا ذاهبان الآن».

في تلك اللحظة، دخل إيريك حاملًا بإحدى يديه عصا صغيرة من الخيزران وبالأخرى كيسًا من أكياس متجر «هيم كوب».

قال: «سوف تبدأ لعبة الصيد الآن».

نهض البعض للانضمام إلى اللعبة، في حين ظل البعض الآخر في مكانه. لم أرَ حاجة إلى تكرار الوداع مرة ثانية لأن أحدًا لم يلاحظ أنني ودعتهم. لقد كان انتباه الأشخاص الذين حول الطاولة منصبًّا في اتجاه آخر الآن! وضعت يدي على كتف فانيا وقدتها إلى خارج الغرفة. كان إيريك يصيح في غرفة المعيشة «الصيد!» فاندفع الأطفال جميعًا ومروا بنا في طريقهم إلى نهاية الصالة حيث كان الحاجز القماشي شرشفًا أبيض اللون معلقًا من الجدار إلى الجدار. سار إيريك خلف الأطفال كأنه راع، وقال لهم أن يجلسوا. كنا واقفين في الممر، وكنت أساعد فانيا في ارتداء سترتها وأستطيع من تلك النقطة رؤية ما يجري داخل الغرفة.

أغلقتُ سحّاب سترتها الخارجية المنتفخة التي صارت صغيرة عليها بعض الشيء، ثم وضعت قبعتها الصوفية على رأسها وزررت رباطها تحت ذقنها ووضعت حذاءها أمامها حتى تستطيع أن تضع قدميها فيه بنفسها.

قلت لها: «نحن جاهزان. ليس علينا إلّا أن نقول لهم شكرًا ثم نذهب».

رفعت ذراعيها في اتجاهي.

قلت: «ألا تستطيعين المشي؟».

هزت رأسها، وظلت ذراعاها ممدودتين.

قلت: «لا بأس. لكن عليّ أن أرتدي أشيائي أولًا».

في الصالة، كان بنجامين أول من «اصطاد». ألقى بصنارته فأمسك بالخيط الشخص المختبئ في الجانب الآخر، أظنه إيريك.

صاح بنجامين: «لقد اصطدت سمكة!».

ابتسم أهالي الأطفال الواقفون عند الجدار، وبدأ الأطفال الجالسون على الأرض يصيحون ويضحكون. وفي اللحظة التي تلت ذلك، رفع بنجامين صنارته فتدلى منها كيس أبيض صغير وجاء طائرًا فوق الحاجز القماشي. كان متصلًا بالخيط بمشبك ملابس. فك بنجامين الكيس وابتعد به بضع خطوات ليفتحه في سلام وهدوء بينما كانت صاحبة الحظ التالي، تيريزا، ترفع صنارتها بمساعدة من أمها. لففت شالي حول عنقي وأغلقت

أزرار سترتي التي اشتريتها في فترة تخفيض الأسعار في الربيع الماضي من محلات بول سميث في ستوكهولم، ثم وضعت القبعة التي اشتريتها من المتجر نفسه وانحنيت فوق كومة الأحذية عند الجدار بحثًا عن حذائي الذي كان أسود اللون برباطات صفراء. اشتريت هذا الحذاء في كوبنهاغن عندما كنت في معرض الكتب. لم يكن يعجبني أبدًا، ولا حتى عندما اشتريته. ثم إنه يذكرني الآن بالكارثة التي أصابتني هناك عندما وجدت نفسي عاجزًا عن الإجابة المنطقية عن أي سؤال من أسئلة الصحفي المتحمس الذكي الذي أجرى معي مقابلة وراح يطرح عليّ أسئلته فوق تلك المنصة. أما السبب الذي جعلني أمتنع عن رمي هذا الحذاء منذ فترة طويلة فهو تحديدًا حقيقة أننا كنا مفلسين تمامًا. كان رباط الحذاء أصفر كثيرًا!

ربطت حذائي ونهضت.

قلت: «إنني جاهز الآن». رفعت فانيا ذراعيها من جديد. حملتها وسرت بها على طول الممر، ثم أدخلت رأسي في باب المطبخ حيث كان أربعة أو خمسة من أهالي الأطفال.

قلت لهم: «إننا ذاهبان. أجمل التمنيات لكم، وشكرًا على الأمسية اللطيفة».

قال لينوس: «شكرًا لك». أما غوستاف فرفع يده إلى جبهته محييًا.

مضينا إلى الصالة بعد ذلك. ربّتُّ على كتف فريدا حتى تلتف إليّ. كانت واقفة إلى الجدار مبتسمة غارقة في تأمل مشهد الأطفال الجالسين على الأرض.

قلت لها: «إننا ذاهبان الآن. أشكركِ لأنكِ دعوتِنا! كانت حفلة جميلة. إنها مجموعة لطيفة من الأشخاص».

قالت: «لكن، ألا تريد فانيا أن تصطاد سمكة؟».

كشّرتُ تكشيرة معبرةً تمامًا قصدت منها أن أقول شيئًا يشبه «تعرفين كم يمكن أن يكون الأطفال غير منطقيين أحيانًا».

قالت لي: «لا بأس، لا بأس. شكرًا لأنكم أتيتم. كوني بخير يا فانيا!».

كانت ميا واقفة إلى جانبها وأمامها ابنتها تيريزا. قالت ميا: «لحظة واحدة فقط!».

انحنت من فوق الحاجز القماشي وطلبت من إيريك الذي كان جاثيًا هناك أن يعطيها كيسًا من أكياس الهدايا. أخذت الكيس وأعطته لفانيا.

قالت لها: «خذي يا فانيا! تستطيعين أن تأخذي هذا الكيس معك إلى البيت. وقد تقتسمين ما فيه مع هيدي إذا أحببتِ ذلك».

قالت فانيا وهي تضم الكيس إلى صدرها: «لا أريد اقتسامه».

قلت: «أشكرك كثيرًا! إلى اللقاء جميعًا!» التفتت ستيلا ونظرت إلينا.

«هل أنتِ ذاهبة يا فانيا؟ لماذا تذهبين؟».

قلت لها: «إلى اللقاء يا ستيلا! شكرًا لأنك دعوتِنا إلى حفلتك».

استدرنا ونزلنا السلم المظلم وعبرنا مدخل البناء فخرجنا إلى الشارع. أصوات، وصياح، ووقع خطوات، وأصوات محركات... كان الضجيج يعلو ويهبط باستمرار. لفتني فانيا بذراعيها ومالت برأسها على كتفي. إنها لا تفعل ذلك أبدًا في الأحوال المعتادة. هذه طريقة هيدي.

مرت بنا سيارة تاكسي. كان المصباح الذي على سطحها مضاء. مر بنا أيضًا رجل وامرأة مع عربة أطفال. كان رأس المرأة ملفوفًا بوشاح، وكانت صبية، ربما في العشرين. عندما مرا بنا، رأيت أن بشرة المرأة خشنة... طبقة كثيفة من البودرة على وجهها. كان الرجل أكبر منها، في سني، وكان يتلفت من حوله بحركة عصبية. أما عربة الأطفال، فكانت من النوع السخيف الذي له قضيب رقيق يشبه ساقًا محمولة على عجلات يستقر عليها مقعد الطفل. سارت في اتجاهنا قادمة من الناحية الأخرى للشارع عصبة من المراهقين. شعر أسود مسرّح، وسترات جلدية سوداء، وبنطلونات سوداء، وكان اثنان منهما على الأقل يرتديان أحذية بوما الرياضية بشعار الشركة الظاهر على مقدمة الحذاء. كان رأيي دائمًا إن وضع الشعار بهذه الطريقة ليس أكثر من حماقة. كانت في رقابهم سلاسل ذهبية، وكانوا يسيرون مترنحين قليلًا ويحركون أذرعهم بطريقة خرقاء.

الحذاء!

اللعنة، لا يزال حذاء فانيا الذهبي في الشقة.

توقفت. هل أترك الحذاء هناك؟ سيكون هذا أمرًا بائسًا حقًا. لا نزال عند الباب!

قلت: «علينا أن نعود يا فانيا. لقد نسينا حذاءك الذهبي».

توتر جسدها وقالت: «لا أريد هذا الحذاء».

أجبتها: «أعرف هذا. لكننا لا نستطيع تركه هناك. علينا أن نأخذه معنا إلى البيت. ولست مضطرة إلى استخدامه بعد الآن».

وضعت فانيا على الأرض وصعدت السلم مسرعًا. فتحت الباب ودخلت فالتقطت الحذاء من غير أن أنظر إلى داخل الشقة. لكني لم أستطع تجنب ذلك عندما انتصبت واقفًا فالتقطتني عينا بنجامين. كان جالسًا على الأرض في قميصه الأبيض وفي يده سيارة.

قال لي: «مرحبًا!» ولوّح بيده.

ابتسمت له وقلت: «مرحبًا يا بنجامين». ثم أغلقت الباب من خلفي ونزلت من جديد وحملت فانيا.

كان الطقس باردًا صافيًا في الخارج، لكن أضواء المدينة كلها، مصابيح الشوارع وواجهات المتاجر ومصابيح السيارات، كانت مندفعة إلى الأعلى كلها مستقرة هناك مثل قبة مضيئة فوق سطوح البيوت، قبة لا يستطيع ألق النجوم اجتيازها. وحدهُ القمر من بين الأجرام السماوية كلها كان معلّقًا هناك... بدرٌ شبه مكتمل ظاهر من فوق فندق هيلتون.

ظلّت فانيا متعلقة برقبتي عندما سرت مسرعًا في الشارع. كانت أنفاسنا مثل غيمة بيضاء من الدخان حول رأسينا.

قالت لي: «قد تكون هيدي راغبة في الحصول على الحذاء».

قلت: «يمكنها أن تأخذه عندما تصبح كبيرة مثلك».

قالت: «هيدي تحب الأحذية».

قلت: «صحيح، تحب الأحذية».

تابعنا السير صامتين. وعند محل «Subway» للشطائر عند السوبر ماركت، رأيت المرأة المجنونة ذات الشعر الأبيض تحدّق عبر النافذة. كانت امرأة عدوانية يصعب توقع تصرفاتها، وكانت تتجوّل في منطقتنا تكلم نفسها أكثر الأحيان. كانت تربط شعرها الأبيض في عقدة مرتفعة فوق رأسها وتروح وتأتي مرتدية معطفها البيج نفسه، في الصيف وفي الشتاء.

سألتني فانيا: «هل سنقيم حفلة عندما يأتي عيد ميلادي يا بابا؟».

«إذا كنت تريدين ذلك».

«أريد! وأريد أن تأتي إليها أنت وهيدي وماما».

أجبتها وأنا أنقلها من ذراعي اليمنى إلى اليسرى: «ستكون حفلة صغيرة لطيفة».

«هل تعرف ما أريده؟».

«لا».

قالت: «أريد سمكة ذهبية. هل أستطيع الحصول على سمكة ذهبية؟».

أجبتها: «مممم... حتى يكون لديكِ سمكة ذهبية، يجب أن تكوني قادرة على العناية بها بشكل صحيح. يجب إطعامها وتنظيف الحوض، وكل هذه الأشياء. أظن أنك يجب أن تكوني أكبر قليلًا من أربع سنوات».

«لكني أستطيع إطعامها! إن جيرو لديه سمكة ذهبية. وهو أصغر مني».

قلت: «هذا صحيح. سنرى إذن. من المفروض أن تظل هدايا عيد الميلاد سرًا. أنت تعرفين هذا... هذه هي الفكرة منها».

«سر؟ هل تقصد أنها تكون سرًا؟».

أومأت برأسي.

صاحت المرأة المجنونة التي صارت أمامنا بعدة أمتار: «أوه، خراء! خراء». انتبهتْ إلينا فاستدارت ناظرة صوبي. كانت عيناها شريرتين.

صاحت من خلفنا: «ما هذا الحذاء الذي تحمله؟ أنت، يا بابا! ما هذا الحذاء الذي تحمله؟ دعني أقول لك كلمة الآن، فورًا!».

أضافت بعد ذلك بصوت أعلى: «خراء! أوه... خراء».

سألتني فانيا: «ماذا تقول هذه السيدة العجوز؟».

أجبتها وأنا أضغطها إلى جسدي بقوة أكبر: «لا شيء. أنت أفضل شيء عندي يا فانيا، هل تعرفين هذا؟ أفضل شيء على الإطلاق».

سألتني: «هل أنا أفضل من هيدي؟».

ابتسمت لها وقلت: «أنتما الاثنتان أفضل شيء، أنت وهيدي. بالدرجة نفسها تمامًا».

قالت: «هيدي أفضل». كانت نبرة صوتها محايدة تمامًا كأنها تقرر حقيقة لا جدل فيها.

أجبتها: «هذا كلام فارغ... أنت، أيتها السعدانة الصغيرة».

ابتسمت لي. نظرت من فوقها إلى داخل السوبر ماركت الكبير شبه المهجور حيث كانت السلع لامعة مصطفّة على جوانب الممرات الضيقة بين الرفوف وطاولات العرض. رأيت امرأتين جالستين عند صندوقي المحاسبة تحدقان منتظرتين قدوم المشترين. كانت سيارة تنطلق مسرعة عند إشارة المرور أمامنا. وعندما أدرت رأسي لأنظر إليها وجدتها واحدة من سيارات الجيب الضخمة التي صارت تملأ شوارعنا في السنوات الأخيرة. كانت الرقة التي أحسستها تجاه فانيا كبيرة إلى درجة شعرت معها بأنني أتمزق إلى قطع صغيرة. بدأت أعدو حتى أتغلّب على هذا الإحساس. مررت بمطعم أنقره، المطعم التركي الذي يضع الرقص الشرقي والغناء على قائمة الطعام، والذي كثيرًا ما يقف أمام بابه عند المساء رجال شرقيون حسنو الملبس تفوح منهم روائح الكولونيا وروائح السيجار. لكن المطعم كان خاويًا الآن. مررنا أيضًا بمحل «برغركينغ» حيث كانت فتاة بدينة إلى حد لا يصدق جالسة على المقعد الذي في الخارج مرتدية قبعة وقفازين من غير أصابع وتلتهم الهامبرغر. ثم وصلنا إلى التقاطع بعد مرورنا بشركتي «سيستم بولاغيت» و«هانديل سبانكين»، فتوقّفت لأن الإشارة كانت حمراء... رغم أنني لم أرَ سيارات في أي من الاتجاهين. وخلال ذلك كله كنت أشد فانيا بقوة إلى صدري.

سألتها مشيرًا إلى السماء خلال وقوفنا بانتظار الإشارة الخضراء: «هل ترين القمر؟».

أجابتني: «مممم». ثم قالت بعد صمت قصير: «هل وصل أحد إليه؟».

كانت تعرف تمامًا أن البشر ذهبوا إلى القمر؛ كما تعرف أيضًا أنني أحب أن أحدثها عن هذه الأشياء.

قلت لها: «نعم، لقد ذهب بشر إلى القمر. بعد ولادتي بفترة قصيرة، طار إليه ثلاثة رجال. إنها مسافة طويلة، استغرقت عدة أيام. وبعد ذلك طاروا حوله أيضًا».

قالت فانيا: «لم يطيروا. كانت لديهم مركبة فضاء».

قلت لها: «أنت محقة. لقد ذهبوا في صاروخ».

تغيّر لون الإشارة إلى الأخضر فعبرنا الشارع إلى الجهة الأخرى حيث تبدأ الساحة التي تقع شقتنا عليها. كان رجل رشيق في سترة جلدية يصل شعره حتى منتصف ظهره واقفًا أمام الصرّاف الآلي. مد يده ليأخذ بطاقته بينما كانت يده الأخرى تزيح الشعر عن وجهه. كانت تلك حركة أنثوية، حركة ظريفة، مسلية مثل مظهره كله... المظهر الحديدي المُصمَّم بحيث يكون قاتمًا قاسيًا رجوليًا.

هبت نسمة ريح فطارت الإيصالات المصرفية الورقية التي كانت في كومة صغيرة عند قدميه.

دسست يدي في جيبي وأخرجت المفاتيح.

قالت فانيا مشيرة إلى آلتي الآيس كريم عند المطعم التايلندي الصغير قرب مدخلنا: «ما هذا؟».

أجبتها: «آيس كريم. لكنك تعرفين هذا».

قالت: «أريد القليل منه!».

نظرت إليها وقلت: «لا، لن تحصلي على الآيس كريم الآن. لكن، هل أنت جائعة؟».

«أنا جائعة».

«نستطيع شراء بعض شرائح الدجاج إذا أحببت. هل تريدين الدجاج؟».
«نعم».

قلت: «سنشتريها»، ثم أنزلتها إلى الأرض ودفعت باب المطعم الذي لم يكن أكثر من «حفرة في الجدار» لكنه كان يملأ شرفتنا المرتفعة سبعة طوابق فوقه برائحة الدجاج المقلي والنودلز كل يوم. كانوا يبيعون وجبة لشخصين في علبة مقابل خمسة وأربعين كرونًا. وهكذا لم تكن تلك المرة الأولى التي أقف فيها أمام طاولة البيع الزجاجية وأطلب ما أريده من الفتاة الصبية الآسيوية النشطة النحيلة التي لا يحمل وجهها أي تعبير. كان فمها مفتوحًا دائمًا. ولثتها ظاهرة من فوق أسنانها وعيناها محايدتان دائمًا كما لو أنهما لا تميزان بين شيء وآخر. كان في المطبخ شابان في مقتبل العمر مثلها، لمحتهما لمحات سريعة هناك. ومن بينهما مرَّ رجل في الخمسينيات، كان وجهه خاليًا من التعبير أيضًا رغم أنني أرى فيه لمسة بسيطة من تعبير ودّي على الأقل عندما أصادفه في متاهة الممرات الطويلة في أسفل البناء: يكون في طريقه إلى إحضار شيء من المستودع، أو إلى أخذه شيء إلى ذلك المستودع؛ أما أنا فأكون عند آلات غسل الملابس، أو ذاهبًا لرمي القمامة، أو دافعًا دراجتي لأدخل أو لأخرج.

سألتُ فانيا: «هل تستطيعين حملها؟» ثم أعطيتها العلبة التي ظهرت على طاولة البيع بعد عشرين ثانية من طلبها. أومأت فانيا برأسها. ثم خرجنا من المطعم وصرنا في مدخل البناء حيث وضعت فانيا العلبة على الأرض لتضغط مفتاح المصعد.

وفي المصعد، راحت تعد الطوابق بصوت مرتفع حتى وصلنا.

صرنا أمام باب شقتنا فناولتني العلبة وفتحتْ الباب منادية أمها حتى قبل أن تدخل البيت.

أمسكتها وقلت لها: «اخلعي الحذاء أولًا!».

وفي تلك اللحظة، جاءت ليندا من غرفة المعيشة. سمعتُ صوت التلفزيون آتيًا من الغرفة.

شممت رائحة عفونة بسيطة، وشممت شيئًا أسوأ منها... رائحة آتية من سلة القمامة الكبيرة ومن كيسي الحفاضات الصغيرين عند الزاوية بالقرب من عربة الأطفال المزدوجة المطوية. كانت سترة هيدي مرمية على الأرض إلى جانب سلة القمامة، وحذاؤها أيضًا.

بحق الجحيم، لماذا لم تضعهما ليندا في الخزانة.

رأيت ملابس وألعابًا ونشرات إعلانية قديمة وأكياسًا وزجاجات ماء متناثرة في الصالة. ألم تكن هنا طيلة بعد الظهر؟

لكن لديها من الوقت ما يكفي للاستلقاء على الأريكة ومشاهدة التلفزيون!

قالت فانيا: «أعطوني كيسًا من الهدايا رغم أنني لم أشارك في لعبة الصيد!».

هذا إذًا ما تراه فانيا أمرًا هامًا!... انحنيت لأخلع حذاءها. كان جسدها يتلوّى بنفاد صبر.

«ولعبت أيضًا مع أخيلس!».

قالت ليندا وهي تقرفص أمامها: «شيء لطيف. دعيني أرى ما في كيس الهدايا».

فتحت فانيا الكيس.

مثلما توقّعت... هدايا «بيئية»! لا بد أنهم أتوا بها من المتجر الذي افتُتح مؤخرًا في المول مقابل بنايتنا. مجموعة من حبّات البندق المكسوة بالشوكولاته، بألوان متعددة. وشيء يشبه الزبيب.

«هل أستطيع أكلها الآن؟».

قلت لها: «الدجاج أولًا؛ في المطبخ!».

علقت سترتها على المشجب، ووضعت حذاءها في خزانة الأحذية، ثم ذهبت إلى المطبخ حيث قدّمت لها شرائح الدجاج ولفافات الخضار مع اللحم والنودلز بعد أن وضعتها في طبق.

أخرجت لها سكينًا وشوكة وملأت كأسًا من الماء، ثم وضعت كل شيء

أمامها على الطاولة التي لا تزال عليها علامات من أقلام التلوين وعلب الألوان المائية وزجاجات الماء والفراشي وبضعة مناديل ورقية.

سألتني ليندا قبل أن تجلس إلى جانبها: «هل كان كل شيء على ما يرام هناك؟».

أومأت برأسي، ثم استندت إلى طاولة المطبخ طاويًا ذراعيَّ على صدري.

سألتها: «هل نامت هيدي بسهولة؟».

«لا، كانت حرارتها مرتفعة قليلًا. لا بد أن هذا كان سبب انزعاجها».

قلت: «من جديد؟».

«نعم، لكن الحرارة ليست مرتفعة كثيرًا». تنهدتُ، ثم نظرت إلى كومة الأطباق المتسخة في المجلى.

قلت: «يبدو كل شيء هنا في حالة فوضى».

قالت فانيا: «أريد أن أشاهد التلفزيون».

أجبتها: «ليس الآن. حان وقت النوم منذ فترة».

«أريد مشاهدة التلفزيون!».

نظرت في عيني ليندا وسألتها: «ماذا كنت تشاهدين في التلفزيون؟».

«ماذا تعني؟».

«لا أعني شيئًا خاصًا. كنت تشاهدين التلفزيون عند وصولنا. أتساءل عمَّ كنت تشاهدين في التلفزيون».

جاء دورها الآن لكي تتنهد.

قالت فانيا وهي تحمل قطعة اللحم كأنها تريد رميها: «لا أريد الذهاب إلى النوم!» أمسكتُ بذراعها.

قلت لها: «ضعيها في الطبق».

قالت ليندا: «تستطيعين مشاهدة التلفزيون عشر دقائق، وتستطيعين أن تأكلي بعض السكاكر».

قلت: «قلت لها الآن إنها لا تستطيع ذلك».

قالت وهي تنهض: «عشر دقائق، عشر دقائق فقط! وبعد ذلك آخذها إلى السرير لتنام».

قلت: «أوه، نعم! هذا يعني أن عليّ أن أغسل الأطباق، أليس كذلك؟».

«عن أي شيء تتحدث؟ إفعل ما تريد! كانت هيدي معي هنا طيلة الوقت، إن أردت أن تعرف حقًا. كانت مريضة، وكانت منزعجة، و...».

«سأخرج لأدخن».

«... مستحيل».

ارتديت سترتي وحذائي وخرجت إلى الشرفة الشرقية حيث أدخن عادة لأن لها سقفًا ولأن من النادر أن أرى أحدًا عندما أقف عليها. لدينا شرفة إلى الجهة الأخرى أيضًا، وهي ممتدة على طول الشقة كلها تقريبًا. طولها أكثر من عشرين مترًا، لكنها من غير سقف. ثم إنها مطلة على الساحة في الأسفل حيث يكون هناك أناس دائمًا؛ وهي مطلة أيضًا على الفندق وعلى المول إلى الناحية الأخرى من الشارع، إضافة إلى واجهات البيوت الممتدة حتى حديقة ماجيستراتس. أريد أن أحظى بشيء من الهدوء والسلام، ولا أريد رؤية الناس! وهكذا، أغلقت باب الشرفة الصغيرة من خلفي وجلست على الكرسي في الزاوية ثم أشعلت سيجارة ووضعت قدمي على الدرابزين ورحت أنظر إلى ساحات البنايات وحواف سطوحها التي تشبه أشكالًا خشنة مرسومة على لوحة السماء الواسعة. كان المشهد في تغير مستمر. في لحظة تظهر تجمعات من سحب تشبه الجبال بمنحدراتها وهوّاتها السحيقة وكهوفها، وتحوّم تحويمًا غامضًا في وسط السماء الزرقاء؛ وفي لحظة أخرى، يمكن أن تندفع سحب رطبة آتية من مسافة بعيدة فتظهر مثل لحاف رمادي هائل عند الأفق. عندما يحدث هذا في الصيف، ترى بعد ساعات قليلة من ذلك دفقات من ضياء رائع تشق دربها في ظلمة الغيوم فتفتح فجوات تدوم ثوانٍ معدودة، ثم تسمع صوت الرعد متدحرجًا على سطوح البنايات. لكني كنت أحب مظهر السماء العادي، حتى إن كانت سماء ملساء من غير تضاريس، رمادية، ماطرة، لأن تلك الخلفية الثقيلة تجعل الألوان

في ساحات البنايات تبرز واضحة، مشعة تقريبًا. تلك السقوف التي بلون الصدأ! واحمرار القرميد البرتقالي!... كم يكون ذلك كله مشرقًا على تلك الخلفية البيضاء الرمادية! أو يكون اليوم صيفيًا عاديًا بسماء صافية زرقاء وشمس مشعة حارة وغيوم خفيفة تجري في السماء، غيوم لا عدّ لها؛ وتنداح في البعيد مساحات من البنايات اللامعة. وعندما يأتي المساء، يظهر ألق أحمر عند الأفق كما لو أن الأرض تحته تضطرم لهبًا، ثم تأتي الظلمة الخفيفة اللطيفة التي تهدأ المدينة طيلة الليل تحت كفّها الحانية كأنها سعيدة بهذه الراحة بعد يوم كامل في ضياء الشمس. تضيء النجوم في السماء، وتحوّم أقمار اصطناعية، وتغمز أضواء الطائرات الصاعدة والهابطة في مطاري ستوروب وكاستروب.

إذا أردت رؤية الناس من هنا، فعليّ أن أنحني وأنظر إلى الأسفل صوب الساحة خلف البناء حيث يظهر أحيانًا شخوص لا وجوه لهم في تلك النوافذ، شخوص في حركتهم الأبدية بين الغرف والأبواب: يُفتح باب براد، ويتناول منه شيئًا رجلٌ في سروال داخلي فقط، ثم يغلق الباب ويجلس إلى طاولة المطبخ. ينصفق باب في مكان آخر فتظهر امرأة في معطف حاملة حقيبتها على كتفها وتسرع هابطة السلم فتدور وتدور فيه. وهناك... لا بد أنه رجل متقدّم في السن إذا احتكمنا إلى شكل شبحه الظاهر من بعيد وبطء حركته... إنه يكوي الملابس. وعندما ينتهي، يطفئ الضوء فتموت تلك الغرفة. فأين يجب أن تنظر إذًا؟ إلى الأعلى، حيث يظهر أحيانًا رجل يقفز على الأرض ويلوّح بيديه أمام شيء لا تستطيع رؤيته، لكنك لا تشك في أنه يلاعب طفلًا صغيرًا! أو يمكن أن تنظر إلى تلك المرأة التي بلغت الخمسينات، التي تقف كثيرًا عند النافذة وتنظر إلى الخارج!

لا... تتجنبُ نظرتي أولئك الناس جميعًا. إنها تطير في الأعلى، إلى الخارج، لا لكي تدقّق في ما تجده هناك، ولا لكي يبهرها الجمال، بل لكي تستريح... لكي تكون وحدها تمامًا.

أمسكت بزجاجة الكوكاكولا ذات اللترين، المليئة حتى منتصفها.

كانت واقفة على الأرض إلى جانب الكرسي. ملأت إحدى الكؤوس التي على الطاولة. كانت الزجاجة مفتوحة. لقد فقدت غازها فصار طعم المادة المُحلّية مُرًا بعض الشيء. إنه الطعم الذي عادة ما يُمَوّهُه فوران غاز الكربون، لكنه صار الآن واضحًا. لا أهمية لهذا لأنني لا أحفل كثيرًا بطعم الأشياء.

أعدت الكأس إلى الطاولة وأطفأت سيجارتي. ما عاد عندي الآن شيء من تلك المشاعر تجاه الناس الذين أمضيت معهم عدة ساعات قبل قليل. لست أبالي إن احترقوا في النار جميعًا. كانت هذه قاعدة من قواعد حياتي. عندما أكون مع أشخاص آخرين أجد نفسي مرتبطًا بهم، وأشعر تجاههم بقرب شديد، وبتعاطف كبير. يكون إحساسي هذا عظيمًا إلى درجة تجعل راحتهم أهم من راحتي دائمًا. إنني أضع نفسي في مرتبة أدنى، أمحو نفسي تقريبًا: هنالك آلية داخلية لا أستطيع التحكم فيها تجعلني أضع أفكارهم وآراءهم قبل أفكاري وآرائي. لكن الآخرين لا يعنون لي شيئًا منذ اللحظة التي أصير فيها وحدي. لا أقصد أنني أكرههم أو أنني أحس نحوهم بغضًا، بل على العكس تمامًا: أحب أكثرهم، كما أنني أستطيع رؤية قيمة ما في الأشخاص الذين لا أحبهم. أرى فيهم خصالًا لا أستطيع فهمها، أو أجد فيهم ما يثير الاهتمام على أقل تقدير، أجد شيئًا يمكن أن يشغل عقلي في تلك اللحظة. لكن كوني أحبهم لا يعني أنني أهتم بهم حقًا. الحالة الاجتماعية هي ما يقيدني، هي ما يربطني بالناس، وليس الأشخاص أنفسهم. لا وجود لحد وسط بين هاتين النظرتين. هنالك فقط الإنسان الصغير الذي يمحو نفسه من ناحية، والإنسان الضخم الذي يخلق المسافات الفاصلة من ناحية أخرى. أما حياتي اليومية فهي قابعة بين الاثنين. لعل هذا ما يجعلني أجد عيشها صعبًا إلى هذا الحد. الحياة اليومية بواجباتها ومهامها وروتينها المتكرر؛ إنها الشيء الذي أحتمله لكنها ليست الشيء الذي أستمتع به ولا هي شيء أجد فيه معنى أو أجد فيه سعادة. لا علاقة لهذا بقلة الرغبة في تنظيف الأرض أو تغيير الحفاضات، بل بشيء أساسي أكثر: ليست الحياة

من حولي بذات معنى. أتوق دائمًا إلى أن أكون بعيدًا عنها. وهكذا لم تكن هذه الحياة التي أعيشها حياتي أنا. حاولت أن أجعلها حياتي، كان هذا كفاحي لأنني أردت هذا، بالطبع أردته، لكني فشلت... كان توقي الدائم إلى شيء آخر يودي بمحاولاتي كلها.

ما المشكلة؟

هل هي النبرة الحادة المُغْثية التي أسمعها في كل مكان ولا أستطيع احتمالها، النبرة التي تصدر عن الناس الزائفين كلهم وعن الأماكن الزائفة كلها، عن الأحداث الزائفة والنزاعات الزائفة التي تجتازها حياتنا، الأشياء التي نراها لكننا لا نشارك فيها، والمسافة التي فتحتْها الحياة الحديثة أمامنا بطريقتها هذه، المسافة التي لا نستطيع تغييرها حقًا، الآن، هنا؟ إن كان الأمر هكذا، وإن كان المزيد من الواقع والمزيد من المشاركة في هذا الواقع هو ما أصبو إليه، فمن المؤكد أنه يجب أن يكون هذا الذي يحيط بي هو ما عليّ قبوله بكل سرور؟ أليس ينبغي ألا يكون هو الشيء الذي أتوق إلى الابتعاد عنه؟ أو لعلها الطبيعة المقرّرة مسبقًا لأيامنا في هذا العالم هي ما يثير ردة الفعل هذه عندي... سكك الروتين التي نسير عليها والتي تجعل كل شيء معروفًا مسبقًا إلى حد يجعلنا مضطرين إلى استثمار المال والجهد في أنواع شتى من التسلية حتى نحس شيئًا من التماسك؟ أعرف ما سيحدث كلما خرجت، كلما سرت خارجًا من الباب؛ وأعرف ما سأفعله. هكذا هو الأمر على المستوى الجزئي: أذهبُ إلى السوبر ماركت فأقوم بالتسوق. وأذهب لأجلس في مقهى وأقرأ صحيفة. وأذهب لأجلب أطفالي من حضانة الأطفال. هكذا هو الأمر على المستوى الجزئي، منذ لحظة الدخول الأول إلى المجتمع، حضانة الأطفال، إلى بوابة الخروج الأخيرة، بيت المسنين. أم لعل هذا النفور الذي أحسه قائم على التماثل الذي ينتشر في العالم ويجعل كل شيء أصغر حجمًا؟ إذا ارتحل المرء في النرويج الآن، فإنه يرى الشيء نفسه في كل مكان، الطرق نفسها، والبيوت نفسها، ومحطات الوقود نفسها، والمتاجر نفسها. حتى أواخر الستينيات، كان يمكنك أن ترى تغير الثقافة

المحلية عندما تقود السيارة عبر جودبراندسدالن على سبيل المثال: المباني الخشبية السوداء الغريبة، شديدة النقاء، شديدة الكآبة، تلك التي صارت الآن معزولة كأنها متاحف صغيرة ضمن ثقافة ليس فيها اختلاف عن الثقافة التي تركتها خلفك في رحلتك أو عن الثقافة التي تتجه إليها. وأوروبا أيضًا، أوروبا التي تندمج أكثر فأكثر ضمن بلد واحد متجانس ضخم. الشيء نفسه، الشيء نفسه، الشيء نفسه في كل مكان. أم لعل الأمر عائد إلى الضوء الذي ينير العالم ويجعل كل شيء قابلًا للفهم ويفرغه من المعنى؟ لعلها الغابات التي اختفت، وأجناس الحيوانات التي انقرضت، وأنماط الحياة التي لن تعود أبدًا؟

نعم، كنت أفكر في هذا كله، وكان هذا كله يملؤني حزنًا وإحساسًا بالعجز. إن كان هنالك عالم أتوجه إليه في ذهني، فهو عالم القرنين السادس عشر والسابع عشر بغاباته الواسعة وسفنه المبحرة وعرباته التي تجرها الخيول. بقلاعه وبطواحين الهواء، بأديرته وبلداته الصغيرة، برسّاميه ومفكريه ومستكشفيه ومخترعيه وقساوسته وصيدلييه. كيف يكون الأمر إن عشت في عالم كل شيء فيه مصنوع بقوة يديك، أو بقوة الريح أو الماء؟ كيف يكون الأمر إن عشت في عالم لا يزال هنوده الأميركيون يعيشون حياتهم نفسها في سلام؟ هناك، حيث تكون تلك الحياة ممكنة حقًا! هناك حيث لا يجتاح الغزو أفريقيا! هناك حيث يحل الظلام عند غياب الشمس ويأتي النور عند شروقها! هناك حيث يكون عدد البشر قليلًا وتكون أدواتهم بدائية إلى حد يجعلهم غير قادرين على إلحاق آثار ضارة بقطعان الحيوانات، وغير قادرين على إفنائها! هناك حيث لا تستطيع السفر من مكان إلى مكان من غير أن تتعب حقًا، حيث لا يحظى بالحياة المريحة غير الأغنياء... في ذلك العالم حيث تملأ الحيتان البحر وتعجّ الغابات بالذئاب والدببة، وتظل هنالك بلدان بعيدة غريبة لا يمكن لقصة أي مغامر رحالة أن تفيها حقها، كالصين التي لم تكن الرحلة إليها تستغرق شهورًا فحسب فضلًا عن أن تلك الرحلة حكر على قلة صغيرة من التجار والبحارة، بل كانت

أيضًا رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر. أعترف أن ذلك العالم كان خشنًا شقيًا قذرًا تجتاحه الأمراض والسُّكر والجهل... كان عالمًا ملؤه الألم وقصر العمر وشيوع الخرافة؛ لكنه أنتج أعظم الكتاب، شكسبير! وأنتج أعظم الرسامين، رامبراندت! وأعظم العلماء، نيوتن!... لم نرَ أحدًا يتفوق على واحد منهم في ميدانه... فكيف استطاعت تلك الحقبة إنتاج هذه الثروة؟ هل لأن الموت كان أكثر قربًا ولأن الحياة كانت أكثر وضوحًا نتيجة ذلك؟

من يدري؟

فليكن ما يمكن أن يكون! لا نستطيع العودة في الزمن؛ وكل ما نفعله غير قابل للعكس. إذا نظرنا خلفنا فإننا لا نرى الحياة، بل نرى الموت. ثم إن من يرى نفسه مقتنعًا بأن شروط زمان ما وطبيعته تكون مسؤولة عن سوء تكيفنا يكون شخصًا يعاني أوهامًا أو عظمة، أو يكون غبيًا أحمق، بكل بساطة... يكون شخصًا مفتقرًا إلى معرفة ذاته، الآن وفي الماضي. كنت أمقت العصر الذي أعيش فيه، أمقته كثيرًا. لكن ذلك ليس بسبب ضياع المعنى لأن هذا الأمر لم يكن كذلك على الدوام... إليكم مثالًا: خلال الربيع الذي انتقلت فيه إلى ستوكهولم والتقيت ليندا، انفتح العالم أمامي فجأة وازدادت كثافته بسرعة مدوّخة. كنت واقعًا تمامًا في الحب، وصار كل شيء ممكنًا. كانت سعادتي تبلغ ذروتها طيلة الوقت وكنت أتقبل كل شيء. لو حدثني أحد يومها عن الافتقار إلى المعنى لضحكت بصوت مرتفع من ذلك الحديث لأنني كنت حرًا ولأن العالم كان راقدًا عند قدمي، مفتوحًا أمامي، مليئًا بالمعنى... من القطارات المستقبلية اللامعة التي تنطلق عابرة منطقة سلوسن من تحت شقتي، إلى الشمس التي تلوّن قمم أبراج الكنائس في حي ريدار هولمن الأحمر المبني على طراز القرن التاسع عشر... كنت أنظر إلى غروب الشمس الجميل جمالًا يثير الريبة، أنظر إليه كل مساء طيلة تلك الشهور كلها... شذى الحبق المقطوف حديثًا، وطعم الطماطم الطازجة، وصوت أعقاب الأحذية التي تطقطق على منحدر كوبليد في اتجاه فندق هيلتون في وقت متأخر ذات ليلة حين جلسنا على مقعد فتشابكت أيدينا

وعرفنا أننا سنكون معًا، الآن وإلى الأبد. استمرت هذه الحالة ستة أشهر. عشت سعيدًا ستة أشهر. كنت في عالم أليف، وكنت في نفسي إلى أن بدأ ذلك كله يفقد ألقه شيئًا بعد شيء وراح العالم الأليف يتحرك مبتعدًا عني. حدث الأمر من جديد بعد سنة من ذلك، لكن بطريقة مختلفة تمامًا. حدث هذا عندما وُلدت فانيا. لم ينفتح العالم في تلك المرة، بل نحن من أبعده بنوع من التركيز الكامل على الأعجوبة التي تحدث عندنا؛ لكن لا... لقد انفتح شيء ما في داخلي. كان الوقوع في الحب عاصفًا، مجنونًا، طافحًا بالحياة وبالنشاط الوافر، أما ما حدث الآن فكان شيئًا حذرًا خفيض الصوت مليئًا باهتمام وعناية لا آخر لهما تجاه ما كان يحدث. دام الأمر أربعة أسابيع، أو لعله دام خمسة أسابيع. كلما تعيّن عليّ الذهاب لشراء شيء في المدينة، كنت أجري في الشوارع فآتي سريعًا بما يلزمنا ويجعلني نفاد الصبر أرتجف عند صندوق المحاسبة، ثم أجري عائدًا حاملًا أكياس التسوق في يدي. ما كنت أريد أن تضيع مني دقيقة واحدة! انصهرت الأيام والليالي في كل واحد، وكان كل شيء رقة، كل شيء لطفًا... نندفع إليها إذا فتحت عينيها. أوه، هكذا كان حالنا! لكن ذلك انقضى أيضًا، اعتدنا هذا الأمر أيضًا، وبدأتُ العمل. صرت أجلس كل يوم في مكتبي في دالاغاتان، وأكتب، في حين تظل ليندا في البيت مع فانيا ثم تأتي لرؤيتي وقت الغداء. غالبًا ما تكون مشغولة البال على شيء ما، لكنها سعيدة أيضًا. كانت أكثر مني قربًا إلى الطفلة وإلى ما كان يحدث كل يوم لأنني كنت أكتب ما بدأ على هيئة مقالة طويلة ثم تحوّل تحولًا بطيئًا، لكنه أكيد، إلى رواية. وسرعان ما بلغت تلك الرواية نقطة صارت عندها كل شيء، وصارت الكتابة كل ما أفعله. انتقلت للعيش في المكتب، وصرت أكتب ليل نهار وأنام ساعة هنا وساعة هناك. كنت ممتلئًا بإحساس ذي روعة مطلقة، بنوع من النور الذي يشتعل في داخلي... ليس نورًا حارًا، وليس نورًا يحرق شيئًا، بل كان ضياء باردًا صافيًا مشعًا. كنت آخذ فنجانًا من القهوة معي في الليل وأخرج للجلوس على مقعد أمام المستشفى لأدخن. تكون الشوارع هادئة من حولي، لكني

لا أكاد أطيق الجلوس ساكنًا... كانت سعادتي هائلة إلى هذا الحد. كان كل شيء ممكنًا، وكان لكل شيء معنى. حلّقتُ في موضعين من الرواية إلى أعلى مما كنت أظنه ممكنًا. هذان الموضعان، وحدهما، الموضعان اللذان لم أصدق أنني كتبتهما بنفسي ولم يلاحظهما ولم يعلق عليهما أحد غيري، جعلا السنوات الخمس التالية، سنوات الكتابة الفاشلة التي لم تنتج شيئًا، تستحق ذلك العناء كله. هاتان لحظتان من أحسن لحظات حياتي. وأعني بهذا حياتي كلها. السعادة التي أفعمتني، وإحساسي بأنني لا أُقهر، هما ما أبحث عنه منذ ذلك الوقت؛ لكن عبثًا!

بعد انتهاء الرواية بشهور قليلة، بدأت أصير زوجًا يلازم البيت. كانت خطتنا تقضي بأن يستمر هذا حتى الربيع التالي عندما تنهي ليندا سنتها التدريبية الأخيرة في معهد الدراما. كانت كتابة الرواية قد تركت أثرها على علاقتنا: نمتُ في المكتب ستة أسابيع ما كنت أرى فيها ليندا وابنتنا التي بلغت خمسة شهور إلّا نادرًا. وعندما فرغت من الكتابة أخيرًا، بدت ليندا مرتاحة سعيدة؛ وكان من واجبي تجاهها أن أكون هناك، لا بالمعنى الجسدي في الغرفة ذاتها فحسب، بل أيضًا بكل اهتمامي ومشاركتي.

لم أستطع فعل هذا! وبقيت شهورًا كثيرة أشعر بالأسف لأنني لم أكن هناك، حيث كنت، في بيئتي الباردة واضحة المعالم، في مكتبي. كان توقي إلى العودة أقوى من مسرتي بالحياة التي عشناها. ولم يغيّر النجاح الذي لقيته الرواية هذا الشعور. كنت أضع علامة على الكتاب بعد كل كلام حسن عنه في صحيفة من الصحف، ثم أنتظر وضع العلامة التالية. وبعد كل حديث مع الوكيل الأدبي... عندما تكون شركة أجنبية قد أظهرت اهتمامًا بالكتاب أو قدمت عرضًا لشراء حقوق النشر، أضع إشارة على الكتاب أيضًا وأنتظر الإشارة التالية. ثم لم أكن شديد الاهتمام عندما وقع الاختيار على روايتي أخيرًا من أجل ترشيحها لجائزة «مجلس الآداب النوردي» لأنني إن كنت قد تعلمت شيئًا خلال الشهور الستة الماضية فهو أن كل ما في الكتابة هو الكتابة، ولا شيء آخر. هنا تكمن قيمة الكتابة كلها. لكنني كنت راغبًا

أيضًا في الحصول على المزيد مما تأتي به الكتابة لأن الاهتمام العام نوع من المخدّر، ولأن الحاجة التي يشبعها حاجة مصطنعة، لكنك تذوق طعمها أول مرة فتريد المزيد. وهكذا وجدت نفسي هناك أدفع عربة فانيا في مشاوير لا تنتهي على جزيرة دجورغاردن في ستوكهولم منتظرًا أن يرن الهاتف فيسألني صحفيٌ عن شيء ما، أو يدعوني منظّم مناسبة من المناسبات إلى مكان ما، أو تطلب مني مجلة كتابة مقالة فيها، أو يقدم لي ناشر عرضًا. استمر الأمر إلى أن أحس فمي بالطعم الكريه لما يأتي به هذا كله فبدأت أرفض كل شيء في الوقت نفسه الذي تراجع فيه انشغالي بالاهتمام العام وعدت إلى العمل اليومي المضني. لكني لم أفلح في العودة إليه تمامًا، مهما حاولت، لأن هنالك دائمًا شيءٌ أكثر أهمية. تجلس فانيا في عربتها وتنظر من حولها وأنا أسير بها في المدينة، هنا وهناك، أو تجلس في صندوق الرمل تحفر الأرض بجاروفها في ملعب الأطفال في هومليغاردن حيث تكون الأمهات السويديات النحيلات الطويلات اللواتي يُحطن بنا دائمًا منهمكات بالحديث على هواتفهن فأحس أن هذه الأحاديث الهاتفية صارت جزءًا من موضة سخيفة منتشرة. أو تكون فانيا جالسة على كرسيها المرتفع في مطبخ البيت تبتلع الطعام الذي أقدمه لها. كان هذا كله يضجرني ويجعلني أفقد عقلي. أشعر بالسخف عندما أسير وأسير في الداخل متحدثًا معها... هي لا تقول شيئًا... وحده صوتي الخاوي مع صمتها أو مع هذرها السعيد الذي لا معنى له، أو دموعها المنزعجة... وبعد ذلك ألبسها ثيابها وأذهب بها إلى المدينة من جديد، أذهب إلى متحف الفن الحديث في سكيبشولمن، مثلًا، حيث أصير آخر الأمر قادرًا على رؤية بعض الأعمال الفنية الجيدة مع استمراري في العناية بها؛ أو أذهب إلى واحدة من المكتبات الكبيرة في مركز المدينة، أو إلى دجورغاردن أو بحيرة برونسفيكن التي كانت أقرب نقطة اتصال بين المدينة والطبيعة... إلّا إذا سلكت الطريق لرؤية غيير الذي كان مكتبه في الجامعة آنذاك. وشيئًا فشيئًا، أتقنت كل ما يتعلق بالأطفال الصغار وما عاد هنالك شيء لا أستطيع فعله لها. ذهبنا إلى كل مكان. لكن،

مهما يكن مجرى الأمور طيبًا ومهما بلغت رقة مشاعري تجاهها، يظل ضجري وعدم اهتمامي الحقيقي في ازدياد. وكان يلزمني بذل جهد أكبر حتى أستطيع أن أجعلها تنام لأصير قادرًا على القراءة وجعل الأيام تمر... حتى أستطيع شطب الأيام على التقويم. صرت أعرف مقاهي المدينة كلها، وما عاد هنالك مقعد في حديقة لم أجلس عليه في وقت من الأوقات... كتاب في يدي، ويدي الأخرى ممسكة بعربتها. كنت آخذ معي كتب دوستويفسكي، «الشياطين» أولًا، ثم «الإخوة كارامازوف». في هذه الكتب، وجدت النور من جديد. لكنه ما كان ذلك النور السامي الواضح النقي الذي أجده عند هولدرلين! لا وجود للمرتفعات عند دوستويفسكي، ولا للجبال، ولا لنظرات سامية... كان كل شيء واقعًا في الميدان البشري، مكللًا بهذا المزاج المميز لدوستويفسكي، المزاج الشقي الوسخ المريض الذي يكاد يكون ملوثًا، مزاج لا يبعد كثيرًا عن الهستيريا. كان النور موجودًا هناك! كان ما هو سامٍ مقدس يتحرك في هذا الحيز. لكن، هل كان ذلك هو المكان الذي يجبُ أن أذهب إليه؟ هل كان ضروريًا أن أركع على ركبتي؟ كنت معتادًا على عدم التفكير خلال القراءة... رميت بنفسي في الكتاب فحسب، وبعد بضع مئات من الصفحات (استغرقت قراءتها عدة أيام) حدث شيء ما على غير انتظار! تلك التفاصيل كلها التي كانت تُبنى بعناء ودقة وبطء، بدأت تتفاعل، بدأت تلتقي! وكان أثر ذلك عظيمًا إلى حد جعلني أنجرف تمامًا، مبهور الأنفاس تمامًا، إلى أن فتحت فانيا عينيها من أعماق عربتها وبدا فيهما شيء من الريبة: إلى أين تأخذني الآن؟

ما كان عندي خيار غير أن أغلق الكتاب، وأرفعها من العربة، وأخرج علبة الطعام وملعقة (ومريلتها إن كنا داخل مكان ما) وأنطلق بها إلى أقرب مقهى إن كنا في الشارع أو الحديقة فأعثر على كرسي مرتفع لأضعها عليه، ثم أذهب لأطلب من أحد العاملين أن يسخن طعامها. هذا ما كانوا يفعلونه على مضض لأن ستوكهولم كانت تعج بالأطفال الصغار ذلك الوقت... كانت تشهد طفرة مواليد! وبما أنه كانت هنالك نساء كثيرات في الثلاثينيات

بين الأمهات اللواتي كن يعملن ويعشن حياتهن حتى ذلك الوقت، فقد بدأت تظهر مجلات ساحرة موجهة إلى الأمهات، مجلات يلعب فيها الأطفال دور نوع من الإكسسوارات؛ وراحت النساء الشهيرات، واحدة بعد أخرى، تظهرن في صور مع أسرهن، أو تجرين مقابلات في حضور أطفالهن وأزواجهن. ما كان يحدث سابقًا في المجال الخاص، صار الآن مقحمًا في الميدان العام. صار من الممكن أن تقرأ في كل مكان عن آلام المخاض، وعن الولادات القيصرية والإرضاع الطبيعي وملابس الأطفال وعرباتهم، وتقرأ أيضًا نصائح للرحلات من أجل الآباء والأمهات الذين لديهم أطفال صغار، تجدها منشورة في كتب من تأليف آباء يلازمون البيت أو أمهات يشعرن بالمرارة ويشعرن بالخيانة بعد انهيارهن إرهاقًا نتيجة الجمع بين العمل ورعاية الأطفال. ما كان في يوم من الأيام موضوعات عادية لا يتحدث الناس عنها كثيرًا (موضوع الأطفال تحديدًا)، صار الآن في واجهة الوجود كله، وصار يحظى بعناية نشِطة تجعل المرء يرفع حاجبيه عجبًا... فما الذي يمكن أن يكونه معنى هذا كله؟ في وسط هذا الجنون، كنت أجد نفسي متجوّلًا بطفلتي هنا وهناك مثل أي واحد من الآباء الذين من الواضح أنهم يضعون أبوّتهم قبل أي شيء آخر. عندما أكون جالسًا في المقهى أُطعم فانيا، أجد من حولي دائمًا واحدًا أو اثنين من هؤلاء الآباء، في مثل سني عادة، أي في أواسط الثلاثينيات، آباء حلقوا شعورهم لإخفاء صلعهم. نادرًا ما يرى المرء الآن بقعة صلعاء أو جبهة مرتفعة. ودائمًا، يجعلني مرأى هؤلاء الآباء أحس بشيء من عدم الراحة وأجد من الصعب عليّ أن أتقبل هذا الجانب الأنثوي في سلوكهم وأفعالهم على الرغم من أنني أفعل ما يفعلونه تمامًا، على الرغم من أنني صرت مؤنثًا مثلهم. كان الازدراء البسيط الذي أحسه تجاه الرجال الذين يدفعون عربات الأطفال يشبه سيفًا ذا حدين، إن أردت التعبير عن الأمر تعبيرًا معتدلًا؛ وذلك لأن أمامي عندما أراهم عربة أطفال أدفعها أيضًا، مثلهم! كنت أشك في أنني الوحيد الذي أحمل هذه المشاعر، وأظن أنني ألمح من حين لآخر نظرة انزعاج في وجوه بعض

الرجال في ملعب الأطفال وأحس قلقًا في أجسادهم يجعلهم ميالين إلى أداء بعض التمرينات الرياضية السريعة على القضبان بينما يلعب أطفالهم من حولهم. إلّا أن قضاء بضع ساعات كل يوم في ملعب الأطفال مع طفلك ليس إلّا شيئًا واحدًا. هناك أشياء أخرى أسوأ بكثير. كانت ليندا قد بدأت تأخذ فانيا إلى صفوف «الإيقاع الزمني» المخصّصة للأطفال الصغار في مبنى المكتبة الحكومية. وعندما توليتُ المسؤولية، أرادت ليندا أن تستمر فانيا في الذهاب إلى تلك الدروس. كان لديّ حدس يقول لي إن شيئًا مريعًا ينتظرني هناك، فرفضت الذهاب: هذا أمر غير مطروح أبدًا لأن فانيا معي الآن. وهذا يعني أننا لن نذهب إلى صفوف «الإيقاع الزمني». لكن ليندا استمرت في ذكر هذا الأمر من وقت لآخر. وبعد مضي شهور قليلة، تراجعت المقاومة التي كانت لديّ تجاه ما ينطوي عليه القيام بدور الرجل الرقيق، تضاءلت تلك المقاومة تمامًا، إضافة إلى أن فانيا كانت قد كبرت إلى الحد الذي صارت لا تكتفي معه بمجموعة محدودة من النشاطات. وهكذا، قلت نعم ذات مرة: أفكر اليوم في الذهاب إلى دورة تعلّم الإيقاع الزمني في المكتبة الحكومية. قالت ليندا إن علي أن أتذكر الوصول إلى هناك في وقت مبكر لأن الأماكن تمتلئ سريعًا. وهكذا ذهبت بعد ظهر ذلك اليوم وسرت أدفع عربة فانيا عبر شارع سيفيفاغن في اتجاه أودنبلان حيث اجتزت الشارع ودخلت مبنى المكتبة. لسبب ما، لم يسبق لي دخول هذا المكان من قبل رغم أنه واحد من أكثر مباني ستوكهولم جمالًا، فقد صممه المعمار آسبلوند في وقت ما في العشرينيات، أي في الفترة التي أُحبها أكثر من أي فترة أخرى من القرن العشرين. كانت فانيا قد أكلت وارتاحت، وكانت في ملابس نظيفة مختارة خصيصًا لهذه المناسبة. دفعت العربة أمامي فدخلت الصالة الضخمة المدوّرة تمامًا وسألت امرأة خلف إحدى الطاولات عن مكان قسم الأطفال. ثم انطلقت، بحسب توجيهاتها، فدخلت غرفة جانبية كانت على جدرانها رفوف محمّلة بكتب الأطفال وفي آخرها باب عليه ملصق إعلاني عن صف الإيقاع الزمني الذي يبدأ هنا في الساعة الثانية بعد

الظهر. رأيت في الغرفة ثلاث عربات أطفال. كان أصحاب هذه العربات جالسين على الكراسي على مسافة بسيطة مني، ثلاث نساء بسترات ثقيلة ووجوه مرهقة، كلهن في الخامسة والثلاثين تقريبًا. أما أطفالهن الذين تسيل أنوفهم فكانوا يزحفون على الأرض متجوّلين من حولهن.

أوقفت العربة عند تلك العربات، ورفعت فانيا فأخرجتها منها، ثم جلست على حافة صغيرة عند الجدار ووضعتها في حضني. خلعت عنها سترتها وحذاءها، ثم أنزلتها برفق إلى الأرض. حسبت أنها يمكن أن تزحف في المكان قليلًا كغيرها. لكنها لم ترد ذلك؛ لم تستطِع أن تتذكر وجودها هنا من قبل ففضّلت البقاء ملتصقة بي.

مدت لي ذراعيها فحملتها وأعدتها إلى حضني. جلست تنظر إلى بقية الأطفال. كانت مهتمة بهم.

دخلت الغرفة شابة جذّابة تحمل غيتارًا. لا بد أنها في الخامسة والعشرين تقريبًا. كان شعرها طويلًا أشقر، وكانت في معطف طويل يبلغ ركبتيها، وحذاء أسود مرتفع الساق. توقّفت أمامي.

قالت لي: «مرحبًا! لم أركَ هنا من قبل. هل أنت آتٍ إلى صف الإيقاع الزمني؟».

أجبتها وأنا أرفع رأسي ناظرًا إليها: «نعم». إنها جذّابة حقًا.

«وهل سجّلت للحضور؟».

قلت: «لا! هل التسجيل ضروري؟».

«بالطبع، عليك أن تسجل. أخشى أن الأماكن قد امتلأت لهذا اليوم».

يا للأخبار الطيبة!

قلت لها وأنا أنهض واقفًا: «إنني في غاية الحرج».

قالت: «بما أنك لم تكن تعرف هذا، فأظن أننا نستطيع تدبّر الأمر. هذه المرة فقط! يمكنك بعد ذلك أن تسجل من أجل المرة القادمة».

أجبتها: «أشكرك كثيرًا».

كانت ابتسامتها شديدة الجاذبية.

فتحتْ بعد ذلك بابًا في الغرفة ودخلتْه. انحنيت قليلًا حتى أراها وهي تضع حقيبة غيتارها على الأرض وتخلع معطفها ووشاحها ثم تعلقهما على كرسي في آخر الغرفة. كان لها حضور خفيف منعش يشبه الربيع.

كان لديّ حدس يخبرني بالوجهة التي يسير فيها هذا الأمر كله، وكان عليّ أن أنهض وأذهب. لكني لم أكن هناك من أجلي أنا؛ أتيت من أجل فانيا وليندا. وهكذا ظللت جالسًا في مكاني. كان عمر فانيا ثمانية شهور، وكانت مسحورة تمامًا بكل شكل من أشكال الأداء. لقد جاءت تشاهد أداءً الآن!

جاء المزيد من النساء مع عربات الأطفال، جئن فرادى وجماعات. وسرعان ما امتلأت الغرفة بالأصوات والكلام والسعال والضحك وبحفيف الملابس والأيدي الباحثة في الأكياس. بدا لي أن هاتيك الأمهات غالبًا ما يأتين أزواجًا أو في مجموعات. مر وقت طويل بدوت خلاله الشخص الوحيد الذي أتى بمفرده. لكن، وصل رجلان آخران قبل أن تبلغ الساعة الثانية بدقائق قليلة. أوحت لي حركاتهما بأنهما لا يعرف أحدهما الآخر. كان أحدهما رجلًا قصيرًا كبير الرأس يضع نظارة، وقد أومأ في اتجاهي محييًا. كان يمكنني أن أقتله! ماذا يظن؟ أيظن أننا منتميان إلى نادٍ واحد؟ معنى هذا أننا منتميان إلى ملابس الأطفال وقبعاتهم وأحذيتهم وزجاجات إرضاعهم وألعابهم، وأننا نزحف على الأرض معهم.

كانت الأمهات جميعًا قد دخلن منذ حين إلى الغرفة التي سيجري فيها درس الإيقاع الزمني. انتظرت حتى دخل الجميع، لكني نهضت قبل تمام الساعة الثانية بدقيقة واحدة ودخلت خلفهم حاملًا فانيا على ذراعي. رأيت وسائد كثيرة مرمية على أرضية الغرفة حتى نجلس عليها؛ أما الشابة التي تقود الجلسة فكانت مستقرة على كرسي أمامنا. جالت عيناها على الحاضرين وعلى وجهها ابتسامة وفي حضنها غيتارها. كانت ترتدي كنزة من الكشمير فاتحة اللون. إن لها ثديان حسنا التكوين؛ وخصر دقيق، أما ساقاها اللتان وضعت إحداهما فوق الأخرى وراحت تؤرجحها فكانتا طويلتين... لا تزالان في ذينك الحذاءين الأسودين مرتفعي الساق.

جلست على وسادتي. ووضعت فانيا في حضني.
راحت فانيا تنظر بعينين متسعتين إلى المرأة صاحبة الغيتار التي كانت تقول بضع كلمات ترحيبية.
قالت المرأة: «لدينا بعض الوجوه الجديدة اليوم. لعلكم تريدون تقديم أنفسكم إلى الآخرين».
قالت واحدة: «مونيكا».
قالت أخرى: «كريستينا».
قالت الثالثة: «لول».
لول؟ أي اسم هذا؟
ساد الهدوء الغرفة. نظرت الشابة الجذابة إليّ ثم ابتسمت لي ابتسامة تشجيع.
قلت متجهمًا: «كارل أوفه».
قالت: «فلنبدأ أغنيتنا الترحيبية»، ثم بدأت تعزف لحنًا تردد صداه في الغرفة بينما راحت تشرح لنا أن على كل أب أو أم أن يقول اسم طفله عندما تشير إليه. وعند ذلك، يكون على الجميع أن يكرروا اسم الطفل.
كررتْ اللحن نفسه، فبدأ الجميع الغناء. كانت الفكرة من الأغنية هي أن يحيي الأطفال جميعًا أصدقاءهم وأن يلوّحوا لهم بأيديهم. أمسك الأهل بأيدي أطفالهم الذين كانوا أصغر من أن يفهموا ذلك وجعلوهم يلوّحون بها. فعلت مثلهم من غير أن أقول شيئًا، لكن المقطع الثاني بدأ فما عاد لي عذر لأن أظل جالسًا في مكاني صامتًا. كان عليّ أن أبدأ الغناء معهم.
بدا صوتي العميق كارثةً ضمن هذه الجوقة من الأصوات النسائية الحادة. كررنا التحيات اثنتي عشرة مرة حتى انتهى ذكر أسماء الأطفال جميعًا وصار من الممكن أن ننتقل إلى شيء آخر. كانت الأغنية الثانية عن أجزاء الجسم التي يتعيّن على الأطفال، بطبيعة الحال، أن يلمسوها عند ذكر كل منها. الجبهة والعينان والأنف والفم والبطن والركبة والقدم. جبهات وأعين وأنوف وأفواه وبطون وركب وأقدام. وبعد ذلك، وُزّعت علينا خشخاشات

صغيرة علينا أن نهزها ونحن نغني أغنية جديدة. أصابني الحرج... ما كان جلوسي هناك محرجًا فحسب، بل مذلًا، مهينًا. كان كل شيء لطيفًا وديًا ناعمًا، وكانت الحركات كلها صغيرة، وكنت جالسًا متجمعًا فوق وسادة إلى جانب بقية الأمهات والأطفال أغني أغنية تقودها... فوق هذا كله... امرأة أحب أن آخذها إلى الفراش. لكني كنت جالسًا هناك، فصرت عديم الحول تمامًا، من غير كرامة. صرت عاجزًا، لا فرق بيني وبينها إلّا من حيث أنها أكثر جاذبية. هذه التسوية التي صادرت كل ما كنته، بما في ذلك حجمي، كانت تسوية ملأتني غضبًا.

قالت وهي تضع غيتارها على الأرض: «والآن، حان الوقت لأن يرقص الأطفال قليلًا». ثم نهضت ومضت إلى مُشغّل الأقراص المدمجة الموضوع على كرسي إلى جانبها.

قالت وهي تدق قدمها الجذابة بالأرض دقًا لطيفًا: «فليقف الجميع في حلقة. نسير أولًا في هذا الاتجاه، ثم ندق الأرض بقدمنا هكذا، ثم نستدير ونعود في الاتجاه الآخر». نهضت وحملت فانيا ووقفت في الدائرة التي بدأت تتشكل. نظرت باحثًا عن الرَّجُلين الآخرين. كان تركيز كل منهما منصبًا تمامًا على طفله.

همست: «لا بأس يا فانيا، لا بأس. فليقم كل منا بعمله مثلما اعتاد جدك أن يقول».

رفعت فانيا رأسها ونظرت إليّ. لم يظهر عليها حتى الآن أي اهتمام بشيء مما كان على الأطفال فعله. لم ترغب حتى في أن تهز تلك الخشخاشة.

قالت المرأة الجذابة وهي تضغط على زر التشغيل: «سنبدأ الآن». انداح في الغرفة لحن أغنية شعبية فبدأت أفعل مثلما يفعل الآخرون ضابطًا خطواتي على إيقاع الموسيقى. كنت أحمل فانيا واضعًا كفي تحت إبطيها فصارت متدلية قريبة من صدري. وبعد ذلك، كان عليّ أن أدق الأرض بقدمي، ثم أدير فانيا وأعود في الاتجاه المعاكس. رأيت أن الآخرين مستمتعون بهذا!... أكثرهم. وكانت هنالك ضحكات أيضًا، بل حتى

شهقات من الفرح. وعندما انتهى هذا، صار كل منا أن يرقص وحده مع طفله. تهاديتُ من ناحية إلى أخرى حاملًا فانيا بين ذراعي وأنا أقول في نفسي إن الجحيم لا بد أن يكون هكذا: ناعم لطيف، كله أمهات لا تستطيع تميزهن عن أمنا حوّاء، ومعهن أطفالهن. انتهى هذا أيضًا فبدأتْ فقرة جديدة فيها شراع أزرق كبير كان يفترض في البداية أن يكون بحرًا. وعندها غنّينا أغنية عن الأمواج فراح كل منا يجذب الشراع إلى الأعلى ثم إلى الأسفل فيولّد فيه أمواجًا. ثم كان على الأطفال أن يزحفوا تحته قبل أن نرفعه من فوقهم فجأة. وكان هذا كله يجري بالترافق مع غنائنا.

وعندما شكرتنا المرأة أخيرًا وودّعتنا، أسرعتُ خارجًا فألبست فانيا معطفها وحذاءها من غير أن أنظر في عيني أحد... ظلت عيناي مثبّتتين إلى الأرض في حين كانت الأصوات تطنّ من حولي. صارت تلك الأصوات الآن أكثر سعادة مما كانت عندما دخلنا. وضعت فانيا في العربة وثبتت حزامها، ثم دفعتها خارج المكان بأسرع ما استطعت من غير أن ألفت انتباه أحد إليّ. وعندما صرت في الشارع، شعرت برغبة في الصراخ حتى تنفجر رئتاي، وبرغبة في تحطيم شيء ما. لكن، كان عليّ الاكتفاء بأن أسرع حتى تزداد المسافة بيني وبين جحيم الذل هذا في أقصر وقت ممكن. قلت وأنا أسير منحدرًا في شارع سيفيفاغن: «فانيا، يا فانيا، هل كان ذلك ممتعًا؟ لا يبدو عليك أنك استمتعت هناك».

أجابتني فانيا: «ثا ثا ثا».

لم تبتسم، لكن عينيها كانتا فرحتين. وأشارت بيدها.

قلت: «آه، إنها دراجة نارية. ما الذي يجعلك تحبين الدراجات هكذا؟ قولي لي؟».

عندما بلغنا متجر «كونسوم» للمواد الغذائية عند زاوية تيغنيرغاتان، دخلت لأشتري شيئًا للعشاء. لا يزال عندي شعور الانزعاج من الوجود في مكان مغلق، لكن سطوة ذلك الشعور تراجعت. كان الحنق هو ما شعرت به عندما رحت أدفع عربة فانيا في الممر بين الرفوف. أثار هذا المتجر ذكرياتي: هنا

كنت أشتري حوائجي عندما انتقلت إلى ستوكهولم منذ ثلاث سنوات، عندما كنت أقيم في الشقة التي وضعتْها تحت تصرفي دار نشر نوردستيدتز. لا تبعد هذه الشقة عن المتجر أكثر من رمية حجر، إنها في الشارع نفسه. كان وزني قد تجاوز مئة كيلوغرام في ذلك الوقت. وقد انتقلت في ليلة شديدة الظلام هاربًا من حياتي السابقة. لم يكن الأمر ممتعًا حقًا، لكني اتخذت قراري بأن أنتشل نفسي من تلك الحالة. وهكذا كنت أذهب كل مساء لممارسة الجري في غابة ليل جانسكوغن. لم أكن قادرًا على الجري مئة متر قبل أن تجن نبضات قلبي وتلهث رئتاي يائستين إلى حد يجعلني أتوقف. ثم أصير عاجزًا عن التنفس بعد مئة متر أخرى. وبعدها أعود إلى شقتي التي تشبه غرفة فندق فأتناول كسرات من خبز محمّص مع الحساء. رأيت امرأة في هذا المتجر ذات يوم، رأيتها فجأة واقفة إلى جواري عند زاوية بيع اللحوم. كان هنالك شيء فيها، إنه مظهرها الجسدي الذي جعلني، في لحظة واحدة، ممتلئًا رغبة وشبقًا متفجرًا. كانت حاملة سلتها أمامها بيديها الاثنتين، وكان شعرها كستنائيًا مع نمش كثير على بشرتها. شممت نفحة من رائحة جسدها، رائحة عرق خفيفة وصابون، ثم وقفت أنظر إليها بقلب خافق وحنجرة متيبسة، ربما نظرت إليها خمس عشرة ثانية لأن ذلك هو الزمن الذي كان لا بد منه حتى تصل إلى جواري وتأخذ لفّة من السَّلامي، ثم تذهب في سبيلها. رأيتها مرة أخرى عندما ذهبت لأدفع. كانت واقفة عند صندوق المحاسبة الآخر، فنبعت الرغبة عندي من جديد... لم تختفِ الرغبة أصلًا! وضعتْ المرأة مشترياتها في حقيبتها، ثم استدارت وخرجت من الباب. لم أرَها بعد ذلك أبدًا.

من موقعها المنخفض في عربتها، وقع نظر فانيا على كلب وراحت تشير إليه بإصبعها. لم أتوقف يومًا عن التساؤل عمّا تراه فانيا عندما تنظر إلى العالم من حولها. ما معنى هذا التيار من الناس والوجوه والسيارات والمحلات والإشارات بالنسبة إليها؟ لكنها لم تكن تنظر إلى هذا كله نظرة لا تميّز بين شيء وآخر! هذا ما كنت متأكدًا منه على الأقل لأنها تشير دائمًا إلى الدراجات الآلية والقطط والكلاب، وإلى الأطفال الصغار الآخرين

أيضًا. لقد نشأت لديها أيضًا تراتبية واضحة تمامًا في ما يتعلّق بالناس من حولها. ليندا أولًا، ثم أنا، ثم جدتها، ثم الآخرون جميعًا، بحسب المدة التي أمضوها بالقرب منها خلال الأيام القليلة الأخيرة.

قلت لها: «نعم، انظري، إنه كلب». تناولت عن الرف علبة حليب ووضعتها في العربة، ثم أخذت من القسم المجاور عبوة من المعجنات الطازجة؛ وبعدها وضعت أيضًا عبوتين من شرائح اللحم وبرطمانًا من الزيتون، وكذلك عبوة من جبنة موتزاريلا وبعض الطماطم وأصيصًا صغيرًا فيه حَبَق. كانت هذه كلها مأكولات لا يمكن أن أتخيل شراءها في حياتي السابقة لأنني ما كنت أعرف أنها موجودة أصلًا. أما الآن، فأنا هنا، وسط ثقافة الطبقات الوسطى في ستوكهولم؛ ورغم هذه القِوادة كلها في ما يتعلق بالأشياء الإيطالية والإسبانية والفرنسية، ورغم رفض كل ما هو سويدي، الشيء الذي كان يبدو لي سخيفًا غبيًا، إلّا أنني اكتشفت مع اتضاح الصورة كلها (التي هي صورة كريهة أيضًا) أن الأمر لا يستحق أن أهتم به وأهدر طاقتي عليه. كنت أحيانًا أشتاق إلى شرائح اللحم مع الملفوف، ولحم البقر المطبوخ على نار هادئة، وحساء الخضار، والزلابية، وكرات اللحم، ورئة البقر المهروسة، وكعكات السمك، ولحم الخروف مع الخضار، وحلقات السجق المدخن، وشرائح لحم الحوت المقلية، وعصيدة دقيق الساغو، وحلوى السميد، وحلوى الأرز، والعصيدة النرويجية. كنت أشتاق إلى زمن السبعينيات الذي انقضى بقدر ما أشتاق إلى المذاقات الحقيقية لهذه المأكولات كلها. لكن، وبما أن الطعام ما كان شيئًا كبير الأهمية عندي، فقد كنت مستعدًا لأن آكل ما تحب ليندا أن تأكله.

توقّفت بضع لحظات عند زاوية الصحف متسائلًا إن كنت أريد شراء صحيفتي المساء هنا، الصحيفتين الأوسع انتشارًا. كانت قراءة تلك الصحيفتين شيئًا يشبه قيام المرء بإفراغ سلة القمامة فوق رأسه. لكني كنت أشتريهما من وقت لآخر... أشتريهما عندما أحس أن زيادة القمامة بعض الشيء لن تُحدِث أي فرق. لكني لا أريدهما اليوم.

دفعت الحساب وخرجت إلى الشارع من جديد. خرجت إلى الرصيف الذي صار يعكس بشكل غامض ضياء السماء الشتوية الغائمة وصورة أرتال السيارات في كل اتجاه عند التقاطع... كانت تلك الأرتال تشبه تراكمًا ضخمًا لجذوع الأشجار في نهر. وحتى أتجنب زحمة المرور، سرت على امتداد شارع تيغنيرغاتان. وفي واجهة محل الكتب المستعملة الذي كنت أنتبه إليها دائمًا عند مروري، رأيت كتاب مالابارتي الذي حدثني غيير عنه بحرارة، وكذلك رأيت كتابًا لغاليليو غاليلي منشورًا ضمن سلسلة أتلانتس. أدرت العربة، ثم دفعت الباب بعقب قدمي حتى انفتح ودخلت متراجعًا بظهري إلى الخلف، وعربة فانيا تتبعني.

قلت: «أريد كتابين من الواجهة. كتاب غاليليو غاليلي وكتاب مالابارتي».

قال الرجل الخمسيني المرتدي قميصًا مزررًا الذي يدير المحل وهو ينظر إلي من فوق إطار نظارته المربعة المستقرة على طرف أنفه: «عفوًا، ماذا قلت؟».

أجبته بالسويدية: «في الواجهة، كتابان، غاليلي ومالابارتي».

قال وهو يستدير لتناول الكتابين: «السماء والحرب، أليس كذلك؟» ثم ناولني الكتابين.

كانت فانيا قد أغفت في العربة.

هل كان الأمر مرهقًا إلى هذا الحد في درس الإيقاع الزمني؟

سحبت المقبض الصغير تحت الجزء العلوي من مقعدها، ثم خفضتها برفق. في نومها، لوحت بيدها ثم شدت قبضتها، تمامًا مثلما فعلت بعد ولادتها مباشرة. إنها حركة من الحركات التي زودتها بها الطبيعة، لكنها سرعان ما استبدلت بها أشياء أخرى من عندها. تستيقظ حركاتها القديمة من جديد عندما تنام.

دفعتُ العربة جانبًا حتى أسمح للناس بالمرور، ثم استدرت إلى رف الكتب الفنية بينما كان البائع يسجل سعرَيْ الكتابين على آلة المحاسبة العتيقة. بما أن فانيا نائمة الآن، فإن لديّ بضع دقائق لنفسي. كان أول كتاب

لفت نظري في ذلك الرف كتاب تصوير لبيار مانينغ. ما هذا الحظ! إنني أحب صوره، أحب هذه الصور خاصة، سلسلة صور الحيوانات. غربان وخنازير وكلاب وفقمات. لقد نجح في التقاط روح هذه الكائنات. ما من سبيل آخر لفهم نظرات هذه الحيوانات في الصور. حضور تام، معذب أحيانًا، فارغ في أحيان أخرى، أو ثاقب في بعض الأحيان. لكنه حضور غامض أيضًا مثل بورتريهات رسّامي القرن السابع عشر.

وضعت هذا الكتاب على طاولة البيع.

قال البائع: «لقد وصل هذا الكتاب حديثًا. كتاب ممتاز. هل أنت من النرويج؟».

أجبته: «هذا صحيح. أريد أن أنظر إلى الكتب بعض الوقت إن لم يكن لديك مانع».

وجدت طبعة من يوميات دولاكروا فأخذتها، ثم وجدت كتابًا عن تيرنر رغم أن لوحاته تفقد الكثير عند تصويرها؛ ووجدت كتاب بول فاد عن هامرشوي، وكتابًا آخرَ رائعًا عن الاستشراق في الفن.

عندما وضعت هذه الكتب على الطاولة، رن هاتفي. لا يكاد أحد يعرف رقم هاتفي هنا، وهكذا لم أجفل لتلك الرنة التي وجدت طريقها إلى أعماق الجيب الداخلي في سترتي الشتوية المنفوخة المبطنة. على العكس تمامًا. باستثناء الكلمات القليلة التي تبادلتها مع امرأة الإيقاع الزمني، لم أتكلم مع أحد منذ انطلاق ليندا إلى المدرسة على دراجتها هذا الصباح.

قال غيير: «مرحبًا! ماذا تفعل؟».

أجبته وأنا أستدير صوب الجدار: «أعمل على تحسين نظرتي إلى نفسي. وماذا عنك أنت؟».

«لست أفعل مثلك، على الأقل. إنني جالس في المكتب فحسب أنظر إلى القادين والذاهبين. ما أخبارك؟».

«قابلت امرأة جذابة منذ قليل».

«ثم ماذا؟».

«تحدثت معها».

«أوه؟».

«دعتني إلى بيتها».

«وهل قلت نعم؟».

«بالطبع! بل إنها سألتني عن اسمي أيضًا».

«ولكن؟».

«لكنها كانت المعلمة المسؤولة عن درس الإيقاع الزمني للأطفال الصغار. وهكذا كان عليّ أن أجلس هناك وأصفق بيدي وأغني أغاني الأطفال أمامها، وفانيا في حضني. كنت جالسًا على وسادة صغيرة ومن حولي مجموعة من الأمهات والأطفال».

انفجر غيير ضاحكًا.

«أعطوني أيضًا خشخاشة لأهزّها».

«ها ها ها!».

قلت: «كنت في غاية الغضب عندما خرجت... إلى حد جعلني لا أعرف ماذا أفعل بنفسي. أيضًا سنحت لي فرصة تجريب منظر خصري. لم يهتم أحد بطيات الشحم على بطني».

قال غيير ضاحكًا من جديد: «لا، لا، إنها طيات لطيفة ناعمة، إنها جميلة يا كارل أوفه! ألن نخرج معًا الليلة؟».

«هل تمزح معي؟».

«لا، إنني أتكلم جادًا. كنت أفكر في العمل هنا حتى السابعة، أو نحو ذلك. هذا يعني أننا نستطيع اللقاء في المدينة في أي وقت بعد ذلك».

«مستحيل».

«وما معنى عيشك في ستوكهولم إذا كنا لا نستطيع اللقاء أبدًا».

أجبته: «أنت تدرك أنك استخدمت كلمة سويدية، ألا تدرك هذا؟».

قال غيير: «هل تذكر ماذا حدث عندما كنتَ وافدًا جديدًا في ستوكهولم؟

عندما كنا في سيارة التاكسي ورحت تلقي عليّ محاضرة عن تعبير 'هينبيكد'، عندما لم أكن راغبًا في الذهاب إلى الملهى الليلي معك؟».

قلت: «هكذا إذن؟ هناك شيء آخر... إن لغتك النرويجية في تدهور مستمر أيضًا».

«بحق الرب يا رجل! كنا نتحدث عن تعبير استخدمته أنت: 'هينبيكد'. ألا تذكر هذا؟».

«نعم، أظن أني أتذكر هذا الحديث».

قال: «وماذا؟ ما الذي تستنتجه من ذلك؟».

«أستنتج أن هنالك فوارق. أنا لست هينبيكد. إنني هينبيكر. أما أنت فإنك وودبيكر».[1]

«ها ها ها. أراك غدًا إذًا. سوف نتناول الطعام مع فريدريك وكارين ليلة الغد».

«مَنْ فريدريك؟ هل هو ذلك الأحمق الذي يعمل في شركة إنتاج الأفلام؟».

«لن أعبر عن الأمر بطريقتك أنت؛ لكن، نعم. إنه هو».

«أوه، يا إلهي! لا بأس إذًا. هل أراك يوم الأحد؟ لا، إنه يوم راحتك. ما رأيك في يوم الاثنين؟».

«لا بأس، فليكن».

«هنالك أناس كثيرون في المدينة أيضًا».

قلت: «إذن يوم الاثنين، في بيليكان. بالمناسبة، أحمل في يدي الآن كتاب مالابارتي».

«أوه، حقًا؟ هل أنت في محل الكتب المستعملة؟ إنه كتاب جيد».

«ومعي يوميات دولاكروا».

---

(1) وودبيكر (في الإنكليزية): نقار الخشب. هينبيكر (في السويدية): امرأة تحب كثرة الانتقاد وإعطاء الأوامر لزوجها. هينبيكد: زوج تلك المرأة أو شريكها.

«يجب أن يكون كتابًا جيدًا أيضًا. أعرف هذا، لقد حدثني توماس عنه. هل من كتب أخرى؟».

«اتصلوا بي من صحيفة آفتنبوستن أمس. أرادوا إجراء مقابلة معي».

«لم توافق على ذلك، هل وافقت؟».

«نعم، وافقت».

«أيها الأحمق! قلت إنك ستكف عن إجراء المقابلات».

«أعرف هذا. لكن الناشر قال لي إن هذا الصحفي جيد بشكل خاص. وهكذا فكرت في أن أجرب الأمر. من الممكن أن تكون النتيجة حسنة».

قال غيير: «لا! لا يمكن أن تكون حسنة».

قلت: «نعم، أعرف هذا. لكن، لا مشكلة. لست أهتم. ثم إنني قلت لهم نعم. هل استجد لديك شيء؟».

«لا شيء! تناولت بعض المعجنات مع اختصاصي الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وبعد ذلك جاء مدير المعهد العجوز بسحاب بنطلون مفتوح ونتف من الخبز عالقة في لحيته. أراد أن يكلمني. إنني الوحيد الذي لا أقسو عليه في الكلام. وهذا ما يجعله يأتي إليّ».

«هل هو الشخص نفسه الذي كان شديد التعنّت؟».

«هو نفسه. لكنه الآن مذعور من فقدان وظيفته. هذا كل ما بقيَ لديه، بالطبع. وهذا ما يجعله في غاية اللطف الآن. المسألة مسألة تكيّف! قاسٍ عندما يستطيع القسوة، ولطيف عندما يكون مضطرًا إلى اللطف».

قلت: «قد أُعرّج عليك غدًا. هل لديك وقت؟».

«بالطبع، عندي وقت! عندي وقت إذا كنت لن تأتي معك بفانيا».

«ها ها. لا بأس! لكن عليّ أن أدفع ثمن الكتب الآن. أراك غدًا».

«اتفقنا. تحياتي لليندا وفانيا».

«أبلغ كريستينا تحياتي أيضًا».

أغلقت الهاتف وأعدته إلى جيب سترتي. لا تزال فانيا نائمة. كان البائع يقلّب أحد الكاتالوجات. رفع رأسه عندما وقفت أمام طاولته.

قال لي: «المجموع ألف وخمسمئة وثلاثون كرونًا».

ناولته بطاقتي المصرفية. وضعت الإيصال في جيب بنطلوني الخلفي... الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها تبرير هذه المشتريات أمام ليندا هي أن من الممكن استخدام إيصال الشراء لحسم المبلغ من الضريبة التي ندفعها. وضعت كيسَيْ الكتب أسفل العربة، ثم دفعتها خارج المحل الذي ظل صوت جرس بابه يرن في أذني.

بلغت الساعة الرابعة إلّا ثلثًا. استيقظت منذ الرابعة والنصف صباحًا وظللت أبحث في الترجمة الإشكالية لكلمة «Damm» حتى السادسة والنصف. ورغم أن ذلك كان عملًا مرهقًا، فإنني لم أفعل أكثر من مقارنة كل جملة بنظيرتها في النص الأصلي؛ على أن هذا كان ممتعًا مرضيًا لي أكثر بمئة مرة من كل ما فعلته خلال فترة الصباح: تغيير الحفاضات، والأعمال المختلفة المتعلقة بالأطفال، تلك الأعمال التي لم تعد تعني في نظري أكثر من وسيلة لملء الوقت. لم يكن نمط الحياة هذا يستنفدني، وما كانت له أي صلة باستخدام الطاقة، لكنه شيء خالٍ من أدنى شرارة من شرارات الإلهام... كان يجعلني خائر القوى كأنني إطار سيارة مثقوب.

انعطفت يسارًا عند تقاطع دوبيلنسغاتان وسرت صاعدًا في الطريق تحت كنيسة يوهانز بجدرانها القرميدية الحمراء وسقفها القصديري الأخضر اللذين يجعلانها شبيهة بكنيسة يوهانز في بيرغن وبكنيسة تريفولديغيتس في آرندال، ثم سرت في شارع مالمستيلنادسغاتان بعض الوقت، واستدرت نازلًا في شارع دافيدباغاريسغاتان فعبرت البوابة المؤدية إلى الباحة الخلفية في بنايتنا. رأيت مشعلين ملتهبَين على الرصيف أمام المقهى المقابل. كانت في الممر رائحة بول لأن الناس يتوقفون هنا في طريق عودتهم ليلًا إلى بيوتهم من ستوريبلان فيتبولون عبر السياج. شممت أيضًا رائحة قمامة من صف حاويات القمامة على امتداد الجدار. وفي الزاوية، رأيت الحمامة التي سكنت هنا منذ أن انتقلنا إلى هذا البيت قبل سنتين. كانت في ذلك الوقت تعيش في وكر في الجدار. وعندما رمموا الجدار وزرعوا على سطوحه المستوية

في الأعلى أوتادًا معدنية مدبّبة، انتقلت ساكنته فنزلت إلى مستوى الأرض. هنالك جرذان أيضًا. أراها أحيانًا عندما أخرج لأدخن سيجارة في الليل. أرى ظهورها السوداء تتحرّك بين الشجيرات القصيرة فتهتز قممها في تلك الساحة المفتوحة المنارة حتى حواف أحواض الزهور عند الناحية الأخرى. أما الآن، فكانت امرأة من اللواتي يعملن في صالون الحلاقة واقفة هناك تتكلم على الهاتف وتدخّن. لا بد أنها في الأربعين تقريبًا، وأظن أنها كانت جميلة من جميلات إحدى البلدات الصغيرة خلال نشأتها... تُذكّرني، على الأقل، بذلك النوع من النساء الذي يمكنك أن تراه في المطاعم في آرندال في الصيف: نساء في الأربعينيات بشعر مصبوغ بلون أشقر أكثر مما يجب، أو بلون أسود أكثر مما يجب، وجلد أسمر أكثر مما يجب، وعيون غزِلَة أكثر مما يجب وضحكات مرتفعة أكثر مما يجب. كان صوت هذه المرأة خشنًا، وكانت تتكلم بلهجة منطقة سْكانيا العريضة. إنها ترتدي اليوم ثيابًا بيضاء بالكامل. هزت رأسها لي عندما رأتني، فحييتها بهزة من رأسي. كانت تعجبني رغم أنني لم أتحدث معها إلّا قليلًا جدًا. إنها مختلفة عن الأشخاص الآخرين الذين أقابلهم في ستوكهولم، الناس الذين يكونون في طريقهم إلى الصعود، أو صعدوا بالفعل، أو يظنون أنهم صعدوا. ليست لدى هذه المرأة سيارة! أقولها هكذا بأسلوبهم الفظ الذي لا تلوين فيه... وهو ليس أسلوبًا مقتصرًا على الملابس والأشياء وحدها، بل يشمل أفكارهم وميولهم أيضًا.

توقّفت قليلًا عند الباب حتى أخرج المفاتيح من جيبي. أتتني رائحة مواد التنظيف والملابس المغسولة من الفتحة التي فوق نافذة القبو. فتحت الباب وعبرته إلى صالة المدخل بأقصى ما استطعت من هدوء. تعرف فانيا هذه الأصوات، وتعرف تسلسل حدوثها. ولهذا فإنها تستيقظ، كل مرة تقريبًا، عندما نصل إلى هذا المكان. استيقظت هذه المرة أيضًا. استيقظت باكيةً. تركتها تصرخ، وفتحت باب المصعد، وضغطت الزر، ثم نظرت إلى نفسي في المرآة ريثما نجتاز مسافة الطابقين. لا بد أن ليندا سمعت صراخها لأنها كانت واقفة بالباب تنتظرنا عندما وصلنا.

قالت: «مرحبًا! هل أمضيتما وقتًا ممتعًا؟ هل استيقظتِ الآن يا حبيبتي؟ تعالي وسوف...».

فكت الحزام عن فانيا، ثم حملتها.

قلت لها: «كان وقتًا معقولًا»، ثم دفعت بالعربة الفارغة جانبًا بينما كانت ليندا تفك أزرار قميصها وتذهب بها إلى غرفة المعيشة لإرضاعها.

«لكنني لن أذهب مرة أخرى إلى دروس الإيقاع الزمني طالما حييت».

سألتني وهي تنظر إليّ وقد عبرت بسمة سريعة وجهها: «هل كان الأمر سيئًا إلى هذا الحد؟» ثم نظرت إلى فانيا ووضعتها على ثديها العاري.

«سيء؟ إنه أسوأ ما مر بي على الإطلاق. كنت في غاية الغضب عندما خرجت من هناك».

قالت: «فهمت»... لم تعد مهتمة بالحديث.

كانت عنايتها بفانيا واهتمامها بها من طبيعة مختلفة تمامًا. كان ذلك شيئًا شاملًا، تامًا، أصيلًا حقيقيًا كله.

ذهبت إلى المطبخ حاملًا المشتريات، فوضعتها في البراد ووضعت أصيص الحبق في صحن ثم وجدت له مكانًا على طوار النافذة وسقيته. وبعد ذلك أخرجت الكتب من السلة أسفل عربة فانيا فوضعتها في خزانة الكتب وجلست أمام كمبيوتري لأتفقد بريدي الإلكتروني. وجدت رسالة من كارل يوهان فاليغرين تهنئني بترشيح كتابي للجائزة. عبّر أيضًا عن أسفه لأنه لم يقرأ كتابي بعد وقال لي أن أتصل به إذا شعرت برغبة في شرب كأس من البيرة معه ذات يوم. كان كارل يوهان شخصًا يعجبني حقًا. وكنت أقدّر ميله إلى التبذير والغُلوّ اللذين يجدهما البعض شيئًا غير مقبول أو شيئًا من الغرور أو الحماقة... ثم إنه مقيم في السويد منذ سنتين! لكن، كان من المستحيل أن أذهب لشرب كأس من البيرة معه. في تلك الحالة، سأجلس هناك صامتًا، أعرف أنني سأفعل هذا لأنني فعلته مرتين من قبل. ثم كانت هنالك رسالة أخرى من مارثا نورهيم تخبرني فيها عن مقابلة لأمرٍ متصل بجائزة «NRK2» للرواية التي نلتها. ورسالة أيضًا من عمي غونار يشكرني

على الكتاب ويقول لي إنه يستجمع قواه لقراءته، ثم تتمنى لي حظًا طيبًا في «البطولة النوردية للأدب». انتهت رسالته بملاحظة أخيرة عبر فيها عن أسفه لأن إنغفه وكاري آن موشكان على الطلاق. أغلقت بريدي من غير إرسال أي رد.

سألتني ليندا: «هل هنالك شيء يثير الاهتمام؟».

«لا شيء غير أن كارل يوهان يهنئني. كما أن NRK يريدون مني مقابلة في غضون أسبوعين. كتب لي غونار أيضًا... من بين الناس جميعًا. لقد اكتفى بشكري على الكتاب. لكن هذا ليس شيئًا سيئًا إذا تذكرنا مقدار غضبه عندما قرأ كتاب خارج العالم».

قالت ليندا: «لا، ليس هذا سيئًا! ألم تتصل بكارل يوهان حتى تدعوه لزيارتنا؟».

قلت: «وهل أنت في مزاج حسن إلى هذا الحد؟».

نظرت إليّ متجهّمة وقالت: «إنني أحاول أن أكون لطيفة، ولا شيء غير هذا!».

«أعرف، أعرف. إنني آسف. لم أقصد ذلك!».

«لا بأس، لا مشكلة».

سرت فمررت بجانبها والتقطت الجزء الثاني من كتاب الإخوة كارامازوف الذي كان على الأريكة.

وقلت: «سوف أخرج الآن. إلى اللقاء».

«أتمنى لك وقتًا ممتعًا».

إن لديّ الآن ساعة كاملة لنفسي. كان هذا شرطي الوحيد قبل أن أتولى مسؤولية فانيا خلال النهار: ستكون لي ساعة حرة أمضيها وحدي بعد الظهر! وافقت ليندا على هذا مع أنها اعتبرت الأمر غير مُنصِف لأنها لم تكن تحظى أبدًا بساعة لنفسها على هذا النحو. أظن أن السبب الذي كان يجعلها غير قادرة على أن تحظى بساعة لنفسها هو أنها لم تفكر في الأمر أصلًا. وكان سبب عدم تفكيرها في الأمر (هذا ما افترضته أيضًا) هو أنها

تفضّل أن تكون معنا بدلًا من أن تظل وحدها. لكني ما كنت أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة. وهكذا، كنت أجلس ساعة بعد ظهر كل يوم في مقهى قريب فأقرأ وأدخن. لم أكن أبدًا أذهب إلى المقهى نفسه أكثر من أربع أو خمس مرات على التوالي لأنهم يتعاملون معي بعد ذلك على أنني «زبون منتظم»: يستقبلونني بالتحية عند وصولي ويحاولون خلق انطباع حسن عندي من خلال معرفتهم ما أحب أن أطلبه في المقهى؛ وغالبًا ما يكون هذا مرفقًا بتعليق ودّي عن موضوع ما يكون مدار حديث الجميع في ذلك اليوم. لكن الفكرة كلها من عيشي في مدينة كبيرة هي أنني أستطيع أن أكون فيها وحدي تمامًا رغم أنني محاط بالناس من كل ناحية. وجوه لم أرَها أبدًا من قبل! سيل الوجوه الجديدة الذي لا ينقطع! في ما يخصني، كان ما يجذبني إلى المدينة الكبيرة هو القدرة على أن ألقي بنفسي في هذا التيار؛ هذا تحديدًا ما يجذبني. المترو الذي يعج بأنماط وشخصيات مختلفة. والساحات. ومناطق المشاة. والمقاهي. والمولات الكبيرة. والمسافة، المسافة، لم أكن أبدًا قادرًا على الشبع من المسافة. لهذا، عندما يبدأ العاملون في تلك المقاهي إلقاء التحية والابتسام كلما وقعت أعينهم عليّ، عندما لا يكتفون بأن يجلبوا لي قهوتي قبل أن أطلبها، بل يقدمون أيضًا قطعة كروسان مجانية، أدرك أن عليّ أن أكف عن الذهاب إلى ذلك المكان. ثم إن العثور على مقاهٍ بديلة ما كان أمرًا صعبًا أبدًا لأننا نعيش في مركز المدينة حيث تنتشر مئات المقاهي ضمن دائرة لا يتجاوز نصف قطرها عشر دقائق.

سرت هذا اليوم في شارع ريغيرينغسغاتان في اتجاه مركز المدينة. كان الشارع مزدحمًا بالناس. فكرت في امرأة «درس الإيقاع الزمني» الجذابة خلال سيري. أي شيء كان هذا كله؟ لقد رغبت في النوم معها، لكني لم أكن أظن أنني يمكن أن أحظى بفرصة. وإذا حظيت بفرصة فإنني لم أكن لأستفيد منها! فلماذا يكون للأمر أي أهمية إن تصرفتُ كالنساء أمامها؟ ما الذي أزعجني في الأمر؟

يمكنكم قول الكثير عن صورتي الذاتية؛ عن صورة نفسي عندي،

لكن من المؤكد تمامًا أنها ليست صورة مبنية على نحو منطقي! ربما كان عقلي قادرًا على فهمها، لكنه ما كان يمتلك قدرة التحكم بها أو ضبطها. إن صورة المرء عن ذاته ليست مقتصرة على الشخص الذي يكونه، بل تضم أيضًا الشخص الذي يريد أن يكونه أو الذي كانه ذات يوم. فبالنسبة إلى هذه الصورة الذاتية، لا يوجد فارق بين الواقع الفعلي والواقع القائم على الافتراضات. إنها صورة تجتمع فيها الأعمار كلها، والمشاعر كلها، والدوافع كلها أيضًا. عندما أدفع أمامي عربة فانيا في أرجاء المدينة وأمضي أيامي في رعاية طفلتي، فإن الحالة ليست أنني أضيف شيئًا إلى حياتي فأجعلها أكثر غنى نتيجة ذلك، بل على العكس تمامًا... كان هنالك شيء يزول مني، جزء من نفسي، ذلك الجزء المتعلّق بالذكورية. ليس عقلي هو ما جعل هذا واضحًا لي لأن عقلي كان يعرف أنني أفعل هذا لسبب وجيه: تحديدًا، حتى أكون مع ليندا على قدم المساواة في ما يتعلّق بطفلتنا! إلّا أن مشاعري وانفعالاتي تملؤني قنوطًا كلما حشرت نفسي هكذا في قالب صغير جدًا، مقيّد جدًا، إلى حد يجعلني غير قادر على الحركة. كانت المسألة متعلّقة بتحديد العامل الذي يجب أن يكون فعّالًا. إن كان الإنصاف والمساواة هما العاملان المحَدِّدان، فإن من غير الممكن قول أيِ شيء عن الرجال الذين نراهم في كل مكان يغرقون في عبودية الرقة والقُرب الحميم. ولا يمكن قول شيء أيضًا عن موجات الاستحسان والتصفيق التي يلقاها هذا السلوك؛ لأنه إن كان الإنصاف والمساواة هما العنصران أو العاملان المسيطران، فما من شك في أن هذا التغيير يكون تحسّنًا وخطوة في اتجاه التقدم. لكن هذان ليسا بالعاملين الوحيدين! السعادة عامل من العوامل أيضًا؛ ثم إن الإحساس الكثيف بالحياة عامل آخر أيضًا. ولعل النساء اللواتي يحرصن على متابعة مساراتهن المهنية إلى أن يصرن في الأربعين أو أكثر، ثم ينجبن طفلًا في اللحظة الأخيرة فيتولى الأب رعايته بعد شهور قليلة ريثما يعثرون على مكان له في حضانة للأطفال حتى يتمكن الأبوان معًا من متابعة العمل... لعل هاته النساء أكثر سعادة من النساء في أجيال سابقة. ومن الممكن أن

يكون الرجال الذين بقوا في البيت واعتنوا بصغارهم ستة أشهر قد حقّقوا زيادة في إحساسهم بأنهم أحياء نتيجة ذلك. وقد تكون النساء راغبات فعلًا في أولئك الرجال ذوي الأذرع النحيلة والبطون الكبيرة والرؤوس الحليقة والنظارات الأنيقة السوداء... رجال لا تنقص سعادتهم عن سعادة النساء شيئًا عندما يجلسون للحديث عن محاسن حمالات الأطفال من ماركة «بيبيبجورن» ومساوئها، وكذلك عن أحزمة الأطفال أو ما إذا كان من المفضل أن يطبخ المرء طعام طفله بنفسه أو يشتري تلك المأكولات البيئية المهروسة الجاهزة مسبقًا. قد تكون النساء راغبات في أولئك الرجال، راغبات فيهن بكل قلوبهن وأرواحهن. لكن، وحتى إذا لم تكنّ راغبات، فليس للأمر أهمية في حقيقة الأمر لأن الإنصاف والمساواة هما العاملان المحددان اللذان يتفوقان على كل شيء غيرهما مما يُكوّن العلاقة بين المرأة والرجل. كان هذا خيارًا؛ وكان هو الخيار الذي اتُّخِذ. يسري هذا عليّ أنا أيضًا! ولو أردت أن يكون الأمر على نحو مختلف، لكان عليّ أن أدير ظهري وأقول لليندا قبل أن تحبل: استمعي إليّ! أريد أطفالًا، لكني لست راغبًا في ملازمة البيت لرعايتهم. فهل يناسبك هذا؟ وبالطبع، يعني هذا السؤال أن عليكِ أن ترعيهم بنفسكِ. وفي تلك الحالة، سترفض الأمر إن لم يكن مناسبًا لها، أو أنها ستقبله إن وجدته مناسبًا، فيصير مستقبلنا مبنيًا على أساس هذه الخطة. لكني لم أفعل هذا، لم أطرح السؤال عليها لأنني لم أمتلك البصيرة الكافية آنذاك، وبالتالي فقد كان عليّ أن أتقيّد بقواعد اللعبة!

ضمن الطبقة والثقافة اللتين ننتمي إليهما، يعني هذا ضرورة التكيف مع الدور نفسه الذي كانوا يطلقون عليه اسم «دور المرأة». وقد كنت مربوطًا إلى هذا الدور مثل أوديسيوس المربوط إلى سارية السفينة:[1] أستطيع تحرير

(1) في ملحمة هوميروس الشعرية «الأوديسة»، تمر سفينة أوديسوس بجزيرة عرائس البحر اللواتي يستملن البحارة بغنائهن العذب ثم يقتلنهم؛ فيصب الشمع في آذان رجاله حتى لا يسمعوا الغناء ويأمرهم بشد وثاقه إلى سارية السفينة وعدم إطلاقه قبل تجاوز الجزيرة مهما توسل إليهم لأنه أراد أن يسمع ذلك الغناء السحري.

نفسي إن أردت، لكن ليس من غير أن أخسر كل شيء. وبالنتيجة صرت أسير في شوارع ستوكهولم رجلًا عصريًا متأنثًا، حاملًا حَنَق رجل القرن التاسع عشر في داخلي. تغيّرت الطريقة التي يراني الناس بها كما لو أن ذلك جاء بحركة من عصا سحرية لحظةَ وضعتُ يدي على مقبضي تلك العربة. كنت أنظر دائمًا إلى النساء اللواتي أمر بهن مثلما ينظر إليهن الرجال دائمًا... فعلٌ غامض في واقع الأمر لأنه لا يمكن أن يؤدّي إلى أي شيء غير نظرة مقابِلة من هذه أو تلك؛ وإذا رأيت امرأة جميلة حقًا فإنني قد أستدير أيضًا لأنظر إليها (بطريقة خفية غير ملحوظة بالطبع)، لكن... رغم ذلك... لماذا، أوه، لماذا؟ ما الغاية التي تخدمها هذه العيون كلها، وهذه الأفواه كلها، وهذه النهود والخصور والسيقان والأرداف؟ لماذا يكون أمرًا هامًا إلى هذا الحد أن ينظر المرء إليها؟ هذا رغم أنه ينسى كل شيء عنها بعد ثواني معدودة، أو بعد دقائق في بعض الحالات! تلتقي نظرتي نظرة امرأة بعض الأحيان فتندفع موجة في داخلي إذا طال لقاء العيون ثانية واحدة أكثر مما هو معتاد لأن هذا يأتي من امرأة في الزحام، من امرأة لا أعرف شيئًا عنها، لا أعرف من أين أتت، ولا أعرف أين تعيش، لا أعرف شيئًا أبدًا، لكن كلًا منا نظر إلى الآخر! هذا هو الأمر كله، ثم ينتهي فتذهب وتَمحي تلك اللحظة من الذاكرة إلى الأبد. لكن، ما من امرأة تنظر إليّ عندما آتي دافعًا العربة أمامي!... كأنني غير موجود! قد يظن المرء أن الأمر يكون هكذا لأن تلك العربة علامة واضحة تشير إلى أنني مرتبط؛ لكن ارتباطي لا يكون أقل من ذلك وضوحًا عندما أسير مع ليندا يدًا بيد فلا يمنع وجودها معي أحدًا من النظر إليّ بتلك الطريقة. يا إلهي، ألست أحصل على نصيبي العادل، ألست أتلقّى العقاب الذي أستحق لأنني أسير هنا وهناك محملقًا في النساء بينما تنتظري في البيت واحدةٌ هي أم طفلتي؟ لا، ليس هذا أمرًا حسنًا!

ليس أمرًا حسنًا بكل تأكيد!

أخبرتني تونجه مرة عن رجل التقته في أحد المطاعم. كان الوقت متأخرًا وقد جاء الرجل إلى طاولتهم ثملًا، لكنه مسالم تمامًا... أو هكذا

ظنوا يومها لأنه أخبرهم بأنه آتٍ من مستشفى الولادة مباشرة حيث ولدت شريكته طفلهما الأول ذلك اليوم، وبأنه جاء إلى وسط المدينة حتى يحتفل بالمناسبة. لكنه بدأ يحاول التودد إليها بعد ذلك، ثم صار أكثر فأكثر إلحاحًا إلى أن أقترح عليها آخر الأمر أن تذهب إلى البيت معه... أصابت تونجه هزة عميقة في روحها، وامتلأت تقززًا، رغم ظني بأن الأمر قد سحرها أيضًا... فكيف كان حدوث ذلك ممكنًا، كيف كان يفكر ذلك الرجل؟ لم أكن قادرًا على تخيل خيانة أكبر من هذه! لكن، أليس هذا ما أفعله أنا عندما أبحث عن عيون تلك النساء؟ لم أستطِع منع أفكاري من العودة إلى ليندا الجالسة في البيت تغسل فانيا وتُلبسها ثيابها؛ لم أستطع منع أفكاري من العودة إلى عيونهما، إلى عيني فانيا المتسائلتين أو الفرحتين أو الناعستين، وإلى عيني ليندا الجميلتين. أبدًا لم أُرِد أحدًا أكثر منها، أبدًا؛ والآن لديّ طفلتها أيضًا. لماذا لا أستطيع أن أقْنَع بهذا؟ لماذا لا أستطيع التوقف سنة عن الكتابة لأكون أبًا لفانيا بينما تنهي ليندا تدريبها؟ أحبهما، وتحباني. فلماذا لا يتوقّف كل شيء آخر؟ لماذا لا يكف عن غزوي وتعذيبي؟ كان عليّ أن أكون أكثر شدة مع نفسي، وأن أنسى كل شيء مما يحيط بي وأركز على فانيا وحدها طيلة النهار. كان عليّ أن أمنح ليندا كل ما تحتاجه، وأن أكون شخصًا جيدًا. بحق الرب... أن أكون شخصًا جيدًا... هل هذا أكثر مما أستطيع؟

كنت قد بلغت متجر «سوني شوب»، وكنت أفكر في التوجه إلى مكتبة «أكاديمي» عند الزاوية لشراء بضعة كتب ثم الجلوس في المقهى هناك، عندما لمحت عيني لارس نورين على الرصيف الآخر. كانت في يده حقيبة «نايكي»، وكان سائرًا في الاتجاه الذي أتيت منه. رأيته أول مرة بعد انتقالنا إلى شقتنا هذه بفترة وجيزة. كان ذلك في هومليغاردن، وكان الضباب معلقًا فوق الأشجار. سار في اتجاهنا رجل كأنه من أقزام الهوبيت مرتديًا ملابس سوداء. نظرت في عينيه، كانتا سوداوين كالليل... سرت رعشة برد في ظهري... أي نوع من الناس هذا؟ قَزَم؟

قلت لليندا: «هل رأيته؟».

قالت لي: «كان هذا لارس نورين».

قلت: «هل كان ذلك الشخص لارس نورين حقًا؟».

لقد عملت والدة ليندا، التي كانت ممثلة، مع هذا الرجل في مسرحية قُدمت على المسرح الملكي للدراما منذ زمن بعيد. كما كانت هيلينا، أقرب صديقات ليندا، ممثلة أيضًا، وعملت معه أيضًا. أخبرتني ليندا أنه تحدث مع هيلينا بطريقة ودية وشرح لها كيف أدخل كلماتها ذاتها في المسرحية ووضعها على لسان الشخصية التي كانت تؤديها ليندا. كانت ليندا تضايقني بإلحاحها الدائم على أن أقرأ «الفوضى جارة الرب» و«الليل والد النهار». قالت إنهما مسرحيتان رائعتان. لكنني لم أقرأهما أبدًا لأن طول قائمة الكتب التي يجب أن أقرأها بلغ ذراعًا، كانت بطول ذراعي، وكذلك لأنني كنت مضطرًا إلى الاكتفاء في ذلك الوقت برؤيته من حين لآخر لأنه يظهر في الشارع على نحو منتظم. كنا نراه مرات كثيرة عندما نذهب إلى مقهانا المفضل، ساتورنوس: نراه يتكلم إلى صحفيين يجرون معه مقابلة، أو يتحدث مع شخص ما. ما كان لارس نورين الكاتب الوحيد الذي أصادفه؛ ففي إحدى المرات رأيت في المخبز القريب من بيتنا كريستيان بيتري فأوشكت على تحيته لأنني كنت غير معتاد على مصادفة وجوه رأيتها من قبل. وفي مرة أخرى، كان بيتر إنغلوند في المكان نفسه مع لارس ياكوبسون صاحب الكتاب الرائع «في قلعة الملكة الحمراء»، كما دخلت مرة مقهى «ديلو سبورت» بينما كنا جالسَين هناك؛ ورأيت مرة على شرفة مقهى «سوتره هوف» ستيغ لارسن الذي أدمنت قراءته عندما كنت في العشرينيات والذي صدمني كتابه «انتبه إلى أشيائي» مثل لكمة من قبضة مشدودة. كان جالسًا هناك يقرأ كتابًا فخفق قلبي سريعًا كما لو أنني أرى جثة. رأيته مرة أخرى جالسًا في مقهى «بيليكان» حيث كنت مع بعض الأشخاص الذين يعرفون الناس الجالسين معه. وهكذا صافحت يده الجافة كأنها حزمة قش ذابلة عندما مدها إليّ بابتسامة لا مبالية. رأيت آريس فيوريتوس في «فوروم كالتشرهاوس» ذات ليلة، وكانت هناك أيضًا كاتارينا فورستنسون؛ كما

قابلت آن يادرلوند في حفلة في سودرمالم. قرأت أعمالًا لهؤلاء الكتاب جميعًا عندما كنت في بيرغن. وما كانوا في ذلك الوقت أكثر من أسماء أجنبية تعيش في بلاد أجنبية. أما عندما رأيتهم الآن بلحمهم ودمهم فقد كانوا مكللين بهالة ذلك الزمان ما منحني إحساسًا قويًا بالحاضر: كانوا يكتبون في زماننا فيملأون ذلك الزمان أمزجة ومناخات ستبني عليها الأجيال القادمة فهمها لنا. ستوكهولم في بداية الألفية الثالثة... هكذا كان إحساسي عندما رأيتهم؛ كان إحساسًا طيبًا، إحساسًا منعشًا. لم أبالِ بأن كثيرًا من هؤلاء الكتاب كان قد تجاوز أيام عزه في الثمانينيات والتسعينيات وأزيح جانبًا منذ زمن بعيد، وذلك لأنني ما كنت أبتغي الواقع الحقيقي بل السحر! أما الكتّاب الشباب الذين قرأتهم هناك، فقد كان يوركِر فيردبورغ الوحيد الذي أحببته: كان في روايته «السرطان الأسود» شيءٌ يعلو بها فوق ضباب الأخلاق والسياسة الذي يتلفع به بقية الكتاب. لا أقصد القول إنها كانت رواية رائعة، بل كانت بحثًا عن شيء مختلف! هذا هو الشيء الوحيد الواجب على الأدب لأن كل ما يفعله الكاتب غير ذلك يظل حرًا، لكن ليس هذا... عندما يهمل الكاتب البحث عن شيء مختلف فإنه لا يستحق شيئًا غير الازدراء.

كم أكره مجلاتهم! كم أكره مقالاتهم! غاسلويسكي وراتاما وهالبرغ. إنهم فظيعون!

لا، لن أذهب إلى مكتبة أكاديمي.

وقفت عند معبر المشاة. كان هنالك مقهى صغير على الناحية الأخرى في الممر المؤدي إلى متجر NK التقليدي ذي الأقسام الكثيرة فقررت أن أذهب إليه. أذهب إلى هذا المقهى كثيرًا لأن تدفق الزبائن فيه كبير جدًا ولأنني لا أرى في ما يحيط بي أحدًا أعرفه... كأنني خفيٌّ هناك، رغم كل شيء.

وجدت طاولة خالية عند درابزين السلم النازل إلى متجر DIY في القبو. علقت سترتي على مسند الكرسي ووضعت الكتاب على الطاولة: وضعته

بحيث يكون غلافه الأمامي إلى الأسفل وكعبه إلى الجدار حتى لا يستطيع أحد أن يعرف ما أقرأه. ذهبت بعد ذلك فوقفت في صف الانتظار أمام طاولة البيع. كان الأشخاص الثلاثة العاملون هناك (امرأتان ورجل) يبدون كأنهم أختين مع أخيهم. وكان لأكبرهن، تلك التي كانت واقفة عند آلة القهوة التي تصدر هسيسًا، مظهر وإشعاع شخص من الأشخاص الذين يراهم المرء في المجلات عادة. كاد مظهرها الذي يشبه الصور أن يُلغي أي رغبة شبقية عندي عندما نظرت إليها وهي تتحرّك بخفة خلف طاولتها. كان ذلك كأن العالم الذي أتحرك فيه غير قابل لأي مقارنة أو مطابقة مع عالمها؛ أظن أنه كان كذلك. ما كان بيننا أي شيء مشترك غير النظرات.

اللعنة عليّ! ها أنا ذا أفعلها من جديد!

ألم أقل إنني كففت عن هذا كله؟ أخرجت من جيبي ورقة مئة كرون مجعّدة ففردتها ومسّدتها بيدي. جالت عيناي بين الزبائن الآخرين الذين كان كل واحد منهم تقريبًا جالسًا على كرسي واضعًا حقيبته على كرسي آخر. أحذية لمّاعة، ومعاطف وبدلات أنيقة، وياقات فراء غريبة، وعقود ذهبية غريبة، وجلد عتيق وعيون عتيقة في محاجر عتيقة معتنى بها جيدًا. كانوا يشربون القهوة ويأكلون أنواعًا من المعجنات الدانماركية الحلوة. قد أكون مستعدًا لدفع ثروة مقابل معرفة ما يفكر فيه هؤلاء الجالسون هنا. كيف يبدو العالم في نظرهم. تخيّلوا لو كان مختلفًا عمّا أراه اختلافًا جذريًا! تخيّلوا إن كان مليئًا بالمسَرّة... مسرة بالأريكة الجلدية السوداء، وبسطح القهوة الأسود وطعمها المر، إن لم أقل شيئًا عن عين الكاسترد الصفراء في وسط قطعة حلوى موضوعة أمامهم. ماذا لو كان هذا العالم كله يُغنّي في داخلهم؟ ماذا لو كانوا مفعمين حتى الانفجار بالمباهج الكثيرة التي أنعم عليهم الزمان بها؟ حقائبهم مثلًا، ومقابضها المبتكرة الفاخرة المصنوعة من خيوط غليظة بدلًا من المقابض الكرتونية الصغيرة التي يلصقونها على أكياس التسوق في السوبر ماركت. وتلك الشعارات التي أنفق شخصٌ صاحب خبرة في اختصاصه وصاحب تجربة طويلة أمضى أيامًا وأسابيع في تصميمها مع كل

ما ينطوي عليه ذلك من ملاحظات من الأقسام الأخرى ومزيد من العمل للوصول بالتصميم إلى منتهاه. لعل المصمم أيضًا جعل أصدقاءه وأسرته يرون نماذج عن تصميمه، ولعله ظل صاحيًا طيلة الليل لأن هنالك دائمًا شخص يمكن ألّا يعجبه ذلك التصميم رغم كل ما أنفق فيه من عناية مدقِّقة موسوسة ومن براعة، إلى أن جاء اليوم الذي صار التصميم فيه حقيقة واقعة وصار قابعًا، على سبيل المثال، في حجر تلك المرأة الخمسينية ذات الشعر القاسي المصبوغ بمسحة من اللون الأشقر.

لعل تلك المرأة ما كانت تبدو سعيدة مبتهجة إلى هذا الحد! بل الظاهر أن فيها الآن ميلًا إلى التأمل. هل هي ممتلئة سلامًا داخليًا كبيرًا بعد حياة طويلة سعيدة؟ حياة ما، كان فيها ذلك التضاد التام بين مقبض فنجان القهوة الخزفي الأبيض البارد والقهوة الساخنة السائلة السوداء أكثر من نقطة توقّف مؤقتة في رحلة عبر ما في هذا العالم من أشياء محسوسة ومن ظواهر؟ ألم ترَ نباتات قفاز الثعلب نامية على صخرة ذات يوم؟ ألم ترى كلبًا يبول عند عمود النور في حديقة في واحدة من ليالي تشرين الثاني التي يلفها الضباب والتي تملأ المدينة بهذا الغموض والجمال كله؟ آه، آه، أليس هذا الهواء مليئًا بحبيبات مطر ضئيلة لا ترقد مثل غلالة على الجلد والصوف والمعدن والخشب فحسب بل هي أيضًا تعكس الضوء من حولها فيتألق كل شيء ويلمع في العتمة الرمادية؟ ألم ترَ تلك المرأة رجلًا يحطم نافذة قبو مطلة على الفناء الخلفي ثم يمد يده فيفتح قفلها وينزلق زاحفًا حتى يسرق ما قد يكون في الداخل؟ إن دروب الإنسان عجيبة في حقيقة الأمر، رائعة! ألم يكن لديها حاملٌ معدنيّ صغير عليه قارورتين للملح والفلفل، قارورتين مصنوعتين من زجاج منفوخ وعليهما غطاءين مصنوعين من معدن الحامل نفسه، مثقّبين ثقوبًا صغيرة كثيرة حتى يستطيع الملح والفلفل، كل بدوره، أن يرش نفسه عبرها؟ على أي شيء رأتْ الفلفل والملح يرشان نفسيهما؟ قطعة لحم مشوية، أو فخذ خروف، أو بيض مقلي رائع أصفر اللون مع الثوم الأخضر المفروم، أو حساء البازلاء الذي فيه قطع من لحم البقر. أوليست

هذه المرأة مترعة بتلك الانطباعات، بكل انطباع منها، بتلك الطعوم كلها والروائح كلها والألوان كلها والأشكال كلها؟ أليست هذه الأشياء كلها تجربة عمر كامل؟ أيكون مفاجئًا بعد هذا أن تلتمس صاحبة هذا العمر السلام والهدوء حيث تجلس الآن من غير أن تبدو عليها رغبة في امتصاص أي مزيد من هذا العالم؟

وأخيرًا، صار ما طلبه الرجل الواقف في الصف أمامي جاهزًا على طاولة البيع، ثلاثة فناجين من القهوة مع الحليب. من الواضح أنها كانت مهمة صعبة إلى أقصى حد! والمرأة العاملة هناك، المرأة ذات الشعر الأسود المتهدل حتى كتفيها، ذات الشفتين اللطيفتين والعينين السوداوين اللتين تلمعان في لحظة واحدة عندما تريان شخصًا تعرفه؛ عينان يقظتان، لكنهما حياديتان الآن... إنها تنظر الآن إليّ. قالت قبل أن يتسنّى لي الوقت لكي أقول شيئًا: «قهوة من غير إضافات؟».

أومأت برأسي. ثم تنهدتُ عندما استدارت لتأتي بقهوتي. نعم، هي أيضًا.. لقد لاحظتْ الرجل الطويل الأسمر قليلًا الذي يرتدي سترة عليها بقع من طعام الأطفال الصغار، الرجل الذي لم يعد يغسل شعره.

تجوّلت عيناي عليها خلال الثواني القليلة التي استغرقها عثورها على فنجان وملئه قهوة. هي أيضًا ترتدي حذاء أسود طويل الساق حتى الركبتين. إنها موضة هذا الشتاء... أتمنى أن تدوم هذه الموضة إلى الأبد.

قالت لي: «ها هي القهوة!».

أعطيتها ورقة من فئة مئة كرون فأخذتها بأصابعها المعتنى بها جيدًا؛ لاحظتُ أن طلاء أظافرها كان شفّافًا. أدخلت المبلغ المطلوب في آلة المحاسبة، ثم وضعت البقية في يدي وتحوّلت الابتسامة التي منحتني إياها إلى ثلاثة أصدقاء واقفين من خلفي.

لم يكن مرأى كتاب دوستويفسكي على الطاولة شيئًا مغريًا في حقيقة الأمر. كان ولوج عالم القراءة يصبح أكثر صعوبة كلما قلّت قراءتي. إنها تلك الدائرة المفرغة المعتادة. وفوق هذا، لم أكن أحب الوجود في العالم

الذي يصفه دوستويفسكي. مهما استغرقتُ في القراءة، ومهما بلغ إعجابي بما أنجزه، فإنني لا أستطيع تخليص نفسي من البُعد الذي أحسه عندما أقرأ كتبه. لا، إنه ليس بُعدًا. عدم الارتياح هو التعبير الصحيح. لم أكن مرتاحًا في عالم دوستويفسكي. لكنني فتحت الكتاب، رغم هذا، وجلست على تلك الأريكة لأقرأ بعد أن نظرت من حولي لأتأكد من أن أحدًا لا يراني أفعل هذا.

قبل دوستويفسكي، كان المِثال دائمًا شيئًا نقيًا قويًا، (حتى المثال المسيحي)، وكان جزءًا من السماء. كان شيئًا لا يكاد يستطيع أحد أن يطاله. كان الجسد ضعيفًا، والعقل هشًا، لكن المثال راسخٌ لا يتزعزع. كان المثال شيئًا على صلة بالإلهام وقوة التحمل وخوض القتال. أما في كتب دوستويفسكي فكل شيء بشري؛ أو يمكن القول إن العالم البشري هو كل شيء، بما في ذلك المُثل التي صارت مقلوبة رأسًا على عقب: صار بلوغها ممكنًا الآن إذا استسلمت وإذا فقدت السيطرة وملأت نفسك باللاإرادة بدلًا من الإرادة. الاتِّضاع وامّحاء الذات... تلك هي المُثل في أهم روايات دوستويفسكي؛ وبقدر ما لا تتحقّق هذه المُثُل أبدًا ضمن إطار السرد الروائي، تكون عظمتها كامنة في عدم تحققها لأن هذا، بالضبط، نتيجة اتضاعه وإمحائه نفسَه باعتباره كاتبًا. خلافًا لمعظم الكتّاب الكبار الآخرين، لا يكاد المرء يستطيع رؤية دوستويفسكي نفسه في رواياته. لا يعثر المرء على تحولات لامعة الذكاء في العبارات، تحولات يمكن أن تشير إليه؛ ولا وجود لمثل أخلاقي محدّد يمكن استنباطه لأن دوستويفسكي يستخدم براعته واجتهاده كلهما حتى يُكسِبَ الناس في أعماله الشخصية الفردية التي تميز كلًا منهم. وبما أن في الإنسان الكثير الكثير مما لا يسمح لأحد بتصغير شأنه أو محوه، فإن الصراع والسعي النشط يكونان دائمًا أقوى من كسل الرأفة والمغفرة، وأقوى من سلبيتهما... لأن هذا ما ينتهيان إليه. ذلك لأن في وسع المرء، على سبيل المثال، أن يتابع ويدرس فكرة العَدَميّة في أعماله؛ تلك الفكرة التي لا تبدو حقيقية أبدًا بل تبدو دائمًا كأنها مجرد «فكرة ثابتة»، مجرد جزء من فردوس التاريخ الثقافي لعصره. وهذا للسبب نفسه الذي

يجعل النزعة البشرية تنفجر مندفعة في كل مكان بأشكالها كلها، من أكثرها غرابة ووحشية إلى أكثرها أرستقراطية ورفعة وتلوثًا، فتُفقر مثال يسوع المسيح وتُنكر أبّهته إنكارًا أرضيًا دنيويًا وتجعل كل شيء مترعًا بالمعنى، بما في ذلك المناقشة التي تتناول العدمية نفسها. أما عند كاتب مثل تولستوي الذي كان يعمل ويكتب خلال فترة الاضطرابات العظمى التي شغلت النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت أيضًا حافلة بمختلف أشكال الشكوك الدينية والأخلاقية، فإن كل شيء يبدو مختلفًا. هنالك وصف طويل لمشاهد الطبيعة، وللحيز المكاني والعادات والأزياء، ولماسورة بندقية ينبعث الدخان منها بعد خروج الطلقة؛ وصفٌ يردد أصداء واهيةً لذلك الانفجار، وحيوان جريح يتعثر قبل أن يسقط ميتًا ويتدفق منه الدم جاريًا إلى الأرض. تجري هناك مناقشة الصيد عبر تحليل مطول لا يتظاهر بأنه أي شيء آخر غير التحليل، وعبر سردٍ عَليم لتفاصيل ظاهرة موضوعية نراه مُقحَمًا ضمن سرد روائي وافر الأحداث. هذا التدفق الغزير للأفعال والأحداث التي تأتي لتتحدّث عن نفسها فحسب غير موجود لدى دوستويفسكي؛ فعنده يكون هنالك شيء ما خبيء دائمًا خلفها، مأساة من مآسي الروح. وهذا يعني أن لديه على الدوام وجهًا من وجوه النزعة البشرية لا يُدخله في الكتابة، إنه الوجه الذي يربطنا بالعالم الذي هو خارجنا. هنالك رياح كثيرة تعصف بالإنسان، وهنالك كيانات أخرى في داخله، بمعزل عن عمق الروح. لقد عرف واضعو أسفار العهد القديم هذا الأمر أكثر من أي كاتب آخر. فهناك نعثر على أغنى ما يُستطاع تصويره من الظهورات الممكنة للنزعة البشرية حيث تُقدَّم أشكال الحياة الممكنة كلها باستثناء شكل واحد (هو الشكل الوحيد الذي يحمل أهمية عندنا)، ألا وهو الحياة الداخلية: تقسيم كينونة الإنسان إلى وعي ولا وعي، إلى ما معقول ولا معقول، القسمة التي يشرح فيها أحد القسمين القسم الآخر دائمًا، أو يوضّحه؛ وإدراكُ الرّب بصفته شيئًا يمكنك أن تُغرِق روحك فيه بحيث ينتهي النزاع ويعمّ السلام... هذه كلها أفكار جديدة على صلة لا تنفصم بنا وبزماننا، أفكار تترك الأشياء

(ليس من غير سبب) تنزلق من بين أيدينا إذ إنها تسمح لها بأن تصير مندمجة في معرفتنا عنها أو في صورتها في عقولنا، لكنها، في الوقت نفسه، تقلب العلاقة بين الإنسان والعالم رأسًا على عقب: في حين كان الإنسان يَجولُ في العالم قبل ذلك، صار العالمُ الآن يجول عبر الإنسان! وعندما يتغيّر المعنى، يتبعه اللامعنى أيضًا. ما عاد هُجران الرب هو ما يرمينا في ظلمة الليل مثلما كان يفعل في القرن التاسع عشر عندما استولت النزعة البشرية على كل شيء بعد أن كانت متروكة (هذا ما نستطيع رؤيته عند دوستويفسكي ومونخ وفرويد)، عندما صار الإنسان جنّة نفسه، بفعل الحاجة إلى ذلك أو بفعل الرغبة فيه. على أن خطوةً واحدة في اتجاه الابتعاد عن تلك الجنة كانت كل ما يلزم حتى يضيع المعنى كله. يصير جليًا عند ذلك أن هنالك عالمٌ سماوي فوق الكينونة البشرية، أعلى منها، وهو ليس عالمًا فارغًا فحسب، وليس عالمًا باردًا أسود فحسب، بل عالم لا نهاية له أيضًا. كم تبلغ قيمة الكينونة البشرية في مجرى الكون كله؟ وكم أن الإنسان على هذه الأرض ليس إلّا حشرة بين الحشرات الأخرى، حياة بين أشكال الحياة الأخرى... حياة يمكن أيضًا أن تتخذ هيئة طحلب في بحيرة أو فطر على أرض الغابة أو بيضة داخل سمكة، أو جرذ في جحر، أو مجموعة محارات على حَيْدٍ بحري؟ لماذا يكون علينا أن نفعل شيئًا ما، وليس شيئًا آخر، عندما لا يعود هنالك هدف ولا وجهة في الحياة غير أن نتجمهر معًا ونعيش، ثم نموت؟ ومن عساه يسأل عن قيمة هذه الحياة عندما تروح إلى الأبد ويتحوّل الجسد إلى قبضة تراب رطبة وبضعة عظام مصفرّة هشّة؟ الجمجمة... ألا تكون مبتسمة ابتسامة سخرية هناك، في القبر؟ وما الفرق الذي يمكن أن تُحدثه، من هذا المنظور، بضعة أجساد ميتة إضافية؟ أوه، نعم، هنالك منظورات أخرى لهذا العالم نفسه: ألا يمكن النظر إليه على أنه أعجوبة من أنهار لطيفة البرودة وصحارى شاسعة وقواقع بحرية مُلتفّة وأخاديد عميقة، وأوعية دموية ومادة دماغية رمادية، وكواكب مقفرة ومجرات متمدّدة؟ نعم، إنه منظور ممكن أيضًا لأن المعنى ليس شيئًا معطى لنا بل هو شيء نعطيه

بأنفسنا. يجعل الموت الحياة من غير معنى لأن كل شيء نسعى إليه يتوقّف ويكف عن الوجود عند توقف الحياة. لكنه يُكسب الحياة معنى لأن حضورَه يجعل نصيبنا القليل منها أمرًا لا نستطيع التخلّي عنه... تصير كل لحظة ثمينة عندنا. لكن الموت أُزيل من حياتنا في زماني أنا، وما عاد موجودًا أبدًا إلّا على هيئة مادة ثابتة في الجرائد كلها وفي أخبار التلفزيون وفي الأفلام حيث لا يكون علامة تشير إلى انتهاء حدوث شيء ما أو إلى انقطاع شيء ما، بل هو علامة على شيء متكرّر كل يوم أو شيء يُقدّم على أنه امتداد لعملية ما. على أنه استمرار. على هذا النحو (يا للغرابة!) صار الموت مصدرًا لإحساسنا بالأمان، صار مرساة لنا. صار تحطم الطائرات طقسًا مألوفًا لأنه يحدث كل حين من الزمن. تتكرر سلسلة الحوادث نفسها، أما نحن أنفسنا فلسنا جزءًا منها أبدًا. إحساس بالأمان، لكنه إحساس بالإثارة وكثافة الحضور أيضًا لأننا نتخيّل كم كانت آخر ثواني حياة المسافرين مخيفة... يشتمل كل ما نراه ونفعله على هذه الكثافة التي أثيرت في نفوسنا من غير أن تكون لها علاقة بنا. فما هذا؟ أترانا نعيش حياة بشر آخرين؟ نعم؛ كل ما لم نفعله وما لم نعِشهُ نحصل عليه بهذه الطريقة، بل نعيشه أيضًا، لأننا رأيناه ولأننا شاركنا فيه من غير أن نكون حاضرين. لا يحدث هذا على فترات متباعدة، بل يحدث كل يوم... وهو لا يحدث لي وحدي، ولا لكل الناس الذين أعرفهم فقط، بل يشمل الثقافات الرئيسية كلها، بل يشمل حقًا كل إنسان في هذا الوجود، ويشمل البشرية جمعاء. استكشفت البشرية كل شيء وجعلتْه لها مثلما يفعل المحيط بالمطر والثلج، وما عادت هنالك أي أشياء أو أي أماكن لم نجعلها ملكًا لنا، فصارت محمّلة بكينونتنا الإنسانية: لقد كان عقلنا هناك، فيها! أما ضمن سياق المقدس، المتسامي، فقد كانت كينونة الإنسان شيئًا صغيرًا على الدوام؛ كانت شيئًا ضئيلًا تافهًا لا أهمية له. وقد توجّب أن تكون كذلك نتيجة الأثر الضخم لهذا المنظور شيءٌ قد لا تمكن مقارنته إلّا بالأهمية التي يشتمل عليها الإقرار بأن المعرفة كانت سقوطًا على الدوام... هكذا ارتفعت فكرة المقدس أول الأمر، ثم بلغت

نهايتها اليوم. فمن عساه يتأمل في لا معنى الحياة الآن؟ المراهقون! إنهم الأشخاص الوحيدون الذين تشغلهم الأسئلة الوجودية؛ وهذا ما نستنتج منه أن فيهم شيئًا صبيانيًا غير ناضج. يستتبع هذا أن من المستحيل تمامًا أن يستطيع الناس الكبار الناضجون، بما يملكونه من إحساس سليم باللياقة، أن يتعاملوا معهم. على أن هذا ليس بشيء شديد الغرابة لأننا، في سِنيّ مراهقتنا، نعرف أقصى إحساس بالحياة وأقصى حماسة لها عندما نخطوا في هذا العالم للمرة الأولى وتكون مشاعرنا جديدة كلها. هكذا يكون المراهقون، بأفكارهم الكبيرة الدائرة في أفلاك صغيرة، يبحثون في كل اتجاه عن فرصة لإطلاقها بينما يتزايد الضغط من خلفها ويجعلها فاقدة الصبر تواقةً إلى الانطلاق. فبمن عساهم يستنيرون، عاجلًا أو آجلًا، غير العم دوستويفسكي؟ لقد صار دوستويفسكي كاتب المراهقين، وصارت قضية العدمية قضية من قضايا المراهقين. كيف حدث هذا؟ يصعب القول! لكن النتيجة، على أي حال، هي أن هذا السؤال الضخم كله قد أُهمل وصُرِف النظر عنه. بينما، في الوقت نفسه، وُجهت الطاقة النقدية كلها صوب اليسار حيث ابتلعتها أفكار العدالة والمساواة، أي الأفكار التي هي، بطبيعة الحال، توجّه تطوّر مجتمعنا وتضفي عليه الشرعية، وتوجّه معه حياتنا الماضية إلى الهاوية، حياتنا التي نعيشها في هذا المجتمع. الاختلاف بين عدمية القرن التاسع وعدميتنا نحن هو الاختلاف بين الخواء والمساواة. سنة 1949، قال الكاتب الألماني إرنست يونغر إننا سنصل في المستقبل إلى شيء يقارب دولة عالمية. والآن، حين صارت الديمقراطية الليبرالية سائدة في المجتمعات الحديثة، يظهرُ لنا أنه كان محقًا. كلنا ديمقراطيون، وكلنا ليبراليون، والاختلافات بين الدول والثقافات والناس آخذة في التحطم والتضاؤل في كل مكان. ماذا يمكن أن تكون هذه الحركة، في لُبّها، غير حركة عدمية؟ كتب يونغر: «العالم العدمي هو، في جوهره، عالم يجري اختزاله وخَفضُه خفضًا متزايدًا. ومن الطبيعي أن هذا متوافق بالضرورة مع الحركة صوب نقطة الصفر». من الأمثلة على هذا الخفض أن يجري فهم الرب على أنه «خَيِّر»، أو الميل إلى العثور على

صفة مشتركة أو قاسم مشترك لكل ما في العالم من ميول متشابكة معقدة، أو نزوعنا إلى التخصص الذي هو شكل آخر من أشكال ذلك الخفض، أو تصميمنا على تحويل كل شيء إلى أرقام... الجمال والغابات والفن والأجساد. فما هي النقود إن لم تكن الكيان الذي يُسلِّعُ أكثر الأشياء بعدًا عن التماثل ويجعلها قابلة للمقارنة؟... أو، مثلما كتب يونغر أيضًا: «شيئًا فشيئًا، يجري إدخال هذه المجالات كلها ضمن قاسم مشترك وحيد، بل ضمن قاسم مشترك قائم في مكان بعيد عن العلاقات السببية كبعد الأحلام عنها». صارت أحلامنا متماثلة في قرننا هذا؛ حتى الأحلام نفسها صارت أشياء نبيعُها! صارت أحلامًا لا متمايزة... وهذه ليست إلّا طريقة أخرى لقول إنها أحلامٌ لا مبالية.

ها هنا يكمن ليلنا.

* * *

كان لديّ إحساس بأن زحام الناس من حولي آخذ بالتناقص وبأن الشوارع في الخارج صارت مظلمة؛ لكني لم أدرك إن هذا كان علامةً على مرور الوقت إلّا عندما وضعت الكتاب لأذهب وأملأ الفنجان من جديد.

إنها السادسة إلّا عشر دقائق!

يا إلهي!

كان عليّ أن أعود إلى البيت في الخامسة. ثم إن اليوم هو الجمعة، اليوم الذي نسعى فيه دائمًا إلى تقليل المشاكل في ما يتعلق بالعشاء وفترة المساء التي تلي ذلك. تلك هي الغاية من يوم الجمعة، على الأقل!

يا للخراء! اللعنة، اللعنة!

ارتديت سترتي ووضعت الكتاب في جيبي، ثم أسرعت خارجًا من المقهى.

قالت الفتاة التي على طاولة البيع عندما ذهبت: «إلى اللقاء».

أجبتها من غير التفات: «إلى اللقاء!» كان عليّ أيضًا أن أشتري بعض الأشياء قبل العودة إلى البيت. قبل كل شيء، دخلت محل سيستم بولاغيت

الذي رأيته أمامي. ومن غير أن أنظر، أخذت زجاجة نبيذ أحمر من الرف الأغلى سعرًا بعد أن تأكدت من صورة رأس الثور على اللصاقة. وبعد ذلك، سرت في الممر المفضي إلى المُول الذي كان ضخمًا فاخرًا يجعلني دائمًا أحس أنني في هيئة رثّة كأنني متشرد. بلغت السلم فنزلت إلى السوبر ماركت في القبو حيث يبيعون أكثر الأشياء تميزًا في ستوكهولم، وحيث ينتهي جزء لا يُستهان به من دخلنا... ليس لأننا أصحاب خبرة رفيعة في تذوق المأكولات (لا تتخيلوا هذا!)، بل لأننا أكثر كسلًا من أن نمشي إلى السوبر ماركت الرخيص في النفق في بيرغر يارلسغاتان، وكذلك لأنني لا أبالي أبدًا بقيمة المال، بمعنى أنني لا أتردد إطلاقًا في إنفاقه كالماء عندما أمتلكه ولا أحس افتقارًا إليه عندما لا أمتلكه. كان هذا غباءً، بالطبع: إنه يجعل حياتنا أكثر صعوبة. صحيح أن دخلنا محدود، لكن كان من السهل أن نجعله منتظمًا، صحيًا، بدلًا من تبديدي المال هنا وهناك فور حصولي عليه ثم العيش على الحد الأدنى ثلاث سنوات بعد ذلك. لكن، من عساه يشغل نفسه بالتفكير على هذا النحو؟ إنه ليس أنا على أي حال! وهكذا مضيت إلى زاوية بيع اللحوم حيث لديهم شرائح أُنتريكوت رائعة لكنها غالية الثمن بشكل مذهل، وفق معاييرنا، يأتون بها من مزرعة في غوتلاند... لحم ذو مذاق ممتاز، حتى أنا أستطيع إدراك هذا! وجدت هناك أيضًا علبًا بلاستيكية من صلصات اللحم المصنوعة بيتيًا، فأسرعت وأخذت واحدة منها، إضافة إلى كيس من البطاطس وبعض الطماطم والبروكولي والفطر. رأيت لديهم ثمار توت العلّيق الطازجة فأخذت سلة منها، ثم مضيت مسرعًا إلى منطقة بيع المواد المجمّدة فاخترت علبة آيس كريم بطعم الفانيليا من ذلك النوع ذي اللصاقة الصغيرة الذي بدأوا بيعه هنا منذ فترة قريبة. وأخيرًا، ذهبت إلى الناحية الأخرى من السوبر ماركت فأخذت بضعة كعكات فرنسية بطعم الفاكهة الرائع. ولحسن حظي، كان في تلك الناحية صندوق المشتريات ودفع ثمنها.

يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! إنها السادسة والربع الآن.

ليست المشكلة أنني تأخرت عن موعد عودتي ساعة ونصف الساعة وأن ليندا تنتظرني في البيت الآن، بل هي أيضًا أن الأمسية ستكون شديدة القصر لأننا ننام في وقت مبكر جدًا. من ناحيتي، لا أهمية لهذا كله لأن من الممكن أن أكون راضيًا تمامًا بتناول السندويشات أمام التلفزيون والذهاب إلى الفراش في السابعة والنصف، إن كان هذا ضروريًا؛ لكنني كنت قلقًا من أجلها هي.

وفوق هذا، فقد كنت في الآونة الأخيرة في رحلة لقراءة مقتطفات من كتاباتي استمرت ثلاثة أيام، وسوف أذهب لإلقاء كلمة في أوسلو الأسبوع القادم... هذا يعني أن رَسَني الآن أقصر من المُعتاد.

وضعت المشتريات على الطاولة المعدنية التي بدأت تدور ببطء صوب عاملة البيع. راحت العاملة تتناولها، واحدة بعد أخرى، وتديرها عند الآلة حتى يصير الباركود فوق القارئ الليزري، وبعد سماع الصوت الصافر الصغير، تضعها على السير الناقل الصغير الأسود. وذلك كله بحركات نائمة كأنها تتحرّك في الحلم. كان الضوء فوقنا شديدًا إلى درجة جعلت مسامات جلدها مرئيةً. كان فمها متهدلًا قليلًا عند زاويته، لا لأنها كبيرة السن بل لأن خديها كبيرين منتفخين. كان رأسها كله سمينًا منتفخًا. لعلها أنفقت وقتًا طويلًا على تصفيفة شعرها التي لم تُفدها شيئًا في تحسين الانطباع العام لدى من ينظر إليها: كان ذلك أشبه بتصفيف الورقات الخضراء في قمة جزرة.

قالت وهي تنظر إلى أصابعها التي فردتها أمامها لحظة قصيرة: «خمسمئة وعشرون كرونًا». وضعت بطاقتي المصرفية في الآلة الصغيرة، ثم أدخلتُ الرقم السري. وعندما كنت أنظر إلى شاشة الآلة منتظرًا إشارة قبول الدفع، فاجأتني فكرة أنني نسيت شراء كيس أضع فيه تلك الأشياء. عادة، عندما يحدث هذا، فإنني أحرص على دفع ثمن الكيس حتى لا يظنوا أنني تناسيته قصدًا حتى أستطيع أخذه مجانًا. يحدث كثيرًا أن يتغاضوا عن ثمن الكيس في هذه الحالات. أما اليوم، فما كان معي أي قطع نقدية صغيرة؛ وكان أمرًا

سخيفًا أن أستخدم بطاقتي لدفع مبلغ صغير إلى هذا الحد. أما من ناحية أخرى، فهل يعنيني حقًا ما يمكن أن تظنه هذه الفتاة؟ إنها سمينة كثيرًا!

قلت لها: «نسيت أن آخذ كيسًا».

قالت: «ثمنه كرونان».

أخذت كيسًا من الصندوق تحت آلة المحاسبة وقدمت لها بطاقتي المصرفية من جديد.

قالت: «أليس لديك قطع نقدية صغيرة؟».

أجبتها: «ليس لديّ، للأسف».

لوَّحت بيدها.

قلت لها: «لكني أريد الدفع، ليس الأمر هكذا».

ابتسمت ابتسامة متعبة، ثم قالت لي: «هيا، خذ الكيس».

قلت لها وأنا أضع المشتريات في الكيس: «شكرًا لك»، ثم سرت في اتجاه السلم المؤدّي، من هذه الناحية، إلى صالة انتشرت على جدرانها لوحات إعلانية لشركة من شركات المزادات. خرجت من الباب الذي هناك، وكانت أضواء متجر NK الواقع على الجهة الأخرى تلتمع في شارع التسوّق هذا الممتد تحت الأرض والمفضي، من الجهة الأخرى، إلى مول آخر، مول غاليريان، وبعده إلى مركز «كولتورهوسيت» للثقافة؛ أما في الاتجاه الذي كنت ذاهبًا فيه، فهو يؤدّي إلى «بلاتان»، ثم إلى نفق المترو المفضي إلى المحطة الرئيسية. في الأيام الماطرة، أسير دائمًا في هذا الطريق، وفي أيام أخرى أيضًا، لأن كل ما هو تحت الأرض يسحرني... يكون ذلك كأنه مغامرة. أظن أن لهذا الإحساس أصلًا في طفولتي عندما كنت أجد العثور على كهف شيئ من أكثر الأشياء إثارة في العالم. تذكرت أن الثلج كان غزيرًا في شتاء ما، تراكم الثلج أكثر من مترين، ولا بد أن هذا كان في سنة 1976 أو 1977. وفي عطلة نهاية الأسبوع، حفرنا أوكارًا صغيرة ثم وصلنا في ما بينها بأنفاق ممتدة حتى حديقة الجيران. كنا مثل كائنات مَمسوسة، مسحورة تمامًا بالنتيجة التي حقّقناها عندما حل المساء وجلسنا نثرثر عميقًا تحت الثلج.

مررت بالبار الأميركي المزدحم. إنه يوم الجمعة، والناس يأتون بعد العمل لشرب البيرة أو لتناول كأس سريعة قبل أن تبدأ ليلتهم في الخارج. يجلسون ويعلّقون ستراتهم السميكة على ظهور كراسيهم فيبتسمون ويشربون... وجوه متورّدة، أكثرهم في الأربعينيات، في حين يغدو ويروح بينهم شبان وشابات في مراييل سوداء يتلقّون الطلبات ويضعون صواني البيرة على الطاولات ويأخذون الكؤوس الفارغة. كان صوت هؤلاء الناس السعداء كلهم، وهذا الطنين البشري الدافئ خالي البال الذي تتخلّله قهقهة مرتفعة من وقت لآخر، يلاقيني عندما ينفتح الباب وتتوقّف في الخارج مجموعة من خمسة أشخاص منشغلين، كلٌّ بشيء ما... بالبحث عن السجائر أو عن أحمر الشفاه في الحقيبة أو بإدخال رقم على الهاتف ثم رفعه إلى الأذن في انتظار إجابة أو في النظر إلى الشارع أثناء الانتظار أو في النظر إلى شخص آخر من أجل إرسال ابتسامة إليه، لا شيء أكثر من ذلك، ابتسامة ودية فقط.

سمعت من خلفي صوتًا يقول: «تاكسي إلى ريغيرينغسغاتان...».

وعلى امتداد الشارع، تدفّقت السيارات، بطيئة متجهّمة فيها وجوهٌ ينيرها ضوء مصابيح الشارع فيكسبها ألقًا غامضًا، وأما وجوه السائقين فينيرها ضوء مُزرَقّ من لوحات العدادات أمامهم. كانت الموسيقى الصاخبة منبعثة من بعض تلك السيارات. كان الناس يخرجون من متجر NK ويعبرون الشارع... وسرعان ما سينطلق مكبر الصوت معلنًا أن المتجر سوف يغلق أبوابه بعد خمس عشرة دقيقة. معاطف فرائية، وكلاب صغيرة متذمّرة، ومعاطف صوفية داكنة، وقفازات جلدية، وأكياس تسوق كثيرة. ومن حين لآخر، يرى المرء سترة شبابية منفوخة، ومن حين لآخر، يرى المرء بنطلونًا متهدّلًا منفوخًا، أو قبعة قماشية. وبعد ذلك رأيت امرأة تمر راكضة ممسكة بقبعتها على رأسها وذيل معطفها يخفق حول ساقيها. لماذا هي مستعجلة هكذا؟ بدا الأمر ملحًّا طارئًا فاستدرت لأنظر. لكن، لم يحدث شيء. اختفت المرأة حول الزاوية في اتجاه كونغسترادغاردن. رأيت ثلاثة

متسوّلين جالسين عند أحد الجدران. كانت أمام أحدهم قطعة من الورق المقوّى كُتب عليها بقلم عريض أنه في حاجة إلى المال من أجل مكان يمضي فيه الليل. إلى جانبه قبّعة مقلوبة فيها قليل من قطع النقود المعدنية. أما المتسوّلان الآخران فكانا يشربان. تحاشيت النظر إليهم عندما مررت بهم. ثم عبرت الشارع عند مكتبة «أكاديمي» وسرت مسرعًا على امتداد واجهات المحلات الكالحة التي لا وجوه لها، سرت مفكرًا في ليندا... لعلها غاضبة، ولعلها تقول في نفسها إن مساءنا قد فسد، وتفكر في أنني لستُ مشتاقًا إليها كثيرًا. وعند تقاطع آخر، بعد المطعم الإيطالي الغالي، ألقيت نظرة سريعة في اتجاه مقهى «غلين ميلر» حيث رأيت شخصين يصعدان إلى سيارة تاكسي، ثم نظرة أخرى في اتجاه «نالين». رأيت باصًا ضخمًا مرتفعًا واقفًا هناك، ومن خلفه مقطورة. ومن خلفه تمامًا، رأيت باصًا آخر لمؤسسة البث السويدية. كانت حزمة كابلات كبيرة خارجة من ذلك الباص وممتدة عبر الرصيف. عبثًا أجهدت عقلي حتى أتذكر اسم الفرقة التي تعزف هناك الليلة قبل أن أصعد بخطوة سريعة الدرجات الثلاث أمام باب بنايتنا وأدخل الرقم السري، ثم أفتح الباب وأدخل. عندما بدأت أصعد درجات السلم، سمعت بابًا ينفتح ثم يغلق من جديد في الطابق الذي فوقي. عرفت من صوت إطباق الباب أنها تلك المرأة الروسية. لكن الوقت فات الآن، وما عدت قادرًا على الرجوع إلى المصعد، وهكذا تابعت صعودي فرأيتها تهبط السلم، مثلما توقّعت تمامًا. تظاهرتْ بأنها لم ترني، لكني ألقيت عليها التحية.

قلت لها: «مرحبًا!».

غمغمت بشيء ما، لكن ذلك كان بعد أن تجاوزتني. هذه المرأة الروسية هي جارتنا الجهنمية. كانت شقتها خالية خلال الشهور السبعة الأولى من عيشنا في هذه البناية. لكننا استيقظنا ذات مرة في الساعة الواحدة والنصف ليلًا على صوت مرتفع في الممر. لقد صفقتْ باب شقتها بشدّة. وبعد ذلك مباشرة، انطلق صوت موسيقى مرتفع جعلنا غير قادرين على أن يسمع أحدنا الآخر. كانت موسيقى ديسكو أوروبية فيها أصوات طبول جعلت

الأرض تهتز وإطارات النوافذ ترتجف. كان ذلك كأننا شغّلنا الستيريو في شقتنا، بأقصى قوته. كانت ليندا في الشهر الثامن من حملها، وكانت تعاني صعوبات في النوم. لكن، حتى أنا الذي أستطيع متابعة النوم عادة مهما تكن الأصوات مرتفعة من حولي صرت غير قادر على النوم إطلاقًا. بين الأغنية والأخرى، كنا نسمع صياحها وصراخها من تحتنا. نهضنا من السرير وذهبنا إلى غرفة المعيشة. هل نتصل بالخط الساخن المخصّص من أجل حالات كهذه؟ ما كنت أريد الاتصال. هذا شيء «سويدي» أكثر مما يناسبني! أليس علينا أن ننزل فنقرع بابها ونطلب منها إسكات هذه الموسيقى؟ معقول... لكن، في هذه الحالة، عليّ أن أذهب أنا. وقد ذهبت فعلًا، قرعت الباب فلم يفدني قرع الباب شيئًا. ضربت الباب بقبضتي فلم يأتِ أحد. بقينا في غرفة الجلوس نصف ساعة بعد ذلك. لعل هذا الضجيج يتوقّف من تلقاء نفسه! لكن ليندا غضبت آخر الأمر غضبًا شديدًا جعلها تنزل إليها بنفسها. وعند ذلك انفتح باب المرأة فجأة. أبدت تفهمًا شديدًا! تقدمت من ليندا ووضعت كفها على بطنها... أنت على وشك الولادة... قالت هذا بلغتها السويدية ذات اللكنة الروسية... إنني في غاية الأسف! إنني أعتذر!... لكن زوجي تركني ولا أعرف ما أفعله الآن! هل تفهمين؟ موسيقى وقليل من النبيذ... إن هذا يفيدني في برد السويد. لكنك حامل، وأنت على وشك الولادة! إنك في حاجة إلى النوم، أليس كذلك يا عزيزتي؟

سُرَّت ليندا بهذا الإنجاز فصعدت إلى شقتنا وأخبرتني بما قيل في الأسفل، ثم مضينا إلى غرفة النوم واستلقينا في السرير. وبعد عشر دقائق، بالضبط عندما أغفيت، انطلق الضجيج الجهنّمي من جديد. الموسيقى نفسها، والصوت المجنون نفسه، مع الزعيق نفسه بين أغنية وأخرى.

نهضنا وذهبنا إلى غرفة المعيشة. قاربت الساعة الثالثة والنصف. ماذا يجب أن نفعل؟ أرادت ليندا أن تتصل بالخط الساخن لكني لم أقبل: حتى إذا كانت هوية المتصل تظل محجوبة من حيث المبدأ، بمعنى أنه ليس من حق دورية الإزعاجات المنزلية أن تفصح عن اسم المشتكي، فمن الواضح

أن تلك المرأة ستعرف. وبما أنها شخصية غير مستقرة، مثلما كان واضحًا، فسوف تسبّب لنا المشاكل فيما بعد. وهكذا اقترحت ليندا أن ننتظر هذه المرة ريثما ينتهي الأمر، ثم نكتب لها رسالة ودية في اليوم التالي بحيث يصير واضحًا لها أننا أشخاص صبورون متسامحون متفهّمون، لكن صوتًا بهذا الارتفاع خلال الليل ليس بالأمر المقبول في واقع الأمر. استلقت ليندا على الأريكة. كان تنفسها ثقيلًا وبطنها مرتفعًا في الهواء. أما أنا فمضيت إلى السرير. وبعد ساعة، في الخامسة تقريبًا، توقف صوت الموسيقى تمامًا. كتبت ليندا الرسالة في الصباح التالي ووضعتها في علبة بريد جارتنا عندما خرجت إلى عملها في الصباح. ثم ظل كل شيء هادئًا حتى السادسة مساء عندما سمعنا طرقًا وضربًا مريعًا على بابنا. ذهبت لأفتح الباب. إنها المرأة الروسية. كان وجهها المشدود الذي يظهر عليه أثر الكحول مبيضًّا من شدة غضبها. رأيت رسالة ليندا في يدها.

صاحت قائلة: «ما هذا الشيء؟ كيف تجرؤون؟ في بيتي أنا! لا أسمح لكم بأن تُملوا علي ما أفعله في بيتي!».

أجبتها: «إنها رسالة ودية...».

قالت: «لا أريد الكلام معك! أريد أن أتكلم مع الشخص الذي يتولى المسؤولية هنا».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«أنت لست الرجل في هذا البيت، لست الرجل في بيتك! إنها تطردك خارجًا عندما تريد التدخين فتذهب وتقف في تلك الباحة... أنت، أيها الرجل المَسْخرة. أتظن أنني لم أرَك هناك؟ إنها هي التي أريد الحديث معها».

تقدمت مني بضع خطوات وحاولت تجاوزي ودخول البيت. فاحت منها رائحة كحول فظيعة. بدأ قلبي يخفق بشدة. كان الغضب العنيف الانفعال الوحيد الذي يخيفني حقًا. ولم أكن أستطيع درء شعوري بالضعف، ذلك الشعور الذي يتخلل جسدي كله في هذه الحالات. تصير ساقاي ضعيفتين،

وتصير ذراعاي ضعيفتين، ويرتجف صوتي، لكني لم أتركها تلاحظ شيئًا من هذا.

قلت وأنا أتقدّم منها: «عليك أن تتكلمي معي أنا».

قالت لي: «لا! هي من كتب هذه الرسالة. هي التي أريد الكلام معها».

قلت: «اصغِ إليّ جيدًا! لقد رفعتِ صوت الموسيقى الليلة الماضية إلى حد لا يحتمل. كان من المستحيل أن ننام. ليس من حقك أن تفعلي هذا. عليك أن تفهمي».

«لا يحق لك أن تقول لي ما أستطيع فعله وما لا أستطيع».

قلت: «طيب، لست أنا من يقول لك هذا. لدينا شيء اسمه أنظمة البناية. وعلى كل من يعيش في هذا المكان أن يتقيد بهذه الأنظمة».

قالت: «هل تعرف كم يبلغ الإيجار الذي أدفعه هنا؟ أدفع خمسة عشر ألفًا! وأنا أعيش هنا منذ ثماني سنين. لم يشتكِ أحد مني قبل الآن. ثم أتيتم أنتم، أنتما أيها المتكبران اللذان يرفعان أنفيهما... في الحقيقة، إنني حامل».

عندما قالت الكلمات الأخيرة مقلِّدةً ليندا، رفعت رأسها بطريقة متعالية وشدت على شفتيها ورفعت أنفها في الهواء. كان شعرها مشعثًا، ولون جلدها شاحبًا، وخداها ممتلئين، وعيناها محدقتين. نظرت إليّ بتلك العينين الغاضبتين فنظرتُ إلى الأرض. استدارت ومضت نازلة السلم.

أغلقت الباب واستدرت فواجهت ليندا التي كانت مستندة إلى جدار الصالة.

قلت لها: «لا بأس... كانت تلك حركة ذكية».

سألتني: «هل تقصد الرسالة؟».

قلت: «نعم! لقد تورّطنا في المشاكل الآن».

«هل تقصد القول إن هذا نتيجة خطأ مني؟ إنها هي، ولست أنا، هي من فقد صوابه. لا علاقة لي بالأمر».

أجبتها: «اهدئي! لسنا في مشاجرة».

انفجر صوت الموسيقى في الشقة، من تحتنا، انفجر مرتفعًا عنيفًا مثلما كان في الليلة الماضية. نظرت ليندا إليّ.

قالت لي: «هل نخرج؟».

قلت: «في الحقيقة، لا تعجبني فكرة أن نجد نفسينا مطرودين من بيتنا بهذه الطريقة. لكن البقاء مستحيل».

«هذا صحيح».

توقف صوت الموسيقى بينما كنا نرتدي معطفَيْنا. لعل الصوت كان مرتفعًا إلى حد لم تستطع احتماله هي نفسها. لكننا خرجنا رغم ذلك، ومضينا صوب الميناء، إلى شارع نايبروبلان حيث كانت أضواؤه تلتمع على صفحة الماء السوداء وكانت طبقات ضخمة من جليد هش متجمعة أمام مقدمة السفينة العبّارة ديورغاردن المقتربة من الشاطئ بحركة بطيئة. كان مسرح الدراما الملكي منتصبًا مثل قلعة إلى الناحية الأخرى من الطريق. إنه واحدٌ من مباني ستوكهولم الأثيرة عندي. لا لأنه جميل، فهو ليس جميلًا، بل لأنه يشيع جوَّه الخاص من حوله مثلما تفعل المنطقة المحيطة به. لعل إحساسي هذا كان بسبب لون حجارته الخفيف، الأبيض تقريبًا، وبسبب ذلك السطح المتسع إلى حد يجعل المبنى كله مشعًا حتى في أكثر الأيام الممطرة ظلمة. ومع الريح المستمرة القادمة من البحر، والرايات الخفّاقة عند المدخل، كان هنالك أيضًا ذلك الإحساس بالفسحة والانفتاح الناجم عن المساحة الفسيحة التي ينتصب هذا البناء عليها؛ ثم إن التماثيل المزعجة التي تشبه النُّصب، تلك التي يراها المرء غالبًا حول المباني التي من هذا النوع، ما كانت موجودة هنا. أليس شبيهًا بجبل صغير عند شاطئ البحر؟

سرنا متشابكَيْ الأيدي في شارع ستراندغاتان. كان سطح الماء غارقًا في الظلمة حتى جزيرة سكيبشولمن. هنالك شيء آخر: عندما لا تظهر أكثر من أنوار معدودة في البيوت المنتشرة هناك، ينشأ لدى المرء إحساس بإيقاع منفرد في تلك المدينة، ويحس أنها قد انتهت هنا، يحس أنها انتهت ممتزجة بمحيطها وبالطبيعة من حولها، ثم لا تلبث أن تظهر من جديد عند ضفة الماء

الأخرى حيث المدينة القديمة، حيث سلوسن والجروف الحادة كلها في اتجاه سودرمالم جاثمة لامعة برّاقة في مهب الريح البحرية المهمهمة.

كانت ليندا تحكي لي قصصًا عن مسرح الدراما الملكي حيث أمضت فترة غير قليلة من نشأتها. كانت أمها مسؤولة بشكل كامل عنها وعن أخيها خلال عملها في هذا المسرح. وهكذا كانا يذهبان معها كثيرًا إلى التدريبات والعروض. كان هذا شيئًا أسطوريًا بالنسبة إليّ، أما بالنسبة إليها فكان شيئًا ثانويًا قليل الأهمية أو شيئًا تفضل عدم الحديث عنه؛ وما كانت لتفعل ذلك الآن لولا أنني سألتها بشكل مباشر عن تلك الأيام. كانت تعرف كل شيء عن الممثلين وعن غرورهم وميلهم إلى إحراق أنفسهم حتى النهاية، وكذلك عن قلقهم وعن الدسائس والمكائد التي بينهم. كانت تضحك وتقول إن أفضل الممثلين يكونون أغبى الممثلين في معظم الأحيان، يكونون أولئك الذين يمتلكون فهمًا أقل من غيرهم. وكانت تقول إن الممثل المثقّف شيء مخالف للقاعدة. ورغم ازدرائها مبالغات التمثيل المسرحي واحتقارها تلك الحركات والإيماءات والسلوك المباهي، إضافة إلى رخص مشاعر الممثلين وفراغ حياتهم وكثرة تقلبها، إلّا أنها كانت تنظر نظرة إكبار حقيقي إلى أداء أولئك الممثلين عندما يقدمون أفضل ما لديهم. كانت تتحدث، مثلًا، بحرارة وعاطفة عن مسرحية إبسن «بير غونت» التي أنتجها بيرغمان وحَضِرَتْها مرات لا تحصى خلال عملها في قسم الملابس في المسرح تلك الأيام: تتحدث عن العناصر الخيالية في تلك المسرحية وعن العناصر التي تشبه حكايات الجنيّات، وكذلك عن جوانبها الباروكية والهزلية. أو كانت تتحدث عن النسخة التي أنتجها ويلسون من مسرحية «لعبة حلم» لشترينديرغ وقدمها على مسرح المدينة في ستوكهولم حيث كانت تعمل في صياغة النص الدرامي مع ويلسون... كان ذلك أكثرَ نقاءً بالطبع وأكثر خصوصية من حيث الأسلوب، لكنه سحريٌّ أيضًا. لقد أرادت أن تصير ممثلة ذات مرة، وبلغت الجولة النهائية من امتحانات قبول الممثلين في مدرسة المسرح. حدث هذا في سنتين متتاليتين. وعندما لم يقبلوها في

السنة الثانية قرّرت أنها اكتفت من هذا الأمر وأنها ما عادت تريده، فصبّت اهتمامها في اتجاه آخر والتحقت بدورة للكتّاب في بيسكوبس آرنو، وقدمت أول أعمالها هناك على شكل مجموعة من القصائد كتبتْها في السنة التي أعقبت ذلك.

راحت تخبرني الآن عن الجولة التي قامت بها. مسرح الدراما الملكي، فرقة بيرغمان الجوالة... كانوا نجومًا حيثما حلوا؛ وقد ذهبوا هذه المرة إلى طوكيو. تجمهر الممثلون السويديون طوالًا، صاخبين، سكارى، في أفخر مطاعم المدينة؛ وما كان ممكنًا أبدًا التفكير في أن يخلعوا أحذيتهم أو يتكيفوا بعض الشيء مع ما يحيط بهم؛ لم يفعلوا هذا على الإطلاق! كانوا يلوّحون بأذرعتهم في الهواء، ويطفئون سجائرهم في فناجين الساكي ويستدعون عمال المطاعم بأصوات مرتفعة. ليندا، في تنورة قصيرة وأحمر شفاه وشعر أسود قصير مقصوص عند جبهتها وسيجارة في يدها، وكذلك في حُبٍّ صغير مع بيتر ستورمارِه... كانت في الخامسة عشرة فقط في ذلك الوقت، ولا بد أن هذا بدا أمرًا غريبًا في نظر اليابانيين... هكذا كان تعبيرها عن الأمر. لكنهم، بالطبع، لم يبدوا أي ملاحظة: كانوا يتحركون من حولهم بهدوء ولم يقولوا شيئًا حتى عندما اخترق أحد السويديين جدارًا ورقيًا ثم سقط على وجهه.

كانت تضحك عندما راحت تخبرني بهذه الأشياء.

قالت وهي تلتفت في اتجاه دجوغاردزبرون: «عندما كنا على وشك الانصراف، جاءني أحد عمال المطعم حاملًا في يده كيسًا. قال لي إنه هدية من الطباخ. نظرت في الكيس. هل تعرف ما كان فيه؟».

أجبتها: «لا».

«كان مليئًا بسرطانات حية».

«سرطانات؟ ما معنى هذا؟».

رفعت كتفيها وقالت: «لست أدري».

«وماذا فعلت بتلك السرطانات؟».

«أخذتها معي إلى الفندق. كانت أمي ثملة تمامًا، وكانت غير قادرة على العودة وحدها. خرجتُ فأوقفت سيارة تاكسي وعدت بها واضعة كيس السرطانات عند قدمي. وعندما صرت في غرفتي. فتحت الماء البارد في حوض الاستحمام ووضعتها فيه. ظلت تزحف هناك طيلة الليل بينما كنت نائمة في الغرفة المجاورة. تخيل... في قلب طوكيو».

«وماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا فعلت بهم؟».

قالت وهي تضغط على يدي وترفع رأسها ناظرة إليّ مع ابتسامة: «تنتهي الحكاية هنا».

هنالك شيء ما بين اليابان وليندا. نالت مجموعتها الشعرية جائزةً من اليابان وليس من أي بلد آخر! ولديها صورة مع أشخاص يابانيين ظلت معلقة فوق مكتبها إلى فترة قريبة. أوَليسَ هنالك شيء ياباني، وإن يكن بسيطًا، في قسمات وجهها الصغير الرائع؟

سرنا صاعدين في اتجاه كارلابلان حيث البركة الدائرية التي تنطلق من وسطها نافورة ضخمة في شهور الصيف؛ لكنها جافة الآن وقد غطّت قعرها أوراق ذابلة من الأشجار الطويلة المحيطة بها.

سألتها: «هل تذكرين عندما ذهبنا لمشاهدة مسرحية أشباح؟».

قالت: «بالطبع! لن أنسى ذلك أبدًا».

كنت أعرف أنها ألصقت تذاكر حضور تلك المسرحية في ألبوم الصور الذي بدأت تجميعه منذ بداية حملها. كانت مسرحية أشباح آخر عمل ينتجه بِرغمان للمسرح. وقد ذهبنا لحضورها قبل أن نصبح عاشقَيْن. كان ذلك شيئًا من أول الأشياء التي فعلناها معًا، وواحدًا من أول الأشياء التي تقاسمناها. حدث هذا منذ ثمانية عشر شهرًا فقط، لكنه يبدو الآن كأنه جرى قبل عمر كامل.

نظرت إليّ تلك النظرة العاطفية، نظرة التعلّق التي تذيب قلبي. كنت أشعر بالبرد لأن ريحًا لاسعة بدأت تهب. جعلني ذلك البرد أفكر في مدى بُعد ستوكهولم الشرقية... نفحةٌ من شيء أجنبي مختلف تمامًا عمّا ألفته في

بلادي، لكني ما كنت قادرًا على تحديد ذلك الشيء بالضبط. كنا في أغنى منطقة في ستوكهولم، وكان كل شيء من حولنا ميتًا بالمطلق. لا يسير أحد في الشارع هناك، ولا تزدحم الشوارع أبدًا رغم أنها أعرض من بقية شوارع مركز المدينة.

جاء في اتجاهنا رجل وامرأة معهما كلب. كانت يداه خلف ظهره، وعلى رأسه قبعة جلدية كبيرة. أما المرأة ففي معطف فراء طويل وكلبها سائر أمامها يتشمّم الأرض.

سألتُ ليندا: «هل تحبين أن نتناول كأسًا من البيرة في مكان ما؟».

أجابت: «فلنذهب! إنني جائعة أيضًا. ما رأيك بالذهاب إلى ذلك البار في زيتا؟».

«فكرة حسنة».

سرت رعدة في جسدي فأحكمت شد ياقتي من حول رقبتي.

قلت لها: «هذه ليلة شديدة البرودة. ألا تشعرين بالبرد؟».

هزّت رأسها. كانت في السترة المنفوخة الضخمة التي استعارتها من صديقتها الأولى، هيلينا، التي كان حملها في الشتاء الماضي في مرحلة متقدمة مثل حمل ليندا الآن. وكانت على رأسها قبعة الفراء التي اشتريتها لها عندما كنا في باريس. قبعة يتدلى منها ذيلان لطيفان.

«هل يرفس الآن؟».

وضعت ليندا كفيها على بطنها.

قالت: «لا، إن الجنين نائم. ينام دائمًا عندما أخرج للمشي».

قلت: «الجنين!... تسري في جسدي رعشة كلما سمعتك تقولين هذه الكلمة. يبدو لي، معظم الوقت، أنني لم أستوعب بعد تمامًا أن في داخلك كائنًا بشريًا».

قالت ليندا: «لكنه موجود! إنني أعرف الجنين منذ الآن، أو هكذا يبدو لي. هل تذكر كم كان غاضبًا عندما أجروا لي اختبار السكري؟».

أومأت برأسي. إن ليندا معرضة لخطر الإصابة بداء السكري لأن والدها

مصاب به. ولهذا، فقد أعطوها نوعًا من مزيج سُكريّ لتشربه. كان أبشع من كل ما تناولتْه في حياتها من أدوية، كان مثيرًا للغثيان إلى حد فظيع، هكذا قالت. بدأ الجنين في بطنها يركلها بجنون ساعة كاملة، أو أكثر.

قلت لها مبتسمًا وأنا ألقي نظرة في اتجاه حديقة هومليغاردن التي تبدأ في هذه النقطة، على ضفة الشارع الأخرى: «لا بد أن ذلك كان صدمة له، أو لها».

إن في جو هذا المكان شيء خَلّاب ساحر خلال الليل، بقباب النور هذه التي تنير بعض الأماكن، والأشجار بجذوعها الثقيلة وأغصانها الممتدة؛ وفي أماكن أخرى تمتد سجادة من عشب مُصفرّ تتخللها بُقع حالكة السواد. لكنه ليس جوًا ساحرًا كما يكون الأمر في غابة، بل هو شيء يشبه سحر الطقس. سرنا في أحد الممرات. لا تزال كومات صغيرة من أوراق الأشجار موزّعة في بعض الأماكن، أما بقية المروج والممرات فكانت عارية نظيفة كأنها أرضية خشب في غرفة جلوس. كان هنالك شخص يهرول حول تمثال لينيه، وجاء شخص آخر مندفعًا على امتداد المنحدر اللطيف. ومن تحتنا، كنت أعرف هذا، تقع المستودعات الضخمة التابعة للمكتبة الملكية التي نراها منتصبة أمامنا. وأما المبنى الذي بعدها فهو «ستوريبلان» الذي يضم أغلى النوادي الليلية في المدينة. نعيش على مرمى حجر من ستوريبلان، لكن... كأنه موجود في جزء آخر من العالم. كان الناس يتلقطون صورًا لهم في الشوارع هنا، من غير أن نعرف شيئًا عن الأمر إلى أن أخبرتنا صحف اليوم التالي بأن نجومًا دوليين يأتون إلى هذا المكان عندما يزورون المدينة، وبأن نخبة عالم الأعمال والمشاهير في السويد تأتي أيضًا، ثم يقرأ أهل البلد كلهم عن ذلك في صحف المساء. ما كان الناس يقفون في صف الانتظار من أجل الدخول، بل ينتظرون حتى يأتي حراس الأمن فيشيرون إلى من يكون الدخول مسموحًا لهم. لم أكن قد رأيت هذا الجانب البارد القاسي من المدينة من قبل، ولم أعش هذا الانقسام الثقافي الواضح. في النرويج، تكاد المسافات كلها تكون جغرافية. وبما أن عدد السكان صغير جدًا، فإن

الطريق إلى القمة أو إلى المركز يكون قصيرًا في كل مكان. في كل صف من صفوف المدرسة يكون هنالك من يبلغ القمة في مجال ما، أو في كل مدرسة على أقل تقدير. يعرف كل امرئ شخصًا يعرف شخصًا آخر، وهكذا. أما في السويد، فإن المسافة الاجتماعية أكبر بكثير. وبما أن الناس قد هجروا الريف وصار الجميع تقريبًا من سكان المدن، فإن كل من يريد أن يكون متميزًا يذهب إلى ستوكهولم حيث يجري كل حدثٍ يتسم بتميز من أي نوع كان. هذا أمر مريب إلى أقصى حد: قربٌ شديد، وبعدٌ شديد أيضًا.

نظرت إليها وسألتها: «هل تفكرين أحيانًا في المكان الذي أتيتُ منه؟».

هزت رأسها. وقالت: «لا، لا أفكر في حقيقة الأمر. أنت كارل أوفه. أنت زوجي الوسيم. هذا أنت في نظري».

«تجمّعٌ سكنيٌّ على جزيرة في ترومويا. ما من شيء أبعد عن عالمك من هذا! لست أعرف شيئًا عن الحياة هنا. كل شيء غريب إلى حد كبير. هل تذكرين ما قالته أمي عندما أتت تزورنا في شقتنا أول مرة؟ لا؟ ألا تذكرين؟ قالت: كان يجب أن يرى جدك هذا يا كارل أوفه».

قالت ليندا: «هذا عظيم، أليس عظيمًا؟».

«لكن، هل تفهمين؟ ليست هذه الشقة شيئًا خاصًا في نظرك. أما في نظر أمي فقد كانت كأنها قاعة رقص».

«وكيف تراها أنت؟».

«إنها كذلك في نظري أنا أيضًا. لكن، ليس هذا ما أعنيه. لست أقول إن كانت جميلة أو غير جميلة. ما أعنيه هو أنني جئت من شيء مختلف تمامًا. شيء بسيط إلى حد لا يصدق، هل تفهمين هذا؟ لست أبالي أبدًا، ولست أبالي بهذا أيضًا. الفكرة هي أن هذا الجوّ ليس لي ولا يمكن أن يكون لي أبدًا مهما عشت هنا».

اجتزنا الطريق ومضينا إلى الشارع الضيق في الحي السكني القريب من المكان الذي ترعرعت فيه ليندا، واجتزنا مقهى ساتورنز، ثم نزلنا إلى بيرغر يارلسغاتان حيث تقع سينما زيتا. تَيبَّس وجهي من البرد. وتجمّد فخذاي أيضًا.

قالت لي: «من حسن حظك أنك في هذا الوضع. فكر فقط كم هي كثيرة الأشياء الحسنة التي جلبَها لك. أن يكون لك مكان تذهب إليه. أن يكون لديك مكان خارجي أتيت منه ومكان داخلي تذهب إليه».

قلت: «أعرف ما ترمين إليه».

«كان كل شيء هنا لي أنا. لقد كبرت فيه. ولا أكاد أستطيع فصله عن نفسي. وهنالك آمال وتطلعات أيضًا. ما كان أحد يتوقّع شيئًا منك، أليس كذلك؟ بالطبع، عدا أن تدرس وأن يصير لك عمل».

رفعت كتفي. قلت لها: «لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل».

قالت: «أعرف هذا».

ساد صمت قصير.

تابعت تقول: «لقد عشت دائمًا في وسط هذا كله. ربما لم تكن أمي تتمنّى لي شيئًا أكثر من أن أكون بخير...». نظرتْ إليّ... «لهذا تحبك أمي».

«هل تحبني حقًا؟».

«ألم تلاحظ هذا؟ يجب أن تكون قد لاحظت».

«نعم، أظنني لاحظت».

تذكرت أول مرة رأيت فيها أمها. بيت صغير في مزرعة صغيرة قديمة في الغابة. الخريف في الخارج. جلسنا إلى المائدة لحظة وصولنا. حساء اللحم الساخن، وخبز طازج، وشموع على الطاولة. كنت أحس نظراتها عليّ من وقت لآخر. كانت عيناها مستطلعتين، دافئتين.

تابعت ليندا تقول: «لكن، كان هنالك أشخاص آخرون غير أمي خلال طفولتي. يوهان نوردنفولك الثاني عشر، أتظنه صار معلم مدرسة؟ ذلك المال كله، وتلك الثقافة كلها! كان على كل شخص أن يصير ناجحًا. ثلاثة من أصدقائي أنهوا حياتهم بأنفسهم. لا أجرؤ حتى على التفكير في عدد المصابين بمرض فقدان الشهية، أو بعدد الذين كانوا مصابين بهذا المرض».

قلت: «صحيح... هذا شيء فظيع حقًا! لماذا لا يستطيع الناس التعامل مع الأشياء ببساطة؟».

قالت ليندا: «لا أريد أن يكبر أطفالنا هنا».
«تتحدثين عن أطفال الآن، أليس كذلك!».
ابتسمت لي.
«وماذا أيضًا؟».
قلت: «إذن، علينا أن نعيش في ترومويا. لا أعرف هناك إلّا شخصًا واحدًا قتل نفسه».
«لا تمزح في هذا الأمر».
«لا بأس».
مرت بنا امرأة تطقطق بكعبي حذائها المرتفعين. كانت في فستان طويل أسود. رأيت في يدها حقيبة نسائية سوداء، أما يدها الأخرى فكانت قابضة على شال أسود محبوك جمعتْه على صدرها. ومن خلفها، جاء شابان ملتحيان في سترتين من الفراء لهما قبعتان كبيرتان. كان حذاءاهما من النوع المستخدم في تسلق الجبال. وكانت في يد واحد منهما سيجارة مشتعلة. وبعدهما جاءت ثلاث نساء، بَدَوْن لي صديقات. كنَّ متأنقات أيضًا، وفي أيديهن حقائب نسائية صغيرة أنيقة. لكنهن، على الأقل، كن مرتديات معاطف تقيهن من الريح وتحمي فساتينهن. بالمقارنة مع الشوارع التي في أوسترمالم، أستطيع اعتبار هذا الشارع مزدحمًا، كأنه مهرجان. شعّت أضواء المطاعم من جانبي الشارع. إنها مزدحمة بالناس كلها. وأمام سينما زيتا التي كانت واحدة من دارَيْ السينما في هذه الناحية، تجمّع حشد صغير من الناس المرتجفين بردًا.
قالت ليندا: «أقول لك بصدق... ربما لا نذهب للعيش في ترومويا، لكن يجب أن نعيش في النرويج بالتأكيد. الناس هناك أكثر ودًا».
«هذا صحيح».
شددتُ الباب الثقيل وفتحتُه حتى تدخل. خلعتُ القفازين والقبعة وحللت أزرار المعطف، ثم نزعت الشال عن رقبتي.
قلت: «لكني لا أريد الذهاب إلى النرويج. هذه هي المسألة كلها».

لم تقل شيئًا. كانت قد اتجهت إلى الملصقات المعروضة في لوحات الإعلانات. استدارت صوبي.

قالت: «إنهم يعرضون فيلم الأزمنة الحديثة».

«هل تريدين مشاهدته؟».

«نعم، أريد. فلنشاهده! لكن عليّ أن آكل شيئًا قبل ذلك. كم الساعة الآن؟».

بحثت عيناي عن ساعة جدارية في المكان. وجدت ساعة صغيرة، تكاد تكون كروية، على جدار فوق مكتب التذاكر.

«إنها التاسعة إلّا ثلثًا».

«يبدأ الفيلم في التاسعة. هذا يعني أن لدينا وقتًا. إذا اشتريتَ التذاكر، فسأذهب أنا لأرى إن كان لديهم شيء يُؤكل في البار».

«فليكن». أخرجت ورقة مئة كرون من جيبي. كانت زاويتها مطوية. ثم مضيت إلى شباك التذاكر.

سألت بالنرويجية: «هل لديكم تذاكر لفيلم الأزمنة الحديثة؟».

نظرت إليّ المرأة التي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت العشرين، امرأة بنظارة وجديلتين... نظرت إليّ نظرة متكبرة.

قالت لي بالسويدية: «عذرا؟».

... عذرًا؟

سألتها بالسويدية: «هل... لديكم... تذاكر... من... أجل... فيلم... الأزمنة... الحديثة... ؟».

«نعم».

«تذكرتان من فضلك، في الخلف، في وسط الصف. تذكرتان». وحتى لا يحدث أي خطأ، رفعت إصبعين في الهواء أمامها.

طبعتْ التذكرتين، ثم وضعتهما على الطاولة أمامي من غير أن تقول كلمة واحدة. مسّدتْ ورقة المئة كرون ووضعتها في الدرج.

ذهبت إلى البار الذي كان مزدحمًا تمامًا. حشرت نفسي على المقعد إلى جانب ليندا.

قلت لها: «أحبك».

لا أقول هذه الكلمة إلّا نادرًا. تألقت عيناها عندما رفعت رأسها ونظرت إلي.

قالت لي: «هل تحبني حقًا؟».

قبّلتها. وبعد ذلك، جاء عامل البار فوضع أمامنا سلة صغيرة من رقائق التورتيّا ومعها شيء بدا لي كأنه مصنوع من عجينة الأفوكادو مع البصل والطماطم والفلفل.

سألتني ليندا: «هل تريد أن تأخذ بيرة؟».

هززت رأسي نفيًا.

قلت: «ربما فيما بعد. لكني أظنك ستكونين في غاية التعب آنذاك».

قالت: «ربما. هل اشتريت التذكرتين؟».

«نعم».

شاهدت فيلم الأزمنة الحديثة أول مرة في ناد للسينما في بيرغن عندما كنت في العشرين. في الفيلم مشهد جعلني غير قادر على التوقف عن الضحك. لا يستطيع أكثر الناس تذكر آخر مرة ضحكوا فيها. لكني أذكر تلك اللحظة عندما ضحكت قبل عشرين عامًا لأن هذا، بالطبع، لا يحدث لي كثيرًا. أذكر كلًا من الحرج الذي سببه لي عدم القدرة على ضبط نفسي، وكذلك فرحي لأنني تركت نفسي تنطلق على سجيتها. لا يزال ما جعلني أبدأ أضحك آنذاك واضحًا في ذاكرتي كالبلور. كان على تشابلن أن يؤدي دورًا غنائيًا في عرض من عروض المنوّعات. إنه دور مهم، وهنالك الكثير مما يجعله يحرص عليه. تشابلن متوتّر، يقرأ دوره وهو يسجل الكلمات على مجموعة أوراق ليستعين بها عند الأداء، ثم يدسّ هذه الأوراق في كُم سترته قبل أن يظهر أمام الجمهور. يخطو على حلبة الرقص فيحيي الجمهور بحركة واسعة منسابة من ذراعه فتتطاير تلك القصاصات الورقية. يظل واقفًا هناك من غير أوراقه بينما تبدأ الأوركسترا

العزف من خلفه. ماذا يفعل؟ نعم، إنه يطارد تلك الأوراق، ويرتجل رقصة لكي يموّه حقيقة أن هنالك شيئًا يسير على غير ما يرام. أما الأوركسترا فراحت تكرر الافتتاحية، ثم راحت تكررها من جديد. ضحكتُ حتى بكيت. لكن المشهد ينتقل إلى مرحلة جديدة حيث يعجز تشابلن عن التقاط أوراقه رغم ذلك الرقص كله. كان عليه أن يبدأ الغناء آخر الأمر. إنه يقف هناك صامتًا تمامًا؛ وعندما يبدأ الغناء يغني كلمات لا وجود لها، لكنها تشبه الكلمات التي فقدها لأنه يحافظ على النغم والموسيقى رغم ضياع المعنى تمامًا. أذكر أنني سررت كثيرًا، لا من أجلي أنا وحدي بل من أجل البشرية كلها... لأن هنالك هذا الدفء كله، ولأنه منبعث من واحد منّا، نحن البشر.

كنت غير واثق مما ينتظرنا عندما اتخذتُ مقعدي في صالة السينما إلى جانب ليندا هذا المساء. إنه تشابلن، نعم، بالطبع. هنالك شيء ما كتبه شخص أظنه فوسنس هانسن... إنه مقالة تناقش مسألة متى يكون الموضوع فكاهيًا. فهل أستطيع الآن العثور على ما أضحكني منذ عشرين عامًا، وهل سأجده مضحكًا؟

نعم أستطيع، وعند النقطة نفسها تمامًا! يأتي تشابلن، ويحيي الجمهور، وتتطاير الأوراق من كمه، ثم يرقص على الحلبة ويتحرّك كأن ساقيه تتبعانه، كأنهما تسيران خلفه. وهو لا يفقد تواصله مع الجمهور ثانية واحدة. يرقص طيلة الوقت، ويبحث، وينحني بتهذيب أمامهم. جرت دمعة على خدي أمام التمثيل الصامت الذي تلا ذلك. كان كل شيء رائعًا ذلك المساء، هكذا أحسست. وكنا نقهقه عندما خرجنا من السينما. كانت ليندا سعيدة لأنني سعيد. هذا ما تخيلته؛ لكنها سعيدة بسعادتها أيضًا. سرنا يدًا بيد فصعدنا الدرجات الحجرية قرب المعهد الثقافي الفنلندي، وكنا نضحك ويذكّر كل منا الآخر بمشاهد من الفيلم. مشينا في شارع ريغينيغزغاتان، ومررنا بالمخبز، وبمتجر الأثاث، ثم مررنا بمحل US فيديو. فتحنا الباب وصعدنا إلى شقتنا. تجاوزت الساعة العاشرة ببضع دقائق. ما عادت ليندا قادرة على إبقاء عينيها مفتوحتين، فذهبنا إلى الفراش مباشرة.

وبعد عشر دقائق، زمجرت الموسيقى من تحتنا. كنت قد نسيت تلك الروسية تمامًا، فجلستُ في السرير فزعًا.

قالت ليندا: «بحق الرب! لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا!».

لم أكد أستطيع سماع الكلمات التي قالتها.

قلت: «لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد. ثم إنها ليلة الجمعة. هذا يعني أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا».

قالت ليندا: «لست أبالي، سوف أتصل. هذا غير مقبول أيضًا».

لم تكد تنهض من الفراش وتخرج من الغرفة حتى توقّفت الموسيقى. عدنا إلى السرير من جديد. كنت نائمًا هذه المرة عندما انطلق صوت الموسيقى من جديد. انطلق بالشدة غير المعقولة نفسها. نظرت إلى الساعة. الحادية عشر والنصف.

سألتني ليندا: «هل ستتصل؟ لم أستطِع النوم أبدًا».

لكن الأمر نفسه حدث مرة أخرى. استمرت الموسيقى بضع دقائق ثم توقفت وساد الصمت في الأسفل.

قالت ليندا: «سأنام في غرفة المعيشة».

في تلك الليلة، رفعت جارتنا الروسية صوت الموسيقى مرتين إضافتين، رفعته إلى أقصاه. بلغت بها الوقاحة في المرة الأخيرة حدًا جعلها تستمر نصف ساعة قبل أن تتوقّف. كان هذا شيئًا سخيفًا، لكنه مزعج أيضًا. لقد فقدت عقلها. ومن الواضح أنها صارت تكرهنا. أحسسنا بأن أي شيء يمكن أن يحدث. لكن أكثر من أسبوع مرّ قبل أن تقع الحادثة التي تلت ذلك. كنا قد وضعنا بعض أصص النباتات على حافة نافذة السلم قرب بابنا. كانت تلك مساحة مشتركة. وإذا شئنا الدقة، فإنها ليست لنا. لكن الناس المقيمين في الطابق الذي فوقنا فعلوا الأمر نفسه. ومن المؤكد أن أحدًا لن يستطيع الاعتراض على قيامنا بتزيين هذا السلم البارد! اختفت النباتات بعد يومين. ما كان هذا أمرًا مهمًا حقًا. لكن أصص النباتات كانت ذات يوم ملكًا

لجدة أبي. كانت من بين الأشياء القليلة التي أتيت بها من بيت كريستيانساند بعد وفاة جدتي. تعود هذه الأصص إلى أوائل القرن العشرين. وهذا يعني أن من المزعج حقًا أن تختفي هكذا. أو لعل أحدًا سرقها؟ لكن من يمكن أن يسرق أصص الأزهار؟ لعل أحدًا أزالها لأنه معترض على مبادرتنا؟ قررنا أن نضع ملاحظة على لوحة الإعلانات في مدخل البناء نسأل فيها إن كان أحدٌ قد رأى تلك الأصص. وفي الليلة نفسها وجدنا ملاحظتنا مزينة بشتائم واتهامات مكتوبة بحبر أزرق وبلغة سويدية مكسرة. هل نتهم السكان بالسرقة؟ إن كان الأمر كذلك، فمن الممكن أن ننتقل من هذا المكان فورًا. من نحسب أنفسنا؟ وبعد بضعة أيام، كنت أقوم بتركيب طاولة تغيير الحفاضات التي اشتريناها من آيكيا. وكان لا بد من استخدام المطرقة قليلًا. لكن الساعة لم تتجاوز السابعة مساء بعد مما جعلني أظن أنه ليس في الأمر أي مشكلة. لكني كنت مخطئًا لأني سمعت طرقًا عنيفًا على أنابيب التدفئة الصاعدة من الأسفل بعد بضع ضربات بالمطرقة فقط. كانت تلك طريقة جارتنا الروسية في الاحتجاج على ما كان من الواضح أنها تعتبره مخالفة لأنظمة البناء. لكني واصلت العمل فما كنت قادرًا على تركها تمنعني من إكماله. وبعد دقيقة من ذلك، سمعت صوت إغلاق الباب في الأسفل ثم صارت الجارة عند بابنا. فتحت الباب. كيف نستطيع التذمر منها رغم أننا نسبب هذا الضجيج كله بأنفسنا. حاولت أن أشرح لها الفرق بين صوت الموسيقى المرتفع في منتصف الليل وبين تجميع طاولة صغيرة في السابعة مساء؛ لكن كلامي لقيَ أذنًا صماء. بالعينين الضاريتين نفسهما، وبإشارات السخط نفسها، راحت تلك المرأة تقذفني بغضبها كله. لقد كانت نائمة؛ وقد أيقظناها من النوم. ونحن نظن أنفسنا أحسن منها، لكننا لسنا كذلك...

وضعتْ لنفسها استراتيجية ثابتة منذ ذلك اليوم: كلما سمعت صوتًا من عندنا، حتى إن كان صوت خطواتي الثقيلة على الأرض، فإنها تطرق تلك الأنابيب من فورها. كان تردد رنين ذلك الطرق يخرق الأذنين. وبما

أن مصدر الرنين ليس مرئيًا، فقد كان شيئًا يشبه صوت تعذيب الضمير في غرفتنا. كرهت هذا كثيرًا؛ وكأنه ليس مسموحًا لي أن أحظى بأي سلام في أي مكان؛ ولا حتى في بيتي نفسه.

ثم هدأ كل شيء في الأسفل خلال الأيام التي سبقت عيد الميلاد. اشترينا شجرة الميلاد من كشك في هومليغاردن. كان يومًا مظلمًا، وكان هواؤه محمّلًا بالثلج. وفي الشوارع، سادت الفوضى المعتادة التي تسبق عيد الميلاد... ذلك الصخب كله، وأناس مسرعون لا يلقي واحدهم بالًا للآخرين ولا للعالم كله. اخترنا الشجرة، وغلّفها البائع المرتدي أوفرولًا بشبكة حتى يصير نقلها سهلًا. دفعت ثمنها، ثم وضعتها على كتفي. في تلك اللحظة فقط جاءتني فكرة أن حمل تلك الشجرة كان مشقّة لا مبرر لها. أفلحت في الوصول إلى شقتنا بعد نصف ساعة تخللها عدد لا يحصى من الاستراحات في الطريق. ضحكنا عندما رأيناها منتصبة في غرفة المعيشة. كانت شجرة ضخمة. لقد اشترينا شجرة عيد ميلاد عملاقة. لكن، لعل ذلك ما كان شيئًا غبيًا لأنه آخر عيد ميلاد نحتفل به وحدنا. أكلنا تلك الليلة طعام الأعياد السويدي التي أتت به أم ليندا، وفتحنا الهدايا، وجلسنا نشاهد فيلم «السيرك» لتشارلي تشابلن لأننا كنا قد اشترينا مجموعة أفلامه الكاملة. شاهدنا تلك الأفلام كلها خلال عطلة عيد الميلاد، وخرجنا في نزهات طويلة على الأقدام في الشوارع الخالية، وانتظرنا، وانتظرنا. نسينا الجارة الروسية، وما كان العالم الخارجي موجودًا طيلة نهاية الأسبوع. ذهبنا لرؤية أم ليندا، وبقينا عندها بضعة أيام. وعندما عدنا، بدأنا التحضير لعشاء ليلة رأس السنة مع غيير وكريستينا وآندرس وهيلينا.

نظفتُ البيت كله ذلك الصباح، ومضيت إلى التسوق من أجل طعام العشاء، وكويت مفرش الطاولة الأبيض الكبير، ولم أنسَ تثبيت اللوح الإضافي على طاولة غرفة الطعام حتى تصبح كبيرة، ثم وضعت عليها مستلزمات المائدة، ولمّعتُ أدوات الطعام وحوامل الشموع، وطويت مناديل الطعام، ووضعتُ على الطاولة أطباقًا من الفاكهة. عندما حان وقت

وصول الضيوف في الساعة السابعة، كان كل شيء لامعًا متألقًا بالاحترام البرجوازي الضروري. كان أول الواصلين آندرس وهيلينا مع ابنتهما. بدأت المعرفة بين هيلينا وليندا عندما كانت هيلينا تتلقى دروسها مع والدة ليندا. ورغم أنها أكبر من ليندا بسبع سنوات، إلّا أنهما صارتا صديقتين حميمتين. إن آندرس معها منذ ثلاث سنين. هي ممثلة؛ أما هو... إنه يكاد يكون مجرمًا!

عندما فتحت الباب، كان واقفين هناك بوجهين متوردين من البرد.

قال آندرس: «مرحبًا أيها الرجل الطيب». كان يضع قبعة جلدية بنية لها واقيتين للأذنين، وسترة زرقاء منفوخة ضخمة، وحذاء أسود جميل. ما كان أنيقًا، لكن شكله كان منسجمًا مع هيلينا بطريقة غريبة التي بدت أنيقة بكل تأكيد: معطف أبيض وحذاء أسود وقبعة فراء بيضاء.

كانت ابنتهما جالسة في عربتها تنظر إلي بعينين جادتين مستطلعتين.

نظرت في عينيها وقلت لها: «مرحبًا!».

لم تتحرّك في وجهها عضلة واحدة.

قلت لهم متراجعًا بضع خطوات: «تفضلوا! ادخلوا!».

سألتني هيلينا: «هل نستطيع إدخال العربة إلى الشقة؟».

أجبتها: «بالطبع. هل تظنين أن الباب يتّسع لدخولها؟ أم أن عليّ أن أفتح المصراع الثاني؟».

بينما كانت هيلينا تدفع العربة وتناور بها حتى تدخلها، خلع آندرس سترته وقبعته في الخارج.

سألني: «أين هي السنيوريتا؟».

قلت له: «إنها الآن في قيلولة».

«هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم، كل شيء بخير».

قال هو يفرك كفيه: «جيد! إن البرد شديد في الخارج!».

تقدمتنا هيلينا. كان كفاها ممسكين بمقبض العربة بإحكام. ضغطتْ على مفتاح الفرملة وحملت ابنتها فأخرجتها من العربة وخلعت عنها قبعتها، ثم

أنزلت سحّاب الأوفرول الأحمر الدافئ بينما كانت ابنتها واقفة تمامًا ساكنة على الأرض. تحت ذلك الأوفرول كانت في فستان أزرق داكن ومن تحته بنطلون أبيض ضيق وحذاء أبيض.

أتت ليندا من غرفة النوم. كان وجهها مبتسمًا، مشرقًا. وقبل كل شيء، عانقت هيلينا واستمر عناقهما زمنًا طويلًا. كانت كل منهما تنظر في عيني الأخرى.

قالت هيلينا: «كم أنت جميلة! كيف تستطيعين فعل هذا؟ أذكر عندما كنت في شهري التاسع...».

أجابتها ليندا: «ليس هذا إلّا فستان حمل قديم».

«صحيح، لكن مظهرك كلك يبدو لطيفًا جدًّا!».

ابتسمت ليندا مسرورة ثم تقدّمت وعانقت آندرس أيضًا.

صاحت هيلينا عندما دخلت غرفة المعيشة: «كم هي متسعة! واو!».

لم أعرف ما أفعله، فذهبت إلى المطبخ كأنني أريد تفقد شيء ما في انتظار أن يعودوا جميعًا إلى طبيعتهم. وفي اللحظة التالية، رُن جرس الباب من جديد.

قال لي غيير عندما فتحت الباب: «هكذا إذن؟ هل فرغت من تنظيف المكان؟».

أجبته مازحًا: «لم أكن أعرف أنكما آتيان! ظننت أننا اتفقنا على يوم الاثنين، أليس كذلك؟ إن لدينا هنا حفلة رأس السنة الجديدة، لذلك أخشى أن يكون وجودكما غير مناسب تمامًا الآن. لكن، لا بأس... نستطيع أن نجد لكما مكانًا...».

قالت لي كريستينا وهي تعانقني: «مرحبًا يا كارل أوفه! كيف حالك؟».

قلت: «بخير».

تراجعتُ إلى الخلف قليلًا حتى أفسح لهما مجالًا بينما أتت ليندا للترحيب بهما. مزيد من المعانقات ومزيد من المعاطف ومزيد من الأحذية. دخل الجميع غرفة المعيشة حيث كانت ابنة هيلينا وآندرس قد بدأت تزحف

في المكان فصارت محط اهتمام الجميع خلال الدقائق الأولى ريثما يستقر الوضع.

قال آندرس وهو يومئ برأسه صوب الشجرة الضخمة في زاوية الغرفة: «أرى أنكم محافظون على تقاليد عيد الميلاد».

قلت له: «بلغ ثمنها ثمانمئة كرونًا. وسوف تظل واقفة هنا طالما بقيت فيها حياة. نحن في هذا البيت لا نرمي نقودنا كيفما اتفق».

ضحك آندرس: «لقد بدأ الزعيم يطلق النكات!».

«إنني أطلق النكات طيلة الوقت. لكن المشكلة أنكم، أيها السويديون، لا تفهمون ما أقول».

«لا بأس. سأقول لك الآن على سبيل البداية إنني لم أفهم شيئًا مما قلته».

«يبدو أنكما اشتريتما شجرة عيد ميلاد مما يشتريه الأثرياء الجدد، أليس كذلك؟» قال غيير هذا في حين بدأ آندرس يتكلّم النرويجية المبسّطة بالطريقة التي كانت شائعة كثيرًا في السويد... مفردات من بينها كلمة (kjempe) منطوقة بنبرة مشدّدة، بمعنى «ضخم»؛ ومن حين لآخر كلمة (gutt)، بمعنى «صبي»، التي كانت تبدو للآذان السويدية كلمة طريفة جدًا... كلها كلمات منطوقة بنبرة حماسية تزداد ارتفاعًا في نهاية كل جملة. لم يكن لهذه الطريقة في الكلام أي صلة بلهجتي التي افترضوا جميعًا، بالطبع، أنها «نونورسك».

قلت مبتسمًا: «لم نكن نخطّط لشراء الشجرة هكذا. من المحرج بعض الشيء أن يكون لدى المرء شجرة عيد ميلاد كبيرة إلى هذا الحد. عليّ أن أعترف بهذا. لكنها بدت لي صغيرة عندما اشتريتها. لم تتضح لي ضخامتها إلّا بعد أن صارت هنا. لكن عليّ القول إنني أعاني مشكلات أيضًا في ما يتعلق بإحساسي بالتناسب».

قالت ليندا: «هل تعرف معنى kjempe يا آندرس؟».

هز رأسه نفيًا وقال: «أعرف كلمة avis، جريدة. وأعرف أيضًا كلمة gutt. وأعرف vinudo، نافذة».

«إنها مثل كلمة jatte في السويدية: كبير، ضخم».

هل ظنت ليندا أن كلامه أزعجني، أم ماذا؟

تابعت كلامها: «استغرق الأمر ستة شهور حتى فهمت ذلك. إن هذه الكلمة مستخدمة بالمعنى نفسه تمامًا. لا بد أن هنالك كلمات كثيرة أظن أنني أفهمها، لكنني لا أفهمها. أستغرب الآن كيف استطعت ترجمة كتاب ساترباكن منذ سنتين. في ذلك الوقت، لم أكن قادرة على فهم اللغة النرويجية على الإطلاق».

سألتها هيلينا: «وهل كانت غيلدا تفهمها؟».

«غيلدا؟ لا. كان ما تعرفه أقل مما أعرفه في ذلك الوقت. لكني ألقيت نظرة على ذلك الكتاب منذ وقت غير بعيد. قرأت الصفحات الأولى منه فبدت لي جيدة. بدت لي جيدة ما عدا كلمة واحدة في حقيقة الأمر. يحمرّ وجهي خجلًا كلما تذكرتها. لقد ترجمت كلمة stue، غرفة جلوس، بكلمة stuga... وهكذا قلت إنه كان جالسًا في stuga بدلًا من القول إنه كان في غرفة الجلوس».

سأل آندرس: «فماذا يكون معنى stuga في النرويجية؟».

أجبته: «Hytte».

قال: «أوه، إنها مقصورة! نعم، هنالك اختلاف واضح إذا!...».

قالت ليندا ضاحكة: «لكن أحدًا لم يعلق على هذه الغلطة».

سألتهم: «ما رأيكم في تناول الشامبانيا الآن؟».

قالت ليندا: «سآتي بها».

أتت بالزجاجة، ومعها خمسة كؤوس، ثم بدأت تحلّ السلك الذي يثبت السدادة. كان وجهها منحرفًا قليلًا وعيناها ضيقتين كأنها تتوقع انفجارًا كبيرًا. انفتحت الزجاجة آخر الأمر مطلقة صوتًا رطبًا يشبه صوت انفجار فقاعة. أمالت ليندا الزجاجة فوق الكؤوس وراحت الشامبانيا تتدفق منها.

قال آندرس: «لقد استطعت فتحها بطريقة جيدة».

أجابته ليندا: «عملت في أحد المطاعم منذ زمن بعيد. لكن فتح زجاجة الشامبانيا كان الشيء الوحيد الذي لم أكن ناجحة فيه. ثم إن إحساسي

بالعمق ضعيف أصلًا... كلما كان علي أن أملأ كؤوس الزبائن، كنت أصب فيها أكثر مما يجب أو أقل مما يجب».

نصبت ليندا قامتها ووزعت علينا كؤوس الشامبانيا بفقاعاتها المتألقة، وزّعتها علينا واحدًا فواحدًا. وبعد ذلك سكبت لنفسها كأسًا من شراب غير كحولي.

«الآن، في صحتكم جميعًا. لطيف أن نراكم هنا!».

رفعنا الأنخاب. وعندما انتهت الشامبانيا مضيت إلى المطبخ لتحضير السرطانات. تبعني غيير وجلس إلى جانب طاولة المطبخ.

قال: «سرطانات! لا أصدق سرعتك في التكيف مع المجتمع السويدي. زرتك قبل سنتين في ليلة رأس السنة بعد انتقالك إلى هنا فقدمت لنا طبق رأس السنة التقليدي في السويد».

قلت: «لست أعيش وحدي».

قال مع ابتسامة: «أعرف أنك لا تعيش وحدك. كان لدينا عيد ميلاد مكسيكي ذات مرة، أنا وكريستينا، هل أخبرتك بهذا؟».

أجبته: «نعم أخبرتني».

قطعت السرطان الأول إلى نصفين ووضعته في أحد الصحون، ثم بدأت بالثاني. بدأ غيير يتكلم عن مخطوط كتابه. كنت أسمعه وأنا نصف مصغٍ إليه. أوه، حقًا؟ كنت أقول هذا من وقت لآخر كنوع من التأكيد على أنني كنت أستمع إليه رغم أن انتباهي كان متخذًا وجهة أخرى. كان غيير غير قادر على الحديث عن مخطوطه مع أي شخص آخر. ليست له فرصة للحديث عنه إلّا هنا. عندما خرجت لتدخين سيجارة رأى أن الفرصة قد حانت. لقد كتب مسوَّدة أولية أنفق عليها ثمانية عشر شهرًا. وقد قرأتها وعلّقت عليها. كانت ملاحظاتي شاملة تفصيلية امتدت على تسعين صفحة؛ ومن المحزن أن نبرة النقد فيها كانت ساخرة معظم الأحيان. كنت أظن أن غيير قادر على تقبّل كل شيء، لكن ظني لم يكن صحيحًا لأن ما من أحد يمكنه تقبّل كل شيء؛ كما أن السخرية إحدى الأشياء التي يصعب ابتلاعها عندما تكون

ثمرة عملك هدفًا لها. لكني لم أستطِع الامتناع عن ذلك. حدث الأمر نفسه عندما كنت أكتب تقارير القرّاء الخاصة بالكتب... يجنح أسلوبي دائمًا إلى السخرية. كانت مشكلة مخطوط غيير (كان يعرف هذا، وكان مقرًا به) أن السرد غالبًا ما يكون شديد البعد عن الأحداث، إضافة إلى أن هنالك دائمًا الكثير مما كان يجب أن يقال لكنه لم يُقَل. لا بد من عينين مختلفتين لإصلاح ذلك. وهذا ما حصل عليه عندما علقت على المخطوط. لكني كنت ساخرًا دائمًا، ساخرًا أكثر بكثير مما ينبغي... هل فعلت هذا بدافع من رغبة غير واعية من جانبي في تسجيل نقطة عليه، على الرجل الذي أراه متفوقًا عليّ دائمًا؟ لا.

حقًا... لا؟

قلت وأنا أقلب السرطان الثالث على ظهره وأقطعه بالسكين: «يؤسفني هذا». كان غلاف السرطان أكثر طراوة من المعتاد. جعلني قوامه أظن أنه شيء اصطناعي، مثل البلاستيك. هذا اللون الأحمر... ألم يكن فيه شيء غير طبيعي أيضًا؟ وتلك التفاصيل المتداخلة الجذابة، كالأثلام التي في مخلبيه أو على مؤخرة درعه: ألا تبدو كأنها مصنوعة في ورشة فنان حرفي من عصر النهضة؟

قال غيير: «يجب أن تكون آسفًا. عشر صلوات من أجل روحك الشريرة الخاطئة! هل تتخيل كيف كان الأمر عندما قرأت ملاحظاتك وتركت نفسي تتلقى سخريتك يومًا بعد يوم؟ كانت كأنها تسألني: هل أنت غبي تمامًا أم ماذا؟ نعم... أظن أنني غبي».

قلت ملتفتًا إليه وأنا أغرس السكين في السرطان: «إنها مسألة تقنية فحسب».

«تقنية؟ تقنية؟ يسهل عليك أن تقول هذا، هكذا هو الأمر. يمكنك أن تنفق عشرين صفحة في وصف ذهابك إلى الحمام ويظل قارئك مسحورًا بكلماتك. كم تظن عدد الناس الذين يستطيعون فعل هذا؟ وكم تظن عدد الكتّاب الذين يمكن أن يمتنعوا عن هذا لو كانوا قادرون عليه؟ ما السبب

الذي تظنه يجعل الناس يمضون وقتهم في تلمس قصائدهم الحداثية ذات الكلمات الثلاث على كل صفحة؟ هذا لأنهم لا يملكون خيارًا آخر. لا بد أنك تفهم ذلك بعد هذه السنوات كلها... بحق الرب! لو كانوا يستطيعون، لفعلوا. أنت تستطيع، وأنت لا تقدّر قيمة هذا. إنه لا يعني لك شيئًا، لكنك تفضّل أن تكون ذكيًا وتكتب بأسلوب من يكتبون المقالات. لكن أيًا كان يستطيع كتابة مقالات! هذا أكثر الأشياء سهولة في العالم».

نظرتُ إلى اللحم الأبيض بعروقه الحمراء التي تظهر فور غرس السكين فيه. شممت نفحة واهية من رائحة البحر.

تابع غيير يقول: «تقول إنك لا ترى الحروف عندما تكتب، أليس هذا ما تقوله؟ أما أنا فلا أرى شيئًا غير الحروف. تتداخل الحروف أمام عيني كأنها شبكات عنكبوتية ملعونة. لا شيء يستطيع شق طريقه عبرها، هل تفهم؟... يغدو كل شيء مقلوبًا رأسًا على عقب مثل ظفر إصبع نامٍ في اتجاه خاطئ في القدم».

سألته: «منذ متى تعمل على هذا الكتاب؟ منذ سنة؟ هذا لا شيء. إنني أكتب منذ ست سنوات ولم أستطِع تقديم أكثر من مقالة سخيفة في مئة وثلاثين صفحة تتحدّث عن الملائكة. عد إليَّ سنة 2009 فقد أكون أكثر استعدادًا للشعور بالأسف عليك. ثم إن مخطوطك كان جيدًا، الشيء الذي قرأته منه كان جيدًا. قصة رائعة، ونظرات عظيمة. ليس في حاجة إلّا إلى مراجعة».

قال غيير: «ها!».

وضعت نصفي سرطان في الصحن. قلت له وأنا ممسك بالسرطان الأخير: «ألا تعرف أن هذه هي النقطة الوحيدة التي أستطيع إمساكك منها؟».

قال: «لست واثقًا من هذا. هنالك على الأقل شيئان آخران تعرفهما عني، ومن الأفضل أن تظل صامتًا في ما يتعلق بهما».

قلت: «أوه، ذلك! تلك مسألة مختلفة تمامًا».

ضحك بصوت مرتفع... ضحكة من القلب.

مرت بضع ثوانٍ من غير أن يقول أحد منا شيئًا.

هل حَرِد؟

بدأت أقسم السرطان بالسكين.

من المستحيل معرفة ذلك. قال لي مرة إنني، إذا جرحت مشاعره، فلن أعرف بالأمر أبدًا. كان شخصًا شديد الاعتزاز بنفسه، بقدر ما هو متكبّر؛ كان مغرورًا بقدر ما هو وفيّ. كان يفقد الأصدقاء واحدًا تلو الآخر، ربما لأنه نادرًا ما يتراجع، ولأنه لا يخشى أبدًا أن يقول ما يفكر فيه. وما كان هنالك أحد أبدًا (من الوجهة العملية على الأقل) يحب ما يفكر فيه. في الشتاء الماضي، منذ سنة، نشأ بيننا جو شديد السوء. كنا نجلس صامتين كلما التقينا؛ وإذا قيل شيء فإنه هو من يقوله عادة، هو من يطلق تعليقات لاذعة عني أو عن أسرتي وعن محاولتي أن أكون طيبًا. ثم لم أسمع عنه شيئًا بعد ذلك. وبعد أسبوعين، اتصلت كريستينا وقالت لي إنه ذهب إلى تركيا للقيام ببعض العمل الميداني. قالت إنه سيغيب شهورًا. فاجأني هذا لأنه كان تطورًا غير متوقّع. أحسست ببعض الإساءة أيضًا لأنه لم يخبرني بشيء من هذا. سمعت بعد عدة أسابيع، عن طريق أحد الأصدقاء في النرويج، أن برنامج داغسريفين الإخباري التلفزيوني أجرى مقابلة مع غيير في بغداد حيث ذهب متطوعًا في مهمة إنسانية. ابتسمت لنفسي لأن هذا هو طبعه المألوف رغم أنني ما كنت قادرًا على فهم السبب الذي جعله يخفي هذا كله عني. ثم اتضح لي في وقت لاحق أنني أغضبته على نحو ما. لم أستطِع أبدًا معرفة الشيء الذي أزعجه. لكنه عاد إلى استكهولم بعد أربعة شهور محملًا بتسجيلات لمقابلات كثيرة بعد أن أمضى أسابيع كثيرة تحت القصف. بدا لي أنه استعاد حيويته وطاقته كلها. انجلت كآبة الخريف والشتاء كلها، الكآبة التي كانت أشبه بأزمة بيننا. وعندما عدنا إلى صداقتنا، استُؤنفت تلك الصداقة من حيث توقّفت.

ولدنا، غيير وأنا، في السنة نفسها؛ وما كان يفصل بيننا إلّا بضعة كيلومترات خلال فترة نشأتنا: كل منا على جزيرة بالقرب من آرندال (هيسويا

وترومويا). لكن المعرفة بيننا لم تبدأ في المدرسة الثانوية، مثلما كان يمكن أن تكون تلك نقطة بداية طبيعية؛ وذلك لأنني انتقلت إلى كريستيانساند قبل المدرسة الثانوية بزمن طويل. التقيته أول مرة في حفلة في بيرغن حيث كنا ندرس هناك. كان غيير على هامش مجموعة آرندال التي كنت بدوري على ارتباط رخو بها من خلال إنغفه. عندما تحدّثت إليه أول مرة شعرت أنه قد يكون الصديق الذي أحتاجه. ففي ذلك الوقت، خلال سنتي الأولى في بيرغن، ما كان لدي أي صديق: كنت متعلقًا بإنغفه، أخي! خرجنا معًا إلى بعض السهرات، وكان يضحك طيلة الوقت. كان لديه ذلك الأسلوب اللامبالي الذي يعجبني، وكان لديه اهتمام حقيقي أصيل بالناس الذين من حوله. كان لديه ما يقوله عنهم أيضًا. كان واحدًا من أولئك الذين يستطيعون النفاذ إلى الجوهر، وبالتالي فقد كان شخصًا مختلفًا. لقد وجدت صديقًا جديدًا: كان هذا شعوري الطيب المريح الذي لازمني طيلة ربيع 1980. ثم اتضح أنه سوف يرحل عن المدينة لأنه لم يجد بيرغن مكانًا مناسبًا لأن يمد جذوره فيه. حزم حقائبه فور انتهاء الامتحان وذهب إلى مدينة أوبسالا في السويد. كتبت له رسالة في ذلك الصيف، لكنني لم أرسلها. وبعد ذلك اختفى غيير من حياتي ومن تفكيري.

بعد أحد عشر عامًا، أرسل لي كتابًا بالبريد الإلكتروني. كان كتابًا عن الملاكمة عنوانه «جماليات الأنف المكسور». بعد قراءة بضع صفحات، كنت قادرًا على تأكيد أن أسلوبه اللامبالي وقدرته على النفاذ إلى الجوهر لا يزالان على حالهما، بل أُضيف إليهما الكثير أيضًا منذ أيام دراستنا في بيرغن. كان قد مارس الملاكمة في نادٍ في ستوكهولم طيلة سنوات ثلاث حتى يكون على معرفة مباشرة بالوسط الذي وصفه في كتابه ذاك. إنه وسط يُعلي من شأن القيم التي دمرتها دولة الرفاه... قيم الرجولة والشرف والعنف والألم. وقد كنت مهتمًا بالنظر إلى كيف يكون المجتمع مختلفًا من تلك الزاوية، أي من خلال مجموعة القيم التي تستعيدها هذه الفئة من الناس. الفن هو أن تواجه هذا العالم من غير أن يكون لديك شيء من العالم الآخر،

أن تحاول رؤيته كما هو، وفق شروطه هو، ثم تتخذ ذلك نقطة انطلاق لتنظر إلى العالم الكبير من جديد، عندها يبدو كل شيء مختلفًا. يربط غيير في كتابه بين ما رآه ووصفه وبين الثقافات التقليدية المعادية لليبرالية، تلك الثقافات المنتظمة في خط ممتد من نيتشه إلى يونغر إلى ميشيما إلى سيوران. هناك، لا شيء للبيع ولا شيء قابلًا للقياس بالقيمة النقدية؛ وهناك اكتشفت (عندما أطللت عبر ذلك المنظور) إلى أي حد كانت الأشياء التي افترضت دائمًا أنها معطى طبيعي، كم كانت عكس ذلك تمامًا: كانت نسبية، وكانت عشوائية. بهذا المعنى، صارت أهمية كتاب غيير عندي في مثل أهمية كتاب «التماثيل» لميشيل ثير حيث يُلقى جانبًا بالماضي العتيق الذي كنا غارقين فيه، ولا نزال؛ وذلك بوضوح ساطع مثلما كان الأمر ذات يوم في كتاب «نظام الأشياء» لميشيل فوكو حيث تكون واضحة تمامًا قبضة الزمن الحاضر واللغة المعاصرة على أفكارنا ومفاهيمنا عن الواقع... نرى كيف أن عالم المفاهيم الذي نكون منغمسين فيه تمامًا يُخلي مكانه ليحل محله عالم جديد. ما هو مشترك بين هذه الكتب كلها هو أنها تُقيم نقطة مرجعية خارج الحاضر، إما على محيطه (كأن تكون في نادٍ للملاكمة يقوم بدور جزيرة محاصرة معزولة تواصل العيش فيها بعض أهم القيم المستمدة من الماضي القريب)، أو في أعماق التاريخ، حيث كنّا ذات يوم، أو حيث تخيّلنا أننا كنّا. من المحتمل أنني قد انتقلت في اتجاه هذه النقطة بخطوات صغيرة تشق طريقها على نحوٍ ما كان تفكيري يكاد يستوعبه أو يراه، ثم جاءت هذه الكتب إلى حياتي كأن أحدًا رماها بعنف على الطاولة أمامي فصار شيءٌ جديد واضحًا لي. هكذا تكون الحال دائمًا في ما يتعلق بالكتب التي يبدو للمرء أنها تحقّق اختراقًا: إنها تعبّر لي بالكلمات عمّا كان عندي شكوكًا أو مشاعر أو أحاسيس باطنية. انزعاج غامض، عدم ارتياح غامض، غضب غامض غير متّجه إلى شيء محدّد. ما من اتجاه، ولا وضوح، ولا دقة. ثم إن هنالك أسبابًا أخرى جعلت كتاب غيير مهمًا عندي، أسبابًا متصلة بحقيقة أننا آتيان من الخلفية نفسها (كنّا من عمر واحد، وكنّا نعرف الأشخاص

أنفسهم من الأماكن أنفسها، وقد أمضى كل منا حياته الناضجة في القراءة والكتابة والدراسة). فكيف كان ممكنًا أن ينتهي غيير إلى مكان مختلف إلى هذا الحد؟ كان يجري حثّي منذ أن بدأت الذهاب إلى مدرستي الأولى، وحثّ كل من كانوا معي، على التفكير بشكل نقدي مستقل. ولم يخطر في ذهني إلّا بعد أن تجاوزت الثلاثين أن هذا التفكير النقدي غير مفيد إلّا حتى نقطة معينة يتحوّل بعدها إلى نقيضه ويصير شرًا، أو يصير هو الشر نفسه. قد يتساءل المرء: لماذا تأخر إدراكي هذا الأمر حتى ذلك الوقت؟ من ناحية أولى، كان هذا نتيجة سذاجة «التابع المخلص» التي كانت عندي. والتي يمكن أن تقبل إلقاء الشك على الآراء لكنها لا تقبل أي شك في مقدمات تلك الآراء؛ وبالتالي فهي لم تسأل نفسها أبدًا إن كان «النقدي» نقديًا حقًا، أو إن كان «الجذري» جذريًا حقًا، أو إن كان «الجيد» جيدًا حقًا. أي أنها لم تفعل تلك الأشياء التي يفعلها الناس جميعًا فور تخلصهم من براثن أفكار مرحلة الشباب المسمومة المحمّلة بشتى الانفعالات. أما من ناحية أخرى، فقد كان السبب أنني دُرِّبت، مثل كثيرين من جيلي، على التفكير المجرّد أو، بكلمات أخرى، على اكتساب المعرفة من مدارس الفكر المختلفة في شتى الميادين، ثم إعادة إنتاجها بطريقة نقدية إلى حد ما، ومن المفضل أن تجري مقابلتها مع مدارس الفكر الأخرى ثم الحكم على ذلك كله؛ إلّا أن ذلك كان يحدث أحيانًا بفعل أفكار من عندي وبفعل فضولي العقلي الخاص. لكن هذا الفضول لم يمنح عقلي سببًا للبعد عن التجريدات لأن ذلك التفكير كان كله في نهاية المطاف نشاطًا يجري بين ظواهر ثانوية، يجري في العالم كما يظهر في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع والسياسة، بينما كان العالم الذي فيه أعيش وأنام وآكل وأتكلم وأمارس الحب وأجري، العالم الذي له رائحة وطعم وصوت والذي فيه مطر وريح تهبّ، العالم الذي تستطيع الإحساس به على جلدك، كان عالمًا مُستبعَدًا، مُنحّى جانبًا، وما كان يُنظر إليه باعتباره موضوعًا صالحًا للتفكير. الواقع أنني كنت أفكر هناك أيضًا، لكن بطريقة مختلفة، بطريقة أكثر عملية تتناول ظاهرة بعد ظاهرة، ولأسباب مختلفة

أيضًا: في حين كنت أفكر في الواقع المجرّد حتى أفهمه، فإنني كنت أفكر في الواقع الملموس حتى أتعامل معه. كنت قادرًا على خلق هوية في الواقع المجرّد، هوية مصنوعة من آراء. أما في الواقع الملموس فقد كنت من كنتُه... كنت جسدًا ونظرة عينين وصوتًا. هنا تستقر جذور الاستقلالية كلها، بما في ذلك استقلالية التفكير. ما كان كتاب غيير يحدثني عن الاستقلالية وحدها، بل كان فاعلًا ضمن شروطها المرجعية أيضًا. لقد كان غيير يصف ما رآه بعينيه وما سمعه بأذنيه؛ وعندما حاول وصف ما يراه وما يسمعه، كان ذلك بأن صار جزءًا منه. وكان هذا أيضًا شكل التأمّل الذي جاء أقرب ما يكون إلى الحياة التي وصفها. لا يحكم أحد على ملاكم من خلال ما يقوله أو ما يفكر فيه، بل من خلال ما يفعله.

الميسولوجيا،[1] عدم الثقة بالكلمات... مثلما كانت الحال عند فلاسفة الشك، هوس الشك؛ هل هي طريقة لأن يصير المرء كاتبًا؟ كل ما يمكن قوله بالكلمات قابل لنقضه ومعارضته بالكلمات أيضًا، فما الغاية من الدراسات ومن الروايات والأدب؟ أو لنقل الأمر نفسه بطريقة أخرى: كل ما نستطيع القول إنه صحيح نستطيع أيضًا القول دائمًا إنه غير صحيح. إنها نقطة صفرية، وهي المكان الذي يبدأ منه انبعاث القيمة الصفرية. لكن تلك ليست نقطة ميتة، وليست نقطة ميتة للأدب أيضًا، لأن الأدب ليس كلمات فقط: الأدب هو ما تثيره الكلمات عند القارئ. إن هذا التجاوز، هذا الوجود الأعلى المتسامي، هو ما يعطي الأدب قيمته، وليس التجاوز الشكلي في حد ذاته مثلما يظن كثيرون. لا علاقة للغة بول تسيلان الغامضة التي تشبه رموزًا سرية بالاستغلاق أو عدم القدرة على الفهم، بالعكس تمامًا، إنها لغة تفتح ما لا تستطيع اللغة أن تبلغه عادة لكننا نظل في مكان عميق داخلنا عارفين أو

(1) – ميسولوجيا (Misology): هي معاداة وكراهة الجدل أو المناقشة المنطقية أو الاستنارة. يعود أول استخدام لهذا المصطلح إلى أفلاطون في كتابه «فايدو Phaedo» الذي يصف ساعات سقراط الأخيرة وإعدامه على أيدي من ساءتهم مناقشاته المنطقية.

مدركين أنها تستطيع الوصول إليه، أو تسمح لنا باكتشاف ذلك إن لم نكن نعرفه. ليس من الممكن معارضة كلمات بول تسيلان بالكلمات. كما أن ما تمتلكه كلماته غير قابل للنقل أيضًا لأن كل كلمة منها موجودة هناك فقط، موجودة في كل شخص يتشرّبها، يمتصّها.

إن لهذا صلة بحقيقة أن اللوحات، والصور إلى حد ما، كانت شديدة الأهمية عندي. ليست فيها كلمات، ولا مفاهيم؛ وعندما أنظر إليها فإن ما أعيشه، وما يجعلها مهمة عندي، شيء لا علاقة له بالمفاهيم أيضًا. هنالك شيء غبي في هذا، منطقة خالية من أي ذكاء عقلي، وهذا ما أجد صعوبة في الاعتراف به أو في قبوله، لكنه قد يكون أهم عنصر من عناصر ما أريد فعله.

بعد ستة أشهر من قراءتي كتاب غيير، بعثت إليه برسالة إلكترونية سألته فيها إن كان يحب أن يكتب مقالة لصحيفة «فاغانت» التي كنت مسؤولًا عن تحريرها. قال إنه راغب في ذلك فتبادلنا بضع رسائل إلكترونية، جيئة وذهابًا. كانت كلها رسائل «رسمية» تتناول أشياء عملية. وبعد سنة من ذلك، عندما تركتُ تونجه بين ليلة وضحاها وتركت حياتي في بيرغن، كتبت إليه مجددًا أسأله إن كان يعرف في ستوكهولم مكانًا أستطيع العيش فيه. قال إنه لا يعرف، لكنني أستطيع الإقامة في بيته خلال بحثي عن مكان لي هناك. قلت له إن هذا جيد. فأجابني: ممتاز. متى تأتي؟ كتبت: غدًا. كتب: غدًا؟

أمضيت ليلة مسافرًا بالقطار من بيرغن إلى أوسلو، ثم أمضيت فترة الصباح في قطار آخر من أوسلو إلى ستوكهولم، وسرت من رصيف المحطة إلى الممرات الواقعة تحت محطة القطارات المحلية في ستوكهولم. كنت أبحث عن خزانة أمتعة كبيرة بحيث تستوعب الحقيبتين معًا. أنفقت زمن الرحلة كله في القراءة حتى أتجنب التفكير في ما حدث خلال الأيام التي سبقت ذلك، أي في الأشياء التي كانت سببًا لرحيلي. أما الآن، في وسط هذه الجموع المزدحمة، جموع الناس المندفعين من القطارات وإلى القطارات، فقد كان مستحيلًا أن أكتم قلقي أكثر من ذلك. سرت في الممر وأنا أشعر بالبرد حتى أعماق روحي. وضعت الحقيبتين في خزانتين منفصلتين، ثم

وضعت المفتاحين في الجيب الذي كنت أضع فيه مفاتيح بيتي، ودخلت المرحاض فغسلت وجهي بماء بارد حتى أنتعش قليلًا. نظرت إلى وجهي في المرآة ثواني معدودة. كان وجهي شاحبًا منتفخًا قليلًا، وشعري مشعثًا، وعيناي... نعم، عيناي... كانتا تنظران، لكن ليس بالطريقة المعتادة، لا تنظران إلى الخارج، لا تذهب نظرتهما إلى ما تنظران إليه، بل كانتا كأنهما تشدان ما تريانه، تمتصان كل شيء.

منذ متى كانت لي هاتان العينان؟

فتحت الماء الحار ووضعت كفيّ تحت تياره بعض الوقت إلى أن بدأت الحرارة تدب فيهما. أخذت منديلًا من صندوق المناديل الورقية المثبت على الجدار وجففت به يدي ثم ألقيته في السلة التي إلى جانب المغسلة. كان وزني مئة كيلوغرام وكيلوغرامًا واحدًا، وما كانت عندي أي آمال في ما يتعلق بالمستقبل. لكني قلت في نفسي إنني موجود هنا الآن، وإن هذا شيء مهم. خرجت فاجتزت الدرجات الصاعدة إلى صالة المحطة حيث وقفت في وسطها يحيط بي الناس من كل جهة. حاولت وضع خطة ما. لم يتجاوز الوقت الساعة الثانية إلى قليلًا. سوف ألتقي غيير في الخامسة. يعني هذا أن عليّ قتل ثلاث ساعات. علي أن آكل، وعلي أن أشتري وشاحًا للرقبة. ويجب أن أقص شعري أيضًا.

خرجت من المحطة وتوقفت عند موقف سيارات التاكسي. كانت السماء رمادية باردة، وكان الهواء رطبًا. رأيت إلى يميني مجموعة من الطرق والجسور الإسمنتية، ومن خلفها بحيرة يظهر بعدها خط من البنايات التي تشبه النصب التذكارية. وإلى جهة اليسار، رأيت شارعًا عريضًا غاصًا بالسيارات. وعلى الجهة المقابلة لمكان وقوفي، كان هنالك شارع ينعطف بعد مسافة إلى اليسار على امتداد جدار متسخ تلوح من خلفه كنيسة.

في أي طريق أذهب؟

وضعت قدمي على أحد المقاعد، ولففت سيجارة، ثم أشعلتها وبدأت السير في اتجاه اليسار. توقفت بعد مئة متر أو نحو ذلك. لم يبد لي ذلك

الاتجاه واعدًا. كان كل شيء فيه مبنيًا بما يتناسب مع السيارات المنطلقة سريعًا فيه. استدرت وعدت أدراجي وجربت الشارع الذي يبدأ من الجهة المقابلة. قادني ذلك الشارع إلى جادة عريضة فيها متجر ضخم كثير الأقسام. ومن خلف ذلك المتجر رأيت شيئًا يشبه ساحة غائصة في الأرض قليلًا ورأيت إلى جانب تلك الساحة بناية زجاجية ضخمة. كانت كلمة «ثقافة» مكتوبة عليها بحروف حمراء. دخلت تلك البناية وصعدت إلى الطابق الأول بالسلم المتحرك حيث وجدت مقهى يقدم بعض المأكولات أيضًا فاشتريت قطعة خبز مع كرات اللحم وسلطة الملفوف الأحمر وجلست عند النافذة المطلة على الساحة والشارع أمام ذلك المتجر الكبير.

هل سأعيش هنا؟ هل هذا المكان الذي سأعيش فيه الآن؟

صباح أمس كنت في بيتي في بيرغن.

صباح أمس!... كان ذلك يوم أمس.

رافقتني تونجه إلى المحطة. الأضواء الاصطناعية فوق أرصفة المحطة، والمسافرون خارج العربات... المسافرون الذين كانوا مستعدين لقضاء الليل في القطار وكانوا يتحدثون بأصوات خفيضة، صوت عجلات الحقائب على الرصيف. بكت تونجه. لم أبكِ، احتضنتها فقط ومسحت الدموع عن خديها فابتسمت من خلال دموعها، ثم صعدت إلى القطار مفكرًا في أنني لا أريد رؤيتها ذاهبة، لا أريد رؤية ظهرها، لكني لم أستطِع منع نفسي فنظرت من النافذة ورأيتها تسير مبتعدة على الرصيف ثم تختفي خارجة من الباب.

هل ستبقى هناك؟

في بيتنا؟

أخذت لقمة من الخبز ونظرت إلى الساحة المبلطة بمربعات بيضاء وسوداء حتى أغير مجرى أفكاري. كان صف المحلات على الجهة الأخرى غاصًا بالناس. كانوا يدخلون ويخرجون عبر أبواب محطة المترو، ويدخلون ويخرجون بين النفق والرصيف المسقوف، ويصعدون ويهبطون

السلالم الكهربائية. مظلات ومعاطف وسترات وحقائب وأكياس تسوق وحقائب ظهر وقبعات وعربات أطفال. ومن فوقهم تسير باصات وسيارات.

كانت الساعة على جدار المتجر الضخم تشير إلى الثالثة إلّا عشر دقائق. أظن أن من الأفضل أن أقص شعري الآن فالوقت متاح. نزلت السلم الكهربائي وأخرجت هاتفي واستعرضت الأسماء المحفوظة فيه، لكنني لم أشعر بأنني قادر على الاتصال بأي منهم... هنالك الكثير مما سأكون مضطرًا إلى توضيحه، والكثير مما سأكون مضطرًا إلى قوله... مقابل ماذا؟ وهكذا خرجت من جديد إلى ذلك العصر الآذاري البارد الذي تتساقط فيه بعض ندف الثلج الثقيلة. أغلقت الهاتف ووضعته في جيبي ثم سرت في شارع درونينغاتان باحثًا عن حلّاق. كان أمام المتجر رجل ضخم يعزف الهارمونيكا إلّا أنه ما كان يعزف، يكان ينفخ في الآلة بكل قوته ويتمايل بجسده إلى الأمام والخلف. كان شعره طويلًا ووجهه خَرِبًا. كان ذلك الوجه يشع عدوانًا فظيعًا أحسست أنه يخترقني. اجتمع الذعر في عروقي عندما مررت به. وخلف ذلك الرجل، عند مدخل محل أحذية، رأيت شابة منحنية فوق عربة لترفع طفلًا منها. كان الطفل ملفوفًا بشيء يشبه كيسًا مبطنًا بالفراء، وعلى رأسه قبعة مبطنة بالفراء أيضًا. كان ينظر أمامه مباشرة من غير أن يبدو عليه ما يشير إلى أي تأثر بما كان يحدث له. شدته المرأة إلى صدرها بإحدى يديها وفتحت باب محل الأحذية باليد الأخرى. كان الثلج المتساقط يذوب عند ملامسة الأرض. وكان رجل جالسًا على كرسيٍّ قابل للطيء وفي يده لافتة كبيرة تقول إن هنالك مطعمًا على مسافة خمسين مترًا إلى اليسار يمكن فيه شراء شريحة لحم كبيرة مشوية على الخشب مقابل 109 كرونات. مشوية على الخشب؟ تساءلت عن معنى ذلك. بدت لي النساء العابرات في ذلك الشارع متشابهات، في معظمهن، كنّ في الخمسينيات، يضعن نظارات، ممتلئات الأجسام ومرتديات معاطف وحاملات أكياس تسوق عليها أسماء متاجر شهيرة: آهلينز، ليندكس، NK، كوب، هيمكوب. كان هنالك أيضًا عدد قليل من الرجال، من السن نفسه. بدوا لي متشابهين

أيضًا، لكن بطريقة مختلفة عن تشابه النساء: نظارات، وشعر بلون الرمل، وعيون ذابلة، وسترات ضاربة إلى اللون الرمادي أو الزيتي، وفيهم جميعًا لمسة من قلة الاهتمام بمظهرهم، إضافة إلى أنهم أميل إلى النحول. تمنيت أن أكون وحيدًا، لكن لا فرصة عندي للوحدة الآن. تابعت السير في ذلك الشارع. كانت وجوه من أراهم جميعًا وجوه أشخاص غرباء، وستظل وجوه أشخاص غرباء مدة أسابيع أو شهور لأنني لا أعرف أحدًا هنا. لكن هذا لم يكن ليحول دون إحساسي بأنني مراقَب. حتى عندما كنت أعيش على جزيرة صغيرة بعيدة في البحر لا يسكنها غير ثلاثة أشخاص، كنت أحس أيضًا أنني مراقب. هل يمكن أن يكون هنالك شيء غريب المظهر في معطفي؟ ياقتي... ألا يستحسن أن تكون مرفوعة بهذا الشكل؟ حذائي... يا ترى، هل يبدو شكله مثلما يجب أن يكون؟ أم لعلي أمشي بطريقة غريبة بعض الشيء؟ لعلي منحنٍ إلى الأمام أكثر مما يجب؟ أوه، إنني أحمق! كم أنا أحمق! اتّقد لهب الحماقة ساطعًا في داخلي. أوه، كم أنا أحمق! كم أنا غبي ملعون أحمق! حذائي. معطفي. غبي، غبي، غبي، أنا غبي! فمي لا شكل له، وأفكاري لا شكل لها، ومشاعري لا شكل لها. كل شيء إسفنجي. لا وجود لشيء صلب في أي مكان. لا شيء فيه صلابة، لا شيء فيه نشاط ولا حيوية. ناعم، اسفنجي، وغبي أيضًا. أوه، خراء، أوه، خراء، خراء. كم أنا غبي! لن أجد لنفسي سلامًا في أي مقهى لأنني أنظر في وجوه الجميع وأستوعبها في ثانية واحدة، ثم أتابع فعل ذلك فتخترق نفسي كل نظرة ملقاة في اتجاهي، ثم تجول في داخلي. كل حركة أقوم بها، حتى لو كانت تقليب صفحات كتاب، تبدو لي كأنها شيء أبثّه إلى خارجي، في اتجاههم، تبدو علامة على غبائي. كل حركة أقوم بها تقول لهم: «ها هو شخص غبي جالس هنا!» لهذا كان من الأفضل لي أن أمشي لأن نظرات الناس تختفي واحدة بعد أخرى. صحيح أن نظرة أي شخص تختفي لتأتي محلها نظرة شخص آخر. لكن هذه النظرات لا تملك الوقت الكافي لكي تستقر في داخلي... إنها تنزلق مارة بي.

ها هو غبي يمشي! ها هو غبي يمشي! ها هو غبي يمشي! هذا ما كانت أصوات الجوقة كلها تعيده وتكرره خلال سيري. أعرف أن هذا لا معنى له، وأن هذا كله من صنعي أنا، كله مصنوع في داخلي، لكن هذه المعرفة لم تكن مفيدة لأي شيء لأن تلك الكلمات ظلت تدور في داخلي، ظلت تجول في ذاتي الداخلية وتقعقع هناك. حتى أقلّ هؤلاء الناس شأنًا، حتى أكثرهم قباحة، حتى أكثرهم بدانة، حتى أكثرهم رثاثة، حتى تلك المرأة بفكها المرتخي وعينيها الحمقاوين الفارغتين... حتى هي يمكن أن تنظر إليّ ثم تقول إن هنالك شيئًا غير صحيح في مظهري. حتى هي، حتى تلك المرأة! هكذا كانت الأمور. هناك كنت، ماشيًا بين جموع الناس تحت سماء بدأت تُظلم، عبر نُدف ثلج متساقطة، أمام المتاجر، متجرًا بعد متجر، متاجر مضاءة في الداخل، أسير وحيدًا في مدينتي الجديدة من غير أي فكرة عما يمكن أن تكون عليه أحوالي هنا لأن ذلك لا أهمية له، ليست له أي أهمية في حقيقة الأمر. ما كنت أفكر إلّا في أن عليَّ أن أمضي عبر هذا. وهذا الـ «هذا» هو الحياة. المضي عبر الحياة... هذا ما كنت أفعله.

وجدت محلًا للحلاقة لم ألاحظه عندما مررت بهذا المكان في المرة الأولى. كان في ممر إلى جانب المتجر الكبير ذي الأقسام المتعددة. ما كان عليّ إلّا أن أدخل وأجلس. لا حاجة إلى غسل شعري... يكفي ترطيبه قليلًا ببعض رذاذ الماء. سألني الحلاق (كان مهاجرًا، أظنه كرديًا) كيف أريد قص شعري فقلت له إنني أريده قصيرًا وأشرت بإبهامي وسبابتي إلى طول الشعر الذي كنت أريده. سألني عن عملي فقلت له إني طالب. سألني من أين أنا فقلت إنني من النرويج. سألني إن كنت في عطلة، فقلت له إن هذا صحيح. اقتصر حديثنا على هذه الأسئلة. بدأت خصلات الشعر تتساقط على الأرض حول الكرسي، تكاد خصلات شعري المتساقطة تكون سوداء اللون كلها. كان هذا غريبًا لأنني أرى شعري أشقر اللون عندما أنظر في المرآة. لقد كان أشقر اللون دائمًا. ورغم معرفتي بأن شعري داكن اللون، إلّا أنني ما كنت قادرًا على رؤيته هكذا. كنت أرى شعرًا أشقر مثلما كان في سنوات طفولتي

ومراهقتي. كنت أرى شعري أشقر حتى في الصور. لم أستطع رؤيته داكن اللون، بل أسود اللون تقريبًا، إلّا بعد قصه، إلّا بعد إن صار منفصلًا عني، إلّا بعد أن صرت أراه على بلاط الأرض الأبيض.

في الشارع، بعد نصف ساعة من ذلك، اجتمع الهواء البارد حول رأسي الحليق كأنه خوذة تغلفه. قاربت الساعة الرابعة، وصارت السماء شبه سوداء. دخلت متجر H&M الذي كنت قد رأيته أثناء عبوري. دخلت لأشتري وشاحًا للرقبة. كان قسم الملابس الرجالية في القبو. وعندما عجزت عن العثور على الأوشحة رغم أنني بحثت هنا وهناك بعض الوقت. ذهبت إلى طاولة البيع وسألت الفتاة الواقفة هناك عن مكانها.

سألتني الفتاة باللغة السويدية: «أورشيكتا؟».

كررت سؤالي بالنرويجية: «أين تضعون أوشحة الرقبة؟».

«يا فاتر تيفاير إنته فاد دو سيغر»، هكذا أجابتني الفتاة قبل أن تقول بالإنجليزية: «إنني آسفة. ماذا قلت؟».

قلت بالنرويجية وأنا أمسك رقبتي بيدي: «أريد وشحًا للرقبة، أين مكانها؟».

قالت الفتاة: «هل تتكلم الإنكليزية؟ أنا لا أفهم ما تقول؟».

قلت لها أخيرًا باللغة الإنكليزية: «الأوشحة. هل لديكم أوشحة للرقبة؟».

قالت: «أوه، الأوشحة! نسميها بالسويدية هالسدوك. لا، إنني آسفة. لقد انتهى موسمها».

عدت إلى الشارع ووقفت لحظة أفكر إن كان عليّ دخول متجر آهلينز (هكذا كان اسم المتجر الكبير ذي الأقسام المتعددة) للبحث عن وشاح هناك. لكني أزحت هذه الفكرة جانبًا لأنني نلت من الحماقة والغباء ما يكفيني هذا اليوم. بدلًا من ذلك، سرت في الشارع من جديد في اتجاه بناية الغرف السكنية التي أقمت فيها سنتين فيما مضى. لم أذهب في ذلك الاتجاه إلّا لأن من الأفضل أن يسير المرء وفي ذهنه هدف يصل إليه. مررت في

طريقي بمحل للكتب المستعملة. كانت خزائن الرفوف في داخله طويلة في صفوف متقاربة إلى حد يجعل من الصعب أن يستدير المرء وهو واقف بينها. ألقيت نظرة لا مبالية على الكتب وكنت على وشك المغادرة عندما لمحت كتاب لهولدرلين فوق كومة من الكتب الموضوعة على زاوية طاولة البيع.

سألت الموظف الذي كان رجلًا في مثل سني، وكان ينظر في اتجاه منذ بعض الوقت: «هل هذا للبيع؟» قال من غير أي تعبير في وجهه وصوته: «بالطبع».

كان اسم الكتاب «سونيير». لعل هذه الكلمة ترجمة لعنوان كتاب «أناشيد أرض الآباء والأجداد»؟

قلّبت صفحات الكتاب حتى آخره. كان كتابًا منشورًا سنة 2002. وهذا يعني أنه جديد. لكني لم أجد شيئًا يشير إلى عنوانه الأصلي. تابعت تقليب الكتاب متوقفًا عند كل كلمة مكتوبة بحروف مائلة. ها هو! إنه «أناشيد أرض الآباء والأجداد». لكن لماذا ترجموا عنوانه هكذا؟

لا أهمية لهذا.

قلت للبائع باللغة النرويجية: «سوف أشتريه. كم تريد ثمنًا له؟».

«اعذرني، لم أفهم».

«كم تريد ثمنًا له؟».

«دعني أنظر... مئة وخمسين كرونًا من فضلك».

دفعت ثمن الكتاب فوضعه في كيس صغير ثم أعطاني إياه مع إيصال الشراء. وضعت الإيصال في جيب بنطلوني الخلفي قبل أن أخرج حاملًا الكيس في يدي. كانت تمطر في الخارج. توقفت، وأنزلت حقيبتي الظهرية عن كتفي ووضعت الكتاب فيها، ثم وضعتها على ظهري من جديد وتابعت سيري في شارع التسوق ذي الإنارة الباهرة حيث لم يترك الثلج الذي يتساقط منذ ساعات أي أثر غير تلك الطبقة الرمادية الهشة على كل سطح فوق مستوى الأرض. على نتوءات السطوح، وعلى إطارات النوافذ ورؤوس

التماثيل، وعلى الزهور في الشرفات وعلى المظلات أمام المحلات الغارقة بالماء، وعلى أعالي الجدران وأغطية حاويات القمامة وأغطية فتحات مصارف المياه. لكن ليس في الشارع... ظل الشارع رطبًا أسود لامعًا تحت أضواء واجهات المحلات ومصابيح الشارع. كان الحلاق قد دعك شعري بالجِل، لكن المطر جعله يسيل على جبهتي. مسحته بيدي، ثم مسحت يدي ببنطلوني الجينز. وقعت عيني على بوابة صغيرة إلى الناحية اليمنى من الشارع فدخلت تلك البوابة محتميًا من المطر لكي أشعل سيجارة. وفي الداخل، وجدت حديقة متطاولة فيها شرفتين لمطعمين، على الأقل. كانت وسط الحديقة بركة صغيرة. ورأيت على الجدار إلى جانب المدخل لوحة كتب عليها «اتحاد الكتاب السويديين». كان هذا بشير أمل لأن اتحاد الكتاب السويديين واحد من الأماكن التي كنت أعتزم الاتصال بها للاستفهام عن مكان من أجل إقامتي.

أشعلت السيجارة وأخرجت الكتاب الذي اشتريته قبل قليل. استندت إلى الجدار وبدأت أقلب صفحات الكتاب من غير كبير حماسة.

لطالما كان هولدرلين اسمًا معروفًا عندي. لا أقصد القول إنني قرأته قراءة منهجية، ليس الأمر كذلك على الإطلاق. كان كل ما قرأته بضع قصائد متفرقة في مجموعة القصائد المترجمة التي نشرها هولاف هوف، إضافة إلى معرفتي (بأكثر بالطرق سطحية) بالمصير الذي حلّ به؛ سنوات من الجنون في برج في توبنغن. إلّا أن اسمه كان موجودًا في رأسي على امتداد زمن طويل، منذ أن كان عمري ستة عشر عامًا تقريبًا عندما بدأ خالي كيارتان (شقيق أمي الأصغر الذي يصغرها بعشر سنين) يحدثني عنه. كان كيارتان الابن الوحيد الذي ظل يعيش في بيت طفولته: مزرعة متواضعة صغيرة في سوربوفاغ في منطقة أوتره سوغن. عاش هناك مع والديه: جدي، والد أمي، الذي كان يقارب ثمانين عامًا في ذلك الوقت لكنه لا يزال نشيطًا كله حيوية؛ وجدتي التي كانت في آخر مراحل داء باركنسون مما جعلها في حاجة إلى مساعدة في كل شيء من الناحية العملية. كان كيارتان يدير المزرعة العائلية

الصغيرة التي يلزمها وقت وجهد غير قليلين رغم أن مساحتها لم تكن أكثر من هكتار ونصف الهكتار. وكان يرعى أمه أيضًا؛ كانت رعايتها تتطلب عملًا على مدار الساعة في واقع الأمر. لكنه كان يعمل أيضًا سباكًا في حوض للسفن يبعد عشرين كيلومترًا عن المزرعة. كان رجلًا حساسًا إلى حد غير معتاد، رقيقًا مثل أكثر النباتات رقّة؛ وما كان عنده أبدًا أي اهتمام بالجوانب العملية في الحياة ولا أي موهبة في تلك الجوانب. يعني هذا أنه كان مضطرًا إلى إرغام نفسه على فعل كل ما كان يفعله مما يشكل أساس حياته اليومية. يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة. قوة إرادة حقيقية لا تلين. وأما ما جعل حياته هكذا فهو ليس بالضرورة عائدًا إلى حقيقة أنه لم ينجح في كسر الشروط التي وُلد فيها مثلما قد يتخيّل المرء. كما أنه لم يبقَ في بيئته المألوفة لمجرد أنها بيئة مألوفة، بل كان ذلك، على الأكثر، نتيجة طبيعته الحساسة. فأين كان يمكن لشاب ميّال إلى القيم وإلى الكمال أن يذهب أواسط السبعينيات؟ لو كان شابًا في العشرينيات، مثلما كان والده، فلعله كان يمكن أن يتجه إلى التيار الرومانسي المتأخر الذي اكتسح ثقافتنا (القسم المكتوب بلغة نونورسك على الأقل، القسم الذي كان من أدبائه أولاف نيغارد، وأولاف دون، وكوريستوفر أوبدال، وأولاف أوكروست، ثم تابعه أولاف هوغ وصولًا إلى زماننا). ولو كان شابًا في الخمسينيات، فلعله كان ممكنًا أن ينشدّ إلى مفاهيم ونظريات الراديكالية الثقافية... لعله كان ممكنًا أن يمتص هذه الأفكار إلّا إذا ذهب في الاتجاه المعاكس، إلّا إذا أفلحت في اجتذابه قبلها قوى مضادة لها، قوى النزعة الثقافية المحافظة التي كانت تموت موتًا بطيئًا في تلك المرحلة. إلّا أن فترة شبابه لم تكن في العشرينيات ولا في الخمسينيات بل في أوائل السبعينيات. وهكذا فقد صار عضوًا في حزب العمال الشيوعي (الماركسي اللينيني)، فجعل من نفسه «بروليتاريًا»، بحسب التعبير المستخدم في تلك الأيام. بدأ يعمل في لحام الأنابيب في السفن لأنه كان مؤمنًا بعالم أفضل من هذا العالم. لم يستمر في ذلك العمل بضعة شهور أو بضع سنين مثلما كانت

حال الشطر الأكبر من رفاقه في الحزب، بل ظل فيه أكثر من عشرين سنة. كان واحدًا من تلك القلة من الناس التي لم تترك مُثلها عندما تغيرت الأزمان بل تشبثت بها على الرغم من تكلفة ذلك التشبث (تكلفة على المستويين الاجتماعي والشخصي)؛ وكانت تلك التكلفة في تزايد مع مرور الزمن. أن يكون المرء شيوعيًا في مجتمع ريفي أمر مختلف تمامًا عن أن يكون شيوعيًا ضمن شروط مدينية. لست وحدك في المدينة لأن هنالك أناسًا آخرين يفكرون مثلك، ولأن هنالك روح الجماعة، إضافة إلى أن قناعاتك لا تكون ظاهرة في كل مجال من مجالات حركتك. أما في الريف فإنك أنت «الشيوعي»، تلك كانت هويته، وتلك كانت حياته. أن يكون المرء شيوعيًا في السبعينيات، أن يكون محمولًا على تلك الموجة في ذلك الوقت، كان أيضًا أمرًا مختلفًا تمامًا عن أن يكون شيوعيًا في الثمانينيات عندما كانت الجرذان قد تركت السفينة الغارقة منذ وقت. يبدو الشيوعي المتوحّد ضربًا من ضروب المفارقة، لكن كيارتان كان كذلك. أذكر تلك المناقشات التي كانت تدور بينه وبين أبي في الصيف عندما نذهب لزيارة جدتي وجدتي، وأذكر الأصوات المرتفعة الآتية من غرفة الجلوس في الأسفل ونحن نحاول النوم في الأعلى. رغم أنني ما كنت قادرًا على فهم ما يقال، ولا التفكير فيه، إلّا أنني كنت قادرًا على الإحساس بالفارق بينهما وعلى الإحساس بأن ذلك الفارق كان كبيرًا أساسيًا. كانت هذه المناقشات محدودة النطاق بالنسبة لأبي، وكانت وظيفتها الوحيدة هي جعل كيارتان يرى إلى حد كان يضلل نفسه. أما عند كيارتان فكانت مسألة حياة أو موت... كل شيء أو لا شيء. هذا منبع الانزعاج الذي كنت أسمعه في صوت أبي ومنبع الحماسة المتوقّدة لدى كيارتان. وكان من الواضح أيضًا (أو أنه بدا لي كذلك) أن كلمات أبي كانت تجد أساسًا لها في العالم الحقيقي. كنت أحس أن ما يقوله ويفكر فيه منتمٍ إلى هذا المكان، أحسه منتميًا إلينا، إلى أيام المدرسة ومباريات كرة القَدم ومجلاتنا الفكاهية ورحلات الصيد، إلى قيامنا بجرف الثلج المتراكم وإلى تناول عصيدة يوم السبت. أما كيارتان

فكان يقول أشياء أخرى، كان يقول أشياء متصلة بمكان آخر. وبالطبع، ما كان كيارتان ليقبل أنه مؤمن بشيء لا علاقة له بالواقع، وأنه كرس حياته كلها لشيء لا علاقة له بالواقع مثلما كان يؤكد له أبي، وكل شخص غيره، في كل مناسبة من المناسبات. ما كان كيارتان قادرًا على رؤية أن الواقع ليس كما يصفه وأنه لن يكون مثلما يصفه. سيكون معنى هذا أنه شخص حالم؛ وهو (هو تحديدًا) ما كان شخصًا حالمًا على الإطلاق! لقد كان يتحدث عن واقع ملموس مادي محسوس بسيط! كانت هنالك مفارقة كبرى في ذلك الوقت. يكون كيارتان مدافعًا عن نظريات عن التماسك والتضامن، لكنه هو الشخص الذي وقف وحيدًا وجعل نفسه منبوذًا. هو الشخص الذي كان ينظر إلى العالم بعينين تجريديتين مثاليتين. كان روح كيارتان أكثر نقاء من روح كل إنسان حوله، لكنه كان الشخص الذي يحمل وينقل ويطرق ويضرب ويلحم ويثبت بالمسامير ويسحج ويزحف في أحشاء السفن، سفينة بعد سفينة؛ كان الشخص الذي يحلب الأبقار ويطعمها ويكدس روثها في قبو الروث ثم يخرجه وينثره في الحقل أيام الربيع؛ كان الشخص الذي يجز العشب ويجفف القش ويقوم بصيانة البيت وإصلاحه ويعتني بأمه التي كانت حاجتها إلى الرعاية لا تنفك تتزايد سنة بعد سنة. صارت تلك حياته. وأما حقيقة أن الشيوعية بدأت تضمحل أوائل الثمانينيات وأن المناقشات الحامية التي خاضها في كل اتجاه كانت في تضاؤل مستمر إلى أن اختفت تمامًا ذات يوم... فما كان من الممكن أن تغير شيئًا من معنى ذلك كله، لكنها ما كانت لتغير شيئًا من محتواه أبدًا. ظلت حياته ماضية مثلما كانت من قبل، على المسار نفسه: يستيقظ مع الفجر فيحلب الأبقار ويطعمها، ثم يأخذ الباص إلى حوض السفن ويعمل هناك طيلة اليوم، ثم يعود إلى البيت ويهتم بوالديه فيجعل أمه تتمشّى في غرفة المعيشة، إن كانت قادرة على ذلك، أو يجلس إلى جوارها يدلك ساقيها ويثنيهما، ويساعدها في الذهاب إلى المرحاض، بل ربما يحضّر لها الثياب التي سترتديها في اليوم التالي، ثم يخرج من البيت لينجز ما عليه إنجازه... إدخال الأبقار

وحلبها من جديد، أو أي شيء آخر؛ ثم يدخل البيت من جديد فيتناول طعام العشاء وينام حتى صباح اليوم التالي إلّا إذا اشتد مرض جدتي وظن جدي أن عليه أن يوقظه في الليل. تلك كانت حياة كيارتان لمن ينظر إليها من الخارج. كان عمري سنتين عندما بدأ الطور الشيوعي من حياة كيارتان. وعندما انتهى ذلك الطور، أي عندما انتهى قسمه النشط المولع بالجدل على الأقل، كنت قد أنهيت المدرسة الثانوية. وهكذا كانت تلك المرحلة كلها ليست أكثر من خلفية عامة غامضة للصورة التي كانت له في ذهني عندما بلغ سنّي ستة عشر عامًا وبدأت أجد اهتمامًا في مسألة من «هُم» الناس. لكن حقيقة أنه يكتب الشعر كانت لها أهمية أكبر بكثير في ما يتعلق بصورته عندي. لا أقول هذا لأنني كنت مولعًا بالشعر بل لأن كتابة الشعر كانت «تقول» أشياء أكثر عن خالي. لا يكتب المرء قصائد شعرية إذا لم يكن مضطرًا إلى ذلك، بمعنى أنه لا يكتبها إلّا إذا كان شاعرًا. لم يكن يحدثنا عن ذلك، لكنه لم يكن يعتبره سرًا أيضًا. كنا نعرف بالأمر على أي حال. في إحدى السنوات نشرت صحيفة «داغ أوغ تيد» واحدة من قصائده. وفي سنة أخرى، نشرت صحيفة كلاسيكامبن قصيدة أخرى. كانت تلك صورًا بسيطة صغيرة عن واقع حياة عامل صناعي حظيت، رغم حجمها الصغير بمكانة لا شك فيها في عائلة هاتلوي، عائلته، حيث تحظى الكتب بشعبية كبرى. وعندما ظهرت قصيدة أخرى من قصائده على الصفحة الأخيرة من مجلة فيندويت الأدبية، ومعها صورة صغيرة له، ثم أعقبتها بعد سنوات معدودة عدة قصائد احتلت صفحتين من صفحات المجلة نفسها، صار كيارتان في أعيننا شاعرًا بكل معنى الكلمة. بدأ قراءة الفلسفة في هذا الوقت. كان يجلس وقت المساء في بيته المرتفع فوق الفيورد[1] ويكافح حتى يشق طريقه عبر لغة هايدغر الألمانية المعقدة إلى حد لا يصدق في كتابه «الكينونة

---

(1) لسان بحري طويل ضيق عميق ممتد بين جروف مرتفعة تشكّل بفعل زحف الجليديات صوب البحر.

والزمان». أظنه كان يسير في ذلك الكتاب كلمة فكلمة لأنه (على حد علمي) لم يقرأ الألمانية ولم يتكلمها منذ أن كان تلميذ مدرسة... كان يعاني مع الشعراء الذين كتب عنهم هيدغر، هولدرلين خاصة، ومع كتّاب أقدم من سقراط يشير إليهم هايدغر في كتابه ذاك، وكذلك مع نيتشه، أوه... نيتشه. لقد وصف قراءته لهيدغر (في وقت لاحق) بأنها شيء يشبه العودة إلى البيت. لا مبالغة أبدًا في القول إن القراءة ملأته كله. لا مبالغة في القول إنها كانت نوعًا من تجربة دينية، كانت يقظة، تحولًا، كانت عالمًا قديمًا ملأته معاني جديدة. كان أبي قد ترك الأسرة في ذلك الوقت؛ وهكذا صرنا (إنغفه وأمي وأنا) نحتفل بعيد الميلاد في بيت جدي وجدتي حيث كان كيارتان لا يزال يعيش ويعمل. كان في أواسط الثلاثينيات من العمر. اجتمعنا في عيد الميلاد هناك على امتداد أربع أو خمس سنوات فكانت تلك اللقاءات أكثر بقاء في ذاكرتي، من أي شيء آخر عشته. كانت جدتي مريضة، وكانت تجلس إلى الطاولة متكوّمة في مقعدها، مرتجفة. كانت يداها ترتجفان، وكذلك ذراعاها ورأسها وقدماها. وكانت تعاودها من حين لآخر نوبات تشنج تجعل من الضروري حملها إلى الكنبة وطيّ ساقيها بالقوة، ثم تدليكهما. لكن ذهنها ظل يقظًا، وظلت عيناها صافيتين. كانت ترانا، وكانت سعيدة برؤيتنا. وكان جدي، جدي القصير المدوّر النشط، يحكي لنا قصصًا كلما سنحت له فرصة. وعندما يضحك، مثلما كان يفعل دائمًا كلما حكى قصة من قصصه، كانت الدموع تنساب على خديه. لكن هذا ما كان يحدث كثيرًا لأن كيارتان كان هناك، ولأن كيارتان كان يمضي السنة كلها جالسًا يقرأ هيدغر، ويمتلئ بهيدغر في خضم حياته الشاقة الطاحنة التي لا هدف لها، من غير أن تتوفر لديه نفسٌ حيّة يشاركها ذلك كله إذ إن المنطقة كلها، ضمن دائرة قطرها كيلومترات كثيرة، ما كان فيها أحد قد سمع بهيدغر، وما كان فيها أحد يريد السماع بهيدغر أيضًا، رغم أنني كنت أظن أنه حاول ذلك... لا بد أنه حاول ذلك لأنه كان مأخوذًا بهيدغر إلى حد كبير، لكن محاولاته لم تفض إلى شيء لأن أحدًا لم يفهمه ولأن أحدًا ما كان يريد أن يفهمه...

لقد كان وحده في هذا، ثم نأتي نحن، أخته سيسيل التي كانت مدرّسة تمريض مهتمة بالسياسة والأدب والفلسفة، وابنها إنغفه الذي كان في الكلية (شيء كانت كيارتان يحلم به، واشتدت رغبته فيه خلال السنوات الأخيرة)، وابنها الثاني كارل أوفه. كنت في السابعة عشرة آنذاك، في المدرسة الثانوية. ورغم أنني ما كنت قادرًا على فهم كلمة واحدة من قصائده، إلّا أنه كان يعرف أنني أقرأ كتبًا. كان هذا كافيًا بالنسبة إليه. ما إن ندخل باب البيت حتى تنفتح بواباته كلها وتتدفق الأفكار التي تكون قد تجمعت عنده خلال السنة الماضية كلها. ما كان مهمًا أننا لا نفهم شيئًا، وما كان مهمًا أن الليلة ليلة عيد الميلاد، ولا أن الطاولة عامرة بأضلاع الخروف وبالبطاطس واللفت الأصفر المهروس وجعة عيد الميلاد وشراب الأكوافيت... كان يحدّثنا عن هيدغر منطلقًا من عالمه الداخلي من غير أي رابطة تواصُل مع العالم الذي في الخارج. كان يحدثنا عن «الوجود» وعن «الإنسان»، عن تراكل وهولدرلين، عن الشاعر العظيم هولدرلين؛ يحدثنا عن سقراط وهيراقليطس ونيتشه وأفلاطون... كان ذلك طيورًا في الأشجار وأمواجًا في مياه الفيورد، كان ذلك «وجود» الإنسان ومجيؤه إلى عالم الوجود، كان الشمسَ في السماء والمطرَ في الهواء وعيني القطة والشلالات الهادرة. بشعره المنتصب في كل اتجاه، وبدلته المعوجّة وربطة عنقه المملوءة بقعًا، كان يجلس هناك ويتكلم فتتألق عيناه، تتألق عيناه فعلًا. سوف أتذكر هذا دائمًا لأن الظلمة تكون دامسة في الخارج، والمطر يقرع زجاج النوافذ، لأنها كانت ليلة عيد الميلاد في النرويج سنة 1986، ليلة عيد الميلاد عندنا، ولأن الهدايا كانت تحت الشجرة، ولأن كل واحد منا كان متأنقًا، ولأن هيدغر كان موضوع الحديث الوحيد. كانت جدتي ترتعش، وجدي يلتهم لحم الخروف، وأمي تصغي بانتباه، وكان إنغفه قد كف عن الإصغاء. أما أنا فكنت غير مبالٍ بأي شيء، وكنت سعيدًا بأنها ليلة عيد الميلاد. لكن، ورغم أنني ما كنت أفهم كلمة مما يقوله كيارتان ولا شيئًا مما كتبه ولا أي واحدة من قصائده التي كان يمتدحها بعاطفة متدفقة، فقد فهمت بحدسي أنه محق وأن هنالك شيئًا هو

الفلسفة السامية والشعر السامي... حتى إذا لم تفهمهما، حتى إذا كنت غير قادر على المشاركة فيهما، فليس لك أن تلوم إلّا نفسك. ومنذ ذلك الوقت صرت أفكر في هولدرلين كلما فكرت بما هو سامٍ. وكلما فكرت في هولدرلين، كلما كان تفكيري فيه مرتبطًا بالجبال والفيوردات والليل والمطر والسماء والأرض وعيني خالي المتوقّدتين.

تغير الكثير في حياتي منذ ذلك الوقت، إلّا أن موقفي من الشعر ظل على حاله من حيث الأساس. كنت قادرًا على قراءة الشعر، لكن القصائد لم تكن تنفتح أمامي أبدًا. كان ذلك لأنني ليس لديّ «حقٌّ» فيها: لم تكن تلك القصائد لي أنا. كنت أقترب منها فأشعر بأنني شخص زائف، وكنت «أنكشف» دائمًا لأن ما تقوله تلك القصائد لي كان على الدوام: من عساك تظن نفسك حتى تأتي إلينا؟ هذا ما قالته لي قصائد أوسيب ماندلستام، وكان ذلك ما قالته لي قصائد عزرا باوند، وكان ذلك ما قالته لي قصائد غوتفريد بِنْ، وكان ذلك ما قالته لي قصائد جوانس بوبروسكي. يجب أولًا أن تكتسب الحق في قراءة تلك القصائد!

لكن كيف؟

كان ذلك أمرًا بسيطًا. تفتح كتابًا وتقرأ، وإذا انفتحت القصائد أمامك فأنت تملك ذلك الحق، أما إذا لم تنفتح فأنت لا تملكه. عندما كنت في أوائل العشرينات وكنت لا أزال مفعمًا بأفكار عما أستطيع أن أكونه، كان يقلقني كثيرًا أنني واحد من أولئك الذين لا تنفتح القصائد أمامهم. كان هذا يقلقني لأن عواقبه خطيرة تتجاوز كثيرًا مجرد أن يكون المرء مستبعدًا من أحد الأجناس الأدبية. كان ذلك إصدار لحكم قاسٍ عليّ. كانت القصائد تنظر في واقع آخر، أو كانت ترى الواقع بطريقةٍ أخرى، بطريقة أكثر صدقًا من الطريقة التي أعرفها. وكانت حقيقة أنني لا أستطيع اكتساب القدرة على الرؤية، وحقيقة أن ذلك أمرٌ يمكن أن تملكه أو لا تملكه، تحكم عليّ بحياة أدنى سوية في واقع الأمر، كانت تلك الحقيقة تجعلني واحدًا من قليلي الشأن. كان ألم هذه الفكرة مهولًا. وإذا شئت الدقة، فإن هنالك ثلاث

طرق للاستجابة إلى هذا الوضع. الأولى هي أن تقر بالأمر أمام نفسك وأن تقبله كما هو. لقد كنت رجلًا عاديًا سيعيش حياة عادية ويجد المعنى في حياته العادية، لا في مكان آخر. هكذا كان الأمر يبدو من الناحية العملية أيضًا. كنت أحب مشاهدة كرة القدم ولعب كرة القدم أيضًا كلما سنحت لي الفرصة، وكنت أحب موسيقى البوب وأعزف الدرامز في واحدة من الفرق مرتين كل أسبوع. وكنت أذهب إلى محاضرات في الجامعة وأخرج للسهر مرات كثيرة أو أستلقي على الأريكة في البيت أشاهد التلفزيون في المساء برفقة المرأة التي كنت معها آنذاك. وكان السبيل الثاني أن أنكر كل شيء بأن أقول لنفسي إن ذلك موجود في داخلي لكنه لم يُثمر بعد، ثم أعيش حياتي في عالم الأدب... ربما أكون ناقدًا، وربما أكون محاضرًا جامعيًا، بل قد أكون مؤلفًا لأن من الممكن تمامًا أن يستطيع المرء العوم في ذلك العالم من غير أن ينفتح الأدب أمامه أبدًا. يمكنك أن تكتب أطروحة كاملة عن هولدرلين، مثلًا، من خلال وصف قصائده ومناقشة ما تتناوله، إضافة إلى الطرق التي تجد الأفكار فيها تعبيراتها، ويمكنك الحديث عن ترتيب الجمل واختيار المفردات واستخدام المخيلة، يمكنك الكتابة عن العلاقة بين الأساليب الهللينية والأساليب المسيحية، أو عن الدور الذي يلعبه الريف في قصائده، أو عن الدور الذي يلعبه الطقس، أو عن الصلة بين القصائد من ناحية وبين الواقع السياسي التاريخي الذي نشأ فيه من ناحية أخرى، وذلك بمعزل عما إذا كان التشديد منصبًا على سيرته الذاتية (مثلًا، خلفيته الألمانية البروتستنتية) أو على التأثير الكبير الذي كان للثورة الفرنسية. يمكنك الكتابة عن علاقته بالمثاليين الألمان الآخرين، غوته وشيلر وهيغل ونوفاليس، أو عن العلاقة التي كانت بينه وبين بيندار في قصائده الأخيرة. يمكنك الكتابة عن ترجماته غير التقليدية لسوفوكليس، أو يمكنك قراءة قصائده في ضوء ما قاله عن الكتابة في رسائله. وقد يمكنك أن تقرأ شعر هولدرلين مستندًا إلى فهم هيدغر لقصائده، أو يمكن أن تخطو خطوة بعد ذلك فتكتب عن الصدام الذي وقع بين هيدغر وأدورنو في ما

يتعلق بهولدرلين. تستطيع الكتابة أيضًا عن مجمل تاريخ تلقي الناس أعمال هولدرلين، أو عن نشاطه وأعماله في ميدان الترجمة. يمكنك أن تفعل هذا كله من غير أن تنفتح قصائد هولدرلين أمامك. يمكن فعل الشيء نفسه مع الشعراء جميعًا؛ وهذا ما يجري فعله دائمًا بطبيعة الحال. وإذا كنت مستعدًا لبعض العمل الشاق، فمن الممكن أيضًا أن تكتب قصائد بنفسك إن كنت واحدًا ممن لا تنفتح القصائد أمامهم. فبعد كل حساب، لا يستطيع غير الشاعر أن يرى الفرق بين الشعر والشعر الذي يشبه الشعر.

من بين هاتين الطريقتين، كان قبول الحقيقة هو السبيل الأفضل، لكنه كان أيضًا الخيار الأكثر صعوبة. وأما السبيل الثاني، إنكار الأمر كله، فهو سبيل أسهل لكنه أكثر إزعاجًا لأنك تكون دائمًا على حافة إدراك أن ما تفعله لا قيمة له في حقيقة الأمر. وإذا كنت تعيش في عالم الأدب، فإن القيمة هي ما تسعى إليه، هي ما تسعى إليه تحديدًا.

وأما الطريقة الثالثة فهي قائمة على رفض المسألة كلها، وبالتالي فهي الطريقة الأفضل! لا وجود لشيء أعلى أو أكثر سموًا، ولا وجود لذلك الشيء الذي يعتبرونه بصيرة متميزة. ليس هنالك شيء أفضل ولا أكثر صحة من أي شيء آخر. لم تفتح القصائد نفسها أمامي، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنني أقل منها شأنًا، ولا يعني أن ما كتبته أقل منها قيمة. فالنوعان كلاهما، القصائد التي لم تفتح نفسها لي، والقصائد التي كتبتها، متماثلان من حيث الأساس، إنهما نصوص. إذا اتضح أن نصوصي أسوأ (هي أسوأ بالطبع)، فهذا ليس ناتجًا عن وضع غير قابل للإصلاح، ليس ناتجًا عن أنني لا أملك ذلك في داخلي، بل هو شيء قابل للتغيير من خلال العمل الجاد والتجربة المتزايدة. وذلك وصولًا إلى حد بعينه (طبعًا) حيث تصبح مفاهيم من قبيل الموهبة والجودة أمورًا لا غنى عنها لأن القدرة على الكتابة جيدًا ليست في متناول الجميع. وكانت خلاصة الفكرة هي أنه ما من حاجز لا يمكن تجاوزه، وما من شيء لا يمكن التفوق عليه، بين من يملكون الأمر ومن لا يملكونه، بين من رأوا ومن لم يروا. تصير المسألة كلها مسألة درجات على سلم واحد.

كان هذا تفكيرًا مريحًا سارًا للنفس، وما كان تبريره شديد الصعوبة لأن هذه الطريقة في التفكير ظلت مهيمنة في ميادين الفن والنقد كلها وفي الجامعات أيضًا منذ أواسط الستينيات إلى الآن. وأما الأفكار التي احتضنتها في داخلي وكانت جزءًا طبيعيًا مني إلى حد جعلني غير مدرك حتى أنها أفكار، وبالتالي فإنها ما كانت واضحة لي بل محسوسة فقط رغم أن تأثيرها يحكمني، فقد كانت أفكار النزعة الرومانسية في أنقى صورها، أي في صورتها التي عفا عليها الزمن إن عبّرنا عن الأمر بكلمات أخرى. كان الناس القلائل الذين يعتنقون النزعة الرومانسية اعتناقًا جديًا منشغلين بتلك الأوجه التي يمكن أن تتلاءم مع عالم المُثل المعاصر، كالتجزيئية مثلًا، أو كالسخرية. لكن الرومانسية لم تكن جوهر الأمر عندي... إن كنت أحس صلة قريبة بأي حقبة فهي الحقبة الباروكية. كنت مشدودًا إلى إحساسها بالفضاء، وإلى ارتفاعاتها وأعماقها المدوّخة، وإلى أفكارها عن الحياة والمسرح، والمرايا والأجسام، والضياء والظلمة، والفن والعلم... كان ذلك هو إحساسي بالوقوف خارج المشهد، بالوقوف خارج ما كان له معنى أكثر من ذلك، بالوقوف خارج ما يشكل الوجود. وأما ما إذا كان هذا الإحساس رومانسيًا أو لم يكن، فإنه أمر واقع خارج موضوعي. وحتى أخدّر الألم الذي سببه ذلك كله، كنت على مر السنين أدافع عن نفسي باستخدام الأساليب الثلاثة التي تحدثت عنها قبل قليل، وظللت مؤمنًا بها زمنًا طويلًا، مؤمنًا بالأسلوب الأخير خاصة. كانت جنونًا في نظري تلك الفكرة التي تقول إن المسرح مكان تتقد فيه شعلة الحقيقة والجمال، وأنه آخر مكان باقٍ تستطيع الحياة فيه إظهار وجهها الحقيقي. لكن هذه الفكرة كانت تُطل برأسها من حين لآخر، على هيئة إحساس لا على هيئة فكرة، لأن الفكرة قابلة للمناقشة والدحض والإزالة من عالم الوجود. كنت أعرف بكياني كله أن الفكرة كذبة، وأنني أخدع نفسي. هذا ما كان في ذهني عندما وقفت هناك، أمام بوابة اتحاد الكتاب السويديين في ستوكهولم بعد ظهر ذات يوم من أيام شهر آذار 2002، وكنت أتصفّح ترجمة فيوريتو لآخر أناشيد هولدرلين العظيمة.

يا إلهي... إنني شخص تدعو حاله إلى الرثاء!

كان تيار مستمر من أناس جدد يمر عبر تلك البوابة. وكان ضوء المصابيح المعلقة من كابلاتها فوق الشارع يتلألأ على سترات الناس وحقائبهم وأكياسهم، وعلى الأسفلت والمعدن. كانت همهمة خافتة من أصوات الناس ووقع أقدامهم تأتي عبر الفسحة بين صفي البيوت. وقفت حمامتان من غير حراك على إفريز نافذة الطابق الأول. وكان الماء يتجمّع في نقط ثقيلة عند نهاية درابزين السقف البارز عن الجدار، ثم تنفصل عنه من حين لآخر وتسقط على الأرض. أعدت الكتاب إلى الحقيبة. الآن، أخرجت هاتفي المحمول من جيب سترتي لأتأكد من الوقت. كانت الشاشة مظلمة، فشغّلت الهاتف وبدأت السير. أتتني رسالة. كانت من تونجه.

هل وصلتَ؟ إنني أفكر فيك.

جعلتني هاتان الجملتان القصيرتان أحسها قريبة مني. صورتها، صورة المرأة التي كانتها لي. غمرني هذا القرب، غمرتني هذه الصورة، لحظة كاملة. لم يكن ذلك وجهها وطبعها فحسب مثلما يحدث عندما تفكر في شخص تعرفه، بل كل شيء يمكن لوجهها أن يكونه وكل القسمات الدقيقة، جاءني ذلك كله واضحًا كل الوضوح، جاءني ذلك الشيء الذي يشعّه الشخص تجاه من يحبهم. لكني ما كنت أعتزم الإجابة على رسالتها. كان الابتعاد عنها هدف رحيلي كله. حذفت الرسالة مع موجة اجتاحت داخلي، موجة من الحزن على كل شيء. ثم عدت أنظر إلى الهاتف لأرى كم بلغت الساعة.

إنها الرابعة وإحدى وعشرون دقيقة.

لم يبقَ لديّ إلّا أكثر بقليل من نصف ساعة قبل أن أرى غيير.

أم... لعلنا اتفقنا على الرابعة والنصف.

هل اتفقنا على الرابعة والنصف؟

خراء... هكذا اتفقنا! اتفقنا على اللقاء في الرابعة والنصف لا في الخامسة.

استدرت وانطلقت جاريًا بأقصى سرعتي. توقفت بعد بنايتين حتى ألتقط أنفاسي. كان هنالك الرجل صاحب لافتة المطعم التي على شكل سهم. نظر إليّ بعينين فاترتين. اعتبرت ذلك إشارة فانعطفت في الاتجاه الذي يشير إليه السهم. عندما بلغت الطرق في نهاية ذلك الشارع، وجدت محطة القطارات أمامي؛ ورأيت على جدار في نهاية شارع قصير منطلق من هناك لافتة صفراء كتب عليها «قطار المطار». بلغت الساعة الآن الرابعة وستًا وعشرين دقيقة. إن كنت أريد الوصول في الموعد تمامًا، فإن علي أن أجري بقية الطريق أيضًا. اجتزت ذلك الشارع ودخلت محطة القطارات في المطار، ثم جريت على امتداد رصيف المحطة حتى مدخلها، واجتزت الأكشاك والمقاهي والمقاعد وخزائن الأمتعة المتروكة فدخلت الصالة الرئيسية حيث توقفت بعد أن تقطعت أنفاسي تمامًا وصار عليّ أن أنحني إلى الأمام مستندًا بيدي على ركبتي.

لقد اتفقنا على اللقاء عند الدرابزين الدائري في وسط الصالة حيث يستطيع المرء رؤية الطابق الأسفل من هناك. عندما نصبت قامتي ونظرت باحثًا عن ذلك الدرابزين رأيت ساعة على ذلك الجدار تشير إلى الرابعة والنصف تمامًا. ها هو المكان!

اخترت مسارًا مواربًا بعض الشيء فمررت بصف الأكشاك ثم وقفت منتظرًا عند جدار يبعد قليلًا عن الدرابزين حتى أستطيع رؤية غيير قبل أن يراني. لم أرَه منذ اثني عشر عامًا. وحتى في ذلك الوقت، اقتصر الأمر على أربعة أو خمسة لقاءات خلال شهرين كاملين. ولهذا خشيت أن أكون غير قادر على التعرف عليه عندما أراه، خشيت ذلك منذ أن أتتني إجابته على رسالتي الإلكتروني بأنني أستطيع الإقامة عنده. لعل كلمة «التعرف عليه» ليست بالمصطلح المناسب هنا لأنني لا أملك حتى صورة واحدة له. عندما أفكر في غيير فإنني لا أرى وجهه في ذهني بل أرى حروف اسمه، «غ ي ي ر» فقط، إضافة إلى ذكرى غامضة عن شخص يضحك. كان المشهد الوحيد الذي أذكره معه في بار في فيكتر لوفتيت في بيرغن. كان يضحك ويقول

لي: أنت شخص وجودي! لا أعرف أبدًا ما يجعلني أتذكر هذه اللحظة دونًا عن أي شيء آخر! ربما لأنني لم أكن أعرف معنى كلمة وجودي، وربما لأنني شعرت بشيء من الإطراء لأن آرائي متفقة مع تصنيف فلسفي معروف للناس!

لا أعرف معنى كلمة «وجودي» إلى الآن. أعرف الفكرة، ويمكنني ذكر بضعة أسماء، لكني غير قادر على تذكر التعريف الدقيق لهذا المصطلح.

هذا أنا... ملك المعرفة التقريبية!

أنزلت حقيبتي عن ظهري ووضعتها على الأرض بين قدمي وبدأت أحرك كتفيّ لإراحتهما، ثم رحت أنظر إلى الناس عند ذلك الدرابزين. لا يمكن أن يكون غيير واحدًا منهم. لو ظهر لي بينهم شخص فيه شيء من الوصف العام الذي أذكره لذهبت إليه آملًا في أن يعرفني. وحتى في أسوأ الأحوال يمكنني سؤاله: هل أنت غيير؟

رفعت رأسي ونظرت من جديد إلى الساعة الجدارية التي في الصالة. مرت خمس دقائق. لعلنا اتفقنا على اللقاء في الساعة الخامسة؟!

لسبب لا أعرفه، كنت واثقًا من أنه صاحب مواعيد دقيقة. في تلك الحالة، لا بد أن يكون موعدنا الذي اتفقنا عليه في الساعة الخامسة. كنت قد رأيت مقهى إنترنت عندما مررت بصالة الدخول. انتظرت بضع لحظات أخرى ثم ذهبت إلى ذلك المقهى لكي أحسم الشك باليقين. أحسست أيضًا أنني في حاجة إلى قراءة رسالته من جديد، وإلى إعادة تقييم نبرتها. عند ذلك، يمكن أن يتضاءل إحساسي بعدم الألفة في هذا اللقاء المرتقب.

جعلتني مشكلات اللغة التي واجهتها حتى الآن أكتفي بأن أقول كلمة واحدة للفتاة الجالسة خلف الطاولة هناك: إنترنت؟ أومأت برأسها وأشارت لي إلى أحد الكمبيوترات. جلست، ودخلت إلى بريدي الإلكتروني فرأيت فيه خمس رسائل جديدة، لكني تجاوزتها. كانت كلها آتية من المحررين في مجلة «فاغانت». لم يمض على رحيلي عن بيرغن أكثر من أربع وعشرين ساعة، لكني أحسست رغم ذلك أن المناقشات الدائرة بين بيربن وإيريك

وفين ويورغن عبر الإنترنت جارية في عالم آخر ما عدت جزءًا منه. كان ذلك كأنني اجتزت خطًا فاصلًا، كأنني غير قادر على العودة في حقيقة الأمر.

قلت لنفسي إنني كنت هناك بالأمس فقط. ثم إنني لم أقرر، إلى الآن، أي شيء في ما يتعلق بمدة بقائي هنا. أستطيع العودة بعد أسبوع إن شئت ذلك، أو غدًا.

لكن إحساسي لم يكن هكذا. أحسست كما لو أنني غير عائد أبدًا.

التفت ونظرت باتجاه محل برغر كينغ. رأيت على الطاولة الأكثر قربًا مني كوبًا ورقيًا من الكوكا كولا قد انقلب. شكّل السائل الأسود بقعة بيضوية متطاولة، وكان لا يزال يقطر من حافة الطاولة على الأرض. وإلى الطاولة التي خلفها، رأيت رجلًا جالسًا بركبتين مضمومتين بقوة. كان يأكل كما لو أن الأكل عقوبة له: خلال ثواني قليلة، كانت يده تتحرك سريعًا بين علبة كرتونية فيها بطاطس مقلية وفنجان صغير فيه كاتشب وبين فمه المستمر في المضغ؛ ثم يبتلع ما في ذلك الفم ويمسك بسندويتش الهامبرغر بيديه الاثنتين فيحمله إلى شفتيه ويقضم منه قضمة كبيرة. كان يمضغ تلك اللقمة وهو ممسك بالهامبرغر عند فمه، على مسافة سنتيمترات قليلة فقط، ثم يقضم لقمة ثانية ويمسح شفتيه بظهر إحدى يديه بينما ترفع اليد الأخرى كأس الكوكا كولا وتنظر عيناه إلى ثلاث مراهقات سوداوات الشعر تثرثرن حول الطاولة المجاورة له. نظرت واحدة منهن في اتجاهي، لكني التفت أولًا صوب البوابة التي جاءت منها مضيفتان جويتان في ملابسهما الرسمية. عبرتا الباب إلى الصالة وفي يد كل منهما حقيبة على عجلات. عدت إلى شاشة الكمبيوتر، وكان يتردد في أذني وقع خطوات المضيفتين الحاد وهما تسيران مسرعتين في حذاءيهما بكعبيهما العاليين.

ماذا إن لم أعد أبدًا؟ هذا ما كنت تواقًا إليه في حقيقة الأمر. كنت تواقًا إلى أن أكون هنا، وحدي، في مدينة أجنبية. لا روابط، ولا صلات، ولا أحد آخر، أنا فقط، حر في فعل ما أريد.

فلماذا هذا الشعور بالثقل؟ نقرت على رسائل غيير وبدأت القراءة.

عزيزي كارل أوفه،

هذه فكرة رائعة حقًا. إن أوبسالا، كما قلت أنت، مدينة جامعية. إنها مدينة جامعية كثيرًا! يمكنك مقارنة هذه المدينة بسورلاند عند بداية القرن الحادي والعشرين: مكان يمكنك إرسال أطفالك إليه حتى يتعلموا كيف يلفظون حرف «ر» على نحو سليم. أما ستوكهولم، فهي من أجمل العواصم، لكنك لا تشعر بالاسترخاء فيها رغم ذلك. هذا ما يجعل السويد مفارقة رائعة لأن حدودها المفتوحة ذائعة الصيت من ناحية، ولأنها أكثر بلدان أوروبا تمييزًا من ناحية ثانية. إذا كنت غير مهتم بأوبسالا، فإنني أنصحك بالعيش في ستوكهولم. (كيفما كان قرارك، فإن المسافة بينهما لا تتجاوز أربعين إلى خمسين دقيقة بالقطار. وهناك قطار كل نصف ساعة). أما في ما يتعلق بالشقق والاستوديوهات والغرف المعروضة للإيجار، فإن العثور عليها ليس بالأمر السهل أبدًا. الوضع أكثر صعوبة في أوبسالا بسبب كثرة الطلاب الجدد. أقول إن ذلك صعب، لكنه ليس مستحيلًا! ليس في ذهني الآن أي شخص يمكن أن تكون لديه غرفة للإيجار، لكنني سأسأل الناس الذين أعرفهم. بما أنك لا تريد الانتقال للعيش في السويد بصفة دائمة (هكذا فهمت، ولست أدري إن كان ما فهمته صحيحًا)، بل ستبقى فيها حتى نهاية السنة، فلا بد أن يكون من الممكن أن نعثر على ما يطلقون عليه هنا اسم «شقة مستعملة». هنالك شركات متخصصة في هذا النوع من الشقق. بالمناسبة، هل تواصلت مع اتحاد الكتاب السويديين؟ ليس من المستبعد أن تكون لديهم شقق من أجل الكتاب الأجانب أو أنهم، على الأقل، يعرفون أحدًا لديه شقة من أجلك. إن أردت، يمكنني إجراء جولة اتصالات مع الشركات والمؤسسات، إلخ.

اليوم هو السبت، السادس عشر من آذار. هل تنوي الوصول في عطلة نهاية الأسبوع، أو أنك تفضل يومًا في وسط الأسبوع بحيث يكون يوم عمل... حتى ترى بنفسك إن كنت تحب العيش هنا؟ أم لعلك قررت موعد وصولك منذ الآن؟ في هذه الحالة، سأبدأ الاستعلام عن الشقق المتوفرة

اعتبارًا من بداية الأسبوع القادم. وعلى أي حال، فإنني أرحب بإقامتك عندي سواء كنت قادمًا لقضاء عطلة هنا أو للبحث عن شقة لك.
أنا في انتظار وصولك.
غيير

كارل أوفه،
ما لم تكن في القطار الآن، اتصل بي عند وصولك إلى أوسلو أو إلى ستوكهولم! لا تهدر المال على الفنادق، ولا تكن خجولًا! لديّ أسباب أنانية تجعلني أقول لك هذا: لغتك النرويجية ممتازة. إن مفرداتي في تقلص الآن. وبالمناسبة، لقد أُسست جامعة أوبسالا في عام 1477.
رقم هاتفي في ستوكهولم: 7089693

غيير

كارل أوفه،
إنك لا تحب استخدام الهاتف! فلنتفق إذًا في محطة القطارات الرئيسية (يصل قطارك إليها) عند الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم. هناك درابزين دائري في وسط الصالة (يطلقون عليه في لغتهم المحلية اسم «حلقة بوف»). أراك هناك. لكن، حاول أن تتصل بي إذا تمكنت من ذلك! (لا يمكن أن تكون ضد الاتصالات الهاتفية إلى هذه الدرجة).

غيير
تلك هي رسائل غيير. ما كنت أشك أبدًا في صدق عرضه بأن يستضيفني عنده، لكنني كنت لا أزال أجد صعوبة في قبول هذا العرض. بالنظر إلى الظروف الحالية فإن اللقاء في مكان ما لتناول فنجان من القهوة سيكون مناسبًا أكثر. أما من ناحية أخرى، فإنني لن أخسر شيئًا... ثم إن غيير من جزيرة هيسويا!
أغلقت بريدي الإلكتروني وألقيت نظرة إلى طاولة الفتيات الثلاث قبل أن أتناول حقيبتي الظهرية وأنهض واقفًا. كانت الفتاة التي تتحدث الآن تخاطب زميلاتها بنبرة متحمسة بدت لي شاكية، وكانت رفيقتاها تتلقيان

كلامها بالعاطفة نفسها. لولا كلامهن لظننت أنهن في الثامنة عشرة. أما الآن، فمن الواضح أنهما أقرب إلى الخامسة عشرة.

أدارت أقربهن رأسها في اتجاهي وقابلت نظرتي من جديد. لم يكن في نظرتها أي اقتراح، وما كانت نظرة مفتوحة بل نظرة تؤكد لي معرفتها بأنني أنظر إليها. لكن تلك النظرة أدت إلى شيء ما، رغم ذلك. خلقت لمحة من شيء يشبه السعادة. وبعد ذلك، عندما ذهبت إلى آلة المحاسبة حتى أدفع ما ترتب علي، أرعدَ إدراك جديد في داخلي. إنني في الثالثة والثلاثين. أنا رجل ناضج. لماذا أفكر كما لو أنني لا أزال في العشرين؟ متى تتركني هذه الأهواء الشبابية؟ عندما كان أبي في الثالثة والثلاثين، كان لديه ابن عمره ثلاثة عشر عامًا، وابن في التاسعة. كان لديه بيت أيضًا، وكان لديه عمل وسيارة. في صوره العائدة إلى تلك الفترة، يبدو أبي رجلًا؛ ومما أستطيع تذكره أعرف أيضًا أنه كان يتصرف كما يتصرف الرجال. هذا ما كنت أفكر فيه قبل أن أخرج من محل الإنترنت. وضعت يدي الدافئة على سطح الطاولة المرمري البارد. نهضت الموظفة من كرسيها وجاءت لتأخذ مني النقود.

سألتها باللغة النرويجية: «كم بلغت كلفة ذلك؟».

قالت بالسويدية: «عذرًا؟».

تنهدتُ.

قلت لها بالسويدية: «ما كلفة ذلك؟».

ألقت نظرة على الشاشة أمامها وقالت لي: «عشرة».

ناولتها ورقة نقدية مجعّدة من فئة عشرين كرونًا.

قلت لها: «احتفظي بالباقي»، وسرت مبتعدًا قبل أن تسنح لها فرصة لـ«عذرًا» جديدة... هذه الكلمة التي يبدو أنها منتشرة كثيرة في هذا البلد! أشارت الساعة المعلقة في الصالة الرئيسية إلى الخامسة إلّا ست دقائق. اتخذت موقعي القديم ورحت أنظر إلى الناس الموجودين حول ذلك الدرابزين. وبما أني لم أرَ في أحد منهم شيئًا يشبه ملامح غير القليلة المحفوظة في ذاكرتي فقد تركت نظراتي تتجوّل بين الناس السائرين في

المحطة. جاء من عند الكشك الموجود على الناحية الأخرى رجل قصير القامة كبير الرأس. كان مظهره غير معتاد إلى درجة جعلتني غير قادر على انتزاع عيني عنه. كان في الخمسينيات، وكان شعره ضاربًا إلى الصفرة. أما وجهه فكان عريضًا مع أنف كبير وفم ملتوٍ قليلًا وعينين صغيرتين. بدا لي كأنه قزم. لكنه كان في بدلة ومعطف أنيقين. كانت في إحدى يديه حقيبة جلد أنيقة، وتحت إبطه صحيفة... لعله كان شخصية مهمة لأن عيني ظلتا متعلقتين به إلى أن اختفى نازلًا السلم المؤدي إلى أرصفة القطارات. فجأة، من جديد، رأيت كم كان كل شيء من حولي عتيقًا. الظهور، والأقدام، والرؤوس، والآذان، والشعر، والأظافر؛ كل جزء من أجزاء هذه الأجساد المتدفقة عبر الصالة... كل جزء منها كان عتيقًا. طنين الأصوات المتصاعد منهم، كان عتيقًا. حتى سعادتهم كانت عتيقة، حتى أمنياتهم وتطلعاتهم لما سيأتي به المستقبل كانت عتيقة. لكنها كانت جديدة مع ذلك؛ فبالنسبة إلينا، كان المستقبل جديدًا، كان منتميًا إلى زماننا، منتميًا إلى صف سيارات التاكسي المنتظرة في الخارج، منتميًا إلى آلات القهوة على الطاولة في المقاهي، منتميًا إلى رفوف المجلات في الأكشاك، منتميًا إلى الهواتف المحمولة وأجهزة الآي بود، إلى معاطف «GoreTex» والكمبيوترات المحمولة في هذه المحطة وفي القطارات... كان منتميًا إلى القطارات وإلى الأبواب الأوتوماتيكية، إلى آلات التذاكر واللوحات المضيئة التي تظهر فيها وجهات الرحلات المتغيّرة باستمرار. ما كان للزمن القديم مكان هنا. لكنه كان مهيمنًا على كل شيء، رغم ذلك.

أدخلت يدي في جيبي حتى أتفقد مفتاحَيْ الخزانتين اللتين وضعت فيهما الحقيبتين. كانا هناك. ثم لمست صدري بيدي لأتحقق من بطاقتي المصرفية. إنها موجودة أيضًا.

لاح لي وجه مألوف في زحام الناس المتحرك أمامي. تسارعت ضربات قلبي. لكنه لم يكن غيير؛ كان شخصًا آخر. لا بد أن معرفتي بهذا الشخص

أقل من معرفتي بغيير. هل هو صديق لواحد من أصدقائي؟ هل هو شخص كان معي في المدرسة؟

ابتسمت ابتسامة عريضة عندما تذكرته. أنه الرجل الذي التقيته في محل برغر كينغ في محطة البنزين. توقف الرجل ونظر إلى لوحة الرحلات المغادرة. كانت بطاقة السفر بين إبهام وسبابة يده التي تحمل الحقيبة. عندما تحقق من التوقيت الظاهر على الشاشة والتوقيت المكتوب على بطاقته، رفعت يده الحقيبة كلها في اتجاه وجهه.

ألقيت نظرة على الساعة في آخر الصالة. بقيت دقيقتان حتى الخامسة. إذا كانت مواعيد غيير دقيقة مثلما توقعت، فلا بد أن يكون الآن في مكان ما في هذا المحطة. رحت أنظر إلى وجوه الناس الآتين في اتجاهي. نظرت إلى جهة اليسار أولًا، ثم إلى جهة اليمين. ها هو! لا بد أن يكون غيير.

صحيح، إنه غيير. تذكرت وجهه عندما رأيته. لم يكن سائرًا في اتجاهي فقط، بل كانت عيناه تنظران إليّ أيضًا.

ابتسمت ومسحت كفي ببنطلوني بحركة أردتها خفية إلى أقصى حد أستطيعه، ثم مددت إليه يدي عندما توقف أمامي.

قلت له: «مرحبًا يا غيير. لم نلتق منذ زمن بعيد».

ابتسم بدوره. ترك يدي حتى قبل أن يصافحها تقريبًا.

قال لي: «صحيح، مر زمن طويل. أنت لم تتغير على الإطلاق».

سألته: «ألم أتغير حقًا؟».

«أبدًا! كأني أراك الآن في بيرغن. طويل، جاد... ترتدي معطفًا أيضا».

قال هذا وهو يضحك.

قال مقترحًا: «هل نذهب الآن؟ بالمناسبة، أين حقائبك؟».

أجبته: «إنها في خزانة في الأسفل. ما رأيك في أن نتناول قهوة قبل ذلك؟».

قال: «بالتأكيد؛ أين؟».

قلت: «لا أهمية للمكان... هنالك مقهى في مدخل المحطة».

«لا بأس. فلنذهب إليها».

سار أمامي، ثم توقف عند إحدى الطاولات وسألني من غير أن ينظر إليّ إن كنت أريد مع القهوة حليبًا أو سكرًا. ثم ذهب إلى طاولة البيع. أما أنا، فأنزلت حقيبتي عن كتفي ثم أخرجت كيس التبغ. رأيته يتبادل بضع كلمات مع النادلة. ناولها ورقة نقدية بعد ذلك. رغم أنني عرفته عندما رأيته، ورغم أن صورته المدفونة في ذهني كانت مطابقة للوجه الذي رأيته، إلّا أنني وجدت حضوره مختلفًا عما توقعته. كان حضورًا أقل ماديةً... حضورًا يكاد يكون مفتقرًا إلى الثقل الجسدي المرتبط بصورته في ذهني. أظن أن تلك الصورة الذهنية كانت هكذا لأنني أعرف أنه مارس الملاكمة في ما مضى.

أحسست برغبة غريبة في النوم، في الاستلقاء في غرفة خاوية، في إطفاء الضوء والاختفاء من العالم. هذا ما كنت أتوق إليه؛ أما ما كان في انتظاري فهو ساعات من الواجبات الاجتماعية والأحاديث الصغيرة... بدا لي هذا شيئًا لا أستطيع احتماله.

تنهدت. الأضواء الكهربائية في السقف تنشر ألقها فوق كل شيء في صالة المحطة وتنعكس هنا وهناك على الألواح الزجاجية أو على قطعة معدن أو على البلاطة الرخامية أو على فنجان قهوة. يجب أن تكون هذه الأضواء كافية لجعلي سعيدًا بأنني هنا، وبأنني قادر على رؤيتها. كل هذه المئات من الناس المندفعين في كل اتجاه في هذه المحطة، المندفعين بطريقة خفية إلى هذه الدرجة، يجب أن تكون كافية لجعلي سعيدًا. تونجه التي كنت معها طيلة ثماني سنوات، كنت أشاطرها حياتها، تونجه الرائعة، كان يجب أن تجعلني سعيدًا. لقاء أخي إنغفه وطفليه كان يجب أن يجعلني سعيدًا. الموسيقى من حولي كلها، والأدب الذي من حولي كله، والفن الذي من حولي كله، يجب أن يجعلني سعيدًا، سعيدًا، سعيدًا. الجمال الذي في العالم كله، الجمال كله الذي في هذا العالم، الجمال الذي لا بد أنه أكثر مما يمكن للمرء احتماله، كان يتركني باردًا. كان أصدقائي يتركونني باردًا، كانت حياتي تتركني باردًا. هكذا كان الأمر، بل هكذا هو الأمر منذ زمن

بعيد، منذ زمن بعيد يجعلني غير قادر على احتمال ذلك بعد الآن، يجعلني أقرر أن أفعل شيئًا في ما يتعلق بهذا الأمر. أردت أن أكون سعيدًا من جديد. يبدو هذا شيئًا غبيًا... لا أستطيع قوله لأي كان... لكن، هكذا هو.

رفعت السيجارة نصف الملفوفة إلى شفتيَّ فرطبت حافة الورق بلساني، ثم ضغطتها بإبهاميّ حتى التصقت، أزلت التبغ الزائد من طرفيها فأسقطته على غطاء كيس التبغ الأبيض اللامع، ثم رفعت الغطاء فانزلقت تلك البقايا إلى كتلة التبغ البنية المتشابكة داخل الكيس. أغلقت كيس التبغ وأعدته إلى جيب معطفي المعلق على ظهر الكرسي. وضعت السيجارة في فمي وأشعلتها بلهب قداحتي الأصفر المتراقص. كان غيير قد تناول فنجانين وبدأ يصب القهوة فيهما بينما وضعت النادلة بقية النقود على الطاولة والتفتت إلى الزبون التالي الذي كان رجلًا خمسينيًا طويل الشعر في قبعة وحذاء مرتفع الساق. كان على كتفيه شيء يشبه عباءة من أميركا الجنوبية.

لا، ما كان غيير يشع أي حضور جسدي. كان الحضور الذي يوحي به، الحضور الذي صار واضحًا لي لحظة لم تعد عيناه تنظران في عينَيّ، لحظة ترك يدي وبدأت عيناه تتجولان في المكان... كان حضوره يكاد يكون قلقًا. بدا غيير كأنه في حاجة إلى حركة مستمرة.

جاء حاملًا الفنجانين؛ فنجان في كل يد. لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

قال وهو يضعهما على الطاولة ويجذب كرسيًا ليجلس عليه: «إذن، أنت تنتقل الآن إلى ستوكهولم؟».

أجبته: «هكذا يبدو الأمر».

قال من غير أن ينظر إليّ: «لقد استُجيب دعائي على أي حال...» كان ينظر إلى سطح الطاولة وقد أمسكت يده بمقبض الفنجان... «لا أعرف كم مرة قلت لكريستينا إنني أتمنى أن ينتقل إلى ستوكهولم نرويجي عنده اهتمامات أدبية. ثم ظهرت أنت».

قرّب الفنجان إلى فمه ونفخ على سطح القهوة قبل أن يشرب.

قلت: «كتبت لك رسالة في الصيف الذي ذهبتَ فيه إلى أوبسالا. كانت رسالة طويلة، لكني لم أرسلها أبدًا. لا تزال موجودة في بيت أمي، غير مفتوحة. لست أدري ماذا كتبت فيها».

قال وهو ينظر في عيني: «أنت تمزح!».

سألته: «ألا تريدها؟».

«بالطبع، أريدها! إياك أن تفكر في فتحها. يجب أن تظل في بيت أمك. إنها قطعة من زمن أُقفل عليه هناك!».

قلت: «لعلها كذلك. لست أذكر منها شيئًا. ثم إنني أحرقت كل ما كتبته من مذكرات ومخطوطات في تلك الأيام».

قال غيير متسائلًا: «أحرقتها؟ لم ترمها بل أحرقتها؟» أومأت برأسي.

قال: «شيء دراماتيكي! لكنك كنت كذلك عندما كنا معًا في بيرغن».

«هل كنت دراماتيكيًا؟».

«أوه، نعم».

«لكنك تقول إنك لم تكن كذلك؟

«أنا؟ لا، لا. لم أكن دراماتيكيًا».

ضحك غيير. التفت برأسه وراح ينظر إلى زحام العابرين. استدار إلى الجهة الأخرى وجالت عيناه على بقية الزبائن في المقهى. لمست صحن السجائر بقمة سيجارتي. اندفع الدخان المتصاعد منها بحركة لطيفة مع تيار الهواء من الأبواب التي تفتح وتغلق باستمرار. كنت أنظر إليه نظرات سريعة قصيرة غير ملحوظة تقريبًا. على نحو ما، كان الانطباع الذي يعطيه غيير مستقلًا عن تعبير وجهه. كانت عيناه داكنتين، حزينتين، لكن حضوره ما كان فيه شيء داكن أو حزين. بدا لي سعيدًا، منطلقًا.

سألني: «هل تعرف ستوكهولم؟».

هززت رأسي نفيًا: «لا أعرفها جيدًا. لم أمضِ فيها أكثر من بضع ساعات».

«إنها بلدة جميلة، لكنها باردة كالجليد. يمكنك أن تعيش فيها حياتك

كلها من غير أي صلة قريبة مع أي كان. كل شيء هنا مرتب بطريقة تجعلك غير قريب من الآخرين. انظر إلى السلالم الكهربائية...» قال هذا وهو يشير برأسه صوب الصالة حيث افترضت أن تلك السلالم موجودة... «من يقفون عليها، يقفون إلى جهة اليمين. أما من يسيرون، فيسيرون على الجهة اليسرى. عندما أذهب إلى أوسلو، يدهشني أنني أصطدم بالناس طيلة الوقت. هنالك تدافع دائم. كل هذه الأشياء... الانعطاف يسارًا، ثم الانعطاف يمينًا، ثم يسارًا من جديد عندما يكون هنالك شخص أمامك في الشارع، أنت تدرك ذلك، هذا لا يحدث هنا. يعرف كل شخص مساره، ويفعل كل شخص ما يُنتظر منه فعله. هنالك خط أصفر في المطار، في صالة استلام الأمتعة؛ يجب ألّا يتجاوز أحد ذلك الخط. لا يتجاوزه أحد! عملية استلام الأمتعة عملية لطيفة منظمة. هكذا تجري الأحاديث في هذا البلد أيضًا. هنالك خط أصفر يجب ألّا تتجاوزه. تجد كل شخص مهذبًا، وتجد كل شخص حسن السلوك، ويقول لك كل شخص ما يُنتظر منه أن يقوله لك. كل ذلك من أجل تفادي الإساءة إلى أي كان. إذا صرت معتادًا على هذه الأشياء، فإنك تصاب بصدمة عندما تقرأ مناظرة ما في صحف النرويج. كم هي حارة المناقشات التي تدور هناك! يصرخ كل منهم في الآخر! لا يمكن تصور حدوث ذلك هنا. وإذا رأيت على شاشة التلفزيون هنا برفيسورًا نرويجيًا (نادرًا ما يحدث هذا لأن أحدًا هنا لا يبالي بالنرويج، ولأن النرويج غير موجودة في السويد)... عندما يحدث هذا، رغم ندرة حدوثه، فإن البروفيسور يبدو مثل شخص آت من البرية بشعر مشعث وملابس فوضوية أو غير لائقة؛ وهو يقول أشياء لا يجوز أن يقولها هنا. هذا جزء من التقاليد الأكاديمية في النرويج، وأنت تعرف هذا، حيث لا يكون (أو لا يجوز أن يكون) للثقافة والتعليم أي انعكاس على المظهر الخارجي... أو أن المظهر الخارجي لأي أكاديمي يجب أن يعكس فردانيته وخصائصه الشخصية. ليس الأمر عندنا عامًا ولا جمعيًا مثلما هو هنا. لكنهم لا يفهمون ذلك، بطبيعة الحال. هنا، لا يرون في ذلك البروفيسور إلّا رجلًا من البريّة. في السويد، يظنون جميعًا

أن الأسلوب السويدي هو الأسلوب الوحيد. وكل ما يخالف الأسلوب السويدي يعتبرونه مغلوطًا أو مَعيبًا. يكفي أن تفكر في هذا حتى يصيبك الجنون. نعم، هذا صحيح... كان جون بينغ هو الشخص الذي رأيته في المحطة قبل أن يأتي غيير. بدا شكله كله غير صحيح. شعر طويل، ولحية، وأظنه كان يرتدي سترة صوف أيضًا.

كان غيير مستمرًا في كلامه... «يبدو الأكاديمي السويدي أنيقًا حسن الهندام، وهو يتصرف بأناقة أيضًا ويقول ما يتوقعه الجميع بالطريقة التي يتوقعها الجميع. وبالمناسبة، كل شخص هنا يتصرف بطريقة أنيقة حلوة. هكذا يتصرف كل من يكون تحت أنظار الناس. تبدو الأمور مختلفة قليلة على مستوى الشارع. لقد أخلوا سبيل المرضى النفسيين جميعًا في البلاد منذ بضع سنوات. وهكذا تراهم يسيرون في الشوارع فيغمغون ويصيحون في كل مكان. الأمر مرتَّب هنا بحيث يعيش الأثرياء في أماكن بعينها، ويعيش الفقراء في أماكن أخرى، ويعيش الناشطون في الدوائر الثقافية في أماكن خاصة بهم، ويعيش المهاجرون في أماكن خاصة بهم. سوف ترى بنفسك ما أعنيه».

رفع فنجانه إلى فمه وأخذ رشفة منه. لم أعرف ما أقوله. ما كانت للأشياء التي قالها أي صلة بالوضع الموجود الآن، اللهم باستثناء أنني قد وصلت من النرويج قبل قليل. ثم إن ما قاله جاء متدفقًا بانسجام وكان مصاغًا بطريقة توحي بأنه معد مسبقًا. استنتجت أن هذا كان شيئًا مما يقوله عادة، كان واحدًا من المواضيع المفضلة لديه. أعرف من تجاربي مع هؤلاء الأشخاص الذين يستمتعون بهذه المواضيع أن من الأفضل أن تنتظر ريثما ينفّسون عن مشاعرهم الجيّاشة لأن نوعًا مختلفًا من الانتباه والحضور يكون منتَظرًا على الضفة الأخرى، معظم الأحيان. ما كنت أعرف إن كان ما يحاول التأكيد عليه الآن صحيحًا أو غير صحيح، إلّا أن حدسي قال لي إنها أشياء نابعة من إحساسه بالإحباط... أدركت أنه كان، في واقع الأمر، يعبّر عما يسبب له هذا الإحباط. لعل السويد كلها تسبب له ذلك. وقد يكون هذا شيء في

طبيعته. لا أهمية لهذا الأمر عندي؛ يمكنه أن يتحدث عما يريد فليس هذا سبب جلوسي هنا.

«يسير العالم الأكاديمي والرياضة يدًا بيد في النرويج، وكذلك العالم الأكاديمي وشرب البيرة. أذكر هذا من أيام بيرغن. كان طلبة الجامعة شديدي الاهتمام بالرياضة. أما هنا فالرياضة والجامعة أمران لا يمكن التوفيق بينهما. لست أتحدث عن العلماء بل عن المثقفين جميعًا. الذكاء العقلي هو الطاغي هنا، ولا وجود لشيء غيره... كل شيء أقل شأنًا من الذكاء. الجسد مثلًا... إنه ظاهر من خلال غيابه. أما في النرويج، فإنهم يخفضون من شأن الذكاء العلمي. وبالتالي فإن اللمسة العامية ليست مشكلة في الجامعات النرويجية. أظن الفكرة الكامنة وراء ذلك هي أن من الواجب أن تسمح الخلفية العامة غير اللامعة بأن يتألق ذكاء المرء مثلما يتألق الماس. أما في السويد فإن ما يحيط بالذكاء يجب أن يتألق أيضًا. ينطبق الأمر نفسه على الثقافة، مع التشديد على هذه الكلمة. إنهم لا يشددون عليها في النرويج. وفي الحقيقة فإن هذا التشديد ليس مسموحًا به هناك. ليس مسموحًا للثقافة النخبوية أن تكون موجودة إلّا إذا كانت شعبوية في الوقت نفسه. أما في السويد فهم يشددون على الثقافة النخبوية. لا إمكانية هنا للتوفيق بين الثقافتين الشعبية والنخبوية. يجب أن تكون إحداهما هنا، ويجب أن تكون الأخرى هناك. وليس من المفترض أن يكون هنالك تبادل ولا تقاطع طرق بين الاثنتين. هنالك استثناءات، هنالك استثناءات دائمًا، لكن تلك هي القاعدة العامة. هنالك اختلاف ضخم آخر بين السويد والنرويج، وهو ما يتعلق بالأدوار. في آخر سفرة لي إلى النرويج، ذهبت بالباص من آرندال إلى كريستيانساند. كان سائق الباص يتحدث قائلًا إنه ليس سائق باص في حقيقة الأمر بل إنه يعمل عملًا آخر. قال إنه يقود الباص لتحقيق دخل إضافي من أجل عيد الميلاد. ثم قال إنه علينا أن يعتني أحدنا بالآخر خلال فترة الأعياد. قال ذلك في مكبر الصوت! لا يمكن التفكير في حدوث شيء من هذا القبيل في السويد. أنت تُعرَف من خلال عملك في السويد. وببساطة، لا يمكنك

الخروج عن دورك هنا. لا توجد في هذا الدور ثغرات، ولا توجد في أي مكان منه فتحة يمكنك أن تمد رأسك منها وتقول: هذا هو أنا الحقيقي».

سألته: «فلماذا تعيش هنا إذًا؟».

نظر إليّ نظرة سريعة وأجابني قائلًا: «السويد بلد ممتاز إذا كنت تريد أن تُترك وشأنك من دون تدخّل أحد...» عادت عيناه تتجولان هنا وهناك... «لست معترضًا على البرودة. لا أريد البرودة في حياتي، لكني أستطيع بسهولة أن أعيش حياتي كلها فيها... إن كنت تدرك الفرق بين الأمرين. السويد بلد يسرّك النظر إليه. وهو بلد عملي أيضًا. إنني أزدري السويد، لكني مستفيد منها أيضًا. والآن، هل نذهب؟».

قلت وأنا أطفئ سيجارتي وأشرب آخر قطرة من القهوة في فنجاني: «نعم، فلنذهب». قلت هذا وأخذت معطفي عن الكرسي، ثم ارتديته ثم حملت حقيبتي على كتفي وسرت في صالة المحطة خلفه. عندما صرت محاذيًا له، التفت إليّ قائلًا: «هل يمكنك أن تسير إلى الجهة الأخرى؟ أعاني صعوبة في السمع بهذه الأذن».

فعلت مثلما قال لي. لاحظت أن قدميه منفرجتان إلى الخارج عند سيره، مثل قدمَيْ البطة. كانت لي دائمًا ردة فعل تجاه هذا الأمر. هكذا تمشي راقصات الباليه. ذات مرة، كانت لي صديقة ترقص الباليه، وكان هذا واحدًا من الأشياء التي ما كنت أحبها فيها... تمشي وقدماها ناتئتان إلى الخارج.

سألني غيير: «أين حقائبك؟».

أجبته: «إنها هناك، في الأسفل. ننزل إلى الأسفل ثم ننعطف يمينًا».

قال وهو يشير إلى سلم في آخر المحطة: «فلننزل من هناك».

بقدر ما كنت أرى، ما كان هنالك أي اختلاف بين سلوك الناس هنا وسلوكهم في محطة القطارات المركزية في أوسلو. ليس هناك اختلاف واضح على الأقل. بدت لي الاختلافات التي تحدث عنها أمورًا صغيرة ثانوية، ولعلها صارت ظاهرة له إلى هذه الدرجة بعد سنوات طويلة من المنفى.

قلت: «يبدو كل شيء هنا شديد الشبه بما لدينا في النرويج. أرى القدر نفسه من ازدحام الناس وتصادمهم».

التفت نحوي مبتسمًا وقال لي: «انتظر فقط». كانت تلك الابتسامة ساخرة، كانت ابتسامة توحي بمعرفة متفوّقة. إن كان هنالك شيء لا أستطيع احتماله فهو التعبير عن المعرفة المتفوقة، مهما يكن شكل ذلك التعبير. إنه تأكيد على أن معرفتي أقل!

قلت وأنا أتوقف وأشير إلى اللوحة الإلكترونية فوقنا: «انظر هناك».

سألني غيير: «أنظر إلى ماذا؟».

قلت: «لوحة الوصول. هذا ما جعلني آتي إلى هنا. أتيت لهذا السبب تحديدًا».

سألني غيير: «ماذا تعني بهذا؟».

«انظر: سودرتاليه. نيناشامن. غافله. أبروغا. فاستيراس. أوريبرو. هالمستاد. أوبسالا. مورا. غوتنبرغ. مالمو. هنالك شيء غريب إلى حد لا يصدق في هذه الأسماء كلها. في السويد كلها. تكاد لغتهم تكون مثل لغتنا، وتكاد مدنهم تكون مثل مدننا. إذا نظرت إلى النواحي الريفية في السويد تجد أنها شبيهة بتلك النواحي التي لدينا في النرويج. هذا بمعزل عن بعض التفاصيل الصغيرة. إنها هذه الاختلافات البسيطة، هذه الفوارق الصغيرة التي تكاد تكون مألوفة، تكاد تكون هي نفسها، لكنها ليست كذلك... هذا ما أجده جذابًا إلى حد غير معقول».

نظر إليّ غير مصدق.

قال لي: «أنت مجنون». ثم ضحك بعد ذلك.

تحركنا من جديد. ما كان من طبعي أن أقول أشياء من هذا القبيل. أن أقولها فجأة، أن أقولها هكذا. لكنني شعرت بأن عليَّ أن أوضح وجهة نظري. عليّ ألّا أسمح بهيمنته.

واصلت كلامي: «إنني أحس هذا الانجذاب دائمًا. لست منجذبًا إلى الهند ولا إلى بورما، ولا أفريقيا؛ لا تجذبني الاختلافات الكبيرة، ولا تثير اهتمامي

على الإطلاق. لكن خذ اليابان مثلًا. لست أعني طوكيو ولا بقية المدن، بل المناطق الريفية في اليابان، تلك البلدات الساحلية الصغيرة. هل رأيت كم تشبه مناظر الطبيعة هناك ما لدينا في النرويج؟ لكن الثقافة، بيوتهم وعاداتهم، شيء غريب تمامًا، شيء لا أستطيع فهمه على الإطلاق. أو خذ مثلًا ولاية مين في الولايات المتحدة الأمريكية، هل رأيت الساحل هنا؟ الأرض تشبه أرض سورلاند. لكنك تجد كل ما صنعه الإنسان أميركيًا. هل تفهم ما أريد قوله؟».

«لا! لا أفهم، لكنني مصغٍ إليك».

نزلنا إلى صالة الطابق السفلي التي كانت أيضًا مزدحمة بالبشر المسرعين، وذهبنا إلى خزائن الأمتعة فأخرجت الحقيبتين. أخذ غيير واحدة منهما، ثم شققنا طريقنا عبر القاعة في اتجاه أرصفة المترو الواقعة على مسافة بضع مئات الأمتار من تلك الصالة.

بعد نصف ساعة من ذلك، كنا نسير في مركز بلدة من البلدات المنتشرة حول المدينة. كانت بلدة من الخمسينيات. بدا لي في الظلمة الآذارية التي تنيرها مصابيح الشوارع أن البلدة لا تزال على حالها. كان اسمها فاسترتورب؛ وكانت بناياتها كلها قرميدية مربعة لا تختلف الواحدة منها عن الأخرى إلّا من حيث الحجم. وكنا محاطين من كل اتجاه ببنايات سكنية عالية. وأما مباني مركز البلدة فكانت أقل علوًا، وكانت فيها مجموعة متنوعة من المحلات على مستوى الشارع. وبين البناية والأخرى، كانت أشجار الصنوبر واقفة من غير حركة. ومن بين جذوع تلك الأشجار، كنت أرى في الضوء المنبعث من مداخل كثيرة لمحات من تل ولمحات من بحيرة. كان الضوء منبعثًا أيضًا من نوافذ بدت لي كأنها منبثقة من الأرض. كان غيير مستمرًا في الكلام من غير توقف مثلما كان يتكلم خلال رحلتنا في المترو إلى هذا المكان. كان القسم الأكبر من حديثه منصبًا على شرح كل ما نراه من حولنا. وكان يقول لي أسماء محطات المترو التي وجدتها غريبة رائعة: سلوسن، ومارياتورغيت، وزينكسدان، وهورنستول، وليليهولمن، وميدسوماركرانسن، وتليفونبلان.

قال لي مشيرًا إلى أحد المباني في ذلك الطريق: «ها هو!» ولجنا أحد المداخل، وصعدنا السلم، وعبرنا بابًا. كانت الكتب مصطفة على مساحة الجدار كلها، وبعد ذلك صف مضغوط من السترات على علاقاتها... رائحة حياة شخص آخر!

قال وهو ينظر في الغرفة الواقعة إلى اليسار: «مرحبًا كريستينا، ألن تسلمي على ضيفنا النرويجي؟» تقدمت إلى الأمام فرأيت امرأة جالسة إلى طاولة في تلك الغرفة وفي يدها قلم رصاص وأمامها ورقة. رفعت المرأة رأسها وقالت: «مرحبًا يا كارل أوفه! إنني سعيدة بقدومك. لقد سمعت عنك الكثير».

أجبتها: «أما أنا، فأخشى أنني لم أسمع عنكِ شيئًا. نعم... باستثناء القليل الذي قرأته في كتاب غيير».

ابتسمت وبدأت تنقل أشياءها عن الطاولة وتعدّ شيئًا من القهوة. أراني غيير شقتهما. لم يستغرق ذلك طويلًا. شقة مؤلفة من غرفتين اثنتين تكسو جدرانهما رفوف الكتب الممتدة من الأرض إلى السقف. في واحدة من الغرفتين (كانت غرفة المعيشة)، هنالك زاوية تعمل فيها كريستينا. أما غيير، فيعمل في غرفة النوم. فتح بعض أبواب الخزائن الزجاجية وأراني الكتب التي فيها. كانت تلك الكتب مصفوفة باستقامة تجعلك تظن أنه استخدم مسطرة البنّاء في ترتيبها، وكانت منظمة تبعًا لسلاسل الإصدار وأسماء الكتاب، لا وفق الترتيب الأبجدي.

فقلت له: «أرى أنك شخص منظَّم».

أجابني: «إنني منظم في كل شيء، في كل شيء على الإطلاق. لا شيء في حياتي لم أخطط له ولم أسمح بحدوثه».

نظرت إليه وقلت: «يبدو لي هذا شيئًا مرعبًا».

ابتسم وقال: «وأما أنا، فيرعبني أن أرى شخصًا ينتقل للعيش في ستوكهولم بين عشية وضحاها».

أجبته: «لقد اضطررت إلى فعل هذا».

قال: «أن تريد يعني أن تضطر إلى أن تريد. هذا ما يقوله الزاهد ماكسيموس في مسرحية الإمبراطور ومسيحيو الجليل. وإذا أردت أن أكون أكثر دقة، فقد قال: ما قيمة العيش؟ كل شيء شقاء ومضايقة. أن تريد يعني أن تضطر إلى أن تريد! إنها تلك المسرحية التي حاول إبسن فيها أن يكون حكيمًا... أن يبدو واسع الاطلاع على أقل تقدير. هنا يوجه طعنة إلى ذلك الجمع بين الشيء ونقيضه: إنني أعصى الضرورة! لن أكون خادمًا لها. إنني حر، حر، حر!... كانت مسرحية لافتة للنظر حقًا. كانت مسرحية جيدة إلى حد جهنمي مثلما قال بيكيت عن مسرحيته في انتظار غودو. كنت مأخوذًا بها تمامًا عندما قرأتها. إنه يتواصل فيها مع زمن هو الزمن الماضي. يغيب فيها شرط التعليم كله الذي هو شرط مسبق ضروري. شيء مثير للاهتمام حقًا. هل قرأت تلك المسرحية؟».

هززت رأسي وقلت: «لم أقرأ أي مسرحية من مسرحياته التاريخية».

... «لقد كُتبت في زمن كانت تجري فيه إعادة تقييم كل شيء. هذا ما فعله هو أيضًا. كان كاتيلينا رمزًا للخداع، كما تعرف. لكن إبسن يجري عليه تحولًا. هذا كما لو أن علينا أن نفعل الشيء نفسه تقريبًا بكويزلينغ. لقد كان جريئًا عندما كتب هذه المسرحية. لكن تلك القيم التي يدور من حولها كلها آتية من زمن قديم، وهذا ما يجعل شبه مستحيل علينا أن نفهمها. نحن لا نقرأ شيشرون، أليس كذلك؟... نعم... إنها كتابة مسرحية يحاول فيها التوحيد بين الأباطرة ومسيحيي الجليل! إنه يفشل بالطبع، لكنه يفشل في أمر كبير على الأقل. إنه شديد الرمزية هنا. لكنه شجاع أيضًا. يمكنك أن ترى كم هو راغب في تلك الأزمنة العظيمة. لا أظن أنني أصدق إبسن عندما يقول إنه لم يقرأ شيئًا غير الكتاب المقدس. إن في عمله هذا لمحة من شيللر. اللصوص. وهذه قامة متمردة أيضًا. إنها شيء مثل مسرحية مايكل كوهلهاس لهينريش فون كليست. بالمناسبة، هنالك ما يوازي هذا لدى بيورنسون. إنه كتابه سيغورد سلينبه. هل تذكر هذا الكتاب؟».

«لا أعرف شيئًا عن بيورنسون».

«أظن أن اسم ذلك الكتاب كان سيغورد سلينبه. إنه زمن الفعل. أفعل أو لا أفعل. هذا شيء كلاسيكي يشبه هاملت. أن تكون ممثلًا في حياتك نفسها أو أن تكون متفرجًا».

سألته: «وما أنت؟».

«سؤال جيد». صمت برهة، ثم قال: «أنا متفرج على الأرجح، مع بعض عناصر الفعل المرسومة لي مسبقًا. لكني لا أعرف حقًا. أظن أن في داخلي الكثير مما لا أستطيع رؤيته. وهذا يعني أنه غير موجود. ماذا عنك أنت؟».

«متفرج».

«لكنك هنا. وبالأمس كنت في بيرغن».

«صحيح. لكن هذا لم يكن نتيجة أي قرار. كان أمرًا اضطراريًا».

قال: «لعل هذه طريقة أخرى لاتخاذ القرار، همم؟ أن تترك مجريات الأمور تتخذ القرار بدلًا منك؟».

«ربما».

قال: «الأمر الغريب هو أنك كلما ازدت غفلة كلما ازدت فعلًا. أتعلم أن الملاكمين الذين كتبت عنهم كان لهم حضور لا يُصدَّق. لكن هذا يعني أنهم لم يكونوا متفرجين على أنفسهم، وهكذا فهم لا يتذكرون شيئًا. لا شيء أبدًا! شاركني هذه اللحظة هنا، الآن! هذا ما يقدمونه. ومن الطبيعي أن هذا صالح لهم لأن عليهم دائمًا أن يدخلوا حلبة الملاكمة من جديد. إذا كنت قد تلقيت قدرًا كبيرًا من الضربات المؤلمة في الجولة السابقة، فمن الأفضل ألا تتذكرها جيدًا وإلّا فسوف تتلقى مثلها من جديد. لكن حضورهم كان مدهشًا إلى حد كبير. كان يملأ كل شيء. حياة تأمل أو حياة فعل. أظن أنهم يمثلون الحالتين معًا، ألا ترى هذا؟ هذه مسألة قديمة بالطبع. وهي مشكلة تشغل بال المتفرجين جميعًا، لكنها لا تشغل بال من يمثلون أدوارهم، من يفعلون. إنها مشكلة مألوفة لدى المتفرجين...».

من خلفنا، مدت كريستينا رأسها من الباب وقالت لنا: «ألا تريدان شيئًا من القهوة؟».

أجبتها: «بلى، من فضلك».

مضينا إلى المطبخ وجلسنا من حول الطاولة. كان الشارع مرئيًا من النافذة. بدا لي خاليًا تحت أضواء الطريق. سألت كريستينا عما كانت ترسمه عندما وصلنا فأجابتني قائلة إنها كانت تصمم نماذج أحذية من أجل مصنع في أقصى البلاد. أدهشتني فجأة لا معقولية جلوسي في مطبخ في وسط بلدة من البلدات المحيطة بعاصمة السويد مع شخصين لا أعرفهما. ماذا أفعل هنا؟ ما الذي كنت أفعله هنا؟ بدأت كريستينا إعداد العشاء. أما أنا فجلست في غرفة المعيشة ورحت أخبر غيير عن تونجه، وكيف كان الأمر، وماذا حدث، وكيف كانت حياتي في بيرغن. أوجزَ لي، بالطريقة نفسها، مجريات حياته منذ أن غادر بيرغن قبل ثلاثة عشر عامًا. ما لفت نظري بشكل خاص في حديثه كان ذلك الجدل الذي دار بينه وبين بروفيسور سويدي في صحيفة «اليوميات السويدية» جعله ذلك البروفيسور غاضبًا إلى حد حمله ذات صباح على تعليق آخر افتراءاته على باب قلعة أوبسالا كأنه مارتن لوثر جديد. حاول أيضًا أن يبول على ذلك الباب، لكن كريستينا جرته بعيدًا.

تناولنا على العشاء لحم الغنم المفروم ومعه بطاطس مقلية وسلطة يونانية. كنت في جوع شديد، وصارت الأطباق فارغة بعد ثواني معدودة. ظهر على وجه كريستينا تعبير الإحساس بالذنب. قابلت اعتذاراتها باعتذارات من عندي. كان واضحًا أنها من طبيعة تشبه طبيعتي. شربنا بعض النبيذ وتحدثنا عن الاختلافات بين السويد والنرويج. كنت أهز رأسي مسايرة لهما، لكنني كنت أقول في نفسي لا، السويد ليست مثلما يقولان، والنرويج ليست كما يقولان. اقتربت الساعة من الحادية عشرة ليلًا وصرت غير قادر على فتح عيني فأحضر غيير بعض مفارش السرير وقال إنني أستطيع النوم على أريكة غرفة المعيشة. تغير وجهه فجأة بينما كان يفرد الشرشف على الأريكة. كان وجهه مختلفًا تمامًا. ثم تغير من جديد فكان عليّ أن أبذل جهدًا لكي أستطيع الاحتفاظ بتلك الصورة... هكذا كان شكله الحقيقي، هكذا كان هو.

تغير وجهه من جديد.

أدخلت زاوية الشرشف الأخيرة تحت الفراش وجلست على الأريكة. كانت يداي ترتعشان. ما الذي حدث؟

استدار إليّ. صار وجهه، من جديد، مثلما رأيته في محطة القطارات المركزية.

قال لي وهو يجلس إلى الجهة الأخرى من الطاولة: «لم أقل لك بعد شيئًا عن روايتك. لكنها تركت في نفسي انطباعًا لا يُمحى. لقد هزتني قراءتها هزًا شديدًا».

سألته: «لماذا؟».

«لأنك مضيت فيها شوطًا بعيدًا. مضيت شوطًا بعيدًا إلى حد لا يصدَّق. أسعدني أنك فعلت هذا. كنت جالسًا هنا، مبتسمًا، لأنك تمكنت من فعل ذلك. عندما التقينا أول مرة كنت تريد أن تصير كاتبًا. لم تكن هذه الفكرة موجودة عند أحد غيرك. عندك أنت فقط. ثم حققت ما أردت. لكن، ليس هذا ما هزَّني. ما هزني أنك ذهبت شوطًا بعيدًا. هل عليك حقًا أن تمضي هذا الشوط كله؟ هكذا سألت نفسي في ذلك الوقت. وقد كان الأمر مفزعًا. من ناحيتي، لا أستطيع أن أذهب إلى حيث ذهبت».

«ماذا تعني بهذا؟ ماذا تعني بقولك إنني مضيت بعيدًا؟ إنها رواية عادية، لا أكثر».

«أنت تقول عن نفسك أشياء لا يمكن قولها. ليس أقلها قصة تلك التي عمرها ثلاثة عشر عامًا. لم أتخيل أبدًا أنك ستجرؤ على ذكرها».

أحسست أن ريحًا باردة تهب في داخلي.

قلت له: «لست أفهم تمامًا ما تتحدث عنه. لقد اختلقت هذه القصة. لم يتطلب ذلك جهدًا كبيرًا، إن كان هذا ما تظنه».

ابتسم ونظر في عيني مباشرة.

قال لي: «لقد أخبرتني عن تلك العلاقة عندما التقينا في بيرغن. كنت قد عدت من شمال النرويج في الصيف السابق، لكنك كنت لا تزال مفعمًا بما حدث في الشمال. هذا ما تحدثت عنه بنفسك. تحدثت عن أبيك، ثم عن

وقوعك في الحب عندما كنت في السادسة عشرة وكنت ترى نفسك شبيهًا للملازم غلاهن في رواية هامسون، وقلت لي إنك أقمت علاقة مع فتاة في الثالثة عشرة عندما كنت معلمًا في شمال النرويج».

قلت: «ها ها! هذا ليس مضحكًا كثيرًا... إن كنت تظنه مضحكًا».

لم يعد وجهه مبتسمًا الآن.

«أتقول لي إنك لا تتذكر ذلك؟ لقد كانت في صفك، وقد وقعت في حبها. فهمت منك أن كلًا منكما وقع في حب الآخر، لكن كل شيء كان في حالة فوضى. هكذا قلت لي من بين أشياء أخرى. قلت إنك تكلمت مع أمها في حفلة من الحفلات. كان ذلك المشهد مثل ما وصفته في روايتك تمامًا. لا أقول إن هنالك بالضرورة شيئًا خاطئًا في هذا إن كانت الرغبة متبادلة، اسمح لي بأن أقول هذا. لكن، كيف تعرف أن ذلك أمر مختلف تمامًا. تلك هي المشكلة. كان لي زميل في المدرسة جعل مراهقة في الثالثة عشر تحبل منه. عليَّ أن أقول إنه كان في السابعة عشرة، أما أنت فكنت في الثامنة عشرة. لكن، ما أهمية لهذا؟ لا أهمية لهذا الجزء من الأمر في حديثنا. ما يهمني أنك كتبت عنه».

نظر إليّ، ثم قال: «ما الأمر؟ يبدو شكلك كأنك رأيت شبحًا».

أجبته: «أنت لست جادًا في هذا الكلام! أليس كذلك؟ لست جادًا في إنني قلت لك ذلك؟».

«بل إنني جاد تمامًا. لقد قلته. كلامك محفور في ذاكرتي».

«لكن هذا لم يحدث أبدًا».

«قلت لي إنه حدث. قلت لي ذلك بكل تأكيد».

أحسست كأن يدًا تعتصر قلبي. كيف يمكنه قول شيء من هذا النوع؟ هل من المحتمل أنني كبتُّ ذكرى حدث كبير إلى هذا الحد؟ هل يعقل أنني انتزعته من ذاكرتي ونسيت كل شيء عنه، ثم عدت وكتبت الحكاية كلها من غير أن أفكر لحظة واحدة في أنها كانت حكاية حقيقية؟

لا!

لا، لا، لا.
هذا مستحيل، لا يمكن التفكير فيه.
هذا شيء لا يمكن التفكير فيه، أبدًا، على الإطلاق.
فكيف أمكنه أن يقول شيئًا هكذا؟
نهض غيير واقفًا وقال لي: «إنني آسف يا كارل أوفه، لكنك قلت لي هذا».
قلت: «لست أفهم شيئًا. لكن، ليس لديّ إحساس يقول إنك تكذب».
هز رأسه وابتسم: «أتمنى لك نومًا هانئًا!».
«تصبح على خير».
استلقيت بعينين مفتوحتين محدقتين في الغرفة وأنا أسمع أصواتًا خافتة لرجل وامرأة يستعدان للنوم في الغرفة المجاورة، خلف هذا الباب. كنت مفعمًا بالضياء الخافت الذي يشبه ضوء القمر... ضياء آتٍ من مصابيح الشارع في الخارج. طاف عقلي على غير هدى محاولًا العثور على حل لما قاله غيير لكن مشاعري كانت قد أدانتني. كان ضغط تلك المشاعر في داخلي كبيرًا... جعل جسدي كله يتألم. من حين لآخر، كنت أسمع صوتًا مهمهمًا بعيدًا. أظنه أنه كان آتيًا من محطة المترو الواقعة على مسافة بضع مئات الأمتار. التمست السلوى في هذه الهمهمة التي جاء من خلفها هدير بعيد كان يمكن أن أظنه صوت البحر لولا معرفتي بأن لا بحر هنا. إنني في ستوكهولم؛ ولا بد أن يكون في الجوار طريق سيارات سريع.
كان عقلي يرفض الأمر كله ولا يستطيع قبول فكرة أنني يمكن أن أقمع ذكرى لها هذا القدر من الأهمية. لكن هنالك ثقوبًا ضخمة في ذاكرتي. كنت أشرب كثيرًا خلال عيشي في شمال النرويج مثلما يفعل صيادو الأسماك الشباب الذين كنت أرافقهم في عطلات نهاية الأسبوع. كان من الممكن أن تختفي زجاجة كحول كاملة خلال الأمسية... زجاجة واحدة على الأقل. اختفت أمسيات وليالي كاملة من ذاكرتي، وظلت كأنها أنفاق في داخلي، أنفاق مليئة بعتمة وريح، وبانفعالاتي المُدوِّمة. ماذا فعلت؟ ماذا

فعلت؟ استمر ذلك عندما كنت أدرس في بيرغن: كانت أمسيات وليالي كاملة تختفي. كنت سارحًا في المدينة على هواي، من غير قيد (هكذا أحس الآن)، وكان يمكن أن أعود إلى البيت وعلى صدر سترتي دم. ماذا حدث؟ كان يمكن أن أصل إلى البيت في ملابس غير ملابسي. وكان يمكن أن أستيقظ فأجد نفسي على سطح إحدى البنايات أو تحت شجرة في الحديقة. استيقظت مرة في ممر في إحدى المؤسسات. جاءت الشرطة وأخذتني. وجرى تحقيق بعد ذلك: لقد دخل أحدهم بيتًا مجاورًا وسرق منه مالًا. هل كان ذلك السارق أنا؟ ما كنت أدري، لكنني قلت لا، لا، لا. هذه الثقوب كلها في ذاكرتي، هذه الحالة القاتمة من عدم التفكير التي امتدت سنوات طويلة وكان فيها حدث غامض، يكاد يكون شيئًا شبحيًا، كان في مكان ما على محيط ذاكرتي، وكان يملؤني إحساسًا بالذنب، يترك في نفسي آثارًا ضخمة من الإحساس بالذنب. عندما أخبرني غيير بأنني قلت له فيما مضى شيئًا عن علاقتي بفتاة في الثالثة عشر من عمرها في شمال النرويج، وجدت نفسي عاجزًا (ويدي على قلبي) عن قول لا، عاجزًا عن الإنكار، عاجزًا عن نفي أنني فعلت ذلك لأن هنالك قدرٌ من الشك عندي... لقد حدث الكثير، فلماذا لا يكون هذا قد حدث أيضًا؟

كان ما جرى بيني وبين تونجه جزءًا من هذا العبء أيضًا، ومثله كان ما سوف يحدث بيننا.

هل كنت قد تركتها؟ وهل انتهت حياتنا معًا؟ أم أن هذه استراحة فقط، بضعة شهور من الانفصال حتى يفكر كلٌ منا في الأمر على انفراد، حتى يفكر كل منا من زاويته الخاصة؟

كنا قد أمضينا معًا ثماني سنين، وكنا متزوجين ست سنين منها. لا تزال تونجه الشخص الذي أحس نفسي أكثر قربًا منه، ولم يمضِ أكثر من أربع وعشرين ساعة منذ كنا نائمين في سرير واحد. ولو أنني لم أبتعد الآن، لو أنني لم أنظر في اتجاه آخر، لبقينا مثلما كنا لأن حدسي كان يخبرني أن القرار متعلق بي أنا.

ماذا كنت أريد؟

لست أدري!

كنت مستلقيًا على الأريكة في بلدة في ضواحي ستوكهولم من غير أن أعرف أحدًا هنا؛ وكان كل شيء في داخلي فوضويًا مضطربًا. حالة اللايقين اخترقتني حتى داخلي، اخترقت ما يحدد لي من أنا.

ظهر لي وجه في باب الشرفة الصغيرة الزجاجي. اختفى عندما حدقت فيه. تسارعت ضربات قلبي. أغمضت عيني فظهر الوجه نفسه من جديد. رأيته من الداخل، التفت نحوي ونظر إليّ مباشرة. تغير الوجه. تغير الوجه من جديد. وتغير. لم أرَ أي وجه من هذه الوجوه قبل الآن، لكنها كانت واقعية حقيقية إلى حد عميق، كان فيها معنى. ما هذا الذي يصيبني؟... ثم صار الأنف منقارًا، وصارت العينان عيني طائر جارح... فجأة، صار عُقاب جالسًا في داخلي، ينظر إليّ.

انقلبت على جانبي.

كل ما أردته هو أن أكون شخصًا محترمًا. أردت أن أكون شخصًا جيدًا مستقيمًا صادقًا يستطيع النظر في عيون الناس، ويعرف الجميع أن من الممكن الثقة به.

لكن الأمر لم يكن هكذا. كنت شخصًا هجر امرأته، وكنت شخصًا فعل أشياء فظيعة. والآن، هجرت امرأتي من جديد.

في الصباح التالي، أيقظني صوت غيير المرتفع. كان جالسًا على حافة أريكتي يحمل فنجانًا من القهوة الساخنة يقدمه لي.

قال: «صباح الخير! إنها السابعة صباحًا الآن! لا تقل لي إنك واحد ممن يحبون النوم إلى وقت متأخر».

جلست ونظرت إليه عابسًا. قلت له: «أستيقظ عادة في الساعة الواحدة ظهرًا. ولا أستطيع الحديث مع أيٍّ كان خلال الساعة الأولى من استيقاظي».

قال غيير: «ما أسوأ هذا الحظ. على أي حال، أنا لست متفرجًا على حياتي. لو قلت هذا لكان غير صحيح. إنني أرى حياة الآخرين، وأنا ماهر

في ذلك؛ لكني لا أرى نفسي. لا أمل لي في رؤيتها. ثم إن كلمة متفرج قد لا تكون الكلمة الصحيحة ضمن هذا الإطار. هذا تعبير ملطف كثيرًا. السؤال الحقيقي هو إن كنت قادرًا على الفعل أم لا. هل تريد القهوة أم لا؟».

قلت له: «إنني أشرب الشاي في الصباح عادة، لكني سآخذ القهوة إكرامًا لك». أخذت الفنجان من يده وشربت جرعة.

قال غيير: «كان السبب الأهم في فشل مسرحية الإمبراطور ومسيحيو الجليل، هذه تتمة لكلامنا بالأمس، هو نفسه سبب فشل مسرحية زرادشت. لكن الفكرة المهمة التي لم أتوصل إليها بالأمس هي أن ما قيل عن هاتين المسرحيتين لا يمكن أن يُقال إلّا لأنهما فشلتا. هذا شيء هام».

نظر إليّ كأنه يتوقع مني إجابة. أومأت برأسي مرتين وأخذت رشفة من فنجاني.

«وبقدر ما يتعلق الأمر برواياتك، فإن ما هزّني لم يكن قصة الفتاة ذات الثلاثة عشر عامًا، بل هو حقيقة أنك ذهبت بعيدًا جدًا في ما قلته ووضعت قدرًا كبيرًا من نفسك فيها. لا بد من شجاعة لفعل هذا».

قلت له: «ليس في حالتي أنا، لأنني لست أهتم بنفسي إطلاقًا».

«وهذا شيء يستحق الملاحظة أيضًا! لكن، ما عدد الناس الذين هم مثلك؟».

رفعت كتفي من غير أن أقول شيئًا. كنت أتمنى أن أعود إلى الاستلقاء على تلك الأريكة وأنام من جديد. لكن غيير كان يقفز من حولي ولا يريد الكف عن الكلام.

«ما رأيك في رحلة الآن؟ أستطيع أن أجعلك ترى المدينة. ستوكهولم مدينة ليست لها روح، لكنها جميلة إلى حد رائع. لا مجال لإنكار هذا».

أجبته: «جيد؛ لكني أظن أننا لسنا مضطرين إلى الانطلاق الآن في هذه الدقيقة! كم الساعة الآن حقًا؟».

قال وهو ينهض واقفًا: «إنها الثامنة وعشر دقائق. ارتد ثيابك وسوف نفطر أولًا. إن كريستينا تحضّر طبقًا من اللحم مع البيض».

لا، ما كنت أريد النهوض. صحيح أنني أجبرت نفسي على ذلك، لكني ما كنت أريد الخروج من الشقة. ما كنت أريده حقيقة هو أن أظل على هذه الأريكة بقية يومي كله. حاولت تأجيل خروجنا بعد أن انتهينا من تناول طعام الإفطار. لكني ما كنت قادرًا على مواجهة طاقة غيير وقوة إرادته.

قال لي: «سوف يكون بعض المشي مفيدًا لك. في حالتك المحبطة هذه، سيقتلك بقاؤك في الداخل؛ أعرف أنك تفهم هذا. انهض إذًا! هيا لننطلق! إننا ذاهبان الآن».

في طريقنا إلى محطة المترو، كان يسير منطلقًا بخطى واسعة، وكنت أحاول اللحاق به. استدار إليّ مكشرًا تكشيرةً عريضةً أظنه أرادها أن تكون ابتسامة.

سألني: «هل صرت الآن قادرًا على استعادة ما جرى في شمال النرويج من لاوعيك، أم أن ذلك لا يزال في الظلمة؟».

قلت له: «تذكرت ما حدث قبل أن أغفو. لست أمانع في القول إن ذلك التذكر كان مريحًا. ظننت بعض الوقت أنك مصيب في ما قلته وأنني كنت أكبت الأمر كله في ذاكرتي، أنني كنت أقمعه. ما من شيء متميز في ذلك».

«فما التفسير إذًا؟».

«لقد خلطتَ ثلاث قصص مختلفة فصنعتَ منها قصة واحدة. لقد فعلتَ هذا منذ ذلك الوقت في بيرغن أو عندما قرأت الكتاب هنا. كانت لي صديقة في شمال النرويج، لكنها كانت في السادسة عشرة، وكنت في الثامنة عشرة. لا، انتظر قليلًا، كانت في الخامسة عشرة. أو لعلها كانت في السادسة عشرة! لست واثقًا من ذلك الآن. لكنها لم تكن في الثالثة عشرة على أي حال».

«قلت لي إنك كنت مغرمًا بواحدة من تلميذاتك».

«مستحيل أن أكون قد قلت هذا!».

«بل قلته، بكل تأكيد. إن لي ذاكرة قوية كذاكرة الفيل».

وقفنا عند حواجز الدخول عند محطة المترو. اشتريت تذكرة، ثم سرنا نازلين في نفق طويل حتى وصلنا إلى الرصيف.

«أتذكر أن فتاة هناك كانت مغرمة بي. لا بد أن يكون هذا ما تتذكره أنت. وهكذا فإنك خلطت بين تلك الفتاة وصديقتي التي كنت أحبها في حقيقة الأمر».

قال لي: «لعل الأمر كان مثلما تقول، لكن هذا ليس ما أخبرتني به».

«كف عن هذا الآن بحق الرب! لست آتيًا إلى ستوكهولم من أجل مزيد من المشاكل. الفكرة من مجيئي هي الابتعاد عن مشاكلي».

قال غيير: «إذن، فقد أتيت إلى الرجل المناسب. لن أقول أي كلمة بعد الآن».

وصل المترو إلى المدينة. وهناك، أمضينا اليوم كله داخلين إلى المحطات خارجين منها؛ وفي كل مرة كنا نرى مشهدًا مدينيًا جديدًا... كلها مشاهد في غاية الجمال. لكني لم أستطع تكوين صورة تجمعها معًا خلال أربعة أو خمسة أيام أمضيناها في التجوال من الصباح الباكر إلى وقت متأخر من بعد الظهر. ظلت ستوكهولم في ذهني قطعًا متباعدة لا شيء يجمع بينها. كنا نسير جنبًا إلى جنب. يشير غيير يسارًا فنذهب يسارًا، ويشير يمينًا فنذهب يمينًا. وكان طيلة الوقت يتكلم بنبرة حماسية وصوت مرتفع ويخبرني عما نراه أو يحكي لي أشياء متعلقة بهذا المكان أو ذاك. ومن وقت لآخر، كنت أحس شيئًا من الانزعاج نتيجة عدم توازن القوى هذا: هو الذي يقرر كل شيء! وعند ذلك، قلت له... لن نذهب يمينًا، بل سنذهب يسارًا. ابتسم وقال: «لا بأس إن كان هذا يعجبك». أو لعله قال: «لا بأس، إن كان ذلك يريحك أكثر». كنا نتناول طعام الغداء في مكان جديد كل مرة. في النرويج، كنت معتادًا على تناول أشياء مع الخبز. كنت آكل خارج البيت أحيانًا؛ ربما مرتين في السنة! أما غيير وكريستينا فكانا يفعلان ذلك كل يوم، وغالبًا ما يأكلان في الخارج ظهرًا ومساءً لأن تكلفة ذلك منخفضة جدًا بالمقارنة مع النرويج ولأن الخيارات واسعة جدًا هنا.

كانت غريزتي تدفعني إلى الأكل في مطاعم الطلبة؛ بكلمات أخرى، تلك المطاعم التي أعرف من بيرغن أن أسعارها مقبولة أكثر، لكن غيير كان

يرفض ذلك ويقول إنه لم يعد شابًا في العشرين، هكذا كان تعبيره، ويقول أيضًا إنه لا يريد أي صلة بالثقافة الشبابية. وكان يرغمني في الأمسيات على الاتصال بكل سويدي أعرفه وبكل سويدي كان لي تعامل معه خلال عملي في «فاغانت»، وكل سويدي يعرفه محرر تلك المجلة. قال إن من المستحيل تقريبًا أن يعثر المرء في هذه المدينة على شقة يعيش فيها لأن كل شيء يتم من خلال العلاقات. لكني لم أكن راغبًا في هذا: كنت راغبًا في النوم وفي البقاء في البيت، إلّا أنه واصل إلحاحه قائلًا إنه لا بد لي من فعل ذلك لأن ما من سبيل آخر. ذهبنا إلى أمسية شعرية كبيرة... شعراء من الدانمارك والنرويج والسويد وروسيا يقرأون أعمالهم. كان من بينهم النرويجي ستيفان سوروم الذي افتتح الأمسية بالقول: مرحبًا يا ستوكهولم! وكأنه واحد من نجوم الروك. احمرّ وجهي خجلًا. قرأتْ إنغير كريستنسن شيئًا من شعرها. ثم ظهر على المنصة كاتب روسي راح يترنح ثملًا ويصيح قائلًا إن أحدًا لا يحب الشعر... كان يقول: «أنتم جميعًا تكرهون الشعر!»... في حين كان مترجمه السويدي (رجل خجول يحمل حقيبة صغيرة على ظهره) يحاول تهدئته. وأخيرًا، بدأ الروسي يذرع المنصة صامتًا، ثم تمكن من قراءة بعض القصائد. انتهى الأمر بنوع من المصالحة الدافئة عندما وخز الروسي ظهر مترجمه بإصبعه ثم عانقه. كان إنغمار ليمهاغن حاضرًا أيضًا، وكان يعرف الجميع. تمكنت، بمساعدة منه، من الانسلال خلف المنصة فسألت الكتّاب السويديين جميعًا إن كانوا على علم بمكان أستطيع الإقامة فيه. قال لي راتاما إن لديه شقة وإنني أستطيع الانتقال إليها بعد أسبوع... لا مشكلة في ذلك. خرجنا معهم فذهبنا أولًا إلى مالمن حيث انحنت الشاعرة السويدية ماري سيلكيبيرغ في اتجاهي وسألتني لماذا يتعين عليها أن تقرأ روايتي. لم تخطر في ذهني إجابة أفضل من قول إنها يجب أن تقرأ روايتي لأنها كتاب يجذب القارئ. أجابت بابتسامة سريعة، وبعد ذلك التفتت إلى شخص آخر وراحت تحدثه. لم يكن انصرافها عني سريعًا إلى حد مسيء، ولا بطيئًا بحيث يكون من غير دلالة. لقد كانت شاعرة، أما أنا فأكتب الرواية

الخفيفة. بعد ذلك، ذهبنا كلنا إلى بيتها لتناول بعض الشراب. كان غيير، خلافًا لي، شديد الاحتقار للشعر والشعراء. وكان ينظر إلى الشعراء بعينين ناضحتين كرهًا، ثم لم يلبث أن أزعج سيلكيبيرغ لأنه لمّحَ على نحو ضمني إلى أن هذه الشقة الكبيرة في مركز المدينة لا بد أن تكون غالية الثمن كثيرًا.

عندما سرنا في اتجاه سلوسن في الصباح الباكر، راح غيير يتحدث عن الطبقة المثقفة الوسطى، وعن المزايا التي يتمتع بها هؤلاء الناس، وعن أن الأدب كان مجرد بطاقة دخول إلى المجتمع. تحدث أيضًا عن إيديولوجياتهم المتشعبة. حدثني عن تضامنهم المزعوم مع الفئات الأسوأ حالًا، وعن مغازلتهم الطبقة العاملة، وعن إضرارهم بتلك الفئات عندما ينسبون إليها قيمة رفيعة... كارثة حقيقية أن تكون القيمة الرفيعة خاضعة للسياسة والإيديولوجيا، لا في الأدب فحسب، بل أيضًا في ما يتعلق بالجامعات وتفكيرها المنطقي، وفي ما يتعلق بالمجتمع كله. ما كنت قادرًا على الربط بين شيء مما يقوله والواقع الذي أعرفه، وكنت أعارضه من حين لآخر قائلًا إنه مصاب بشيء من الذعر وإنه يطلق أحكامًا اعتباطية شاملة لأن هنالك دائمًا إنسانًا خلف الواجهة الإيديولوجية، ولأن هنالك دائمًا شخصًا من لحم ودم واقفًا خلف الإيديولوجية التي يهاجمها. لكني كنت أتركه يواصل كلامه أحيانًا. بلغنا محطة المترو ودخلنا السلم الكهربائي. قال غيير: «إلّا أن إنغير كريستنسن كانت فريدة. كانت رائعة تمامًا. يمكن وضعها في فئة مستقلة وحدها، أقول هذا رغم أنه ما يقوله الجميع عنها، وأنت تعرف رأيي في الإجماع. إلّا أنها متميزة حقًا».

أجبته: «نعم».

تحت أقدامنا، عصف تيار هواء آتٍ من القطار المقترب بكيس من النايلون كان ملقى على الرصيف. ظهر القطار في آخر الصالة قادمًا من الظلمة كأنه وحش بعينين مضيئتين.

قال غيير: «لقد كانت كريستنسن من سوية مختلفة، من سوية عالمية».

لم أحس شيئًا خاصًا عندما قرأت شعرها. لكني كنت أتساءل عن هذه

المرأة قبل أن تقرأ الشعر: امرأة ممتلئة الجسم قصيرة القامة متقدمة قليلًا في السن تشرب عند البار وحقيبة يدها متدلية من ذراعها.

خطوت على الرصيف متقدمًا من القطار الذي توقف. قلت: «كانت قصيدة وادي الفراشات مجموعة من المقطوعات الشعرية. يطلقون على هذا الشكل اسم دورة السوناتات. ولا بد أن يكون أصعب الأشكال جميعًا لأن مطالع المقطوعات تشكل المقطوعة الختامية».

قال غيير: «نعم، لقد حاول هادله عدة مرات أن يشرح هذا الأمر لي. لكني لا أتذكره أبدًا».

«يفعل إيتالو كالفينو الشيء نفسه في كتابه إن كان هنالك مسافر في ليل الشتاء. لكن البنية ليست محكمة إلى هذا الحد: تشكل عناوين القصص قصة صغيرة آخر الأمر. هل قرأت هذا الكتاب؟».

انفتحت أبواب العربات فدخلنا وجلسنا في مقعدَيْن متقاربين.

قال لي غيير: «كالفينو، بورخيس، كورتازار... تستطيع الاحتفاظ بهم جميعًا. لا أحب الخيال ولا أحب هذه الإنشاءات الأدبية. في نظري، لا أهمية إلّا للناس».

قلت له: «لكن ماذا عن كريستنسن؟ يصعب العثور على كاتب لديه إنشاءات أدبية أكثر منها. إن ما تفعله أحيانًا يبدو أكثر شبهًا بالرياضيات».

قال غيير بينما رحت أنظر خارجة النافذة عندما بدأت حركة القطار: «ليس في ما سمعته منها اليوم».

قلت: «لقد كنت تسمع الصوت. إنه يعلو فوق الأرقام والتركيبات كلها. تجد الأمر نفسه عند بورخيس أيضًا، على الأقل عندما يكون محلقًا».

قال غيير: «لا أهمية لهذا».

«ألا تريد قراءته؟».

«لا».

«لا بأس».

جلسنا بعض الوقت صامتَيْن، أمسك بنا الصمت الذي غرق فيه بقية

المسافرين أيضًا. نظرات فارغة وأجساد ساكنة، واهتزاز خفيف في جدران القطار وأرضه.

قال غيير عندما تركنا القطار في المحطة التالية: «إن حضور الأمسيات الشعرية يشبه الذهاب إلى المستشفى. يجدها المرء مليئة بالحالات العصابية».

«هل يشمل هذا الكلام كريستنسن؟».

«لا، هذا ما كنت أقوله بالضبط. إنها تفعل شيئًا مختلفًا».

«قد تكون التركيبات الشعرية المحكمة عندها هي ما يوازن الوضع! لعل وجود تلك التركيبات عندها هي ما يجعلها موضوعيةً!».

أجابني: «هذا ممكن. لكن هذه الأمسية كانت مضعية للوقت بالنسبة إليها».

قلت: «وماذا عن ذلك الرجل الذي عنده شقة؟ هل كان اسمه راتاما؟».

اتصلت بالرقم الذي أعطاني إياه راتاما. لم يجبني أحد. ثم كررت الاتصال من غير طائل. لم يجبني أحد في وقت لاحق من ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي بعده. وفي اليوم الثالث، ذهبت مع غيير لحضور نشاط أدبي آخر حيث كان من المفترض أن تكون لراتاما مشاركة فيه. جلسنا في مقهى على الرصيف المقابل وانتظرنا إلى أن انتهى الأمر وخرج راتاما فذهبت إليه. أطرق برأسه عندما عرفني وقال إنه آسف لأن الشقة قد أُجّرت بالفعل. لكني تمكنت عن طريق غيير غولسكن من ترتيب لقاء مع اثنين من المحررين في دار نورستيدت للنشر. تناولت طعام الغداء معهما، وأعطياني قائمة بالكتّاب الذين يجب أن أتصل بهم... «ليس هؤلاء أفضل الكتّاب بالضرورة، لكنهم ألطفهم»... وقالا لي إنني أستطيع الإقامة أسبوعين في الشقة التي تستخدمها شركتهما لاستقبال ضيوفها. قبلت عرضهما. وخلال إقامتي في تلك الشقة تلقيت ردًا إيجابيًا من جورتيبرغ (كانت قصيدة طويلة له قد نشرت في مجلة فاغانت). قال إنه يعرف فتاة تعمل في مجلة «أوردفرونت» ستسافر شهرًا: يمكنني استخدام شقتها خلال سفرها.

كنت أتصل بتونجه على فترات منتظمة وأخبرها عن أحوالي وعمّا أفعله. كانت تخبرني عما يحدث من حولها. لم يسأل أحد منا الآخر عما كان يفعله حقًا.

بدأت الجري. وبدأت أكتب من جديد. مرّت الآن أربع سنوات على روايتي الأولى، ولم أفعل شيئًا منذ ذلك الوقت. كنت مستلقيًا على السرير المائي في غرفتي ذات الطابع الأنثوي الواضح في الشقة التي استأجرتها مؤقتًا. قررت أن عليّ الاختيار بين أمرين: إما أن أبدأ الكتابة عن حياتي مثلما هي جارية الآن... شيء يشبه يوميات مفتوحة على المستقبل بحيث يكون كل ما جرى خلال السنوات القليلة الماضية نوعًا من تيار خفي تحت تلك اليوميات (أطلقت على هذا في ذهني اسم «يوميات ستوكهولم»)؛ أو أتابع القصة التي بدأت كتابتها قبل ثلاثة أيام من قدومي إلى السويد. كانت قصة عن رحلة إلى الجزر الصخرية الصغيرة في ليلة صيفية عندما كان عمري اثني عشر عامًا. كان أبي يجمع السرطانات في تلك الرحلة، أما أنا فعثرت على نورس بحري ميت. المناخ، والحر، والظلمة، والسرطانات، والنار التي أشعلناها، والنوارس الزاعقة التي كانت تحاول الدفاع عن أعشاشها بينما مشيت مع إنغفه وأبي عبر الجزيرة. كان في هذه القصة شيء ما، لكني لم أرَه كافيًا ليكون رواية.

كنت أقرأ في السرير خلال النهار. وكان غيير يأتيني من حين إلى آخر فنخرج فنذهب لتناول الغداء معًا في الخارج. أما في الأمسيات، فكنت أكتب أو أجري أو أذهب بالقطار لزيارة غيير وكريستينا اللذين صرت متعلقًا بهما خلال هذين الأسبوعين. إلى جانب أحاديثنا عن الأدب وعن مختلف المواضيع السياسية والإيديولوجية التي يطرحها غيير، كنا نتحدث دائمًا عن أمور أكثر قربًا منا. من ناحيتي، كان الموضوع الذي لا يستنفد هو كل ما جرى معي منذ أحداث طفولتي إلى موت أبي، ومنذ تلك الأصياف في سوربوفاغ إلى الشتاء الذي قابلت فيه تونجه. كان غيير لماحًا ذكيًا؛ وكان واقفًا خارج حكاياتي يرى ما هو مختبئ فيها. كان هذا يحدث كل مرة. أما

قصة حياته التي بدأت تتخذ شكلها في وقت لاحق (وكأنه أراد التأكد قبل ذلك من أنني شخص يستحق ثقته)، فكانت نقيض قصتي، كانت نقيضًا تامًا لها. كان غيير منحدرًا من أسرة من الطبقة العاملة ليس لها طموحات وليس لديها كتابٌ واحد على الرف، أما أنا فكنت من أسرة من الطبقة المتوسطة. وكان كل من أبي وأمي قد اجتازا برامج تعليمية أثناء عملهما بعد الجامعة. كان أدب العالم كله في متناول يدي. وفي حين كان غيير واحدًا من الأولاد الذين يخوضون مشاجرات في الملعب، وكانوا يعاقبونه ويرسلونه إلى الاختصاصي النفسي في المدرسة، كنت واحدًا من الأطفال الذين يحاولون اكتساب ود المعلم بأن يكونوا صالحين إلى أقصى حد ممكن. كان غيير يلعب لعبة الجنود ويحلم باقتناء بندقية ذات يوم، أما أنا فكنت أحلم بأن ألعب كرة القدم وبأن أصير صاحب اختصاص ذات يوم. وبينما خضت الانتخابات لكي أصير ممثل المدرسة وكتبت مقالات عن الثورة في نيكاراغوا، كان غيير عضوًا في «القوة الطلابية في الحرس الوطني» وعضوًا في المنظمة الشبابية في واحد من الأحزاب السياسية المحافظة. بينما كتبت قصيدة عن أيدي الأطفال المبتورة وعن قسوة البشر بعد أن شاهدت فيلم «القيامة الآن»، كان غيير يبحث إمكانية أن ينال الجنسية الأميركية حتى يستطيع الانتساب إلى جيش الولايات المتحدة.

رغم هذا كله، كنا قادرَيْن على أن يُحدّث كلًا منا الآخر. كنت أفهمه، وكان يفهمني. وللمرة الأولى في حياتي بعد أن كبرت، وجدت نفسي قادرًا على قول ما أراه من غير تحفظات.

قررت اختيار قصة السرطانات والنوارس، وكتبت عشرين صفحة، ثم كتبت ثلاثين. صرت أجري مسافة أطول، ثم أطول، وسرعان ما صرت قادرًا على الجري طيلة المسافة حول سودير بينما كانت كيلوغرامتي الزائدة تختفي، ومكالماتي الهاتفية مع تونجه تتناقص شيئًا بعد شيء.

ثم التقيت ليندا فأشرقت الشمس في حياتي.

لا أجد طريقة أفضل من هذه للتعبير عما حدث. أشرقت الشمس في

حياتي! في البداية، كان ذلك مثل ضوء الفجر الذي يلوح خلف الأفق كأنه شيء يقول لك أن تنظر في هذا الاتجاه. ثم أتت أول أشعة الشمس فصار كل شيء أكثر نقاء وخفة وحياة، وصرت أكثر فأكثر سعادة، ثم ارتفعت الشمس في سماء حياتي وشعّت... وشعّت، وشعّت.

رأيت ليندا أول مرة في صيف 1969 في ندوة للكتّاب النرويجيين الجدد أقيمت في مدرسة بيسكوبس آرنو فولك الثانوية بالقرب من ستوكهولم. رأيتها واقفة عند أحد المباني والشمس تضيء وجهها. كانت في نظارة شمسية وقميص أبيض قصير الكمين له خط على الصدر وبنطلون على الطراز العسكري. كانت نحيلة جميلة. وكانت من حولها هالة... حضور داكن برّي شهواني مدمر. سقط من يدي كل ما كنت أحمله.

انقضت ستة أشهر حتى رأيتها مرة ثانية. كانت جالسة إلى طاولة في مقهى في أوسلو. كانت في سترة جلد وبنطلون جينز أزرق وحذاء أسود مرتفع الساق. بدت لي هشة متعبة مرتبكة فلم أرد شيئًا أكثر من أن أحتضنها بين ذراعيَّ. لم أفعل ذلك.

عندما جئت إلى ستوكهولم، كانت الشخص الوحيد الذي أعرفه هنا، عدا غيير. كان لديّ رقم هاتفها؛ وقد اتصلت بها في ثاني يوم لي في هذه المدينة. اتصلت من شقة غيير وكريستينا. كان ما حدث في بيسكوبس آرنو قد مات ودفن، وما عادت عندي أي مشاعر تجاهها. لكنني كنت في حاجة إلى صلات في هذه المدينة. كانت كاتبة، ولا بد أنها تعرف أشخاص كثيرين. قد تعرف أحدًا لديه مكان أستأجره.

لم يجبني أحد على الهاتف. وضعت السماعة واستدرت إلى غيير الذي كان يتظاهر بأنه لا يتابع ما أفعله.

قلت له: «لا أحد في البيت».

قال: «حاول الاتصال مجددًا في وقت لاحق».

فعلت هذا، لكن أحدًا لم يرد.

نشرت إعلانًا في صحف ستوكهولم بمساعدة من كريستينا. «كاتب

نرويجي يبحث عن شقة للسكن | مكان للكتابة». هكذا كانت صيغة الإعلان التي تكلمنا كثيرًا جدًا قبل أن نتوصل إليها. رأى غيير وكريستينا أن هنالك الكثير من المهتمين بالثقافة الذين يمكن أن تجتذبهم كلمة «كاتب»، ثم إن كلمة «نرويجي» كانت معادلًا للقول إنني شخص مسالم ليّن الطبع. لا بد أنهما كانا محقّين لأنني تلقيت سيلًا من الاتصالات. كانت أكثر الشقق التي عرضت عليّ في بلدات محيطة في ستوكهولم فرفضتها كلها لأنني لم أرَ معنى لعيشي في بناية سكنية مرتفعة في مكان ما في الغابة. وبينما كنت أنتظر عرضًا أفضل، انتقلت إلى شقة مؤسسة نورستيدس، ثم إلى الشقة الأنثوية. جاءني عرض جديد بعد مضي أسبوع من إقامتي في تلك الشقة: هنالك أحد يريد تأجير شقة في سودير. ذهبت إلى المكان، وانتظرت أمام الباب. خرجت من إحدى السيارات امرأتان متشابهتان، لا بد أنهما توأمان. كانتا في الخمسين تقريبًا. حييتهما فقالتا إنهما من بولندا وإنهما رغبتان في تأجير الشقة مدة سنة على الأقل. قلت إن هذا يبدو مناسبًا، فاقترحتا أن نصعد إلى الشقة لأننا نستطيع توقيع العقد فورًا إذا راق لي العيش في هذا المكان.

كانت الشقة مناسبة تمامًا: غرفة ونصف الغرفة؛ قرابة ثلاثين مترًا مربعًا، مع مطبخ وحمام. مستوى مقبول وموقع ممتاز. وقّعت العقد. لكنني كنت أحس شيئًا... كان هنالك شيء غير صحيح لكنني لم أستطع معرفته. نزلت السلم ببطء وتوقفت عند لوحة أسماء الشاغلين. قرأت العنوان أول الأمر: برانكوركاغاتان 92! هنالك شيء مألوف في ذلك العنوان. لقد رأيته في مكان ما، لكن أين؟ أين؟ رحت أتساءل عن هذا وأنا أستعرض أسماء السكان.

أوه، عجبًا... اللعنة! قرأت اسمها: ليندا بوستروم.

سرت قشعريرة في ظهري.

إنه عنوانها! بالطبع. لقد كتبت لها ذات مرة أطلب منها تبرعًا لمجلة فاغانت، وبعثت بتلك الرسالة إلى برانكوركاغاتان 92، ثم نسيت العنوان.

ما فرصة حدوث شيء من هذا النوع؟ ما احتمال وقوع هذه المصادفة؟

يعيش في هذه المدينة مليون ونصف المليون من البشر. لا أعرف منهم أحدًا. وضعت إعلانًا في الصحف، وتلقيت ردًا أثار اهتمامي من امرأتين غريبتين عني تمامًا، توأمين من بولندا. ثم يتضح الآن أن الشقة في بناية ليندا بوستروم نفسها. سرت متمهلًا حتى بلغت محطة المترو. وجلست متململًا في مقعدي طيلة الطريق إلى شقتي البنّاتية. ما الذي يمكن أن تظنه ليندا إذا سكنت في الطابق الذي فوقها؟ ألن تظن أنني ألاحقها خفية؟

كان هذا سيئًا جدًا. لم أستطع! لم أكن قادرًا على فعل ذلك بعد الأشياء الفظيعة التي حدثت في بسكوبس آرنو. كان أول شيء فعلته عندما دخلت بابي هو الاتصال مع البولنديتين من جديد والقول لهما إنني غيرت رأيي وإنني لا أريد تلك الشقة لأنني تلقيت عرضًا أفضل. قلت لهما إنني آسف حقًا. كنت آسف بالفعل.

قالت لي المرأة: «لا بأس».

عدنا إلى المربع الأول.

قال لي غيير عندما أخبرته بما جرى: «هل أنت مجنون؟ لقد رفضت شقة في وسط سودير. رفضت شقة كانت، إضافة إلى كل شيء آخر، رخيصة الإيجار لأنك تظن أن امرأة لا تعرفها معرفة حقيقية يمكن أن تشعر بأنك تلاحقها خفية؟ هل تدرك كم سنة أنفقتُ في محاولة العثور على شقة في مركز المدينة؟ هل تعرف مدى صعوبة ذلك؟ إنه شيء مستحيل! ثم يأتيك هذا الحظ النادر فتحصل على شقة، ثم على شقة أخرى، ثم تقول لا!».

قلت له: «هكذا هو الوضع الآن على أي حال. هل من المناسب أن أزوركما من حين لآخر؟ صرت أحس الآن أنكما أسرة لي، بعض الشيء. من الممكن أن أزوركم لنتناول الغداء معًا أيام الأحد!».

«إن لدي الإحساس نفسه، بصرف النظر الآن عن أننا في يوم الاثنين. لكنني أجد صعوبة في تقبل فكرة علاقة الأب والابن هذه. هذا يعني أنها ستكون شيئًا يشبه العلاقة بين القيصر وبروتس».

«من منا قيصر؟».

«لا تطرح هذه الأسئلة الغبية. ستطعنني في ظهري، عاجلًا أو آجلًا. لكن تعال. يمكننا متابعة الكلام في البيت».

أكلنا، ثم خرجت إلى الشرفة الصغيرة لأدخن وأشرب القهوة. انضم غيير إليّ وتحدثنا عن وجهة النظر النسبية التي يتخذها كل منا تجاه العالم، وكيف يتغيّر العالم عندما تتغيّر الثقافة لكن كل شيء يكون دائمًا على نحو يجعلك غير قادر على رؤية ما هو في الخارج، وبالتالي، فإن هذا الخارج لا يكون موجودًا سواء كانت هذه النظرة آتية من حقيقة أننا ذهبنا إلى الجامعة تمامًا عندما كان ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة في أوجهما، عندما كان الكل يقرأ فوكو ودريدا؛ أو أن العالم كان يتغيّر فعلًا لكننا كنا ننكر النظرة الثابتة غير النسبية. حدّثني غيير عن واحد من معارفه صار يرفض أي كلام معه بعد مناقشة بينهما في مسألة الحقيقي والمطلق. كنت أجد غرابة في الكلام الكثير عن هذا الأمر، لكني لم أقل شيئًا. سألته: هل ندخل الآن؟

صببت لنفسي فنجان قهوة جديد وسألت غيير إن كنت أستطيع استخدام الهاتف.

أجابني: «بالطبع. مع من تريد الاتصال؟».

«مع ليندا، أنت تعرف ذلك الـ...».

«نعم، نعم، نعم. المرأة التي رفضتَ استئجار شقة في بنايتها».

أدخلت الرقم. لعلها كانت المرة الخامسة عشر. فوجئت بأنها أجابت هذه المرة.

قالت: «ليندا تتكلم».

قلت: «أوه، مرحبًا. اسمي كارل أوفه كناوسغارد».

قالت لي: «مرحبًا! هل تتصل بي؟».

«نعم. إنني في ستوكهولم».

«هل أنت في ستوكهولم حقًا؟ في عطلة؟».

«الحقيقة... لست واثقًا من الأمر تمامًا. كنت أفكر في العيش هنا بعض الوقت».

«صحيح؟ شيء جميل!».

«نعم. مضى وجودي هنا بضعة أسابيع. حاولت الاتصال بك، لكني لم أتلق أي إجابة».

«صحيح؛ لقد كنت مسافرة. كنت في فيسبي. كنت أكتب هناك».

«يبدو هذا جيدًا».

«نعم، كان شيئًا عظيمًا. لم أنجز الكثير، لكن...».

أجبتها: «نعم، نعم».

أعقب ذلك صمت قصير.

«ليندا، أتساءل... إن كنت مهتمة بأن نتناول القهوة معًا ذات يوم».

«يسرني هذا كثيرًا. وأنا باقية هنا في المدى المنظور».

«ربما غدًا؟ هل لديك وقت غدًا؟».

«نعم، ربما قبل الظهر».

«ممتاز».

«أين تعيش؟».

«عند حديقة نيتورغيت».

«عظيم! إذن، هل يمكن أن نلتقي هناك؟ هل تعرف محل البيتزا، عند الزاوية؟ هنالك مقهى في الجهة المقابلة. ما رأيك أن نلتقي في ذلك المقهى؟».

«اتفقنا. ما الوقت المناسب لك؟ الحادية عشرة؟ الثانية عشرة؟».

«الثانية عشرة».

«عظيم. أراك هناك في الساعة الثانية عشرة!».

«نعم. إلى اللقاء».

«إلى اللقاء».

أغلقت الهاتف وذهبت لأرى غيير الذي كان جالسًا على الأريكة حاملًا فنجانه في يده. كان ينظر إليّ. قال: «إذن؟ هل علقت الصنارة أخيرًا؟».

«نعم، سوف أراها غدًا».

«جيد! سأمر عليك في المساء لكي تخبرني بالأمر كله».

ذهبت إلى المكان المتفق عليه قبل ساعة من موعدي معها، وأخذت معي مخطوطًا يجب أن أكتب تقريرًا عنه. إنه مخطوط الرواية الجديدة لكريستينه نايس. جلست، وبدأت العمل، كانت تتخللني رجفات ترقّب صغيرة كلما فكرت فيها. ليس هذا لأن عندي نوايا تجاهها فقد حذفت هذا الأمر منذ زمن بعيد... كان ذلك نوعًا من ترقب المجهول... كيف ستجري الأمور بيننا!

رأيتها حالما قفزت عن دراجتها خارج المقهى. أدخلتْ عجلة الدراجة الأمامية بين قضيبين من قضبان المكان المخصص لوقوف الدراجات، ثم أقفلت دراجتها ونظرت عبر واجهة المقهى. لعلها كانت تنظر إلى نفسها في الزجاج! فتحت الباب ودخلت. كان المكان مزدحمًا، لكنها رأتني على الفور وأتت في اتجاهي.

قالت: «مرحبًا».

قلت: «مرحبًا».

قالت: «سوف أذهب لأطلب لنفسي شيئًا أتناوله. هل تريد شيئًا؟».

قلت: «لا. شكرًا لك».

إنها الآن أكثر امتلاء مما كانت. كان هذا أول شيء لاحظته فيها. لقد اختفى ذلك النحول الصبياني.

وضعت يدها على طاولة البيع ومالت برأسها صوب العامل الواقف خلف آلة القهوة التي تصدر هسيسًا. أحسست بفراغ في أعلى معدتي.

أشعلت سيجارة.

عادت، ووضعت فنجان الشاي على الطاولة، ثم جلست.

قالت لي من جديد: «مرحبًا».

قلت: «مرحبًا».

كانت عيناها خضراوين رماديتين قليلًا. أذكر أنهما كان يمكن أن تتسعا فجأة من غير أي سبب ظاهر.

حملت الفنجان إلى شفتيها ونفخت على سطح السائل.
قلت: «لقد مر زمن طويل. هل تسير أحوالك جيدًا؟».
أخذت رشفة صغيرة من شايها ووضعت الفنجان على الطاولة.
قالت: «نعم. أحوالي جيدة. لقد ذهبت إلى البرازيل منذ وقت وجيز مع صديقة لي. ثم عدت وذهبت إلى فيسبي بعد ذلك مباشرة. الحقيقة أنني لست موجودة هنا بكل معنى الكلمة حتى الآن».
«لكنك تكتبين، أليس كذلك؟».
كشرت قليلًا وأطرقت برأسها. قالت: «إنني أحاول الكتابة. وماذا عنك؟».
«أفعل مثلما تفعلين. إنني أحاول».
ابتسمت: «هل كنت جادًا عندما قلت لي إنك ستعيش في ستوكهولم؟».
رفعت كتفي: «لبعض الوقت، على أي حال».
قالت: «هذا شيء لطيف. هذا يعني أننا نستطيع أن نلتقي. أقصد أن نقوم بشيء ما معًا».
«صحيح».
«هل تعرف هنا أحدًا غيري؟».
«أعرف شخصًا واحدًا فقط. اسمه غيير. وهو نرويجي. لا أعرف أحدًا غيركما».
«أنت تعرف ميريا قليلًا، أليس كذلك؟ أقصد أنك تعرفها من أيام تلك الدورة في بيسكوبس آرنو».
«أوه، إنها معرفة بسيطة جدًا. بالمناسبة، كيف حالها؟».
«أظن أنها بخير».
مرت بضع لحظات لم نقل فيها شيئًا.
كان هنالك الكثير مما لا نستطيع الحديث عنه. كانت هنالك مواضيع كثيرة لا نستطيع تناولها. لكننا جالسان هنا الآن، وعلينا أن نتحدث عن شيء ما.

قلت لها: «كانت قصتك القصيرة التي نشرتها فاغانت جيدة جدًا. كانت جيدة جدًا في الحقيقة».

ابتسمت وأسبلت عينيها. وقالت: «شكرًا لك».

كانت لغتها في تلك القصة متفجرة إلى حد لا يصدق. نعم، كانت جميلة جدًا. كانت مثل... أوه، يصعب الحديث عن هذا، لكنها... كانت مخدِّرة... أظن أنني كنت أحاول قول تلك الكلمة.

لا تزال عيناها تنظران إلى الأسفل.

«هل تكتبين قصصًا قصيرة الآن؟».

«نعم، أظنني أكتب قصصًا قصيرة. إنه نثر على أي حال».

«همم، هذا جيد».

«وأنت ماذا تفعل؟».

«في الحقيقة... لا شيء. أحاول كتابة رواية منذ أربع سنوات، ولم أحسم أمري إلّا قبل سفري من النرويج».

صمت آخر. أشعلت سيجارة أخرى.

قلت لها: «يسعدني أن أراك من جديد».

قالت: «وأنا سعيدة برؤيتك أيضًا».

قلت لها وأنا أشير إلى كومة الأوراق على الأريكة إلى جانبي: «كنت أقرأ مخطوطًا قبل مجيئك. إنه لكريستينه نايس، هل تعرفينها؟».

«نعم، أعرفها. لم أقرأ شيئًا لها، لكنها كانت في بيسكوبس آرنو مع كاتبين آخرين عندما كنا هناك».

قلت: «هل هذا صحيح؟ أمر غريب! هل تعرفين أنها كتبت عن بسكوبس آرنو. كتبت عن فتاة نرويجية ذهبت إلى هناك».

بحق الجحيم، ما الذي أفعله الآن؟ بأي شيء أهذي؟

ابتسمت ليندا.

قالت: «لا أقرأ كثيرًا. حتى إنني لا أعرف إن كنتُ كاتبة حقيقية».

«أنت كاتبة بالطبع!».

«لكني أستطيع أن أتذكر كتّابًا من النرويج. أظنهم كانوا طموحين إلى حد لا يصدق، ذينك الرجلان خاصة. كانا يعرفان الكثير عن الأدب».

«هل تذكرين اسمَيْ هذين الرجلين؟».

أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت: «كان اسم أحدهما توره، أنا وثقة من هذا. كانا من فاغانت».

قلت: «أوه، هذان هما إذًا، توره رينبيرغ وإسبن ستويلاند. أذكر أنهما ذهبا إلى بيسكوبس آرنو».

«نعم، هذان هما».

«إنهما من أعز أصدقائي».

«حقًا؟».

«نعم، لكنهما يتقاتلان مثلما تتقاتل القطط والكلاب. ما عاد ممكنًا جمعهما في غرفة واحدة».

«هل يعني هذا أنك تعرفهما بشكل منفصل الآن؟».

«صحيح، يمكنك قول هذا».

قالت: «لقد أعجبتُ بك أيضًا».

«أنا؟».

«نعم، ظل إنغمار ليمهاغن يتحدث عن كتابك زمنًا طويلًا قبل وصولكَ. لم يكن يريد الحديث عن شيء آخر عندما كنا هناك».

صمت من جديد.

نهضت وذهبت إلى الحمام.

قلت في نفسي إنني معدوم الرجاء. ما هذه الأشياء الغبية التي أقولها؟ لكن، ماذا يمكن أن أقول غير هذه الأشياء؟

حقًا... ما الذي يقوله الناس عندما يلتقون؟

ظلت آلة القهوة تصدر قرقعتها وهسيسها. تشكلَ صف طويل من أشخاص توحي حركاتهم بنفاد صبر عند البار. كان الجو رماديًا في الخارج. وكان عشب الحديقة في الأسفل رطبًا مصفرًا.

عادت ليندا وجلست.

«ماذا تفعل خلال النهار؟ هل صرت تعرف المدينة؟».

هززت رأسي: «صرت أعرفها قليلًا فقط. لا... إنني أكتب. وأذهب أيضًا إلى بركة السباحة في ميدبورغاربلاتسين. أذهب كل يوم لأسبح».

«حقًا؟ إنني أسبح هناك أيضًا. لا أذهب كل يوم، لكني أذهب كثيرًا».

ابتسم كل منا للآخر.

مددت يدي إلى هاتفي لأنظر إلى الساعة.

قلت لها: «أخشى أن عليّ الذهاب الآن».

أومأت برأسها: «لكننا يمكن أن نلتقي من جديد، أليس كذلك؟».

«نعم، نستطيع اللقاء، متى؟».

رفعت كتفيها. ثم قالت: «يمكنكَ الاتصال بي، ما رأيك؟».

«نعم».

وضعت المخطوط والهاتف في حقيبتي، ثم نهضت قائلًا لها: «اتفقنا. سأتصل بك. لقد أسعدتني رؤيتك من جديد».

قالت بالسويدية: «هي دا»... إلى اللقاء.

سرت في الشارع بخطا واسعة حاملًا حقيبتي بيدي. سرت حتى نهاية الحديقة ودخلت الجادة العريضة حيث كانت شقتي المؤقتة. لم يتغير شيء، لم نغير شيئًا! عندما افترقنا، ظل كل شيء مثلما كان عندما التقينا. لكن، ما الذي كنت أتوقعه؟

لن نصل إلى أي مكان.

نسيت أيضًا أن أسألها عن الشقق. لم أطلب منها أي أرقام هاتف. لا شيء.

إنني بدين أيضًا!

بعد وصولي إلى البيت، استلقيت على السرير المائي ورحت أنظر إلى السقف. لقد كانت ليندا مختلفة تمامًا. بدت لي كأنها شخص مختلف.

أظن أن تصميمها على المضي قدُمًا كان أبرز ملامح شخصيتها خلال

الفترة التي أمضتها في بيسكوبس آرنو، تصميمها على المضي بقدر ما يتطلب الأمر. هذا ما أحسسته على الفور، وهذا ما جذبني كثيرًا. لقد اختفى الآن! اختفت أيضًا القسوة التي تكاد تصل حد التهور رغم أنها تظل سهلة الكسر كالزجاج. لا يزال فيها شيء هش، لكن بطريقة مختلفة. لم أكن أظن أنها قابلة للكسر أو التحطم هذه المرة، لم تعد مثلما كانت. لقد أضيف إلى هشاشتها الآن قدر من الطراوة، قدر من الرقة؛ كما تغير فيها الجانب اللامبالي أيضًا، ذلك الجانب الذي يقول إن لا أمل لك في الاقتراب منها كثيرًا. إنها خجولة، لكنها منفتحة أيضًا، على نحو ما. أليس فيها شيء يوحي بهذا الانفتاح؟

خلال الخريف الذي أمضيناه في بيسكوبس آرنو، كانت لها علاقة مع آرفه، ومن خلاله سمعت ما جرى لها في الشتاء والربيع اللذين أعقبا ذلك الخريف. لقد مرت بمرحلة من الاكتئاب الوسواسي، ودخلت مستشفى للأمراض النفسية. كان هذا كل ما عرفته عنها. لقد اتصلت بي مرتين خلال فترة مرضها لتسألني إن كنت أستطيع الوصول إلى آرفه. حاولت ذلك، في المرتين، وطلبت من أصدقائه إخباره بأن عليه أن يتصل بي. وعندما اتصل كانت خيبة أمله واضحة لأنه اكتشف أن تلك محاولة من ليندا للاتصال به. وفي مرة أخرى، اتصلتْ حتى تتحدث معي فقط. كان ذلك في الساعة السادسة صباحًا. قالت لي إنها موشكة على بدء دورة في الكتابة الإبداعية وإنها ستسافر إلى غوتنبرغ بعد ساعة. كانت تونجه مستيقظة في غرفة النوم متسائلة عمن يكون ذلك المجنون الذي يتصل في هذا الوقت. قلت لها إنها ليندا، الفتاة السويدية التي التقيتها... تلك التي على علاقة مع آرفة.

سألتني تونجه: «لماذا تتصل بك؟».

قلت لها: «لا فكرة عندي. أظن أنها تمر بحالة من الاكتئاب».

لم نكن قادرين على الحديث في أي شيء من هذا.

وإذا كنا غير قادرين على الحديث في أي شيء من هذا، فإننا ما كنا قادرين على الحديث في أي شيء.

ما الغاية من الجلوس هنا والقول مرحبًا، مرحبًا، همم، همم، كيف حالك؟

أغمضت عينيَّ وحاولت تصورها.

هل كنت أحس شيئًا نحوها؟

لا.

أو بالأحرى نعم... كانت تعجبني، ولعلي أحسست شيئًا من الرقة نحوها بعد كل ما جرى، لكن الأمر لا يتعدى هذا. لقد وضعت البقية خلف ظهري، صارت خلف ظهري بالتأكيد.

هكذا أفضل!

نهضت ووضعت في الحقيبة سروال السباحة ومنشفة وعلبة الشامبو، ثم لبست سترتي وسرت إلى ميدبورغاربلاتسن ودخلت حمامات فورسيغرينسكا التي تكون شبه خالية في هذا الوقت من النهار. بدلت ملابسي ودخلت صالة بركة السباحة. صعدت إلى لوح القفز، ثم قفزت في الماء. سبحت ألف متر تحت ضوء آذار الشاحب الآتي عبر النافذة الضخمة في نهاية الصالة. سبحت جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا، فوق الماء وتحت الماء، من غير تفكير في أي شيء غير عدد الأمتار وعدد الدقائق. كنت أحاول ضبط حركات السباحة بأفضل شكل أستطيعه.

ذهبت إلى قسم الساونا بعد ذلك وفكرت هناك في الوقت الذي أمضيته في محاولة كتابة قصص قصيرة قائمة على أفكار صغيرة كفكرة الرجل ذي الساق الاصطناعية في غرفة تبديل الملابس في حوض للسباحة. ما كنت أعرف في أي شيء أفكر، ولا لماذا أفكر في هذا، ولا كيف!

كيف كانت تلك الفكرة الكبيرة؟

... رجل مشدود الوثاق إلى كرسي في غرفة، في شقة، في مكان ما في بيرغن، ثم تطلَق النار على رأسه آخر الأمر، ويموت، لكنه يظل حيًا في النص، يظل ذاتًا واعية ترافق جنازته ودفنه.

إشارات وإيماءات... هذا ما كنت أفعله، هذا ما كنت أفعله زمنًا طويلًا.

مسحت العرق عن وجهي بالمنشفة ونظرت إلى طيات الدهن على بطني. شاحب اللون، سمين، وغبي أيضًا.

لكني في ستوكهولم!

نهضت وذهبت إلى الدوش فوقفت تحت تيار الماء.

ما كنت أعرف أحد هنا. لقد كنت حرًا تمامًا.

إن تركت تونجه، وإن كان هذا هو السبيل الذي سأتخذه، فإنني قادر على البقاء هنا شهرًا أو اثنين، أو الصيف كله، وبعد ذلك أذهب إلى... إلى... أذهب إلى حيث أحب الذهاب. بونس آيرس، أوسلو، طوكيو. أذهب إلى جنوب أفريقيا وأسافر بالقطار إلى بحيرة فكتوريا. أو أذهب إلى موسكو، لم لا؟ سيكون هذا شيئًا رائعًا.

أغمضت عيني وغسلت شعري بالشامبو. غسلت رأسي بالماء، ودخلت غرفة تبديل الملابس، ففتحت خزانتي وارتديت ملابسي.

إنني حر إن أردت ذلك.

لست مضطرًا إلى الكتابة بعد الآن.

وضعت المنشفة وسروال السباحة الرطب في الحقيبة، وخرجت إلى النهار الرمادي البارد. ذهبت إلى سالوهالن، إلى صالة المطاعم حيث أكلت لفافة من خبز تشياباتا. أكلتها واقفًا، مستندًا إلى الطاولة. عدت إلى البيت وحاولت الكتابة قليلًا. كنت آمل في وصول غيير مبكرًا بعض الشيء. استلقيت في الفراش ورحت أنظر إلى التلفزيون... مسلسل أميركي... غفوت.

كان الظلام قد حل في الخارج عندما استيقظت. وكان هنالك من يدق الباب. فتحت. إنه غيير. تصافحنا.

قال لي: «حسنٌ... كيف سارت الأمور؟».

قلت له: «جيدة. أين نذهب؟».

بدلًا من الإجابة، رفع غيير كتفيه وهو يتجول في الغرفة وينظر إلى التحف والتزيينات التي فيها. توقف أمام رفوف الكتب ثم استدار وقال لي: «أليس

غريبًا أنك تجد الكتب نفسها في كل مكان تذهب إليه. أعني أن هذه الفتاة في الخامسة والعشرين تقريبًا، أليس كذلك؟ وهي تعمل في أوردفرونت، وتعيش في سودير. لكن لديها هذه الكتب تحديدًا، لا أي كتب أخرى».

أجبته: «صحيح، غريب جدًا! أين نذهب؟ غولداباان؟ كفارنين؟ بيليكان؟».

«لن نذهب إلى كفارنين على أي حال، ربما نذهب إلى غولداباان. هل أنت جائع؟».

أومأت برأسي.

«فلنذهب إليه. طعامهم ليس سيئًا. لديهم دجاج جيد».

صرنا في الخارج. أحسست أن تساقط الثلج يمكن أن يبدأ في أي لحظة. طقس بارد، شديد البرودة، رطب.

قال لي غيير أثناء سيرنا: «هيا الآن! قل لي! كان الوضع جيدًا... بأي طريقة؟».

«التقينا، وتحدثنا، وافترقنا. هكذا جرى الأمر».

«هل كانت مثلما تتذكرها؟».

«في الحقيقة... لعلها كانت مختلفة بعض الشيء».

«مختلفة، كيف؟».

«كم مرة ستكرر عليَّ هذا السؤال؟».

«إني أعنيه حقًا. ماذا أحسست عندما رأيتها؟».

«أقل مما ظننت أنني سأحسه».

«لماذا؟».

«لماذا؟ أي سؤال غبي هذا؟ كيف لي أن أعرف؟ أحس ما أحسه! ليس ممكنًا تحديد كل تموّج صغير في الروح... إن كنت تظن ذلك أمرًا ممكنًا».

«أليس هذا هو مصدر عيشك؟».

«لا! إنني أكسب عيشي من خلال المواقف المحرجة التي أوضع فيها. هذا شيء مختلف».

قال: «أفهم من كلامك أنه كانت هناك تموّجات؟».
قلت له: «وصلنا. سوف نأكل، أليس هذا ما قلته؟».
فتحت الباب، ودخلنا المطعم. كان البار في الصالة الأولى، أما الطعام فكان في الصالة الثانية.
قال غيير وهو يسير فيتقدمني: «لم لا؟».
تبعته. جلسنا. قرأنا قائمة الطعام. وعندما جاء النادل، طلبنا دجاجًا وبيرة.
سألته: «هل أخبرتك أنني كنت في هذا المطعم مع آرفه؟».
«لا».
«عندما جئنا إلى ستوكهولم، انتهى بنا المطاف إلى هذا المطعم. في الحقيقة، ذهبنا أول الأمر إلى ما أظن أنه يجب أن يكون ستوردلاند. دخل آرفه وسألهم إن كانوا يعرفون المكان الذي يشرب فيه الكتّاب في ستوكهولم. ضحكوا من سؤاله ثم أجابوه بالإنكليزية. وهكذا تجولنا في الشوارع بعض الوقت. كان ذلك فظيعًا لأنني أحترم آرفه في الحقيقة فهو مثقف عمل في فاغانت منذ تأسيسها، ثم التقينا في المطار ووجدت نفسي عاجزًا عن قول كلمة واحدة. التقينا هكذا، فجأة. حطت طائرتنا في مطار آرلاندا، ولم أستطِع قول شيء. جئنا إلى ستوكهولم ووجدنا مكان الإقامة، ولم أقل شيئًا. خرجنا لنأكل أيضًا. لم أقل أي كلمة. كنت أعرف أن فرصتي الوحيدة هي أن أشرب حتى أستطيع تجاوز الحاجز الصوتي. هذا ما فعلته. شربت بيرة في دروتنينغاتان حيث سألنا أحد الأشخاص عن مكان مناسب للسهر فقال لنا أن نذهب إلى سودير، إلى مطعم غولدابان. وهكذا أخذنا تاكسي وأتينا إلى هذا المكان. شربت أنواعًا من الكحول، ثم بدأت أتفتح. بضع كلمات هنا، وبضع كلمات هناك. مال آرفه في اتجاهي وقال لي: تلك الفتاة تنظر. هل تريد أن أذهب حتى تكون وحدك معها؟ سألته: أي فتاة؟ قال: تلك! نظرت إليها و... أوه، لقد كانت جميلة! لكن عرض آرفه هو ما ترك في نفسي أكبر الأثر. ألم يكن ذلك غريبًا بعض الشيء؟».
«نعم؛ غريب فعلًا».

«لقد سكرنا. وهكذا ما عادت هنالك حاجة إلى الكلام. تجوّلنا في هذه الشوارع. بدأ ضوء النهار يظهر، وما كان رأسي قادرًا على التفكير في شيء. وعند ذلك وجدنا مشربًا للبيرة، فدخلنا. كان الجو رائعًا هناك. فقدت صوابي، ورحت أشرب البيرة سريعًا بينما جلس آرفه يحدّثني عن طفله. بدأ يبكي فجأة. لم أكن مصغيًا إليه. ثم وجدته هكذا، وجدته باكيًا. وضع يديه على وجهه وراح كتفاه يرتجفان. كان يبكي بشدة، وكانت أفكار تجري في مكان عميق في داخلي. ثم حان وقت إغلاق المحل، فأخذنا تاكسي إلى مكان ما، إلى مكان آخر، لكنهم لم يسمحوا لنا بالدخول. وجدنا حديقة كبيرة مفتوحة في آخرها بعض الأكشاك. لعلها كانت كونغسترادغاردن! من الممكن تمامًا أن تكون هي. كان فيها بعض الكراسي المثبتة بجنازير. بدأنا نرفع الكراسي فوق رؤوسنا ونرمي بها إلى الجدار. فقدنا عقلينا تمامًا. غريب أن الشرطة لم تأتِ!... لكنها لم تأتِ! وهكذا أخذنا سيارة تاكسي إلى مكان إقامتنا. استيقظنا بعد مرور ساعتين على موعد القطار. لكننا لم نهتم بذلك أبدًا... قررنا أن هذا لا أهمية له. ذهبنا إلى المحطة، وأخذنا القطار التالي. تكلّمت طيلة طريق العودة. كنت غير قادر عن التوقف عن الكلام. كان ذلك كأن كل ما كان في داخلي طيلة السنة الماضية قد بدأ يخرج الآن. كان في آرفه شيء جعل ذلك ممكنًا. لا أعرف ما كانه ذلك الشيء، أو لا أعرف ما هو. إن فيه نوعًا من التسامح الهائل. استمع إلى قصصي كلها. موت أبي. والجحيم الذي عشته آنذاك، وروايتي الأولى، وكل ما جاء معها، ثم تابعت الكلام بعد أن أخبرته عن هذا كله. أتذكر كيف وقفنا ننتظر التاكسي عند المحطة. ما كان أحد من حولنا. أنا وآرفه وحدنا، هو ينظر إليّ، وأنا أتكلم وأتكلم. الطفولة، وسنوات المراهقة، لم أترك حجرًا لم أقلبه. تحدثت عن نفسي فقط، لا شيء آخر. أنا، أنا، أنا. قذفته بذلك كله. هنالك شيء في آرفه جعل هذا أمرًا ممكنًا. كان يفهم كل ما أقوله وكل ما أفكر فيه. لم يسبق لي أبدًا أن عشت هذه الحالة مع أي شخص آخر. كانت هنالك حدود دائمًا، وكانت هنالك آراء وحاجات توقف ما يُقال، توقفه عند نقطة معينة، أو تقوده

في اتجاه معين. هذا يعني أن كل ما تقوله يكون متخذًا دائمًا صيغة شيء آخر ولا يستطيع أبدًا أن يكون موجودًا وحده. أما آرفه فقد بدا لي في ذلك اليوم شخصًا منفتحًا حقًا إضافة إلى ما لديه فضول وحب استماع وإلى سعيه المستمر إلى فهم ما يراه. وما كان هنالك دافع خفي وراء انفتاحه هذا. لم يكن في ذلك ما يشبه انفتاح اختصاصي نفسي كريه ما، ولا كان في فضوله أي دافع مريب. كانت له عين ذكية تنظر إلى العالم، هذا ما بدا لي؛ وعلى غرار كل الذين راكموا خبرة، لم يكن باقيًا لديه شيء غير الضحك. حقًا، كان الضحك الطريقة المناسبة الوحيدة لمواجهة سلوك الإنسان وأفكاره».

كنت أفهم ذلك. وقد كان يخيفني رغم أنني كنت أستفيد منه أيضًا وما كنت قويًا إلى الحد الكافي لأن أستطيع مقاومة هذا الانفتاح المقدم لي كله.

كان يعرف شيئًا لا أعرفه، وكان يفهم شيئًا لا أفهمه، وكان يرى شيئًا لا أراه.

قلت له هذا.

ابتسم وقال لي: «إنني في الأربعين يا كارل أوفه. أما أنت في الثلاثين. هذا فارق كبير. هذا هو الشيء الذي لاحظته».

قلت: «لا أظن هذا. لأن هنالك شيئًا آخر. إن لديك نوعًا من التبصّر في داخل الأشياء؛ وهو ليس موجودًا عندي».

«أخبرني المزيد! أخبرني المزيد!».

قال هذا وضحك.

كان حضوره.. كانت هالته متمركزة من حول عينيه القاتمتين الحادتين، أما هو نفسه فما كان قاتمًا. كان يضحك كثيرًا، وما كانت الابتسامة تفارق شفتيه المعوجّتين قليلًا. كانت هالته قوية. إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذي تلاحظ حضوره دائمًا، لكنه ليس حضورًا جسديًا لأنك لا تكاد تلاحظ جسده الرشيق الخفيف. أنا لم أكن ألاحظه، على الأقل. آرفه... كان حليق الرأس، داكن العينين، وكان صاحب ابتسامة دائمة وضحكة من القلب. كانت مناقشته تؤدي دائمًا (في نظري) إلى نتائج غير متوقعة. وكانت

حقيقة أنه انفتح هكذا من أجلي أكثر من كل ما كنت آمل فيه. فجأة، صرت قادرًا على قول كل شيء كتمته في صدري طيلة هذه المدة، بل وأكثر من ذلك. الآن، صارت حججي كلها سائرة في دروب أستطيع توقّعها. وكان الإحساس الناتج عن ذلك شيئًا يشبه الأمل. قد أكون كاتبًا آخر المطاف. لقد كان آرفه كاتبًا. لكن، أنا؟ أنا، بكل اعتياديتي؟ أنا، بحياتي التي ما كان فيها غير كرة القدم والأفلام؟

كم ثرثرت وثرثرت!

وصلت سيارة التاكسي ففتحت صندوقها وأنا مستمر في الثرثرة... أثر السكر، وأسوأ منه أثر التعب... وضعنا حقيبتينا وركبنا السيارة. ثرثرت طيلة الطريق عبر الريف السويدي حتى وصلنا إلى بيسكوبس آرنو حيث كانت الدورة قد بدأت منذ وقت.

عندما وصلنا، وجدناهم قد انتهوا من تناول طعام الغداء.

سألني غيير: «وهل استمر الأمر هكذا؟».

قلت: «استمر الأمر هكذا».

تقدّم منا رجل وعرّفنا بنفسه: إنغمار ليمهاغن. إنه مدير الدورة. قال لي إنه استمتع بقراءة كتابي. وقال إن الكتاب ذكّره بكاتب نرويجي آخر. سألته: «من هو؟» لكنه ابتسم ابتسامة فيها شيء من السخرية وقال إن عليّ أن أنتظر إلى أن يأتي وقت الحديث عن كتابي في الجلسة العامة.

بدأت أحاول التخمين... لا بد أن كتابي ذكره بآغنار مايكله أو فين آلاناس.

وضعت حقائبي في الخارج ودخلت صالة المطعم فوضعت شيئًا من الطعام في صحن ثم التهمته. كان كل شيء يترنح من حولي. لا أزال ثملًا، لكن ليس إلى الحد الذي يجعلني لا أحس بأن صدري على وشك الانفجار لشدة إثارتي وسعادتي بأنني موجود هنا.

أرشدوني إلى غرفتي، فوضعت فيها أمتعتي وذهبت إلى المبنى الذي تُقام فيه الدورة. عند ذلك رأيتها. كانت مستندة إلى الجدار. لم أقل لها

شيئًا. كان من حولنا أشخاص كثر، لكني نظرت إليها فأحسست أن فيها شيئًا أريده. كان هذا الإحساس حاضرًا منذ لحظة رؤيتها.

كأنه انفجار!

وضعونا في المجموعة نفسها. لم تقل قائدة المجموعة (كانت امرأة فنلندية) شيئًا عندما اتخذنا أماكننا. كانت تستخدم نوعًا من حيلة تعليمية لم تنطلِ على أحد. ظل الجميع في حالة صمت خلال الدقائق الخمس الأولى إلى أن صار الصمت مزعجًا إلى حد جعل أحدهم يبادر إلى الكلام.

كنت مدركًا لوجودها طيلة الوقت... ما قالته، وكيف تكلمت... لكنه حضورها أكثر من أي شيء آخر، حضور جسدها في الغرفة.

لست أدري لماذا! لعل الحالة التي كنت فيها جعلتني أكثر قابلية لأن أستجيب لما كان لديها أو للشخص الذي كانته.

قدمت نفسها أمام الحاضرين. ليندا بوستروم. كان عملها الأول مجموعة شعرية حملت عنوان «اجعلني مسرورة بالجرح». تعيش في ستوكهولم. عمرها خمسة وعشرون عامًا.

استمرت الدورة خمسة أيام. كنت أدور حولها طيلة الوقت. كنت أسكر في الأمسيات، أسكر إلى أقصى ما أستطيع؛ ولا أنام إلّا لمامًا. في إحدى الليالي، تبعت آرفه إلى قبو أشبه بالسرداب. وهناك رقص آرفه كثيرًا. كان التواصل معه مستحيلًا. وعندما ذهب، أدركت أنه كان في مكان لا وصول إليه. بكيت. رآني. قال لي: أنت تبكي! قلت: نعم. قال: لكنك ستنسى عندما يأتي الغد. في إحدى الليالي لم أنم لحظة واحدة. وعندما أوى آخر الساهرين إلى الفراش في الساعة السابعة صباحًا، خرجت وسرت في الغابة طويلًا. أشرقت الشمس، وعَلتْ، ورأيت غزالًا يقفز بين أشجار متساقطة. كنت سعيدًا على نحو غامض، ولم أتبيّن السبب. كان ما كتبته خلال فترة الدورة جيدًا على نحو غير معتاد كما لو أن فيّ لمسة من الربيع، كأن شيئًا امتلكني بأكملي واستولى عليّ لكنه غفر لي اندفاعاتي وكثرة كلامي فعدت نظيفًا نقيًا. أو لعل الفرحة الدافقة هي ما جعلني أخطئ تفسير ما أصابني.

كانت لنا دروس مشتركة. وكنت أجلس خلف ليندا. سألتني إن كنت أذكر ذلك المشهد في «عداء السيف» حيث يخبو الضوء في النافذة. قلت لها إنني أذكره، وقلت إن لحظة التفات البومة هي أجمل لحظة في الفيلم كله. نظرت إليّ. كانت نظرة استفهام، لا نظرة فهم. مضى مديرو الدورة عبر النصوص التي كتبناها. وصلوا إلى نصي. بدأ ليمهاغن يتحدث عنه فكان الأمر كما لو أن ما قاله راح يعلو ويعلو. لم أسمع أحدًا من قبل يتحدث عن نص بتلك الطريقة؛ لم أسمع أحدًا يرفع ما كان الجوهر العاري للنص... لم يتناول الشخصيات ولا المواضيع ولا ما كان مرئيًا على السطح: كان يتعامل مع المجاز ومع الوظيفة الخفية التي أداها فجمع كل شيء معًا ووحّد العناصر كلها على نحو يكاد يكون عضويًا. ما كنت أعرف أبدًا أنني فعلت هذا، لكني عرفته بعد أن قاله. عندي... كان ذلك أشجارًا وأوراقًا وعشبًا وغيومًا وشمسًا متوهّجة، كان ذلك كله، فهمت كل شيء في هذا الضوء، وفهمت التفسير الذي قدّمه ليمهاغن.

نظر إليّ وقال: «إن هذا النص يذكّرني، أكثر من أي شيء آخر، بنثر تور أولفين. هل قرأت أعماله يا كارل أوفه».

أومأت برأسي، ثم أطرقت إلى الأرض.

ما كنت أريد أن يرى أحد كيف غلى الدم في عروقي، كيف صدحت الأبواق وانطلق الفرسان يرمحون في داخلي. تور أولفين!... إنها الذروة.

أوه، لكني كنت أعرف أنه مخطئ، كنت أعرف أنه يبالغ. إنه سويدي، وأغلب الظن أنه لا يفهم جيدًا بعض النقاط الدقيقة في اللغة النرويجية. ولكن مجرد ذكر اسم أولفين... ألم يكن هذا يعني أنني بذرة كاتب روائي؟ أما كان هذا يعني أن في كتابتي شيء يشبه نبرة تور أولفين؟

كان دمي يزأر، وتدفّق فرحي بنفسي جاريًا في قنواتي العصبية.

أطرقت برأسي وتمنيت، تمنيت بشدة، أن يكف عن الكلام وأن ينتقل إلى الشخص التالي. استرخيت في مقعدي مرتاحًا عندما فعل ذلك.

في تلك الليلة، استمر الشرب في غرفتي، وقالت ليندا إننا نستطيع

التدخين إذا نزعنا جهاز إنذار الحريق. فعلت ما قالته ليندا، وشربنا، وعزفت أغنية «سمر تيث» لفرقة ويلكو، لكني رأيت أن ليندا لم تبدِ اهتمامًا بها. أريتها كتابًا عن مطبخ الرومان اشتريته خلال رحلتي إلى أوبسالا في اليوم السابق. كنت أرى أنه من الرائع أن يستطيع المرء أن يطبخ شيئًا مما كان يطبخه الرومان، لكنها لم توافقني على ذلك، بل على العكس تمامًا: استدارت مبتعدة عني من فورها وبحثت عيناها عن شيء آخر. بدأ الناس يذهبون إلى غرفهم. تمنيت ألّا تفعل ليندا مثلهم، لكنها ذهبت أيضًا، فمضيت إلى الغابة من جديد وتجوّلت فيها حتى السابعة. عندما عدت جاءني رجل غاضب يجري خلفي. صاح بي: «كناوسغارد! هل أنت كناوسغارد؟».

قلت: «نعم، أنا كناوسغارد».

توقف أمامي وبدأ يقرأ المخالفة التي سُجِّلت نتيجة شغبي: إنذار الحريق؛ شيء خطير؛ تصرف غير مسؤول. هكذا كان يصيح.

قلت له: «نعم، إنني آسف. لم أكن أفكر في شيء. إنني أعتذر».

وقف يحملق فيّ بدهشة. كان الغضب ملء عينيه. أما أنا فرحت أتمايل في وقفتي. كنت غير مبالٍ بالأمر أبدًا. ذهبت إلى غرفتي، ونمت ساعتين. عندما ذهبنا لتناول طعام الفطور، جاءني ليمهاغن واعتذر بشدة عما حدث: لقد بالغ المسؤول عن المكان كثيرًا ومضى أبعد مما يجوز؛ ولن يحدث ذلك مرة أخرى.

لم أفهم شيئًا. هل كان يعتذر مني؟ هو يعتذر مني؟

في نظري، كان ما حدث متناسبًا تمامًا مع الشخص الذي صرته خلال هذه الأيام: مراهقًا في السادسة عشرة. كانت مشاعري مشاعر شخص في السادسة عشرة، وكانت أفعالي أفعال شخص في السادسة عشرة. وفجأة، صرت غير واثق من نفسي مثلما لم أكن في يوم من الأيام أبدًا. اجتمع الكل في غرفة واحدة. كان علينا أن نقرأ نصوصنا واحدًا تلو الآخر. الفكرة من ذلك هي أن نشكل كلنا جوقة فيها أصوات منفردة يسمعها الجميع. أشار ليمهاغن إلى أحدهم، فبدأ ذلك الشخص يقرأ. ثم أشار في اتجاهي. نظرت إليه غير فاهم شيئًا.

سألته: «هل أبدأ القراءة؟ هل أقرأ وهو لا يزال يقرأ؟».

ضحك الجميع. احمرّ وجهي كثيرًا. لكني، مع استمرار قراءة الآخرين كنت قادرًا على سماع كم كان نصي جيدًا؛ بدأت أسمع كم كان نصي جيدًا حقًا... أفضل كثيرًا من نصوص الآخرين... نص له جذور ممتدة في أشياء مختلفة، أكثر أهمية.

عندما صرنا في الخارج، ورحنا نتحدث على هوانا، أخبرت آرفه بما شعرت به.

لم يقل آرفه شيئًا؛ ابتسم فقط.

كان شخصان أو ثلاثة أشخاص يقرأون نصوصهم كل مساء. وكنت أتوق إلى مجيء دوري لأن ليندا ستكون هناك وسوف أجعلها ترى من أنا. إنني أقرأ جيدًا، وعادة ما يصفق لي المستمعون، لكن ليس هذه المرة. بدأت أشك في نصي منذ الجملة الأولى. كان نصًا سخيفًا. أحسست أنني أصير أصغر، فأصغر، إلى أن جلست آخر الأمر وقد غرقت في خجلي. وبعدي، جاء دور آرفه.

حدث شيء ما عندما بدأ القراءة. أذهلنا جميعًا. لقد كان ساحرًا.

قالت لي ليندا بعد أن انتهى آرفه من القراءة: «كان هذا شيئًا لا يصدق!».

أومأت برأسي وابتسمت: «صحيح، إنه جيد حقًا».

خرجت غاضبًا، محبَطًا، يائسًا. أخذت بيرة وجلست على السلم خارج غرفتي. كنت أقول في نفسي: ليندا. اخرجي من الغرفة الآن وتعالي. هل تسمعين ما أقوله؟ اخرجي من الغرفة وتعالي. اتبعيني. إن فعلت ذلك، إذا جئت الآن، فأنا لك وأنتِ لي. هذا ما سوف يكون.

نظرت إلى الباب.

انفتح الباب.

كانت ليندا.

قفز قلبي في صدري.

إنها ليندا! إنها ليندا!

سارت عبر الساحة فارتجفت لشدة سعادتي.

ثم استدارت ومضت صوب بناية أخرى! رفعت يدها في اتجاهي، تحييني.

في الصباح التالي، ذهب الجميع إلى نزهة في الغابة. كنت إلى جانب ليندا، وكنا نسير جميعًا متتابعين في خط واحد، لكن الذين خلفنا تأخروا في السير فصرت وحدي معها في الغابة. كانت تعبث بورقة عشب طويلة في يدها وتلتفت صوبي من وقت لآخر، وتبتسم. كنت غير قادر على قول شيء. لا شيء أبدًا. كنت أنظر إلى الأرض، وكنت أنظر عبر الغابة، كنت أنظر إليها.

كانت عينيها تلتمعان. ما كان فيهما الآن أثر لتلك العينين الداكنتين العميقتين المغريتين؛ كانت كلها خفة وغنجًا، وكانت تفتل أوراق العشب بين أصابعها وتديرها مبتسمة، كانت تنظر إليّ ثم إلى الأرض.

ما هذا؟

ما معنى هذا؟

سألتها إن كانت تود أن نتبادل كتابَينا، فقالت نعم، بالطبع. جاءت وأنا مستلق على العشب أنظر إلى الغيوم. أعطتني كتابها. رأيت على الصفحة الأولى «بيسكوبس آرنو، ١/ ٦/ 1999، إلى كارل أوفه». جريت إلى غرفتي وأحضرت نسخة من كتابي. كان الإهداء مكتوبًا سلفًا. أعطيتها الكتاب. وبعد ذهابها، مضيت إلى غرفتي وجلست لأقرأ. كنت أتألم رغبة فيها أثناء قراءتي لكتابها. كانت كل كلمة فيه آتية منها، كانت كل كلمة هي.

في وسط هذا كله، في غمرة توقي الجارف إليها وارتدادي إلى المراهقة، كنت أرى كل شيء مختلفًا. كل النباتات التي تنمو، كنت أرى كم هي برية فوضوية لكني أرى أيضًا كم هي رشيقة وواضحة الأشكال. أثار هذا في داخلي نشوة مبتهجة... أشجار البلوط العتيقة، والريح تهب عبر كتل أوراقها الخضراء، والشمس، وسماء زرقاء لا تنتهي.

ما كنت أنام، وما كنت آكل إلّا قليلًا جدًا، وكنت أشرب كل ليلة.

ورغم ذلك كله، ما كنت متعبًا ولا جائعًا ولم أجد صعوبة في المشاركة في مجريات الدورة. استمرت أحاديثي مع آرفه من غير انقطاع. أعني أنني تابعت الكلام معه عن نفسي. ومع مرور الوقت، صار أكثر كلامي عن ليندا. لقد كان يراني، وكان يرى الآخرين في الدورة. ثم رحنا نتحدّث عن الأدب. تغيرت طريقتي في الكلام. كلما قضيت معه وقتًا أكثر صرت أكثر حرية في أفكاري. اعتبرت ذلك هبة أتتني. وبين الدروس، كنا نستلقي على العشب في الخارج وسط المباني، وكنا نتحدث. كان الآخرون هناك أيضًا. صرت أشعر بالغيرة منه لأنني رأيت أثر كلماته على الآخرين، ولأنني تمنيت أن يكون لي الأثر نفسه.

كنا جالسَيْن على العشب ذات مساء، وكنا نشرب ونتحدث مع الجميع. أخبرنا آرفه عن مقابلة أجراها مع سفين يارفول من أجل مجلة فاغانت، وأخبرنا كيف انفتح كل شيء أمامه في ذلك المساء عندما تحدثا معًا، وكيف كان كل ما قالاه واضحًا محددًا، وكيف أن ذلك فتح الطريق أمام شيء استثنائي.

حدثتهم عن المقابلة التي أجريتها مع رونه كريستيانسن من أجل فاغانت حيث حدث الأمر نفسه. كنت متوترًا قبل أن ألتقيه، وما كنت أعرف عن الشعر شيئًا، لكنني وجدت انفتاحًا رائعًا. بدأنا فجأة نتحدث عن كل ما كان الحديث عنه غير ممكن. أنهيت كلامي بالقول إنها كانت مقابلة جيدة حقًا.

ضحك آرفه.

كان يستطيع إزاحة كل ما أقوله جانبًا بأن يضحك فقط. كان الحاضرين جميعًا يعرفون أن آرفه على حق... كانت المرجعية كلها مجتمعة فيه، في تلك البؤرة المُنوِّمة التي كانها وجهه في تلك الأمسية. كانت ليندا معنا؛ وكانت ترى ذلك أيضًا.

تطرّق آرفه إلى الملاكمة، إلى مايك تايسون ومباراته الأخيرة التي عض فيها أذن خصمه هوليفيد.

قلت إن فهم ذلك لم يكن صعبًا لأن تايسون كان يلتمس سبيلًا للخروج

لأنه كان يعرف أنه سيخسر المباراة. وهكذا عض أذن خصمه فانتزعها مما جعل المباراة تنتهي من غير أن يفقد ماء وجهه. ضحك آرفه من جديد وقال إنه يشك في هذا. لو فعل مايك تايسون هذا لكان تصرفه عقلانيًا. لكن تايسون ليست لديه ذرة من العقلانية! وبعد ذلك، ناقش آرفه المشهد بطريقة جعلتني أفكر في فيلم «القيامة الآن» عندما قطعوا رأس الثور. الظلمة والدم ونشوة الرهبة. لعل أفكاري ذهبت في ذلك الاتجاه لأن آرفه كان يتحدث في وقت سابق من ذلك اليوم عن التصميم الذي أظهره الفيتناميون عندما قطعوا أذرع الأطفال الذين تلقوا لقاحات... كم كانت مواجهة ذلك أمرًا مستحيلًا؛ أو أن مواجهته ما كانت ممكنة إلّا بتصميم كبير واستعداد حقيقي للمُضي في الدرب نفسه.

وفي اليوم التالي، جمعتُ ثلة منا لكي نلعب كرة القدم. عثر لنا إنغمار ليمهاغن على كرة، فلعبنا ساعة، ثم جلست على العشب إلى جانب ليندا وفي يدي زجاجة كوكاكولا. قالت إن لديّ مشية لاعب كرة قدم. كان لها أخ يمارس كرة القدم والهوكي. قالت إن لنا الأسلوب نفسه في الوقفة والمشي. لكن آرفه، هكذا قالت... هل رأيت كيف يمشي؟ قلت لها: لا! قالت: يمشي كأنه راقص باليه. مشيته خفيفة، أثيرية. ألم تلاحظ هذا؟

قلت: لا. وابتسمت لها. أجابتني بابتسامة سريعة، ثم نهضت وذهبت. استلقيت على العشب وحدقت في الغيوم البيضاء المبحرة بطيئًا في السماء، المبحرة بعيدًا في الفضاء السماوي الأزرق.

ذهبت بعد العشاء في نزهة طويلة أخرى في الغابة. توقفت أمام شجرة بلوط وحدقت في أوراقها الخضر زمنًا طويلًا. قطفت ثمرة بلوط، ثم سرت وأنا أقلبها وأقلبها بين أصابعي وأنظر إليها من كل زاوية. تلك الرسوم المنتظمة الصغيرة على قاعدتها الخشنة التي تشبه سلة تستقر الثمرة فيها. وعلى سطح الثمرة الصقيل، رأيت خطوطًا خفيفة من لون أخضر داكن. شكل يقارب الكمال. يمكن أن تكون سفينة فضاء، ويمكن أن تكون بيضة. إنها بيضوية الشكل... ابتسمت وأنا أقول ذلك لنفسي متأملًا. كانت الأوراق

متماثلة كلها؛ إنها تنبثق كل ربيع، بكميات هائلة. كانت الأشجار مصانعَ تنتج أوراقًا جميلة ذات رسوم معقدة متداخلة، تنتجها من الماء وضوء الشمس. ما إن بلغت أفكاري تلك النقطة حتى صارت الرتابة في ما أراه شيئًا لا أطيق التفكير فيه. جاء هذا كله من بضعة نصوص قرأتها لفرانسيس بونج أوائل هذا الصيف (أوصاني بقراءتها رونه كريستيانسن). غيرتْ رؤية بونج للأشجار وأوراقها إلى الأبد، غيرتها في نظري. إنها منبثقة من بئر، من بئر الحياة، من بئر الحياة الذي لا ينضب.

كان مفزعًا أن أمشي هناك محاطًا بالقوة الفحولية العمياء لكل شيء ينمو تحت ضياء الشمس التي تشع وتشع، والتي تعمي الأبصار أيضًا.

كانت نغمة حادة تلك التي ترددت في داخلي. لكن نغمة أخرى كانت في داخلي أيضًا، نغمة حنين، نغمة توق. لم يعد هدف هذا التوق مجردًا مثلما كان خلال السنين الأخيرة كلها، لا... صار توقًا محددًا ملموسًا: إنها تتحرك هناك، على بعد كيلومترات قليلة فقط، في هذه اللحظة عينها.

أي جنون هذا؟ كنت أمشي مفكرًا... كنت متزوجًا، وكانت أحوالنا على ما يرام... وقريبًا سنشتري شقة معًا. عند ذلك، أتيت إلى السويد وأردت تدمير كل شيء!

لقد فعلتُ هذا.

تجوّلت تحت ظلال الأشجار التي تخترقها بقع من ضوء الشمس، وكان شذى الغابة الدافئ محيطًا بي. مشيت مفكرًا في أنني صرت في منتصف حياتي. لست أعني بهذا منتصف العمر، منتصف الطريق الذي تعبره الحياة، بل كنت في منتصف وجودي.

ارتعد قلبي.

* * *

جاءت الليلة الأخيرة. اجتمعنا في أكبر الغرف، وكان على الطاولات نبيذ وبيرة... نوع من حفلة نهاية الدورة. وفجأة، وجدت نفسي إلى جانب ليندا. كانت تفتح زجاجة نبيذ فوضعت يدها على يدي ومسّدتها برفق وهي

تنظر في عينَيّ. كان الأمر واضحًا. لقد اتخذت قرارها. إنها تريدني. فكرت في ذلك بقية الأمسية وأنا أشرب وأشرب حتى غبت تمامًا. إنني موشك على بدء علاقة مع ليندا. لست في حاجة إلى العودة إلى بيرغن بل يمكنني أن أترك كل شيء هناك؛ يمكنني البقاء هنا معها.

في الثالثة صباحًا، عندما بلغ سكري حدًا لم يبلغه من قبل إلّا نادرًا، خرجت معها. قلت إنني أريد أن أخبرها شيئًا. وعند ذلك أخبرتها. أخبرتها بما أحسسته تمامًا، وبما اعتزمت فعله.

قالت لي: «أنت تعجبني فعلًا. أنت شخص رائع. لكني لست مهتمة بك. إنني آسفة. وأما صديقك، فهو رائع حقًا. أنا مهتمة به. هل تفهمني؟».

أجبتها: «نعم، أفهم».

استدرت وعبرت الساحة مدركًا أنها خلفي لكنها ماضية في اتجاه معاكس، عائدة إلى الحفلة. كانت مجموعة من الأشخاص قد احتشدت عند الباب الأمامي، تحت الأشجار، كان آرفه بينهم. وهكذا عدت إليهم، عثرت عليه وأخبرته عما قالته ليندا؛ أخبرته أنها مهتمة به وأن من الممكن الآن أن يكونا معًا. قال لي: «لكني لست مهتمًا بها. أنت تفهم هذا. إن لديّ صديقة رائعة. لكني آسف من أجلك». قلت له إنه ليس في الأمر ما يستدعي الأسف، ثم عبرت الساحة من جديد كأنني سائر في نفق ليس فيه إلّا أنا. مررت بالمجموعة الواقفة خارج المبنى، ثم دخلت الممر وذهبت إلى غرفتي. وجدت شاشة كمبيوتري مضاءة. فصلت الكهرباء عن الجهاز، ثم أغلقته، ومضيت إلى الحمام فأمسكت بالكأس الموضوعة على المغسلة وضربتها بالجدار بكل ما استطعته من قوة. انتظرت لأسمع إن كانت هنالك ردة فعل. ثم أخذت أكبر شظية وجدتها وبدأت أجرح بها وجهي. فعلت ذلك بطريقة منهجية وحاولت أن تكون الجروح عميقة وأن تغطي وجهي كله. الذقن والخدان والجبين وتحت الأنف. وعلى فترات منتظمة، كنت أمسح الدم بمنشفة. واصلت تقطيع وجهي. واصلت مسح الدم عنه. عندما قضيت وطري من هذا العمل المتقن، لم يكن قد بقي في وجهي مكان من أجل أي جرح إضافي. ذهبت إلى السرير.

قبل استيقاظي بوقت طويل. عرفت أن شيئًا فظيعًا قد حدث. كان وجهي يلسعني ويؤلمني. تذكرت ما حدث لحظة استيقاظي.

قلت في نفسي إنني لن أستطيع مواجهة هذا. كان عليّ أن أعود إلى البيت وأن ألتقي بتونجه في «كوارتفيستيفال». حجزنا غرفة هناك منذ ستة أشهر. سنكون هناك مع إنغفه وكاري آن. كانت تلك عطلتنا معًا. كانت تحبني. لكني فعلت هذا الآن.

ضربت الفراش بقبضة يدي. وهنالك أيضًا هؤلاء الناس جميعًا، الناس الموجودون هنا.

سوف يرون هذا الخزي.

لا أستطيع إخفاءه. سيراه الجميع. لقد كنت مُعلِّمًا، لقد علّمت نفسي. نظرت إلى الوسادة. كانت غارقة في الدم. تحسّست وجهي. كان محزّزًا كله.

وأنا لا أزال ثملًا... لا أكاد أستطيع الوقوف.

أزحت الستارة الثقيلة جانبًا. عامت الغرفة في ضياء الشمس. رأيت مجموعة أشخاص جالسين في الخارج ومن حولهم حقائبهم وأكياسهم. صار وقت الوداع قريبًا.

ضربت رأس السرير بقبضتي. عليّ أن أواجه الموسيقى. ما من سبيل آخر. عليّ أن أواجه الموسيقى.

وضعت حوائجي في الحقيبة. كان ألم وجهي لاسعًا، وكان الألم في داخلي لاسعًا أيضًا. لم أعرف من قبل خزيًا مثل هذا.

إنني معلّم.

حملت الحقيبة وخرجت. لم ينظر إليّ أحد أول الأمر. ثم صاح أحدهم. ثم نظر إليّ الجميع. توقّفت.

قلت لهم: «إنني اعتذر عن هذا. إنني آسف».

كانت ليندا جالسة هناك. نظرت إليّ بعينين متسعتين، ثم بدأت تبكي. سمعت بكاء آخرين أيضًا. جاء أحدهم ووضع يدًا على كتفي.

قلت: «سيكون كل شيء بخير. لقد سكرت كثيرًا يوم أمس. إنني آسف».
صمت مطبق. أظهرت نفسي، مثلما كنت؛ وكان هناك الصمت.
كيف أستطيع احتمال هذا؟
جلست ودخنت سيجارة. نظر آرفه إليّ. حاولت الابتسام. جاء وسألني: «ماذا كنت تفعل بحق الجحيم؟».
«كنت في غاية السكر. هذا كل ما في الأمر. يمكنني إخبارك في وقت لاحق، لكن ليس الآن».
وصل الباص الذي نقلنا إلى المحطة. صعدنا إلى القطار. تقلع طائرتنا في الصباح التالي. ما كنت أعرف كيف يمكنني التعامل مع الوضع حتى ذلك الوقت. كان الجميع ينظر إليّ في شوارع ستوكهولم. كانوا يبتعدون عني مسافة. وكان الخزي يحرقني من الداخل، كان يحرقني ويحرقني، وما كان لي مهرب منه؛ عليّ احتماله، عليّ أن أتماسك وأن أتماسك حتى ينتهي ذلك كله ذات يوم.
مشينا إلى سودير. كان الآخرون قد رتّبوا موعدًا مع ليندا. ظننا أن مكان اللقاء كان في الساحة التي اسمها ميدبورغاربلادسن... كانت مجرد ساحة في ذلك الوقت. وقفنا هناك. وعندما أتت على دراجتها فوجئت برؤيتنا لأن مكان اللقاء المتفق عليه كان في ميتورغيت. قالت لنا: «ألم يكن هناك؟ إنه هناك». لم تنظر إليّ؛ لم تنظر إليّ. كان هذا جيدًا لأن نظرتها ستكون أكثر مما أستطيع احتماله. تناولنا البيتزا. كان الجو السائد غريبًا. وبعد ذلك جلسنا على العشب ومن حولنا أسراب من الطيور تقفز على الأرض. قال آرفه إنه غير مؤمن بنظرية الارتقاء بمعنى أن فكرة «البقاء للأفضل» غير صحيحة: انظروا فقط إلى هذه الطيور. إنها لا تفعل ما يجب أن تفعله بل ما تحب فعله... إنها تفعل ما يمنحها السعادة. قال أيضًا إن الناس يهوّنون من قيمة السعادة. وكنت أعرف أن الكلام موجه إلى ليندا لأنني أخبرته ما قالت لي عنه. لقد فعلتُ ما طلبتْ مني فعله. سوف يكونان معًا، هما الاثنان؛ وكنت أعرف هذا.

عدت إلى الغرفة، أما الآخرون فبقوا حتى يشربوا. شاهدت التلفزيون فكان شيئًا لا يحتمل. لكني تدبّرت أمر تلك الأمسية، ثم نمت آخر الأمر وظل السرير الثاني فارغًا. لم يعد آرفه في تلك الليلة. وفي الصباح وجدته نائمًا على السلم. سألته إن كان مع ليندا فقال لا. لقد عادت إلى بيتها في وقت مبكر.

قال لي: «كانت جالسة تبكي هناك. تحدثت عنك طيلة الوقت. أما أنا فشربت مع ثوغير. هذا ما فعلته».

قلت له: «لست أصدقك. يمكنك إخباري. لا أهمية للأمر. إنكما معًا الآن».

قال: «لا. أنت مخطئ».

عندما حطت طائرتنا في أوسلو صباح اليوم التالي، كان الناس مستمرين في النظر إليّ رغم أنني وضعت نظارة شمسية كبيرة وخفضت رأسي إلى أقصى حد ممكن. منذ زمن بعيد، وافقت على إجراء مقابلة مع مؤسسة التلفزيون النرويجي، مع آلف فان در هاغن. كان عليّ أن أذهب إلى بيته. سوف تكون مقابلة طويلة، وسوف نمضي أيضًا بعض الوقت في العمل عليها. إذن، كان عليّ الذهاب. وفي الطريق، قررت ألّا أبالي... قررت أن أقول بالضبط كل ما أفكر فيه ردًا على أسئلته.

قال عندما فتح الباب لي: «يا إلهي! ماذا أصابك؟».

قلت: «ليس هذا سيئًا بقدر ما يبدو. لقد سكرت سكرًا شديدًا. هذا من الأشياء التي يمكن أن تحدث».

سألني: «ألا تزال مستعدًا للمقابلة؟».

«نعم، نعم. إنني بخير. كل ما في الأمر هو أن شكلي لا يوحي بذلك».

«لا؛ بالتأكيد، شكلك لا يوحي بذلك».

انفجرت تونجه باكية عندما رأتني. قلت لها إنني سكرت سكرًا شديدًا، وإن هذا كل ما حدث. كان هذا صحيحًا! كان الناس في المهرجان يقفون وينظرون إليّ أيضًا. وكانت تونجه تبكي كثيرًا. لكن الوضع تحسن؛ وذلك

الشيء (لا أدري ما هو) الذي كان مطبقًا على خناقي بدأ يتركني... بدأت قبضته تتراخى. حضرنا أمسية لفرقة «غاربيج». كانت حفلة رائعة. قالت تونجه إنها تحبني، وقلت لها إنني أحبها، ثم قررت أن أضع كل ما حدث خلف ظهري. لن أنظر إلى الوراء، ولن أفكر في ذلك، ولن أتركه يحتل مكانًا في حياتي.

وفي أوائل الخريف، اتصل آرفه ليقول لي إنه صار على علاقة مع ليندا. قلت له: «لقد أخبرتك بأنكما ستكونان معًا، أليس هذا صحيحًا؟».

«لكن ذلك لم يحدث هناك. حدث فيما بعد. كتبت لي رسالة، ثم أتت. آمل أن نتمكن من البقاء أصدقاء. أعرف أن هذا صعب، لكن آمل أن تستمر صداقتنا».

قلت: «يمكننا أن نظل أصدقاء، بالطبع».

وكان هذا صحيحًا لأنني لم أحمل أي ضغينة لآرفه. لماذا أحمل له ضغينة؟

قابلته في أوسلو بعد شهر من ذلك الاتصال. كنت قد عدت إلى المربّع الأول، وصرت غير قادر على جعل نفسي أقول كلمة واحدة له. لم أكن أقول شيئًا، حتى عندما شربت. قال لي إن ليندا تتحدّث عني كثيرًا. تقول غالبًا إنني وسيم جدًا. في ما يتعلق بهذه النقطة، هكذا قلت في نفسي، لا أهمية لكوني «وسيمًا جدًا» لأن تلك الفكرة كانت تشبه التعبير عن المفاجأة أمام حقيقة من الحقائق... يكاد ذلك يكون كأنها قالت إنني «أعرج» أو «محدودب الظهر». ثم إن آرفه هو من أخبرني بهذا، فلماذا ينقل إليّ هذا الكلام؟ قابلته مرة في كونسكنيرنز هوس، وكان ثملًا إلى حد جعل الحديث معه غير ممكن تقريبًا. أمسك بيدي وأخذني إلى إحدى الطاولات وقال: «انظروا جميعًا! أليس هذا الرجل وسيمًا؟» هربت على الفور، لكني صادفته من جديد بعد ساعة فجلسنا وقلت له إنني أخبرته الكثير عن نفسي أما هو فلم يخبرني شيئًا عن نفسه، بمعنى أنه لم يخبرني شيئًا عن التفاصيل الحميمة. قال لي: «إنك تخيب أملي الآن لأنك تبدو مثل اخصائي نفسي

في ملحق يوم السبت في صحيفة داغبلادت، أو شيء من هذا القبيل». قلت له: «لا بأس». لقد كان محقًا بالطبع. إنه على حق دائمًا، أو أنه يكون دائمًا في مكان ما أعلى من الجدل في ما يتعلق بما هو محق وما هو خاطئ. لقد أعطاني الكثير، لكن كان عليّ أيضًا أن أضع هذا خلف ظهري: لا أستطيع العيش مع هذا الشيء وأنا أعيش في الوقت نفسه الحياة التي كنت أعيشها في بيرغن. لا يمكن أن ينجح هذا.

رأيته مرة أخرى في الشتاء عندما كانت ليندا هناك. لقد أرادت أن تراني. أخذها آرفه إلى حيث كنت جالسًا، ثم تركنا نصف ساعة. وبعد ذلك جاء لأخذها. كانت ليندا جالسة ملتفة بسترة كبيرة من الجلد. كانت ضعيفة، وكانت ترتعش. لم يبق منها شيء تقريبًا. قلت في نفسي إن ما كان في ليندا قد ذهب... ما عاد موجودًا.

ظل غير ينظر إلى الطاولة أمامه بينما كنت أخبره بهذه القصة. نظر في عينَيَّ بعدما انتهيت.

قال لي: «شيء يلفت النظر فعلًا! أنت تحوّل كل شيء إلى الداخل. تحول الألم كله، والإساءة كلها، والانفعالات كلها، والخزي كله، كل شيء. تحول كل شيء إلى داخلك. لقد ألحقت الأذى بنفسك لا بأي أحد آخر هناك».

قلت: «هذا ما يمكن أن تفعله أي فتاة مراهقة».

قال: «لا. لا تفعل المراهقة هذا! لقد مزّقتَ وجهك إربًا. لا يمكن أن تجرح فتاة وجهها. وفي حقيقة الأمر، لم أسمع أبدًا بأي شخص فعل هذا لنفسه».

قلت له: «لم تكن جروحًا عميقة. كان مظهرها مخيفًا، لكنها لم تكن شديدة السوء».

أجابني: «من الذي يمكن أن يفعل لنفسه شيئًا كهذا؟».

رفعت كتفي وقلت: «لقد اجتمع كل شيء في نقطة واحدة، في ذروة. موت أبي، والاهتمام الإعلامي بكتابي، وحياتي مع تونجه. ثم، بالطبع، ليندا أيضًا».

«لكنك لم تحس شيئًا تجاهها اليوم، أليس كذلك؟».
«لم أحس شيئًا قويًا، على أي حال».
«هل ستراها من جديد؟».
«ربما. قد أراها على الأرجح فقط حتى يكون لي أصدقاء هنا».
«تريد صديقًا آخر».
قلت وأنا أرفع إصبعي في الهواء مشيرًا للنادلة: «نعم، هذا صحيح تمامًا».

في اليوم التالي، اتصلت بي المرأة التي استأجرت شقتها ريثما تعود. حدثتني عن شقة أخرى. وقالت إن لها صديقة تريد أن تشاركني استئجارها.
«ماذا تعنين بأنها تريد أن نتشارك؟».
«تكون غرفتك لك أنت، وتظل بقية الشقة مشتركة بينك وبينها».
قلت: «لا يبدو لي أن هذا يهمني».
قالت المرأة: «لكنها شقة رائعة. إنها في باستوغاتان. هذا واحد من أفضل العناوين في ستوكهولم كلها».
قلت: «لا بأس، يمكنني على أي حال أن أراها وأتكلم مع مالكتها».
«إنها شديدة الاهتمام بالأدب النرويجي».
أخذت اسم المالكة ورقم هاتفها، ثم اتصلت بها. أجابت على الفور وقالت لي أن آتي.
كانت الشقة رائعة بالفعل. وكانت المرأة التي تريد أن أستأجرها معها صغيرة السن، أصغر مني. كانت على ورق الجدران صور متكررة لرجل واحد. إنه زوجها المتوفى. هكذا قالت لي.
قلت لها: «يؤسفني أن أسمع هذا».
استدارت وقالت لي: «هذه هي غرفتك. إن أعجبتك فهي لك. لديك حمامك الخاص، ولديك مطبخك. وهذه غرفة فيها سرير مثلما ترى».
قلت: «تبدو لي غرفة ممتازة».

«لديك مدخلك الخاص أيضًا. وإذا أحببت أن تكتب فليس عليك إلّا أن تغلق هذا الباب».

قلت: «سوف آخذها. متى أستطيع الانتقال إليها؟».

«الآن إن أحببت».

«أبهذه السرعة؟ فليكن. سوف آتي بحوائجي هذا المساء».

ضحك غيير عندما أخبرته. قال لي: «شيء مستحيل أن تأتي من غير أن تعرف أحدًا هنا فتحصل على شقة في باستوغاتان. هذا شيء مستحيل! هل تفهم ما أقوله لك؟ إن الآلهة تحبك يا كارل أوفه. أنا واثق من هذا».

قلت: «لكن قيصر لا يحبني».

قال: «أوه، بلى... قيصر يحبك أيضًا. لكنه يغار منك قليلًا. هذا كل ما في الأمر».

اتصلت بليندا بعد ثلاثة أيام، وقلت لها إنني انتقلت إلى سكن جديد. سألتها إن كانت تحب أن نتناول القهوة معًا. وافقت. وبعد ساعة. كنا جالسين في مقهى على «الرابية» المطلة على هورنسغاتان. بدت لي أكثر سعادة. هكذا كان انطباعي الأول عندما جلست. سألتني إن كنت قد سبحت اليوم، فابتسمت وقلت لها إنني لم أسبح. لكنها سبحت! ذهبت إلى المسبح عند الفجر. كان ذلك رائعًا! وهكذا، جلسنا هناك نحرك الكابوتشينو في الفنجانين. أشعلت سيجارة، ولم أستطِع التفكير في شيء أقوله لها. قلت في نفسي إن هذه ستكون المرة الأخيرة.

سألتني ليندا: «هل تحب المسرح؟».

هززت رأسي نفيًا وقلت لها إنني لم أحضر إلّا عروضًا مسرحية تقليدية في المسرح الوطني في بيرغن، وقلت إنها لم تشدني بأكثر مما تشدني مراقبة سمكة تسبح في الحوض. حضرت أيضًا بعض المسرحيات في مهرجان المسرح الدولي في بيرغن، وكانت من بينها نسخة عن مسرحية فاوست حيث راح الممثلون يتجولون على الخشبة مغمغمين ببعض الأشياء وعلى

وجوههم أنوف سوداء ضخمة. عندما قلت لها ذلك، قالت إن علينا أن نذهب لرؤية إنتاج بيرغمان لمسرحية «الأشباح».

قلت لها: «لا بأس. سوف أجرب حظي هذه المرة».

سألتني: «هل يعني هذا أن لدينا موعد الآن؟».

أجبتها: «نعم. يبدو هذا ظريفًا».

قالت: «أحضر معك صديقك النرويجي. يمكنني مقابلته أيضًا».

قلت لها: «سأفعل ذلك. من المؤكد أنه سيحب المجيء معنا».

بقينا في ذلك المقهى ربع ساعة آخر، لكن الصمت كان طويلًا. أظنها كانت تموت رغبة في الذهاب بقدر ما كنت راغبًا في الذهاب بدوري. وفي النهاية، وضعت سجائري في جيبي ونهضت.

سألتني: «هل نذهب لشراء التذاكر معًا؟».

أجبتها: «بالتأكيد».

«غدًا؟».

«نعم».

«نلتقي هنا في الحادية عشر والنصف، ما رأيك؟».

«موافق. هذا جيد».

لم نتبادل أي كلام تقريبًا خلال ثلث الساعة الذي استغرقه ذهابنا من «الرابية» إلى مسرح الدراما الملكي. أحسست أنني إما أن أقول لها كل شيء، أو لا شيء. لكن خياري الآن كان ألّا أقول شيئًا؛ وأظن أن الأمر سيبقى هكذا.

تركتها تطلب التذاكر. وعندما انتهى ذلك، بدأنا السير في طريق العودة. كانت الشمس تغمر المدينة بنورها. ظهرت أوائل البراعم على الأشجار، وكان الناس في كل مكان. كان أكثرهم سعداء مثلما يكون المرء في أول أيام الربيع الجميلة.

عندما عبرنا حديقة كونغسترادغاردن، نظرت إليّ في أشعة الشمس الساطعة المنخفضة.

قالت لي: «رأيت في التلفزيون شيئًا غريبًا منذ بضعة أسابيع. كانوا يعرضون شريطًا من كاميرا مراقبة في داخل كشك كبير لبيع الصحف. بدأ الدخان يتصاعد فجأة من أحد الرفوف. ظهرت في البداية بضعة ألسنة صغيرة من اللهب. لم يكن البائع قادرًا على رؤية النار من حيث يقف. لكن الزبون الواقف عند النافذة كان يراها. لا بد أنه عرف بأن هنالك شيء يحدث لأنه استدار في اتجاه ذلك الرف أثناء انتظاره الحصول على ما طلبه من البائع. كان من المستحيل ألّا يرى النار. وبعد ذلك استدار. أخذ بقية نقوده وذهب. ذهب، بينما كانت النار مشتعلة من خلفه».

نظرت إليّ من جديد وابتسمت.

«جاء زبون آخر ووقف أمام النافذة. كانت النار قد ازدادت شدة. التفت ونظر إلى اللهب مباشرة. ثم استدار كسابقه؛ اشترى ما يريد شراؤه وذهب. لكنه نظر إلى النار مباشرة! هل تفهم هذا؟».

قلت: «نعم. أتظنين أنه لم يكن يريد التورط في الأمر؟».

«لا، لا، على الإطلاق. ليست هذه هي الفكرة. لقد رأى ألسنة اللهب، لكنه لم يستطع تصديق ما رآه. ألسنة لهب في متجر!... لقد وثق بعقله أكثر من ثقته بما تراه عيناه».

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«جاء شخص ثالث؛ جاء بعد ذلك مباشرة، فصاح فور رؤيته النار: حريق! لكن مجموعة الرفوف كلها كانت تشتعل في ذلك الوقت. كان من المستحيل ألّا يراها. هذا غريب، أليس كذلك؟».

قلت: «إنه غريب».

كنا قد بلغنا الجسر المؤدي إلى الجزيرة حيث يقع القصر الملكي، وكنا نسير في خط متعرج بين السائحين والمهاجرين الذين كانوا واقفين على الجسر أو الذين كانوا جالسين يصطادون. كنت من وقت لآخر، خلال الأيام التي تلت ذلك، أفكر في القصة التي سمعتها منها. وتدريجًا، انفصلت تلك القصة عنها وصارت ظاهرة مستقلة في حد ذاتها. ما كنت أعرفها؛ ما

كنت أعرف شيئًا عنها. ثم إن حقيقة كونها سويدية كانت تعني أنني غير قادر على فهم أي شيء من أسلوب كلامها أو الملابس التي ترتديها. لا تزال مطبوعة في رأسي صورة من مجموعتها الشعرية التي لم أقرأ فيها شيئًا منذ أيام بيسكوبس آرنو. لم أخرِج ذلك الكتاب إلّا مرة واحدة لكي يرى إنغفه صورتها على غلافه. كانت الصورة المنطبعة في ذهني صورة الراوية المتعلقة برجل مثلما «يتعلق صغير الشامبانزي بأمه»، وهي ترى ذلك في المرآة. لا أعرف السبب الذي جعل تلك الصورة تترك انطباعًا في ذهني دونًا عن بقية الصور كلها. عندما وصلت إلى البيت، أخرجت المجموعة الشعرية من جديد. حيتان وأرض، وحيوانات أخرى تزمجر راعدة من حول الراوِية الضعيفة حادة الذكاء.

هل هي تلك الراوِية، هل هي ليندا؟

ذهبنا إلى المسرح بعد بضعة أيام من ذلك. ليندا وغيير وأنا. كان المشهد الأول فظيعًا؛ كان شيئًا بائسًا حقًا. جلسنا في الاستراحة إلى طاولة على الشرفة المطلة في اتجاه الميناء. كان غيير وليندا ماضيين في الكلام عن مدى فظاعة المشهد الأول، وعن سبب ذلك. لكن حديثهما كان فيه شيء من التعاطف رغم ضآلة الإحساس الذي خلقه الفصل الأول، تلك الضآلة التي ألقت بظلها على المسرحية وعلى الرؤى التي كان من المفترض أن تقدمها، وذلك لأن هنالك ما يشبه توقّع شيء مختلف... كأنه شيء لا يزال مختبئًا هناك، لا يزال منتظَرًا. ربما لا يكون هذا الشيء المختفي موجودًا في هذه المسرحية بل في ذلك المزيج من بيرغمان وإبسن، المزيج الذي لا بد له من إنتاج شيء آخر الأمر. أو لعل ذلك كان بسبب روعة المسرح التي خدعتني فجعلتني أظن شيئًا آخر. ثم جاء ذلك الشيء... ارتفع كل شيء، ارتفع أعلى فأعلى، وازدادت كثافة الأداء؛ وضمن ذلك الإطار الضيق الذي كان مؤلفًا آخر الأمر من أم وحيدة مع ابنها، ظهر نوع من اتساع لا حدود له، شيء برّي منطلق، متهوِّر. اختفت الحبكة واختفى المكان في ذلك الشيء ولم يبق غير المشاعر، وحدها... كانت انفعالات شديدة الوضوح، وكنت تنظر مباشرة

إلى جوهر وجود الإنسان، إلى لب الحياة نفسها، فتجد نفسك في مكان ما عادت فيه أهمية لما يحدث فعلًا. أُلغي كل ما يُعرف بالجماليات، وكل ما يعرف بالذوق. أكانت هنالك شمس حمراء هائلة تشرق في آخر المسرح؟ أكان هنالك أوزفالد يتدحرج عاريًا عبر خشبة المسرح؟ ما عدت واثقًا مما شاهدته لأن التفاصيل اختفت وذابت في الحالة التي أثارتها، في حالة من حالات الحضور الكلي، في حالة حارة متقدة لكنها باردة في الوقت نفسه. على أن كل شيء كان يمكن أن يبدو (إذا لم تترك نفسك تنساق هكذا)، نوعًا من أنواع المبالغة، بل يمكن أن يبدو مبتذَلًا سخيفًا. كانت ضربة المعلم كامنة في المشهد الأول. حدث كل شيء هناك. وحده من أنفق حياته مبدعًا وكانت لديه قائمة أعمال مسرحية ضخمة تضم أكثر من خمسين عامًا من الإخراج، يمكن أن يمتلك المهارة والشجاعة والحدس السليم والبصيرة المتعمقة حتى يصنع شيئًا من هذا القبيل. ما كانت الأفكار اللامعة وحدها بقادرة على أن تأتي بهذا كله... إنه شيء مستحيل. لا أظن أن شيئًا مما رأيته أو قرأته قبل الآن أفلح حتى في الاقتراب من الجوهر بهذه الطريقة. لم يقل أيّ منا أيُّ كلمة عندما سرنا ضمن تيار الناس الخارجين إلى الردهة، ثم إلى الشارع، لكني رأيت من تعبير الغياب على وجهيهما أن ما حدث قد حملهما بعيدًا مثلما حملني، قد حملهما إلى ذلك المكان الذي رآه بيرغمان في نص إبسن... مكان مخيف لكنه حقيقي، مما يعني أنه جميل... مكان رآه ثم نجح في تشكيله. قررنا أن نشرب بيرة في KB. وخلال سيرنا إلى ذلك المقهى، زالت تلك الحالة التي تشبه النشوة ليحل محلها مزاج مبتهج. كما أن ذلك الخجل الذي أحسه عادة عندما أكون قريبًا من امرأة جذابة إلى هذا الحد (من غير نسيان التعقيدات الإضافية التي أتت بها أحداث السنة الماضية)، زال عني فجأة. حدثتنا عن تلك المرة التي أوقعتْ فيها، من غير قصد، حامل أحد المصابيح خلال بعض تجارب بيرغمان فعرفت تجربة الوقوع تحت سياط لسانه السليط. تحدثنا عن الفرق بين مسرحيتي «الأشباح» و«بير غونت» اللتين كانتا تحتلان مكانين متقابلين على نهايتي

الطيف المسرحي: واحدة تتناول السطح، وأخرى تتناول العمق، وكلتاهما حقيقية على حد سواء. قلدت ليندا الحوار بين ماكس فون سيداو والموت، وتحدثت مع غيير عن بعض أفلام بيرغمان عندما عرفت أنه ذهب وحده لرؤية عروض مهرجان السينما، لرؤيتها كلها، فشاهد الأفلام الكلاسيكية التي تستحق المشاهدة. أما أنا فكنت أجلس مصغيًا إليهما، سعيدًا بكل شيء. كنت سعيدًا بحضور المسرحية، وكنت سعيدًا بأنني انتقلت إلى ستوكهولم، وكنت سعيدًا بوجودي مع ليندا وغيير.

بعد افتراقنا وانطلاقي إلى حيث الغرفة التي استأجرتها في ماريا بيرغيت، أدركت أمرين اثنين:

الأمر الأول هو أنني أريد رؤيتها من جديد في أسرع وقت ممكن. والأمر الثاني هو أنني ذهبت إلى حيث كان عليّ الذهاب، إلى ما رأيته هذا المساء. لا شيء آخر كان جيدًا إلى هذا الحد، ولا شيء آخر استطاع فعل هذا. ذلك ما يجب الذهاب إليه، إلى الجوهر، إلى لب الوجود البشري. إن اقتضاني الأمر أربعين سنة، فليكن ذلك، فلأنفق أربعين سنة من أجله. لكن، لا يجوز لي أبدًا أن أضيّعه، لا يجوز أن أنساه. الآن، عرفت أين أذهب.

إلى هناك، إلى هناك، إلى هناك.

اتصلت ليندا بعد يومين ودعتني إلى حفلة في ليلة عيد القديس والبورغ. إنها حفلة تقيمها مع اثنتين من صديقاتها. قالت إنه سيكون جيدا لو أحضرت معي صديقي غيير. فعلت هذا. وفي ليلة جمعة من شهر أيار سنة 2002، سرنا عبر منطقة سودير إلى الشقة التي تقام الحفلة فيها. سرعان ما وجدنا نفسينا جالسين على إحدى الأرائك وفي يد كل منا كأس من شراب البنتش، ومن حولنا شبان وشابات من ستوكهولم لكل منهم صلة ما بالحياة الثقافية: موسيقيو جاز، وعاملون في المسرح، ونقّاد أدبيون، ومؤلفون، وممثلون. بدأت الصداقة بين ليندا وميكاييلا وأوليغارد (اللواتي كنّ منظمات هذه الحفلة) عندما كنّ يعملن في مسرح مدينة ستوكهولم. في ذلك الوقت، كان مسرح الدراما الملكي يقدم مسرحية روميو وجولييت إلى جانب عروض

من السيرك. وهكذا، كانت الغرفة الآن مليئة بلاعبي السيرك وآكلي النار والمتشقلبين على الحبال، إلى جانب الممثلين. ما كنت قادرًا على قضاء الأمسية من غير الكلام، حتى لو أردت ذلك، وهكذا سرت بجسدي الثقيل من مجموعة إلى أخرى وتبادلت المجاملات مع الناس. وبعد أن شربت بضعة كؤوس من الجن مع التونيك، صرت قادرًا على إضافة بعض الكلمات إلى ما كان قوله ضروريًا. كنت أريد الحديث مع أهل المسرح خاصة. وكانت تلك رغبة لم أتوقع قبل اليوم أنني سأحسها. ازدادت حماستي للمسرح هذا المساء. وقفت مع اثنين من الممثلين وقلت لهما إن بيرغمان في غاية الروعة. ضحكا ضحكتين ساخرتين وقالا: «ذلك الأحمق العجوز! إنه تقليدي إلى حد يجعلك راغبًا في التقيؤ».

كم يمكنك أن تكون غبيًا! من الطبيعي أن يمقتا بيرغمان! هذا لأنه كان، من جهة أولى، سيد حيواتهم كلها وسيد حيوات أهلهم أيضًا؛ وأما من جهة أخرى، فإنهم مع الجديد، مع ما هو عظيم، مع مسرحيات شكسبير المقدمة على هيئة سيرك، مع المسرحية التي يستطيع أي إنسان أن يشاهدها، المسرحية التي تكون منعشة كثيرًا في حضور المشاعل واللاعبين على الحبال والمهرّجين ومن يمشون على ركائز خشبية طويلة. لقد ابتعدوا عن بيرغمان أقصى ما يمكن الابتعاد. ثم يأتيهم رجل نرويجي سمين ظاهر الاكتئاب فيقف بينهم مهللًا لبيرغمان كأنه اكتشاف جديد.

وخلال ذلك، كنت أرى ليندا وغيير لا يزالان جالسين على الأريكة يتحدثان وقد علت وجه كل منهما ابتسامة متوثبة. أحسست ما يشبه طعنة في قلبي: هل ستقع في هوى واحد آخر من أصدقائي؟ سرت بين الناس متحدثًا مع هذا وذاك، ثم صادفت مجموعة من المتحمسين لموسيقى الجاز. سألوني إن كنت أعرف شيئًا عن الجاز النرويجي، فأومأت برأسي نصف إيماءة مما جعلهم راغبين في سماع بعض الأسماء. موسيقيو جاز نرويجيون؟ أهنالك أحد غير يان غارباريك؟ لحسن الحظ، أدركت أنهم لا يعنون ذلك تحديدًا، وتذكرت بوغه ويسيلتوفت الذي تحدث إسبن عنه ذات

مرة، بل دعاه أيضًا حتى يعزف في حفلة أقامتها فاغانت حيث قرأت أيضًا شيئًا من كتاباتي. هزوا رؤوسهم موافقين؛ إنه جيد! تنفست الصعداء وذهبت لأجلس وحدي. وبعد ذلك جاءتني امرأة داكنة الشعر لها وجه عريض وفم كبير وعينان بنيتان حادتان. كانت مرتدية فستانًا كله أزهار. أتت إليّ وسألتني إن كنت الكاتب النرويجي. نعم، لقد كنت ذلك الكاتب. وسألتني ما هو رأيي في يان كيارستاد وجون إيريك رايلي وروله بيرت سونده؟

قلت لها آرائي.

سألتني: «هل تعني هذا حقًا؟».

قلت: «نعم».

قالت: «ابق حيث أنت. سوف آتي بزوجي. إنه يكتب عن الأدب، وهو مهتم برايلي كثيرًا. انتظر لحظة، سوف أعود إليك».

رأيتها تشق طريقها بين الناس في اتجاه المطبخ. لقد قالت لي اسمها؛ ما هو؟ هيلدا؟ لا. ويلدا؟ خراء، لا. اسمها غيلدا! لماذا يكون تذكر الأسماء صعبًا إلى هذا الحد؟

ظهرت المرأة من جديد آتية عبر زحام الناس. جاء من خلفها رجل هذه المرة. أوه... حالما رأيته عرفت من أي نوع هو. تظهر الجامعة مكتوبة على وجهه من مسافة بعيدة.

قالت غيلدا: «يمكنك الآن أن تخبره بما قلته لي».

فعلت ذلك. لكن حماستها ما كانت في محلها، لا من ناحيتي ولا من ناحيته. وهكذا انتهى حديثنا سريعًا فاستأذنت منهما ومضيت إلى المطبخ لآتي بشيء من الطعام بعد أن تناقص عدد المنتظرين في الصف هناك. كان غيير واقفًا يتحدث مع شخص ما عند النافذة، وكانت ليندا مع مجموعة صغيرة من الأشخاص عند رفوف الكتب. جلست على الأريكة وبدأت آكل فخذ دجاجة، لكن نظرتي صادفت عيني امرأة داكنة الشعر. الظاهر أنها اعتبرت تلك النظرة دعوة لأنها كانت واقفة أمامي بعد لحظة واحدة.

سألتني تلك المرأة: «من أنت؟».

ابتلعت ما في فمي، ووضعت فخذ الدجاجة على الطبق الكرتوني الذي في يدي، ورفعت رأسي ناظرًا إليها. حاولت تعديل جلستي في تلك الأريكة العميقة الناعمة، لكني فشلت وأحسست كأنني صرت مائلًا على وشك السقوط. لا بد أيضًا أن دهن الدجاج كان يلمع على خديّ.

قلت لها: «أنا كارل أوفه. إنني من النرويج. وقد انتقلت إلى السويد منذ بضعة أسابيع. ومن أنتِ؟».

«ميليندا».

«وما عملك؟».

«إنني ممثلة».

قلت لها مستعينًا بما بقي عندي من نشوة بيرغمان: «أوه، نعم! هل يعني هذا أنك مشاركة في مسرحية روميو وجولييت؟».

أومأت برأسها.

«وما دورك في المسرحية؟».

«إنني جولييت».

«آها!».

قالت جولييت: «ها هو روميو واقف هناك».

رأيت رجلًا وسيمًا مفتول العضلات. انضم ذلك الرجل إلينا وقبّلها على خدها، ثم نظر إليّ.

اللعنة على هذه الأريكة العميقة. أحسست أن جلستي جعلتني قزمًا أمامه.

ابتسمت وحييته بإيماءة من رأسي فأجابني بمثلها.

سألها: «هل أكلت شيئًا؟».

قالت: «لا»، ثم ذهبا.

رفعت فخذ الدجاجة إلى فمي من جديد. لا شيء هنا أفعله غير الشرب! كان آخر شيء فعلته قبل انصرافي ذلك المساء إلقاء نظرة على ألبوم صور يخص رجلًا مثليًا ضخم الهيكل له رقبة منتفخة. لم يجعلني الكحول أُحلّق

هذه المرة، مثلما يفعل دائمًا عندما ينقلني إلى حالة مزاجية يصير معها كل شيء جميلًا وتسقط العوائق كلها، بل جعلني أغرق في بئر روحية لا يستطيع إخراجي منها أي شيء يعتمل في داخلي. كل ما حدث هو أن ضبابًا لفّ كل ما كان حولي وجعله أقل وضوحًا. وفي اليوم التالي، كنت شاكرًا لأنني استطعت الاحتفاظ بقدر من حضور الذهن يسمح لي بالعودة إلى بيتي بدلًا من البقاء جالسًا هناك إلى أن ينصرف الجميع آملًا في أن يحدث شيء ما من تلقاء نفسه. اعتبرتُ ليندا قضية خاسرة لأننا لم نكد نتبادل كلمة واحدة طيلة الأمسية التي أمضيت معظمها جالسًا في تلك الأريكة التي صارت كأنها تخصني أنا؛ ثم إن القليل الذي قلته لها (قليل إلى حد يسمح بكتابته على بطاقة بريدية) ما كان شيئًا يمكنه إثارة اهتمام أي امرأة على وجه الأرض. إلّا أنني اتصلت بها مساء اليوم التالي... يقتضي التهذيب أن أشكرها على تلك الدعوة. وعند ذلك، بينما كنت حاملًا هاتفي إلى أذني، بينما كنت واقفًا أنظر إلى ستوكهولم المنبسطة أمامي تحت ضياء الشمس الغاربة الحمراء، أتت لحظة مفعمة، حبلى باحتمالات كثيرة. قلت لها مرحبًا، وشكرتها على الدعوة، وقلت لها إن الحفلة كانت جميلة؛ فشكرتني، وقالت إنها تظن أيضًا أن الحفلة كانت لطيفة، ثم أضافت تمنياتها بأن أكون قد أمضيت وقتًا ممتعًا. قلت لها إنني أمضيت وقتًا طيبًا. ثم كان هنالك صمت. لم تقل شيئًا، ولم أقل شيئًا. هل أنهي المكالمة؟ هذا ما قالته لي غريزتي الطبيعية. لقد علّمت نفسي قولَ أقل ما يمكن في أوضاع من هذا النوع لأن هذا يسمح لي بتجنب الاندفاع في أي كلام غبي. أم أن عليّ متابعة الكلام؟ مرت الثواني. لو قلت لها: نعم، لا بأس، أردت فقط أن أشكرك! ثم أغلقت الهاتف، لانتهى الأمر على الأرجح. لقد خرّبتُ كل شيء ليلة أمس. لكن ماذا؟ ماذا يمكن أن أخسر؟

سألتها بعد هذا الصمت الطويل بكل المعايير: «ماذا تفعلين الآن؟».

قالت لي: «أشاهد هوكي الجليد على التلفزيون».

قلت لها: «هوكي الجليد؟» ثم تحدثنا ربع ساعة بعد ذلك. واتفقنا على اللقاء من جديد.

التقينا، لكن شيئًا لم يحدث. لم تكن هنالك مشاعر، أو لعل المشاعر كانت كبيرة إلى حد لم يسمح لنا بأي حركة. كان ذلك كما لو أننا عالقان فيها، عالقان في الأشياء التي يريد كل منا قولها للآخر، لكنه لا يستطيع.

جمل مهذبة. وبدايات كلام صغيرة تؤدي إلى أماكن غير وجهتها الأولى... حياتها اليومية، لها أم في ستوكهولم، وأخ أيضًا، وأصدقاؤها جميعًا. عاشت حياتها كلها في ستوكهولم باستثناء ستة أشهر في فلورنسا. أين عشت أنا؟ آرندال، كريستيانساند، بيرغن، ستة أشهر في آيسلندا، أربعة أشهر في نورويتش.

هل لديّ إخوة أو أخوات؟

لديّ أخ واحد، وأخت نصف شقيقة.

لقد كنت متزوجًا، أليس كذلك؟

نعم. ولا أزال متزوجًا، على نحو ما.

أوه!

* * *

في ساعة مبكرة من مساء يوم في أواسط شهر نيسان، اتصلت ليندا. هل أحب أن أراها؟ بالتأكيد. قلت لها إنني في الخارج مع غيير وكريستينا. إننا في غولدابان، فهل تحبين الانضمام إلينا؟

كانت هناك بعد نصف ساعة.

كانت مبتسمة كلها.

قالت: «لقد قبلوني اليوم في معهد الدراما. أنا سعيدة جدًا. هذا شيء رائع». ثم قالت وهي تنظر إليّ: «أحسست فجأة أنني أريد رؤيتك».

ابتسمت لها.

بقينا في الخارج طيلة المساء، وسكرنا، وعدنا معًا على الأقدام حتى بيتي. عانقتها أمام الباب، وصعدت إلى شقتي.

اتصل غيير صباح اليوم التالي.

قال لي: «إنها واقعة في حبك يا رجل. الأمر واضح على مسافة أميال.

كان هذا أول ما قالته كريستينا بعد انصرافنا. إنها تشع حبًا. إنها واقعة في حب كارل أوفه إلى حد لا يصدق».

قلت: «لا أظن هذا. كانت سعيدة لأنهم قبلوها في معهد الدراما».

«فلماذا تتصل بك إن كان هذا كل ما في الأمر؟».

«وكيف أعرف؟ لماذا لا تتصل وتسألها بنفسك؟».

«ما هو الوضع من ناحية مشاعرك أنت؟».

«لا بأس».

ذهبت إلى السينما مع ليندا. لسبب غبي لا أعرفه، حضرنا فيلم حرب النجوم الجديد. كان فيلمًا للأطفال. بعد أن فهمنا ذلك، ذهبنا إلى فولكوبيران وجلسنا، ولم نقل شيئًا.

كنت محبطًا عندما تركتها. تعبت كثيرًا من الاحتفاظ بكل شيء في داخلي ومن عدم قدرتي على قول أبسط الأشياء لأي شخص.

تجاوزتُ الأمر. إنني بخير هكذا، وحدي... لا تزال ستوكهولم مدينة جديدة بالنسبة إليّ؛ وقد جاء الربيع. كنت أنهض كل يومين فأضع حذاء الجري وأجري حول سودير. المسافة عشرة كيلومترات. أما في الأيام الواقعة بين أيام الجري، فكنت أسبح ألف متر. نقص وزني عشرة كيلوغرامات، وبدأت الكتابة من جديد. كنت أستيقظ في الخامسة صباحًا فأدخن سيجارة مع فنجانين من القهوة على الترّاس فوق السطح حيث أرى ستوكهولم كلها. ثم أعمل حتى الثانية عشرة. وبعد ذلك أذهب للسباحة أو للجري. وبعد ذلك أذهب إلى المدينة وأجلس في أحد المقاهي، وأقرأ؛ أو كنت أتجول هنا وهناك، إلّا عندما ألتقي غيير. وفي الثامنة والنصف مع أشعة الشمس الغاربة بلون الدم على سريري، كنت أستلقي وأقرأ. بدأت قراءة «صيادو كارينهول» لكارل هيننغ ويكمارك الذي نصحني غيير بقراءته. كنت أقرأ في ضوء الشمس الغاربة، وفجأة، على غير انتظار، غمرني إحساس مدوّخ بالسعادة. لقد كنت حرًا، حرًا تمامًا، والحياة كانت رائعة. يأتيني هذا الإحساس أحيانًا... ربما مرة كل ستة أشهر، ويكون إحساسًا قويًا

يستمر بضع دقائق ثم يزول. لكن الغريب هذه المرة هو أن موجة السعادة لم تكن عابرة. استيقظت في اليوم التالي، فوجدت نفسي سعيدًا. لا أذكر أن هذا حدث في حياتي منذ كنت طفلًا. جلست على التراس وغنيت في ضوء الفجر الشاحب. وعندما جلست لأكتب، لم أبالِ بأن يكون ما كتبته سيئًا لأن في العالم أشياء أخرى، أشياء أجمل من كتابة الروايات. ذهبت إلى الجري بعد ذلك فكان جسمي خفيفًا كأنه ريشة بينما كان عقلي (عقلي الذي يركز عادة على البقاء ولا ينتبه إلى شيء غير خطواتي) ينظر من حولي مستمتعًا بالخضرة الكثيفة وزرقة المياه في القنوات الكثيرة وحشود الناس في كل مكان والمباني الجميلة وتلك الأقل جمالًا. عدت إلى البيت، وبعد الحمام أكلت خبزًا محمَّصًا مع الحساء، ثم ذهبت إلى الحديقة لأقرأ المزيد من رواية ويكمارك الأولى التي تحكي قصة عَدّاء ماراثون نرويجي ينزلق عند مروره بقلعة غونرينغ للصيد خلال أولمبياد برلين عام 1936. وبعد ذلك اتصلت بإسبن وتوره وإيريك وأمي وتونجه (التي لا أزال معها)؛ لم يُقل شيء جديد. ثم ذهبت إلى الفراش في وقت مبكر واستيقظت في منتصف الليل فأكلت خوخًا أو تفاحًا من غير أن أعرف أنني استيقظت، ثم وجدت البقايا على الأرض عند السرير في الصباح. ذهبت في بداية شهر أيار إلى بيسكوبس آرنو لأنني وافقت قبل ستة أشهر على إلقاء محاضرة هناك. اتصلت بليمهاغن عندما جئت إلى ستوكهولم وقلت إنني أريد إلغاء هذا الارتباط لأنني لا أجد شيئًا أتحدث عنه. قال لي إنني أستطيع الذهاب على أي حال، أستطيع الاستماع إلى الآخرين يتكلمون، وقد أشارك في المناقشات وأقرأ شيئًا من كتاباتي مرة أو مرتين في المساء إن كان لدي شيء جديد.

لاقاني ليمهاغن أمام المبنى الرئيسي، وقال لي على الفور إنه لم يعرف في حياته وقتًا مثل الوقت الذي أمضيناه معًا في لقاء الكُتاب الجدد. قال إنه لم يعش شيئًا يشبه ذلك ولو من بعيد. فهمت ما عناه ذلك لأن الجو كان متميزًا جدًا آنذاك، كان متميزًا بالنسبة للجميع.

كانت المحاضرات مملة. والمناقشات مرهقة. أو لعل إحساسي الداخلي بالسعادة كان كبيرًا إلى حد لم يترك لي مجالًا لإظهار أي اهتمام بما يجري. لم يكن هناك أحد لديه شيء أصيل يقوله باستثناء كاتبين إيرلنديين أكبر سنًا. وهكذا، كان عليهما أيضًا أن يواجها أشد المناقشات. كنا نشرب في الليل، وكان حاضرًا أيضًا هنريك هوفلاند الذي أمتعنا بقصص عن الحياة في الخيام. قال في إحدى القصص التي سمعناها منه إن رائحة براز كل شخص بعد عدد من الأيام في الخيمة تصير شديدة مميزة إلى حد يجعل المرء قادرًا على معرفة مكان الآخر في الظلام من خلال حاسة الشم، كالحيوانات. لم يصدق أحد هذه الحكاية، لكنا ضحكنا جميعًا. أما أنا فوصفت لهم مشهدًا رائعًا من كتب آريلد رين حيث يدخل بطل القصة إلى المرحاض فيكون غائطه ضخمًا إلى حد يجعل الماء عاجزًا عن تصريفه، فيأخذه ويضعه في جيب سترته، ثم يخرج.

وفي اليوم التالي وصل كاتبان من النرويج: جيب ولارس. كانت الكلمة التي ألقاها جيب جيدة؛ ثم إن الوافدين كانا رفيقي شراب عظيمين. عادا معي إلى ستوكهولم. وذهبنا إلى أحد أماكن الشرب. بعثت برسالة إلى ليندا فأتت والتقينا في كفارنين. عانقتني عندما وصلت. ضحكنا وثرثرنا، لكن روحي غصّت فجأة لأن جيب كان شديد الجاذبية وكان أكثر ذكاء من معظم الناس؛ كان له أيضًا حضور ذكوري قوي لم يَبقَ من غير تأثير على ليندا... هكذا كان إحساسي. لعل هذا ما جعلني أبدأ معها مناقشة. من بين المواضيع الكثيرة التي كنت أستطيع طرحها، اخترت موضوع الإجهاض. لم يبدُ لي أن الموضوع أزعجها، لكنها ذهبت بعد قليل. أما نحن فبقينا وتابعنا الشرب، ثم ذهبنا إلى ملهى ليلي. إلّا أنهم لم يسمحوا لجيب بالدخول. لا بد أن ذلك كان له علاقة بكيس النايلون الذي كان يحمله بيده، وكذلك بمظهره المهلهل وحقيقة أنه كان في غاية السكر. بدلًا من ذلك، عدنا إلى شقتي حيث سقط لارس نائمًا، أما أنا فبقيت ساهرًا مع جيب. أشرقت الشمس. حكى لي جيب عن أبيه، وكم كان شخصًا طيبًا. ثم قال لي إنه مات، وجرت

دمعة على خده. كانت تلك لحظة من اللحظات التي ستعيش طويلًا في ذاكرتي، ربما لأن تلك المكاشفة جاءت من غير سابق إنذار. كان مستندًا برأسه إلى الجدار، وعلى وجهه أول أشعة شمس الصباح الناعمة. وكانت تلك الدمعة تجري منحدرة على خده.

في اليوم التالي، تناولنا الفطور في أحد المقاهي، ثم انطلقا إلى مطار آرلاندا. عدت لأنام وتركت النافذة مفتوحة. هطل المطر فأغرق الكمبيوتر. لم أكن محتفظًا بأي نسخة احتياطية من ملفاتي.

شغلت الكمبيوتر عندما استيقظت. اشتغل جيدًا. لست في خطر. اتصل غيير وقال إننا في السابع عشر من أيار، يوم الاستقلال في النرويج، فهل نخرج لتناول الطعام؟ هو وكريستينا وليندا وأنا؟ أخبرته عن الحديث الذي جرى بيننا فقال إن هنالك عددًا صغيرًا جدًا من الأمور التي لا تجوز مناقشتها مع النساء. الإجهاض واحد من تلك الأمور. يا إلهي، ماذا بك يا كارل أوفه؟ كل امرأة تقريبًا مرت بتجربة الإجهاض في وقت من الأوقات. فكيف تخوض في هذه المياه؟ اتصل بها وادعها إلى الخروج معك... فقد لا يعني الأمر شيئًا. لعلها لم تهتم بذلك الحديث.

«لا أستطيع الاتصال بها بعد الذي جرى».

«وما هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟ إن كانت غاضبة منك فستقول لك لا. إذا لم تكن غاضبة فستقول نعم. عليك أن تتبين الأمر. لا يمكنك الكف عن رؤيتها لأنك تظن أنها لا تريد رؤيتك».

اتصلت بها.

نعم... تحب أن تخرج معنا.

ذهبنا إلى مطعم كريبيريت، وجرى حديث عن العلاقة بين النرويج والسويد، موضوع غيير المفضَّل. ظلت ليندا تنظر إليّ. لم يبدُ عليها أي انزعاج، لكني لم أكن واثقًا إلى أن صرنا وحدنا، إلى أن صرت قادرًا على الاعتذار. قالت لي: لا بأس، لا حاجة إلى الاعتذار لأن لك آراؤك. ليست هذه قضية كبيرة.

وماذا عن جيب؟ فكرت في هذا السؤال، لكني لم أقل شيئًا، بالطبع.

ذهبنا إلى فولكوبيران. إنه المكان المفضّل عندها. عند موعد الإقفال في كل ليلة، يعزفون النشيد الوطني الروسي. كانت ليندا تحب كل ما هو روسي، تشيخوف خاصة.

سألتني: «هل قرأت تشيخوف؟».

«لا».

«ألم تقرأه؟ عليك أن تقرأه».

كانت شفتاها تنفتحان عن أسنانها عندما تكون متحمّسة، تمامًا قبل أن تبدأ قول الشيء الذي يثير حماستها. جلست أنظر إليها وهي تتكلم. إن لها شفتان جميلتان. وعيناها خضراوان رماديتان متألقتان. كانت عيناها رائعتين، مؤلمتين عندما أنظر فيهما.

«إن فيلمي المفضل روسي أيضًا. 'أحرقتهم الشمس' هل شاهدت هذا الفيلم؟».

«يؤسفني أنني لم أشاهده».

«علينا أن نشاهده ذات يوم. إن فيه فتاة رائعة... فتاة في منظمة الطلائع... حركة سياسية رائعة من أجل الأطفال». قالت هذا وضحكت.

قالت: «يبدو أن لدي الكثير مما يجب أن أجعلك تراه. بالمناسبة، هنالك أمسية لإلقاء بعض المقطوعات في كفارنين بعد... بعد خمسة أيام. سوف أقرأ شيئًا. هل تحب أن تأتي؟».

«طبعًا. ماذا ستقرئين؟».

«سأقرأ شيئًا لستيغ ساترباكن».

«وما سبب اختيارك هذا الكاتب؟».

«لأنني ترجمت كتابًا له إلى السويدية».

«حقًا؟ لماذا لم تخبريني شيئًا؟».

قالت مع ابتسامة: «لم تسألني. إنه آتٍ أيضًا. وأنا متوترة قليلًا بسبب

حضوره. ليست لغتي النرويجية جيدة بقدر ما كنت أظن. لكنه قرأ الكتاب ولم تكن له ملاحظات في ما يتعلق باللغة، هل تحبه؟».

«أحب كتابه السياميون كثيرًا».

«إنه الكتاب الذي ترجمته. ترجمته مع غيلدا. هل تذكرها؟».

«نعم، أذكرها».

«لكننا نستطيع اللقاء قبل ذلك. هل لديك ما يشغلك غدًا؟».

«لا. سيكون هذا جيدًا».

صدحت مكبرات الصوت بأول نغمات النشيد الوطني الروسي. نهضت ليندا وارتدت سترتها ونظرت إليّ.

قالت لي: «إذن، اتفقنا على اللقاء هنا. في الثامنة؟».

قلت: «في الثامنة».

توقّفنا في الخارج. كان أقرب طريق إلى بيتها يمر بهورنسغاتان، بيما يقع الطريق إلى بيتي في الاتجاه المعاكس.

قالت لي: «سوف أسير معك حتى بيتك. هل يمكنني ذلك؟».

أجبتها: «يمكنك طبعًا».

سرنا صامتين.

قلت عندما انعطفنا في واحد من الشوارع المتجهة صوب ماريا بيرغيت: «إنه أمر غريب! أنا في غاية السعادة لأنني معك، لكني غير قادر على قول أي شيء. كأنك تسلبينني القدرة على الكلام».

قالت وهي تلتفت في اتجاهي التفاتة سريعة: «لقد لاحظت هذا. لكن الأمر غير مهم. غير مهم بالنسبة إليَّ على أي حال».

لماذا غير مهم؟ فكرت في هذا. ما فائدة رجل لا يقول شيئًا؟

غرقنا في الصمت من جديد. كانت جدران المباني القرميدية على الجانبين تضخّم وقع خطواتنا على حجارة الشارع غير المستوية.

قالت لي: «لقد كانت أمسية لطيفة».

قلت: «الأمر غريب بعض الشيء. اليوم هو السابع عشر من شهر أيار.

من الواضح أن هذا التاريخ مزروع في دمي لأنني أحس طيلة الوقت أن هنالك شيئًا ناقصًا هنا. لماذا لا أرى أحدًا يحتفل؟».

مرت بيدها على أعلى ذراعي بحركة رقيقة كأنها تريد القول إنه ما من مشكلة إن تفوهت بأشياء غبية من هذا النوع!

توقفنا في الشارع تحت شقتي. نظر كل منا إلى الآخر. تقدمت منها وعانقتها مودعًا.

قلت لها: «أراك غدًا».

قالت: «نعم. تصبح على خير».

خطوت داخل الباب، ثم خرجت بعد لحظة واحدة. أردت أن أراها مرة أخرى.

كانت تسير وحيدة في الشارع المنحدر.

إنني أحبها.

فلماذا يكون الأمر مؤلمًا إلى هذا الحد؟

في اليوم التالي، كتبت كالمعتاد وجريت كالمعتاد وجلست في مكان ما في الخارج أقرأ كالمعتاد، جلست هذه المرة في مقهى لاسه في المنتزه. إنه مقهى مقابل جزيرة لانغهولمن. لكني لم أستطِع التركيز، ولم أستطِع جعل نفسي أكف عن التفكير في ليندا. كنت توّاقًا إلى رؤيتها، وما كان هنالك شيء أريده أكثر من رؤيتها. إلّا أن ظلّا بقيَ معلقًا فوق هذه الأفكار، ظلّا ما كان مخيمًا على أي أفكار أخرى دارت في رأسي ذلك اليوم.

لماذا؟

أهو بسبب ما حدث تلك المرة؟

بالتأكيد! لكني لم أكن أعرف السبب... كان هذا مجرد إحساس عندي لم أستطِع القبض عليه وصياغته على شكل فكرة واضحة.

كان مجرى الحديث هذا المساء صعبًا مثلما كان من قبل، لكن تلك الصعوبة صارت تثقل عليها هي أيضًا. الحماسة والبهجة اللتان كانتا عندها يوم أمس أوشكتا اليوم على الغياب تمامًا.

بعد جلوسنا ساعة واحدة، نهضنا وخرجنا. وفي الطريق سألتني إن كنت أحب تناول فنجان من الشاي في بيتها.

قلت لها: «أحب ذلك».

عندما صعدنا درجات السلم، تذكرت فجأة ما جرى بيني وبين التوأمين البولنديتين. كانت تلك قصة جيدة، لكني غير قادر على قولها لأن من شأنها أن تكشف لها أكثر مما يجب عن مدى اضطراب مشاعري وتعقيدها.

قالت لي: «هنا أعيش. خذ كرسيًا ريثما أعد الشاي».

كانت شقة مؤلفة من غرفة واحدة: سرير في نهاية الغرفة، وفي نهايتها الأخرى طاولة للطعام. خلعت حذائي، لكني لم أخلع سترتي. جلست على حافة الكرسي.

كانت تدندن لنفسها بشيء في المطبخ.

جاءت ووضعت فنجان الشاي أمامي، ثم قالت: «أظن أنني أصير مغرمة بك يا كارل أوفه».

«مغرمة؟» أهذا كل شيء؟ ثم إنها تقولها هكذا، في وجهي!

أجبتها: «وأنت تعجبينني كثيرًا أيضًا».

سألتني: «هل أعجبك؟».

لحظة صمت.

سألتني بعد قليل: «أتظن أننا قادران على أن نكون أكثر من صديقين؟».

قلت لها: «أريد أن نكون صديقين».

نظرت إليّ. وبعد ذلك أطرقت برأسها... بدت كأنها اكتشفت وجود فنجانها فرفعته إلى شفتيها.

نهضت واقفًا.

سألتني: «ألديك أي صديقات من النساء؟ أعني نساء هنّ مجرد صديقات لك، لا أكثر».

هززت رأسي نفيًا، لكنني قلت: «أقصد نعم، عندي. عندما كنت في

المدرسة الثانوية كان لديّ بعض الصديقات. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد بطبيعة الحال».

نظرت إليّ من جديد.

قلت لها: «أظن أن عليّ أن أذهب. أشكرك على الشاي».

نهضت ورافقتني إلى الباب. خطوت خارجًا إلى الممر قبل أن أستدير حتى لا تتمكن من معانقتي.

قلت لها: «إلى اللقاء».

قالت: «إلى اللقاء».

* * *

ذهبت صباح اليوم التالي إلى مقهى لاسِه في المنتزه. وضعت الأوراق أمامي على الطاولة وجلست أكتب رسالة لها. كتبت ما تعنيه عندي. كتبت ما كانته عندي لما رأيتها أول مرة، وكتبت ما هي عندي الآن. كتبت عن شفتيها اللتين تنزلقان منحسرتين عن أسنانها عندما تتحمس، وكتبت عن عينيها عندما تلمعان وعندما يتسع السواد فيهما كأنهما تمتصان الضوء. كتبت عن مشيتها، وكتبت كيف تتمايل مؤخرتها تمايلًا طفيفًا عندما تمشي... مثل عارضات الأزياء تقريبًا. كتبت عن قسمات وجهها الدقيقة، اليابانية. وكتبت عن ضحكتها التي يمكن أحيانًا أن تتدفق فتغمر كل شيء. كتبت لها كيف أحبها في تلك اللحظات. كتبت عن الكلمات التي تُكثر من استخدامها، وكم أحب طريقتها في قول كلمة نجوم وكيف تقول كلمة رائع بطريقة مندفعة. كتبت لها أنني رأيت هذا كله أول مرة عندما كنت لا أعرفها أبدًا ولا أعرف شيئًا عما يدور في رأسها بل لا أكاد أيضًا أعرف شيئًا مما تراه في العالم وفي الناس الذين فيه. لكني كتبت أن ما رأيته كان كافيًا لي، وأنني عرفت أنني أحبها وأنني سأحبها دائمًا.

سمعت صوتًا يقول: «كارل أوفه؟» رفعت رأسي.

إنها هي.

قلبت الورقة.

كيف يمكن أن يحدث هذا؟

قلت لها: «مرحبًا يا ليندا. أشكرك على الشاي مساء أمس».

«ما أسعدني بمصادفتك هنا. إنني مع إحدى صديقاتي. هل تفضّل أن تظل وحدك الآن؟».

«نعم، إن لم يكن هذا مزعجًا لك. إنني أعمل كما ترين».

«بالطبع. أفهم هذا».

نظر كل منا إلى الآخر. أومأت برأسي.

جاءت امرأة في سن ليندا. كانت تحمل فنجانَيْن. استدارت ليندا إليها، ثم ذهبتا إلى الناحية الأخرى من المقهى. جلستا هناك.

كتبت أنها جلست الآن في آخر المقهى.

لو أنني فقط... لو أنني قادر على تقريب هذه المسافة، هكذا كتبت! أعطي كل ما في العالم من أجل هذا. لكني لا أستطيع. أنا أحبك، ولعلك تظنين أنك تحبينني، لكنك لا تحبينني. أظن أنني أعجبك، بل إنني واثق من ذلك تمامًا، لكني لست كافيًا لك، وأنت تعرفين هذا في أعماقك. قد تكونين الآن في حاجة إلى أحد ما، وأتيتُ أنا فقلت في نفسك: قد يكون شخصًا لا بأس فيه. لكني لا أريد أن أكون شخصًا لا بأس فيه... هذا لا يكفيني. يجب أن يكون كل شيء أو لا شيء، ويجب أن تتّقدي... يجب أن أتَّقِد. يجب أن تريدي بقدر ما أريد. هل تفهمين هذا؟ أوه، أعرف أنك تفهمين. أرى كم يمكنك أن تكوني قوية، وأرى كم يمكنك أن تكون ضعيفة. لقد رأيت كيف تنفتحين على العالم. أنا أحبك، لكن هذا ليس كافيًا. لا معنى لأن نكون أصدقاء. كيف؟ لا أعرف حتى كيف أحدثك! أي صداقة يمكن أن تكون بيننا؟ أتمنى ألا تسيئي فهم هذا. أحاول فقط أن أقول لك كل شيء مثلما هو. أنا أحبك. هكذا هو الأمر. وفي مكان ما، سأظل أحبك دائمًا بصرف النظر عما يحدث معنا.

وضعت اسمي في آخر الرسالة، ثم التفتّ إليهما. كانت صديقتها فقط جالسة في موضع يسمح لها برؤيتي، ولم تكن تعرفني. وهكذا خرجت

من غير أن تلاحظني ليندا. عدت إلى البيت مسرعًا ووضعت الرسالة في مغلف، ثم بدّلت ملابسي وذهبت أجري حول سودير.

على امتداد الأيام التي تلت ذلك، بدا لي أن السرعة التي كانت في داخلي قد ازدادت. كنت أجري، وكنت أسبح، وكنت أفعل كل شيء أستطيعه حتى أهدئ اضطرابي الذي كان فيه من الحزن بقدر ما فيه من السعادة. لكني فشلت. كان يضطرب في داخلي اهتياج لا يمكن أن يهدأ، فرحت أسير في نزهات لا نهاية لها في أرجاء المدينة، وكنت أجري وأسبح وأرقد مستيقظًا في الليل عاجزًا عن الأكل... لقد قلت لها لا... لقد انتهى الأمر... وسوف يتلاشى كل شيء.

كان موعد اللقاء المتفق عليه لقراءة الأعمال الأدبية في يوم السبت. وعندما صار السبت، قرّرت عدم الذهاب. اتصلت بغيير لأرى إن كان يريد أن نلتقي في المدينة. اتفقنا على أن أراه في الساعة الرابعة في مقهى KB. جريت حتى مسبح إيريك سدال وسبحت أكثر من ساعة، سبحت جيئة وذهابًا في حوض السباحة المكشوف. كان ذلك رائعًا، وكان الهواء لطيف البرودة، والماء حارًا، والسماء رمادية مع مطر خفيف. ما كان من حولي أحد. سبحت جيئة وذهابًا، جيئة وذهابًا. كنت في غاية الإرهاق عندما خرجت من الماء. غيرت ملابسي، ووقفت بعض الوقت أدخن في الخارج. ثم سرت في اتجاه مركز المدينة حاملًا حقيبتي على كتفي.

لم أجد غيير عندما وصلت. اخترت طاولة عند النافذة، وطلبت بيرة. وبعد بضع دقائق، كان غيير واقفًا أمامي يمد يده إلي.

سألني وهو يجلس: «هل استجد شيء؟».

أجبته: «نعم ولا». ثم أخبرته بما حدث خلال الأيام الماضية.

قال لي: «لم أنت مأساوي هكذا على الدوام؟ ألا تستطيع أن تهدأ قليلًا؟ ليس من الضروري أن يكون كل شيء أو لا شيء».

قلت: «ليس هذا ضروريًا. لكنه ضروري تمامًا في هذه الحالة».

«هل بعثت إليها برسالتك؟».

«لا. ليس بعد».
تلقّيت رسالة نصية في تلك اللحظة. كانت من ليندا.
لم أرك في اللقاء هذا اليوم. هل كنت هناك؟
بدأت أكتب رسالة جوابية.
قال غيير: «ألا تستطيع أن تفعل هذا فيما بعد؟».
أجبته: «لا».
لم أستطِع الذهاب. هل كان اللقاء جيدًا؟
أرسلت ما كتبته، ثم رفعت كأسي وقلت لغيير: «في صحتك».
قال لي: «في صحتك».
وصلت رسالة أخرى.
اشتقت إليك. أين أنت الآن؟
اشتاقت إليّ؟!
قفز قلبي بين أضلعي. بدأت أكتب رسالة جديدة.
قال غيير: «كفّ عن هذا. وإلّا فإنني ذاهب».
قلت له: «سأنتهي سريعًا. انتظر لحظة».
اشتقت إليك أيضًا. أنا في KB.
قال غيير: «هذه ليندا، أليس كذلك؟».
«صحيح».
قال: «هل تدرك أنك تملأ هذا المكان حضورًا مزعجًا؟ عندما أتيت من هذا الباب ورأيتك أحسست برغبة في الاستدارة والعودة من حيث أتيت».
رسالة جديدة.
تعال إليّ يا كارل أوفه. في فولكوبيران. أنتظرك.
نهضت واقفًا.
«إنني آسف يا غيير، لكن عليّ الذهاب».
«الآن؟».
«نعم الآن».

«هيا يا رجل، ماذا بك؟ من المؤكد أنها تستطيع انتظارك نصف ساعة! لم آتِ بالمترو طيلة الطريق إلى هذا المكان حتى أجلس هنا وأشرب البيرة وحدي. أستطيع شرب البيرة في البيت».

قلت له: «آسف، سوف أتصل بك».

خرجت إلى الشارع راكضًا، وأشرت إلى سيارة تاكسي. كاد نفاد الصبر يجعلني أصرخ عند إشارات المرور، لكن السيارة وصلت آخر الأمر إلى فولكوبيران فدفعت الأجرة، ثم دخلت.

كانت جالسة في الطابق الأرضي. وفور رؤيتها، أدركت أن لا مبرر للاستعجال.

ابتسمت لي وقالت: «كم أنت سريع!».

«كان لديّ انطباع بأن هنالك شيئًا طارئًا».

«لا، لا، لا، على الإطلاق».

عانقتها ثم جلست.

سألتها: «أتريدين شرابًا؟».

«ماذا تحب أن تشرب؟».

«لست أدري. ما رأيك في النبيذ الأحمر».

«فكرة حسنة».

شربنا زجاجة نبيذ، وتحدثنا عن هذا وذاك... لم نتحدّث عن أي شيء ذي أهمية خاصة. كان ذلك كله بيني وبينها؛ كلما نظرت في عينيها تسري رعشة في جسدي، ثم تأتي خبطة ثقيلة. إنه قلبي.

قالت لي: «هنالك حفلة في فيرتيغو الآن. هل تحب الذهاب إليها؟».

«فليكن! تبدو فكرة جيدة».

«إن ستيغ ساترباكن هناك».

«قد لا يكون الذهاب أمرًا جيدًا تمامًا. لقد انتقدته انتقادًا شديدًا ذات مرة. ثم قرأت مقابلة معه قال فيها إنه يحتفظ بكل المراجعات التي انتقدته. لا بد أن يكون ما كتبته أقسى تلك المراجعات على الإطلاق، وقد احتل

صفحة كاملة في صحيفة مورغن بلادت. وبعد ذلك هاجمنا، أنا وتوره، في إحدى المناظرات. قال إننا فالدباكن وفالدباكن. لكني لا أظن أن هذا يعني الكثير بالنسبة إليك». هزت رأسها.

قالت: «هل تريد الذهاب إلى مكان آخر؟».

«لا، لا، يا إلهي! فلنذهب إلى تلك الحفلة».

كان الظلام قد بدأ يخيّم عندما خرجنا من فولكوبيران. ازدادت كثافة الغيوم التي غطت السماء طيلة النهار.

أخذنا سيارة تاكسي. كان «فيرتيغو» في القبو، وكان شديد الازدحام: هواء حار كله دخان. التفتّ إلى ليندا وقلت إننا قد لا نبقى زمنًا طويلًا هنا.

سمعت صوتًا يقول: «أليس هذا كناوسغارد؟».

التفت فرأيت ساترباكن. ابتسم لي وقال: «كناوسغارد وأنا خصمان»... ثم أضاف وهو ينظر إليّ: «ألسنا خصمين؟».

قلت له: «لست خصمًا لك».

قال: «لا تكن جبانًا الآن! لكنك على حق. لقد وضعنا ما جرى خلف ظهورنا. إنني أكتب رواية جديدة. وأنا أحاول أن أفعل ما فعلته أنت. أحاول الاقتراب من أسلوبك في الكتابة».

يا إلهي!... هكذا قلت في نفسي. هذا إطراء حقيقي!

قلت له: «جيد. يبدو هذا أمرًا يستحق الاهتمام».

قال: «نعم، إنه يستحق الاهتمام تمامًا. انتظر، وسوف ترى».

أجبته: «نتحدّث في وقت لاحق».

«بالتأكيد».

ذهبنا إلى البار وطلبنا الجن مع التونيك، ثم عثرنا على كرسيين شاغرين وجلسنا. تعرف ليندا عددًا كبيرًا من الموجودين هنا. راحت تتجوّل بينهم وتعود إليّ من وقت لآخر. أما أنا، فرحت أزداد سكرًا؛ إلّا أن المزاج المرتاح الذي رافقني منذ رأيت ليندا في فولكوبيران لا يزال مستمرًا. كان كل منا ينظر إلى الآخر. كنا زوجًا. كانت تضع يدها على كتفي. كنا زوجًا

(كوبلّا). وكانت تلاقي نظرة عيني عبر الصالة خلال حديثها مع أحد ما، ثم تبتسم لي. لقد كنا زوجًا.

بعد بضع ساعات أمضيناها هناك، وجدنا نفسينا جالسين في كنبتين في غرفة صغيرة في القسم الداخلي من النادي. انضم إلينا ساترباكن وسألنا إن كنا نحب أن يدلك أقدامنا. زعم أنه ماهر في التدليك. قلت لا، لا أريد ذلك. نزعت ليندا حذائها ووضعت قدمها في حضنه. بدأ يدلك قدمها ويعجنها بأصابعه وهو ينظر في عينيها.

قال لها: «إنني ماهر في هذا، ما رأيك؟».

قالت ليندا: «نعم، هذا رائع».

«الآن جاء دورك يا كناوسغارد».

«لا أريد».

«لا تكن جبانًا. هيا الآن. اخلع حذاءك!».

فعلت ما طلبه آخر الأمر: خلعت حذائي ووضعت قدمي في حضنه. كان التدليك ممتعًا في حد ذاته، لكن حقيقة أن ستيغ ساترباكن جالس هناك يضغط على قدمي وقد استقرت ابتسامة على وجهه كانت شيئًا يصعب تفسيره إلّا بأنه شيطاني... شيئًا أضفى على الوضع نوعًا من معنى مزدوج... إذا أردت التعبير عما أحسسته بطريقة معتدلة.

بعد أن انتهى من التدليك، سألته عن مجموعة مقالاته الأخيرة التي تتحدث عن الشر. وبعد ذلك تجولت قليلًا وشربت كأسًا تلو أخرى. لمحت ليندا واقفة مستندة إلى جدار ومعها فتاة رأيتها في فالبورغ... هيلدا، ويلدا؟ خراء... لا، إنها غيلدا.

كانت ليندا في غاية الجمال. كانت متوهجة بالحياة إلى حد لا يصدَّق. أيمكن حقًا أن تكون لي؟

ما كدت أفكر في ذلك حتى لاقت عيناها عيني. ابتسمت ولوّحت لي. سرت إليها.

لقد آن الأوان. إن لم أقل لها الآن فلن أقول شيئًا أبدًا.

ابتلعت ريقي ووضعت يدي على كتفها.
قالت لي: «هذه غيلدا».
قالت غيلدا مبتسمة: «لقد التقينا من قبل».
قلت: «تعالي».
نظرت إليّ نظرة استفهام.
كانت عيناها داكنتين.
قالت لي: «الآن؟».
لم أجِبها. أمسكت بيدها.
خرجنا عبر الباب من غير أي كلام. فتحت بابًا، وصعدنا درجات السلم. كان المطر ينهمر.
قلت لها: «لقد أخذتك جانبًا من قبل. لم يسِر الأمر على نحو جيد تلك المرة. وقد تسوء الأمور الآن أيضًا. مهما يكن الأمر، فليكن ما يكون. لكن هنالك ما أريد قوله. هنالك ما أريد قوله عنك».
قالت: «عني أنا؟».
كانت واقفة أمامي رافعة رأسها تنظر إليّ وقد ابتل شعرها بماء المطر وصار وجهها لامعًا تحت قطراته.
قلت: «نعم، عنك».
عند ذلك بدأت أخبرها ما كانته عندي. قلت لها كل ما كتبته في الرسالة. وصفت شفتيها وعينيها، ووصفت مشيتها والكلمات التي تستخدمها. قلت إنني أحببتها حتى عندما كنت لا أعرفها. وقلت لها إنني أريد أن أكون معها. ولا أريد شيئًا غير هذا.
وقفت على رؤوس أصابعها ورفعت وجهها إليّ فانحنيت وقبلتها.
عندها، اسودّ كل شيء.
أفقت على رَجلين يجراني من قدميَّ على الرصيف. وضعاني في أحد المداخل. كان أحدهما يتكلّم بهاتفه المحمول. قال إن المسألة قد تكون متعلقة بالمخدرات... قال إنهم لا يعرفون على وجه التحديد. توقفا وانحنيا فوقي.

«هل أنت صاحٍ؟».
قلت: «نعم. أين أنا؟».
أنت إلى جانب نادي فيرتيغو. هل كنت تتعاطى المخدرات؟».
«لا».
«ما اسمك؟».
«اسمي كارل أوفه كناوسغارد. أظنني فقدت الوعي. لا مشكلة على الإطلاق. إنني في حال جيدة تمامًا».
رأيت ليندا آتية صوبي.
سألتهما: «هل استعاد وعيه؟».
قلت لها: «ليندا! ماذا حدث؟».
قال الرجل على الهاتف: «لا حاجة إلى مجيئكم. الوضع حسن هنا. إنه صاحٍ تمامًا، ومن الواضح أنه بخير».
قالت ليندا: «لقد أغمي عليك، هكذا أظن. لقد سقطت فجأة».
قلت: «يا إلهي... أنا آسف لحدوث هذا».
«لا حاجة إلى الأسف... ما قلته لي كان جميلًا... لم يقله لي أحد من قبل».
سألني أحد الرجلين: «هل تحس أنك على ما يرام؟».
أومأت برأسي. ذهب الرجلان.
«حدث ذلك عندما قبلتني. أحسست كأن شيئًا أسود اللون ظهر فجأة. ثم استيقظت فوجدت نفسي هنا».
نهضت وسرت مترنحًا بضع خطوات قبل أن أستطيع استعادة توازني.
قلت: «أظن من الأفضل أن أذهب إلى البيت. لكنك تستطعين البقاء إن أردت ذلك».
ضحكت ليندا وقالت: «سنذهب إلى بيتي وسأعتني بك».
أجبتها: «أحب فكرة أن تعتني بي».
ابتسمت وأخرجت هاتفها من جيبها. كان شعرها ملتصقًا بجبهتها.

نظرت إلى ملابسي. كان لون بنطلوني قاتمًا لأنه ابتل كله. مررت أصابعي في شعري.

قلت لها: «الغريب فعلًا أنني لم أعد ثملًا على الإطلاق. لكني أحس جوعًا جهنميًا».

«متى أكلت آخر مرة؟».

«أكلت في وقت ما يوم أمس على ما أظن. في الصباح على ما أظن».

كانت في تلك اللحظة تطلب سيارة تاكسي. نظرت إليّ بعينين متسعتين، ثم أعطتهم العنوان. وبعد ذلك بعشر دقائق، كانت السيارة تأخذنا عبر الليل والمطر.

لم أعرف أين كنت عندما استيقظت. لكني رأيت ليندا فتذكرت كل شيء. التصقت بها ففتحت عينيها. مارسنا الحب من جديد. كان ذلك صحيحًا تمامًا، جيدًا تمامًا، وعرفت بكياني كله أننا صرنا معًا. قلت لها هذا.

قلت لها: «يجب أن ننجب أطفالًا. إن لم نفعل ذلك فستكون جريمة بحق الطبيعة».

ضحكت ليندا.

قلت: «سيحدث هذا. أنا واثق تمامًا. لم أحس هذا الإحساس من قبل، أبدًا».

توقفت عن الضحك ونظرت إليّ. سألتني: «هل تعني ما تقول حقًا؟».

أجبتها: «نعم أعنيه. إن كنت لا تحسّين ما أحسه فإن الأمر قد يكون شيئًا مختلفًا. لكنك تحسين ذلك، أليس هذا صحيحًا؟ أستطيع الشعور بأنك أحسست ذلك أيضًا».

قالت: «هل ما يحدث حقيقي؟ هل أنت مستلقٍ هنا في فراشي؟ وهل تقول إنك تريد أطفالًا مني؟».

«نعم. وأنت تحسين الشيء نفسه، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها ثم قالت: «لكني ما كنت لأقول هذا أبدًا».

كانت سعادتي كاملة لأول مرة في حياتي كلها. لأول مرة في حياتي

كلها، ما كان هنالك شيء يمكن أن يلقي بظله على سعادتي. كنا معًا في كل وقت، وكان أحدنا يشد الآخر إليه، عند إشارات المرور، وعبر طاولة المطعم، وفي الباصات، وفي الحدائق... ما كانت عند أي منا حاجة إلّا إلى الآخر... ما كانت عنده رغبة إلّا في الآخر. كنت أشعر بحرية تامة، لكن معها فقط. أشتاق، وأحنّ إليها لحظة افتراقنا. كان هذا غريبًا؛ كانت قوة غريبة... وكانت قوة رائعة. كان غيير وكريستينا يقولان إن من المستحيل الجلوس معنا لأننا لا نرى أحدًا غيرنا. كان هذا صحيحًا، وما كان هنالك عالم من حولنا غير العالم الذي بنيناه. ذهبنا ليلة منتصف الصيف إلى جزيرة رونمارو حيث استأجرت ميكائيلا كوخًا. وجدت نفسي أضحك وأغني في الليل السويدي... كنت سعيدًا مغنيًا أحمق... لأن كل شيء صار له معنى، لأن كل شيء صار مشبّعًا بالمعنى كأن نورًا جديدًا قد انصبَّ على العالم كله. كنا نسبح في ستوكهولم ونستلقي في الحديقة ونقرأ، كنا نأكل في المطاعم... ما كانت هنالك أهمية لما نفعله: ما له أهمية هو حقيقة أننا نفعله. قرأت هولدرلين فسرَت قصائده في نفسي كأنها الماء، وما كان فيها شيء لا أفهمه. كانت نشوة الوَجْد فيها ونشوة الوجد عندي هي نفسها. وفوق هذا كله، كانت الشمس تسطع كل يوم خلال شهر حزيران، وخلال تموز وآب. أخبر أحدنا الآخر بكل شيء عن نفسه مثلما يفعل العشاق. ومع أننا كنا نعرف أن هذا لا يمكن أن يستمر، ومع أن التفكير في هذا كان مفزعًا لأن فيه شيء لا يمكن احتماله، فقد عشنا تلك السعادة كلها كأننا لا نعرف شيئًا عن ذلك. لا بد أن يأتي الخريف، لكننا لن نشغل نفسَينا به. كيف نشغل نفسينا به عندما يكون كل شيء عظيمًا هكذا؟

نادتني عندما كنت في الدوش ذات صباح. ذهبت إلى الغرفة، فوجدتها مستلقية في السرير، عارية. كنا قد وضعنا السرير عند النافذة حتى نستطيع رؤية السماء.

قالت لي: «انظر، هل تستطيع رؤية الغيمة؟».

استلقيت إلى جانبها. كانت السماء صافية زرقاء تمامًا ليس فيها غيوم إلّا

تلك الغيمة التي تسبح مقتربة ببطء. كانت الغيمة على شكل قلب.

قلت وأنا أضغط على يدها: «نعم، أراها».

ضحكت وقالت: «كل شيء في غاية الكمال. لم أعش هذا في حياتي كلها. ما أسعدني معك! أنا في غاية السعادة».

أخذنا القارب إلى الجزر الصغيرة. ثم استأجرنا كوخًا خشبيًا في الغابة بالقرب من أحد فنادق الشباب. كنا نسير ساعات في الجزيرة، ونمضي عميقًا في الغابة حيث تفوح روائح الصنوبر والخلنج من كل شيء؛ وكنا نصل فجأة إلى حافة صخرية شديدة الانحدار فنرى البحر تحتنا. نتابع السير فنصل إلى مرج أخضر. نتوقف وننظر إلى الأبقار؛ تنظر الأبقار إلينا فنضحك ويلتقط كل منا صورًا للآخر. نتسلق شجرة ونجلس في الأعلى نثرثر كأننا طفلين صغيرين.

قلت لها: «ذات مرة، أرسلني أبي لأشتري له السجائر من محطة وقود على مسافة كيلومترين من البيت. لا بد أنني كنت في السابعة أو في الثامنة آنذاك. وكان الدرب يمضي عبر غابة. كنت أعرف الدرب مثلما أعرف راحة يدي. لا أزال أعرفه مثلما أعرف راحة يدي. وفجأة، سمعت خشخشة بين الأجمات. توقفت ونظرت هناك فرأيت طائرًا جميلًا رائعًا بكل معنى الكلمة... هل تفهمين هذا؟... طائر كبير ملوَّن. لم أرَ شيئًا مثله قبل ذلك. بدا لي أنه طائر زائر آتٍ من مسافة بعيدة، من قارة نائية... من أفريقيا أو آسيا. قفز الطائر عدة قفزات على الأرض ثم طار واختفى. لم أرَ بعدها طائرًا من ذلك النوع، ولم أعرف أبدًا ما يمكن أن يكون».

سألتني ليندا: «هل هذا صحيح؟ لقد حدث الأمر نفسه معي ذات مرة. كنت في زيارة إلى إحدى صديقاتي في بيتها الصيفي. كنت جالسة فوق شجرة، نعم، مثلما نجلس الآن. كنت جالسة أنتظر عودة صديقتي. نفد صبري فقفزت إلى الأرض. تجوّلت هنا وهناك من غير هدف، وفجأة رأيت طائرًا رائعًا متعدد الألوان. لم أرَ مثله بعد ذلك أبدًا».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم صحيح».

هكذا كان الأمر: كان لكل شيء معنى. وكانت حياتها وحياتي مترابطتين، متداخلتين. وفي طريق عودتنا من الجزيرة، تحدّثنا عن اسم طفلنا الأول.

قلت لها: «سيكون صبيًا، وأنا أفضل اسمًا بسيطًا. ما رأيك أن نسميه أو لا؟ يعجبني هذا الاسم دائمًا، ما رأيك؟».

قالت: «يبدو اسمًا جيدًا. إنه نرويجي كثيرًا، يعجبني هذا».

قلت لها: «نعم»، كنت أنظر من النافذة.

زورق صغير يتهادى على الأمواج صعودًا وهبوطًا، ماضيًا في طريقه. رأيت اسم القارب مكتوبًا عليه: كان اسمه أُولا!

قلت لها: «انظري إلى القارب».

مالت ليندا صوب النافذة ونظرت. قالت: «تقرر الأمر إذن! سيكون اسم ابننا أُولا».

في وقت متأخر من إحدى الأماسي، كنا صاعدين في الطريق معًا نحو شقتي، وكنا لا نزال في المرحلة الأولى المحمومة من مراحل علاقتنا. قالت ليندا بعد صمت قصير: «كارل أوفه، هنالك شيء يجب أن أقوله لك».

قلت: «نعم، ماذا؟».

«لقد حاولت أن أقتل نفسي ذات مرة».

قلت: «ماذا تقولين؟».

لم تجبني، بل أطرقت برأسها وراحت تنظر إلى الأرض أمامها.

سألتها: «هل حدث هذا قبل وقت طويل؟».

«أظنه كان قبل سنتين. حدث ذلك عندما كنت في المصحة النفسية».

نظرت إليها، لكنها لم ترد النظر في عيني. اقتربت منها واحتضنتها. وقفنا هكذا زمنًا طويلًا. ثم صعدنا درجات المدخل ومضينا إلى المصعد. فتحت باب الشقة فدخلت وجلست على السرير. فتحتُ النافذة فأتتنا أصوات ليل الصيف المتأخر.

سألتها: «ألا تريدين شرب الشاي؟».

قالت لي: «نعم، من فضلك».

ذهبت إلى المطبخ الصغير فوضعت غلاية الماء وأخرجت فنجانين ووضعت كيس شاي في كل منهما. وضعت فنجانها أمامها، ثم جلست عند النافذة المفتوحة أرتشف الشاي من فنجاني. بدأت تخبرني عما حدث. ذهبت أمها فأتت بها من المستشفى. كانتا في طريقهما إلى شقتها لأنها تريد أن تأخذ شيئًا من هناك. وعندما اقتربتا بدأت ليندا تجري في اتجاه الشقة. جرت أمها خلفها. كانت ليندا منطلقة بأقصى سرعتها. دخلت البناية، وصعدت درجات السلم جارية فدخلت شقتها واتجهت إلى النافذة. وصلت أمها بعد ثواني معدودة. كانت ليندا قد فتحت النافذة وتسلقت حافتها. اندفعت أمها إليها، تمامًا عندما كانت على وشك القفز، فأمسكتها وشدتها إلى الخلف.

قالت ليندا: «لقد جن جنوني. أظنني كنت راغبة في قتلها. بدأت أضربها. تعاركنا. وأظن أن عراكنا استمر عشر دقائق. حاولت دفع البراد لجعله يسقط عليها. لكنها كانت أقوى مني. بالطبع، كانت أقوى مني. وفي النهاية، ألقتني أرضًا وجلست على صدري، فاستسلمت. اتصلت بالشرطة فأتوا لإعادتي إلى المستشفى».

أعقب ذلك صمت قصير. نظرت إليها فنظرت في عيني نظرة سريعة، كأنها طائر.

قالت لي: «يخجلني ما حدث. لكني قلت في نفسي إنك لا بد أن تعرف هذا في وقت ما».

لم أجد شيئًا أقوله لها. كانت هنالك هوة شاسعة بين المكان الذي كانت فيه آنذاك وبين مكاننا الآن. هذا ما أحسسته، على الأقل. لكن، لعل الأمر لم يكن هكذا بالنسبة إليها.

سألتها: «لماذا فعلتِ ذلك؟».

«لست أدري. ولا أظن أيضًا أن السبب كان واضحًا في ذهني في ذلك الوقت. لكني أذكر ما جرى. أصابني هوس جنوني استمر عدة أسابيع في آخر

الصيف. جاءت ميكائيلا إلى شقتي ذات مساء فوجدتني جاثمة على الطاولة أقول أرقامًا. أخذتني مع أوليغارد إلى عيادة الحالات النفسية الحادة. وهناك، أعطوني بعض الأقراص المنوّمة وسألوني إن كنت أقبل البقاء في بيت ميكائيلا بضعة أيام. وبعد ذلك، خلال فصل الخريف، كانت النوبات تأتيني واحدة بعد أخرى. ثم بلغ اكتئابي أعماقًا جديدة، كان هائلًا فلم أعرف كيف المخرج منه. صرت أتفادى لقاء أي شخص أعرفه لأنني لم أكن أريد أن يصبح أي منهم آخر شخص يراني على قيد الحياة. سألتني الاختصاصية النفسية التي كانت تشرف على حالتي إن كانت لديّ أي أفكار انتحارية. فانفجرت باكية. قالت لي إنها لا تستطيع تحمل المسؤولية عني خلال الفترات الفاصلة بين جلسة معالجة وأخرى، وهكذا فقد قبلوني في المصحة. رأيت أوراق جلسة القبول. كانت دقائق كثيرة تفصل بين طرح السؤال عليّ وبين إجابتي، هكذا قالت الأوراق... لا زلت قادرة على تذكر ذلك. كنت غير قادرة على الكلام أيضًا، كان مستحيلًا أن أقول أي شيء لأن الكلمات كانت بعيدة عني. كان كل شيء شديد البعد عني. وكان وجهي قناعًا جامعًا من غير أي تعبير عليه».

رفعت رأسها ونظرت إليّ. جلستُ على السرير إلى جانبها. وضعت فنجان الشاي على الطاولة، ثم استلقت. استلقيت إلى جوارها. أحسست ثقلًا في الظلمة خارج النافذة كأن لتلك الظلمة جسدًا غريبًا عن ليالي أواسط الصيف. مر القطار مقعقعًا على الجسر عند ريدار فياردن.

قالت: «لقد كنت ميتة. لم أكن راغبة في مغادرة الحياة، بل كنت قد غادرتها بالفعل. عندما قالت الاختصاصية النفسية إنهم سيدخلونني إلى المصحة، أحسست بشيء من الراحة لأن هنالك من يريد الاعتناء بي. لكني ذهبت فوجدت البقاء هناك مستحيلًا. ما كنت قادرة على البقاء. وعند ذلك بدأت أضع خطة. كانت فرصتي الوحيدة في الإفلات من ذلك المكان هي الحصول على إذن مغادرة نهاري حتى أجلب ملابس وأشياء أخرى من شقتي. لا بد أن يرافقني أحد؛ وكانت أمي الشخص الوحيد الذي استطعت التفكير فيه».

صمتت بعض الوقت.

«لكني، لو أردت القفز من النافذة حقًا... لو أردت ذلك حقًا لنجحت. هذا ما أراه الآن. لم أكن في حاجة إلى فتح النافذة لأنني كنت أستطيع أن أقذف بنفسي عبرها، وما كان ذلك ليشكل فارقًا كبيرًا. لكن الحذر الذي كان في سلوكي... نعم، لو كنت أريد ذلك حقًا، لو كنت أريده من كل قلبي، لنجحت في فعله».

قلت وأنا أداعب شعرها بأصابعي: «يسعدني أنك لم تنجحي. لكن، هل تخشين أن يتكرر هذا مرة أخرى؟».

«نعم».

ساد صمت.

كانت المرأة التي استأجرت الغرفة منها تصدر ضجيجًا خلف الباب المغلق. سمعت أيضًا سعال شخص ما على ترّاس السطح فوقنا.

قلت لها: «أنا لستُ خائفًا».

استدارت بوجهها في اتجاهي: «ألست خائفًا؟».

«لا، إنني أعرفك».

«أنت لا تعرفني كلي».

«طبعًا، لا أعرفك كلك». قلت هذا وقبلتها... «لكن ذلك لن يحدث مرة أخرى، أنا واثق من هذا».

قالت مع ابتسامة: «إذن، أنا واثقة من ذلك أيضًا». ثم لفّتني بذراعيها.

ليالي الصيف التي لا تنتهي، الليالي الخفيفة المفتوحة المضيئة، ليالي كنا نجول فيها بين مجموعة مختارة من البارات والمقاهي في أجزاء مختلفة من المدينة. كنا نتنقل بسيارات تاكسي سوداء، وحدنا أو مع أشخاص آخرين. وما كان الشرب شيئًا مزعجًا، ولا مؤذيًا، بل كان مثل موجة ترفعنا أعلى فأعلى، مثل موجة تبدأ بطيئة خفيفة ثم تزداد عمقًا وقتامة على نحو لا يكاد يُلحظ... كان ذلك كأن السماء متصلة بالأرض وكأن الحيّز الذي تجده البهجة المرحة المنطلقة يتناقص شيئًا فشيئًا... كأن هنالك ما يملأه ويثبته في

مكانه إلى أن ينتهي الصيف ويصير الليل هادئًا آخر الأمر، يصير جدارًا من ظلمة ينسدل في المساء ويرتفع في الصباح. ما عاد يمكن التفكير في ليالي الصيف التي تفيض ضياء... كأنك تحاول عبثًا استعادة حلم بعد استيقاظك.

بدأت ليندا تذهب إلى معهد الدراما. كانت الفترة التحضيرية صعبة لأنهم رموهم في أنواع مختلفة من المواقف الصعبة. وأظن أن الفكرة من ذلك كانت قائمة على أن من الأفضل أن يتعلم الطلاب من تجاربهم تحت الضغط خلال سيرهم قدمًا. كانت تذهب على دراجتها منطلقة إلى دروسها كل صباح، أما أنا فأعود إلى شقتي لأكتب. كنت قد حوّلت قصة الملائكة إلى قصة عن امرأة في مستشفى للولادة سنة 1944. كانت المرأة قد ولدت للتو، وكان ذهنها مشوشًا. لكن الأمر لم ينجح لأن النص كان يبدو لي شديد البعد... كنت قد ابتعدت عنه أكثر مما ينبغي. لكني تابعت رغم ذلك؛ كنت أتقدم بصعوبة صفحة بعد صفحة. لكني لم أكن أرى هذا شيئًا مهما لأن هناك ما هو أكثر أهمية... لالشيء المهم الوحيد، هو أن حياتي كلها تركزت على ليندا.

في يوم من أيام الأحد، كنا نتناول طعام الغداء في مطعم في أوسترمالم. كان المطعم بالقرب من كارلابلان، وكان اسمه أوسكار. جلسنا في الخارج. وضعت ليندا بطانية على ساقيها. طلبت لنفسي سندويتشًا كبير الحجم، أما ليندا فكانت تأكل سلطة الدجاج. هدوء أيام الأحد يلف الشارع؛ ومن تحتنا، دُقت أجراس الكنيسة من أجل القداس. ثلاث فتيات على طاولة مجاورة، ورجلان على طاولة خلفهن قليلًا. كانت مجموعة من عصافير الدوري الصغيرة تنط على الطاولات القريبة من الطريق. بدت تلك العصافير أليفة تمامًا. كانت تقترب من الصحون القريبة بقفزات صغيرة فتنقر شيئًا من الطعام الذي فيها ثم ترتد رؤوسها كلها مندفعة إلى الأعلى. اخترق الهواء ظل مفاجئ فرفعت رأسي. كان طائرًا ضخمًا. زعق في اتجاهنا وانقضّ على طاولة العصافير الصغيرة فالتقط واحدًا منها بمخالبه وحلق مرتفعًا من جديد.

استدرت إلى ليندا. كانت تحدق في الهواء فاغرة فاها.

سألتها: «هل انقض طائر مفترس فأخذ واحدًا من عصافير الدوري أم أنني أحلم؟».

قالت ليندا: «لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. كان مخيفًا. في وسط المدينة؟ ما هو ذلك الطائر؟ هل هو نسر؟ حدأة؟ مسكين ذلك العصفور الصغير!».

قلت ضاحكًا: «لا بد أنه حدأة». أثارني المنظر. نظرت ليندا إليّ بعينين مبتسمتين.

قلت لها: «كان جدي لأمي أصلع الرأس. لم تكن لديه إلّا حلقة من الشعر الأبيض حول رأسه. عندما كنت صغيرًا، كان يقول لي إن الحدأة التي تخطف الدجاج أخذت شعره أيضًا. وبعد ذلك، كان يمثّل أمامي كيف أنشبت الحدأة مخالبها في شعره وطارت به بعيدًا. كانت حلقة الشعر الباقية برهانًا على قصته. لقد صدقت تلك القصة فترة غير قليلة، وكنت أنظر إلى السماء باحثًا عن الحدأة، لكني لم أرَها أبدًا».

قالت ليندا: «لم ترَها إلّا في هذه اللحظة».

«لست واثقًا من أنها الحدأة نفسها».

قالت مبتسمة: «لا، ليست نفسها! عندما كنت في الخامسة، كان لديّ هامستر صغير في قفص. كنا نذهب إلى بيتنا الصيفي في فصل الصيف، وكنت أطلقه حرًا هناك. أضع القفص على العشب وأترك الهامستر يتجول هنا وهناك بين النباتات. وذات صباح، كنت على التراس أنظر إليه فانقضّ عليه طائر مفترس. في لمحة عين، كان الهامستر قد طار بعيدًا في السماء».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم».

«شيء فظيع!».

ضحكت ودفعت صحني بعيدًا، ثم أشعلت سيجارة واستندت إلى ظهر الكرسي.

«أذكر أن جدي كان يملك بندقية. كان يستخدمها أحيانًا لإطلاق النار

على غربان. أصاب أحدها ذات مرة فبتر ساقه. لكن الغراب عاش، ولا يزال في المزرعة حتى الآن. هذا ما قيل لي: غراب بساق واحدة له عينان تحدقان في كل شيء».

قالت ليندا: «مذهل».

قلت: «ذلك الغراب يشبه القبطان البحري هاب في رواية هيرمان ميلفيل. وجدّي يجوب الأرض كأنه ذلك الحوت الأبيض الكبير في البحر.

نظرت إليها: «من المؤسف أنك لم تريَ جدي. لو رأيته لأحببته».

«وأنت كنت ستحب جدي أيضًا».

«لقد كنتِ موجودة عندما مات، أليس كذلك؟».

هزت رأسها وقالت: «أصابته نوبة دماغية فذهبت إلى نورلاند. لكنه مات قبل وصولي».

أمسكَتْ بعلبة سجائري ونظرت إليّ فأومأت برأسي. أخذت منها سيجارة، ثم تابعت تقول: «لكني كنت شديدة القرب من جدتي. كانت تأتي إلى ستوكهولم لرؤيتنا ولتشرف بنفسها على كل شيء. كان أول شيء تفعله هو تنظيف البيت كله. كانت تعدّ الفطائر وتطبخ وتظل معنا. كانت امرأة قوية حقًا.

«أمك قوية أيضًا».

«صحيح. الحقيقة أنها تزداد شبهًا بجدتي. أعني أنها، بعد أن توقفت عن العمل في مسرح الدراما الملكي وانتقلت إلى الريف صارت كأنها قد استأنفت حياتها التي كانت في تلك الأيام. صارت تزرع الخضار وتعد طعامها كله بنفسها. لديها أربعة فريزرات مليئة بالطعام والمنتجات التي تشتريها بأسعار رخيصة. ثم إنها الآن ما عادت شديدة الاهتمام بمظهرها... على الأقل، لم تعد مهتمة مثلما كانت من قبل».

نظرت إليّ... «هل أخبرتك عن تلك المرة التي رأت فيها جدتي أضواء الشفق الشمالي حمراء اللون؟».

هززت رأسي.

«رأتها عندما كانت تمشي في الخارج. كانت السماء حمراء كلها، وكان الضياء يتموّج متقدمًا متراجعًا. لا بد أن ذلك كان جميلًا، لكنه مخيف أيضًا. عادت إلى البيت وأخبرتنا بما رأت، فلم يصدقها أحد. كانت هي لا تصدق نفسها تقريبًا... أضواء شمالية حمراء! شفق قطبي أحمر!... من رأى شيئًا كهذا؟ هل رأيته أنت؟».

«لا».

«لكني، بعد سنين كثيرة، كنت في الخارج مع أمي نسير في هومليغاردن في ساعة متأخرة من الليل. ثم، رأينا ذلك الشيء نفسه! تظهر أضواء الشفق القطبي هنا من وقت لآخر، لكنها نادرة... إلّا أن ذلك يحدث أحيانًا. وفي تلك الليلة، كانت الأضواء حمراء! اتصلت أمي بجدتي فور عودتنا إلى البيت. بكت جدتي! وفيما بعد، قرأتُ عن ذلك واكتشفت أنها ظاهرة مناخية نادرة».

انحنيت فوق الطاولة وقبلتها. «هل تريدين قهوة؟».

أومأت برأسها فذهبت لأطلب فنجانين من القهوة. كانت تنظر إليّ عندما عدت ووضعت فنجانها أمامها.

قالت لي: «تذكرت قصة غريبة أخرى. أو لعلها ليست شديدة الغرابة. لكنها بدت لي غريبة. كنت على إحدى الجزر القريبة من ستوكهولم. كنت أمشي في الغابة وحدي. ومن فوقي رأيت... على ارتفاع فوق الأشجار تمامًا... رأيت طائرة تعبر مارة هناك. كان ذلك شيئًا سحريًا تمامًا. جاءت فجأة فعامت فوق الغابة، ثم اختفت. طائرة!».

قلت: «إن الطائرات تسحرني دائمًا، منذ كنت صغيرًا. بالنسبة إليّ، الطائرات شيء قريب من الخيال إلى حد كبير. عالم من الطائرات! أوه، إن هذا يفعل في نفسي شيئًا، يفعل في نفسي شيئًا حقًا، لكني لا أعرف ما هو، ما رأيك أنت؟».

«إن كنت قد فهمتك على نحو صحيح، فإنك كنت مسحورًا بالغوّاصين وبالقوارب المبحرة والارتحال في الفضاء، وبالطائرات أيضًا، عندما كنت

صغيرًا. قلت لي مرة إنك كنت ترسم الغواصين ورواد الفضاء والزوراق، أليس كذلك؟ هل كان هذا كل شيء؟».

«نعم، إلى حد ما».

«إذن، ما الذي يمكنك قوله عن ذلك؟ دافع إلى السفر لا يعرف الهدوء؟ غطاسون، هذا هو النزول إلى أقصى ما يمكن. روّاد الفضاء، هذا هو الصعود إلى أعلى ما يمكن. الإبحار، إنه شيء ممتد زمنًا بعيدًا في تاريخنا. الطائرات، إنها العالم الذي لا يتحقّق أبدًا».

«أظن هذا صحيحًا. لم تصبح الطائرات وسيلة النقل الأولى على أي حال، لكنها كانت كذلك، على الهامش إن كنت تفهمين ما أعنيه. عندما يكون المرء صغيرًا، يكون مليئًا بالعالم، ويمكن أن تصير الحياة كلها مليئة بهذا المعنى. شيء تستحيل مقاومته. ليس عليك مقاومته أيضًا. على الأقل، ليس عليك مقاومته دائمًا».

قالت: «إذن، ماذا؟».

«هل أنت تواقٌ إلى الارتحال الآن؟».

«هل أنتِ مجنونة؟ لا بد أن هذا الصيف هو أول صيف لا أتوق فيه إلى الارتحال منذ أن كنت في السادسة عشرة».

نهضنا ومضينا في اتجاه جسر ديورغاردن.

قالت لي: «هل تعرف أن الطائرات الأولى كانت غير قابلة للتوجيه. وهكذا، فقد حلوا المشكلة بأن حاولوا تدريب طيور جارحة... صقور على ما أظن، لكنها يمكن أن تكون نسورًا أيضًا... على الطيران وهي تمسك حبالًا طويلة في مناقيرها؟».

قلت: «لا! لا أعرف سوى أنني أحبك».

كان عندي إحساس كبير بالحرية حتى خلال هذه الأيام الجديدة التي كانت تسير على نحو متكرر، وإن كان تكرارًا مختلفًا تمام الاختلاف عن التكرار الذي عشته من قبل. نستيقظ باكرًا، فتنطلق ليندا على دراجتها إلى دروستها، وأجلس فأكتب طيلة اليوم إلّا إذا ذهبت إلى فيلمهوست لأتغدى

معها. وبعد ذلك نلتقي من جديد في أول المساء ونظل معًا إلى أن ننام. وفي عطلات نهايات الأسبوع، نأكل في الخارج ونثمل في الليل، في بار في فولكوبيران التي هي وجهتنا القريبة، أو نذهب إلى فولكهيميت، إلى مطعم غولدابان الذي كنا نفضله أيضًا؛ أو إلى بار كبير في أوديمبلان.

ظل كل شيء سائرًا على هذا المنوال، لكنه لم يكن كذلك أيضًا لأن شيئًا في حياتنا بدأ يفقد تألقه على نحو لا يحسه المرء، على نحو يصعب تبينه إلى درجة تجعله يبدو كأنه غير موجود.

كان من الممكن أن يسوء مزاجنا أحيانًا: استيقظت صباح أحد أيام السبت وأنا أقول في نفسي كم يكون لطيفًا أن أحظى ببعض الوقت لنفسي حتى أزور المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، وأذهب إلى مقهى، وربما أقرأ هناك... كنا نستيقظ، ونمضي إلى أقرب مقهى فنطلب إفطارنا: حساء كثيفًا، ولبنًا رائبًا، وخبزًا محمصًا، وبيضًا، وعصيرًا، وقهوة. أقرأ الجريدة، وتنظر ليندا إلى الطاولة أو إلى الصالة، ثم تقول بعد فترة: هل القراءة ضرورية؟ ألا نستطيع أن نتحدث؟ أقول لها: نعم، بالطبع. ثم أغلق الصحيفة ونتحدث. كان هذا جيدًا، وكانت النقطة السوداء الصغيرة في قلبي لا تكاد تُرى... قدر بسيط باق من التوق إلى أن أكون وحيدًا وإلى أن أقرأ في سلام من غير أن يطالبني أحد بشيء... توق يختفي في لحظة واحدة. ولكن، جاء وقت كف فيه هذا التوق عن الاختفاء بل صار يخلق حالة مزاجية وأفعالًا. كنت أقول في نفسي: إن كنت تحبينني حقًا، فعليك أن تأتي إليّ من غير مطالب. كنت أفكر في هذا، لكني لا أقوله، لأنني أردت أن تلاحظه بنفسها.

اتصل إنغفه ذات يوم. سألني إن كنت راغبًا في الذهاب معه ومع آسبجورن إلى لندن. قلت له إنني راغب في الذهاب معهما، وأن هذا جيد جدًا. عندما أغلقت الهاتف، كانت ليندا تنظر إليّ من الناحية الأخرى من الغرفة.

سألتني: «من كان هذا؟».

«إنه إنغفه، يريدني أن أذهب معه إلى لندن».

«آمل أنك لم تقل له نعم».

«قلت له نعم. هل كان يجب ألا أقول له ذلك؟».

«لكننا كنا نعتزم السفر معًا. لا يمكنك السفر معه قبل أن تسافر معي».

«ماذا تقولين؟ لا علاقة لهذا الأمر بك».

أطرقت برأسها ونظرت إلى الكتاب الذي كانت تقرأه. كانت عيناها مظلمتين. ما كنت أريد إزعاجها، لكن ترك نقطة الخلاف معلقة في الهواء كان شيئًا لا أستطيع احتماله. كنت في حاجة إلى الوضوح.

«لم أمضِ لحظة مع إنغفه منذ زمن طويل جدًا. ويجب أن تتذكري إنني لا أعرف هنا أحدًا غير أصدقاءك. يعيش أصدقائي في النرويج».

«لقد كان إنغفه هنا منذ فترة بسيطة، أليس هذا صحيحًا؟».

«أوه، ماذا بك الآن؟».

قالت لي: «اذهب إذًا».

فيما بعد، عندما صرنا في السرير، اعتذرت لأنها كانت غير متفهمة إلى تلك الدرجة. قلت لها إن الأمر لا أهمية له. إنه لا شيء.

قالت لي: «لم نفترق لحظة منذ أن صرنا معًا».

قلت لها: «هذا صحيح. لعله حان الوقت لفعل ذلك».

قالت: «ماذا تعني؟».

أجبتها: «لا نستطيع العيش ملتصقين هكذا طيلة ما بقيَ من حياتنا».

قالت: «أظن أن وضعنا ممتاز هكذا».

«نعم، وضعنا ممتاز. لكنك تدركين ما أعنيه».

«أدرك ذلك بالطبع، لكنني لست واثقة من أنني قادرة عليه».

من لندن، كنت أتصل بها مرتين كل يوم. أنفقت كل ما لدي من مال تقريبًا على شراء هدية لها. سيكون عيد ميلادها الثلاثون بعد بضعة أسابيع. لكني كنت أدرك في الوقت نفسه (ربما لأنني كنت أنظر إلى حياتنا في ستوكهولم من خارجها للمرة الأولى) أن عليّ أن أغير شيئًا عندما أعود، وأن أبدأ العمل بجد أكبر فقد مر الصيف بطوله واختفى في السعادة وفي البذخ الداخلي والخارجي، ومر أيضًا شهر أيلول من غير أن أنجز شيئًا. مضت الآن أربع

سنوات منذ إنجاز كتابي الأول، ولا يبدو أن كتابي الثاني سيظهر قريبًا رغم أنني كتبت ثمانمئة صفحة فيها مجموعة متنوعة من البدايات. كتبت روايتي الأولى في الليل: كنت أستيقظ في الثامنة مساء وأعمل حتى صباح اليوم التالي. ربما كانت تلك الحرية التي وجدتها في ذلك الوقت، التي وجدتها في الفضاء الذي يفتحه الليل أمامي، هي ما يلزمني لكي أجد طريقًا إلى كتابة شيء جديد. كنت قريبًا من ذلك خلال أسابيعي القليلة في بيرغن، وخلال أسابيعي الأولى في ستوكهولم، مع تلك القصة التي أثارت اهتمامي... قصة الأب الذي مضى مع ولديه لجمع السرطانات في ليلة صيفية. من الواضح أنني واحد من هذين الولدين. وجدت نورسًا ميتًا وجعلت أبي يراه. قال لي إن النوارس كانت ملائكة في وقت ما. عدنا بالقارب ومعنا سرطانات كثيرة تزحف في دلو. لقد قال لي غيير غوليكسن: «ها هي بداية قصتك». وقد كان محقًا، لكني لم أكن أعرف كيف ستمضي تلك القصة... إنني أعاركها منذ شهور. كنت قد كتبت عن امرأة في مستشفى الولادة في الأربعينيات. لقد أنجبت والد هينريك فانكل. كان البيت الذي ستعود إليه مع وليدها كوخًا حقيرًا في الأصل، مليئًا بزجاجات فارغة، لكنهم هدموه لإقامة بيت جديد. لكن القصة لم تكن أصيلة؛ بدا لي كل شيء فيها زائفًا. كنت ذاهبًا فيها إلى لا مكان. وهكذا جربت حبكة أخرى، في البيت نفسه، كان شقيقان ينامان ليلًا. كان والدهما ميتًا. أحدهما مستلقٍ ينظر إلى أخيه النائم... بدا لي ذلك زائفًا أيضًا. وازداد قنوطي. هل سأكون قادرًا على كتابة رواية أخرى في يوم ما؟

في أول يوم اثنين بعد عودتي من لندن، قلت لليندا إننا لا نستطيع اللقاء في المساء لأن عليّ أن أعمل طيلة الليل. نعم، لا بأس، ما من مشكلة في هذا. لكنها بعثت لي برسالة نصية في الساعة التاسعة ليلًا. أجبتها، فأتتني رسالة أخرى. لقد خرجتْ مع كورا. هما في مكان قريب تشربان البيرة. كتبت لها: أتمنى لكما وقتًا طيبًا. وكتبت لها إنني أحبها. تبادلنا بضعة رسائل أخرى، ثم هدأ كل شيء. فظننت أنها عادت إلى بيتها. لكنها لم تعد. قرعت بابي في الثانية عشرة ليلًا.

قلت لها: «أنت هنا؟ قلت لك إنني أريد الكتابة طيلة الليل».
«نعم، لكن رسائلك كانت دافئة محبة. ظننت أنك تريدني أن آتي».
قلت: «عليّ أن أعمل. إنني جاد في هذا».
قالت: «إنني أفهم»... كانت قد خلعت سترتها وحذاءها... «لكن، ألا يمكنني النوم وأنت تعمل».
«تعرفين أنني لن أكون قادرًا على العمل. لا أستطيع العمل حتى لو كانت في الغرفة قطة».
«لمَ لا تحاول أن تعمل في وجودي. قد يكون لي أثر طيب!».
كنت غاضبًا، لكنني لم أستطِع حمل نفسي على قول لا. لم يكن ذلك من حقي لأنه كان سيعني أن النص البائس الذي أكتبه أكثر أهمية منها. نعم، لقد كان أكثر أهمية منها في تلك اللحظة، لكني لم أستطِع قول ذلك.
قلت: «لا بأس».
شربنا الشاي ودخنًا أمام النافذة المفتوحة، ثم خلعت ثيابها ومضت إلى السرير. كانت الغرفة صغيرة، لا يبعد المكتب عن السرير إلّا مترًا واحدًا. التركيز مستحيل مع وجودها في الغرفة. ثم إن مجيئها رغم معرفتها بأنني لا أريد ذلك جعلني أشعر بالاختناق. لكني ما كنت أريد النوم أيضًا؛ لم أكن أريدها أن تفوز. وهكذا نهضت بعد نصف ساعة وقلت لها إنني خارج. كان هذا احتجاجًا؛ كان طريقتي في إخبارها بأنني لا أستطيع احتمال هذا. وهكذا ذهبت أسير في شوارع سودير التي يلفها الضباب. اشتريت نقانق مشوية من متجر في محطة الوقود، وجلست في الحديقة التي تحت الشقة فدخنت خمس سجائر متعاقبة وأنا أنظر إلى المدينة المتلألئة من تحتي وأسأل نفسي عما يجري. بحق الجحيم، كيف انتهيت إلى هذا الوضع؟
في الليلة التي تلت ذلك اليوم، عملت حتى الصباح ونمت طيلة النهار، ثم أمضيت ساعتين في شقتها قبل أن أعود لأكتب طيلة الليل ثم أنام. أيقظتني ليندا بعد الظهر. كانت تريد أن نتكلم. خرجنا في نزهة.
سألتني: «هل تريد أن تظل معي؟».

أجبتها: «نعم، أريد ذلك بالطبع».
«لكننا لسنا معًا. لا يرى أحدنا الآخر».
«نعم، لكن عليّ أن أعمل. أنا واثق من أنك تفهمين هذا».
«حسن... لا أفهم أنك في حاجة إلى العمل ليلًا. أنا أحبك، ولهذا أريد أن أكون معك».
أجبتها: «لكن عليّ أن أعمل».
قالت لي: «لا بأس. إذا تابعت هكذا، فالأمر منته بيننا».
«لا يمكن أن تكوني جادة في ما تقولين».
نظرت إليّ وقالت: «بل أنا جادة تمامًا. جرّبني إن أردت».
قلت لها: «لا يمكنك التحكم بي على هذا النحو».
«لست أتحكم بك. إنني أطلب طلبًا منطقيًا. نحن في علاقة، ولا أريد أن أكون وحدي طيلة الوقت».
«طيلة الوقت؟».
«نعم، سوف أتركك إن لم تكفّ عن هذا».
تنهدت، ثم قلت لها: «ليس الأمر مهمًا إلى هذا الحد. سوف أتوقف عن ذلك».
قالت: «جيد».
عندما تحدثت مع غيير هاتفيًا في اليوم التالي، ذكرت له هذا الأمر فقال: «خراء! يا رجل! هل فقدت عقلك؟ أنت كاتب. بحق الرب، ألا تدرك هذا؟ لا يمكنك بالسماح لأحد بأن يملي عليك ما تفعله».
قلت له إنني لا أسمح لأحد بأن يملي عليّ شيئًا، لكن الأمر ليس هكذا بالضبط. إنه التكلفة التي لا بد منها. سألني: «تكلفة ماذا؟» فأجبته إن هذا تكلفة العلاقة. قال: «إنني لا أفهمك. هذه هي النقطة التي يجب أن تكون متصلبًا فيها. يمكنك التنازل في أي شيء آخر، لكن ليس في هذه النقطة». قلت له: «إنني رخو، مثلما تعرف». قال: «طويل ورخو». ثم ضحك وقال: «لكنها حياتك أنت».

مضى شهر أيلول. تحول لون أوراق الأشجار إلى الأصفر، ثم تحول إلى الأحمر، ثم سقطت الأوراق. ازدادت زرقة السماء عمقًا، ومالت الشمس، وصار الهواء نقيًا باردًا. وفي أواسط تشرين الأول، جمعت ليندا أصدقاءها كلهم في مطعم إيطالي في سودير. لقد بلغت الثلاثين، وكانت مفعمة بنور داخلي جعلها تتألق وجعلني معتزًا بها: إنني في علاقة معها! معتز بها وشاكر لها، هكذا كانت مشاعري. كانت أضواء المدينة تتراقص من حولنا عندما سرنا عائدين إلى البيت. كانت ليندا في سترتها البيضاء التي قدمتها هدية لها هذا الصباح. سرت هناك، يدي في يدها، في وسط هذه المدينة الجميلة التي لا تزال غريبة بالنسبة إليّ... كان هذا يبث موجات متتالية من السعادة في داخلي. كنا لا نزال مفعمين رغبة وحماسة ملتهبة لأن حياتنا تمر بمنعطف حقيقي... بمنعطف عميق لا مجرد هبة ريح عارضة. كنا نعتزم إنجاب أطفال. وما كنا نتخيّل شيئًا غير السعادة في انتظارنا. أنا لم أتخيل شيئًا على الأقل. لم أكن أفكر أبدًا في الأشياء المتعلقة بالحياة فقط، بطريقة عيش الحياة، بأشياء في داخلي ومن حولي، أشياء لا تُعد فلسفة ولا أدبًا ولا سياسة. إنني أحسُّ، فتقرر أحاسيسي أفعالي. وليندا مثلي، بل ربما أكثر مني.

سُئلت في هذا الوقت إن كنت راغبًا في إعطاء دروس في مدرسة الكتّاب في بو. لم يكن هذا توجهي المعتاد، لكن ثُوريه إيريك لوند كان يعتزم إقامة دورة مدتها أسبوعان، وقد طُلب منه اختيار كاتب يحب أن يعمل معه. اعتبرت ليندا أن الأسبوعين فترة طويلة جدًا، ولم تكن تريد أن أظل بعيدًا عنها هذه المدة كلها، فقلت في نفسي، نعم، إنها مدة طويلة، ولا تستطيع ليندا أن تكون هنا في ستوكهولم بينما أكون في النرويج. لكنني كنت أريد قبول العرض أيضًا. لم تكن كتابتي تحقّق تقدمًا. وكان عليّ أن أفعل شيئًا مختلفًا، فضلًا عن أن ثُوريه إيريك واحد من الكتاب الذين يعجبونني كثيرًا. ذكرت الأمر لأمي، على الهاتف في الليل، فقالت إننا لم ننجب أطفالًا بعد، فلماذا لا تستطيع أن تكون وحدها مدة أسبوعين؟ قالت لي إن هذا أمر متعلق بعملي؛ وقد كانت محقة. خطوة جانبية صغيرة فيكون كل شيء على ما يرام.

لكني لم أكد أقوم بتلك الخطوة أبدًا لأننا كنا، أنا وليندا، نعيش متقاربين بطرق كثيرة: كانت شقة ليندا في زينكنزدام مظلمة مزدحمة، وكان كل ما لدينا غرفة ونصف الغرفة. كانت الحياة كأنها تبتلعنا ببطء. الانفتاح السابق بدأ يضيق، وصارت حياتينا كأنهما حياة واحدة، ثم استمر ذلك زمنًا طويلًا جعلهما تتيبسان وتزاحم إحداهما الأخرى. حدثت بيننا مواقف، المواقف ذاتها غير مهمة، لكنها تشكل بمجموعها نهجًا... كان نظام جديد قد بدأ يستقر.

ذات مساء، كنت أرافقها إلى أحد تدريبات الدراما، فتوقفتْ فجأة بالقرب من إحدى محطات الوقود في سلوسن واستدارت صوبي ووبختني توبيخًا شديدًا من أجل أمر صغير؛ قالت لي أن أذهب إلى الجحيم! سألتها ما الأمر فلم تجبني بل سارت وسبقتني نحو عشرة أمتار. لحقت بها.

وفي مساء آخر، ذهبنا إلى متجر للمواد الغذائية في هوتورغيت لنشتري بعض الأشياء من أجل وجبة دعونا إليها اثنتين من صديقاتها، غيلدا وكيتيل. اقترحتُ إعداد بعض الفطائر. نظرت إليّ بازدراء واضح وقالت إن الفطائر للأطفال! إننا لا نقيم حفلة أطفال! قلت لها: لا بأس، فلنطلق على الفطائر اسم «كريب»، فهل هذا مناسب لك؟ أدارت ظهرها لي.

كنا نسير في هذه المدينة الجميلة أيام عطلة نهاية الأسبوع، وكان كل شيء رائعًا... لكنه، فجأة، لم يعد رائعًا. شعرت بأن شيئًا قاتمًا انفتح في داخلها ولم أدرِ ما يمكنني فعله. للمرة الأولى منذ مجيئي إلى ستوكهولم، تجدد إحساسي بأنني وحيد هنا.

لقد وقعتْ في أزمة ذلك الخريف. مدت يدها إليّ، لكني لم أفهم ما كان يحدث. كان إحساسي خانقًا إلى حد جعلني أشيح بوجهي عنها وأحاول الإبقاء على مسافة بيننا، أما هي فكانت تحاول إلغاء تلك المسافة.

ذهبت إلى فينيسيا، وكنت أكتب في شقة تخص دار النشر التي أعمل معها. كان من المفروض أن تلحق بي ليندا وتظل هناك مدة أقل من أسبوع أعمل بعدها بضعة أيام أخرى ثم أعود. جاءت. كانت قاتمة جدًا، كانت

ثقيلة جدًا، وكانت تكرر قول نني لا أحبها، أنني لا أحبها حقًا، وأنني لا أريدها، وأنني لا أريدها حقًا، وأن الأمر لن يسير هكذا، وأنه لن يسير أبدًا، وأنني لا أريدها، وأنني لا أريدها.

قلت لها ونحن سائرين في برودة الخريف في مورانو وقد اختبأت أعيننا خلف نظارات شمسية: «لكني أريدك».

لكن، عندما قالت إنني لا أحبها حقًا وإنني لا أريد حقًا أن أكون معها، وإنني أريد أن أكون وحدي طيلة الوقت، أن أكون وحيدًا... عندما قالت ذلك كله، لم تكن تلك الأشياء حقيقية، لكنها صارت حقيقية أكثر بقليل.

من أين يأتي قنوطها هذا؟ أأنا من أتى به معه؟

أأنا بارد؟

أأنا أفكر في نفسي فقط؟

ما عدت أدري كيف سيكون الأمر عندما تنتهي أيام عملي هنا وأعود إلى شقتها. هل ستكون سعيدة، وهل سنمضي أمسية لطيفة؟ هل ستكون غاضبة من شيء ما إذا، على سبيل المثال، لم نعد نمارس الحب كل ليلة فيكون معنى ذلك أنني ما عدت أحبها مثلما كنت أحبها من قبل؟ هل سنجلس في الفراش نشاهد التلفزيون؟ هل نذهب في نزهة إلى نلاغهولمن؟ وعندما نصير هناك، هل سأغرق في مطالباتها بأن أكون كلي لها فأجد نفسي أبعدها مسافة عني وتبدأ الأفكار تنبثق آتية ذاهبة في دماغي وتقول لي إنه لا بد من نهاية لهذا لأن الأمر لا ينجح هكذا، وتكون نتيجة ذلك استحالة أي حديث أو أي محاولة للاقتراب منها، وهذا ما سوف تلاحظه طبعًا وتعتبره دليلًا على نظريتها... دليلًا على أنني لا أريدها؟

أم أننا، ببساطة، سنمضي وقتًا طيبًا معًا؟

بدأت أزداد انغلاقًا، وكلما انغلقت أكثر كلما هاجمتني أكثر. وكلما هاجمتني أكثر، كلما صرت أكثر إدراكًا لتقلبات مزاجها. كنت أتابعها كأنني راصد لتقلبات الذهن. لم أكن أفعل هذا على نحو واعٍ بقدر ما كنت أفعله بأحاسيسي التي صارت مدربة، على نحو خارق للطبيعة تقريبًا، على ملاحقة

التبدلات المختلفة في نفسيتها. إن كانت غاضبة فإن حضورها يكون كل ما هو موجود في نفسي. كان ذلك مثل وجود كلب ضخم مزمجر في الغرفة لكني مجبر على رعايته. أحيانًا، نكون جالسين نتحدث فأحس قوتها وعمق تجربتها وأحس نفسي صغيرًا أمامها. وأحيانًا، عندما تأتي إليّ فأحتضنها، أو عندما نرقد متعانقين، أو عندما نتحدث وتكون منزعجة مفتقرة إلى الأمان، أحس بقوة كبيرة في داخلي تجعل كل ما عداها قليل الشأن. هذه التقلبات من غير وجود شيء يتمسك المرء به، إلى جانب التهديد الدائم بانفجار ما تعقبه مصالحة أكيدة وملاطفات كثيرة، ظل مستمرًا من غير انقطاع وما كان ليهدأ أبدًا. صار إحساسي بأنني وحيد حتى عندما أكون معها يتنامى ويقوى ويقوى.

خلال فترة معرفتنا القصيرة، لم نفعل أي شيء بنصف حماسة. وما كانت حالتنا هذه استثناء من ذلك.

تشاجرنا ذات مساء، ثم تصالحنا وبدأنا نتحدث عن الأطفال. كنا قد قررنا إنجاب طفل خلال دراسة ليندا في معهد الدراما. يمكنها التغيب مدة ستة أشهر، وبعد ذلك أستطيع تولي الأمر ريثما تنهي تدريبها. وحتى ينجح ذلك، كان لا بد من توقفها عن تناول الدواء، لكن الأطباء كانوا مترددين. إلّا أن المعالِجة النفسية دعمتها. وعندما بلغ الأمر اللحظة الحاسمة، كان القرار النهائي في يد ليندا.

كنا نناقش هذا الأمر كل يوم تقريبًا.

لكني الآن قلت إنه قد يكون من الأفضل أن نؤجّل الإنجاب.

كانت الشقة غارقة في ظلمة تامة ما عدا الضوء المنبعث من التلفزيون الموجود في الزاوية من غير صوت. كانت الظلمة الخريفية ممتدة كأنها محيط خارج النافذة.

قلت لها: «ربما يكون علينا تأجيل الأمر بعض الوقت».

قالت ليندا وهي تحدّق فيّ: «ماذا قلت؟».

«يمكننا الانتظار قليلًا لنرى كيف تسير الأمور. يمكنك إنهاء دراستك...».

نهضتْ، وبأقصى ما استطاعت من قوة صفعتني على وجهي براحة يدها.

صرختْ: «أبدًا!».

قلت لها: «ماذا تفعلين؟ هل أصابك الجنون؟ تصفعينني هكذا!».

كان خدي ملتهبًا. لقد ضربتني بقوة حقيقية.

قلت لها: «سأخرج. ولن أعود أبدًا. يمكنك أن تنسي الأمر».

استدرت وذهبت إلى صالة المدخل. أخذت معطفي عن المشجب.

ومن خلفي، كانت ليندا تذرف دموعًا مرة.

قالت لي: «لا تذهب يا كارل أوفه. لا تتركني الآن».

استدرت: «هل تظنين أنك قادرة على فعل كل ما تشائين؟ أهذا ما تظنينه؟».

قالت: «سامحني. لكن ابق هنا. ابق الليلة فقط».

وقفت ساكنًا في الظلمة عند الباب ورحت أنظر إليها. كنت مترددًا.

قلت لها: «لا بأس. سأبقى هنا الليلة. لكني سأذهب بعد ذلك».

قالت: «شكرًا لك».

نهضت في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي وغادرت الشقة من غير تناول الإفطار. ذهبت إلى شقتي القديمة التي ما زلت أحتفظ بها. أخذت فنجانًا من القهوة وصعدت إلى تراس السطح وجلست أدخن وأنظر إلى المدينة مفكرًا في ما سأفعله بعد ذلك.

لا أستطيع البقاء معها. كان هذا مستحيلًا.

اتصلت بغيير من هاتفي المحمول وسألته إن كان راغبًا في الذهاب في نزهة إلى ديورغاردن لأن الأمر هام ولأن عليّ أن أتحدّث مع شخص ما. وافق غيير. كان عليه إنهاء بعض الأعمال أولًا، وبعد ذلك نلتقي عند الجسر خارج متحف نورديك ونمشي حتى نهاية الشارع حيث يوجد مطعم يمكننا تناول الطعام فيه. كان هذا ما فعلناه. سرنا تحت سماء رمادية قاتمة بين أشجار تعرّت من أوراقها. كان الطريق مفروشًا بأوراق الأشجار الصفراء والحمراء والبنية. لم أقل شيئًا عما حدث لأن ذلك كان مهينًا أكثر مما

أستطيع احتماله. لا يمكنني إخبار أحد بأنها صفعتني، فماذا أكون أنا في هذه الحالة؟ قلت فقط إننا تشاجرنا وإنني لم أعد أعرف ما الذي يجب أن أفعله. قال إن عليّ أن أصغي إلى قلبي. قلت له إنني لا أعرف بماذا أشعر. لكنه قال إنه واثق من أنني أعرف ذلك.

لكني لم أكن أعرف. كان ينتابني شعوران تجاهها. يقول الأول: عليك أن ترحل لأنها تريد منك الكثير ولأنك ستخسر حريتك كلها وتهدر وقتك كله عليها؛ فماذا سيحدث لكل ما هو عزيز عندك، ماذا سيحدث لاستقلاليتك ولكتابتك؟ أما الشعور الثاني فكان يقول أنت تحبها، وهي تعطيك شيئًا لا يستطيع غيرها إعطاءك إياه. ثم إنها تعرف من أنت؛ تعرف من أنت بالضبط.

كان الصوتان محقان على نحو متساوٍ؛ لكنهما غير متوافقين... كان أحدهما يلغي الآخر.

في ذلك اليوم، كانت لأفكار الرحيل اليد العليا في عقلي.

اتصلت عندما كنت مع غيير في المترو في طريق عودتنا من فاسترتورب. سألتني إن كنت أريد تناول الطعام معها هذا المساء. وقالت إنها اشترت سرطانات، أكلتي المفضلة. قلت لها نعم، علينا أن نتحدّث على أي حال.

قرعت جرس الباب رغم أن المفتاح معي. فتحت وراحت عيناها تتفحّصاني مع بسمة حذرة.

قالت لي: «مرحبًا».

كانت ترتدي القميص الأبيض الذي أحبه كثيرًا.

قلت لها: «مرحبًا».

امتدت يدها في اتجاهي كأنها تريد معانقتي، لكنها توقفت في منتصف الطريق. بدلًا من ذلك، تراجعت خطوة إلى الوراء.

قالت لي: «ادخل».

أجبتها: «شكرًا».

علّقت سترتي على المشجب. كان جسدي مائلًا قليلًا، مبتعدًا عنها. عندما استدرت، مدت ذراعيها فتعانقنا.

سألتني: «هل أنت جائع؟».
قلت: «نعم، أنا جائع كثيرًا».
«فلنأكل إذن».
تبعتها إلى الطاولة التي كانت تحت النافذة في الجهة الأخرى من الغرفة. كانت قد وضعت عليها مفرشًا أبيض وبين الصحنين والكأسين وزجاجتين من البيرة، كان على الطاولة شمعدان فيه ثلاث شموع. راحت ثلاث شعلات صغيرة تتراقص في مجرى الهواء. طبق من السرطانات، وسلة من الخبز الأبيض، وزبدة، وليمون، ومايونيز أيضًا.
قالت: «اتضح أنني لست ماهرة في التعامل مع السرطانات. لم أعرف كيف أفتحها. ربما تعرف أنت!».
قلت: «أعرف، إلى حدٍّ ما».
أزلت الأرجل، وفتحت الصدفة، ثم أخرجت ما بداخلها بينما فتحت ليندا زجاجتي البيرة.
قلت وأنا أناولها الصدفة المليئة تقريبًا: «ماذا كنت تفعلين اليوم؟».
«لم أكن قادرة حتى على التفكير في الذهاب إلى الدروس. وهكذا اتصلت بميكائيلا وتناولنا الغداء معًا».
«هل أخبرتها بما حدث؟».
«نعم».
«وهل قلت لها إنك صفعتني؟».
«نعم، قلت لها».
«وماذا قالت؟».
«لم تقل الكثير. لقد كانت تصغي إلى ما أقول».
نظرت إليّ ثم قالت: «هل تستطيع مسامحتي؟».
«بالطبع! لكني لا أفهم ما الذي جعلك تفعلين ذلك. كيف يمكن أن تفقدي السيطرة على نفسك بهذا الشكل؟ أفترض أنك لم تريدي فعل ذلك حقًا! أعني أنك تصرفت بنوع من ردة الفعل».

نظرت إليّ وقالت: «كارل أوفه...».

قلت: «ماذا؟».

«أنا آسفة جدًا. آسفة إلى أقصى حد. لكن ما قلته كان ضربة شديدة لي. قبل أن أعرفك، لم أجرؤ حتى على تخيل أنني يمكن أن أنجب أطفالًا ذات يوم. ما كنت أجرؤ على تخيل ذلك! لم أجرؤ على التخيل حتى عندما وقعت في حبك. ثم قلت ما قلته. أنت من طرح الفكرة؛ ألا تذكر هذا؟ كان ذلك في صباحنا الأول. أريد أن أنجب أطفالًا منك. لقد كنت سعيدة جدًا. كانت سعادتي كاملة، مجنونة. مجرد حقيقة أن هنالك احتمال لحدوث هذا. أنت من أعطيتني هذا الاحتمال. وبعد ذلك... البارحة... نعم، بدا ذلك كأنك تسحب هذا الاحتمال، كأنك تحرمني ذلك الاحتمال. قلت إننا قد نؤجل الإنجاب. كان هذا ضربة شديدة، كانت ضربة ساحقة تمامًا. ثم... أعرف... فقدت السيطرة على نفسي، فقدتها تمامًا».

كانت عيناها نديتين عندما وضعت صدفة السرطان على شريحة الخبز وحاولت مد اللحم الصلب عليها بالسكين.

«هل تفهم؟».

أومأت برأسي، ثم قلت: «أفهم، بالطبع أفهم. لكنك لا تستطيعين فعل كل ما يخطر في ذهنك مهما تكن انفعالاتك شديدة. هذا شيء سيء. أعني... بحق الرب، هذا سيء. لا يمكن أن تسير الأمور هكذا. لا أستطيع العيش على هذا النحو. الشعور بأنك يمكن أن تغضبي مني فجأة فتصفعيني. لا يمكن أن يسير الأمر هكذا، ولا أستطيع أن أعيش بهذه الطريقة. من المفترض أننا معًا، أليس هذا صحيحًا؟ لا نستطيع أن نكون عدوين، لا يمكنني تحمّل هذا، ليست لديّ الطاقة اللازمة لاحتماله. إنه شيء سيء جدًا يا ليندا».

قالت: «أعرف أنه سيء. سوف أضبط نفسي. أعدك بهذا».

جلسنا صامتين بعض الوقت؛ كنا نأكل. لحظةَ يغير أحدنا موضوع الحديث إلى شيء أكثر اعتيادية، أكثر رتابة، فإن ما حدث سيكون أمرًا منتهيًا أيضًا.

كنت راغبًا في ذلك، وكنت غير راغب فيه.

كان لحم السرطان على الخبز بنيًا محمرًا مثل أوراق الأشجار في الحقول. استولت على أحاسيسي كلها، بضع ثواني، نكهة البحر المالحة المرة قليلًا التي خففتها حلاوة المايونيز ثم زادها عصير الليمون حدة.

سألتني مبتسمة: «هل هو لذيذ؟».

أجبتها: «نعم، جيد حقًا».

لم يكن ما قلته لها في أول صباح لنا عندما استيقظنا معًا شيئًا قلته فحسب، بل كان شيئًا أحسسته من كل قلبي ومن كل روحي. كنت أريد أن يكون لنا أطفال. لم أشعر بهذه الرغبة قبل ذلك. وقد جعلني هذا الشعور واثقًا من ذلك.

لكن، مقابل أي ثمن؟

أتت أمي إلى ستوكهولم فعرّفتها إلى ليندا في أحد المطاعم. بدا اللقاء ناجحًا. كانت ليندا متألقة، كانت خجولًا وكانت منفتحة في الوقت نفسه. أما أنا فكنت أنظر إلى أمي وأراقب ردود أفعالها. لقد أقامت في شقتي. تمنيت لها ليلة طيبة عند باب البناية. دخلتْ، أما أنا فهرولت عائدًا إلى شقة ليندا التي كانت على مسافة عشر دقائق فقط. وفي الصباح التالي، عندما ذهبت إلى أمي لآخذها إلى تناول الإفطار في أحد المقاهي، قالت لي إنها لم تعرف كيف تشعل الضوء في مدخل البناية. وأنها أمضت ساعة تقريبًا حتى تمكنت من الوصول إلى الشقة.

قالت: «انطفأ الضوء من تلقاء نفسه بينما كنت أصعد السلم. انطفأ أوتوماتيكيًا. لم أكن قادرة على رؤية متر واحد أمامي».

قلت: «إنها طريقة السويديين في توفير الطاقة. لا يخرجون أبدًا من غرفة قبل أن يطفئوا الضوء. وهنالك مفاتيح أوتوماتيكية في المناطق ذات الاستخدام المشترك. لكن لماذا لم تشعلي الضوء من جديد؟».

«كانت الظلمة شديدة فلم أستطع العثور على المفتاح».

«لكن المفاتيح مضيئة!».

قالت: «آ... هذا ما كانته تلك النقاط المضيئة! ظننتها أجهزة إنذار الحريق، أو شيء من هذا القبيل».

قلت لها: «وماذا عن قداحتك؟ أليست معك؟».

«نعم! تذكرت القداحة آخر الأمر. انزعجت كثيرًا فتلمّست طريقي إلى الخارج لأدخن سيجارة قبل أن أعود إلى المحاولة من جديد. وعند ذلك تذكرت القداحة فعدت وصعدت السلم على ضوئها».

قلت: «هكذا أنت دائمًا... تجدين حلًا».

قالت: «ربما! لكنني الآن في بلد مختلف. هذا هو الأمر. التفاصيل الصغيرة مختلفة هنا».

«ما رأيك في ليندا؟».

أجابت: «إنها فتاة جذابة».

قلت: «نعم، إنها جذابة».

ما كان عليها أن تقول ذلك، بالطبع. نعم، لم أكن أشك أبدًا في أن ليندا ستعجبها. لكن المسألة هي أنني كنت في علاقة مستقرة دامت زمنًا طويلًا. بل كنت متزوجًا أيضًا. كانت تونجه جزءًا من العائلة... كان الأمر بهذه البساطة. ورغم أن العلاقة قد انتهت، فإن مشاعرهم تجاهها لم تنتهِ. كان إنغفه حزينًا لأن تونجه لم تعد موجودة؛ وأظن أن أمي حزنت لذلك أيضًا. في آخر الصيف، بعد أن تقاسمت مع تونجه ممتلكاتنا كلها (من غير أي مشاكل... كان سلوك كل منا تجاه الآخر حسنًا)، لم أشعر بما يشبه الأسف إلّا عندما نزلت إلى القبو لأجلب شيئًا، فداهمني البكاء: لقد كانت لنا حياة معًا، وقد انتهت الآن.

بعد تلك الأيام المعدودة هناك، الأيام التي مرّت من غير أي نزاع، ذهبت إلى بيت أمي في يولستر بسيارتنا (اتفقنا على أن تكون السيارة من نصيب تونجه). عند ذلك، أخبرت أمي عن ليندا، كان واضحًا أنها لم تكن مسرورة بما سمعت، لكنها لم تقل شيئًا. بعد نصف ساعة، نطقت شفتاها جملة جعلتني أنتبه إلى موقفها. ما كان من عادة أمي أن تقول أشياء من هذا

النوع. قالت إنني غير قادر على رؤية الناس الآخرين. إنني أعمى تمامًا ولا أرى غير نفسي في كل مكان. قالت لي إن أبي كان يرى ما في داخل الناس. كان يعرف من هم، مباشرة. أما أنا فلا أفعل ذلك أبدًا. قلت لها إن كلامها صحيح... ربما كنت كذلك.

أنا واثق من أنها كانت محقة عندما قالت هذا الكلام. لكن ذلك ما كان ذا أهمية كبيرة لأن الشيء المهم هو أنها وضعت أبي، ذلك المخلوق الفظيع، في مرتبة أعلى مني، هذا من ناحية. أما من ناحية أخرى، فقد فعلت ذلك لأنها كانت غاضبة مني. إن هذا شيء جديد: لم تكن أمي تغضب مني أبدًا.

كنا في ذلك الوقت، ليندا وأنا، لا نزال في مرحلة التوهّج. ولا بد أن أمي رأت ذلك. لا بد أنها رأتني متقدًا بالحب وبهجة الحياة.

كان كل شيء مختلفًا في ستوكهولم بعد ستة أشهر من ذلك. كان التذمر يملؤني، وكانت علاقتنا خانقة مظلمة إلى حد جعلني راغبًا في الرحيل، لكني لم أفعل ذلك لأنني كنت أضعف من أن أفعله، لأنني فكرت فيها وأشفقت عليها... سوف تضيع من غيري... كنت أضعف من أن أستطيع الرحيل... كنت أحبها.

اعتدنا في ذلك الوقت أن نتناول وجبات الغداء في مطعم فيلمهوست حيث كنا نجلس ونتحدّث عن كل شيء تحت الشمس، نتحدث متحمّسين؛ أو نأكل في البيت، أو نجلس في البيت، أو في المقاهي... كان هناك الكثير مما يمكن قوله، الكثير مما يجب الحديث عنه: ما كانت أحاديث عن حياتي وعن حياتها، في الماضي، بل عن حياتي وحياتها الآن، مع كل هؤلاء الناس الموجودين في حياتنا. فيما مضى، كنت قابعًا في مكان عميق داخل نفسي أنظر إلى الناس من هناك كأنني شخص واقف في عمق الرصيف ينظر إلى الناس في الشارع. جعلتني ليندا أخرج من هناك وأقف عند حافة نفسي تمامًا حيث صار كل شيء قريبًا وبدا كل شيء أكثر قوة. في ذلك الوقت، جاءت الأفلام في مهرجان السينما، وليالي السهر في المدينة، وعطلات نهاية

الأسبوع مع أمها في غنيستا، وهدوء الغابة التي كانت تبدو فيها مثل طفلة صغيرة أحيانًا... وتكشّف كم كانت هشة ضعيفة.

كانت هنالك تلك الرحلة إلى فينيسيا عندما صرخت قائلة إنني لا أحبها، وظلت تصرخ وتكرر قول ذلك مرة بعد مرة. كنا نثمل في الأمسيات ونمارس الحب بضراوة كانت جديدة علينا، وكانت غريبة، بل كانت مفزعة أيضًا، لا في وقتها بل في اليوم التالي عندما أفكر فيها... كان ذلك كأن الواحد منا يريد جعل الآخر يتألم. وبعد ذهابها، صرت غير راغب في الخروج وحاولت أن أكتب في عليّة البيت. كنت شبه عاجز عن جر نفسي بضعة مئات الأمتار ذهابًا إلى الدكان. كانت الجدران باردة، وكانت الأزقة خاوية والقنوات مليئة بزوارق الجندول التي تشبه التوابيت. كان ما رأيته ميتًا، وكان ما كتبته من غير قيمة.

في أحد الأيام، كنت جالسًا هكذا، وحدي في الشقة الإيطالية الباردة، فتذكرت قول ستيغ ساترباكن، ليلة التقيته مع ليندا، إنه سيحاول كتابة روايته التالية بطريقة أقرب إلى أسلوبي.

فجأة التهب وجهي خجلًا من نفسي. كانت ملاحظته تلك ساخرة... كان يسخر مني، ولم أفهم! ظننت أنه كان يعني ما قاله!

أوه، كم يجب أن يكون المرء مخدوعًا بنفسه حتى يصدق كلامًا من هذا النوع؟ كم يمكن أن أكون غبيًا أحمق! أما من حدود لغبائي؟

نهضت مسرعًا، ونزلت من العليّة فارتديت ملابسي واندفعت سائرًا في الأزقة على امتداد قنوات فينيسيا. سرت ساعة هناك محاولًا العثور على الجمال في الماء الأخضر العميق الوسخ، في الجدران الحجرية العتيقة... محاولًا العثور على الروعة في هذا العالم المتداعي كله حتى أتخلص من إحساسي الضخم بالمرارة تجاه نفسي. كان إدراكي أن ساترباكن قد سخر مني يفيض فيغرقني مرة بعد مرة.

في ساحة كبيرة من تلك الساحات التي ينفذ إليها المرء من غير أن يكون

منتبهًا إلى وجودها، جلست وطلبت قهوة لنفسي، ثم أشعلت سيجارة وفكرت مطولًا في أن تلك المسألة قد لا تكون شيئًا هامًا حقًا.

رفعت الفنجان الصغير بإصبعين اثنين (بدت أصابعي وحشية الضخامة بالمقارنة مع الفنجان)، واستندت إلى ظهر المقعد ونظرت إلى السماء، لم أكن أنتبه إلى السماء أبدًا داخل هذه المتاهة من الشوارع والقنوات التي يكاد السير فيها يكون شبيهًا بالتجول في ممرات وأنفاق تحت الأرض. عندما تنفتح الشوارع الضيقة على الساحات وتنداح السماء فوق البيوت وفوق أبراج الكنائس، يكون ذلك مفاجئًا، على الدوام. هكذا كان الأمر، نعم: السماء موجودة! والشمس موجودة! أحسست كما لو أنني صرت أكثر انفتاحًا، وأكثر خفة.

صرت الآن واثقًا تمامًا من أن ساترباكن قد ظن أنني باستجابتي الحماسية لما قاله كنت أسخر منه أيضًا.

انخفضت درجات الحرارة انخفاضًا سريعًا في وقت لاحق من ذلك الخريف. تجمدت مياه ستوكهولم وقنواتها كلها. وفي يوم أحد، مشينا على الجليد من سودير إلى المدينة القديمة في ستوكهولم. سرت متعثرًا كأنني أحدب نوتردام، وكانت ليندا تضحك وتلتقط صورًا لي. وكنت ألتقط صورًا لها، وكان كل شيء واضحًا، جليًا، بما في ذلك مشاعري تجاهها. سرنا نلتقط الصور، ثم جلسنا ننظر إليها في أحد المقاهي، وعدنا إلى البيت مسرعين لنمارس الحب، واستأجرنا فيلمين، واشترينا بيتزا، واستلقينا في السرير طيلة ذلك المساء. كان ذلك يومًا من الأيام التي سأذكرها دائمًا؛ ربما لأنه كان يومًا عاديًا حافلًا بنشاطات عادية صارت مكلّلة بالذهب.

جاء الشتاء، وجاء الثلج المدوّم في الهواء فوق المدينة. شوارع بيضاء، وسطوح بيضاء، والأصوات كلها أكثر خفوتًا. كنا نتجوّل في الخارج ذات مساء، نسير من غير هدف في ذلك البياض كله. ربما بقوة العادة، كنا نسير مقتربين من الجبل الذي يخترقه شارع باستوغاتان. سألتني ليندا أين أعتزم قضاء عطلة عيد الميلاد. قلت لها إنني ذاهب إلى البيت لقضاء العيد مع

أمي في يولستر. أرادت أن تذهب معي. لكنني قلت لها إن ذلك لن يكون مناسبًا... لا يزال الوقت مبكرًا أكثر مما ينبغي!

«لماذا تقول إنه مبكّر أكثر مما ينبغي؟».

«أنا واثق من أنك تعرفين الإجابة».

«لا، لا أعرفها».

«لا بأس!».

تطوّر ذلك إلى مشاجرة بيننا. جلسنا في مقهى بيشوبز آرمز وأمامنا البيرة. جلسنا ساخطين. لم نقل شيئًا.

على سبيل التعويض، كانت هديتي لها في عيد الميلاد رحلة مفاجئة: عندما عدت في السابع والعشرين من ذلك الشهر، ذهبنا إلى مطار آرلاندا ولم تعرف ليندا شيئًا عن وجهتنا إلى أن أعطيتها تذاكر السفر. باريس! سنذهب أسبوعًا إلى باريس. لكن أعصاب ليندا توتّرت هناك. سببت لها تلك المدينة توترًا فانقلب مزاجها بين عشية وضحاها وصارت غير منطقية طيلة الوقت. كنا نتناول عشاءنا في أول ليلة لنا، فارتبكتُ في حديثي مع النادل لأنني لم أكن أعرف تمامًا كيف أتصرف في هذه الأجواء الفاخرة. نظرت إليّ ليندا نظرة غاضبة ملؤها الازدراء. أوه... لا أمل! كيف جعلت نفسي أعلق هكذا؟ إلى أين تمضي حياتي؟ كنت أريد التسوق، لكنني رأيت أن ذلك لن يحدث لأنها تكره التسوق، ولأنها تكرهه الآن. وبما أن بقاءها وحيدة، كان أكثر شيئًا تكرهه، فقد تخليت عن الفكرة. كان يمكن أن يبدأ يومنا بداية حسنة، مثلما حدث عندما ذهبنا إلى برج إيفل، ذلك المبنى الذي رأيت فيه حضورًا كثيفًا للقرن التاسع عشر، ثم انهار الوضع إلى مزاج أسود لا يُطاق؛ أو كان يمكن أن يبدأ النهار بداية سيئة، ثم يسير سيرًا حسنًا بعد ذلك كما حدث عندما اتصلنا بواحدة من صديقات ليندا تعيش في باريس بالقرب من المقبرة التي دُفن فيها مارسيل بروست، المقبرة التي زرناها فيما بعد. ثم جاءت ليلة رأس السنة. سهرنا في مطعم دافئ أنيق اهتديت إليه بعد نصيحة من صديقي الذي يحب فرنسا، صديقي يوهانس في بيرغن. تلقينا

في ذلك المطعم كل ما يمكن تخيله من صنوف الدلال. جلسنا متألقين مثلما كنا في أيامنا الأولى، قبل ستة أشهر. بقينا هناك حتى الساعة الواحدة من السنة الجديدة، ثم سرنا على ضفة نهر السين، سرنا متشابكي اليدين في اتجاه فندقنا. لا أعرف ما كان يضغط على أعصابها في باريس؛ لكنه زال عنها فور وصولنا إلى المطار في طريق عودتنا.

كانت صاحبة الشقة التي استأجرتها تريد بيعها. وهكذا، نقلت أشيائي كلها (كتبي كلها) إلى مستودع خارج المدينة في يوم من أوائل أيام كانون الثاني. ثم نظفت الشقة وسلمت المفاتيح. سألت ليندا معارفها لترى إن كان أحد منهم يعرف مكتبًا للإيجار في مكان ما. أتت الإجابة: لقد سمعت كورا عن جمعية للكتاب المستقلين. لديهم مكان في أعلى البناية الشبيهة بالقصر القائمة على قمة الجبل الصغير في إحدى نواحي سلوسن على مسافة لا تبعد أكثر من بضعة مئات من الأمتار عن الشقة التي كنت فيها. حصلت على غرفة هناك، وصرت أعمل فيها خلال النهار. كانت تلك بداية جديدة. أضفت آخر مئة صفحة كتبتها إلى مجموعة البدايات الكثيرة التي تراكمت عندي. وبدأت من جديد.

هذه المرة، جربت العمل على فكرة الملاك الصغير. اشريت واحدًا من الكتب الفنية الرخيصة المليئة بصور الملائكة التي لفتت إحداها انتباهي. كانت صورة لثلاثة ملائكة يسيرون في منطقة ريفية في إيطاليا مرتدين ثيابًا من القرن السادس عشر. كتبت عن شخص رآهم يسيرون هناك؛ ولد كان يرعى بعض الخراف، ثم فقد واحدًا منها فذهب يبحث عنه. رأى الملائكة من خلال الأشجار، رآهم يسيرون هناك. كان من النادر أن يرى أحد شيئًا كهذا، لكنه ليس أمرًا غير مألوف تمامًا، لأنه يمكن العثور على الملائكة في الغابات وعلى هوامش مناطق عيش البشر. كان الأمر هكذا طيلة الزمن الذي يتذكره البشر. لم تتجاوز كتابتي تلك النقطة. ماذا كانت القصة؟

هذا موضوع لا علاقة له بي، لا شيء من حياتي فيه... لا شيء من حياتي الواعية، ولا شيء من حياتي غير الواعية... وكان معنى هذا أنني لا أستطيع

التورط في هذا الطريق ولا أستطيع المضي قدمًا فيه. كان هذا شيئًا يشبه اعتزامي الكتابة عن «الشبح» أو عن «كهف الجماجم»!

أين كانت القصة؟

كان يوم عمل لا معنى له يتلو يوم عمل آخر لا معنى له. وما كان عندي بديل عن مواصلة الكتابة... ليس عندي شيء آخر. كان الأشخاص الذين أشاركهم المكتب لطيفين إلى الحد الكافي، لكنهم كانوا مفعمين طيبة يسارية جذرية تجعلني أحيانًا عاجزًا عن قول أي شيء. (استخدمت مرة كلمة «زنجي» فصحح لي أحدهم كلامي على الفور بينما كنا واقفين ننتظر آلة القهوة). اكتشفت أن الرجل الذي ينظف المكاتب والمطبخ والحمام من أجلنا كان من السود. لقد كان زملائي هناك مهتمين بالتضامن والمساواة، وكانوا حريصين على أن يكون في لغتهم وكلماتهم احترام للآخرين كأنهم ينشرون شبكة من نوع ما يغطون بها الواقع الذي يستمر في مجراه التمييزي الظالم من تحت شبكتهم تلك. ما كنت قادرًا على قول هذا لهم. وقعت حادثتا سطو. وذات صباح، وصلت فوجدت الشرطة في المكان. كانوا يطرحون أسئلة. لقد سُرق جهاز كمبيوتر مع بعض معدات التصوير. وبما أن الباب الرئيسي غير مكسور (لم يكسر غير الباب المفضي إلى مكاتبنا)، فقد استنتجت الشرطة أن الفاعل يجب أن يكون واحدًا من الأشخاص الذين يملكون مفتاحًا للباب الرئيسي. وبعد ذلك، جلسنا وناقشنا الأمر. قلت لهم إن الموضوع ليس أحجية مستحيلة الحل. علينا أن نتذكر أن هنالك عددًا من مدمني المخدرات المجهولين في الطابق الذي تحتنا. لا بد أن أحدهم لديه مفتاح. نظر الجميع إليّ مستنكرين. قال واحد منهم: لا يجوز أن تقول هذا! نظرت إليه بدهشة. قال: «هذا تحامل؛ موقف مسبق! لا نعرف من فعل هذا. يمكن أن يكون أي شخص. إذا كانوا مدمنين على المخدرات، وإذا كانوا أصحاب سوابق، فهذا لا يعني أنهم اقتحموا مكاتبنا! علينا أن نمنحهم فرصة!».

أومأت برأسي وقلت إنه محق. وإننا لا نستطيع أن نكون واثقين من

شيء. أما في داخلي، فقد غضبت. كنت أرى تلك العصبة مجتمعة عند السلم، قبل لقاءاتهم وبعدها. كانوا من النوع الذي يمكن أن يفعل أي شيء من أجل المال. ليس ما قلته تحاملًا، ولا موقفًا مسبقًا... إنه شيء واضح إلى حد يفقأ العين.

هذه هي السويد التي كان غيير يحدثني عنها. افتقدت وجوده الآن. هذه قصة صالحة لأن تكون حَبًّا يصبه في طاحونته! لكنه كان في بغداد.

خلال تلك الفترة، كنت مستمرًا في تلقي زيارات من النرويج. واحدًا تلو الآخر كانوا يأتون إلى ستوكهولم فأتجوّل بهم في المدينة. كانوا يلتقون ليندا. وكنا نخرج لتناول الطعام، ونمضي على هوانا، ونسكر. كان من المنتظر أن يأتي ثوريه إيريك في عطلة نهاية أسبوع في أواخر الشتاء. كان آتيًا بسيارته العتيقة التي اجتاز بها الصحراء الكبرى ذات مرة. كما أخبرني، ثم عاد بها إلى النرويج. لم يكن يعتزم العودة إلى النرويج آنذاك، لكنه عاد وكتب رواية عنت لي الكثير. كان عنوانها «زاليب». أعجبني ذلك العنوان كثيرًا، ورأيت أنها رواية شديدة الجذرية، شديدة الاختلاف عن كل ما عداها في الروايات النرويجية لأنها غير مهادنة ولأن لغتها فريدة تمامًا. والغرابة في الأمر أن القسم الأكبر من تلك اللغة كان جزءًا من شخصيته، كما اتضح لي، أو كان منسجمًا مع شخصيته. لم أنتبه إلى هذا في لقائي الأول معه لأن ذلك اللقاء كان في أمسية مصطنعة كثيرًا في كونستنيرن هوس. إلّا أنني اكتشفت ذلك في اللقاء الثاني والثالث والرابع، ثم خلال الأسابيع التي أمضيناها في كوخين في موقع تخييم شتوي مهجور في تيليمارك... كان نهر سريع يجري بالقرب منا وسماء ليلية كثيرة النجوم منبسطة فوقنا. كان رجلًا كبير الحجم له قبضتان ضخمتان ووجه مقطب. عيناه حيتين نشيطتين يظهر فيهما مزاجه دائمًا، من غير تحفّظ. بقدر ما أعجبتني الروايات التي كتبها هذا الرجل، بقدر ما وجدت الكلام معه صعبًا لأن السخف كان واضحًا في كل شيء أقوله ولأنني كنت أقل شأنًا من أن أوقد شمعة أمام ما كان يفعله. أما هناك، في تيليمارك، عندما كنا نفطر معًا ونسير مسافة الكيلومترين إلى

المدرسة معًا، ونعلّم معًا، ثم نتعشى معًا، ونشرب القهوة أو البيرة في المساء معًا، كنت غير قادر على الاختباء منه. عليك أن تتكلم. قال لي إن المحطة التي قبل محطة بو اسمها يوكسي بو، فضحكنا من ذلك كثيرًا. تعني «بو» مستوطنة بشرية. أما كلمة «يوكسي» فهي فعل بمعنى «يغش». قلت له إن سترتي ليست سترة، بل «جلد»؛ وكان ذلك تلاعبًا بالكلمات أيضًا. ضحك بشدة أكبر. الأمر سهل إلى هذا الحد! كان عقله متوثّبًا، وكان كل شيء يثير اهتمامه وينعكس في داخله. ما كان الأمر يقف عند ذلك لأن كل شيء فيه كان متحركًا صوب آفاق أبعد، لأنه كان شديد الظمأ إلى الحدود القصوى. وهذا ما جعل العالم من حوله يظهر في ضوء متجدد دائمًا، يظهر في ضوء ثوريه إيريك لوند؛ لكن ذلك الأثر ما كان مقتصرًا عليه وحده لأن طبيعته الخاصة الفريدة تكون ظاهرة دائمًا عندما يقرأ المرء كتاباته.

ليسوا كثرًا من يقاربون العالم بتلك الطاقة نفسها.

كان لطيفًا معي. وكان لديّ إحساس الأخ الأصغر، إحساس شخص يأخذه هذا الرجل تحت جناحه ويجعله يرى أشياء كثيرة، ثم ينتابه الفضول لمعرفة ما أراه خلال وجودي هنا، أو خلال وجودي «هوونا»، كما كان يجب أن يقول هنا. سألني ذات مساء إن كنت راغبًا في قراءة شيء مما كتبه، فقلت له نعم، بالطبع. ناولني صفحتين فبدأت القراءة. كانت تلك مقدمة رائعة بكل معنى الكلمة، كانت انفجارًا قياميًا للديناميت في عالم ريفي عتيق... طفل يجري خارجًا من المدرسة، ويذهب في الغابة. كانت شيئًا ساحرًا. لكنني التفتّ إليه فرأيته جالسًا وقد غطى وجهه بيديه الضخمتين كأنه طفل أصابه الخجل.

كان يقول: «أوووه... هذا محرج كثيرًا... هذا محرج كثيرًا».

ماذا؟

هل فقد عقله؟

هذا الرجل بشخصيته كلها، هذا الرجل العنيد بقدر ما هو كريم، سريع التأثير بقدر ما هو غير مسؤول، كان آتيًا لزيارتنا ليندا وأنا.

كانت لدينا حفلة عيد ميلاد قبل يومين من وصوله. إنه عيد ميلاد ميكائيلا الثلاثون. كانت ميكائيلا تعيش في شقة من غرفة واحدة في سودير، غير بعيد عن لانغهولمن. وكانت الشقة غاصة بالضيوف. وجدنا مكانًا لنا في إحدى الزوايا. وتحدثنا مع امرأة تعمل مديرة في منظمة من منظمات السلام... هذا ما فهمته منها. أما زوجها، وهو مهندس كمبيوتر، فيعمل في شركة اتصالات. كان هذان الاثنان صحبة طيبة. شربت زجاجتي بيرة، لكنني شعرت بأنني أحب أن أشرب شيئًا أقوى. بحثت فوجدت زجاجة أكوافيت. بدأت أشرب من تلك الزجاجة. ثملت، ثم ازددت ثمالة، ثم حل الليل وبدأ الناس يذهبون إلى بيوتهم، أما نحن فبقينا. وفي النهاية، استبد بي السكر حتى صرت أكوّر المناديل الورقية وأقذف بها الناس القريبين مني. لم يبقَ إلّا المقربون، أقرب أصدقاء ليندا. إضافة إلى رمي الكرات الورقية في اتجاه رؤوسهم، كنت أثرثر هنا وهناك وأقول كل ما يخطر في ذهني وأضحك كثيرًا. حاولت أن أقول شيئًا لطيفًا عن كل واحد من الموجودين ففشلت، لكن حسن نيتي كان واضحًا على الأقل. وفي آخر المطاف جرتني ليندا خارجًا فاعترضت، كيف نذهب الآن بعد أن صار كل شيء لطيفًا دافئًا. إلّا أنها أصرت. فارتديت معطفي ولم أدرِ إلّا ونحن ماضيان مسرعين في الطريق وقد ابتعدنا مسافة من شقة ميكائيلا. كانت ليندا غاضبة مني. ما الأمر الآن؟ لقد سكرت؛ ولم يسكر أحد غيري... ألم ألاحظ هذا؟ فقط أنا! معقول؟ هل كان خمسة وعشرون ضيفًا صاحين، جميعًا؟ هكذا هي الأمور في السويد: أحد أهداف أي أمسية ناجحة أن يخرج الجميع من الحفلة مثلما جاؤوا. أما أنا فكنت معتادًا على وجود أشخاص يشربون حتى يسقط السقف عليهم. ألم تكن هذه حفلة عيد ميلادها الثلاثين؟... لا، لقد أخزيتها؛ لم تعرف حرَجًا كهذا من قبل... هؤلاء أفضل أصدقائها... وهنالك كنت، أنا، رجلها الذي تقول عنه تلك الأشياء الرائعة كلها... كنت هناك أثرثر من غير معنى وأقذف الناس بكرات ورقية وأوجّه الإهانات إليهم... كنت فاقدًا صوابي تمامًا!

فقدت أعصابي! لقد تجاوزت الحد! أو أنني كنت ثملًا إلى درجة ما عادت تسمح بوجود أي حد. شتمتها، وصحت قائلًا إنها فظيعة، وإنها لا تهتم إلّا بأن تضع لي حدودًا، بأن تضع العقبات في طريقي... قلت إنها تمسكني بأقصى ما تستطيعه من إحكام. هذا شيء مريض... كنت أصرخ... أنت مريضة! سوف أتركك الآن. لن تريني بعد اليوم أبدًا.

سرت مبتعدًا عنها بأسرع ما استطعت. لحقت بي راكضة.

قالت لي: «أنت سكران. اهدأ! يمكننا الحديث عن هذا الأمر غدًا. لا تستطيع الذهاب إلى المدينة في حالتك هذه».

قلت وأنا أبعد يدها عني: «لماذا لا أستطيع الذهاب؟».

كنا قد بلغنا بقعة العشب الصغيرة الفاصلة بين شارعها وشارعي. صحت بها قائلًا إنني لا أريد رؤيتها بعد الآن، ثم عبرت الشارع بخطى واسعة وسرت نازلًا في اتجاه محطة زينكنزدام. ظلت ليندا واقفة أمام المدخل، كانت تناديني. لكني لم ألتفت. اجتزت سودير كلها، وعبرت المدينة القديمة حتى بلغت محطة القطار. كنت في غاية الغضب، طيلة الطريق. كانت خطتي بسيطة: سوف آخذ قطارًا إلى أوسلو وأترك هذه المدينة القذرة ولا أعود إليها أبدًا، أبدًا، أبدًا. كان الثلج يهطل، والجو باردًا، لكن غضبي جعلني أشعر بالدفء. صرت داخل المحطة، لكني لم أكد أستطيع قراءة الحروف على لوحة الرحلات المغادرة. بذلت جهدًا كبيرًا في التركيز (كان لا بد من بذل جهد أيضًا حتى أحافظ على توازني)، فرأيت أن هنالك قطارًا إلى أوسلو بين التاسعة والعاشرة في الصباح. كانت الساعة الرابعة فجرًا.

ماذا أفعل ريثما يأتي وقت القطار؟

وجدت مقعدًا في آخر الصالة فقررت النوم عليه. كانت آخر فكرة تأتيني قبل أن أغفو هي أنني لا يجوز أن أغير قراري عندما أستيقظ: عليّ التمسك بقراري... صارت ستوكهولم ماضيًا، حتى بعد أن أصحو.

استيقظت على أحد حراس المحطة يهزني من كتفي. فتحت عيني.

قال لي: «لا يمكنك النوم هنا».

قلت وأنا أنتصب ببطء جالسًا: «إنني أنتظر القطار».
«لا بأس. لكنك لا تستطيع النوم هنا».
سألته: «أيمكنني الجلوس؟».
قال: «لا أظن. أنت ثمِل، أليس كذلك؟ لعل من الأفضل أن تذهب إلى البيت».
قلت له: «لا بأس»، ثم نهضت.
يا للبؤس! نعم... لا أزال ثملًا.
تجاوزت الساعة الثامنة. كانت المحطة مزدحمة. وما كنت أريد شيئًا غير النوم. كان رأسي ثقيلًا إلى حد فظيع، وكان مشتعلًا بشيء يشبه الحمى... ما كان شيء مما أراه ثابتًا في مكانه بل أراه ينزلق مبتعدًا عني. تحاملت على نفسي وسرت عبر ممرات المترو. أخذت المترو حتى زينكنزدام، وصعدت إلى الشقة. لم أجد المفتاح. كان عليّ أن أقرع الباب.
أريد أن أنام. لا أستطيع الاهتمام بأي شيء آخر.
أتت ليندا راكضة عبر الممر، رأيتها خلف الباب الزجاجي.
قالت وهي تلفّني بذراعيها: «أوه، ها أنت هنا. كنت خائفة كثيرًا. اتصلت بكل مستشفى في المدينة. هل أتوكم برجل نرويجي طويل القامة؟... أين كنت؟».
قلت: «كنت في محطة القطارات المركزية. كنت أريد أن أركب القطار إلى النرويج. لكني في حاجة إلى النوم الآن. اتركيني أنام. لا توقظيني».
قالت: «لا بأس. هل تريد شيئًا عندما تستيقظ؟ كوكا كولا؟ لحم؟».
قلت: «لا أريد شيئًا من هذا»، ثم أسرعت فدخلت الشقة وخلعت ملابسي واندسست تحت اللحاف وغفوت في لحظة واحدة.
كان الظلام مخيمًا في الخارج عندما استيقظت. رأيت ليندا جالسة على كرسي في زاوية المطبخ. كانت تقرأ تحت المصباح الذي كان شبيهًا بطائر مائي واقف على ساق واحدة، ساق واحدة طويلة دقيقة، مائلًا برأسه قليلًا صوبها، ينيرها من الأعلى.

قالت: «مرحبًا. كيف أنت الآن؟».

سكبت لنفسي كأسًا من الماء وشربته في جرعة واحدة.

أجبتها: «جيد... إلّا أنني غاضب».

قالت وهي تضع الكتاب على مسند الكنبة وتنهض واقفة: «أنا آسفة جدًا بشأن ما حدث الليلة الماضية».

قلت: «وأنا آسف أيضًا».

«أصحيح ما قلته من أنك كنت تريد الرحيل؟».

أومأت برأسي وقلت: «نعم، صحيح. لقد نلت كفايتي».

احتضنتني بين ذراعيها وقالت: «أفهم هذا».

«ليس الأمر مقتصرًا على ما حدث في الحفلة. إنه أكثر بكثير من ذلك».

قالت: «نعم».

قلت: «هيا بنا! فلنذهب إلى غرفة الجلوس».

ملأت كأس الماء من جديد وجلست إلى الطاولة. تبعتني ليندا وأضاءت مصباح السقف.

قلت لها: «هل تذكرين أول مرة أتيت إلى هنا؟ أقصد، إلى هذه الغرفة».

أومأت برأسها.

«قلت لي إنك تظنين أنني أعجبكِ».

«كانت تلك كلمة أقل مما أردت قوله».

«نعم، أعرف هذا الآن. لكنني شعرت بالإهانة في حقيقة الأمر. تبدو كلمة إعجاب باهتة جدًا في اللغة النرويجية. من الممكن أن تعجبك نملة! لم أكن أدري أن هذه الكلمة في اللغة السويدية تعادل كلمة أحبك. ظننتك تريدين القول إنني بدأت أعجبك قليلًا، وأن ذلك يمكن أن يتطور مع مرور الزمن. هكذا فهمتها آنذاك».

ابتسمت ابتسامة صغيرة ونظرت إلى الطاولة. قالت: «لقد اقتحمتُ الأمر اقتحامًا. أتيت بك إلى هنا وأخبرتك بمشاعري تجاهك. لكنك كنت

باردًا جدًا. قلت لي إننا قد نكون أصدقاء، هل تذكر هذا؟ لقد غامرت بكل شيء، وخسرت كل شيء في تلك اللحظة. كنت يائسة تمامًا عندما ذهبت».

«لكننا هنا الآن».

«نعم».

«يا ليندا... لا يمكنك أن تُملي علي ما أفعله. لن يجدي هذا نفعًا. سوف أتركك. لست أتحدث عن الشرب. هذا يشمل كل شيء. لا يمكنك فعل ذلك».

«أعرف».

كان هنالك صمت.

سألتها: «ألم تكن لدينا كرات لحم في البراد؟ أنا جائع كثيرًا».

«نعم، لدينا».

ذهبت إلى المطبخ فأفرغت كرات اللحم في المقلاة، ثم وضعت على النار ماء من أجل إعداد السباغيتي. سمعت ليندا تأتي من خلفي.

قلت لها: «لم تجدي الأمر مزعجًا في الصيف... أعني الشرب. لم تكوني معترضة على الشرب آنذاك، أليس هذا صحيحًا».

قالت: «لم أكن معترضة. بل كان ذلك رائعًا. إنني أخشى الإفراط، لكنني لم أخش الإفراط في الصيف، لم أكن أخشى الإفراط معك. كان كل شيء آمنًا معك. لم أشعر أن ذلك يمكن أن يزيد عن حده ويصبح هوسًا، أو يصبح بشعًا، ببساطة. بدا لي كل شيء آمنًا. لم أكن أشعر بذلك الأمان من قبل. لكن الأمر مختلف الآن. لقد تغيرنا».

قلت وأنا أستدير لأن الزبدة بدأت تذوب بين كرات اللحم في المقلاة: «هذا صحيح؛ فأين نحن الآن؟».

رفعت كتفيها وقالت: «لست أدري. لكنني أحس أننا فقدنا شيئًا ما. كأن شيئًا انتهى. وأنا خائفة من اختفاء البقية أيضًا».

«لكنك لا تستطيعين إرغامي لأن تلك هي الطريقة التي ستجعل كل شيء يختفي بالتأكيد».

«بالطبع. هذا صحيح. أعرف هذا».
وضعت الملح في الماء من أجل السباغيتي.
سألتها: «هل تريدين أن تأكلي؟».
أومأت برأسها ومسحتْ دموعها بإبهامَيْ يديها.

وصل ثوريه إيريك نحو الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي فملأت شخصيته الشقة الصغيرة كلها مع أول خطوة له فيها. ذهبنا إلى عدد من المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة. تفحّص ما لديهم من كتب عن التاريخ الطبيعي القديم. ثم ذهبنا إلى بيليكان فتعشينا وبقينا نشرب البيرة إلى أن أغلق المكان أبوابه. أخبرته عن تلك الليلة في محطة القطار وعن قراري يومها بالسفر إلى النرويج.

قال لي: «لكني كنت قادمًا إليك! هل كان عليّ، في تلك الحالة، أن أستدير وأعود أدراجي؟».

قلت: «هذا، تحديدًا، ما كنت أفكر فيه عندما استيقظت. قلت إن ثوريه إيريك آت إليّ. لا يمكنني السفر الآن».

ضحك، ثم بدأ يخبرني عن علاقة له كانت عاصفة إلى حد يجعل علاقتي مع ليندا تبدو أشبه بكوميديا خفيفة إذا ما قُورنت بها. شربت عشرين زجاجة بيرة تلك الليلة. ولا أذكر من الساعات الأخيرة غير عجوز ثمل حاول ثوريه إيريك الحديث معه عندما جلس ذلك الرجل إلى طاولتنا وظل يقول إنني وسيم جدًا، إنني شاب وسيم جدًا. كان ثوريه إيريك يضحك ويلكزني في كتفي وهو يحاول جعل الرجل يحدثنا عن حياته. ثم أذكر أننا وقفنا في الشارع أمام الشقة وأنه استلقى في مقعد سيارته الخلفي لينام بينما كانت ندف من الثلج تتساقط من سماء رمادية باردة.

غرفة واحدة ومطبخ: هذا ما لدينا. كنا نطبخ هناك ونأكل وننام ونمارس الحب ونتحدث ونشاهد التلفزيون ونقرأ الكتب ونتشاجر ونستقبل زوارنا كلهم. كان مكانًا صغيرًا مزدحمًا، لكنه كان كافيًا. كنا نتدبر أمرنا، وكنا قادرين على الاستمرار. أما إذا أنجبنا أطفالًا (هذا ما كنا نتحدث عنه من غير

توقف)، فإن علينا أن نجد لأنفسنا شقة أكبر. كانت والدة ليندا تمتلك شقة في مركز المدينة. في تلك الشقة غرفتان، لكن مساحتها أكثر من ثمانين مترًا مربعًا. تكاد تكون ملعبًا لكرة القدم إذا ما قورنت بما هو لدينا الآن. لم تعد أمها تستخدم تلك الشقة، لكنها تؤجرها. قالت لنا إننا نستطيع أخذها. ليس هكذا تمامًا، لأن هذا ليس قانونيًا: عقود الإيجار شخصية في السويد، وهي تدوم مدى الحياة، أما تبادل الشقق فهو جائز. سوف تأخذ أم ليندا شقتها، ونأخذ نحن هذه الشقة.

ذهبنا لرؤية الشقة ذات يوم.

كانت شقة برجوازية لم أرَ مثلها في حياتي. موقد ضخم على الطراز الروسي من القرن الماضي في نهاية الغرفة. له واجهة رخامية ضخمة. وموقد آخر في مثل ارتفاع سابقه، لكنه أقل ضخامة، في غرفة النوم. جدران تكسوها ألواح خشبية بيضاء منحوتة نحتًا جميلًا، وتزيينات جصية على السقوف المرتفعة أكثر من أربعة أمتار. أرضيات رائعة من الباركيه المتموج على طراز أواخر القرن التاسع عشر. كان أثاث أمها على النمط نفسه: أثاث ثقيل، فني، من أواخر القرن التاسع عشر.

قلت لها ونحن نتجوّل في الشقة: «هل نستطيع العيش هنا؟».

قالت ليندا: «لا، طبعًا لا نستطيع. أليس من الأفضل أن نبادلها على شقة في سكارهولمن أو في مكان ما مثل سكارهولمن؟ كل شيء ميت هنا».

كانت سكارهولمن بلدة في ضواحي ستوكهولم يكثر فيها المهاجرون. لقد ذهبنا إلى سوقها ذات يوم سبت ففوجئنا بما فيها من حياة وتنوع.

قلت: «أنا موافق. سيكون شبه مستحيل أن نجعل هذه الشقة لنا فعلًا».

في الوقت نفسه، كانت فكرة الانتقال إلى هذه الشقة مغرية بعض الشيء، شقة جميلة فسيحة لها موقع ممتاز في قلب المدينة. أهنالك مشكلة إن ضعنا في هذه الغرف؟ أو لعلنا نكون قادرين على جعل هذا النمط البرجوازي جزءًا من حياتنا؟

لقد كنت على الدوام راغبًا في نمط حياة برجوازي. أردت دائمًا أن يكون

كل شيء في أحسن حال. وأردت دائمًا أن تكون هنالك صيغ ثابتة وقواعد صارمة حتى تجعل ما هو داخلي ثابتًا في مكانه، حتى تنظمه، حتى تصوغه فتجعله شيئًا يمكن العيش معه من غير أن تسمح له بتمزيق حياتك مرة بعد مرة. لكني، كلما وجدت نفسي ضمن إطار عيش الطبقة الوسطى على سبيل المثال، مع أهل أبي أو مع والد تونجه، كلما حدث العكس تمامًا... كان ذلك كأنه يجعل كل ما هو مختلف في نفسي ظاهرًا للعيان، كل ما لا يتلاءم مع تلك الأماكن، كل ما يتجاوز القوالب والصيغ، كل ما كنت أكرهه في نفسي.

أما هنا...؟ ليندا وأنا وطفل؟ حياة جديدة، ومدينة جديدة، وشقة جديدة، وسعادة جديدة؟

طغت هذه الفكرة على الانطباع الأول الذي أحدثته الشقة في نفسي، ذلك الانطباع المظلم المفتقر إلى الحياة... تجاوبنا مع الفكرة، ثم دبت فينا الحماسة بعد أن مارسنا الحب على السرير. استلقينا بعد ذلك واضعين رأسينا على الوسادة... كنا ندخن، وما كان عندنا أي شك في أن حياتنا الجديدة ستبدأ هنا.

عاد غيير من العراق في أواخر شهر نيسان. تناولنا العشاء معًا في مطعم أميركي غالي الثمن في المدينة القديمة. كان نشطًا مفعمًا بالحياة على نحو لم أره فيه من قبل. وكان لا بد له من أسابيع كثيرة حتى يخبرني عن تجاربه كلها وعن الناس الذين التقاهم هناك، الناس الذين صرت أعرف كل شيء عنهم؛ وبعد ذلك بدأ اندفاعه يهدأ ويسمح لأشياء أخرى بأن تشغل ذهنه وأحاديثه.

نقلنا أمتعتنا في أوائل أيار. نقلناها بمساعدة من أنديرس. وعندما فعلنا ذلك، نظفنا الشقة كلها. بدأنا بعد الظهر وأمضينا فترة المساء كلها. بلغت الساعة الحادية عشرة ولم ينته التنظيف. وفجأة، استندت ليندا إلى الجدار، كانت مرهقة.

صاحت قائلة: «لقد اكتفيت! لا أستطيع الاستمرار في العمل أكثر من هذا».

قلت لها: «ساعة أخرى فقط. ساعة ونصف كحد أقصى. أنت قادرة على ذلك».

كانت عيناها دامعتين.

قالت لي: «لماذا لا نتصل بأمي؟ لسنا مضطرين إلى إنهاء العمل كله. سوف تأتي غدًا وتنجز ما بقي منه. هذه ليست مشكلة. أعرف أنها لن تجد مشكلة في هذا».

سألتها: «هل تتركين أحدًا غيرك ينظف شقتك؟... ينظف من أجلك؟ لا يمكنك أن تنادي أمك كلما كانت لديك مشكلة. صار عمرك ثلاثين عامًا. ماذا بك؟».

تنهدت وقالت: «نعم، أعرف هذا! لكني مرهقة تمامًا. وهي قادرة على فعل ذلك. لن تجد مشكلة في الأمر».

«لكنها مشكلة عندي. ويجب أن تكون مشكلة عندك أنت أيضًا».

أمسكت بالخرقة، ثم تابعت تنظيف إطار باب الحمام.

قلت لها: «يمكنني إنجاز ما بقي من عمل. اذهبي أنت. وسوف ألحق بك فيما بعد».

«هل أنت واثق من هذا؟».

«نعم، أنا واثق. لا بأس في ذلك على الإطلاق».

«لا بأس».

ارتدت ملابس الخروج، ثم مضت في الظلام. أنهيت التنظيف بنفسي. كان ما قلته لها حقيقيًا: الأمر يعني شيئًا بالنسبة إليّ. نقلنا حوائجي في اليوم التالي، أعني أننا نقلنا كتبي كلها التي كان عددها قد زاد على ألفين ومئة كتاب. هذا ما جعل أنديرس وغيير اللذين ساعداني في نقلها يطلقان الشتائم من أعماق قلبيهما عندما رحنا ننقل صناديق الكتب من المصعد إلى الشقة. وبالطبع، كان غيير يقارن نقل صناديق الكتب بمساعدة جنود المشاة البحرية الأميركية في إفراغ صناديق الذخيرة، لأن هذا ما كان يفعله قبل أسابيع قليلة فقط. أما أنا فكانت تلك المقارنة غريبة عني كمثل غرابة صيد الثيران بتفريغ

عربات نقل النقود في شركة ويلز فارغو. وعندما صار أثاث البيت كله مجموعًا ضمن كومتين ضخمتين في الغرفتين، بدأت طلاء الجدران، في حين ذهبت ليندا إلى النرويج لإعداد برنامج إذاعي عن السابع عشر من أيار. سوف تقيم مع أمي التي لم ترها قبل الآن إلّا ساعات قليلة في ستوكهولم. بعد انطلاق القطار بها، اتصلت بأمي لأن هنالك ما يقلقني: كل ما يشير إلى وجود تونجه، صور زواجنا، خاصة التي كانت لا تزال معلقة على الجدار عندما زرت أمي في عيد الميلاد، وكذلك ألبوم صور العرس. لم أكن أريد أن تكون ليندا معرضة لهذا كله، ولم أكن أريدها أن تشعر بأنها موجودة على هامش حياتي، كأنها مجرد بديل. بعد مقدمة قصيرة حدثتها فيها عن أخباري منذ لقائي الأخير. بدأت أقترب من الموضوع الذي أردت طرحه. كنت أعرف أن ما أقوله سخف، بل أعرف أيضًا أن فيه شيء من الإهانة لليندا، من الإهانة لها ولي، لكني لم أستطِع منع نفسي. ما كنت قادرًا على تحمل فكرة أن رؤية ذلك يمكن أن يزعج ليندا؛ وهكذا نطقت آخر الأمر. سألت أمي إن كانت تقبل أن تزيل صورة الزفاف عن الجدار أو تضعها، على الأقل، في مكان خفي بعض الشيء! اتضح أنها قد فعلت ذلك قبل أن أطلبه. قالت إننا لم نعد متزوجين. سألتها: وماذا عن ألبوم الصور؟ أعني... صور الزفاف. ألا تستطيعين إخفاءه في مكان ما؟ أجابتني: أوه، لا يا كارل أوفه. إنه ألبومي أنا. وهو يمثل مرحلة من مراحل حياتي. لا أريد إخفاءه. ولن تجد ليندا مشكلة في ذلك. هي تعرف أنك كنت متزوجًا. أنتما كبيران ناضجان. قلت لها: لا بأس. أنتِ محقة. إنه ألبومك أنت. لكني لا أريد إزعاجها. قالت أمي: لن تنزعج. سيكون كل شيء على ما يرام.

كانت الإقامة عند أمي قرارًا جريئًا من جانب ليندا؛ كانت تمد يدها إليها. وقد جرى الأمر على أحسن وجه. كنا نتكلم هاتفيًا عدة مرات في اليوم الواحد. قالت لي إن الطبيعة في فيستلاند أذهلتها... تلك الخضرة كلها، والزرقة، والبياض... الجبال الشاهقة، والفيوردات العميقة... مناطق شبه مهجورة، وشمس مشعة في السماء طيلة الوقت. قالت إنها أحسّت كما لو

أنها تنتقل إلى شيء يشبه الحلم. اتصلت من بيت إقامة صغير في باليستراند ووصفت لي المنظر من نافذتها: تلاطم الأمواج الذي تستطيع سماعه عندما تنحني إلى الخارج، كانت نبرات صوتها زاخرة بالتطلع إلى المستقبل. كيفما تكلمت، كانت تتكلم عنا نحن الاثنين... هكذا كنت أفهمها. كان العالم في غاية الجمال، وكان هذا كلامًا عنا لأننا في هذا العالم معًا؛ بل كان ذلك كما لو أن ذلك العالم هو نحن. أخبرتها كم صارت الغرفتان الكبيرتان جميلتين الآن بعد أن تحول لونهما الرمادي إلى أبيض. كان المستقبل في صوتي أيضًا. كنت أنتظر رجوعها لكي ترى ما أنجزته، وكنت في شوق إلى العيش هنا، في مركز المدينة، وفي شوق إلى الطفل الذي قرّرنا إنجابه. أنهينا المكالمة، وعدت إلى متابعة الطلاء. يوم غد هو السابع عشر من أيار، وسيأتي إسبن وإيريك بعد الظهر. لقد كانا في ندوة للنقاد في بيسكوبس آرنو. خرجنا لتناول الشاي، وعرّفتهما إلى غيير. سرعان ما انسجم غيير جيدًا مع إيريك بمعنى أنهما تحدثا من غير عوائق في جملة مواضيع متنوعة. لكن غيير لم ينسجم مع إسبن. ذكر غيير بعض الأشياء البديهية، ثم تشنج عندما اعترض عليها إسبن، فكان الأمر منتهيًا. حاولت التوسط كعادتي... أعطي إسبن شيئًا وأعطي غيير شيئًا آخر باليد الأخرى. لكن الأوان قد فات، لن يكونا قادرين على تبادل الحديث، ولن يكون أحدهما قادرًا على محبة الآخر أو احترامه. كنت أحبهما، كليهما، بل أحب الثلاثة في حقيقة الأمر. لكن حياتي كانت على هذا النحو دائمًا: تكون هنالك خلافات كبيرة بين مختلف الأطراف فأتصرف مع كل واحد بطريقة مختلفة عن تصرفي مع الآخر. لكنني أحس كالواقع في الفخ عندما تجتمع الأطراف معًا فأصير غير قادر على التصرف بهذه الطريقة ولا بتلك. أتصرف بطريقة غير طبيعية أو أحتفظ بفمي مطبقًا. يعجبني إسبن كثيرًا، تحديدًا لأنه إسبن. كما يعجبني غيير كثيرًا لأنه غيير. لكن هذه الطبيعة عندي (طبيعة سارة مريحة في واقع الأمر... هكذا أراها على الأقل) تأتي معها بنوع من الإحساس بأنني منافق.

أمضت ليندا ذلك اليوم كله مع عائلتي، هكذا أخبرتني في الصباح

التالي. ذهبت مع أمي إلى باله حيث تقيم شقيقتها كيىلاوغ وزوجها ماغنه في مزرعتهما القائمة في مكان مرتفع في القرية، وهناك احتفلوا بيوم السابع عشر من أيار، احتفلوا على الطريقة التقليدية. كانت ليندا تجري مقابلات مع الناس، ومن خلال ما قالته لي فهمت أنها وجدت الموضوع كله شديد الغرابة في واقع الأمر: الخطابات، والأزياء، والفرقة الموسيقية، وموكب الأطفال. وفي الصباح، رأوا أيلًا عند أول الغابة. وفي طريق عودتهم إلى البيت، كانت هنالك دلافين ترقص في مياه الفيورد. قالت لها أمي إن ذلك فأل حسن... الدلافين تجلب الحظ.

لا تظهر الدلافين كثيرًا في الفيورد. لم أرَها إلّا مرتين اثنتين. رأيتها عن قرب في المرة الأولى لأني كنت في القارب مع جدي. كان هنالك ضباب وهدوء تام، وعند ذلك أتت الدلافين. سمعت أول الأمر صوتًا يشبه صوت قارب سريع يشق الماء، ثم رأيت أجسادها الصقيلة اللامعة الرمادية الداكنة. كانت تسبح جيئة وذهابًا. قالت جدتي يومها، مثلما قالت أمي، إن الدلافين تجلب الحظ الحسن. كانت ليندا مستمتعة تمامًا، لكنها متعبة أيضًا. ظلت متعبة طيلة رحلتها، طيلة السفر عبر المنعطفات الحادة التي جعلتها تصاب بشيء يشبه دوار البحر. وهكذا فقد أوت إلى الفراش في وقت مبكر كما قالت لي. أمضت الأمسية الماضية مع الشقيقة الصغرى لجدتي، آلافديس، التي لا تكبر أمي إلّا بعشر سنين. كان معها زوجها آنفين: رجل قصير القامة إنما قوي الجسم، وله شخصية مبتهجة مرحة لكنها قوية أيضًا. أحبت ليندا شخصيته، والظاهر أن ذلك الشعور كان متبادلًا لأنه أخرج كل ما لديه من تذكارات من الزمن الذي كان فيه يصطاد الحيتان وحدثها عن تجاربه في تلك الأيام. ولعل الميكروفون الذي وضعته بينهما كان عاملًا في زيادة حماسته. قال لها إنهم كانوا يصنعون الفطائر باستخدام بيض البطاريق! أخبرها بهذا ضاحكًا، لكنها كانت قلقة في ما يتعلق بالتسجيل لأن آنفين يتحدث بلهجة يولستر العريضة التي لن يفهمها السويديون بكل تأكيد.

غادر إسبن في الصباح، لكن إيريك بقيَ. ذهب إلى المدينة، أما أنا

فأخرجت بقية الكتب من صناديقها ووضعتها على الرفوف، ثم تخلصت من آخر الصناديق الفارغة فصار من الممكن إنجاز العمل كله قبل عودة ليندا في الصباح التالي. وفي المساء، خرجنا من جديد وتجوّلنا، ثم عدنا إلى البيت وجلسنا طيلة الليل نشرب الكحول المُعفى من الرسوم الجمركية. كنا، ليندا وأنا، نتبادل الرسائل النصية طيلة المساء لأنها كانت متوعكة قليلًا: إنها مرهقة؛ ومن المؤكد أن ذلك لا يمكن أن يعني إلّا شيئًا واحدًا، أليس كذلك؟ ومع تأخر الوقت، صارت الرسائل أكثر عاطفية وحبًا، لكنها كتبت لي آخر الأمر: ليلة هادئة يا أميري. قد يكون الغد يومًا عظيمًا!

عندما رقدت في الفراش في السابعة صباحًا، كانت شعلة الكحول متوقدة بقوة داخلي إلى حد جعلني غير قادر على رؤية ما يحيط بي وكأن ذاتي الداخلية قد صارت كل شيء؛ تمامًا مثلما يحدث عندما أفرط في الشرب كثيرًا. لكني كنت محتفظًا بالقدر الضروري من حضور الذهن حتى أضبط المنبه على التاسعة. كان عليّ أن أستقبل ليندا في محطة القطار.

كنت لا أزال ثملًا في التاسعة. ولم أستطِع الوقوف على قدميَّ إلّا بعد أن حشدت كل ما أمتلكه من قوة الإرادة. جرجرت نفسي إلى الحمام فأخذت دوشًا سريعًا وارتديت ثيابًا نظيفة وصحت بإيريك قائلًا له إنني ذاهب. كان مستلقيًا على الأريكة، مرتديًا ثيابه كلها. أجبر نفسه على الجلوس وقال لي إنه سيخرج ليتناول إفطاره. أجبته أننا يمكن أن نلتقي في الثانية عشرة تقريبًا في المطعم الذي كنا فيه يوم أمس. أومأ برأسه فخرجت ونزلت السلم وصرت في الشارع حيث كانت الشمس متوهّجة ساطعة وكان الأسفلت يفوح برائحة الربيع.

توقفت في طريقي لأشتري كوكا كولا. شربتها على الفور واشتريت واحدة أخرى. نظرت إلى وجهي في زجاج واجهة المحل. لم يكن مظهري حسنًا. عينان محمرتان ضيقتان، وملامح وجه مرهقة.

كنت مستعدًا لإعطاء كل شيء مقابل تأجيل اللقاء ثلاث ساعات. لكن هذا كان مستحيلًا لأن قطارها يصل المحطة بعد ثلاث عشرة دقيقة. يجب أن أسرع.

كانت ليندا خفيفة سريعة الحركة عندما نزلت إلى رصيف المحطة. نظرت من حولها باحثة عني وقد علت الابتسامة شفتيها. لوّحت لها بيدي فلوّحت لي وسارت نحوي جارة حقيبتها خلفها بيد واحدة.

نظرت إليّ.

قلت لها: «مرحبًا».

سألتني: «ماذا حدث؟ هل أنت سكران؟».

تقدّمت منها وطوّقتها بذراعي.

قلت لها مرة أخرى: «مرحبًا. تأخرنا في السهرة قليلًا الليلة الماضية، لكنه شيء عادي. سهرت في البيت مع إيريك».

قالت وهي تتفلت من بين ذراعي: «تفوح منك رائحة الكحول. كيف يمكنك أن تفعل هذا بي؟... اليوم من بين الأيام كلها؟».

أجبتها: «إنني آسف. لكنها ليست مسألة كبيرة، أليس كذلك؟».

لم تجبني. بدأت تمشي. لم تقل أي كلمة عندما خرجنا من المحطة. بدأت تشتمني عندما صرنا على السلم الكهربائي الصاعد على جسر كلارابيرغسفيادوكتن. حاولت دفع باب الصيدلية التي في أعلى السلم، لكنها كانت مقفلة. إنه يوم الأحد! واصلنا السير في اتجاه الصيدلية الواقعة إلى الجانب الآخر من متجر NK. ظلت غاضبة طيلة الطريق. أما أنا فسرت إلى جانبها كالكلب. لم تكن الصيدلية الأخرى مغلقة. قالت لي: «لقد سئمتك تمامًا. لا أعرف ما يجعلني أعيش معك. أنت لا تفكر إلّا في نفسك. ألا يعني لك أي شيء ما قلناه يوم أمس؟» جاء دورها فطلبت اختبارًا للحمل، ثم دفعت ثمنه وخرجنا. سرنا في شارع ريغرينغزغاتان. استمرت في تأنيبي؛ كانت الكلمات مثل سيل متواصل، وكان العابرون ينظرون إلينا، لكنها لم تبالي بهم لأن غضبها الذي أخافه دائمًا كان مستوليًا عليها تمامًا. كنت راغبًا في أن أطلب منها التوقف عن ذلك، وأن تكون لطيفة معي. لقد اعتذرت، ثم إنني لم أفعل شيئًا كبيرًا... لا علاقة بين الرسائل التي تبادلناها وحقيقة أنني كنت أشرب مع ضيف قادم من النرويج؛ ولا علاقة بين ثملي وبين اختبار الحمل الذي تحمله في يدها الآن. لكنها ما كانت

ترى الأمر هكذا: كان هذا كله شيئًا واحدًا في نظرها... كانت رومانسية، وكان لديها حلم عنا نحن الاثنين، حلم عن الحب وعن طفلنا، لكن سلوكي حطم حلمها أو ذكرها بأنه ليس إلّا حلمًا. وكنت أنا شخصًا سيئًا، شخصًا غير مسؤول، فكيف يمكنني تخيل أن أصير أبًا؟ كيف أعرّضها لهذا كله؟ سرت إلى جانبها والخزي يحرقني لأن الناس ينظرون إلينا. كان إحساسي بالذنب يحرقني أيضًا لأنني كنت أشرب. وكان الذعر يحرقني لأنها، في فورة غضبها العنيفة، مضت تهاجمني وتهاجم الشخص الذي كنته. كان هذا مذلًا، لكنها كانت محقة وكانت تقول الحقيقة لأننا قد نكتشف اليوم أننا سننجب طفلًا ولأنني جئت إلى المحطة ثملًا... ما كنت قادرًا على أن أقول لها اسكتي، أو اذهبي إلى الجحيم. لقد كانت محقة، فكان علي أن أخفض رأسي وأتحمل كلامها كله.

صعقتني فكرة أن إيريك قد يكون قريبًا منا الآن، فخفضت رأسي أكثر من ذي قبل. كانت هذه تقريبًا أسوأ فكرة ممكنة... أن يراني في هذا الوضع أحد ممن أعرفهم.

صعدنا السلم، ودخلنا الشقة. طلاء جديد، وكل شيء في مكانه: هذا بيتنا.

لم تلق نظرة على ذلك.

توقفتُ في وسط الغرفة.

لقد ضربتني من قبل عندما احتدم غضبها، ضربتني مثلما يضرب الملاكم كيس الملاكمة. ضربتني كأنني شيء من الأشياء، كأنني لا مشاعر عندي... نعم، كأنني ليست لي حياة داخلية، كأنني لست أكثر من جسد فارغ يتجول من حول حياتها.

كنت أعرف أنها حبلى، بل كنت واثقًا تمامًا من ذلك. كنت واثقًا منذ مارسنا الحب آخر مرة. قلت في نفسي آنذاك: هذا هو؛ الآن سوف يكون لديّ طفل.

هكذا كان الأمر.

وفجأة، بينما كنت واقفًا هناك، انهار كل شيء في داخلي. سقطت

دفاعاتي كلها، وما عدت قادرًا على المقاومة. بدأت أبكي. كان ذلك النوع من البكاء الذي أفقد معه السيطرة على كل شيء، ذلك النوع الذي يصير معه كل شيء معوجًا مشوهًا إلى حد الغرابة.

توقفت ليندا. استدارت ونظرت إليّ.

لم ترني أبكي قبل الآن. لم أبكِ منذ أن مات أبي. سرعان ما تكتمل خمس سنين منذ ذلك الوقت.

بدت مذعورة. استدرت مبتعدًا عنها. ما كنت أريدها أن ترى هذا لأنه يزيد الخزي عشرة أضعاف... لم يكن الأمر أنني لست شخصًا، بل لست رجلًا أيضًا!

لكن استدارتي مبتعدًا عنها لم تفدني. ولم يفدني إخفاء وجهي بيدي. لم يفدني السير في اتجاه الصالة. طغى عليّ ذلك تمامًا، وكنت أبكي وأشهق فاقدًا أي سيطرة على نفسي.. انفتحت المجاري كلها.

قالت من خلفي: «لكن، يا كارل أوفه... هيا الآن يا كارل أوفه! لا أقصد شيئًا. كل ما في الأمر أنني كنت خائبة الأمل كثيرًا. لكن هذا لا أهمية، لا أهمية له. عزيزي كارل أوفه. لا تبكِ. لا تبكِ يا عزيزي».

أنا أيضًا... لم أكن أريد البكاء. وما كنت أريد أبدًا أن تراني باكيًا هكذا. لكني لم أستطِع منع نفسي. حاولت أن تلفني بذراعيها، لكني دفعتها بعيدًا عني. حاولت التقاط أنفاسي. صار بكائي نشيجًا مرتجفًا بائسًا.

قلت لها: «أنا آسف. أنا آسف. لم أكن أقصد ذلك».

قالت: «وأنا آسفة أيضًا».

قلت مبتسمًا من خلف دموعي: «لا بأس... ها نحن هنا من جديد».

كانت الدموع ملء عينيها، وكانت تبتسم لي أيضًا.

قالت لي: «نعم». وقلت: «نعم».

ذهبت إلى الحمام. داهمتني نوبة نشيج أخرى ونوبة ارتعاد أخرى عندما أخذت نفسًا عميقًا. لكني غسلت وجهي عدة مرات بماء بارد فهدأت.

كانت ليندا لا تزال واقفة في الصالة عندما خرجت من الحمام.

سألتني: «هل صار الوضع أحسن؟».

أجبتها: «نعم. كان هذا شيئًا سخيفًا. لا بد أنه من أثر الشرب الليلة الماضية. لقد تهاوت دفاعاتي بشكل مفاجئ. بدا لي كل شيء يائسًا».
قالت: «ليس مهمًا أنك بكيت».
«أعرف أنه ليس مهمًا في نظرك. لكني لا أحب ذلك. أفضل لو أنك لم تريني هكذا. لكنك رأيتني. والآن صرت تعرفين... تعرفين كيف أنا».
«نعم، أعرف أنك شخص طيب».
«هيا الآن. هذا يكفي. فلنتحدث في شيء آخر. ما رأيك في الشقة؟».
ابتسمت وقالت: «إنها رائعة».
«جيد».
احتضن كل منا الآخر. وقلت لها: «ليندا! ألن تجري الاختبار؟».
«الآن؟».
«نعم».
«فليكن. لكن... عانقني أكثر قليلًا».
فعلت ذلك.
سألتها: «الآن؟».
ضحكت: «نعم».
ذهبت إلى الحمام، ثم عادت حاملة شريط الاختبار الأبيض في يدها.
قالت لي: «سوف يستغرق الأمر بضع دقائق أخرى».
«وماذا تتوقعين؟».
«لست أدري».
ذهبت إلى المطبخ، فلحقت بها. كانت تنظر إلى الشريط الأبيض.
«هل ظهر شيء؟».
«لا، لا شيء. أو لعله لا شيء! كنت واثقة تمامًا من أن هنالك شيئًا ما».
«نعم، لقد كانت هنالك علامات. أصابكِ الغثيان. وكنت مرهقة. كم علامة أخرى تريدين؟».
«علامة واحدة فقط».
«أنظري، إنه أزرق، أليس ما أراه صحيحًا؟».

لم تقل شيئًا.

وبعد ذلك، رفعت رأسها ونظرت إليّ. كانت عيناها قاتمتين عميقتين جادتين كأنهما عينا حيوان: «نعم، إنه أزرق».

لم نستطِع انتظار انقضاء الشهور الإلزامية الثلاثة قبل أن نخبر الجميع. اتصلت ليندا بأمها بعد ثلاثة أسابيع، فانهمرت دموع الفرحة من عينيها. لكن ردة فعل أمي كانت أكثر تحفظًا. قالت إن هذا خبر جميل، رائع، لكنها عبرت عن شكوكها بعد قليل من ذلك وتساءلت إن كنا مستعدَيْن للأمر. ليندا لديها دراستها، وأنا لديّ كتابتي. قلت لها إن الزمن سيجيب على هذا السؤال، وإننا سنكتشف الحقيقة في شهر كانون الثاني. كنت أعرف أن أمي بطيئة في استيعاب التغيرات، وأنها في حاجة دائمًا إلى التفكير في الأمر قبل كل شيء، وبعدها تصير قادرة على الحركة والتكيف مع الوضع من جديد. قال إنغفه الذي اتصلت به بعد اتصالي بأمي مباشرة إن هذا خبر عظيم. قلت له: نعم! كنت واقفًا أدخن في الباحة الخلفية. سألني: متى يحين موعد الولادة؟ أجبته: في كانون الثاني. قال: أهنئكما! شكرته فقال لي: كارل أوفه، إنني في وضع صعب الآن. إنني أشاهد مباراة كرة قدم مع إيلفا. هل يمكننا الحديث في وقت لاحق؟ أجبته: بالطبع. بعد أغلقت الهاتف. أشعلت سيجارة أخرى. ولاحظت أنني لم أكن راضيًا تمامًا عن ردة فعل أمي ولا عن ردة فعل إنغفه. سوف يكون لدينا طفل. بحق الرب! هذا حدث هائل! لكن شيئًا ما قد حدث عندما انتقلت إلى السويد. نحن على تواصل مثلما كنا قبل انتقالي. ليست المشكلة هنا... لكن هنالك شيء مختلف! رحت أتساءل إن كان التغير قد حدث عندي أو عندهم! إنني بعيد عنهم، وقد تغيّرت حياتي تغيرًا جذريًا بين لحظة وأخرى: أماكن جديدة، وأشخاص جدد، ومشاعر جديدة، وما عدت قادرًا على التواصل بالسهولة الطبيعية نفسها التي كانت موجودة عندما كنا نعيش في بيئة واحدة، في تلك الاستمرارية التي بدأت في توباكن ثم استمرت في تفيت، وبعدها في بيرغن.

لا... أظن أنني أحمّل الأمر أكثر مما يحتمل. هكذا قلت في نفسي. لم تكن ردة فعل إنغفه مختلفة كثيرًا عن ردة فعله قبل سبع سنين عندما اتصلت

به وأخبرته أنهم وافقوا على نشر الرواية التي كنت أكتبها. كانت إجابته المقتضبة: «هل هذا صحيح؟ ممم، شيء جيد». أما في نظري، فقد كان ذلك أهم حدث على الإطلاق. كان هذا الخبر مفاجأة هائلة عندي، وافترضت أنه يجب أن يكون كذلك لدى كل شخص ضمن دائرتي.

طبيعي أن الأمر لم يكن كذلك.

ثم إنه ليس سهلًا أبدًا أن يواجه المرء الأخبار التي تغير الحياة كلها، خاصة عندما يكون شديد الانغماس في اليومي وفي المبتذل، مثلما يحدث لنا دائمًا. يمتص اليومي والمبتذل كل شيء تقريبًا، ويجعلان كل شيء صغيرًا، باستثناء أحداث قليلة تكون ضخمة إلى حد يجعلها تفيض عن التوافه اليومية المحيطة بنا. هكذا هي الأخبار العظيمة؛ ومن غير الممكن أن يعيش المرء فيها.

أطفأت سيجارتي وصعدت إلى ليندا التي نظرت إليّ عندما دخلت ورفعت حاجبيها.

سألتني: «ماذا قالا؟».

قلت: «كانت فرحتهما كبيرة جدًا. أطيب التمنيات والتهاني».

قالت: «شكرًا! لقد جُنّت أمي فرحًا. لكنك تعرف أنها تتحمّس كثيرًا تجاه كل شيء تقريبًا».

اتصل إنغفه في وقت لاحق من ذلك المساء. قال إن في إمكاننا أن نحصل على كل ما نريد من ملابس الأطفال ومستلزماتهم. العربة، وبساط تغيير الحفاضات، والأوفرولات، والسترات، والبنطلونات، والأحذية. لقد احتفظوا بتلك الأشياء كلها. تأثرت ليندا عندما أخبرتها بهذا فضحكت منها لأن حساسيتها تغيّرت خلال الأسابيع القليلة الماضية فصارت استجاباتها غريبة. لقد ضحكت أيضًا. كانت أمها تمر علينا كثيرًا وتحضر معها وجبات لذيذة جدًا. أتت أيضًا بعدة أكياس من ملابس الأطفال وبعدة صناديق من الألعاب المرسلة من أبناء شريكها. اشترت لنا غسالة أيضًا. وتولى شريكها، فيدار، تركيبها أيضًا.

واصلت ليندا دراستها، وواصلتُ عملي في المكتب المشترك. بدأت

أقرأ الكتاب المقدس، وعثرت على مكتبة كاثوليكية اشتريت منها كل ما استطعت الحصول عليه من كتب تتحدث عن الملائكة، وقرأت توما الإكويني وأوغسطين وباسيليوس وهيرونيموس، وهوبس وبورتون. اشتريت كتب شبنغلر وسيرة حياة إسحاق نيوتن وكتبًا مرجعية عن عصر الأنوار وعصر الباروك. كانت أكوام الكتب من حولي وأنا جالس أكتب وأحاول جمع أنظمة الفكر ومدارسه المختلفة كلها، بطريقة أو بأخرى، أو الإتيان بشيء ما في الاتجاه نفسه، بشيء لم أكن أعرف ما هو.

كانت ليندا سعيدة، لكنها تعاني قلقًا دائمًا جعلها خائفة من كل شيء. هل ستكون قادرة على رعاية الطفل عندما يأتي؟ وهل سيأتي؟ قد تفقده؛ يحدث هذا! وما كان أي شيء مما أقوله أو أفعله قادرًا على درء هذا الخوف الذي يجول على هواه في داخلها خارجًا عن سيطرتها. لكن هذا مرّ أيضًا، لحسن حظنا.

ذهبنا في عطلة إلى النرويج في أواخر شهر حزيران. توجهنا إلى ترومويا أولًا حيث أمضينا يومين. ثم زرنا إسبن وآن في لاركولن. أقمنا في بيت العطلات الذي يملكانه. وأخيرًا، ذهبنا إلى أمي في جولستر. ما كان أحد منا يحمل رخصة لقيادة سيارة. وهكذا كنت أجرجر حقائبنا في الطائرات والباصات والقطارات وسيارات التاكسي. وإلى جانبي ليندا التي كانت غير قادرة على حمل شيء أكثر من تفاحة. لاقانا آرفيد في آرندال. كان أكبر مني ببضع سنوات. إنه من ترومويا، وقد كان في الأصل صديقًا لإنغفه، لكننا كنا نجتمع كثيرًا في بيرغن حيث درس هو أيضًا. كما أنه زارنا في ستوكهولم قبل بضعة شهور. أراد أن يأخذنا بالسيارة إلى بيته. كنت أعرف أن ليندا مرهقة، وكانت تريد الذهاب إلى بيت العطلات الذي استأجرناه هناك. أخبرت آرفيد مباشرة بأن ليندا حامل، وذلك حتى أدعم رغبتها تلك.

قال آرفيد: «أوه، تهانيَّ الحارة».

قلت: «لهذا السبب، من الأفضل أن نذهب إلى بيت العطلات أولًا حتى نرتاح...».

قال آرفيد: «يمكننا ترتيب ذلك، سأوصلكما إليه بالسيارة، ثم آتي بالقارب فيما بعد لأخذكما».

كان بيت العطلات مبنيًا من جذوع الأشجار؛ منخفض الجودة فندمت لحظة رأيته. لقد أردت أن أجعلها ترى المكان الذي نشأت فيه. كان مكانًا جميلًا في نظري. أما هذا المكان فهو غير جميل.

نامت نحو ساعتين، ثم خرجنا نتنزه على الرصيف البحري. وصل آرفيد يشق الماء بقاربه. سوف نذهب إلى جزيرة هيسويا حيث يعيش. مررنا ببيوت صغيرة بيضاء على الصخور ألقت عليها شمس بعد الظهر لونًا أحمر وأحاطت بها أشجار خضراء في وسط ذلك القوس الأزرق، قوس السماء والماء. قلت في نفسي... أوه، يا إلهي، ما أروع هذا المكان! ثم أتت الريح التي تهب مع غروب الشمس كل يوم. جعلت الريح المشهد كله مختلفًا، غريبًا، رأيت هذا الآن مثلما كنت أراه عندما كنت صغيرًا هنا. صار كل شيء غريبًا لأن ما يوحد عناصر ذلك المشهد الطبيعي تهاوى مع هبوب الريح مثلما ينفرط عقد جدار من الحجارة تحت مطرقة ثقيلة.

بلغنا الشاطئ، ثم صعدنا إلى البيت، وجلسنا حول طاولة في الحديقة. كانت ليندا منغلقة، منطوية على نفسها بطريقة بدت غير ودية. أما أنا فكنت أعاني. كنا جالسين هناك مع أسرته وأصدقائه، وكانت تلك أول مرة يقابلونها. من الطبيعي أنني أردت منها أن تجعلهم يروا كم هي رائعة فتاتي، لكنها كانت غير راغبة في هذا. أمسكت بيدها من تحت الطاولة وشددت عليها. نظرت إليّ من غير أن تبتسم. أحسست برغبة في الصراخ والقول لها إن عليها أن تسيطر على مزاجها. أعرف كم يمكن أن تكون ساحرة، وكم هي موهوبة في هذا الأمر تحديدًا، في الجلوس إلى طاولة مع أشخاص آخرين والحديث والضحك ورواية القصص. لكني تذكرت كيف أكون عند وجودي مع بعض أصدقاء ليندا الذين لا أعرفهم جيدًا. أكون صامتًا متيبسًا خجولًا، أكون شخصًا يمكن أن يمضي فترة العشاء كلها من غير قول ما يتجاوز الكلمات الضرورية ضرورة مطلقة.

في أي شيء تفكر الآن؟ ما الذي أزعجها؟

أهو آرفيد؟ ذلك الطبع المتشدّق قليلًا الذي يمكن أن يستولي عليه أحيانًا.

أم هو أنا؟
أتراني قلت شيئًا بعد الظهر؟
أو أنه شيء في داخلها؟ شيء لا علاقة له بهذا كله؟
وبعد الطعام، ذهبنا في نزهة بالقارب، نزهة حول جزيرة هيسويا، ثم في اتجاه جزيرة ماردو. زاد آرفيد السرعة عندما صرنا في عرض البحر. راح القارب الرشيق السريع ينزلق على صفحة الماء. وكانت الأمواج تضرب جوانبه ثم ترتد عنها. امتقع وجه ليندا. كانت في شهرها الثالث، وظننت أن هذه الحركات العنيفة يمكن أن تكون كفيلة بجعلها تفقد الطفل. كان واضحًا أن هذا هو ما يدور في ذهنها.
قالت هامسة: «قل له أن يخفف السرعة! هذا خطير بالنسبة إليّ!».
نظرت إلى آرفيد الذي كان جالسًا خلف المقود وقد علت وجهه ابتسامة عريضة. كانت عيناه متقلصتين في مواجهة الريح المالحة المندفعة في مواجهتنا. لم أرَ في الأمر شيئًا خطيرًا، وما كنت قادرًا على جعل نفسي أتدخّل وأطلب من آرفيد تخفيف السرعة. سيكون هذا طلبًا غبيًا! لكن ليندا كانت جالسة إلى جانبي تحترق خوفًا وغضبًا. يمكنني أن أفعل ذلك من أجلها، بالتأكيد... حتى لو جعلت من نفسي شخصًا أحمق!
قلت لليندا: «لا بأس يا ليندا. ليس في هذا أي خطر».
همست من جديد: «كارل أوفه! قل له أن يخفّف السرعة، هذا شديد الخطورة، ألا تفهم؟».
نهضت واقتربت من آرفيد، كانت جزيرة ماردو تقترب منا بسرعة. نظر آرفيد إليّ وابتسم.
قال لي: «إنه زورق سريع، أليس كذلك؟».
أومأت برأسي وابتسمت له. كنت على وشك أن أطلب منه تخفيف السرعة، لكنني سكتت وجلست إلى جانب ليندا.
قلت لها: «ليس الأمر خطيرًا».
لم تقل شيئًا. ظلت جالسة تشد ذراعيها على بطنها وقد صار وجهها مبيضًا لشدة توترها.

تجوّلنا في جزيرة ماردو. مددنا بساطًا في أحد الحقول وشربنا القهوة وأكلنا البسكويت، ثم عدنا إلى القارب. وعندما وصلنا إلى المرسى، اقتربت من آرفيد وقلت له: «كانت ليندا خائفة بعض الشيء عندما أسرعت بالقارب، تعرف أنها حامل، ولذلك فإن الحركات العنيفة... أنت تفهم هذا. هل يمكنك الإبطاء قليلًا في طريق العودة؟».

قال: «لا مشكلة في هذا».

قاد القارب بسرعة الحلزون طيلة طريق العودة إلى هوفه. تساءلت في نفسي إن كان يحاول بذلك أن يقول لنا شيئًا أم أنه يريد إظهار مدى حرصه عليها ومراعاته لها. مهما يكن الأمر، فقد كنت في غاية الحرج. كنت محرجًا لأنني طلبت ذلك منه، وأيضًا لأنني ما كنت قادرًا على التدخل في البداية. من الواضح أن فعل ذلك كان أسهل شيء في العالم، أليس كذلك؟... أن أقول لشخص ما أن يخفف السرعة لأن فتاتي حامل!

كان عليّ أن أفعل هذا لأن مصدر انزعاج ليندا ومخاوفها كان مختلفًا عن بقية الناس. لم تنقضِ ثلاث سنوات على خروجها من المستشفى بعد معاناتها اكتئابًا استمر سنتين. وما كان الإنجاب بعد هذه التجربة أمرًا خاليًا من المخاطر. ما كانت لديها فكرة عن استجابتها لهذا الواقع الجديد، وكيف ستكون. ربما تغرق في نوبة جديدة من الاكتئاب الوسواسي! وقد تكون نوبة شديدة تجعلها تدخل المستشفى من جديد. فماذا سيحدث للطفل عند ذلك؟ لكنها تجاوزت مرضها واستقرت في العالم بطريقة مختلفة تمامًا عما كان قبل انهيارها. أراها كل يوم منذ سنة تقريبًا. وأعرف أنها ستكون بخير. كنت أعتبر ما أصابها مجرد أزمة. صحيح أنها كانت أزمة طويلة شاملة. لكنها مرّت وانقضت. إنها في صحة جيدة. ليست تقلبات المزاج الموجودة في حياتها شيئًا خارجًا عن حدود السلوك الطبيعي.

ذهبنا بالقطار إلى موس. استقبلنا إسبن في المحطة وأخذنا بالسيارة إلى بيته في لاركولن. أصيبت ليندا بشيء من ارتفاع الحرارة، فذهبت إلى الفراش. أما أنا وإسبن فذهبنا إلى ملعب قريب حيث تبادلنا رميات كرة القدم. كان لدينا شواء في المساء. جلست مع إسبن وآن، ثم مع إسبن وحده. ظلت ليندا

نائمة. وفي اليوم التالي، أخذنا إسبن إلى بيت العطلات في جزيرة يولويا حيث بقينا فيه أسبوعًا بينما سافر مضيفانا إلى ستوكهولم ونزلا في شقتنا. كنت أنهض في الخامسة تقريبًا فأعمل على روايتي لأن المخطوط قد صار رواية الآن. أعمل إلى أن تستيقظ ليندا في حدود الساعة العاشرة. نتناول طعام الإفطار، وأقرأ لها من وقت لآخر أشياء مما كتبته. تقول دائمًا إنها أشياء رائعة. كنا نذهب للسباحة في شاطئ يبعد كيلومترات قليلة، ثم نقوم ببعض التسوق ونعدّ طعام الغداء. أذهب لصيد الأسماك بعد الظهر بينما تنام ليندا قليلًا. وفي المساء نشعل نارًا ونتحدّث أو نقرأ أو نمارس الحب. عندما انقضى الأسبوع، ذهبنا بالقطار من موس إلى أوسلو، ثم أخذنا قطار بيرغن حتى بلدة فلام حيث ركبنا القارب إلى باليستراند ونمنا في فندق كفيكنه، ثم سافرنا بالعبّارة البحرية صباح اليوم التالي. التقينا توماس إسباديل الذي كان في رحلة على الأقدام مع واحد من أصدقائه، كانا متجهين إلى البيت الذي يملكه في سيونفيورد. لم أره منذ أن كنا نعيش في بيرغن. وقد أسعدتني رؤيته الآن. كان واحدًا من أحسن الناس الذين عرفتهم. وجدنا أمي في انتظارنا على الرصيف في فيارلاند. وفي طريقنا بالسيارة مررنا بالجليدية التي كانت تشع لونًا أبيض رماديًا على خلفية السماء الزرقاء. ثم عبرنا النفق الطويل إلى الوادي المظلم الضيق حيث تحدث انهيارات ثلجية كثيرة، ثم بلغنا سكْي حيث يبدأ ريف يولستر العامر اللطيف. كان هذا ثالث لقاء بين ليندا وأمي. عبثًا حاولت طيلة إقامتنا هناك أن أردم الهوة التي رأيتها على الفور. كان بينهما حاجز دائمًا، وبدا لي أن ما من شيء تقريبًا يجري بسلاسة بينهما. وعندما يحدث ذلك، عندما أرى ليندا تنفتح وتستجيب على نحو يجعل أمي مسرورة، كنت أشعر بسعادة لا حد لها، ثم أدرك سبب سعادتي فأتوق إلى الرحيل.

ثم بدأت ليندا تنزف. أصابها الذعر، ذعر حقيقي، وأرادت أن نسافر على الفور. اتصلت بستوكهولم وتحدثت مع القابلة المشرفة عليها. لكن القابلة ما كانت قادرة على قول شيء من غير أن تفحصها. هذا ما جعل ذعر ليندا يزداد؛ ولم يكن قولي لها إن كل شيء سيكون على ما يرام وإن كل شيء

سينتهي على خير وإن هذا لا أهمية له... لم يكن بذي فائدة أبدًا. فما أدراني أنا؟ من أين لي هذه المعرفة؟ لقد أرادت السفر فقلت لها إننا باقيان. وعندما وافقتْ على البقاء آخر الأمر، صرت مسؤولًا عن كل شيء! إذا جرت الأمور على غير ما يرام، أو إذا حدث شيء سيء بالفعل، فإنني أنا من أصر على أن ما من شيء يدعو إلى القلق وما من شيء يستدعي إجراء فحص طبي... أنا من قال إن علينا أن ننتظر ونرى.

كانت طاقة ليندا كلها متركزة على هذا. وكان يمكنني رؤية أنها لا تفكر إلّا فيه، وأن الخوف يأكلها. ما عادت تتحدث أثناء الطعام أو عندما نكون معًا في المساء. تنزل إلى الطابق السفلي بعد أن تكون نائمة في الأعلى، فتجدني جالسًا مع أمي في الحديقة نتحدّث في شيء ما. تنظر إلينا، ثم تستدير وتذهب وقد امتلأت عيناها غضبًا أعرف سببه: إننا نتكلم كما لو أن شيئًا لم يحدث، كما لو أن مشاعرها لا أهمية لها. كان هذا صحيحًا وغير صحيح. كنت أرى أن كل شيء سوف ينتهي على خير، لكني لم أكن واثقًا. وفي الوقت نفسه، كنا ضيفين هنا. لم أرَ أمي منذ أكثر من ستة شهور. لدينا أشياء كثيرة نتحدث عنها؛ فلماذا نظل ساكتين، ولماذا نتجوّل هنا وهناك من غير كلام في خوف معذِّب يلفنا من كل ناحية؟ كنت أحتضنها وأهدئها وأحاول القول لها إن كل شيء سينتهي على خير بكل تأكيد، لكنها ما كانت قادرة على تقبل ذلك، وما كانت تريد البقاء هنا. تسألها أمي شيئًا فلا تكاد تجيب بكلمة واحدة. كانت تنتقد أمي عندما نتنزه في الوادي، تنتقد كل شيء فيها. وكنت أدافع عنها فيصرخ كل منا في الآخر، ثم تستدير وتمضي مبتعدة وحدها، فأجري خلفها. كان ذلك كابوسًا لكنه، ككل الكوابيس، كابوس يستيقظ المرء منه بعد حين. لكن، كان لا بد من مشهد أخير: أخذتنا أمي بالسيارة إلى فلورو لأننا سنسافر بحرًا من هناك. وصلنا في وقت مبكر وقررنا أن نتناول الغداء. عثرنا على مطعم على شيء يشبه منصة عائمة. جلسنا وطلبنا حساء السمك. جاؤوا بحساء السمك فكان مذاقه فظيعًا... مذاق الزبدة، ولا شيء آخر!

قالت ليندا: «لا أستطيع أن آكل هذا».

قلت: «أنت محقة. مذاقه سيئ».

قالت ليندا: «من الأفضل أن تخبر النادلة وتطلب منها أن يحضروا لنا شيئًا آخر».

لا يمكنني تخيل شيء أكثر إحراجًا من إعادة الطعام إلى المطبخ. ثم إننا في بلدة بسيطة، في فلورو... لسنا في ستوكهولم ولا في باريس. لكني كنت أيضًا غير قادر على تحمل موجة جديدة من المزاج السيء.

ناديت النادلة وقلت لها: «يبدو لي أن هذا الطبق ليس جيدًا. ألا يمكنك أن تجلبي شيئًا آخر بدلًا منه؟».

نظرت إليّ النادلة الضخمة متوسطة العمر ذات صبغة الشعر الشقراء الرديئة نظرة سخط. قالت: «لا أظن أن هناك أي مشكلة في الطعام. لكني سأذهب وأسأل الطباخ إن كنت تريد أن أفعل ذلك».

بقينا جالسين حول الطاولة، أمي وليندا وأنا، وأمامنا ثلاثة أطباق من الحساء. ولم نقل شيئًا.

عادت النادلة وهزت رأسها. قالت لنا: «إنني آسفة! يقول الطباخ إن الحساء جيد. يقول إن مذاقه مثلما يجب أن يكون».

ماذا أفعل الآن؟

لأول مرة في حياتي أطلب إعادة الطعام إلى المطبخ، لكنهم يرفضون ما أقوله. لو كنا في أي مكان آخر في الأرض لقدموا لنا شيئًا بديلًا، لكن ليس في فلورو! احمرّ وجهي خجلًا وانزعاجًا. لو كنت وحدي، لأكلت هذا الحساء البائس مهما يكن مذاقه رديئًا. أما الآن، فقد اشتكيت بصرف النظر عن مقدار ما وجدته في الشكوى من حرج، لكنهم رفضوا احتجاجي؟!

نهضت واقفًا وقلت: «سأذهب للحديث مع الطباخ».

قالت النادلة: «تفضل».

سرت عبر العوامة، وذهبت إلى المطبخ، الذي كان على اليابسة. مددت رأسي من النافذة فنظر إليّ رجل طويل القامة حسن البنية في مثل سني. لم يكن الطباخ شخصًا قصيرًا سمينًا مثلما تخيلته.

قلت له: «لقد طلبنا حساء السمك. إن فيه كمية كبيرة من الزبدة. لا نستطيع تناوله هكذا. ألا يمكننا أن نستبدل به شيئًا آخر؟».

قال الطباخ: «إن مذاقه مثلما يجب أن يكون. طلبتم حساء السمك فأتيناكم بحساء السمك. لا أستطيع مساعدتكم بعد هذا».

عدت أدراجي. نظرت ليندا وأمي إليّ. هززت رأسي وقلت: «لم يتراجع».

قالت أمي: «أظن أن عليّ أن أكلمه. إنني امرأة كبيرة السن، وقد يكون هذا مفيدًا بعض الشيء».

إن كان التذمّر في المطاعم ليس من طبعي، فهو ليس من طبعها أيضًا، بكل تأكيد.

قلت: «لا حاجة إلى هذا. من الأفضل أن نذهب».

قالت: «سوف أحاول».

عادت بعد دقائق. كانت تهز رأسها أيضًا.

قلت لها: «أوه، لا بأس. إنني جائع، لكننا لن نأكل حساء السمك هذا بعد كل ما حدث».

نهضنا، وضعت النقود على الطاولة، ثم ذهبنا. قلت لليندا: «سنكون مضطرين إلى الأكل على القارب». هزت رأسها. كانت عيناها مظلمتين.

وصل القارب. وضعت أمتعتنا على متنه، ثم ودعت أمي وعثرت على مكان لجلوسنا في المقدمة.

أكلنا بيتزا رخوة القوام ورطبة على نحو غريب؛ وأكلنا معها لبنًا رائبًا وفطيرة بطاطس. استرخت ليندا في مقعدها ونامت. عندما استيقظت كان الشيء الذي سكنها طيلة هذه الأيام كلها قد اختفى تمامًا. صارت متألقة، منطلقة. كانت جالسة إلى جانبي تتكلم من غير انقطاع. رحت أنظر إليها وقد تملكتني دهشة عميقة. هل كان هذا كله بسبب أمي؟ أو لعله كان بسبب وجودها في مكان لم تألفه! أو لأنها كانت تزور حياتي قبل أن تصبح جزءًا منها؟ لعله لم يكن خوفًا من خسارة الطفل! فإن كانت خائفة آنذاك، فإن مبررات خوفها لا تزال قائمة!

عدنا بالطائرة من بيرغن. وفي اليوم التالي، ذهبت إلى الفحص الطبي فاتضح كل شيء على أحسن حال. كان القلب الصغير ينبض، والجسد الصغير ينمو، ونتائج الاختبارات جيدة كلها.

بعد الفحص الذي جرى في عيادة طبية في المدينة القديمة، ذهبنا إلى محل حلويات قريب وجلسنا نتحدّث عمّا حدث خلال الفحص. هذا ما نفعله دائمًا. وبعد ساعة من ذلك، ذهبت بالمترو طيلة المسافة إلى آكيشوف حيث كنت قد حصلت على مكتب جديد. لم أكن قادرًا على البقاء في مكتبي القديم في ذلك المبنى المرتفع، فعرضت عليّ صديقة ليندا الكاتبة مخرجة الأفلام ماريا زينستروم غرفة بسيطة مقابل مبلغ لا يكاد يعادل شيئًا. كانت الغرفة في قبو بناية سكنية. وما كان أحد على مقربة مني طيلة النهار. صرت أجلس وحيدًا بين الجدران الاسمنتية فأكتب أو أقرأ أو أحدق في الغابة حيث تمر عربات المترو بين الأشجار كل خمس دقائق، أو نحو ذلك. كنت قد قرأت كتاب شبنغلر «انحطاط الغرب». رغم أن من الممكن قول الكثير عن نظرياته في الحضارة، إلّا أن ما كتبه عن عصر الباروك وعن أفكاره الفاوستية وعن عصر التنوير ومفهومه عن الطبيعة الدورية للحضارات.. كان شيئًا أصيلًا شديد الإتقان. عليّ القول إنني وضعت بعضًا من ذلك في روايتي لأنني أدركت أن القرن السابع عشر يجب أن يكون مركزًا لها. لقد انبثق كل شيء منه. انقسم العالم جزأين في ذلك القرن: القديم الذي لا فائدة منه، والسحري، واللاعقلاني، والدوغمائي، والتقليد السلطوي من ناحية؛ ومن ناحية أخرى كل ما تطوّر فصار هذا العالم الذي نسكنه الآن.

مرّ الخريف. تضخّم بطن ليندا. صارت مشغولة بأشياء كثيرة لا حصر لها، وبدت كأنها مغناطيس يجذب كل شيء. كانت هنالك شمعات مشتعلة وحمامات حارة وأكوام من ملابس الأطفال في الخزانة. تجمعت في البيت ألبومات صور، وقُرئت كتب تتحدّث عن الحمل وعن السنة الأولى من عمر الطفل. كنت سعيدًا برؤية هذا، لكني لم أستطِع أن أكون هناك بنفسي، ما كنت قادرًا حتى أن أكون قريبًا. كان عليّ أن أكتب. وكان يمكنني أن أكون

معها، أن أمارس الحب معها، أن أتحدث معها وأذهب في نزهات معها، لكني ما كنت قادرًا على إحساس ما تحسه ولا على فعل ما تفعله.

ومن وقت لآخر، كانت هنالك انفجارات غضب. دلقتُ بعض الماء على سجادة المطبخ ذات صباح، ثم خرجت في اتجاه المترو من غير أن أمسح الماء. عندما عدت إلى البيت، رأيت على السجارة بقعة كبيرة صفراء. سألت عما حدث فنظرت ليندا إليّ نظرة خجلى... نعم، لقد رأت بقعة الماء التي تركتها على السجادة عندما دخلت المطبخ فغضبت كثيرًا وسكبت العصير فوقها. ثم جفّ الماء فأدركت سوء فعلتها.

كان علينا أن نرمي تلك السجادة.

وذات مساء، أتلفتْ طاولة غرفة الطعام التي جاءت هدية من أمها وكانت جزءًا من مجموعة هدايا دفعتْ فيها ثروة في ذلك الوقت. حدث هذا لأنني لم أهتم اهتمامًا كافيًا بالرسالة التي كانت تكتبها إلى قسم الولادة في المستشفى. كنت أتابع كلامها عمّ ترغب فيه وما تفضله. أومئ برأسي عندما تقرأ اقتراحًا من اقتراحاتها بصوت مرتفع، لكن من الواضح أنني لم أكن أظهر الاهتمام الكافي. وفجأة غرست قلمها في الطاولة وراحت تحزز سطحها بأقصى قوة استطاعتها. راحت تحززه مرة بعد مرة. قلت لها: ماذا تفعلين؟ قالت: أنت غير مهتم!

أوه، بحق الرب! أنا مهتم طبعًا. لقد أتلفتِ الطاولة!

وذات مساء، غضبت منها غضبًا شديدًا جعلني أرمي الكأس على الموقد بكل قوتي. لكن الغريب أن الكأس لم تنكسر. شيء عادي... هكذا قلت في نفسي بعد ذلك... ما كنت قادرًا حتى على أداء هذه الحركة التقليدية. على تحطيم كأس خلال مشاجرة بيننا.

كنا نذهب معًا إلى دروس ما قبل الولادة. صالة مكتظة، وجمهور حسّاس لكل كلمة تُقال على المنصة. وإذا قيل أي شيء يمكن أن يكون موضع خلاف، ولو من بعيد، أي شيء يمكن أن يكون موضع خلاف من وجهة نظر بيولوجية، فإن صدمة تسري بين صفوف الناس الجالسين لأن هذا كله يحدث في بلد صار نوع الجنس فيه بنيةً في التفكير الاجتماعي وما

عاد فيه مكان للجسد خارج ما يُقرّ الجميع بأنه من مقتضيات الحس السليم. الغريزة... جاء صوت من المنصة. لا، لا، لا! همست النساء الغاضبات في الصالة. كيف يمكن قول كلمة كهذه؟ رأيت امرأة تنتحب في مقعدها لأن زوجها تأخر عشر دقائق فقلت في نفسي إنني لست حالة فريدة. وعندما وصل الرجل أخيرًا، ضربته زوجته في بطنه بقبضة يدها، أما هو فراح يحاول، بكل هدوء وحذر، أن يخرجها من حالتها النفسية إلى حالة أكثر ضبطًا واحترامًا.

هكذا كنت أعيش: تقلبات مزاجية مفاجئة تتراوح بين الهدوء والصفاء والتفاؤل ورقة العاطفة، وبين انفجارات غضب مفاجئة. أخرج كل صباح لأذهب بالمترو إلى آكيشوف. وكلما نزلت إلى المحطة تحت الأرض، يختفي من عقلي كل ما جرى في البيت. كنت أنظر إلى جموع الناس في المحطة، وأتنفّس ذلك الجو، ثم أجلس في القطار وأقرأ وأنظر إلى بيوت الضواحي التي نمر بها بعد أن يخرج القطار من نفقه... أقرأ، وأنظر إلى المدينة خلال عبورنا الجسر الكبير، أقرأ، وأحب المواقف في المحطات الصغيرة كلها، أحبها حقًا، ثم أترك القطار في آكيشوف فأكاد أكون المسافر الوحيد المتجه إلى عمله في ذلك الاتجاه. أسير بعد ذلك قرابة كيلومتر واحد إلى المكتب، ثم أعمل طيلة اليوم. كاد حجم المخطوط يبلغ مئة صفحة. وهو يزداد غرابة شيئًا بعد شيء. بعد المقدمة التي تحدثت عن جمع السرطانات، يتحوّل النص إلى أسلوب المقالة ويطرح بعض النظريات عمّ هو سماوي، نظريات لم أفكر فيها من قبل لكنها صحيحة بطريقة خاصة ما، ومن منطلقاتها هي. صادفت مكتبة روسية أرثوذكسية فكانت لقيّة حقيقية: وجدت فيها أنواعًا من الكتابات المتميزة فاشتريتها وسجّلت ملاحظاتي عليها، وكنت غير قادر تقريبًا على ضبط فرحتي عندما رأيت عنصرًا جديدًا من شيء يكاد يكون «نظرية» قد استقر في مكانه الصحيح. استمر ذلك إلى أن عدت إلى البيت بعد الظهر حيث بدأت الحياة التي تنتظرني هناك تعود إليّ تدريجًا مع اقتراب القطار من محطة هوتورغيت. من حين إلى آخر، كنت أذهب إلى المدينة في وقت أبكر. يحدث ذلك عندما يكون علينا الذهاب لإجراء فحص في مركز رعاية الأمومة (هكذا يُدعى في السويد) حيث

أجلس على كرسي وأنظر إلى ليندا أثناء إجراء الفحص... قياس ضغط الدم وأخذ عينات دم، والاستماع إلى ضربات القلب، وقياس محيط البطن الذي كان يكبر مثلما يجب أن يكبر. كان كل شيء يسير على نحو سليم، وكانت نتائج الاختبارات ممتازة كلها فقد كانت ليندا تتمتع بقوة جسدية وصحة جيدة... هذا ما كنت أقوله لها كلما سنحت لي الفرصة. فبالمقارنة مع وزن جسمها ومع الحقائق التي تبينها الفحوصات، كان القلق لا شيء، كان أشبه بذبابة تطير، بريشة تعوم في الهواء، بغمامة من غبار.

ذهبنا إلى إيكيا واشترينا طاولة لتغيير الحفاضات ووضعنا عليها كميات من الملابس والمناشف، ثم علقت على الجدار فوقها مجموعة بطاقات عليها صور فقمات وحيتان وأسماك وسلاحف وأسود وقرود، وكذلك صور فرقة بيتلز في أوجها حتى يستطيع طفلنا إلقاء نظرة على العالم الذي وُلد فيه. أرسل إلينا إنغفه وكاري آن ما لديهما من لوازم الأطفال. إلّا أن وصول عربة الأطفال الموعودة تأخر مما زاد كثيرًا في انزعاج ليندا. انفجرت ذات يوم وقالت إن العربة لن تصل أبدًا وإننا لا نستطيع الاعتماد على ذلك الأخ الذي عندي. قالت إن علينا أن نشتري عربة بأنفسنا. كان هذا ما قالته منذ اليوم الأول. لا يزال أمامنا شهران حتى موعد الولادة المرتقب. اتصلت بإنغفه وألمحت إلى موضوع العربة، وغمغمت ببعض الكلمات عن لاعقلانية المرأة الحامل. قال إنغفه إن العربة في طريقها إلينا. قلت له إنني أعرف هذا، لكني مضطر إلى سؤاله، رغم ذلك. كم كرهت قول هذا الكلام! كم كرهت أن أخالف طبيعتي حتى أرضيها! لكني قلت لنفسي إن هنالك غاية، إن هنالك هدفًا. طالما ظل هذا الهدف يحتل المكانة الأولى في ذهني، فإن عليّ احتمال كل شيء آخر. لم تصل العربة! موجة غضب أخرى! اشترينا بعض الأشياء الغريبة التي تُوضع في حوض الحمام للطفل. اشترينا صدارات وأحذية صغيرة وأوفرولات وكيس نوم من أجل العربة. استعرنا مهدًا من هيلينا. كان معه لحاف ووسادة راحت ليندا تنظر إليهما بعينين نديتين. ناقشنا اسم الطفل أيضًا. كنا نتحدث عن ذلك كل ليلة تقريبًا ونقلّب مجموعة ضخمة من الأسماء التي نستعرضها جيئة وذهابًا،

ثم نخرج دائمًا بقائمة مختصرة تضم أربعة أسماء أو خمسة. وتتغير هذه القائمة دائمًا. وذات ليلة اقترحت ليندا اسم فانيا. مع هذا الاقتراح، صار لدينا اسم بنت. استقر اختيارنا فجأة. أعجبتنا الرنة الروسية في هذا الاسم، وأعجبتنا إيحاءاته... فيه شيء قوي، برّي. ثم إن فانيا مشتق من إيفان الذي هو يوهانس في النرويجية. هكذا كان اسم والد ليندا أيضًا. وإذا كان الوليد صبيًا، فسيكون اسمه بيورن.

كنت في أحد الأيام نازلًا السلم المفضي إلى رصيف محطة المترو تحت سفيفاغن، فوجدت عينيَّ منشدتين إلى رجلين يتشاجران. كانت رؤية عدوانيتهما إلى جانب تيار المسافرين الضجرين اللامبالين أمرًا مخيفًا. كانا يصرخان، بل يجأران كل واحد على الآخر. تسارعت ضربات قلبي عندما رأيتهما يشتبكان بضراوة مع وصول القطار إلى الرصيف. ابتعد أحدهما قليلًا حتى تتاح له فسحة لرفس الآخر. اقتربت منهما. التحما من جديد. قلت في نفسي إن عليّ أن أتدخل. تذكرت حادثة الملاكم عندما لم أجرؤ على رفس باب الحمام لفتحه، وحادثة القارب عندما لم أجرؤ على مطالبة آرفيد بتخفيف السرعة، وتذكرت قلق ليندا وانزعاجها نتيجة امتناعي عن أي فعل. تزاحمت هذه الذكريات كلها في ذهني فما عاد فيه الآن مكان لأي شك. لا يمكنني الاكتفاء بالوقوف والتفرج. يجب أن أتدخل. فكرة التدخل نفسها جعلت ركبتيَّ ضعيفتين، جعلت ذراعيَّ مرتعشتين. رغم ذلك، وضعت حقيبتي على الأرض قائلًا في نفسي إن هذا اختبار لي... خراء... عليّ أن أظهر قدرًا من المبالاة بما يجري من حولي. ومباشرة، مضيت إلى المتعاركين فطوّقت أقربهما بذراعي. شددته بأقصى ما استطعت من قوة. عندما فعلت ذلك، توقّف رجل آخر، ووقف بينهما. ثم توقّف ثالث. انتهى العراك. حملت حقيبتي ومضيت إلى القطار المتوقّف على الناحية الأخرى من الرصيف. جلست في القطار إلى أن بلغ آسكيهوف، جلست مستنفَدًا. كان قلبي يقفز في صدري. لا يمكن لأحد الزعم بأنني كنت بطيء الحركة، ولا يمكن الزعم أيضًا بأنني كنت شديد الذكاء... كان يمكن أن تكون معهما سكاكين، أو أي شيء؛ ثم... ما علاقتي بعراكهما؟

كان غريبًا في هذه الشهور كيف كنا نتقارب كثيرًا، ثم نتباعد. ما كانت ليندا تحمل أي ضغائن؛ وبعد أن يحدث شيء بيننا، يكون ما حدث قد حدث، يكون قد انتهى. أما أنا فكنت غير ذلك. كنت أحمل ضغينة؛ وكانت كل حادثة من تلك الحوادث التي جرت خلال السنة الماضية كلها تقبع مخزونة في داخلي، على نحو ما. وفي الوقت نفسه، كنت أفهم ما حدث، وكنت أعرف أن شرارات الغضب التي بدأت تتطاير في حياتنا خلال ذلك الخريف الأول، كانت على صلة بما كان قد ضاع من علاقتنا، بما خسرناه. كانت ليندا خائفة من خسارة البقية، وكانت تحاول ربطي بشيء ما، أما أنا فكنت أزداد انكماشًا وابتعادًا عن هذه الروابط. كنت أفعل ما تخشاه ليندا بالضبط. تغير كل شيء عندما حبلت: الآن، صار لدينا أفق يتجاوز الأفق الذي نشكّله نحن الاثنان، صار لدينا شيء أكبر منا؛ وكان ذلك الشيء موجودًا طيلة الوقت، موجودًا في أفكاري وفي أفكارها. لعل انزعاجها كان كبيرًا، لكن إحساسًا بالاكتمال والأمان كان موجودًا فيها، رغم ذلك، كان موجودًا وسط ذلك كله. سوف يستقر كل شيء في مكانه، وسيكون كل شيء على ما يرام. كنت أعرف أن هذا ما سيحدث.

في أواسط كانون الأول، جاء إنغفه وأطفاله لزيارتنا. أتوا ومعهم عربة الأطفال التي طال انتظارها. ظلوا عندنا بضعة أيام. كانت ليندا ودية في اليوم الأول، وظلت كذلك عدة ساعات في اليوم التالي. لكنها أدارت ظهرها بعد ذلك، وغرقت في ذلك المزاج العدائي الذي يصيبني بالجنون. لا يصيبني بالجنون عندما أكون أنا موضوعًا له لأنني اعتدت هذا الأمر، ولأنني أعرف كيف أواجهه. لكنه يصير فظيعًا عندما يكون موجهًا إلى أشخاص آخرين. كان عليّ أن أتدخل. كان عليّ استرضاء ليندا، وكان عليّ أن أحاول استرضاء إنغفه وإبقاء القنوات مفتوحة. بقيت ستة أسابيع حتى اليوم الكبير. كانت تريد الهدوء والراحة، وكانت ترى أن هذا من حقها. قد يكون هذا من حقها؛ ما أدراني أنا! لكن من المؤكد أن هذا لا يعني إعفاء المرء من أن يكون لطيفًا مع ضيوفه! كان حسن الضيافة أمرًا هامًا في نظري، ولم أكن أفهم كيف يمكن لليندا أن تتصرف على هذا النحو. أو، نعم، كنت أفهم

ذلك: سوف تلد قريبًا. وهي لا تريد وجود أشخاص كثيرين في البيت. ثم إن هنالك سنوات ضوئية تفصلها عن إنغفه. كانت لإنغفه علاقة طيبة وثيقة مع تونجه، وما كانت له العلاقة نفسها مع ليندا التي لاحظت ذلك بالطبع. لكن، لماذا تكون لها ردة فعل على ذلك؟ لماذا هي عاجزة عن إخفاء مشاعرها ولعب اللعبة؟ لماذا لا تستطيع إظهار ود تجاه عائلتي؟ ألست ودودًا تجاه عائلتها؟ هل قلت في يوم من الأيام إنهم يأتون كثيرًا ويدسون أنوفهم من غير انقطاع في أمور لا تعنيهم؟ كانت عائلة ليندا، وأصدقاؤها، معنا أكثر بآلاف المرات من أصدقائي وأفراد عائلتي... كانت النسبة واحدًا إلى ألف. لكنها، رغم هذا الفارق الشاسع، ما كانت قادرة على التكيف، وما كانت تريد التكيف... كانت تدير ظهرها! لماذا؟ لأنها تتصرف بناء على مشاعرها!

لكن المشاعر موجودة حتى نكبتها!

لم أقل شيئًا. ضبطت انزعاجي وغضبي. وبعد سفر إنغفه والأطفال، عندما صارت ليندا سعيدة خالية البال من جديد، لم أعاقبها بأن أظل بعيدًا أو متجهّمًا (هذه ردة الفعل الطبيعية)، لا، بل على العكس من ذلك: أهملت الأمر وتركت الأمور غير المنطقية التي مضت تظل أمورًا غير منطقية مضت. ثم كانت الأيام الباقية حتى عيد الميلاد وما يعقبه أيامًا رائعة.

كنا في آخر ليلة من سنة 2003. وكنت أجري ذاهبًا إلى المطبخ وعائدًا من المطبخ. كنت أعد الطعام وأوزعه بينما جلس غيير على كرسي ينظر إليّ ويثرثر. ما عاد للحياة التي كانت لي في بيرغن أي أثر الآن. كان كل شيء حولي هنا، مرتبطًا، على نحو ما، بشخصين لم أكن أعرفهما أبدًا في ذلك الوقت. أول هذين الشخصين، وأهمهما بالطبع، هو ليندا التي أقاسمها الآن حياتي كلها؛ لكن غيير هو الشخص الثاني. كنت متأثرًا به، وما كان تأثري به بسيطًا. لعلها فكرة غير سارة، فكرة أن أكون سهل التأثر إلى هذا الحد، فكرة أن تتأثر أفكاري بالآخرين إلى هذا الحد. يخطر في ذهني أحيانًا أن غيير كان مثل واحد من أصدقاء الطفولة الذين يكون اللعب معهم ممنوعًا: ابتعد عنه يا كارل أوفه؛ إن له أثرًا سيئًا عليك!

وضعت آخر نصف سرطان بحري في الطبق، ووضعت السكين، ثم مسحت العرق عن جبهتي.

قلت: «إنها جاهزة. لم يبقَ إلّا تزيينها».

قال غيير: «لو يعرف الناس فقط ما تفعله!».

«ماذا تعني؟».

«الفكرة العامة عن حياة الكتاب هي أنهم أشخاص مثيرون، مرغوبون. لكنك تمضي أكثر وقتك في الطبخ والتنظيف».

قلت: «هذا صحيح. لكن، انظر كم هي جميلة هذه النتيجة!».

قطعت بضع ليمونات إلى أرباع، ووضعتها بين السرطانات. ثم نثرت عليها بضعة عروق من البقدونس.

«الناس يحبون الكتاب الفضائحيين مثلما تعلم. عليك الذهاب إلى 'مقهى المسرح' مع إناث من نساء شابات يجرين من حولك. هذا ما هو متوقع منك، لا أن تكون جالسًا هنا ولا أن تنحني مرهقًا فوق دلو الماء الملعون هذا... بالمناسبة، لا بد أن تور أولفين هو أكبر خيبة أمل في الأدب النرويجي. إنه لا يخرج من بيته أبدًا! ها ها ها!».

كان ضحكه معديًا، ضحكت مثله.

أضاف: «وفوق هذا، فقد انتحر أيضًا! ها ها ها!».

«ها ها ها!».

«ها ها ها! لكن عليك أن تقول إن إبسن كان مخيبًا للآمال أيضًا. أستثني منظره بقبعته المرتفعة أمام المرآة! كان هذا شيئًا يستحق الاحترام. لديك أيضًا تلك العقارب الحية التي كان محتفظًا بها في مكتبه. لم يكن بيورنسن خيبة أمل؛ ولا هامسون، بالتأكيد. الواقع أن في وسعك تصنيف الأدب النرويجي بهذه الطريقة. يؤسفني أن مكانك في هذه القسمة لن يكون حسنًا».

قلت: «أعرف أنه ليس حسنًا. لكن المكان هنا نظيف، على الأقل! صرنا جاهزين. لم يبق إلّا تقطيع الخبز».

«بالمناسبة، عليك أن تكتب تلك المقالة عن أولاف هوغ؛ المقالة التي ما فتئت تتحدث عنها. يجب أن تكتبها في وقت قريب».

«ذلك الرجل السيء من هاردنغر». قلت هذا وأنا أخرج رغيف الخبز الكبير من كيس الورق.

«نعم، إنه هو».

قلت وأنا أغسل السكين تحت تيار الماء الحار ثم أجفّفها بمنشفة المطبخ قبل أن أبدأ تقطيع الخبز: «سأكتبها ذات يوم. الحقيقة أنني أفكر فيها من وقت إلى آخر. أتخيله مستلقيًا عاريًا في قبو الفحم بعد أن حطم أثاث غرفة المعيشة كله. أو أتخيل أطفال القرية يقذفونه بالحجارة. أظنه عاش بضع سنوات فاقدًا صوابه تمامًا».

قال غيير: «هذا من غير أن نقول شيئًا عن تلك القضية الصغيرة عندما كتب مقالة زعم فيها أن هلتر كان رجلًا عظيمًا، ثم أزال من يومياته ما كتبه خلال فترة الحرب».

قلت: «صحيح... هذا من غير ذكر تلك المقالة. لكن الجزء الأكثر أهمية من تلك المذكرات اليومية هو ما كتبه عندما بدأت فترات مرضه. ترى عندما تقرأ كيف بدأ كل شيء يجري بسرعة أكبر ثم أكبر، وكيف بدأت العوائق والمحاذير تختفي. تراه هكذا، فجأة، يكتب رأيه الحقيقي في الكتّاب وفي كتبهم. لقد كان في الأحوال العادية شديد الدقة والحرص في ما يتعلق بقول أشياء لطيفة عن الجميع. رجل مهذّب، مراعٍ، ودود، لطيف. ثم جاء الانهيار، جاء انهيار ذلك كله. غريب أن أحدًا لم يكْتب عن ذلك! أليس هذا غريبًا؟ أعني أن أحكامه في ما يخص يان إيرين فولد شهدت تغيرًا جذريًا».

قال غيير: «لا يجرؤ أحد على الكتابة عن ذلك، بالطبع. إنه جنون. لا يكادون يجرؤون على الإشارة بالإصبع إلى الفترات التي فقد فيها السيطرة على نفسه».

قلت وأنا أضع شرائح الخبز في السلة: «هنالك سبب وراء هذا».

«ماذا يمكن أن يكون؟».

«اللياقة. وحُسن الأدب. ومراعاة الآخرين».

«آه... أظنني بدأت أنعس. صار الحديث مملًا!».

«إنني جاد. وأنا أعني ما أقول».

«طبعًا، أنت تعني ما تقول. أصغِ إليّ: ذلك كله مكتوب في يومياته، أليس كذلك؟».

«نعم، إنه مكتوب».

«ولا يمكنك أن تفهم هوغ من غير ذلك؟».

«هذا صحيح».

«وأنت تعتبر هوغ شاعرًا كبيرًا؟».

«نعم».

«فما الاستنتاج الذي تخرج به من هذا كله؟ أينبغي علينا أن نتجاهل الجزء الهام من شاعر كبير، من حياة كاتب تلك اليوميات، من أجل اعتبارات اللياقة؟ هل ننسى الجوانب التي لا تسرنا؟».

«ما أهمية أن يكون هوغ مؤمنًا بأن هنالك قوى من الفضاء الخارجي تشع بأنوارها عليه أم لا؟ أعني... عندما يكون اهتمامنا منصبًا على قصائده في حد ذاتها. ثم، من عساه يعرف أين تتوقّف مباشرته الفظة ويبدأ تأدبه الحسّاس؟ أين يمكنك أن ترسم ذلك الخط الفاصل بين الأمرين؟».

«ماذا؟ أظن أن في رأسك خفاشًا، لا دماغًا! أنت من أخبرني عن الجوانب الأكثر شذوذًا عند هوغ، بل إنها كانت هاجسًا عندك! كنت تقول إن صورة ذلك الرجل الحكيم من هاردانغر لا يجوز أن تظل من غير مساءلة عندما نعرف أنه كان مجنونًا وأنه كان شديد البعد عن الحكمة خلال فترات طويله. أو، لأكن أكثر تحديدًا... أننا لا نستطيع فهم حكمته، مهما تكن تلك الحكمة، من غير فهم البؤس الذي في حياته».

«أظن أن هنالك سبب لوجود ذلك الخفاش في رأسي. قد يكون لسخريتنا من تور أولفين أثر في هذا الأمر. لقد كان ضميري يؤنبني».

«ها ها ها! هل كان يؤنبك؟ لا يمكنك أن تكون حساسًا حذرًا إلى هذا الحد. إنه ميت بعد كل حساب! ولا أظنه كان شخصًا مرحًا على الإطلاق! كان يقود رافعة، أليس كذلك؟ ها ها ها!».

قطعت آخر شرائح الخبز وضحكت، لكن ليس من غير لذعة من عدم الارتياح.

وضعت شرائح الخبز في السلة وقلت: «لا بأس... يكفينا هذا الآن! خذ سلة الخبز والزبدة والمايونيز ودعنا ننضم إلى الآخرين».

قالت هيلينا عندما وضعت الطبق على الطاولة: «أوه... ما أروع هذا!».

قالت لي ليندا: «لقد صنعت شيئًا يستحق الاعتزاز يا كارل أوفه!».

قلت: «تفضلوا!».

سكبت في كأسي ما بقيَ في زجاجة الشامبانيا، ثم فتحت زجاجة نبيذ أبيض. جلست ووضعت واحدًا من أنصاف السرطانات في صحني. نزعت مخلبه الكبير بملقط من مجموعة أدوات المأكولات البحرية التي أتتنا هدية من غونار وتوفه منذ بعض الوقت. ذلك اللحم النامي بهذه الكثرة اللذيذة حول الغضروف الصغير المسطح الأبيض! الفراغ بين اللحم والصدفة الخارجية حيث يكون هنالك بعض الماء أكثر الأحيان: كيف يمكن أن يكون إحساس السرطان بالماء الموجود في هذا الفراغ عندما يمشي في قاع البحر؟

قلت بلهجتي المحلية النرويجية: «والآن... إننا نمضي وقتًا عظيمًا!» ثم رفعت كأسي... «سكال. في صحتكم!».

ابتسم غيير. تجاهل الآخرون ما لم يفهموه، ورفعوا كؤوسهم جميعًا.

قال آنديرس: «سكال! والشكر لك على هذه الدعوة!».

في أكثر الأحيان، أتولى الطبخ عندما يكون لدينا ضيوف. ليس لأنني أحب الطبخ كثيرًا، بل لأن هذا يعطيني شيئًا أختبئ خلفه. يمكنني البقاء في المطبخ عند وصولهم فأكتفي بمد رأسي وتحيتهم، ثم أتابع الطبخ مختبئًا إلى أن يصير الطعام جاهزًا للتقديم فيكون عليَّ أن أظهر. لكني، حتى في ذلك الوقت، أظل قادرًا على الاختباء خلف شيء ما: كأس لا بد من ملئها نبيذًا، وأخرى لا بد من ملئها ماء؛ يمكنني الاهتمام بذلك كله. وعندما يفرغ الضيوف من الصنف الأول، يمكنني أن أرفع الصحون عن الطاولة وأعدها من أجل الصنف التالي.

هذا ما فعلته اليوم أيضًا. بقدر ما كنت مسحورًا بآنديرس، بقدر ما كنت غير قادر على الحديث معه. تعجبني هيلينا، لكني غير قادر على الحديث معها. يمكنني الحديث مع ليندا، لكننا مسؤولَين الآن عن الاهتمام بأن

يمضي الآخرون وقتًا طيبًا عندنا، وبالتالي فإننا لا نستطيع تبادل الحديث. يمكنني التكلم مع غيير أيضًا، لكن جانبًا آخر من شخصيته يطفو على السطح في وجود أشخاص آخرين. إنه يتحدث مع آنديرس عن بعض معارفهما المجرمين. يضحكان، ويتابعان الحديث. وهو يدهش هيلينا بصراحته الصادمة فتستجيب لها بمزيج من الضحكات والشهقات. هنالك أيضًا توترات أخرى تحت هذا كله: غيير وليندا مثل مغناطيسين... وينفر كل مغناطيس من الآخر. كما أن هيلينا لم تكن مسرورة تمامًا بآنديرس لأنه ليس من المستبعد أن يقول أشياء لا تعجبها ولا توافق عليها، أو أشياء تعتبرها حمقاء. كان لهذا التوتر أثر سلبي عندي. قد تظل كريستينا فترات طويلة من غير أن تقول شيئًا. لهذا تأثير سلبي عليّ أيضًا، فلماذا تفعل هذا؟ أليست مستمتعة بوقتها هنا؟ هل المشكلة فينا، أم في غيير، أم أن المشكلة فيها؟

ما كان هنالك تشابه بيننا، تقريبًا... هنالك دائمًا تيارات خفية من التجاذب والتنافر تجري تحت السطح، نعم، تحت ما يُقال وما يُفعل. لكن، رغم ذلك، أو ربما بسبب ذلك، كانت أمسية لا تُنسى لأننا (هذا أهم سبب) بلغنا فجأة نقطة بدا لنا عندها أن ما من واحد منا لديه شيء يخفيه عن الآخرين، أو أن لديه قصة من حياته لا يستطيع قولها الآن... حتى تلك القصص التي يحتفظ بها المرء لنفسه عادة.

دبت الحياة في أحاديثنا كما يحدث بين الناس الذين لا يعرف أحدهم الآخر، لكنه يعرف أشياء كثيرة عنه.

نزعت طبقة اللحم الثخينة الناعمة عن الصدفة، وقطعتها، ثم غرست الشوكة في قطعة منها وغمستها في المايونيز ورفعتها إلى فمي.

انفجار كبير في الخارج... كأنه انفجار قنبلة. اهتز زجاج النوافذ.

قال آنديرس: «هذه مفرقعات غير قانونية».

قال غيير: «آه، نعم. أظنك خبيرًا في هذه الأمور».

قالت هيلينا: «أتينا معنا ببالون صيني. يمكنكم إشعاله، فيمتلئ البالون بالهواء الحار، ويعلو البالون في السماء، أعلى ثم أعلى. إنه لا ينفجر. بل يرتفع من غير صوت. شيء جميل».

سألتها ليندا: «ألا يوجد خطر في إطلاقه فوق المدينة؟ أعني... ماذا لو حطّ بالون مشتعل على أحد السقوف؟».

قالت آنديرس: «كل شيء مسموح في ليلة رأس السنة».

عمّ صمت.

خطر في ذهني أن أحكي لهم عن تلك الليلة التي جمعت فيها مع أحد أصدقائي صواريخ الألعاب النارية المحترقة في صبيحة الأول من كانون الثاني، فأخرجنا ما بقي فيها من بارود وحشرناه في علبة، ثم أشعلناه. لا تزال الصورة حية في ذهني: غيير هاكون يستدير صوبي وقد اسود وجهه من السخام. أذكر الرعب الذي أصابني عندما أدركت أن والدي يمكن أن يكون قد سمع الانفجار، وأن ذلك السخام قد لا يزول عني تمامًا. وأن أبي يمكن أن يراه. لكني لم أجد معنى لتلك القصة، فنهضت وصببت مزيدًا من النبيذ. لاقت عيناي عيني هيلينا، ثم جلست ونظرت إلى غيير الذي بدأ يتحدث عن الاختلافات بين السويد والنرويج، موضوعه الأثير الذي يحتفظ به إلى أن تخمد حرارة الحديث حول الطاولة. كان موضوعًا يستطيع كل واحد من الحاضرين أن يقول فيه شيئًا.

سأل آنديرس بعد قليل: «لكن، لماذا نقارن بين السويد والنرويج؟ لا شيء يحدث هنا! كل شيء بارد ومخيف هنا».

قالت هيلينا: «يريد آنديرس أن يعود إلى إسبانيا».

قال آنديرس محتجًا: «ما العيب في هذا؟ علينا أن ننتقل إلى إسبانيا. علينا أن ننتقل جميعًا. ما الذي يبقينا هنا؟ أهنالك شيء يبقينا؟».

سألته ليندا: «أخبرنا عن إسبانيا!».

بسط آنديرس كفيه قائلًا: «هناك، يمكنك فعل ما تريدين. لا يزعجك أحد. ثم إن الطقس لطيف دافئ. ولديهم مدن رائعة كثيرة. سيفيلا وفالنسيا وبرشلونة ومدريد».

نظر إلي: «هنالك بعض الاختلاف في مستوى كرة القدم أيضًا. علينا، أنا وأنت، أن نذهب لرؤية الكلاسيكو. نبقى هناك ليلة واحدة. يمكنني ترتيب أمر التذاكر. لا مشكلة. ما رأيك؟».

قلت: «تبدو لي فكرة حسنة».
قال: «تبدو لك فكرة حسنة! فلنذهب يا رجل!».
نظرت ليندا إليّ وابتسمت. قالت لي نظرتها: «اذهب! يسرني أن تذهب». لكني أعرف أن هنالك نظرات أخرى وأمزجة أخرى ستظهر عاجلًا أو آجلًا. تقول تلك النظرات: اذهب! اذهب واستمتع هناك بينما أبقى في البيت وحدي. أنت لا تفكر إلّا في نفسك. إذا أردت الذهاب إلى أي مكان، فيجب أن تذهب معي! كان هذا كله في عينيها. حب لا حدود له، وقلق لا حدود له، يتصارعان طيلة الوقت لكي يهيمن أحدهما على الآخر. ظهر شيء جديد في الشهور الأخيرة. كان مرتبطًا بقدوم مولودنا الوشيك، وكان قابعًا داخلها، كان صامتًا. كان القلق رقيقًا، أثيريًا، يسري في وعيها مثلما تسري ريح شمالية في سماء الشتاء أو مثلما يسري البرق في سماء شهر أيلول؛ وكانت الظلمة التي ترافقه خفيفة أيضًا... كانت خفيفة بمعنى أنها غياب للضوء: ليس للغياب ثقل! أما ما كان يملؤها الآن فهو شيء آخر، شيء أحس أن له صلة بالأرض، شيء أرضي، شيء يمد جذورًا. لكني، في الوقت نفسه، اعتبرت هذا كله تفكيرًا خياليًا غبيًا.
رغم ذلك... إنه شيء أرضي!
سألت آنديرس وأنا أنحني فوق الطاولة لأملأ كأسه: «متى يكون موعد الكلاسيكو؟».
«لست أدري. لكننا لسنا مضطرين إلى الذهاب لحضور تلك المباراة. أي مباراة تفي بالغرض. أريد أن أرى مدينة برشلونة».
ملأت كأسي، ونزعت اللحم خلف مخلب السرطان.
قلت: «نعم، سيكون ذلك أمرًا جيدًا. لكن، على أي حال، علينا أن ننتظر أسبوعًا بعد الولادة. نحن لسنا رجالًا من الخمسينات».
قال غيير: «أنا رجل من الخمسينيات».
قال آنديرس: «وأنا أيضًا، أو أنني رجل على هامش الخمسينيات، على الأقل. لو استطعت، لخرجت من ممر المستشفى خلال الولادة».
سأله غيير: «لماذا لم تفعل ذلك؟».

نظر آنديرس إليه، ثم ضحكا.

سألتهم: «هل لدى كل واحد منكم ما يشربه؟».

أومأوا برؤوسهم جميعًا وشكروني على الوجبة، فجمعت الصحون وحملتها إلى المطبخ. تبعتني كريستينا حاملة طبقي التقديم الكبيرين.

سألتني: «هل أستطيع مساعدتك في أي شيء؟».

هززت رأسي ونظرت في عينيها نظرة سريعة قبل أن أنظر إلى الأرض.

قلت لها: «لا! لكني أشكرك على عرض المساعدة».

ذهبت كريستينا. سكبت الماء في قدر، ثم وضعتها على الموقد. في الخارج، كانت الألعاب النارية تطير مطلقة أصواتًا حادة، ثم تنفجر. وكانت بقعة السماء الصغيرة التي أستطيع رؤيتها من المطبخ تُنار من حين لآخر بأضواء متلألئة تنهمر ضمن مجال الرؤية ثم تنطفئ مع سقوطها. سمعت ضحكاتهم في غرفة المعيشة.

وضعت القدرين السوداوين على الموقد ورفعت الحرارة إلى الحد الأقصى. فتحت النافذة، وعلى الفور ازدادت أصوات الناس المارين في الشارع ارتفاعًا. ذهبت إلى غرفة المعيشة ووضعت بعض الموسيقى: آخر تسجيلات فرقة كارديغانز لتكون خلفية للحديث.

قال آنديرس: «لن أسألك حتى إن كنت تريد مساعدة».

قالت هيلينا وهي تستدير في اتجاهي: «كم أنت مهذب! هل تريد مساعدة؟».

«لا، لا، كل شيء على ما يرام».

وقفت خلف ليندا ووضعت يدي على كتفيها.

قالت لي: «كم هذا لطيف!».

صمت.

قلت في نفسي إن عليّ الانتظار إلى أن يبدأ الحديث من جديد.

قالت ليندا بعد قليل: «تناولت طعام الغداء مع بعض الأشخاص في فيلمهوست قبل عيد الميلاد مباشرة. كان أحدهم قد رأى أفعى من نوع البينو. أظنها كانت أصلة أو ثعبان بوا عاصرًا... واحد من الاثنين. كان ما

رآه حية بيضاء عليها رسوم صفراء. ثم قالت واحدة من الحاضرات إنه كان لديها ثعبان بوا في البيت. كان في البيت، في شقتها، مثل حيوان أليف. كان لديها ثعبان بوا ضخم أصابتها صدمة ذات يوم عندما وجدته مستلقيًا في السرير إلى جانبها. كان ممتدًا بطوله كله. لقد اعتادت رؤيته ملتفًا على نفسه، كما تعلمون، لكنه الآن كان مستقيمًا كأنه مسطرة. تجمّدت في مكانها، ثم اتصلت بحديقة حيوانات سكانسن وطلبت الحديث مع شخص ممن يتعاملون مع الأفاعي. هل تعرفون ماذا قال لها هذا الشخص؟ من حسن حظها أنها اتصلت. جاء اتصالها في الوقت الصحيح. لأن الأفاعي الكبيرة تتمدد هكذا عندما تريد قياس حجم فريستها لترى إن كانت قادرة على ابتلاعها».

قلت: «أووف، أوه، يا ربي! شيء مقرف!».

ضحك الآخرون. قالت ليندا: «كارل أوفه يخاف الأفاعي».

«هذه أسوأ قصة سمعتها في حياتي».

استدارت ليندا في اتجاهي وقالت: «إنه يحلم بالأفاعي. من الممكن أن يقذف باللحاف على الأرض ويدوسه بقدميه في منتصف الليل. جلس في السرير ذات مرة، ثم قفز منه. وقف ساكنًا تمامًا كما لو أنه عاجز عن الحركة، وراح ينظر. قلت له: ماذا حدث يا كارل أوفه؟ أنت تحلم. تعال إلى السرير. قال لي: هنالك سلانغه. أي أفعى بالنرويجية. قلت له: ليس هنالك أورم. أي أفعى بالسويدية. عد إلى السرير. عند ذلك قال لي بنبرة كلها ازدراء: لا تبدو شيئًا خطيرًا عندما تقولين إنها أورم. قال هذا لأن أورم تعني دودة في النرويجية!».

ضحكوا.

شرح غيير لآنديرس وهيلينا الفرق بين أورم وسلانغه. في اللغة النرويجية، أورم تعني دودة. قلت لهما إنني أعرف ما سيتحدثان عنه بعد قليل. سيأتي التفسير الفرويدي لرؤية الأفاعي في الحلم، وأنا لا أريد سماع ذلك. وهكذا عدت إلى المطبخ. كان الماء يغلي فوضعت فيه التاغلياتي. كان الزيت في القدرين قد صار حارًا تمامًا. قطعت الثوم إلى شرائح

ووضعته في الزيت، ثم أخذت المحار من المجلى ووضعته فوق الثوم، ثم وضعت الغطاء. سرعان ما بدأت المحارات تقعقع وتزمجر. سكبت فوقها نبيذًا أبيض. فرمت قليلًا من البقدونس ثم رششته عليها. رفعت القدر عن النار بعد بضع دقائق، وأفرغت التاغلياتي في مصفاة. أحضرت صلصة البيستو، فصار كل شيء جاهزًا.

قالت هيلينا عندما دخلت حاملًا الطبقين: «أوه، ما أجمل منظرهما!».

«ليس هذا صعبًا في الحقيقة. لقد وجدت الوصفة في كتاب جيمي أوليفر، لكنها وصفة جيدة».

قالت كريستينا: «الرائحة رائعة!».

قال إنديرس وهو ينظر إليّ: «أهنالك شيء لا تستطيع فعله؟».

أطرقت برأسي، وأخرجت بالشوكة المحتوى الطري من إحدى المحارات. كان اللحم بنيًا داكنًا في أعلاه خط برتقالي. وعندما وضعته في فمي، تفتت بين أسناني مثل الرمل.

رفعت رأسي ناظرًا إليه وسألته: «هل أخبرتك ليندا عن وجبة البينيكيوت التي تناولناها؟».

«بينيكيوت؟ ما هو؟».

قال غيير: «هذه وجبة نرويجية تقليدية في عيد الميلاد».

قلت: «إنها من أضلاع الخروف. تملّح الأضلاع وتعلقها عدة شهور حتى تجف. لقد أرسلتها أمي».

قال آنديرس متسائلًا: «أضلاع خروف بالبريد؟ هل هذا تقليد نرويجي آخر؟».

«هل من طريقة أخرى غير البريد؟ على أي حال، فإن أمي تملحها وتعلقها في عليّة البيت. شيء لذيذ. وعدتني بإرسال تلك الأضلاع من أجل عيد الميلاد. وقد قررنا أن نتناولها ليلة عيد الميلاد لأن ليندا لم تجربها بعد. أما أنا، فلا أستطيع تصور عيد الميلاد من غير الأضلاع. لكنها لم تصل إلّا في السابع والعشرين من الشهر. وهكذا قررت إقامة عشاء عيد ميلاد آخر ذلك المساء. بدأت طبخ الأضلاع بعد الظهر. أعددنا الطاولة: مفرش أبيض

وشموع وأكوافيت، وكل شيء. لكن اللحم لم ينضج. ليست لدينا قدر محكمة الإغلاق إلى الحد الكافي. وهكذا لم نحصل على نتيجة غير رائحة لحم الخروف التي ملأت الشقة. وفي النهاية، قررنا المضي إلى النوم».

قالت ليندا: «وبعد ذلك، أيقظني في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل! جلسنا وحدنا في منتصف الليل وتناولنا وجبة عيد الميلاد النرويجية».

قلت: «لكنها كانت لذيذة، أليس هذا صحيحًا؟».

أجابتني مبتسمة: «نعم، كانت لذيذة».

سألتها هيلينا: «هل كانت جيدة حقًا؟».

«نعم. لعل شكلها لم يكن جيدًا، لكن طعمها لذيذ».

قال آنديرس: «ظننتك ستخبرنا عن شيء لا تستطيع فعله. لكن هذه القصة جزء من أنشودة اعتزازك بمواهبك».

قال غيير: «ارحم الرجل قليلًا! إنه يكسب عيشه من إخبار الناس كم هو شخص فاشل. حلقة مأساوية بائسة تلو الأخرى. ومعها خجل وندم طيلة الوقت. هذه حفلة! دعه يخبرنا كم هو ذكي... شيء من التغيير».

قالت هيلينا: «أحب أن تخبرنا عن الفشل يا آنديرس».

قال آنديرس: «تذكري من هو الذي تتحدثين معه! أنت تكلمين شخصًا كان ثريًا ذات يوم. أعني أنني كنت ثريًا حقًا. كان لديّ سيارتان، وشقة في أوسترمالم، وحساب مصرفي ضخم. كنت قادرًا على الذهاب في عطلة أينما أردت، وكلما أردت. بل كان عندي بعض الخيول أيضًا! فما الذي أفعله الآن؟ أحاول جعل الإيرادات تغطي النفقات في مصنع للوجبات السريعة في دالارنه! لكني لا أجلس وأنوح مثلما تفعلين!».

سألته هيلينا: «من الذي ينوح؟».

«أنت وليندا، مثلًا! أعود إلى البيت فأجدكما جالستين هناك على الأريكة وأمام كل منكما فنجان شاي. تشتكيان وتتذمّران من كل شيء تحت الشمس. تتحدثان عن كل ما يمكن تخيله وما لا يمكن تخيله من مشاعر لا بد لكما من مصارعتها طيلة الوقت. ليس الأمر معقدًا إلى هذا الحد! إما أن

تجري الأمور على ما يرام، أو أنها لا تجري على ما يرام. هذا جيد أيضًا... إن كانت لا تجري على ما يرام، فإنها لن تصبح أسوأ من ذلك».

قالت هيلينا: «الشيء الغريب فيك هو أنك لا تريد أن تعرف مكانك أبدًا. لكن المشكلة ليست افتقارًا إلى البصيرة. المشكلة أنك لا تريد أن ترى. أحسدك أحيانًا؛ أحسدك فعلًا. إنني أبذل جهدًا كبيرًا في محاولة فهم من أكون ولماذا يحدث لي ما يحدث لي حقًا».

قال غيير: «ليست قصتك كبيرة الاختلاف عن قصة آنديرس، أليس كذلك؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنك... كان لديك كل شيء. كنت تعملين في مسرح الدراما الملكي. وكنت تحصلين على أدوار رئيسية في أعمال كبيرة، وعلى أدوار مهمة في الأفلام، ثم رميت بكل شيء وسافرت. كان ذلك أيضًا فعلًا متفائلًا، إن كنت تريدين رأيي... أن تتزوجي روحانيًا أميركيًا من الموجة الجديدة وتذهبي معه إلى هاواي».

قالت هيلينا: «نعم، لم يكن ذلك شيئًا حسنًا بالنسبة لحياتي المهنية. أنت محق في هذا. لكني تبعت قلبي. ولست نادمة على أي شيء. ليست نادمة على شيء حقًا».

ابتسمت ونظرت من حولها.

قال غيير: «إن لدى كريستينا القصة نفسها أيضًا».

نظر آنديرس إلى كريستينا وسألها: «ما هي قصتك؟».

ابتسمت كريستينا ورفعت رأسها. ابتلعت اللقمة التي في فمها وقالت: «كنت في القمة حتى قبل أن أبدأ، تقريبًا. كانت لدي ماركة ملابس، وقد جرى اختياري أفضل مصممة أزياء في إحدى السنوات. جرى اختياري أيضًا لتمثيل السويد في معرض لندن للأزياء. وذهبت إلى باريس حيث عرضت مجموعتي...».

قال غيير: «جاء فريق تلفزيوني إلى بيتنا وكان وجه كريستينا مطبوعًا على لوحات قماشية ضخمة... لا، بل على أشرعة ضخمة أمام بيت الثقافة.

نشرت مجلة داغينز نوبيتر مقالة من ست صفحات تتحدث عنها... وكنا نُدعى إلى حفلات استقبال تخدم فيها نساء في ملابس الجنيات، وتتدفق الشامبانيا في كل مكان. كنا سعيدين إلى حد يفوق الخيال».

سألت ليندا: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

رفعت كريستينا كتفيها: «توقف مجيء المال. لم يكن لذلك النجاح أساس. أو ربما لم يكن أساسه في المكان الصحيح. وهكذا أفلست».

قال غيير: «لكن خروجك كان حدثًا مدوّيًا، على الأقل!».

قالت كريستينا: «هذا صحيح».

قال غيير: «كانت آخر مجموعة صممتها آخر مسمار في النعش. استأجرت كريستينا خيمة عملاقة وجعلتهم ينصبونها في منطقة غارديت. كانت الخيمة نسخة عن دار الأوبرا في سيدني. كان من المفترض أن تصل العارضات على ظهور الخيل عبر الحقول. لقد أتت بتلك العارضات من الحرس الملكي ومن وحدة الخيالة في الشرطة. كان كل شيء كبير الحجم، مكلفًا. لم تقتصد في شيء أبدًا! أوعية كبيرة من شراب البنش تطلق قطع الجليد فيها بخارًا كأنه دخان... كان كل شيء موجودًا. قنوات التلفزيون كلها، والصحف الكبرى كلها. كان ذلك كأنه مشهد من فيلم ضخم. وعند ذلك، بدأ المطر. بدأ المطر فعلًا. كان سيولًا، كان جنونًا».

ضحكت كريستينا ووضعت يدها على فمها.

تابع غيير كلامه: «كان يجب أن تروا تلك العارضات! التصق شعر الرجال برؤوسهم. ابتلت ملابسهم كلها، واتسخت. حالة من الفوضى العارمة، لكن فيها شيئًا متميزًا، رغم ذلك. لا يستطيع أي كان أن يحقق فشلًا على هذا النحو المجيد».

ضحك الجميع.

قال غيير وهو ينظر إليّ: «ولهذا السبب، كانت تصمم شبشبًا عندما أتت إلى بيتنا أول مرة».

قالت كريستينا: «لم يكن شبشبًا».

قال غيير: «لا بأس... مهما يكن. صار أحد موديلات الأحذية القديمة

شهيرًا وازدادت مبيعاته فجأة لأن كريستينا ارتدته في معرض أزياء في لندن. لم تجني من ذلك المعرض شيئًا! وهكذا، كان ذلك التصميم نوعًا من عزاء صغير لها. كان كل ما بقي من الحلم».

قالت ليندا: «أما أنا فلم أبلغ القمة، إن شئتم الدقة. لكن النجاح الصغير الذي أصبته سار على الخط نفسه تقريبًا».

قال آنديرس: «على المسار الهابط نفسه؟».

«الهابط، نعم. حققت بدايتي الأدبية، ونشرت ديوان شعر. وبالطبع، كان ذلك حدثًا رائعًا في حد ذاته، لا بمعنى أنه كان رائعًا في نظر الآخرين بل بمعنى أنه كان شيئًا كبيرًا رائعًا في نظري. وبعد ذلك تلقيت جائزة يابانية، جائزة من آخر الدنيا. لقد أحببت اليابان دائمًا. كان من المفترض أن أسافر لاستلام الجائزة. اشتريت كتاب عبارات المحادثة اليابانية، وأشياء من هذا القبيل. ثم مرضت. صرت غير قادرة على تقبل أي شيء. وبالتأكيد، ما عدت أطيق فكرة السفر إلى اليابان... كتبت مجموعة قصائد أخرى فوافقوا على نشرها أول الأمر. خرجت واحتفلت عندما أخبروني بذلك. لكنهم سحبوا موافقتهم. ذهبت إلى ناشر آخر فجرى الأمر نفسه تمامًا. اتصل بي المحرر أول الأمر وقال إنها مجموعة رائعة. قال إنهم سينشرونها. تحول ذلك مصدر حرج كبير لأنني أخبرت الجميع... ثم اتصلوا مرة أخرى وقالوا إنهم لن ينشروا تلك المجموعة. هذا كل شيء».

قال آنديرس: «هذه قصة حزينة».

قالت ليندا: «أوه، لم يكن هذا أمرًا مهمًا. يسرني الآن أنها لم تُنشر. ليست شيئًا كبيرًا».

سألت هيلينا: «وماذا عنك أنت يا غيير؟».

«هل تقصدين القول إنني فاشل جميل أيضًا؟».

«نعم».

«لا بأس... أظنني أستطيع قول هذا. لقد كنت الطفل المعجزة في المدرسة».

قلت له: «حتى مع أنك أنت الذي يقول هذا؟».

«لن يقوله أحد غيري! لكني كنت كذلك فعلًا. إلّا أنني كتبت مقالة باللغة النرويجية عن العمل الميداني في السويد. لم تكن مقالة ذكية بمعنى أنها لا يمكن أن تجد ناشرًا سويديًا مهتمًا بها، ولا ناشرًا نرويجيًا. لم يفدني أيضًا العمل على موضوع الملاكمين من غير البحث عن تفسيرات أو مبررات اجتماعية لما يفعلونه، كأن يكونوا فقراء أو محرومين أو مجرمين، أو أي شيء من هذا القبيل. على العكس تمامًا... رأيت أن ثقافتهم مقبولة، وأن لها أهميتها، أكثر بكثير من الثقافة الأكاديمية النسوية لدى الطبقة الوسطى. لم يكن هذا ذكاء مني أيضًا. رفض العمل عدد غير قليل من الناشرين في النرويج وفي السويد. تمكنت من نشره آخر الأمر لأنني دفعت تكاليف النشر بنفسي. لم يقرأه أحد. أما تسويق الكتاب... هل تعرفون كيف جرى؟ تحدثت ذات يوم مع امرأة تعمل في إحدى دور النشر فقالت لي إنها تقرأ كتابي كل صباح وبعد ظهر في طريقها بين نيسودن وأوسلو في العبّارة البحرية. قالت إنها تظن أن أحدًا ما لا بد أن يرى غلاف الكتاب الذي في يدها فيلفت انتباهه».
ضحك وتابع يقول: «والآن، بعد أن توقفت عن التعليم، ما عدت أكتب أي مقالات أكاديمية، ولا أشارك في الندوات، بل أجلس طيلة نهاري أعمل على كتاب سيستغرق خمس سنوات قبل أن ينتهي، وأظن أنه لن يجد من يرغب فيه».

قال آنديرس: «كان عليك أن تخبرني لأنني كنت قادرًا على جعلك تتحدث عن كتابك في التلفزيون، على أقل تقدير. كان يمكنك الحديث عن كتابك».

سألته هيلينا: «وكيف يمكن أن تتعامل مع ذلك؟... مع عرض لا يمكنك رفضه».

قال غيير: «حتى أنت، لا يمكن أن تكون لك علاقات قوية إلى هذا الحد. لكن، أشكرك على الفكرة».

قال آنديرس وهو ينظر إليّ: «لم يبقَ الآن غيرك».

قال غيير: «كارل أوفه؟ إنه يتذمر رغم حظه الطيب. هذا ما أقوله له منذ إن جاء إلى ستوكهولم».

قلت: «لست موافقًا على هذا. سرعان ما ستنقضي خمس سنين على صدور كتابي الأول. لا يزال الصحفيون يتصلون من وقت لآخر... هذا صحيح، فهل تعرفون ما يسألونني؟ مرحبًا كناوسغارد، إنني أكتب هنا مقالة عن المؤلفين المنتسبين إلى جمعية الكتاب. أتساءل إن كنت أستطيع الحديث معك. أو حتى أسوأ من هذا: أصغِ إلي! نعمل الآن على فيلم عن الكتّاب الذين أصدروا كتابًا واحدًا فقط. هنالك عدد معقول منهم، كما تعرف. وأنت، لم تكتب غير كتاب واحد. لا أدري إن كان لديك وقت لتخبرني عن ذلك الكتاب. كيف هو إحساسك. نعم، أنت تعرف. هل تكتب الآن؟... أم أن تدفق الأفكار قد تراجع قليلًا؟».

قال غيير: «ألم تسمعوا ما قلته لكم؟ إنه متذمّر رغم كل شيء».

«لكني لا أجني شيئًا من ذلك! أكتب منذ أربع سنين... ولا شيء! لا شيء!».

قال غيير: «أصدقائي كلهم فاشلون. ليسوا فاشلين مثلما يفشل الناس عادة، بل إن فشلهم يتجاوز أي حد مقبول. ينشر واحد منهم على الإنترنت إعلانات لمواعدة النساء. ويقول إنه يحب الغابات والحقول وشي النقانق في البرية، وهذه الأشياء كلها، ببساطة لأنه غير قادر على تحمل تكلفة دعوة إحداهن إلى مطعم أو مقهى. ليس له بيت يؤويه. ليس لديه شيء أبدًا! كما أن واحدًا من زملائي في الجامعة كان متعلقًا بإحدى العاهرات. أنفق عليها كل ما لديه، أكثر من مئتي ألف كرون؛ بل دفع أيضًا تكاليف عملية جراحية لتكبير ثدييها حتى يصيرا مثلما يحب أن يكونا. وهنالك صديق آخر أقام مزرعة للعنب في أوبسالا! وصديق آخر يكتب رسالة الدكتوراه منذ أربعة عشر عامًا. لن ينهيها أبدًا لأن هنالك نظرية جديدة ما أو كتابًا جديدًا ما لم يقرأه ويظن أن عليه إدراجه في رسالته. ولا يكف عن الكتابة أبدًا. إنه عادي الذكاء، لكنه عالق في هذا المسعى العقيم. وكان لديّ أيضًا صديق في آرندال جعل فتاة في الثالثة عشرة تحبل منه». نظر إليّ وضحك... «اهدؤوا، إنه ليس كارل أوفه، ليس هو على حد علمي! وعندي أيضًا صديق رسام. إنه موهوب لكنه لا يرسم غير السيوف وزوارق الفايكينغ الطويلة، وقد ذهب

شوطًا بعيدًا في ذلك بحيث أصبح غير قادر على التراجع، ولا على التقدم. أقصد القول إن زوارق الفايكينغ لا يمكن أن تكون تذكرة دخول إلى الحياة الفنية».

قال آنديرس: «لا تضمني إلى هذه المجموعة!».

قال غيير: «لا. لا أحد من الموجودين هنا ضمن تلك المجموعة. ليس بعد، على الأقل! لديّ إحساس أننا جميعًا في حالة تدهور... إننا واقفون على أرض غير صلبة! أعرف أن الوضع جيد الآن، والسماء سوداء، وكلها نجوم، والماء دافئ... لكننا بدأنا الانزلاق».

قالت ليندا: «صورة شاعرية جدًا، لكن إحساسي ليس مثلما تقول».

كانت جالسة وقد وضعت يديها على بطنها. التقت عيوننا. قالت نظرتها إنها سعيدة. ابتسمت لها.

يا إلهي! سوف يكون لدينا طفل هنا بعد أسبوعين!

سوف أصبح أبًا.

عم الهدوء الطاولة كلها. قال كل واحد ما لديه. كانوا مسترخين في مقاعدهم، وفي يد آنديرس كأس النبيذ. تناولت الزجاجة ونهضت فملأت كؤوس الجميع.

قالت هيلينا: «لقد كنا صريحين كثيرًا. أظن أن هذا لا يحدث عادة».

قلت وأنا أضع الزجاجة على الطاولة وأمسح بإصبعي قطرة سالت على عنقها: «كأنها مسابقة بيننا! من هو الأسوأ؟ أنا؟».

قال غيير: «لا، إنه أنا!».

قالت هيلينا: «أجد صعوبة في تخيل أبي وأمي جالسين يتحدثان عن هذه الأمور مع الأصدقاء. كان أهلنا واقعين في مشاكل حقيقة... أما نحن فلسنا كذلك».

سألتها كريستينا: «ماذا تعنين بهذا؟».

قالت هيلينا: «أبي ملك الشعر المستعار في أوريبرو. إنه متخصّص في الشعر الاصطناعي. زوجته الأولى، أمي، مدمنة على الكحول. إنها كريهة إلى حد يكاد يجعلني غير قادرة على زيارتها. وإذا ذهبت وزرتها، فإن

انزعاجي يستمر لأسابيع عدة بعد الزيارة. وعندما تزوج أبي امرأة أخرى، مرة أخرى، اختار امرأة مدمنة على الكحول أيضًا». كشّرت وظهر على وجهها بضع حركات تشنجية. صار شكلها مثل زوجة أبيها تمامًا. لقد رأيتها مرة عند تعميد طفلهما. كانت مسيطرة تمامًا على نفسها وخائرة القوى أيضًا. غالبًا ما تسخر هيلينا منها.

«عندما كنت صغيرة، كانا يحقنان علب العصير الكرتون بالكحول، تعرفون تلك العلب. وذلك حتى يبدو شكلهما بريئًا. ها ها ها! وذات مرة، عندما كنت وحيدة مع أمي في إحدى العطلات، أعطتني قرصًا منومًا، ثم أقفلت الباب من الخارج ومضت إلى المدينة».

ضحك الجميع.

«لكن حالها أسوأ بكثير الآن. صارت كأنها وحش. إنها تلتهمنا إذا ذهبنا لزيارتها. لا تفكر إلّا في نفسها، ولا شيء آخر أبدًا. تشرب كثيرًا وتظل قذرة طيلة الوقت».

نظرت إليّ وقالت: «كان والدك يشرب أيضًا، أليس كذلك؟».

قلت: «صحيح، كان يشرب. لم يكن يشرب عندما كنت صغيرًا. بدأ عندما كنت في السادسة عشرة. ومات عندما بلغت الثلاثين. هذا يعني أنه ظل يشرب أربعة عشر عامًا. لقد شرب حتى مات. أظن أن هذا ما كان يحاول الوصول إليه».

سألني آنديرس: «أليست لديك قصة طريفة عنه؟».

قالت هيلينا: «لست أظن أن كارل أوفه يستمتع بالحديث عن الأشياء السيئة في حياته مثلما تستمتع أنت».

قلت: «لا تقلقي علي، إنني بخير. لم تعد لديّ مشاعر مزعجة تجاه هذا الأمر. لست أدري إن كان هذا شيئًا طريفًا، لكن... لا بأس، إليكم هذه القصة. خلال أيامه الأخيرة، كان يعيش في بيت أمه. وبالطبع، كان يشرب من غير توقف. وقع ذات يوم على الدرجة التي في غرفة المعيشة. أظنه كسر ساقه، أو لعلها كانت إصابة شديدة في الساق. لم يعد قادرًا على الحركة فظل مستلقيًا على الأرض. أرادت جدتي أن تطلب سيارة الإسعاف، لكنه

لم يسمح لها بذلك. وهكذا ظل مستلقيًا هناك، على أرض غرفة المعيشة، بينما ظلت جدتي تخدمه. كان يأكل ويشرب حيث هو. ليست لديّ أي فكرة عن الفترة التي أمضاها هكذا. لعلها بضعة أيام. وجده عمي على هذه الحال، كان لا يزال مستلقيًا هناك».

ضحك الجميع، وضحكت أنا.

قال آنديرس: «وكيف كان قبل أن يصير مدمنًا على الشراب، خلال السنوات الست عشر الأولى؟».

«كان ابن حرام! كنت أخافه حتى الموت. كنت أبول في ثيابي خوفًا منه. أذكر ذات مرة... نعم، كنت أحب السباحة عندما كنت صبيًا. وكنت أذهب إلى أحواض السباحة في الشتاء. كانت تلك أجمل أوقات الأسبوع عندي. وذات مرة، فقدت فردة جوربي هناك. لم أستطع العثور عليها. بحثت وبحثت، لكني لم أجدها. أصابني خوف شديد، كان ذلك كابوسًا حقيقيًا».

سألتني هيلينا: «ولماذا خفت؟».

«لأن حياتي ستصير جحيمًا إذا اكتشف الأمر».

«إذا اكتشف أنك فقدت فردة جوربك؟».

«نعم، بالضبط. كان احتمال أن يكتشف ذلك شبه معدوم، بالطبع. يمكنني دخول البيت خلسة وتناول زوج آخر من الجوارب فور وصولي. لكني بقيت خائفًا طيلة طريق عودتي إلى البيت. فتحت الباب، لم أجد أحدًا. بدأت أخلع حذائي. احزروا من جاء في تلك اللحظة؟ إنه أبي! وماذا فعل؟ وقف هناك وراح ينظر إلي وأنا أخلع حذائي».

سألتني هيلينا: «ماذا حدث؟».

«صفعني ثم قال لي إنه لا يمكنني الذهاب إلى أحواض السباحة بعد ذلك». ابتسمت وسكتت.

ضحك غيير: «ها ها ها! هذا رجل يشبه أبي! يشبهه تمامًا».

سألته هيلينا: «هل كان أبوك يضربك؟».

تردد غيير قليلًا ثم قال: «كانت هنالك بعض الأشياء في التربية التقليدية في النرويج. تعرفون ذلك... العقوبات الجسدية غير المؤذية. لكن أبي لم

يكن يصفعني على وجهي أبدًا، ولم يكن يضربني في اللحظة نفسها مثلما فعل والد كارل أوفه. كانت تلك عقوبة، لا أكثر ولا أقل، وكنت أعتبرها أمرًا عادلًا. لكنه لم يكن يحب معاقبتي. أظنه كان يرى ذلك شيئًا من واجبه أن يفعله، واجبًا لا بد له من القيام به. إن أبي لطيف جدًا؛ شخص طيب. لست أحمل ضغينة له أبدًا، ولا حتى في ما يتعلق بالضرب. كانت الثقافة مختلفة كثيرًا عما نراه الآن».

قال آنديرس: «لا أستطيع قول الشيء نفسه عن أبي! الحقيقة أنني لا أريد الخوض في طفولتي وفي تلك التفاهات النفسانية كلها. قلت لكم إننا كنا أثرياء في طفولتي. بدأت العمل في شركته عندما أنهيت المدرسة. صرت كأنني شريك له، وعشت حياة مترفة رائعة. وبعد ذلك، أفلس فجأة. اتضح أنه كان يتلاعب بالسجلات وأنه ارتكب بعض جرائم الاحتيال. كنت أضع توقيعي على كل ورقة يضعها أمامي. أطلقوا سراحي من السجن، لكنني بقيت مدينًا للسلطات الضريبية بمبالغ ضخمة إلى درجة أن كل ما أكسبه حتى آخر حياتي لن يكون كافيًا لتسديده. هذا هو تفسير أنه ليس لديّ عمل طبيعي. لا فائدة من ذلك لأنهم يأخذون مني كل شيء».

سألته: «وماذا جرى لوالدك؟».

«لقد فر. لم أره منذ ذلك الوقت. لا أعرف مكانه الآن. إنه في مكان ما في الخارج. ولست راغبًا في رؤيته أيضًا».

قالت ليندا: «لكن أمك بقيت هنا!».

قال آنديرس: «يمكن قول هذا، نعم... ظلت هنا مهجورة مفلسة والمرارة تعتصرها». قال هذا وابتسم.

قلت: «نعم، لقد رأيتها مرة. لا، رأيتها مرتين. لقد كانت طريفة. كانت جالسة على كرسي في الزاوية تبهّر حديثها بالسخرية والتهكم... لكل من يريد أن يسمع. كان ذلك شيئًا هزليًا ظريفًا».

قال آنديرس مستغربًا: «ظريفًا؟» ثم بدأ يقلدها. راح ينادي باسمه بصوت امرأة عجوز متكسّر ويوبّخ نفسه على كل شيء تحت الشمس.

قال غيير: «إن أمي مصابة بذعر دائم. هذا يخرّب كل شيء في حياتها أو

يلقي عليه بظله القاتم. تريد أن يكون كل واحد منا قريبًا منها، طيلة الوقت. كان ذلك جحيمًا خلال طفولتي. وقد كلفني تحرير نفسي منه الكثير. كان أسلوبها في إبقائي قريبًا منها هو أن تجعلني أحس بالذنب. رفضت قبول ذلك، وهكذا أفلتّ من قبضتها. كان الثمن أنني صرت لا أكلمها إلّا نادرًا. إنه ثمن غالٍ، لكن الأمر يستحق ذلك».

سألته آنديرس: «مم تخاف؟».

«هل تسألني كيف يظهر خوفها؟».

أومأ آنديرس برأسه.

«لا يصيبها البشر بأي ذعر. يمكنها أن تكون مباشرة تمامًا معهم. لا تخشى الناس أبدًا. لكنها تخاف المكان... مثلًا، تضع دائمًا وسادة في حضنها عندما تكون في السيارة. وكلما دخلنا نفقًا، تنحني إلى الأمام وتضع الوسادة على رأسها».

سألته هيلينا: «هل هذا صحيح؟».

«صحيح تمامًا! إنها تفعل هذا دائمًا، كل مرة. وعند ذلك، فإنه يكون علينا أن نخبرها عندما ينتهي النفق. وبعد ذلك تطوّر الأمر، فجأة صارت غير قادرة على التنقل بالسيارة في طريق واسعة قليلًا. لا تتحمل مرور سيارة أخرى بالقرب من سيارتنا. وبعد ذلك صارت تخاف الماء أيضًا. صارت رحلات العطلات استحالة حقيقية! أذكر كيف كان أبي يقف وينظر إلى الخريطة كأنه جنرال قبل المعركة ويحاول العثور على طرق ليس فيها مرتفعات، ولا مياه، ولا أنفاق».

قالت ليندا: «أما أمي فعكس أمك تمامًا. هي لا تخاف شيئًا! أظنها أكثر من أعرفهم شجاعة. أذكر كيف كنت أركب الدراجة معها عبر المدينة في طريقنا إلى المسرح. كانت تقود الدراجة كالمجانين، على الرصيف وبين الناس وبين السيارات. أوقفتها الشرطة مرة. لم تخفض رأسها ولم تصغ إليهم ولم تعتذر ولم تقل إن هذا لن يحدث مرة أخرى، أيها الشرطي! ليست أمي من يقول هذا. أبدًا... لقد كانت غاضبة عليهم. من حقها أن تقود دراجتها حيث تشاء! هكذا كانت طيلة طفولتي. إذا اشتكى معلم أو معلمة

مني، فإنها ترد عليهم بالمثل. لا عيب في ابنتها أبدًا! كنت على حق دائمًا، في نظرها. عندما كنت في السادسة، تركتني أذهب في عطلة إلى اليونان، وحدي».

قالت كريستينا: «وحدك؟! أنت فقط؟».

«لا، ليس تمامًا! ذهبتُ مع صديقتي وأسرتها. لكني كنت في السادسة. أمضيت وحدي أسبوعين مع أسرة غريبة في بلد أجنبي. أرى أن هذا كان كثيرًا بعض الشيء، ألا تظنين ذلك؟».

قال غيير: «كانت تلك سنوات السبعينيات! وكان كل شيء مباحًا آنذاك».

«كانت أمي تسبب لي حرجًا كثيرًا في مناسبات كثيرة جدًا. إنها من ذلك النوع من الأشخاص الذين ليس لديهم إحساس بالخجل. يمكنها فعل أشياء غير معقولة على الإطلاق؛ وعندما تفعل ذلك لحمايتي، كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني».

سألها غيير: «وماذا عن والدك؟».

«أبي من نمط مختلف تمامًا. كان شخصًا لا يمكن توقع أفعاله أبدًا. يمكن أن يحدث أي شيء عندما يأتي. كنا ننتظر دائمًا أن يفعل شيئًا فظيعًا حتى تأتي الشرطة وتأخذه. وغالبًا ما كنا نهرب، أنا وأمي وأخي، كنا نهرب منه؛ لا شيء أقل من الهرب!».

نظرت إليها وسألتها: «ماذا كان يفعل؟».

كانت قد أخبرتني بعض الأشياء عن أبيها، لكن ذلك كان كلامًا عامًا، مع تفاصيل قليلة جدًا.

«أوه، كان كل شيء ممكنًا. كان يمكن أن يتسلق المزراب أو يرمي بنفسه من النافذة. كان يمكن أن يصير عنيفًا... دم وزجاج محطم وعنف. لكن الشرطة جاءت آخر الأمر. صار كل شيء على ما يرام. خلال فترة وجوده في البيت، كنت في انتظار حدوث كارثة في أي وقت. لكن وقوع الكارثة كان يجعلني أنعم بالهدوء دائمًا. يكاد يكون حدوث أسوأ ما أتوقعه أمرًا مريحًا بالنسبة لي لأنني أعرف عند ذلك بأنني استطعت تجاوز الأمر. الانتظار هو أصعب ما في الأمر».

توقفت ليندا عن الكلام لحظة، ثم قالت: «أتذكر قصة الآن! كان ذلك عندما هربنا من أبي وذهبنا إلى بيت جدتي في نورلاند. أظن أنني كنت في الخامسة، وكان أخي في السابعة. عندما عدنا إلى ستوكهولم، وجدنا الغاز يملأ الشقة. لقد فتح أبي الغاز وتركه مفتوحًا عدة أيام. عندما فتحت أمي الباب، كان إحساسي أنه موشك على الانفجار لشدة ضغط الغاز عليه من الداخل. استدارت أمي وقالت لماثياس أن يأخذني وينزل إلى الشارع وينتظر هناك. عندما صرنا في الشارع، أذكر جيدًا أن ماثياس قال لي: هل تدركين أن أمنا يمكن أن تموت الآن؟ أجبته: نعم، أعرف هذا. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، سمعت أمي تتحدث معه في الهاتف. كانت تسأله: هل كنت تحاول قتلنا؟ لم يكن ذلك مبالغة، بل حقيقة واضحة... هل كنت تحاول قتلنا حقًا؟».

ابتسمت ليندا.

قال آنديرس: «يصعب عليَّ تصديق هذه الأشياء». ثم التفت إلى كريستينا وقال لها: «لم يبق غيرك. كيف كان أبوك وأمك؟ لا يزالان حيين، أليس كذلك؟».

قالت كريستينا: «نعم، لكنهما عجوزان الآن. يعيشان في أوبسالا. إنهما من أتباع الكنيسة الخمسينية. لقد ترعرعت هناك، ونتيجة ذلك الجو الكنسي، كنت أحس نفسي مذنبة تجاه كل شيء، حتى تجاه أصغر الأشياء وأتفهها. لكنهما شخصان طيبان. لم يتوقفا عن العمل طيلة حياتهما. هل تعرفون ما يفعلانه عندما ينتهي الشتاء ويذوب الثلج ولا يبقى على الرصيف غير الرمل؟».

قلت لها: «لا». قلت هذا لأنها كانت تنظر إليّ.

«يكنسان الرمل ويعيدانه إلى إدارة الطرق».

سألها آنديرس: «هل هذا صحيح؟»... ثم ضحك... «ها ها ها!».

«لا حاجة إلى القول إنهما لا يشربان الكحول أبدًا. كما أن أبي لا يشرب الشاي ولا القهوة. إذا أراد أن يدلل نفسه في الصباح، فإنه يشرب الماء الساخن».

قال آنديرس: «لا أصدق هذا!».

قال غيير: «لكنه حقيقي! صحيح أنه يشرب الماء الساخن وأنهما يجمعان الرمل عند الباب حتى تأخذه إدارة الطرق. إنهما شخصان طيبان إلى حد يصعب تصديقه. وأنا واثق من أن كوني صهرهما يكاد يكون امتحانًا شيطانيًا لهما».

سألتها هيلينا: «كيف كان ترعرعك هناك، معهما؟».

«بقيت زمنًا طويلًا أظن أن العالم هو ذاك الذي عشت فيه. كان أصدقائي جميعًا وأصدقاء أهلي جميعًا منتمين إلى تلك الحركة. وما كنت أظن أن هنالك أي حياة خارجها. عندما انقطعت عنها، كان ذلك انقطاعًا عن أصدقائي كلهم».

«وكم كان عمرك آنذاك؟».

أجابت كريستينا: «إثنا عشر عامًا».

كررت هيلينا من خلفها: «إثنا عشر عامًا؟ كيف وجدت القوة اللازمة لفعل ذلك؟ أو، كيف وجدت النضج الضروري؟».

«لست أدري! لكني فعلتها. وقد كان ذلك صعبًا. نعم، كان صعبًا. فقدت أصدقائي كلهم».

قالت ليندا: «إثنا عشر عامًا!».

أومأت كريستينا برأسها، ثم ابتسمت.

قال آنديرس: «وهكذا صرت تشربين القهوة في الصباح!».

أجابته كريستينا: «صحيح، لكني لا أشرب القهوة عندما أكون هناك».

ضحكنا كلنا. نهضت وبدأت أجمع الصحون. نهض غيير أيضًا. أخذ صحنه وتبعني إلى المطبخ.

صاح به آنديرس: «هل غيرت تحالفاتك يا غيير؟».

رميت بالأصداف الفارغة في سلة القمامة، ثم غسلت الصحون ووضعتها في آلة غسل الأطباق. ناولني غيير صحنه ثم تراجع بضع خطوات واستند إلى البراد.

قال لي: «رائع».

سألته: «ما هو؟».

«ما كنا نتحدث عنه. أو أن الحديث عن تلك الأشياء كلها هو ما كان رائعًا. لقد أطلق بيتر هاندكه اسمًا على هذا. أظن أنه أحاديث الليل! إنها تلك الليالي التي ينفتح فيها الناس بعضهم على بعض ويساهم كل منهم بقصة».

التفتّ إليه وقلت: «هذا صحيح. هل نخرج قليلًا؟ أريد أن أدخن».

قال غيير: «لا بأس، فليكن».

جاء آنديرس عندما ارتدينا معطفينا وصرنا مستعدَيْن للخروج.

قال لنا: «هل أنتما خارجان من أجل التدخين؟ سوف أنضم إليكما».

وبعد دقيقتين، صرنا في وسط الفناء في الأسفل. سيجارتي متوهّجة بين أصابعي، وأيديهما في جيوبهما. كان الطقس باردًا والريح نشطة قليلًا. وكانت الألعاب النارية منطلقة في كل مكان.

قال آنديرس وهو يمرر أصابعه في شعره: «كانت على طرف لساني قصة عندما كنا في الأعلى. قصة عن خسارة كل شيء. لكني أظن أن من الأفضل قولها هنا. كان ذلك في إسبانيا. كنت أملك مطعمًا مع أحد الأصدقاء. كانت حياة عظيمة هناك. نسهر طوال الليل، كحول ومخدرات، ثم نستلقي في الشمس طيلة النهار ونبدأ من جديد في السابعة أو في الثامنة مساء. أظنها كانت أجمل فترة في حياتي. كنت أعيش حرية مطلقة. وكنت أفعل ما أريده بالضبط».

قال غيير: «ثم ماذا؟».

«ثم... أظنني بالغت في فعل كل ما أريده. كان لدينا مكتب فوق البار. وقد ضاجعت زوجة شريكي في ذلك المكتب. لم أستطِع منع نفسي من ذلك. لقد أمسك بنا طبعًا، أمسك بنا متلبسين فانتهى الأمر كله. لم نعد نعمل معًا. لكني راغب في العودة ذات يوم. لا يحتاج الأمر إلّا أن توافق هيلينا على العودة».

قلت متسائلًا: «قد لا تكون تلك هي الحياة التي تحلم بها».

رفع آنديرس كتفيه وقال: «لكننا نستطيع استئجار بيت في مكان ما هناك. ثم نمضي فيه شهرًا كل ستة أشهر. في غرناطة أو في مكان ما. كيف ترى هذا؟».

أجبته: «يبدو لي جميلًا».
قال غيير: «أما أنا فليس لديّ أي وقت للإجازات».
سأله آنديرس: «ماذا تعني؟ هل تتحدّث عن هذه السنة؟».
«لا! هكذا هو الوضع دائمًا. أعمل كل يوم، طيلة الأسبوع بما في ذلك أيام السبت والأحد، وأعمل في كل أسبوع من أسابيع السنة... ربما باستثناء ليلة عيد الميلاد».
سأله آنديرس: «لماذا؟».
ضحك غيير.
رميت عقب سيجارتي وسحقته على الأرض. قلت لهما: «هل نصعد الآن؟».
رأيت آنديرس للمرة الأولى عندما أخذني مع ليندا من محطة القطار في سالتسيوبادن حيث كنا قد استأجرنا شقة صغيرة. وفي الطريق، عبّر عن ازدرائه لسباق الجرذان هناك وقال إن في الحياة أشياء أكثر من المكانة والمال. لكني أحسست أنه كان يسايرنا ويقول ما ظن أننا نريد سماعه... باعتبارنا من «أهل الفن». ثم مرت شهور كثيرة قبل أن أفهم أنه كان يعني عكس ما قاله في واقع الأمر: كان اهتمامه الحقيقي الوحيد منصبًا على المال وعلى الحياة التي يستطيع المال شراءها. كان يسكنه هاجس العودة ثريًا مثلما كان. وكان كل ما يفعله موجّهًا صوب ذلك الهدف. وبما أنه كان غير قادر على فعل هذا بسبب مشكلة الضرائب، فقد انتقل إلى عالم الكسب غير القانوني. عندما بدأت علاقته مع هيلينا، كانت أعماله غائمة كلها. ومع أنها ظلت تقاوم حبه زمنًا طويلًا، فقد استسلمت له آخر الأمر مع وضع بعض الشروط لأنهما أنجبا طفلة بعد ذلك بوقت قصير. وواضح أنه استجاب لشروطها: ظل المال الذي يكسبه غير قانوني، لكنه كان مالًا «نظيفًا» على نحو ما. لم أكن أعرف شيئًا محددًا عن عمله عدا أنه يستخدم العلاقات الكثيرة الباقية لديه من أيام عزّه من أجل تمويل مشاريع صغيرة متتالية لا يدوم الواحد منها (لا أعرف كيف) أكثر من بضعة شهور. كانت محاولة الاتصال به مضيعة للوقت لأنه منهمك دائمًا في مكالمات هاتفية

كثيرة. يصح قول الشيء نفسه على سياراته أو على ما يدعوه باسم «سيارات الشركة» التي يبدلها باستمرار. وعندما نزورهما، يمكن أن نرى ذات مساء شاشة تلفزيون مسطحة عملاقة على جدار غرفة المعيشة أو جهاز لابتوب جديد على المكتب في الصالة؛ ثم يختفي ذلك في اليوم التالي. واضح تمامًا أن الخط الفاصل بين ما يملكه وما يستطيع وضع يده عليه كان خطًا سائلًا متحركًا، إضافة إلى عدم وجود صلة واضحة بين الأعمال التي يقوم بها وبين المال الذي يكون في متناوله. كان يقامر بكل ما لديه من مال؛ وفي حالات كثيرة كانت مبالغ المال غير صغيرة أبدًا. يمكن أن يقامر على أي شيء في العالم. وبما أن قدرته على الإقناع كبيرة، فإنه لا يجد مشكلة في الحصول على المال مما أدى إلى أنه صار عالقًا في مستنقع حقيقي. من حيث المبدأ، يحتفظ آنديرس بهذه الأشياء كلها لنفسه، لكن تعاملاته وصفقاته تظهر على السطح أحيانًا مثلما حدث عندما اتصل أحدهم بهيلينا ذات يوم وقال إن آنديرس أفرغ صندوق الشركة من المال عندما ذهب إليها للتفاوض من جديد على بعض العقود... مسألة صغيرة... سبعمئة ألف كرون. وسوف يبلغون الشرطة بالأمر! لم يرف لآنديرس جفن عندما واجهته هيلينا بهذا. قال إن الوضع المالي في تلك الشركة في حالة فوضى، إضافة إلى أنه وضع تكتنفه الريبة. إنهم يحاولون الآن التغطية على أنفسهم من خلال إلقاء اللوم عليه. ورغم أنه أخذ ذلك المال وخسره في القمار، فإن المال كان غير قانوني، وبالتالي فإن الشركة لن تتصل بالشرطة أبدًا. هذا يعني أنه كان في أمان. أظنه كان دائم اليقظة تجاه الأشخاص الذين يحتال عليهم، لكن انتباهه لا يجعل الأمر أقل خطورة. ذات مرة، وقعا ضحية سرقة عندما كانا في الخارج، هكذا قالت هيلينا لليندا. من الممكن تمامًا أن يكون السارقون قد فعلوا ذلك لجعله يرى ما يستطيعون فعله. وبعد ذلك صار مالكًا شريكًا في مشروع مطعم فخم. إلّا أن ذلك صار تاريخًا بعد شهور قليلة. ثم كانت لديه مشاريع في مواقع بناء صار يديرها فجأة. ثم استأجر مكانًا متميزًا من أجل صالون حلاقة. ثم صار لديه مصنع لحوم لا بد من إنقاذه من الإفلاس. كانت المشكلة (إذا كان يمكن أن نسميها مشكلة) هي

أن من المستحيل عليك أن تكره هذا الرجل. إنه قادر على الكلام مع أي إنسان، وهذه موهبة نادرة الوجود؛ ثم إنه شخص كريم، وهذا ما تلاحظه على الفور عندما تتعرف إليه. وهو شخص سعيد دائمًا: هو الشخص الذي يقف في الحفلات ويشكر حسن استقبال المضيفين أو يهنئهم بالمناسبة التي قد تكون لديهم أو يفعل كل ما يجب فعله. لديه كلمة لطيفة يقولها لكل شخص مهما يكن ما يجمعه به بسيطًا. وهو يعرف أكثر الأحيان كيف يجعل الناس من حوله مرتاحين. وفوق هذا كله، ليس له مظهر الشخص المحتال على الإطلاق. ولعل هذا السبب الذي يجعلني أحبه كثيرًا حتى الآن رغم الازدواجية العامة لديه، ورغم أن هذه واحدة من الصفات القليلة التي أجد صعوبة في تقبلها. وكان من الطبيعي تمامًا أن لا يأبه لي على الإطلاق؛ لكن اهتمامه بي عندما نلتقي ما كان متصنّعًا على الإطلاق... ما كان يفعل ما يفعله الناس عندما يجبرهم واجب ما على إظهار اهتمامهم فيصبح الفارق بين أفعالهم وأفكارهم جليًا واضحًا في واحدة من تلك اللحظات الصغيرة الكاشفة التي لا يستطيع السيطرة عليها إلّا قلة من الناس: من قبيل نظرة سريعة إلى الناحية الأخرى من الغرفة، نظرة تكون من غير معنى في حد ذاتها، لكنها تأتي متبوعة بنوع من «زلّة» أخرى قبل أن يعود انتباه الشخص إليك.. ما كان آنديرس «يلعب ألعابًا»! هذا هو سره. لكنه لم يكن «حقيقيًا» أيضًا!... بمعنى أن ما يقوله لا يكون منسجمًا بالضرورة مع ما يفكر فيه أو ما يفعله أو ما يريده. لكن، من عساه يكون هكذا حقًا؟ هناك نوع من الأشخاص يعني ما يقوله دائمًا من غير إضفاء أي تعديل على الوضع الذي يجد نفسه فيه. لكن هؤلاء الأشخاص قلائل. لم أعرف إلّا شخصين من هذا النوع. وما يجري معهما نتيجة ذلك هو أن المواقف الاجتماعية تصبح مشحونة إلى حد غير معقول لا لأن الناس يخالفونهما ويبدأون العراك، بل لأن هدف الكلام يستبعد أي أهداف أخرى. فيتضح موقفهما الشمولي ويرتد عليهم بطريقة أوتوماتيكية فيبدوان عنيدين متصلبي الرأي بصرف النظر عن طبيعتهما الحقيقية، فقد كان الشخصان اللذان أتحدث عنهما، وبقدر ما أستطيع الحكم، من أصحاب الطبع الودود الكريم. وأما

حالة عدم الارتياح الاجتماعي التي أسببها، أنا نفسي، فهي نتيجة السبب المعاكس تمامًا: أسمح للوضع دائمًا بأن يحدد أفعالي، فإما أسكت ولا أقول شيئًا أو أقول ما يريد الآخرون سماعه مني. ومن الطبيعي أن قول ما تظن أن الآخرين يريدون سماعه ليس إلّا نوعًا من أنواع الكذب. وبالتالي، فإن الفرق بيني وبين آنديرس، أو بين سلوكي الاجتماعي وسلوكه، ليس إلّا فرقًا في الدرجة. وبما أن ثقته التي تتآكل واستقامتي التي تتآكل نتيجتان من الطبيعة نفسها فإن هذا يعني تآكلًا بطيئًا للروح.

والحقيقة أن هنالك نوعًا من المفارقة الساخرة (رغم أنها ليست أمرًا غير مفهوم) في أن هيلين التي يجذبها الجانب الروحي في الحياة والتي تحاول باستمرار أن تفهم نفسها، انتهى بها الأمر إلى رجل يضع المال قبل أي قيمة أخرى، إضافة إلى وضع ابتسامة على وجهه. لكن اجتماعهما معًا كان نتيجة وجود مكوّن أساسي مشترك بينهما: خفة الروح، وبهجة الحياة. لقد كانا زوجًا جذابًا حقًا. هيلين بشعرها الداكن وعينيها الدافئتين وتقاطيع وجهها القوية... شكلها يلفت الأنظار، وشخصيتها ساحرة وحضورها واضح محسوس. كانت ممثلة موهوبة. رأيتها في مسلسلين تلفزيونيين. كان المسلسل الأول بوليسيًا؛ وقد أدت فيه شخصية أرملة تشع كآبة وظلمة جعلتاها شخصًا لا أعرفه. كان ذلك كأنني أرى شخصًا غيرها يحمل وجهها. وفي المسلسل الآخر، الذي كان كوميديًا، أدت دور زوجة متسلطة فكان انطباعي هو نفسه: امرأة مختلفة لها ملامح هيلينا.

كان آنديرس حسن المظهر أيضًا، على نحو صبياني بعض الشيء. لكنه كان شخصًا لا يسهل النظر إليه. ولست أدري إن كان ذلك بسبب الهالة المحيطة بحضوره أو اللمعة في عينيه، أو بسبب جسده الرشيق أو شعره الغزير الذي كان يمكن وصفه في الخمسينيات بأنه «لبدة أسد»... لست أدري! صادفته ذات مرة في سيرغيلز تورغ في قلب المدينة. بدا لي أنه يتجوّل من غير هدف عند أحد الجدران، وبدا محدودب الظهر مرهقًا إلى أقصى حد. رأيته أولًا، لكنه رآني بعد ذلك، فشد قامته وبدا كأنه ينهض من حالته تلك. وفي طرفة عين، حول نفسه إلى الرجل النشيط السعيد الذي أعرفه.

عندما عدنا إلى الشقة، وجدنا أن كريستينا وليندا وهيلينا قد نظفن الطاولة. كن جالسات على الأريكة، يتحدّثن. دخلت المطبخ وبدأت إعداد القهوة. وفي انتظار اختمارها، ذهبت إلى الغرفة المجاورة التي كانت خالية هادئة تمامًا إلّا من صوت تنفّس طفلة هيلينا وآنديرس النائمة على سريرنا وعليها بطانية تغطيها. وفي ذلك الضوء الخافت، أحسست أن النظر إلى المهد الفارغ، والسرير النقّال الفارغ، ومفرش تبديل الحفاضات، والخزانة المليئة بملابس الأطفال، كان شيئًا غريبًا حقًا. كان كل شيء جاهزًا في انتظار وصول طفلنا. كانت هنالك أيضًا حزمة من الحفاضات وضعناها على الرف ومعها مجموعة من الملابس والمناشف. ومن الأعلى، تدلى إطار متحرك علقنا فيه طائرات صغيرة راحت تتأرجح في تيار الهواء الآتي من النافذة. كان ذلك المشهد غريبًا لأن الطفل ليس موجودًا بعد ولأن الخط الفاصل بين ما يمكن أن يحدث وما سيحدث فعلًا يظل في هذه الحالات خطًا سائلًا غير مستقر.

أتى صوت ضحكات من غرفة المعيشة. أغلقت الباب من خلفي ووضعت في الصينية زجاجة الكونياك وكؤوس الكونياك وفناجين القهوة وأطباقها الصغيرة، ثم سكبت القهوة من الآلة في إبريق وحملت ذلك كله ومضيت إلى غرفة المعيشة. رأيت دبًا قماشيًا في حضن كريستينا. كانت تبدو سعيدة، وكان وجهها منفتحًا هادئًا أكثر من المعتاد. أما ليندا الجالسة إلى جانبها فلا تكاد تقوى على فتح عينيها. في هذه الأيام، تذهب ليندا لتنام في الساعة التاسعة تقريبًا. أما الآن فقد قارب الوقت منتصف الليل. كانت هيلينا تقلب أقراص التسجيلات الموسيقية المصفوفة على الرفوف، أما آنديرس وغيير فقد جلسا إلى الطاولة وتابعا حديثهما عن معارفهما المشتركين في الأوساط الإجرامية. اتضح لي أن أصنافًا مختلفة من المجرمين كانت تتردد بانتظام على نادي الملاكمة خلال سنوات غيير هناك. وضعت ما بيدي على الطاولة وجلست. سألني غيير: «لقد قابلت أوسمان، أليس كذلك يا كارل أوفه؟».

كان هذا صحيحًا.

لقد اصطحبني غيير ذات مرة إلى موسيباسكه لمقابلة اثنين من الملاكمين الذين يعرفهم. كان أحدهما باولو روبرتو الذي وصل إلى المباراة النهائية على بطولة العالم ثم صار الآن ممثلًا تلفزيونيًا شهيرًا في السويد، وكان يستعد لمباراة جديدة من أجل لقب البطولة كنوع من العودة إلى هذا الميدان. وكان أوسمان ملاكمًا من المستوى نفسه لكنه أقل شهرة. جاء معهما مدربهما الإنكليزي الذي قدمه غيير بوصفه «دكتورًا في الملاكمة». قال لي: «هذا دكتور في الملاكمة!» فصافحت يد الرجل ولم أقل الكثير. لكني رحت أتابع الحديث الجاري أمامي لأنه شديد الاختلاف عما كنت أعرفه. كانوا في غاية الاسترخاء من غير أي توتر في الجو... خطر في ذهني أنه ذلك النوع من الاسترخاء الذي اعتدته دائمًا. أكلوا الفطائر، وشربوا القهوة، ونظروا إلى الناس، وتقلصت عيونهم عندما راحوا ينظرون إلى الشمس التي كانت منخفضة آنذاك لكنها لا تزال حارة، وتحدثوا مع غيير عن ماضيهم. كان جسد غيير مليئًا بطاقة من طبيعة مختلفة؛ طاقة أخف وأكثر استثارة، طاقة عصبية تقريبًا... رغم أنه كان جالسًا مسترخيًا مثلهم تمامًا. كان ذلك كله ظاهرًا في عينيه الباحثتين دائمًا عن ثغرات ينفذ منها، وكان ظاهرًا في طريقة حديثه، المندفع الغني، الحذر في الوقت نفسه لأنه يحاول التكيف مع لغتهم ومصطلحاتهم، أما هم فكانوا يتكلمون بطريقتهم المعتادة. كان الذي اسمه أوسمان مرتديًا قميصًا قصير الكمين. ورغم ضخامة عضلات ذراعيه (ربما تبلغ خمسة أضعاف عضلاتي)، فقد كانت تلك الضخامة رشيقة متناسبة. كان جسده كله متناسبًا. كان جالسًا هناك، مسترخيًا مرتاحًا؛ وكنت أقول في نفسي كلما التقت عيوننا إنه قادر على سحقي في لحظة واحدة من غير أن أستطيع فعل أي شيء. كان الإحساس الذي أشاعته تلك الفكرة في نفسي إحساسًا مذلًا، لكن الإذلال ظل حبيس نفسي: لا تمكن رؤيته، ولا يمكن إحساسه. لكن ذلك الإحساس اللعين كان موجودًا!

أجبت على سؤال غيير: «كان لقاء سريعًا في موسيباسكه السنة الماضية. لقد قدمتهما كأنهما قردين».

قال غيير: «أظن أننا كنا أكثر شبهًا بالقرود. نعم... على أي حال، ذلك الرجل، أوسمان، هاجم مع شخص آخر شاحنة صغيرة لشركة سيكوريكور الأمنية في فارستا. كان المكان الذي اختاراه للهجوم لا يبعد إلّا خمسين مترًا عن مركز الشرطة الرئيسي. قبل أن تفلح قبضاتهما في تحقيق الأثر المطلوب، كان طاقم الشاحنة قد تمكن من تشغيل جهاز الإنذار فوصلت الشرطة بعد لحظات! وعند ذلك، صعدا إلى سيارتهما وانطلاقا لا يلويان على شيء... انطلقا... من غير نقود ومن غير شيء. ثم نفد البنزين من السيارة! ها ها ها!».

«هل هي قصة حقيقية؟ يبدو هذا مشهدًا من مسلسل عصابة أولسن».

«هذا ما حدث. ها ها ها!».

«إذن، كيف هو أوسمان الآن؟ ليست محاولة السطو بالجريمة البسيطة».

«لم يكن الأمر سيئًا تمامًا. حكموا عليه بسنتين في السجن. هذا كل شيء؛ لكن عقوبة صاحبه كانت سنوات طويلة لأن له سوابق كثيرة».

«وهل حدث هذا منذ وقت قريب؟».

«لا، لا. حدث منذ بضع سنوات. حدث قبل أن يصير ملاكمًا بزمن طويل».

قلت: «فهمت الآن. ما قولكما في شيء من الكونياك؟».

فتحت زجاجة الكونياك وملأت ثلاث كؤوس.

استدرت في اتجاه الأريكة وسألتهن: «من تريد أن تشرب الكونياك؟» هززن رؤوسهن.

لكن هيلينا قالت بعد ذلك: «ربما أشرب نقطة صغيرة، من فضلك».

نهضت وسارت في اتجاهنا. في تلك اللحظة بدأت الموسيقى تنسكب من مكبري الصوت السخيفين الصغيرين من خلفها. كانت تلك أغنية لدامون آلبارنز مالي استمعنا إليها في وقت سابق من المساء فأعجبتها كثيرًا. قلت لها: «تفضلي». وناولتها الكأس التي كان السائل البني الذهبي فيها لا يكاد يغطي قعرها. جعله ضوء المصباح فوق الطاولة يلمع متألقًا.

قالت كريستينا الجالسة على الأريكة: «هنالك شيء يسعدني على أي

حال. يسعدني أنني صرت كبيرة ناضجة. أن أكون في الثانية والثلاثين أحسن بكثير من أن أكون في الحادية والعشرين».

قلت لها: «أنت منتبهة إلى أن في حضنك دبًا صغيرًا، ألست منتبهة يا كريستينا؟ هذا ينسف ما قلتِه الآن».

ضحكت كريستينا. كانت رؤيتها تضحك شيئًا رائعًا. إن فيها شيئًا متوترًا مشدودًا... ليس بالمعنى السيء بل كأنها تستخدم كل ما لديها من قوة لتحافظ على تماسك كل شيء، وعلى تماسكها هي نفسها. كانت طويلة رشيقة؛ وبالطبع، كانت حسنة الملبس دائمًا على نحو موح بقوة الإرادة. كانت جميلة ببشرتها الشاحبة ونمشها. لكن، بعد زوال الانطباعات الأولى، كان يظهر فيها ذلك القرب الذي لا يكاد يُحس، القرب الذي ينبثق منها ويطبع نفسه في أفكاري عنها... على الأقل، هذا ما كنت أراه. ثم إن فيها شيئًا يشبه الأطفال؛ عندما تضحك خاصة أو عندما يستثيرها شيء ما فتطغى الحماسة على ضبط النفس. هي لا تشبه الأطفال من حيث عدم النضج بل تشبههم في فرحهم وانطلاقهم. كنت أرى الشيء نفسه في أمي في تلك المرات القليلة التي تتخلى فيها عن تحفظها وتفعل شيئًا بطريقة متعجلة أو غير مقيدة... لأن استجاباتها الطبيعية، هي أيضًا، كانت شيئًا يصعب التمييز بينه وبين الضعف والهشاشة. كنا مدعوين إلى الطعام عند غيير وكريستينا ذات مرة. وكالمعتاد، سكبت كريستينا كل طاقتها وتركيزها في الطبخ. كنت وحدي في غرفة المعيشة في الضوء الخافت خلف رفوف الكتب عندما أتت لتأخذ شيئًا من هناك. لم تكن منتبهة إلى وجودي. ابتسمت لنفسها وهي تسمع أصوات الضيوف المعجبين خلفها في المطبخ. كانت عيناها متألقتين. أوه، كنت سعيدًا جدًا عندما رأيت ذلك، لكني أحسست بالحزن أيضًا لأنها لم تكن تريد أن يرى أحد كم هي فرحة بوجودنا في ضيافتها.

خلال فترة إقامتي عندهما، كانت كريستينا تغسل الأطباق في المطبخ ذات صباح بينما كنت جالسًا إلى الطاولة أشرب القهوة. وفجأة أشارت إلى مجموعة من الأطباق والصحون في الخزانة.

قالت: «عندما انتقلنا لنعيش هنا معًا، اشتريت ثماني عشرة قطعة من كل

شيء. كنت أتوقع أن نقيم حفلات كبيرة هنا. أعداد من الأصدقاء، ووجبات رائعة. لكننا لم نستخدمها أبدًا. لم نستخدمها مرة واحدة!».

جاءت ضحكة غيير المرتفعة من غرفة النوم. ابتسمت كريستينا.

هذان هما. هكذا هما.

لكني قلت لها الآن: «أنا متفق معك. كان العشرينات جحيمًا. وكانت المراهقة أسوأ منها. لكن الثلاثينات جيدة».

سألتني هيلينا: «ما الذي تغير في الثلاثينيات؟».

«عندما كنت في العشرين، كان ما لديّ قليلًا جدًا، وكان هذا يجعل الشخص الذي كنته قليلًا جدًا. لم أكن أعرف هذا، بالطبع، لأن ذلك كان كل ما أمتلكه في ذلك الوقت. أما الآن، عندما صرت في الخامسة والثلاثين، فإن ما لدي هو أكثر. نعم، لا يزال موجودًا فيّ كل ما كان موجودًا في العشرين، لكنه الآن مُحاط بما هو أكثر منه بكثير. هكذا أنظر إلى الأمر».

قالت هيلينا: «هذه نظرة متفائلة إلى حد لا يصدق، فأنت تقول إن كل شيء يتحسن مع تقدمك في السن».

قال غيير: «هل الأمر هكذا حقًا؟ أنا واثق من أن العيش يكون أكثر بساطة كلما كان ما لدى المرء أقل، أليس كذلك؟».

قلت: «ليس في ما يتعلق بي، على أي حال! إن الأشياء لا تعني لي الآن ما كانت تعنيه من قبل، صار معناها أقل. من الممكن أن تعني توافه الحياة اليومية كل شيء! وقد تكون حاسمة في تحديد كل شيء».

قال غيير: «هذا صحيح. ورغم ذلك، فإنني لا أعتبر أن هذه نظرة متفائلة. قد أقول إنها نظرة جَبْريّة».

قلت: «ما يحدث يحدث. ونحن الآن هنا؛ فلنشرب نخب هذا. سكال!».

«سكال!».

قالت ليندا: «سبع دقائق حتى منتصف الليل. هل نشغل التلفزيون لنرى العد التنازلي ليان مالمسيو؟».

اقتربت منها ومددت يدي إليها: «ومن هو؟» أمسكت بيدي ووضعتها على قدميها.

قالت: «إنه يقرأ القصائد. وتُقرع الأجراس. هذا تقليد سويدي».
قلت: «فلنشاهده إذًا».
ذهبت لأفتح النوافذ بينما تشغّل ليندا التلفزيون. كانت أصوات الألعاب النارية تتزايد باستمرار. مضت الفرقعة والانفجارات والأزيز من غير توقف كأنها جدار من الصوت مرتفع فوق السقوف كلها. كانت الشوارع مزدحمة بالناس. زجاجات الشامبانيا الفوارة في أيديهم؛ وعلى أجسادهم معاطف وقبعات دافئة فوق ملابسهم الاحتفالية. لم أرَ أطفالًا... إنهم أشخاص بالغون فرحون ثملون فقط.
أتت ليندا بآخر زجاجة شامبانيا وفتحتها، ثم امتلأت الكؤوس رغوة فوارة. حملنا كؤوسنا، ووقفنا عند النوافذ. نظرت إلى الآخرين. كانوا سعداء متحمسين يتكلمون ويشيرون إلى هنا وهناك ويشربون الأنخاب. دوت الصفارات في الخارج.
قال غيير: «إما أن حربًا قد بدأت الآن أو أن سنة 2004 قد بدأت». وضعت كأسي لأحتضن ليندا. نظر كل منا في عيني الآخر.
قلت لها: «سنة سعيدة!» ثم قبلتها.
قالت: «سنة سعيدة يا أميري الغالي. إنها سنتنا نحن».
قلت: «نعم، إنها سنتنا».
بعد أن انتهت المعانقات والتهنئات، وبدأ الناس ينسحبون من الشوارع، تذكر آنديرس وهيلينا بالونهما الصيني. ارتدينا معاطفنا ونزلنا إلى فناء البناية. أشعل آنديرس الفتيل، فراح البالون يمتلئ بالهواء الحار شيئًا بعد شيء. وبعد قليل، أفلته آنديرس فبدأ البالون يعلو فوقنا متألقًا صامتًا. تابعته عيوننا حتى اختفى فوق سطوح البنايات في أوسترمالم. صعدنا إلى البيت، وجلسنا إلى الطاولة من جديد. صارت الأحاديث الآن أكثر تفرقًا وأقل تركيزًا، لكنها كانت أحيانًا تتركز على موضوع بعينه مثلما حدث عندما تكلمت ليندا عن حفلة لدى أشخاص أثرياء دُعيت إليها عندما كانت في المدرسة الثانوية. كانت حفلة في بيت كبير فيه بركة سباحة واسعة من خلفها حافة زجاجية ضخمة. بدأوا يسبحون خلال الأمسية. وعندما قفزت ليندا

من الحافة الزجاجية إلى الماء، انكسرت تلك الحافة وانفرطت إلى مليون قطعة زجاج رنانة صغيرة.

قالت ليندا: «لن أنسى ذلك الصوت أبدًا».

تحدث آنديرس عن رحلة إلى جبال الألب. كان يتزلج. انطلق من نقطة البداية، وفجأة انفتحت الأرض من تحته وسقط مع زلاجتيه في ذلك الشق الجليدي. لعل المسافة كانت ستة أمتار. فقد الوعي. ثم أنقذوه بطائرة هليكوبتر. أصيب بكسر في ظهره، وكان هنالك احتمال لإصابته بالشلل فأجروا له عملية جراحية فورية. ظل مستلقيًا في المستشفى عدة أسابيع بينما كان والده، كما قال لنا، يأتي أحيانًا ويجلس على كرسي قبالته، وتفوح منه رائحة الكحول. قال آنديرس إنها ذكرى أشبه بالحلم.

بعد ذلك، وقف آنديرس وانحنى، ثم رفع قميصه حتى نرى الندبة الطويلة الباقية على ظهره بعد الجراحة.

أخبرتهم عن حادثة وقعت عندما كنت في السابعة عشر. كنا منطلقين بسرعة مئة كيلومتر في الساعة على طريق في براري تيليمارك المتجمدة. انفجر إطار السيارة فاصطدمنا بأحد أعمدة الهاتف. ثم طرنا فوق الطريق وهبطنا في خندق. كانت تلك أعجوبة لأننا نجونا من أي إصابة خطيرة، لكن السيارة تحطمت كلها. إلّا أن البرد كان أسوأ ما في الأمر، وليس الحادث نفسه، لأن درجة الحرارة كانت عشرين تحت الصفر. كنا في منتصف الليل، وما كان علينا غير قمصان وسترات خفيفة وأحذية رياضية. وقفنا ساعات على الطريق قبل أن تتوفر لنا وسيلة نقل تأخذنا من هناك.

من جديد، ملأت كؤوس الكونياك لآنديرس وغيير، ولنفسي. تثاءبت ليندا، وبدأت هيلينا قصة عن لوس آنجلوس. ثم سمعنا صوت صفارة الإنذار الحاد في مكان ما في البناية.

قال آنديرس: «ما هذا بحق الجحيم؟ هل هو إنذار الحريق؟».

قال غيير: «لا بأس... إنها ليلة رأس السنة».

قالت ليندا وهي تعتدل في جلستها على الأريكة: «ألا يجب أن نخرج؟».

قلت: «سوف أذهب للتحقق أولًا».

قال غيير: «أنا ذاهب معك».

خرجنا إلى الممر. لم يكن هنالك دخان في أي مكان. كان الصوت آتيًا من الطابق الأرضي فنزلنا السلم مسرعين. كان المصباح فوق باب المصعد يومض سريعًا. انحنيت ونظرت داخل المصعد عبر نافذة الباب. رأيت شخصًا مستلقيًا في الداخل، على الأرض. فتحت الباب. كانت تلك جارتنا الروسية مستلقية على ظهرها وقد وضعت إحدى قدميها على الجدار. كانت في ملابس السهرة، فستان أسود على صدره تزيينات من الترتر، وجوارب شفافة بلون الجلد، وحذاء عالي الكعب. ضحكت عندما رأتنا. وعلى نحو غريزي، نظرت إلى فخذيها وإلى سروالها الداخلي الأسود بينهما قبل أن تنتقل عيناي إلى وجهها.

قالت لنا: «لا أستطيع الوقوف!».

قلت: «سوف نساعدك».

أمسكت بذراعها وشددتها حتى صارت جالسة. مضى غيير إلى الجانب الآخر. صارت المرأة بيننا وأفلحنا في جعلها تقف على قدميها. ظلت تضحك طيلة الوقت. كان في جو المصعد المغلق مزيج طاغٍ من رائحة العطر والكحول.

قالت بالسويدية: « شكرًا لكما». ثم قالت بالنرويجية: «توسن توسن تاك شكرًا جزيلًا لكما».

أمسكت بيدي ثم انحنت وقبلتهما. قبلت اليد الأولى، ثم قبلت الثانية، ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ.

قالت لي: «أوه، يا لهذا الرجل الوسيم».

قلت: «هيا لنساعدك في الوصول إلى شقتك». ضغطت زر المصعد وأغلقت الباب. كان غيير مبتسمًا ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. راحت نظرته تنتقل بيني وبينها. ومع بدء حركة المصعد إلى الأعلى، مالت المرأة مستندة عليّ.

قلت: «والآن، ها نحن هنا. هل مفتاحك معك؟».

نظرت في حقيبة يدها الصغيرة التي كانت معلقة من كتفها. كانت تتمايل

إلى الأمام والخلف كأنها شجرة في مهب الريح. وكانت أصابعها تبحث بين محتويات الحقيبة.

أطلقت صيحة ظافرة وهي تخرج حزمة مفاتيح: «ها هو».

أمسكها غيير من كتفها عندما انحنت لتضع المفتاح في قفل الباب.

قال لها: «تقدمي خطوة أخرى حتى تتمكني من فتح الباب».

أطاعته. وبعد بضعة محاولات، تمكنت من إدخال المفتاح في القفل.

شكرتنا من جديد: «توسن توسن تاك! أنتما ملاكان جاءا لمساعدتي هذه الليلة».

قال غيير: «لا شكر على واجب. نتمنى لك حظًا طيبًا».

في طريق صعودنا إلى الشقة، نظر إليّ غيير نظرة تساؤل. قال لي: «هل هي جارتك المجنونة؟».

أومأت برأسي.

«إنها عاهرة، أليس كذلك؟».

هززت رأسي وقلت: «ليست كذلك، على حد علمي».

«لا بد أنها عاهرة! لا يمكنها تحمل تكلفة العيش هنا إن لم تكن كذلك. ومظهرها أيضًا... لم تبد لي امرأة غبية».

قلت وأنا أفتح باب الشقة: «هذا يكفي! إنها مثل أي امرأة أخرى. لكنها امرأة تعيسة مدمنة على الكحول، وروسية أيضًا. ولديها اضطراب نفسي يجعلها غير قادرة على التحكم باندفاعاتها».

ضحك غيير وقال: «صحيح، أنت محق».

سألت هيلينا من غرفة المعيشة: «ماذا وجدتما؟».

قلت وأنا أدخل غرفة الجلوس: «كانت تلك جارتنا الروسية. لقد وقعت على أرض المصعد. كانت ثملة إلى درجة جعلتها غير قادرة على الوقوف. ساعدناها في الصعود إلى شقتها».

قال غيير: «لقد قبلت يدَي كارل أوفه!... أوه، يا للرجل الوسيم!... هكذا قالت له».

ضحك الجميع.

قلت: «تقول هذا بعد أن وقفت هنا تشتمني وتلعنني، بعد أن كادت تصيبنا بالجنون».

قالت ليندا: «إنها كابوس! وهي فاقدة العقل تمامًا. عندما أصادفها على السلم، أكاد أشعر بالخوف من أن تخرج سكينًا وتطعنني بها. تنظر إليّ بعينين ممتلئتين كرهًا!... كره عميق».

قال غيير: «يكاد ينفد الوقت لديها. ثم تراك تنتقلين للعيش هنا ببطن منتفخ وفرحة وشيكة».

سألته: «أتظن أن هذا هو السبب؟».

قالت ليندا: «بالطبع! لو أننا حافظنا على مسافة تفصلنا عنها منذ البداية؛ لكننا كنا منفتحين عليها. ثم صرنا هاجسًا يسكنها».

قلت: «نعم، نعم... ألا تريدون الحلوى الآن؟ لقد أعدّت لكم ليندا التراميسو الشهير».

قالت هيلينا: «أوه!».

قالت ليندا: «هو شهير لأنه نوع الحلوى الوحيد الذي أستطيع إعداده».

جلبت الترميسو والقهوة، ثم جلسنا إلى الطاولة من جديد. ما كدنا نجلس حتى انطلق صوت الموسيقى الرهيب من الأسفل.

قلت لهم: «انظروا كيف نعيش!».

سألنا آنديرس: «ألا تستطيعون طردها؟ يمكنني ترتيب ذلك، إذا أردتما».

سألته هيلينا: «كيف تستطيع أن تفعل هذا؟».

أجابها آنديرس: «إن لديّ طرقي».

قالت هيلينا: «أوه؟».

قال غيير: «عليكما إبلاغ الشرطة عنها. سيجعلها هذا تدرك أن الأمر جدي».

قلت: «هل تعني ما تقول؟».

«بالطبع! إذا لم تقوما بشيء فيه بعض القسوة، فسوف يستمر الأمر على هذه الحال».

توقفت الموسيقى فجأة مثلما بدأت. سمعنا صوت خبطة باب الشقة تحتنا. وسمعنا نقر الحذاء ذي الكعب المرتفع على درجات السلم.

قلت: «هل هي آتية إلينا؟».

جلس الجميع ساكنين، مصغين. لكن صوت الخطوات تجاوز بابنا وتابع صعود السلم. وبعد فترة وجيزة، عادت الخطوات نازلة من جديد، ثم اختفى الصوت.

ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الأسفل. رأيتها تسير مترنحة في الشارع الأبيض، في فستانها من غير معطف، وفي فردة حذاء واحدة فقط. لوّحَت بيدها. كانت سيارة تاكسي تقترب منها. توقفت السيارة فصعدت إليها.

قلت لهم: «إنها تأخذ سيارة تاكسي. فردة حذاء واحدة. على أي حال، لا يمكنني القول إنها لم تبذل جهدًا حتى تخرج مرتدية شيئًا ما، على الأقل.

انتقل الحديث إلى أشياء أخرى. وعندما قاربت الساعة الثانية، تحرك آنديرس وهيلينا للذهاب. ارتديا ملابسهما الشتوية الدافئة، ثم عانقانا وانطلقا في الليل. كان آنديرس يحمل ابنتهما الغافية بين ذراعيه. ذهب غيير وكريستينا بعد نصف ساعة من ذلك. وبعد لحظة عاد غيير حاملًا في يده فردة حذاء عالي الكعب.

قال لي: «هذه مثل قصة سندريلا! ماذا أفعل بالحذاء؟».

قلت: «ضعه عند بابها. انصرف الآن! نريد أن ننام».

دخلت غرفة النوم بعد أن رتبت غرفة المعيشة وشغّلت آلة غسل الأطباق. كانت ليندا نائمة. لكن نومها لم يكن بعد قد صار عميقًا إلى حد يمنعها من فتح عينيها ومنحي ابتسامة نعسة بينما كنت أخلع ملابسي.

قلت لها: «لقد كانت سهرة لطيفة. ما رأيك؟».

قالت: «نعم. كانت سهرة لطيفة».

سألتها وأنا أستلقي إلى جانبها: «أتظنين أنها كانت سهرة ممتعة لهم؟».

«أظن هذا، نعم. ما رأيك أنت؟».

«نعم، أظن أنهم استمتعوا بالسهرة. على أي حال، كانت سهرة ممتعة لي».

كان ضوء مصابيح الشارع متناثرًا ألقًا خافتًا على أرض الغرفة. لا تكون هذه الغرفة مظلمة أبدًا. ولا تكون هادئة تمامًا. لا تزال الألعاب النارية تنفجر في الخارج، ولا تزال الأصوات تعلو وتنخفض في الشارع، ولا تزال السيارات تمر مسرعة. ازداد مرور السيارات الآن مع اقتراب ليلة رأس السنة من نهايتها.

قالت ليندا: «لكني بدأت أحس قلقًا حقيقيًا في ما يتعلق بجارتنا. لست مرتاحة لوجودها هنا».

قلت: «معك حق، لكننا لا نستطيع أن نفعل الكثير، رغم ذلك».

«صحيح».

قلت: «يظن غيير أنها عاهرة».

قالت ليندا: «إنها عاهرة طبعًا، ولا شك في ذلك. إنها تعمل مع واحدة من شركات فتيات المرافقة».

«وكيف تعرفين هذا؟».

«إنه واضح».

قلت: «ليس واضحًا لي! ما كان يمكن أن تخطر هذه الفكرة في بالي ولو بعد مليون سنة».

قالت ليندا: «هذا لأنك ساذج كثيرًا».

«لعلّي ساذج فعلًا».

«أنت كذلك». ابتسمت لي ثم مالت إليّ وقبلتني. وقالت: «تصبح على خير».

قلت: «تصبحين على خير».

مكتبة | 483

كارل أوفه كناوسغارد



الكتاب الثاني - II

رجل عاشق

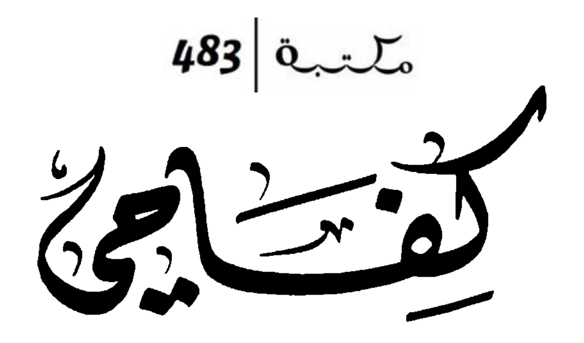
الكتاب: كفاحي/ الكتاب الثاني - II : رجل عاشق
المؤلف: كارل أوفه كناوسغارد
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 320 صفحة
الطبعة الأولى لدار التنوير : 2018
الترقيم الدولي: 978-9938-941-21-0
رقم الإيداع: 2018/127-373
هذه ترجمة مرخصة لكتاب
MIN KAMP. FØRSTE BOK by Karl Ove Knausgård
MIN KAMP. FØRSTE BOK

This Arabic text has been translated from Don Bartlett's English translation A Death in the Family of Karl Ove Knausgaard's Min kamp Første bok

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - جاردن سيتي 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقاً) - الدور الأرضي - شقة رقم 2
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

كارل أوفه كناوسغارد

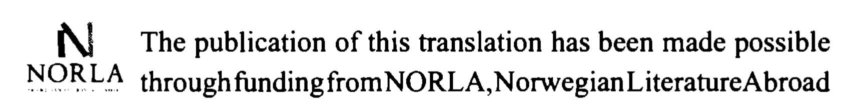


الكتاب الثاني - II

رجل عاشق

ترجمة: الحارث النبهان




The publication of this translation has been made possible through funding from NORLA, Norwegian Literature Abroad

كنت أجد صعوبة في استيعاب أننا الآن ثلاثة في السرير. لكننا كنا ثلاثة! لقد اكتمل تطور الجنين في بطن ليندا وما عاد يفصله عنا غير جدار من اللحم والجلد لا يتجاوز سنتيمترًا واحدًا. الآن، يمكن أن يولد الطفل في أي لحظة. كان هذا ما يحدد سلوك ليندا كله: لم تعد الآن تبدأ أي شيء جديد، ولا تخرج إلّا نادرًا. وهي هادئة دائمًا، تعتني بنفسها وبجسدها، تأخذ حمامات طويلة وتشاهد أفلامًا وهي جالسة على الأريكة، ثم تنعس وتنام. كانت في حالة ساكنة هامدة كأنها نوم مديد، لكن قلقها لم يفارقها تمامًا. الآن، صار دوري في هذه الدراما هو ما يشغل بالها. قيل لنا في دورة ما قبل الولادة إن العلاقة بين المرأة الحبلى والقابلة مهمة كثيرًا: إذا لم تكونا على اتفاق، أو إذا كان هنالك جو مزعج من أي نوع، فمن الضروري أن تعبر المرأة عن ذلك في أبكر وقت ممكن حتى تتولى الأمر قابلة أخرى أكثر ملاءمة لها. وقد قيل لنا أيضًا إن المساعدة في التواصل هي دور الرجل الأكثر أهمية خلال الولادة لأنه أفضل من يعرف زوجته ولأنه يدرك ما تريده، وكذلك لأنه سيكون الشخص الذي ينقل ذلك كله إلى القابلة لأن زوجته ستكون منشغلة بأشياء أخرى. هنا كانت مشكلتي التي تثير قلقها: إنني أتكلم اللغة النرويجية، فهل ستكون الممرضات والقابلات قادرات على فهم ما أقول؟ هنالك أيضًا ما هو أسوأ من هذا لأنني شخص يتجنب الصدام ولأنني شديد المراعاة للآخرين في أي وضع من الأوضاع. فهل سأكون قادرًا على أن أقول كلمة لا لقابلة يحتمل أن تكون فظيعة فأطالب بواحدة غيرها مع كل ما يمكن أن يشتمل عليه ذلك من جرح لمشاعرها؟

كنت أرد على مخاوفها بالقول: «اهدئي، اهدئي، سيكون كل شيء على ما يرام». كنت أقول لها ألّا تفكر في ذلك كله، وأقول إن الأمور ستجد

حلولها بنفسها، لكنها لم تكن تهدأ... صرتُ سببًا لقلقها. هل سأكون قادرًا على طلب سيارة تاكسي عندما تأتي تلك اللحظة؟

كانت محقة بعض الشيء، لكن هذا لم يجعل الأمر أكثر سهولة على الإطلاق. إنني سهل التأثر بأي نوع من أنواع الضغط. وأنا كذلك ميّال إلى إرضاء الجميع. لكن هنالك حالات تستدعي اتخاذ قرار والعمل بموجبه؛ وعند ذلك أعاني عذابًا كبيرًا... كانت هذه الحالات من أسوأ التجارب في حياتي. مررت خلال هذه الفترة القصيرة بسلسلة مواقف كانت ليندا شاهدًا عليها. حادثة الباب الذي استعصى وحبسها في الحمام، وحادثة القارب، وتلك الحادثة مع أمي، وكذلك تلك المرة الذي حاولت فيها التعويض عن ذلك كله فتدخلت ذات صباح في مشاجرة في محطة المترو، لكن ذلك التدخل لم يكن في صالحي أيضًا... فما هو حسن التقدير الذي أظهرته في تلك المرة؟ وأهم من ذلك كله، كان إدراكي أن الصعوبة التي سأواجهها عندما أريد صرف القابلة ستكون أسوأ من احتمال إصابتي بطعنة سكين في محطة المترو.

كنت عائدًا إلى البيت مساء أحد الأيام. وضعت على الأرض حقيبة كمبيوتري المحمول وكيسَي التسوق لكي أضغط زر المصعد الخارجي إلى مالمسيكلنديسغاتان. ألقيت نظرة سريعة على هاتفي فرأيت أن ليندا اتصلت بي ثماني مرات. لم أتصل بها لأنني كنت شديد القرب من البيت. انتظرت المصعد الذي بدا لي أنه استغرق زمنًا طويلًا حتى وصل. استدرت فوقعت نظرتي على عيني متشرد مستلق في كيس للنوم عند الجدار. كان رجلًا نحيلًا يخلو وجهه من أي لون. لم يكن في نظرته أي فضول، ولم يكن فيها تجاهل أو عدم اكتراث. اكتفت عيناه برؤية وجودي قريبًا منه. وقفت ساكنًا في المصعد المرتفع بطيئًا والانزعاج يملؤني نتيجة القلق الذي سببته مكالمات ليندا التي لم أنتبه إليها. توقف المصعد فدفعت الباب سريعًا وانطلقت أجري في شارع دافيدباغارس، ثم عبرت المدخل وصعدت السلم.

صحت من الباب: «مرحبًا! هل حدث شيء؟».

لا إجابة!

لا بد أن الضغط الذي أحسته جعلها تذهب إلى المستشفى وحدها. هل هذا معقول؟

ناديتها من جديد: «مرحبًا! ليندا؟».

خلعت حذائي ومضيت إلى المطبخ ملقيًا نظرة سريعة عبر باب غرفة النوم. لا أحد في الغرفة. انتبهت إلى أن الكيسين لا يزالان معلقين بيدي فوضعتهما قبل أن أمضي غرفة النوم وأفتح باب غرفة المعيشة. كانت واقفة في وسط الغرفة تنظر إلي.

سألتها: «ما الأمر؟ هل حدث شي؟».

لم تجبني. ذهبت إليها.

«ماذا حدث يا ليندا؟».

كانت عينيها مظلمتين. قالت لي: «لم أشعر بشيء طيلة اليوم. أحس أن هنالك شيئًا غير صحيح». لا أشعر بشيء أبدًا. ضممتها بين ذراعي فتفلتت مني.

قلت: «كل شيء بخير. أنا واثق من هذا».

زعقت قائلة: «**واضح جدًا أن هذا ليس خيرًا!** ألا تفهم شيئًا؟ ألا تفهم ما حدث؟».

حاولت احتضانها من جديد، لكنها ابتعدت عني.

بدأت تبكي.

قلت لها: «ليندا، ليندا!» قالت من جديد: «ألا تفهم ما حدث؟».

قلت: «كل شيء على ما يرام. أنا واثق من هذا». توقعت أن تصرخ من جديد. لكنها أسبلت ذراعيها ونظرت إليّ بعينين تفيضان دمعًا.

«كيف يمكنك أن تكون واثقًا هكذا؟».

لم أجبها أول الأمر. أحسست أن عينيها المحدقتين في وجهي تتهمانني.

سألتها: «ما الذي تريدين أن نفعله الآن؟».

«علينا أن نذهب إلى المستشفى».

قلت: «إلى المستشفى؟ إن كل شيء مثلما يجب أن يكون. تتراجع حركة الجنين كلما اقتربت الولادة. هيا يا ليندا، كل شيء على أحسن ما يرام. الأمر ليس...».

لم أدرك قبل تلك اللحظة، قبل أن أرى عدم التصديق في وجهها أن الأمر قد يكون خطيرًا حقًا.

قلت لها: «البسي معطفك. سوف أطلب سيارة تاكسي».

قالت: «اتصل بالمستشفى أولًا وقل لهم إننا في الطريق».

هززت رأسي ومضيت إلى الهاتف على الرف عند النافذة.

قلت لها وأنا أرفع السماعة وأدخل الرقم من أجل طلب التاكسي: «سوف يساعدوننا عندما نصل».

وقفت أنتظر المكالمة وأنا أنظر إليها. كانت تتحرك ببطء كأنها غائبة الذهن... لبست معطفها ولفت الشال على عنقها، ثم رفعت قدمها ووضعتها على الصندوق لتربط شريط حذائها، ثم قدمها الثانية. كان كل شيء في الصالة، حيث وقفت ليندا، شديد الوضوح على خلفية غرفة المعيشة المظلمة قليلًا. لا تزال الدموع جارية على خديها.

ظل الهاتف يرن... لا إجابة.

كانت تنظر إلي.

قلت: «إنني أنتظر الإجابة».

ثم توقف الرنين وسمعت صوت امرأة في الهاتف: «تاكسي ستوكهولم».

«نعم، مرحبًا، أريد سيارة تاكسي إلى البناية 81 في شارع ريغرينغسغاتان».

«نعم... إلى أين؟».

«إلى مستشفى داندريد».

«لا بأس».

«متى تصل سيارة التاكسي؟».

«بعد ربع ساعة تقريبًا».

قلت: «هذا ليس جيدًا. لدينا حالة ولادة. إننا في حاجة إلى التاكسي الآن».

«عفوًا، ماذا قلت؟».

«حالة ولادة».

أدركت أنها لم تفهم كلمة ولادة باللغة النرويجية «فوبسيل». مرت بضع ثواني كنت خلالها أبحث عن الكلمة السويدية الصحيحة.

قلت لها أخيرًا: «فورلوسنينغ... يجب أن تصل السيارة سريعًا».

قالت لي: «سأرى ما أستطيع فعله. لكن، لا يمكنني أن أعدك بشيء».

«شكرًا لك». هكذا أجبتها ثم وضعت السماعة وتأكدت من بطاقتي المصرفية في جيب سترتي الداخلي. أقفلت الباب ولحقت بليندا في الممر. لم تنظر إليّ خلال نزولنا.

كان هطول الثلج مستمرًا في الخارج.

قالت ليندا عندما صرنا واقفين على الرصيف: «هل قالوا إن السيارة ستأتي سريعًا؟».

«نعم، قالوا إنها ستصل في أسرع وقت ممكن».

رغم زحام السيارات في الشارع، رأيت سيارة التاكسي قادمة من مسافة بعيدة. كانت مسرعة حقًا. لوّحت بيدي فتوقفت السيارة إلى جانبنا. انحنيت وفتحت الباب وساعدت ليندا على الجلوس، ثم دخلت السيارة بعدها.

استدار السائق إلينا وقال لنا: «هل نحن مستعجلون؟».

أجبته: «ليس الأمر مثلما تظن بالضبط، لكننا ذاهبان إلى مستشفى داندريد».

تحركت السيارة ومضت متجهة إلى بيرغيريارلساغاتان. كنا جالسين في المقعد الخلفي من غير كلام. أمسكت بيدها بين كفيَّ فلم تمنعني من ذلك، لحسن الحظ. كان ضياء مصابيح الشارع المرتفعة يومض في السيارة مثل أحزمة ضيقة من نور. وفي الراديو، انبعثت أغنية «لن أترك الشمس تغيب عنك».

قلت: «لا تخافي، كل شيء يسير سيرًا طبيعيًا».

لم تجبني. مضت السيارة على امتداد طريق منحدر قليلًا تناثرت على

جانبيه بيوت متباعدة بين الأشجار. كانت سقوفها بيضاء بفعل الثلج، ومداخلها صفراء في ضوء مصابيحها. ومن وقت إلى آخر، يرى المرء زلاجة برتقالية أو سيارة غالية الثمن داكنة اللون. انعطفنا يمينًا بعد ذلك فسرنا تحت الطريق الذي كنا فيه. ثم دخلنا المستشفى الذي كان يشبه صندوقًا ضخمًا فيه ثقوب كثيرة... إنها النوافذ المنارة. أكوام من الثلج في مناطق متفرقة حول مبنى المستشفى.

سألت السائق: «هل تعرف مكانه... أعني قسم الولادة؟».

أومأ برأسه ثم انعطف يسارًا وأشار إلى لافتة كتب عليها «ب ب ستوكهولم».

قال لي: «إنه هنا».

كانت سيارة تاكسي أخرى واقفة عند المدخل لحظة وصولنا. توقف سائقنا خلفها. أعطيته بطاقتي المصرفية، ثم خرجت من السيارة، وأمسكت بيد ليندا لأساعدها على النزول والوقوف على قدميها في حين كان اندفع رجل وامرأة مسرعين قبلنا في اتجاه الباب. كان الرجل يحمل مقعدًا من مقاعد الأطفال الرضّع وحقيبة كبيرة.

أخذت الإيصال، ودسسته في جيبي الداخلي مع بطاقتي المصرفية، ثم لحقت بليندا في اتجاه المدخل.

وجدنا الزوج الذي سبقنا عند المصعد. وقفنا خلفهما بأمتار قليلة. مسّدت على ظهر ليندا. كانت تبكي.

قالت لي: «الأمر ليس مثل ما توقعت».

أجبتها: «لا تخافي، كل شيء بخير».

جاء المصعد فدخلناه بعد الزوجين الواقفين أمامنا. وفجأة، انحنت المرأة على نفسها وشدت أصابعها بقوة على القضيب المعدني تحت المرآة. أما الرجل فكان واقفًا ينظر إلى الأرض. كانت يداه مشغولتين بأحمالهما.

عندما وصلنا، قرع الرجل الجرس لاستدعاء العاملين. جاءت ممرضة وتبادلت بضع كلمات معهما أولًا ثم قالت لنا إن شخصًا غيرها سيأتي من أجلنا. وبعد ذلك رافقتهما ومضوا في الممر.

جلست ليندا على أحد الكراسي. أما أنا فوقفت أنظر في الممر. كانت الإنارة خافتة. رأيت أمام كل غرفة لافتة معلقة من السقف. كان ضوء أحمر ينير بعض هذه اللافتات من وقت لآخر. وكلما ظهر الضوء الأحمر، يسمع المرء إشارة صوتية خافتة أيضًا لكن فيها تلك الرنة المؤسساتية التي لا تخطئها الأذن. ومن حين لآخر، تظهر ممرضة ماضية في طريقها من غرفة إلى أخرى. كان أبٌ واقف في آخر الممر يحمل طفلًا رضيعًا بين يديه. بدا لي أنه يغني.

قالت ليندا: «لماذا لم تقل لهم إن الحالة طارئة؟ لا أستطيع البقاء جالسة هنا».

لم أجبها. كان ذهني فارغًا.

نهضت ليندا وقالت: «سوف أدخل».

قلت لها: «انتظري دقيقة أو دقيقتين. يعرفون أننا هنا».

لا فائدة من محاولة إيقافها. لحقت بها عندما سارت.

خرجت ممرضة من مكتب القسم وأتت لملاقاتنا. سألتنا: «هل أتى من يهتم بكما؟».

قالت ليندا: «لا! كان يجب أن يأتي أحد ما، لكني لم أر أحدًا بعد».

نظرت الممرضة إلى ليندا من فوق نظارتها.

قالت ليندا: «لم أحس حركة الجنين طيلة اليوم. لا شيء على الإطلاق».

قالت الممرضة: «ولهذا أنت قلقة الآن».

أومأت ليندا برأسها فاستدارت الممرضة ونظرت في الممر.

قالت لها: «ادخلي تلك الغرفة. إنها فارغة. وسوف يأتي من يهتم بك على الفور».

كانت الغرفة غريبة جدًا. لم أر فيها غيرنا نحن الاثنين. كانت كل حركة تقوم بها ليندا تخترقني مباشرة.

خلعتْ معطفها وعلقته على ظهر الكرسي، ثم جلست على الأريكة. سرت إلى النافذة ووقفت عندها أنظر إلى الأسفل، في اتجاه الطريق، إلى

سيل السيارات العابرة. كانت ندف الثلج المتساقطة تشبه أخيلة صغيرة غامضة خارج النافذة... لا تبدو ظاهرة للمرء إلّا عندما يحملها الهواء إلى دوائر الضياء تحت المصابيح في ساحة وقوف السيارات.

رأيت عند الجدار كرسيًا لفحص الأمراض النسائية. وإلى جانبه عدد من الأدوات المرتبة على رفوف يعلو أحدها الآخر مثل رفوف التسجيلات الموسيقية. وعلى رف آخر في الجهة المقابلة، رأيت جهاز تشغيل الأقراص المدمجة.

قالت ليندا: «هل تسمع؟».

جاء من خلف الجدار صوت صراخ خفيض مكتوم.

استدرت ونظرت إليها.

قالت لي: «لا تبكِ يا كارل أوفه!».

قلت: «لا أجد شيء آخر أفعله».

قالت: «سينتهي كل شيء على خير».

«هل أنت التي تهدّئين أعصابي الآن؟ كيف يكون هذا؟».

ابتسمت لي.

ومن جديد، ساد الصمت.

مرت بضع دقائق، ثم سمعنا قرعًا على الباب. دخلت ممرضة. طلبت من ليندا أن تستلقي على السرير. ثم كشفت عن بطنها ووضعت سماعتها الطبية عليه، وابتسمت.

قالت لها: «ليست لدينا أي مشكلة هنا. لكننا سنجري فحصًا بالأمواج فوق الصوتية حتى نكون واثقين تمامًا».

كانت ليندا مرتاحة سعيدة عندما خرجنا من المستشفى بعد نصف ساعة. أما أنا فكنت مرهقًا تمامًا. كنت أحس شيئًا من الحرج أيضًا لأننا أزعجنا الناس من غير ضرورة. بالنظر إلى كمية الناس الذين رأيتهم يدخلون أبواب هذا القسم، أدركُ أن لديهم الكثير مما يهتمون به هنا.

لماذا نصدق الاحتمال الأسوأ دائمًا؟

أما من ناحية أخرى... هكذا كنت أفكر عندما استلقيت إلى جانب ليندا في السرير واضعًا يدي على بطنها الذي صار الجنين فيه كبيرًا إلى حد لم يترك لها مجالًا للحركة... الأسوأ يمكن أن يحدث أيضًا: من الممكن أن تتوقف الحياة في الداخل، لأن هذا يحدث أحيانًا، وبما أن الاحتمال موجود (مهما يكن احتمالًا بسيطًا)، فإن الفعل الصحيح الوحيد هو التعامل مع الأمر بجدية من غير أن يترك المرء إحساسه بالحرج يستولي عليه، ومن غير خوف من إزعاج الناس.

عدت إلى مكتبي في اليوم التالي وتابعت كتابة قصة حزقيال التي بدأتها لكي أعيد صياغة مادة الملائكة على شكل قصة مثلما اقترح ثوريه إيريك محقًا، وذلك بحيث لا يكون الأمر مقالة عن الملائكة باعتبارهم ظاهرة من الظواهر. كانت نبوءات حزقيال غامضة غنية بالمبالغات، وأما أمر الرب له بأن يأكل «الدُّرج» المكتوب حتى تتحول الكلمات إلى لحم ودم فكان شيئًا لا يستطيع المرء مقاومة إغرائه على الإطلاق. وفي الوقت عينه، صار حزقيال نفسه ظاهرًا في الكتابة... النبي الممسوس الذي ملأت عقله صور يوم الدينونة وكان بؤس حياة الناس اليومية محيطًا به بكل ما يأتي به ذلك من جزع وشك ونقلات مفاجئة بين دواخل النبوءات حيث يُحرق الملائكة ويُذبح الناس، وبين خوارجها حيث نرى حزقيال واقفًا وفي يده حجر يراد منه أن يمثل أورشليم... واقفًا يرسم أشكالًا يريدها جيوشًا وقلاعًا وحصونًا... يفعل ذلك كله بأمر من الرب، يفعله أمام بيته وتحت أعين أهل المدينة. إنها تفاصيل النشور ذاتها: «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب!» ثم يقول الرب لهذه العظام: «ها أنا ذا أدخل فيكم روحًا فتحيون. وأضع عليكم عَصبًا وأكسيكم لحمًا وأبسط عليكم جلدًا». وبعد ذلك، عندما يتم الأمر: «فحَيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جدًا جدًا».

إنه جيش الموتى.

هذا ما كنت أفعله: كنت أحاول ابتداع شيء يتجاوز المادة التي في يدي لكن من غير كبير نجاح... ما كان لديّ إلّا قلة من العصيّ والصنادل والجمال

والرمل، لا شيء أكثر من هذا... أو ربما بضع شجيرات غريبة متفرقة، ومعها حقيقة أن معرفتي بتلك الثقافة تكاد تقارب الصفر في حين تنتظر ليندا في البيت وحيدة منشغلة بما كان يجري هناك على نحو مختلف عن انشغالي كل الاختلاف. مرَّ موعد الولادة المرتقب ولم يحدث شيء. كنت أتصل بها مرة كل ساعة تقريبًا، لكن لا... لا شيء جديدًا. لم نعد نتحدث في أي أمر آخر. ثم مضى أسبوع. كنا جالسين نشاهد التلفزيون في آخر شهر كانون الثاني عندما انفجر الماء. كنت أتخيل دائمًا أن هذا الحدث شيء دراماتيكي، مثل سد ينهار، لكنه لم يكن كذلك، بل كان: مقدار قليل من الماء الذي ما كانت ليندا واثقة تمامًا من دلالته. اتصلت بالمستشفى فكانوا في شك أيضًا. عادة، لا يكون هنالك أي مجال للشك عندما ينفجر الماء. لكنهم قالوا آخر الأمر إن من الأفضل أن نذهب إلى المستشفى. حملنا الحقيبة ومضينا إلى المستشفى في سيارة تاكسي. كان المستشفى محاطًا بأكوام الثلج نفسها، ساطع الإنارة كشأنه في المرة الأولى. وضعوا ليندا على كرسي الفحص النسائي، وفحصوها. أما أنا فرحت أنظر من النافذة إلى الطريق والسيارات المندفعة فيه وإلى السماء البرتقالية في الأعلى. جعلتني صرخة صغيرة من ليندا ألتفت إليها: إنها بقية ماء الرحم تخرج الآن.

بما أن شيئًا آخر لم يحدث، وبما التقلصات لم تبدأ حتى ذلك الوقت، فقد جعلونا نعود إلى البيت. إذا بقيَ الوضع على حاله، فسوف يجرون تحريضًا للولادة بعد يومين. هكذا صار لدينا موعد نهائي على الأقل! كانت ليندا أكثر توترًا من أن تستطيع النوم عندما عدنا إلى البيت، أما أنا فنمت كالقتيل. شاهدنا فيلمين في اليوم التالي، وذهبنا في نزهة طويلة على الأقدام في هموليغاردن، والتقطنا صورًا لنا نحن الاثنين بأن مددت أمامنا يدي الممسكة بالكاميرا: وجهانا المتوهّجان متقاربين، والحديقة من خلفنا راقدة تحت الثلج الأبيض. سخنّا واحدة من الوجبات الكثيرة التي وضعتها أم ليندا في الثلاجة لنستخدمها خلال الأسابيع الأولى. عندما كنت أُعد القهوة بعد الأكل، سمعت أنينًا طويلًا ممتدًا آتيًا من غرفة المعيشة. تركت

المطبخ مسرعًا فوجدت ليندا مطوية الجسم فوق الأريكة وهي تشد بيديها على بطنها. كانت تئن، لكن الوجه الذي نظر إليّ كان مبتسمًا.

انتصب جسمها ببطء.

قالت لي: «الآن بدأ الأمر. هل يمكنك تدوين الوقت حتى نعرف الزمن الفاصل بين التقلصات؟».

سألتها: «هل آلمك هذا؟».

«قليلًا. مؤلم، لكنه ليس ألمًا شديدًا».

ذهبت لآتي بورقة وقلم. كانت الساعة الخامسة وبضع دقائق. أتت موجة التقلصات التالية بعد ثلاث وعشرين دقيقة. ثم مرت نصف ساعة قبل أن تأتي مرة أخرى. استمر هذا طيلة المساء. وكانت الفترات الفاصلة بين تقلص وآخر متنوّعة، بينما ازداد الألم زيادة واضحة. وبعد أن ذهبنا إلى السرير في الحادية عشر ليلًا، بدأت ليندا تصرخ عندما تأتيها التقلصات. استلقيت إلى جانبها وحاولت مساعدتها لكني لم أعرف كيف. كانوا قد أعطوها جهازًا أطلقت عليه القابلة اسم «تنز» من المفترض أن يخفف الألم، وكان مؤلفًا من بعض الإلكترودات التي تثبت على الجلد في موضع الألم. تصل هذه الإلكترودات بآلة تتحكم بقوة الشحنات الكهربائية. حاولنا استخدامه بعض الوقت. كانت هنالك أسلاك كثيرة وبعض المفاتيح التي رحت أضغط عليها. لكن النتيجة النهائية لجهودي كانت إعطاءها بضع صدمات كهربائية جعلتها تصرخ متألمة غاضبة: «أوقف هذا الجهاز البائس!» قلت لها: «لا، لا. سوف أحاول مرة أخرى. هكذا... أظن أنه يعمل الآن». صاحت من جديد: «آآو، بحق الرب! ألا تفهم؟ إنها صدمات كهربائية. أبعده عني!». أبعدت الجهاز وحاولت تدليكها بدلًا من ذلك. وضعت على يدي زيتًا اشتريته لهذا الغرض، لكني لم أفلح أبدًا في تدليكها بطريقة تريحها... أعلى مما يجب أو أخفض مما يجب أو أخف مما يجب أو أقوى مما يجب! كان من بين الأشياء التي تمنت وجودها حوض استحمام كبير موجود في جناح الولادة يفترض أنه يساعد في تخفيف الألم عند

ملئه ماء حارًا لتستلقي المرأة فيه قبل الولادة الحقيقية. لكنها لم تعد الآن قادرة على استخدامه بعد خروج ماء الرحم، ولا يجوز لها أيضًا أن تستخدم حوض الاستحمام في البيت. إلّا أنها جلست فيه وجعلت ماء الدوش الحار جدًا يتدفق فوقها وراحت تئن وتتلوى كلما اجتاحتها نوبة ألم جديدة. كنت واقفًا هناك في غاية التعب، واقفًا تحت المصباح الساطع أنظر إليها من غير قدرة على الإحساس بإحساسها، ناهيك عن مساعدتها. لم نستطع النوم إلّا قبيل الفجر. ثم قررنا بعد ساعتين أن نذهب إلى المستشفى رغم أن ست ساعات كانت تفصلنا عن الموعد المقرر، ورغم أنهم شرحوا لنا بوضوح تام أن الزمن الفاصل بين التقلصات، إذا أردنا الذهاب قبل الموعد، يجب أن يكون قد انخفض إلى ثلاث أو أربع دقائق. كانت التقلصات تأتيها كل ربع ساعة تقريبًا. لكن الألم كان شديدًا بحيث جعلني غير قادر على تذكيرها بما قالوه لنا. سيارة تاكسي أخرى، في غبش الصباح الرمادي هذه المرة، ورحلة أخرى على الطريق السريع إلى مستشفى داندريد. عندما فحصوا ليندا قالوا إن عنق الرحم قد توسّع بمقدار ثلاثة سنتيمترات. فهمت أن هذا ليس توسّعًا كبيرًا، لكني فوجئت بأنه لم يتجاوز هذا المقدار رغم كل ما مرت به ليندا حتى الآن. كنت أظن أن الأمر سينتهي سريعًا. لكن لا! قالوا إن علينا أن نعود إلى البيت. إلّا أن المصادفة شاءت أن تكون لديهم غرفة شاغرة في ذلك الوقت. والظاهر أننا بدونا في حالة إرهاق شديد. وهكذا، سمحوا لنا بالبقاء هناك. قالوا لنا أن ننام، ثم أغلقوا الباب خلفهم.

قلت وأنا أضع الحقيبة على الأرض: «لا بأس، إننا هنا آخر الأمر، على الأقل. هل أنت جائعة؟».

هزت رأسها وقالت: «أريد دوشًا. هل تحب مشاركتي؟».

«نعم».

أتتها تقلصات جديدة عندما كنا واقفَين تحت ماء الدوش يحتضن أحدنا الآخر. انحنت وأمسكت بقضيب مثبت على الجدار وانبعث منها صوت كالذي سمعته الليلة الماضية في البيت أول مرة. مسَّدت ظهرها،

لكني أحسست أن ذلك كان أقرب إلى الإهانة منه إلى المساعدة. انتصبت واقفة فالتقت عيوننا في المرآة. بدا وجهانا مرهقين، خاويين تمامًا. قلت في نفسي: إننا وحيدان في هذا الأمر.

عدنا إلى الغرفة. ارتدت ليندا الملابس التي أعطوها إياها. أما أنا فاستلقيت على الأريكة. وبعد دقيقة واحدة، كنت غارقًا في نوم عميق.

بعد عدة ساعات من ذلك، دخلت غرفتنا مجموعة صغيرة من الأشخاص وبدأ تحريض الولادة. لم تكن ليندا راغبة في إعطائها أي مسكنات كيميائية فأعطيت، بدلًا من ذلك، شيئًا أطلقوا عليه اسم «حقنات الماء المعقّم»، وهي عبارة عن حقنات من الماء تحت الجلد على مبدأ مواجهة الألم بالألم. وقفت في وسط الغرفة ممسكة بيدي، بينما بدأت ممرضتان تحقنانها بالماء. صرخت وصاحت بأعلى صوتها! انبعث صراخها من عمق رئتيها، بينما حاولت الابتعاد بحركة غريزية، لكن الممرضتين ثبتتاها بأيديهما الخبيرة. دمعت عيناي عندما رأيتها تتألم هذا الألم كله. لكني كنت أحدس بأن هذا ليس شيئًا، وبأن أمامنا ما هو أسوأ. ثم إن ما اتضح حتى الآن هو أن عتبة الألم عند ليندا شديدة الانخفاض!

جلستْ في السرير في رداء المستشفى الأبيض بينما كانوا يُدخِلون في ذراعها إبرة متصلة بأنبوب بلاستيكي رقيق موصول بحامل معدني. قالوا إنهم يريدون مراقبة الجنين بسبب مادة التحريض، ولذلك فقد ثبتوا جهازًا كاشفًا صغيرًا امتد منه سلك يعبر السرير إلى آلة بالقرب من ليندا. سرعان ما ظهر رقم وامض على الشاشة. كان هذا نبض الجنين. وكأن هذا كله لم يكن كافيًا: ربطوا حزامًا حول ليندا كانت عليه حساسات موصولة إلى شاشة أخرى عن طريق سلك آخر. ظهر رقم وامض على تلك الشاشة أيضًا، ومن فوقه ظهر خط إلكتروني متموج كان يرتفع ارتفاعًا حادًا كلما بدأت التقلصات. كان شريط ورقي يخرج أيضًا من تلك الآلة وعليه الرسم البياني نفسه.

كان ذلك كله كما لو أنهم قرروا إطلاقها إلى القمر.

عند وضع المجس فوق رأس الجنين، صرخت ليندا من جديد فربّتت القابلة على خدها. لماذا يعاملونها معاملة الأطفال؟ هكذا تساءلت وأنا واقف في حالة عجز أنظر إلى كل ما صار يجري من حولي فجأة. هل كانت تلك المعاملة نتيجة الرسالة التي كتبتْها إليهم، الرسالة التي لعلها الآن راقدة في درج في مكان ما في غرفة الممرضات. كتبت في تلك الرسالة إنها في حاجة إلى كثير من الدعم والتشجيع رغم أنها قوية ورغم تفاؤلها بما سيحدث؟

التقت عيوننا عبر الأيدي الكثيرة التي فوقها فابتسمت لي. ابتسمت لها. شرحت لي ممرضة سوداء الشعر صارمة المظهر كيفية قراءة الشاشتين. كانت لضربات قلب الطفل أهمية خاصة: إذا ازدادت أو انخفضت بحدة فإن عليّ أن أضغط على زر استدعائهم. إلّا أن لا داعي إلى القلق إذا انخفضت قراءة النبض حتى الصفر لأن هذا يعني أن الجهاز قد فقد اتصاله. هل يعتزمون حقًا أن يتركونا وحدنا هنا؟ أردت أن أطرح هذا السؤال، لكني لم أفعل؛ ولم أسأل كم من الوقت سيطول هذا. أومأت برأسي بدلًا من ذلك. قالت القابلة إنها ستعود لرؤيتنا من وقت لآخر. وبعد ذلك، ذهبوا جميعًا.

قبل مضي وقت طويل، تقلص الزمن الفاصل بين التقلصات تقلصًا واضحًا. وبالنظر إلى ردات فعل ليندا، فهمت أن تلك التقلصات صارت أكثر قوة بكثير. صارت ليندا تصرخ، وبدأت تتحرك بطريقة مختلفة كأنها تبحث عن شيء ما. راحت تغير وضعها مرة بعد مرة؛ كانت مضطربة، وتصرخ. أدركت أنها تبحث عن طريقة لتجنب الألم. كان في هذا شيء حيواني!

انتهت موجة التقلصات، وهدأت ليندا.

قالت لي: «كارل أوفه، لا أظنني قادرة على هذا».

قلت: «بل أنتِ قادرة! / لا مشكلة. الأمر مؤلم، لكنه ليس مشكلة».

«إنه مؤلم كثيرًا! مؤلم إلى حد لعين!».

«أعرف هذا».

«هل يمكنك تدليكي؟».
«طبعًا يمكنني».
جلست وأمسكت بحاجز السرير الجانبي.
سألتها: «هنا؟».
قالت: «إلى الأسفل قليلًا».
بدأ الخط البياني على الشاشة يرتفع قليلًا.
ارتفع الخط البياني كأنه موجة. صرخت ليندا: «إلى الأسفل!» ثم غيّرت وضعيتها وبدأت تئن، غيّرت وضعيتها من جديد وشدت أصابعها على حاجز السرير، شدّتها بأقصى قوتها. وعندما بدأ انخفاض الخط البياني على الشاشة وتراجعت موجة الألم، رأيت نبض الجنين يزداد زيادة سرعة.
تهاوت ليندا مسترخية.
سألتها: «هل أراحك التدليك؟».
«لا».
قررت استدعاءهم إذا لم ينخفض نبض الجنين بعد موجة التقلص القادمة.
قالت لي: «لستُ قادرة على هذا».
قلت: «أنتِ قادرة. إنك تتدبرين الأمر جيدًا».
«ضع يدك على جبيني».
وضعت يدي على جبينها.
قلت: «ها هي موجة أخرى». شدت ظهرها، وأنّت، أطلقت صوتًا كالنواح، ثم صاحت، ثم استرخت من جديد. ضغطتُ الزر الأحمر فبدأ مصباح يومض فوق الباب.
قلت عندما صارت القابلة أمامي: «ازداد نبض الجنين كثيرًا».
قالت: «همم. علينا تخفيف التحريض قليلًا. قد يكون أكثر مما ينبغي».
التفتت إلى ليندا وسألتها: «كيف حالك؟».
قالت ليندا: «إن الألم فظيع! هل بقيَ أمامي طريق طويل؟».

هزت القابلة رأسها: «نعم، أمامك طريق طويل».

«يجب أن تعطوني شيئًا ما. لا أستطيع احتمال هذا. الوضع سيء. هل تظنين أنك تستطيعين إعطائي الغاز المضحك؟

قالت القابلة: «لا يزال الوقت مبكرًا. يزول تأثير الغاز بعد فترة قصيرة. من الأفضل أن نؤجله الآن».

قالت ليندا: «لكن الوضع سيء، أريده الآن. الوضع سيء!».

قالت القابلة: «سوف ننتظر قليلًا، لا بأس؟».

أومأت ليندا برأسها، وخرجت القابلة من الغرفة.

مرت الساعة التي تلت ذلك على النحو نفسه تقريبًا. كانت ليندا تبحث عن طريقة لتخفيف الألم، لكنها لم تعثر عليها. كانت كأنها تحاول الهرب من تلك الموجات التي تأتيها وتضربها. كانت رؤية ذلك شيئًا فظيعًا. وما كنت بقادر على فعل شيء غير أن أمسح عرقها وأضع يدي على جبينها وأحاول مترددًا أن أدلك ظهرها. في الخارج، في الظلمة التي حلت من غير انتباه، كان الثلج يهطل. صارت الساعة الرابعة صباحًا. أربع ساعات ونصف الساعة منذ بدء تحريض المخاض. هذا لا شيء... كنت أعرف ذلك. ألم يطل مخاض كاري آن عشرين ساعة أو نحو ذلك عندما ولدت إيلفا؟

سمعت نقرًا على الباب. دخلت الممرضة الهادئة ذات الشعر الأسود. قالت: «كيف حالكما؟».

كانت ليندا منطوية على نفسها، لكنها استدارت إلى القابلة وصاحت بها: «أريد الغاز الضاحك!».

فكرت القابلة قليلًا، ثم أومأت برأسها وخرجت. عادت بحاملٍ عليه زجاجتان. وضعته أمام السرير.

بعد بضع دقائق أمضتها في العبث هنا وهناك، صار الغاز جاهزًا. وضعت القناع في يد ليندا.

قلت لها: «أريد أن أفعل شيئًا. تدليك! هل يمكنك أن تُريني أين يكون التدليك مفيدًا؟».

بدأت التقلصات في تلك اللحظة فوضعت ليندا القناع على وجهها واستنشقت الغاز بشراهة بينما كان الجزء الأسفل من جسمها يتلوى ألمًا. وضعت القابلة يدي عند أسفل الفقرات القطنية في ظهر ليندا.

قالت لي: «هنا على ما يُفترض. هل فهمت؟».

قلت: «فهمت».

دلكت تلك المنطقة بالزيت، أما القابلة فخرجت وأغلقت الباب. وضعت إحدى يدي فوق الأخرى وضغطت على أسفل عمودها الفقري بأعلى راحة يدي.

صاحت ليندا: «نعم!»... كان صوتها مخنوقًا بفعل قناع الغاز... «هنا، نعم، نعم، نعم!».

استدارت ناحيتي عندما تراجعت التقلصات.

قالت لي: «الغاز المضحك شيء رائع».

أجبتها: «هذا جيد».

بعد ذلك، حدث شيء لها عندما جاءت التقلصات من جديد. لم تعد تحاول الهرب، ولم تعد تفتش عبثًا عن تفادي الألم بتلك الطريقة التي كانت رؤيتها تفطر القلب. حل عليها شيء جديد، وبدت كأنها تواجه الألم بدلًا من الفرار، بدا لي أنها صارت معترفة بوجوده وأنها صارت تقابله وجهًا لوجه وتدقق فيه جيدًا حتى تقوى عليه، مثلما يفعل حيوان (فكرت في هذه المقارنة من جديد)؛ لكن ذلك لم يكن على نحو عصبي طائش مذعور لأن الألم صار يأتيها الآن فتقف ممسكة قضيب السرير بيديها الاثنين وتحرك ردفيها إلى الأمام والخلف وهي تصرخ من داخل قناع الغاز وتكرر الأمر نفسه في كل مرة. كان ذلك يتكرر ويتكرر ويتكرر. توقف قصير، قناعها في يدها، جسدها على الفراش. ثم تأتي موجة الألم التي كنت أراها على الشاشة قبل أن تصلها بلحظة قصيرة فأدلكها بأقصى قوتي؛ ثم تنهض وتتأرجح إلى الأمام والخلف وتصرخ إلى أن تتراجع الموجة فتستلقي على السرير من جديد. الآن، ما عاد أي تواصل معها ممكنًا فقد اختفت تمامًا داخل ذاتها

وما عادت ترى شيئًا حولها. كان تركيزها كله منصبًا على مواجهة الألم، ثم الاستراحة، ثم مواجهة الألم، ثم الاستراحة من جديد. عندما دخلت القابلة بعد ذلك، تكلمت معي كأن ليندا ليست موجودة. كان هذا حقيقيًا، على نحو غريب، فقد بدا لي أنني بعيد عنها مسافة كبيرة جدًا. لكنها لم تكن غائبة تمامًا لأنها تصرخ فجأة بصوت لا تقصد أن يكون مرتفعًا إلى ذلك الحد. فتقول: «ماء» أو «منشفة». ثم تصرخ «شكرًا!» بعد حصولها على ما طلبته.

أوه، كم كانت أمسية غريبة، وكم كانت ليلة غريبة! كانت الظلمة كثيفة في الخارج تزيدها ندف الثلج المتساقطة ثقلًا. وكانت الغرفة مليئة بلهاث ليندا وهي تتنفس في القناع، ثم بصيحاتها المزمجرة الضخمة عندما تصل التقلصات ذروتها. ثم صفير الشاشات الإلكترونية إلى جانب ذلك كله. لم أكن أفكر بالجنين، بل لم أكن أفكر في ليندا، تقريبًا، لأن كل شيء في داخلي كان يحاول التركيز على التدليك... تدليك خفيف عندما تكون ليندا مستلقية، ثم تدليك أقوى عندما تبدأ الموجات الإلكترونية ارتفاعها. كانت تلك الموجات إشارة تجعل ليندا تنهض واقفة فأبدأ التدليك بأشد ما أستطيع حتى تخبو الموجة من جديد. كانت عيني تتابع شاشة نبض الجنين متابعة مستمرة. أرقام وخطوط بيانية وزيت التدليك ومنطقة العجز في ظهر ليندا ولهاثها وصراخها... كان هذا كل شيء. ثانية بعد ثانية، ودقيقة بعد دقيقة، وساعة بعد ساعة... كان هذا كل شيء. كانت اللحظة تبتلعني تمامًا وكأن الزمن لا يجري؛ لكنه كان جاريًا، وكلما حدث شيء يخالف المعتاد أجد نفسي خارج ذلك التكرار. دخلت ممرضة، وسألتني إن كانت الأمور تسير على ما يرام فاكتشفت فجأة أن الساعة قد بلغت الخامسة وعشرين دقيقة. جاءت ممرضة أخرى وسألتني إن كنت أريد طعامًا فاكتشفت أن الساعة قد بلغت السابعة وخمسًا وعشرين دقيقة.

سألتها مستغربًا: «طعام؟» كأنني لم أسمع هذه الكلمة من قبل.

قالت الممرضة لي: «نعم، يمكنك الاختيار بين اللازانيا النباتية واللازانيا مع اللحم».

قلت: «أوه، شيء لطيف! أريد اللازانيا مع اللحم».

بدت ليندا كأنها لم تلاحظ على الإطلاق وجود أحد في الغرفة. جاءتها موجة جديدة. خرجت الممرضة وأغلقت الباب خلفها. أما أنا فضغطت بيدي على ظهر ليندا بأقصى قوة استطعتها، ثم راقبت الشاشة إلى أن رأيت الموجة تنخفض. لم تنزع ليندا القناع عن وجهها، فنزعته عنها بحذر. لم تظهر عليها أي ردة فعل. ظلت واقفة في مكانها تحدق داخل نفسها والعرق يقطر من حاجبيها. وعندما بدأت موجة التقلصات التالية خرج منها صراخ متواصل مكتوم بفعل القناع الذي كانت تضغطه بقوة على وجهها. ثم انفتح الباب، ووضعت الممرضة طبقًا على الطاولة. كانت الساعة السابعة. سألت ليندا إن كانت تسمح لي بالأكل فأومأت برأسها. لكنها صرخت لحظة أبعدت يدي عنها... «لا، لا تفعل ذلك!» فتابعت، وضغطت على الزر. جاءت الممرضة نفسها فسألتها إن كانت تستطيع أن تتولى المساج بدلًا مني. قالت: «بالطبع»، واستأنفتْ تدليكها. صرخت ليندا: «لا، يجب أن يكون كارل أوفه! يجب أن يكون كارل أوفه! هذا أضعف مما يجب!» ابتلعت الطعام بأسرع ما استطعت فصرت قادرًا على استئناف التدليك بعد دقيقتين؛ وعادت ليندا إلى تكرار الدورة نفسها.

تقلصات، وغاز، وتدليك، وتوقف، وتقلصات، وغاز، وتدليك، وتوقف. لا شيء آخر! ثم جاءت القابلة فقلبت ليندا على جانبها بحركة توحي بالسلطة، وفحصتها لترى مقدار توسع عنق الرحم. صرخت ليندا... كانت تلك صرخة مختلفة... صرخة تركتها تستمر إلى آخرها ولم تلاقِها في منتصف الطريق.

نهضت من جديد، وعادت إلى التكرار نفسه. غابت عن هذا العالم. ومرت الساعات.

صرخت فجأة: «هل نحن وحدنا؟».

أجبتها: «نعم».

«أحبك يا كارل أوفه!».

بدت تلك العبارة آتية من من مكان عميق في داخلها، من مكان لم تزره من قبل، أو من مكان لم يكن موجودًا من قبل. اغرورقت عيناي.

أجبتها: «وأنا أحبك»، لكنها لم تسمعني لأن موجة تقلصات أخرى قد بدأت.

مرت الساعات: الساعة الثامنة، الساعة التاسعة، الساعة العاشرة. كان رأسي خاليًا من أي فكرة؛ وكنت أدلكها وأراقب الشاشتين إلى أن لمعت الفكرة في رأسي: تجري الآن ولادة طفل! تجري الآن ولادة طفلنا! بضع ساعات أيضًا، وسيكون لدينا طفل.

اختفت تلك الفكرة، وعاد كل شيء خطوطًا وأرقامًا ويدين وظهرًا، وإيقاعًا متكررًا، وصراخًا.

انفتح الباب. دخلت قابلة أخرى. امرأة متقدمة في السن. تسير من خلفها فتاة شابة. اقتربت القابلة من ليندا وصار وجهها على مسافة سنتيمترات قليلة من وجه ليندا، ثم قالت لنا اسمها. قالت أيضًا إن ليندا تبلي بلاء حسنًا، وقالت إن الفتاة التي معها متدربة جديدة، فهل نحن موافقان على وجودها؟ أومأت ليندا برأسها موافقة ونظرت من حولها بحثًا عن المتدربة، ثم أومأت برأسها تحية لها عندما رأتها. قالت القابلة إن الأمر سينتهي قريبًا. وقالت إن عليها أن تفحصها.

وافقت ليندا ونظرت إليها مثلما تنظر طفلة إلى أمها.

قالت القابلة: «عظيم... أنت فتاة طيبة».

لم تصرخ ليندا هذه المرة. استلقت وحدّقت عيناها الكبيرتان المظلمتان في الهواء. مسّدتُ جبينها. ما كانت منتبهة إلى وجودي. عندما أبعدت القابلة يدها، صرخت ليندا: «هل وصلنا؟».

قالت القابلة: «لا يزال أمامنا القليل». وبصبر، نهضت ليندا واستعادت وضعها السابق.

قالت لي القابلة: «بقيت ساعة، أو ربما أقل من ساعة».

نظرت إلى ساعتي. الحادية عشر.

ليندا واقفة هناك منذ ثماني ساعات.

قالت القابلة وهي تزيل كل ما على ليندا من أربطة وأسلاك: «يمكننا الآن إزالة هذه الأشياء كلها». صارت ليندا حرة على نحو مفاجئ فجلست هناك... جسد على سرير... ما عاد الألم الذي تواجهه موجات خضراء وأرقامًا متصاعدة على شاشة أنظر إليها، بل صار شيئًا يحدث في داخلها فقط.

لم أدرك هذا من قبل. إنه في داخلها... إنها وحدها تمامًا في مواجهته.

هكذا كان الأمر!

لقد كانت حرة! وكل ما حدث، حدث في داخلها.

قالت: «إنها آتية الآن». جاءت الإشارة من داخلها. ضغطتُ على ظهرها بأقوى ما استطعت. الآن، ما كان هنالك إلّا هي، وداخلها. ما كان هنالك مستشفى، وما كانت هنالك شاشات، وما كانت كتب، وما كانت هنالك دراسات طبية ولا أشرطة تسجيل ولا تلك الممرات كلها التي تسير فيها أفكارنا... لا شيء من هذا... فقط هي وحدها وما في داخلها.

صار جسدها زلقًا لكثرة التعرّق، وصار شعرها مشعّثًا؛ كان ثوب المستشفى الأبيض فضفاضًا متدليًا من حولها. قالت القابلة إنها ستعود بعد دقيقة. بقيت المتدربة في الغرفة. مسحت جبهة ليندا، وأعطتها الماء لتشرب، ثم أعطتها قطعة شوكولاتة فاختطفتها ليندا من يدها بشراهة. إنها موشكة على الولادة. لا بد أنها تحس هذا لأنها كانت نافذة الصبر خلال التوقفات القصيرة التي تقلصت الآن إلى لحظات قصيرة.

عادت القابلة. وخففت الإضاءة في الغرفة.

قالت لها: «تمددي على السرير وارتاحي». استلقت ليندا. داعبت القابلة خدها. ذهبت لأنظر من النافذة فلم أرَ سيارة واحدة على الطريق في الأسفل. كان الهواء من حول المصابيح مفعمًا بالثلج المتساقط. كانت الغرفة هادئة تمامًا. استدرت. بدت ليندا نائمة.

ابتسمت لي القابلة.

أنّت ليندا. أمسكت القابلة بذراعها فجلست. كانت عيناها قاتمتين مثل غابة في الليل.

قالت القابلة: «ادفعي الآن!».

حدث شيء جديد. كان هنالك شيء مختلف لم أفهم ما هو، لكني وقفت خلفها وبدأت أدلك ظهرها من جديد. استمرت التقلصات، واستمرت. وكانت ليندا تمسك بقناع الغاز فتستنشق منه أنفاسًا عميقة شرهة. بدا لي أن الغاز ما عاد مفيدًا لها، وبدا لي أن صرخة متطاولة من غير نهاية تنطلق منها... استمرت الصرخة، واستمرت.

ثم هدأت. ارتمت ليندا مستلقية على الفراش. مسحت القابلة العرق عن جبينها، ثم امتدحتها... فتاة طيبة!

قالت لها: «هل تريدين لمس الطفل؟».

نظرت ليندا إليها وحنت رأسها ببطء. انتصبت على ركبتيها. أمسكت القابلة بيدها وقادتها بين ساقيها.

قالت لها: «هذا هو الرأس، هل تشعرين به؟».

قالت ليندا: «نعم!».

«دعي يدك هناك وأنت تدفعين. هل تستطيعين فعل هذا؟ تعالي وقفي هنا». قالت هذا وهي تساعد ليندا لتقف على الأرض.

أبعدت المتدربة الكرسي الذي كان إلى جانب الجدار.

هبطت ليندا على ركبتيها. وقفت خلفها رغم إحساسي بأن التدليك ما عادت له أهمية الآن.

صرخت من أعمق مكان في رئتيها وتحرك جسدها كله وهي ممسكة برأس الوليد في يدها.

قالت القابلة: «خرج الرأس. مرة أخرى. ادفعي».

سألتها ليندا: «هل خرج الرأس؟! هل كان هذا ما قلتيه؟».

«نعم، ادفعي الآن».

صدرت عنها صرخة أخرى؛ كانت كأنها أعلى من كل شيء.

نظرت القابلة إليّ وسألتني: «هل تريد تلقّي الوليد؟».
قلت: «نعم».
قالت: «تعال، قف هنا».
درت حول الكرسي ووقفت أمام ليندا التي كانت تنظر إليّ ولا تراني.
قالت القابلة: «مرة أخرى. ادفعي الآن يا حبيبتي. ادفعي».
غرقت عيناي في الدموع.
انزلق الوليد خارجًا منها كأنه فقمة صغيرة فصار بين يدي.
صحت: «أووووه! أووووه!».
كان الجسد الصغير حارًا زلقًا. كاد ينزلق من بين يدي، لكن المتدربة الشابة بادرت إلى مساعدتي.
كانت ليندا تسأل: «هل خرجَتْ؟ هل خرجتْ؟».
قلت لها: «نعم»، ثم رفعتُ الجسد الصغير إليها فوضعته على صدرها.
بكيت فرحًا فنظرت ليندا إليّ للمرة الأولى منذ ساعات كثيرة، وابتسمت لي.
سألتها: «ما هو؟».
قالت: «بنت يا كارل أوفه. إنها بنت».
كان لها شعر طويل أسود ملتصق على رأسها. وجلدها شمعيًا ضاربًا إلى اللون الرمادي. زعقت باكية. لم أسمع من قبل صوتًا مثل هذا، إنه صوت ابنتي! كنت فوق قمة العالم حيث لم أكن أبدًا من قبل... كنا على قمته، على قمة العالم. كان كل شيء هادئًا من حولنا، وكان كل شيء مظلمًا من حولنا، لكننا كنا هنا، القابلة والمتدربة وليندا وأنا والطفلة الصغيرة، لقد كانت هي النور.
القابلة والمتدربة ساعدتا ليندا في العودة إلى السرير. وجدت لنفسها وضعًا مناسبًا على ظهرها. أما صغيرتنا التي صار جلدها الآن أكثر حمرة، فرفعت رأسها ونظرت إلينا.
كانت عيناها كأنهما مصباحين سوداوين.

قالت ليندا: «مرحبًا... هذان نحن...».

رفعت الطفلة ذراعها ثم خفضتها من جديد. كانت الحركة أشبه بحركات الزواحف، أشبه بحركة تمساح أو سحلية. ثم رفعت يدها الأخرى. إلى الأعلى، إلى الخارج قليلًا، ثم إلى الأسفل. كانت العينان السوداوان تنظران مباشرة إلى ليندا.

قالت ليندا: «نعم، أنا أمك، وها هو أبوك! هل تستطيعين رؤيتنا؟».

بدأت المرأتان ترتبان الأشياء من حولنا ونحن ننظر إلى هذا المخلوق الذي صار موجودًا هنا فجأة. كان الدم على بطن ليندا وعلى ساقيها. وكانت الصغيرة مكسوة بالدم أيضًا. أتت منهما رائحة حادة، رائحة معدنية على نحو ما. لم تتراجع غرابة تلك الرائحة مع كل نفَس أستنشقه.

وضعت ليندا الطفلة على صدرها، لكنها لم تكن مهتمة بالصدر. كانت منشغلة بالنظر إلينا. دخلت القابلة بصينية طعام: كأس من عصير التفاح وفطيرة سويدية. أخذت الطفلة لتقيس وزنها وطولها ريثما نتناول طعامنا. زعقت الصغيرة، لكنها هدأت عندما وضعتها على صدر ليندا. ذلك الإشراق في ليندا، وذلك الرفق التام الذي حل في كل حركة من حركاتها... كنت أرى تلك الأشياء أول مرة.

قلت لها: «هل هي فانيا؟».

نظرت ليندا إلينا: «نعم، بالطبع. ألا ترى هذا؟».

قلت: «مرحبًا يا فانيا الصغيرة»... ونظرت إلى ليندا... «تبدو كأنها شيء وجدناه في الغابة».

هزت ليندا رأسها: «إنها قزمتنا الصغيرة».

اقتربت القابلة من السرير وقالت: «حان وقت ذهابكما إلى غرفتكما. ربما تحبان إلباسها ثيابها؟».

نظرت ليندا إلي: «هل تفعل ذلك؟».

أومأت برأسي. حملت الجسد الصغير النحيل ومددته على السرير، ثم أخرجت البيجاما من الحقيبة وبدأت ألبسها إياها بحذر شديد. أما هي فراحت تبكي بصوتها الصغير غير المألوف.

قالت القابلة لليندا: «أنت ماهرة حقًا في الولادة. عليك أن تكرريها!».
قالت ليندا: «شكرًا لك. أظن هذا أجمل مديح تلقيته في حياتي».
«فكري في البداية الحسنة التي نالتها. سوف يظل هذا معها طيلة طريقها في الحياة».
«هل تظنين هذا؟».
«أوه، نعم. لا شك أبدًا في أن لهذا معنى. لا بأس الآن، تصبحان على خير. أهنئكما. قد أراكما صباح الغد، لكن ليس بالتأكيد».
قالت ليندا: «أشكرك كثيرًا كثيرًا. كنتم رائعين، كلكم».
وبعد دقائق قليلة، كانت ليندا تسير بخطى ثقيلة في الممر متجهة إلى الغرفة، وكنت ماشيًا إلى جانبها حاملًا فانيا إلى صدري. كانت تنظر إلى السقف بعينين مفتوحتين على اتساعهما. دخلنا الغرفة، وأطفأنا الضوء. وآوينا إلى الفراش. استلقينا وقتًا طويلًا ونحن نتحدّث عما حدث. وطيلة الوقت، كانت ليندا تضع فانيا على صدرها رغم أن فانيا لم تبدِ اهتمامًا كبيرًا بذلك.
قلت: «والآن، لن تجدي نفسك أبدًا خائفة من أي شيء».
قالت ليندا: «هذا ما أحسه تمامًا».
نامتا آخر الأمر، وبقيت مستيقظًا مُترعًا بنفاد الصبر والحاجة إلى فعل شيء ما. لم أكن قد فعلت شيئًا! لعل هذا هو السبب. نزلت بالمصعد إلى الأسفل. جلست في البرد خارج المستشفى ودخنت سيجارة، ثم اتصلت بأمي.
قلت: «مرحبًا. هذا أنا، كارل أوفه».
ردّت بسرعة: «كيف هو الوضع؟ هل أنتما في المستشفى؟».
«نعم، لقد أتتنا بنت». قلت هذا وتكسّر صوتي وانقطع.
قالت أمي: «أوووه! تخيل هذا، بنت! هل ليندا بخير؟».
«نعم، سار كل شيء على نحو جيد حقًا. نعم، سار على نحو جيد. كل شيء بخير تمامًا».

قالت: «أهنئك يا كارل أوفه. هذا خبر رائع!».

«نعم، أردت إخبارك فقط. سنتحدث مجددًا يوم غد. إنني... نعم... لست واثقًا من أنني أستطيع قول الكثير الآن».

قالت: «أفهم هذا. بلّغ ليندا حبي وتهنئتي».

قلت: «سأبلغها»، ثم اتصلت بوالدة ليندا. بكت عندما أخبرتها. أشعلت سيجارة أخرى وقلت لها ما قلته لأمي. ثم اتصلت بإنغفه. أشعلت سيجارة أخرى. كان الحديث معه أكثر سهولة. سرت عدة دقائق متجولًا في ساحة وقوف السيارات المضاءة حاملًا الهاتف إلى أذني. كنت أشعر بالدفء رغم أن درجة الحرارة تزيد عن عشر درجات تحت الصفر، ورغم أنني أرتدي قميصًا فقط. أغلقت الهاتف، ونظرت من حولي، نظرت إلى ما حولي كله... أردت أن يستجيب كل ما هو حولي لما كان في داخلي، أردته أن يستجيب على نحو ما، لكنه لم يستجب. بدأت السير من جديد. سرت جيئة وذهابًا. أشعلت سيجارة أخرى، ثم رميتها بعد نفَسين وجريت إلى مدخل المستشفى. لم أفكر في تلك اللحظة إلّا في أنهما هناك، في الأعلى! إنهما هناك الآن! الآن!

كانت ليندا نائمة والصغيرة فوقها. نظرت إليهما برهة، ثم أخرجت دفتري وأضأت المصباح. جلست على الكرسي وحاولت كتابة شيء عما جرى. لكن ذلك كان محاولة غبيةً تمامًا؛ لم ينجح الأمر. بدلًا من ذلك، ذهبت إلى غرفة مشاهدة التلفزيون وتذكرت فجأة أن على المرء أن يغرس دبوسًا في لوحة مسجل عليها تاريخ ولادة كل طفل: دبوس وردي للبنات، ودبوس أزرق للصبيان. فعلت ذلك. غرست دبوسًا من أجل فانيا الجميلة. سرت في الممر جيئة وذهابًا عدة مرات، ثم نزلت بالمصعد من أجل سيجارة أخرى. صارت السيجارة سيجارتين، ثم عدت إلى الغرفة واستلقيت في السرير. لم أستطع النوم. تفتح شيء في داخلي. وفجأة، صرت متقبلًا كل شيء، وصار العالم الذي من حولي غنيًا بالمعاني. كيف لي أن أنام؟

لكني نمت آخر الأمر.

كان هذا جديدًا كله، وكان هشًا إلى حد جعل مجرّد إلباسها ثيابها مشروعًا ضخمًا. أتت هيلينا لأخذنا من المستشفى. انتظرت في الأسفل نصف ساعة ريثما صارت فانيا جاهزة. لكنها ضحكت عندما خرجنا من المصعد وقالت لنا: «هل تأخذونها إلى الخارج في هذا الجو البارد بهذه الملابس فقط؟».

آه، لم نكن قد فكرنا في هذا.

دثرتها هيلينا بسترتها الدافئة. ثم جرينا عبر ساحة وقوف السيارات. كان فانيا تتأرجح جيئة وذهابًا في مقعدها الذي حملته بيدي. صرنا وحدنا في الشقة. وبدأت ليندا تبكي. جلست حاملة فانيا بين ذراعيها وبكت، بكت كل ما كان حسنًا في حياتها وبكت كل ما كان سيئًا في حياتها. أما أنا فكنت مفعمًا بذلك الدافع الشديد إلى فعل شيء ما: لم أستطِع الجلوس في مكاني، كان عليّ أن أفعل شيئًا، أن أطبخ أو أغسل الأطباق أو أجري إلى الخارج لأتسوق، أي شيء فيه حركة. من ناحيتها، ما كانت ليندا تريد غير أن تظل ساكنة من غير حركة والطفلة على صدرها. لم يفارقنا الضوء، ولم يفارقنا الصمت. كان ذلك كأن واحة من السلم قد انبثقت من حولنا.

كان هذا استثنائيًا، رائعًا.

أمضيت الأيام العشرة التي تلت ذلك ممتلئًا بالسلام والصفاء، إلى جانب ذلك الدافع المنفلت لفعل شيء ما. ثم كان عليّ أن أبدأ العمل من جديد. كان عليّ أن ألقي كل ما حدث جانبًا وأن أعود إلى الشقة مباشرة لأكتب عن حزقيال. أفتحُ الباب بعد الظهر وأدخل على الأسرة الصغيرة. أقول في نفسي إن هذه أسرتي الصغيرة.

سعادة!

بدأت الحياة اليومية ترسم مجراها بنفسها مع مختلف المتطلبات الجديدة التي أتت بها طفلتنا الصغيرة. قلقت ليندا لأنها ستكون وحدها معها. لم يعجبها ذلك، لكني كنت مضطرًا للعمل: يجب أن تكون الرواية منتهية في الخريف؛ نحن في حاجة إلى المال.

لكن رواية عن الصنادل والجمال... لن ينجح هذا.

كنت قد كتبت مرة في أحد دفاتري: «الكتاب المقدس مطبَّقًا في النرويج» و«إبراهام على تلال سيتسدال». كانت تلك فكرة حمقاء، لكنها أصغر مما ينبغي وأكبر مما ينبغي من أجل رواية. إلّا أنها عادت إلى ذهني الآن وكنت محتاجًا إليها بطريقة مختلفة تمامًا. قلت في نفسي: «إلى الجحيم بهذا كله. سوف أبدأ وأرى ما يحدث. كان لديّ قايين يضرب صخرة بمطرقة ثقيلة وقت الغسق في محيط اسكندنافي. سألت ليندا إن كنت أستطيع أن أقرأ لها هذا فقالت: «نعم، بالتأكيد». قلت: «لكنه شيء غبيّ إلى حد لا يصدق». قالت: «أتعرف أن هذا ما تقوله غالبًا عندما تكون قد كتبت شيئًا جيدًا». قلت: «ربما، لكن ليس هذه المرة». قالت لي من كرسيها: «هيا الآن، اقرأ! اقرأ ما كتبت!» ثم ظلت تكرّر القول إن هذا رائع إن هذا رائع جدًا... عليك أن تتابع! تابعت وظللت أكتب حتى يوم تعميد فانيا في شهر أيار. جرى التعميد عند أمي في يولستر. وعندما عدنا إلى السويد، ذهبنا إلى إيدو في الأرخبيل القريب من فاسترفيك حيث كان زوج إنغريد، فيدار، يملك بيتًا صيفيًا. كانت ليندا وإنغريد تبقيان مع فانيا بينما أجلس وأكتب. كان ذلك في حزيران. وكان عليّ إنهاء الرواية كلها خلال ستة أسابيع. صحيح أن حكاية قايين وهابيل صارت جاهزة، إلّا أنها لا تزال أصغر مما ينبغي. كذبت على المحرّر للمرة الأولى وقلت له إن اللمسات الأخيرة هي كل ما بقيَ لي. أما في الحقيقة فقد انطلقت في قصة كنت أعرف أنها ستصير رواية حقيقية. كنت أكتب كرجل أصابه مسٌّ... لن ينجح الأمر، أبدًا، أبدًا! كنت أتناول الغداء والعشاء مع ليندا والآخرين، وأشاهد مباريات بطولة كرة القدم معها في الأمسيات. أما خارج تلك الأوقات، فكنت أجلس في غرفة صغيرة أنقر على لوحة المفاتيح طيلة الوقت. وبعد عودتنا من آيدو، أدركت أن ذلك سيكون كل شيء أو لا شيء. قلت لليندا إنني سأنتقل للعيش في المكتب لأن عليّ أن أستمر في الكتابة ليل نهار. قالت إنني لا أستطيع فعل هذا، وإن هذا غير ممكن. قالت إن لديّ أسرة الآن... أمْ أنني نسيت؟ الوقت صيف، أم أنني نسيت؟ هل تنتظر مني أن أعتني بابنتك وحدي؟ قلت لها: «نعم.

هكذا هو الأمر». قالت: «لا، ليس الأمر هكذا. لن أسمح لك». قلت: «لا بأس، لكني سأفعل ما قلته لك على أي حال».

وقد فعلته!

كنت في حالة هوس تام. وكنت أكتب طيلة الوقت. أنام في اليوم ساعتين أو ثلاث ساعات. وما عاد هنالك من معنى لأي شيء غير الرواية التي أكتبها. ذهبت ليندا إلى أمها وكانت تتصل بي عدة مرات في اليوم الواحد. كانت في غاية الغضب، وكانت تصرخ في الهاتف، تصرخ حقًا، وتصرخ. لكني أبعد سماعة الهاتف عن أذني وأواصل الكتابة. قالت إنها ستتركني. فقلت لها اذهبي؛ لست أبالي. إن عليّ أن أكتب! كان هذا صحيحًا. عليها أن تذهب إن كانت تريد ذلك. قالت إنها ستذهب وإنني لن أراها بعدها. فقلت لها «لا بأس». كنت أكتب عشرين صفحة في اليوم. ولم أكن أرى حروفًا ولا كلمات ولا أشكالًا. كنت لا أرى إلّا ذلك الريف والناس. وكانت ليندا تتصل وتصرخ وتقول إنني أبٌ غير مسؤول، وتقول إنني ابن حرام، وتقول إنني وحش من غير مشاعر، وتقول إنني أسوأ إنسان في الأرض وإنها تلعن اليوم الذي رأتني فيه. وكنت أقول لها: «لا بأس! اتركيني إذن. لست أبالي». كنت أعني ما أقول... وما كنت مباليًا بشيء. وما كان لأحد أن يقف في طريق هذا. كانت ترمي سماعة الهاتف ثم تتصل بعد دقيقتين لتواصل شتمي وتقول إنني صرت وحدي وإنها ستربي فانيا وحدها. أقول لها: «لا مشكلة عندي». كانت تبكي وترجوني وتتوسّل إليّ وتقول إنني أفعل بها أسوأ ما يمكن أن يفعله أي إنسان... أتركها وحيدة. لكني ما كنت أبالي؛ كنت أكتب ليل نهار. وفجأة، على غير انتظار، اتصلتْ وقالت إنها آتية إلى البيت في اليوم التالي وإن عليّ أن ألاقيهما في محطة القطار!

نعم، سألاقيهما.

وفي المحطة، أتت في اتجاهي تجر فانيا النائمة في عربتها فحيّتني تحية جافة وسألتني عن أحوالي. قلت لها إن كل شيء يسير كما ينبغي. قالت إنها آسفة على كل شيء. وبعد أسبوعين من ذلك، اتصلتُ بالناشر

لأقول إن الرواية انتهت. انتهت بأعجوبة ما في اليوم المحدد بالضبط، في الموعد النهائي الذي وضعته دار النشر، في الأول من آب. وعندما عدت إلى البيت، كانت واقفة في الممر وفي يدها كأس من نبيذ بروسيكو من أجلي، وأغنيتي المفضلة منبعثة من غرفة المعيشة، وأكلتي المفضلة على الطاولة. لقد انتهيت، وصارت روايتي مكتوبة على الورق. لكن ما عشته لم يكن قد انتهى... ذلك المكان الذي شعرت أنني كنت فيه. سافرنا إلى أوسلو، وذهبت إلى المؤتمر الصحفي، سكرت على العشاء بعد ذلك، سكرت سكرًا جعلني أنطرح أرضًا وأتقيأ ما بجوفي في غرفة الفندق طيلة الصباح. وبالكاد استطعت الذهاب إلى المطار حيث تأخرت الطائرة فكانت تلك القشة الأخيرة بالنسبة إلى ليندا. وبّخَتْ موظفي شركة الطيران توبيخًا شديدًا فخبأت وجهي بين يدي. هل عدنا إلى هذا؟ ذهبت بنا الطائرة إلى برينغلاندساسن حيث كانت أمي تنتظرنا. وفي الصباح التالي خرجنا في نزهات طويلة على الأقدام تحت الجبال الجميلة، وكان كل شيء رائعًا، كان كل شيء كما يجب أن يكون، لكنه لم يكن جيدًا إلى الحد الكافي... كان في نفسي حنين إلى العودة إلى حيث كنت. وكان يؤلمني الحنين إلى ذلك المكان السعيد المتوحّد المهووس.

عندما عدنا إلى السويد، بدأت ليندا سنتها الدراسية الثانية في معهد الدراما. أما أنا فبقيت في البيت لكي أرعى فانيا. كانت ترضع حتى الشبع في الصباح. وكنت أذهب بها إلى معهد الدراما وقت الغداء حيث ترضع حتى تمتلئ من جديد. وفي المساء تعود ليندا على دراجتها بأسرع ما تستطيع. ما كان لي أن أشتكي من شيء لأن كل شيء كان حسنًا: لقي الكتاب استقبالًا حسنًا، وبيعت حقوق النشر لعدد من الناشرين الأجانب. وبينما كان ذلك يحدث، كنت أدفع العربة في أرجاء مدينة ستوكهولم وفيها ابنتي التي أحبها أكثر من أي شيء آخر. بينما تجلس حبيبتي الحقيقية في غرفة الصف توّاقة إلى أن تكون معنا.

سار الخريف إلى الشتاء، إلى حياة مع طعام الأطفال وملابس الأطفال

وبكاء الأطفال وتقيؤ الأطفال، وإلى صباحات مهدورة تمامًا وأمسيات فارغة بدأت تفعل فعلها. لكني ما كنت قادرًا على الشكوى، وما كنت قادرًا على قول شيء. كان عليّ أن أطبق فمي وأفعل ما ينبغي فعله. وفي بنايتنا، استمرّت الإزعاجات الصغيرة على حالها. لم يفلح ما حدث ليلة رأس السنة في تغيير موقف جارتنا الروسية منّا. تبيّنت لي سذاجة فكرة أنها ستكف عن بذل غاية جهدها من أجل تعذيبنا؛ بل حدث ذلك في واقع الأمر، وازداد تواتر الإزعاجات. إذا شغلنا الراديو في النوم ذات صباح، وإذا سقط من يدي كتاب على الأرض، وإذا دققت مسمارًا في الجدار، فإنني أسمع الطرق على أنابيب التدفئة بعد ذلك على الفور. تركت ذات مرة حقيبة «إيكيا» فيها ملابس نظيفة في القبو فوضعها شخص ما تحت المغسلة وحلّ الأنبوب بحيث صار الماء الجاري إلى المصرف (وهو ماء قذر على الأغلب) يصب في الحقيبة. وذات صباح قبيل أواخر الشتاء، تلقت ليندا مكالمة هاتفية من الشركة التي تملك المبنى. قالوا إنهم تلقوا خطاب شكوى في حقنا: قائمة كاملة من المخالفات الحقيقية! فهل نتلطف بتفسير ما يجري؟ قبل كل شيء، تقول الشكوى إننا نطلق صوت الموسيقى مرتفعًا في أوقات غير مقبولة اجتماعيًا، وثانيًا نترك أكياس القمامة في الممر عند بابنا، وثالثًا نترك عربة طفلتنا في الخارج أيضًا. رابعًا، ندخن في الفناء الخلفي ونلقي بأعقاب السجائر كيفما اتفق. خامسًا، نترك الثياب في القبو ولا ننظف المكان بعد استخدامه، ونغسل في غير الأوقات المخصصة لنا. فما عسانا نقول؟ هل نقول إن لدينا جارة متحاملة علينا؟ سيكون كلامنا مقابل كلامها! ثم إنها لم تكن الشخص الوحيد الذي وقّع على الشكوى إذ إن صديقتها في الطابق الذي فوقها ذيلت الشكوى بإمضائها أيضًا. وفوق ذلك كله، كان في الشكوى عدد من النقاط الحقيقية. بما أن سكان المبنى جميعًا يضعون أكياس القمامة خارج أبوابهم في الليل، فقد كنا نفعل ذلك بدورنا. لم نكن قادرين على إنكار الأمر لأن الجارتين المجتهدتين التقطتا صورة لبابنا مع كيس القمامة إلى جانبه. ثم إننا نضع العربة في الخارج أيضًا، هذا صحيح، فهل يتخيلون إننا قادرون على

حمل طفلتنا مع لوازمها كلها من المدخل في الأسفل عدة مرات كل يوم؟ ومن الممكن تمامًا أننا ننسى الأوقات المخصصة لنا من أجل الغسيل. لكن، ألا ينسى الجميع مثلنا؟ نعم، يجب أن نكون أكثر حرصًا. قالوا إنهم سوف يتغاضون عن الأمر هذه المرة؛ أما إذا أتتهم شكايات أخرى فإنهم سيعيدون النظر في عقدنا. في السويد، يستمر عقد الإيجار مدى الحياة؛ ومن الصعب الحصول على هذا العقد، خاصة إذا كان مثل عقدنا وإذا كان في موقع مركزي في المدينة: إما أن يتدبر المرء أموره حتى يستمر العقد طيلة الحياة، أو يكون عليه أن يدفع ما قد يبلغ مليون كرونًا في السوق السوداء. حصلنا على عقد الإيجار من خلال والدة ليندا. إذا خسرنا هذا العقد فسنكون كمن يخسر رصيده الوحيد الذي يتمتع بقيمة ما. من الآن وصاعدًا، لا نستطيع إلّا أن نحرص على التقيد بالأنظمة في كل شيء. لا يجد السويديون مشكلة في هذا لأنه يسري في دمهم. ولا وجود لسويديين لا يدفعون فواتيرهم في مواعيدها لأنهم يتلقون توبيخًا إذا لم يدفعوها؛ وإذا تلقوا توبيخًا مهما يكن المبلغ المالي تافهًا، فإنهم لا يستطيعون الحصول على قرض مصرفي ولا على اشتراك هاتف محمول ولا يستطيعون استئجار سيارة. أما أنا... أنا الذي لم أكن شديد التدقيق في أي شيء، أنا المعتاد على التأخر في الدفع مرة أو مرتين كل ستة أشهر، فإنني حالة مختلفة عنهم. لم أدرك أهمية الأمر إلّا بعد ذلك بعدة سنين عندما احتجت قرضًا مصرفيًا فتلقيت رفضًا مباشرًا: قرض مصرفي، أنت! أما السويديون فهم يشدون على أسنانهم لأن لديهم نظامًا في حياتهم ولأنهم ينظرون نظرة ازدراء إلى من لا يلتزم بنظام. أوه، كم أمقت هذا البلد الخرائي الصغير! وكم هم معجبون بأنفسهم أيضًا! إذا كان كل شيء كما هو في السويد، فإن هذا من طبيعة الأمور؛ وكل شيء مختلف يكون غير طبيعي. وهذا ما يشمل، في الوقت نفسه، كل ما لديهم من قضايا الأقليات والتنوع الثقافي! المهاجرون الفقراء القادمون من غانا أو إثيوبيا إلى غرفة غسيل في قبو سويدي!... عليك أن تحجز آلة الغسيل قبل أسبوعين؛ ثم تلوكك الألسن بعد ذلك إذا نسيت جوربًا في آلة تجفيف

الملابس. أو يمكن أن يظهر عند بابك رجل في يده حقيبة من حقائب إيكيا اللعينة فيسألك ساخرًا متهكمًا إن كانت تلك (بمحض الصدفة) حقيبتك! لم تجرِ حرب على أرض السويد منذ القرن السابع عشر... وكم خطر في بالي أن أحدًا ينبغي أن يغزوها ويقصف مبانيها ويجوّع أهلها ويطلق النار على رجالها ويغتصب نساءها. عند ذلك سيذهبون إلى بلد بعيد، إلى تشيلي أو بوليفيا مثلًا، إلى بلد يستقبل اللاجئين استقبالًا لطيفًا ويقول لهم إنه يحب السكندنافيين، ثم يلقي بهم في غيتو خارج واحدة من مدنهم هناك! فقط حتى أرى ماذا يقولون عند ذلك!

ولعل أسوأ ما في الأمر هو أن السويد موضع إعجاب شديد في النرويج. لقد كنت كذلك عندما كنت أعيش في النرويج. ما كنت أعرف شيئًا عن السويد بطبيعة الحال. لكني أعرف الآن؛ وقد حاولت إخبار الناس في النرويج فلم يفهم أحد ما أردت قوله. أمر مستحيل أن يصف المرء تمامًا كم هو بلد ممتثل في كل شيء. وهذا أيضًا لأن هذا الامتثال قائم بفعل غياب ما يخالفه: الآراء المخالفة للمعايير المألوفة لا وجود علنيًا لها في واقع الأمر. لا بد لك من وقت حتى تلاحظها.

هذا ما كان عليه الوضع في تلك الأمسية من شهر شباط 2005 عندما كان كتاب دوستويفسكي في إحدى يدي وحقيبة NK في يدي الأخرى ومررت بالجارة الروسية على السلم. من ناحيتها، ما كان تجنب نظرتي أمرًا غير معتاد. عندما كنا نضع عربة فانيا في غرفة الدرّاجات في الأسفل خلال فترة بعد الظهر، كنا نجدها في اليوم التالي مدفوعة إلى الجدار وقد اعوجّ غطاؤها إلى اليمين أو الشمال؛ أو نجد غطاءها مرميًا على الأرض بعض المرات. ويكون واضحًا أن من فعل ذلك فعله متعجلًا تحت تأثير نوبة غضب. وذات مرة، وضعتُ الدمية الكبيرة التي اشتريناها من محل للأشياء المستعملة تحت لافتة «القمامة ذات الحجم الكبير»، فأخذوها مع القمامة في الصباح. يصعب تخيل قيام شخص غيرها بهذه الأشياء. لكن ذلك ليس مستحيلًا لأن أحدًا من الجيران ما كان يحيينا بحرارة أيضًا.

فتحت الباب ودخلت، ثم انحنيت وحللت رباط حذائي.

قلت: «مرحبًا».

جاءني صوت ليندا من غرفة المعيشة: «مرحبًا».

ليس في صوتها نبرة غير ودية!

قلت وأنا أقف وأنزع وشاحي وسترتي: «آسف لتأخري، فقد كنت غارقًا في القراءة فلم أنتبه إلى الوقت».

قالت ليندا: «لا مشكلة. أمضت فانيا وقتًا ممتعًا في الحمام. وبعد ذلك وضعتها في السرير. كان ذلك رائعًا».

قلت: «جيد»، ثم دخلت غرفة المعيشة فوجدتها جالسة على الأريكة تشاهد التلفزيون. كانت ترتدي كنزتي الصوفية الخضراء الداكنة.

«أليست هذه كنزتي؟».

أطفأت التلفزيون ثم نهضت واقفة وقالت لي: «نعم، إنها كنزتك. تعرف أنني أشتاق إليك».

قلت: «لكني أعيش هنا، أعيش هنا طيلة الوقت».

قالت وهي ترفع وجهها إليّ لتعطيني قبلة: «أنت تعرف ما أعنيه». وقفنا برهة متعانقين.

قلت لها: «أذكر كيف كانت صديقة إسبن منزعجة لأن أمه ترتدي كنزاته عندما تكون هناك. أظنها اعتبرت أن ما تفعله أمه كان تعبيرًا عن امتلاكها إياه. كان ذلك سلوكًا غير ودي تجاه صديقته».

قالت ليندا: «واضح أنه كذلك، أما هنا فإننا وحدنا، أنا وأنت فقط. ونحن لسنا خصمين، أليس كذلك؟».

قلت: «لا، على الإطلاق! سوف أذهب لإعداد بعض الطعام. ما رأيك في كأس من النبيذ الأحمر ريثما يصبح العشاء جاهزًا».

نظرت إليّ بعينين حائرتين، مستفهمتين.

قلت: «أوه، صحيح، أنتِ ترضعين فانيا. لكني لا أظن أن كأسًا من النبيذ يمكن أن تكون شيئًا ضارًا! هيا!».

«سيكون شيئًا لطيفًا أن أتناول بعض النبيذ، لكن من الأفضل أن أنتظر بعض الوقت. اشرب أنت!».

«سوف ألقي نظرة على فانيا. أليست نائمة الآن؟».

كانت نائمة. دخلت غرفة النوم حيث كانت مستلقية في مهدها إلى جانب سريرنا المزدوج. كانت نائمة في وضعية تشبه وضعية الركوع وقد ارتفعت مؤخرتها في الهواء وغرق رأسها في الوسادة وبسطت ذراعيها على الجانبين.

ابتسمت عندما رأيتها.

غطتها ليندا بالبطانية. خرجت إلى الصالة وأخذت حقيبة التسوق إلى المطبخ. شغلت الفرن وغسلت حبات البطاطس. وخزتها بالشوكة واحدة فواحدة، ثم وضعتها في صينية بعد أن مسحتها بقليل من الزيت. وضعت الصينية في الفرن وملأت قدرًا بالماء من أجل البروكولي. أتت ليندا وجلست على كرسي عند الطاولة.

قالت: «أنهيت المراجعة اليوم. هل يمكنك الاستماع إلى ما أنجزته بعد أن نأكل؟ أظن أنني لست في حاجة إلى مزيد من العمل عليه».

قلت: «بالطبع، سأستمع إليه».

كانت تعمل على مادة إذاعية وثائقية عن والدها. وكان عليها تسليم تلك المادة يوم الأربعاء. لقد أجرت معه عدة مقابلات على امتداد الأسابيع الماضية. وهكذا فقد دخل حياتها من جديد بعد غياب بضع سنوات رغم أنه يعيش في شقة لا تبعد عنا أكثر من خمسين مترًا.

وضعت شرائح اللحم على لوح خشبي عريض، ثم جففتها بورق المطبخ.

قالت ليندا: «يبدو لحمًا جيدًا».

قلت لها: «آمل هذا، لكني لا أجرؤ على إخبارك بسعر الكيلوغرام منه».

كانت حبات البطاطس صغيرة جدًا. لا تحتاج لأكثر من عشر دقائق في الفرن. أخرجت المقلاة ووضعتها على الموقد، ثم أسقطت البروكولي في ماء القدر الذي بدأ يغلي.

قالت ليندا: «يمكنني إعداد الطاولة. سنأكل في غرفة المعيشة، ما رأيك؟».

«بالتأكيد».

نهضت عن الكرسي، ثم انحنت لتخرج اثنين من الصحون الخضراء. وبعد ذلك أخرجتْ كأسَيْ نبيذ من الخزانة، وأخذت ذلك كله إلى غرفة المعيشة. ذهبت خلفها حاملًا معي زجاجة نبيذ ومياه معدنية. عندما دخلت غرفة المعيشة، كانت ليندا تخرج الشمعدان وتضعه على الطاولة.

سألتني: «ألديك قداحة».

أومأت برأسي وبحثت عن القداحة في جيبي، ثم ناولتها إياها.

قالت مبتسمة: «هكذا يصير المكان أكثر لطفًا، أليس كذلك؟».

قلت: «صحيح، هذا لطيف». فتحت الزجاجة وسكبت النبيذ في الكأس.

قلت لها: «مؤسف أنك لا تستطيعين أن تشربي شيئًا».

قالت: «أظن أن من الجائز أن آخذ جرعة... حتى أتذوّق هذا النبيذ. لكني سأنتظر إلى أن يصير الطعام جاهزًا».

قلت: «لا بأس».

في طريق عودتي إلى المطبخ، توقفت عند سرير فانيا من جديد. كانت قد استلقت على ظهرها فاتحة ذراعيها على اتساعهما كأن أحدًا ألقاها هناك من ارتفاع كبير.

كان رأسها مدورًا كأنه كرة، وجسدها القصير ممتلئًا جدًا. عندما أخذناها آخر مرة إلى العيادة، اقترحت الممرضة أن نحاول تنحيفها. قالت إنها قد لا تكون في حاجة إلى الحليب كلما ارتفع بكاؤها.

إنهم مجانين في هذا البلد!

استندت إلى السرير وانحنيت فوقها. كانت نائمة، فمها مفتوح ويخرج منه الهواء مع صوت خافت يشبه الصفير. أرى في وجهها من وقت لآخر شيئًا من ملامح إنغفه، لكنها تكون لمحات سريعة تظهر ثم تختفي. في ما عدا تلك اللمحات، ليس فيها ما يشبهني أو يشبه أحدًا في عائلتي.

قالت ليندا وهي تمر بيدها على كتفي: «أليست رائعة؟».
قلت: «ممم، نعم، مهما يكن معنى ذلك».
عندما فحصت الطبيبة فانيا بعد ساعات من ولادتها، حاولت ليندا جعلها تقول إنها ليست جميلة فقط بل إنها طفلة ذات جمال استثنائي. انصاعت الطبيبة لرغبتها، لكن ليندا لم تكن مسرورة باستجابتها غير الحماسية. وقتها، نظرت إلى ليندا بنوع من الدهشة: أهكذا يعبّر الحب الأمومي عن نفسه ويرغم أي اعتبارات أخرى على الخضوع أمامه؟
أوه، كم كانت تلك الفترة غريبة! التعامل مع الأطفال الرضّع جعل كل شيء صغير نفعله مزيجًا من البهجة والقلق.
أما الآن، فقد صار ذلك كله أكثر اعتيادًا.
في المطبخ، كانت الزبدة في المقلاة قد سخنت كثيرًا. صار لونها بنيًا داكنًا، وبدأ الدخان يتصاعد منها. كان البخار منطلقًا أيضًا من القدر التي إلى جانبها وراح غطاؤها يقرقع على حافتها. وضعت شريحتَي لحم في المقلاة، وأخرجت البطاطس من الفرن فأفرغتها في طبق عميق. صفّيت البروكولي لكني تركته على الموقد بضع لحظات بعد ذلك. قلبت اللحم. انتبهت إلى أنني نسيت الفطر، فأخرجت مقلاة أخرى، ووضعت الفطر فيها مع حبة طماطم قطتها إلى نصفين، ثم رفعت حرارة الموقد إلى أقصاها. فتحت النافذة بعد ذلك حتى أتخلص من روائح القلي. وضعت شريحتي اللحم في طبق كبير أبيض، وأفرغت البروكولي إلى جانبهما، ثم أخرجت رأسي من النافذة في انتظار نضوج الفطر. صافح الهواء البارد وجهي.
كانت المكاتب المقابلة داكنة خاوية. رأيت الناس ماضين على الرصيف في الأسفل، صامتين، متدثّرين جيدًا بمعاطفهم. رأيت عدة أشخاص جالسين إلى طاولة في أحد المطاعم (بدا لي أن الخدمة بطيئة فيه)، بينما كان الطباخون في الغرفة المجاورة لهم يتحركون بين المواقد وطاولات العمل، كان زبائن المطعم غير قادرين على رؤيتهم، أما أنا فرأيتهم من النافذة. كانت حركاتهم انسيابية محكمة. تشكّلَ طابور قصير أمام مدخل

نادي الجاز المجاور؛ اسمه نالين. خرج من باص رجل على رأسه قبعة ودخل من ذلك الباب. كان لديه شيء معلق بخيط من رقبته، لعله بطاقة تعريف. استدرت وهززت مقلاة الفطر من أجل تقليبه. لا يكاد أحد يعيش في هذه الناحية، فهي مكونة في أكثرها من محلات تجارية ومباني مكاتب. وهكذا، تموت حياة الشارع عندما تغلق المكاتب أبوابها في آخر ساعات بعد الظهر. وأما الناس الذين يسيرون هنا في المساء فيكونون في طريقهم إلى المطاعم الموجودة بكثرة. إن تنشئة الأطفال هنا أمر لا يمكن التفكير فيه. لا شيء هنا من أجلهم.

أطفأت الموقد وأفرغت في الطبق نفسه حبات الفطر البيضاء التي ظهرت عليها الآن خطوط بنية. كان الطبق أبيض اللون وعلى محيطه خط أزرق مع خط ذهبي خارجه. ليس طبقًا جميلًا على نحو خاص، لكنني جلبته معي بعد أن تقاسمت مع إنغفه الأشياء القليلة التي تركها أبي. لا بد أنه اشترى تلك الأشياء بالمال الذي تلقاه بعد الطلاق عندما اشترت أمي حصته من البيت في تفيت. لقد أتى بمستلزمات البيت كلها دفعة واحدة في ذلك الوقت. كان هنالك شيء في حقيقة أن كل ما يملكه كان آتيًا من تلك الفترة نفسها، شيء يجرد هذه الأشياء من أي معنى عدا ما يشير إلى عدم الاعتياد على حياة الوحدة. مع ذلك كان للأمر معنى في نظري: تساعدني أشياء أبي وحوائجه في بقائه موجودًا في ذاكرتي. ليس فيها غير هذه الأطباق ومستلزمات الطعام إلّا نظارة وزوج من الأحذية المطاطية! لكنها لا تذكرني بأبي على نحو قوي واضح، بل هي أكثر شبهًا بتأكيد دائم على أنه كان جزءًا من حياتي. أما في بيت أمي، فإن الأشياء تلعب دورًا شديد الاختلاف. لديها مثلًا دلو بلاستيكي اشترياه في وقت ما في الستينيات عندما كانا طالبين في أوسلو. وُضع هذا الدلو بالقرب من المدفأة في السبعينيات فذاب قليلًا من أحد جوانبه ثم تجمّد على هيئة رأيتها، عندما كنت صبيًا، شبيهة بوجه رجل له عينان وأنف محدودب وفم معوجّ. لا يزال ذلك هو «الدلو». إنه الدلو الذي تستخدمه عندما تغسل الثياب. ولا يزال عليه ذلك الوجه الذي أراه عندما أذهب لكي

أملأه ماء ساخنًا... ليس مجرد دلو! ينسكب الماء الحار، ثم الصابون، داخل رأس رجل الدلو المسكين. المغرفة التي تحرك بها العصيدة، هي نفسها التي كانت تحرك بها العصيدة طيلة الزمن الذي أذكره، والصحون البنية التي كنا تناولنا فيها فطورنا عندما زرناها، هي نفسها الصحون التي تناولنا فطورنا فيها عندما كنت صغيرًا أجلس على كرسي المطبخ في توباكن في السبعينيات فتتدلى ساقاي ولا تبلغان الأرض. أضيفت الأشياء الجديدة التي اشترتها إلى بقية ما لديها فصارت جزءًا منها. بعكس أشياء أبي التي كانت عابرة، أشياء من أجل الاستهلاك. لقد ذكر القس هذا الشيء في عظته التي ألقاها يوم الدفن. قال إن عليك أن تخفض بصرك إلى الأرض، وأن تثبت نفسك في هذا العالم. كان يعني بذلك أن أبي لم يفعل ذلك. وكان محقًا. لكن أعوامًا كثيرة مضت قبل أن أدرك أن هنالك أيضًا أسبابًا وجيهة كثيرة تجعل المرء يفقد هذا الثبات، تجعله لا يثبت نفسه على الإطلاق بل يتركها تسقط وتسقط إلى أن تصطدم بالقاع آخر الأمر وتتناثر حطامًا.

أليست لهذا علاقة بالعدمية القادرة على شد العقول إليها بهذه الطريقة؟

بدأت فانيا تبكي في غرفة النوم. مددت رأسي من الباب فرأيتها واقفة. كانت ممسكة بحاجز سريرها، وتتقافز منزعجة غاضبة. مضت ليندا إليها.

قلت لها: «الطعام جاهز».

قالت وهي تحمل فانيا ثم تستلقي على السرير معها وترفع كنزتها وتحل حمالة صدرها: «أمر عادي!»... هدأت فانيا على الفور.

قالت ليندا: «ستعود إلى النوم بعد دقائق».

قلت: «سأنتظر»، ثم عدت إلى المطبخ. أغلقت النافذة وأطفأت ساحبة الهواء، وأخذت الأطباق إلى غرفة المعيشة عبر الصالة حتى لا أزعج ليندا وفانيا. سكبت بعض الماء في الكأس وشربت واقفًا وسط الغرفة وأنا أنظر حولي. لن يكون الاستماع إلى الموسيقى فكرة سيئة. وقفت أمام رفوف الأقراص المدمجة. اخترت ألبوم «أنطولوجي» لإميلو هاريس الذي كنا نستمع إليه كثيرًا في الآونة الأخيرة. وضعته في الجهاز. أمر سهل أن تحمي

نفسك من الموسيقى عندما تكون متأهبًا لذلك أو عندما تكون منهمكًا في شيء آخر فتصير الموسيقى مجرد صوت في الخلفية لأنها تصير في تلك الحالة شيئًا بسيطًا رقيقًا لا يستدعي جهدًا. لكن، عندما أكون غير مستعد (كما أنا الآن)، أو عندما أصغي إلى الموسيقى حقًا، فإنها تمضي عميقًا في داخلي. حلقت مشاعري. واغرورقت عيناي بالدموع قبل أن أدرك ما يجري. لم أدرك إلّا في تلك اللحظة كم يكون قليلًا ما أحسه في الأحوال العادية، وكم صرت فاقد الحس. في الثامنة عشرة من عمري، كنت مفعمًا بهذه المشاعر طيلة الوقت، وكان العالم يبدو لي مكثّفًا؛ وهذا ما جعلني راغبًا في الكتابة، هذا هو السبب الوحيد... أردت أن أمسّ ذلك الشيء الذي تمسّه الموسيقى. أردت أن أمسّ ما في الصوت البشري من حسرة وأسى وفرحة وحبور؛ وأردت استحضار كل ما حبانا به هذا العالم.

كيف استطعت نسيان هذا؟

وضعت الغلاف من يدي، ومضيت إلى النافذة. كيف كانت تلك الكلمات التي كتبها ريلكه؟ قال إن الموسيقى تعلو به خارج نفسه ولا تعيده حيث كان، بل إلى مكان أعمق، إلى مكان ما في ما هو غير ناجز.

أستبعدُ أنه كان يفكر في الموسيقى الغربية وموسيقى الريف الأميركي... ابتسمت.

جاءت ليندا عبر الباب ووقفت أمامي.

همسَت: «لقد نامت الآن». قرّبتْ منها كرسيًا وجلست عليه... «آه، ما أحلاها!».

قلت وأنا أجلس إلى الناحية الأخرى من الطاولة: «أظن أن الجو بارد قليل الآن».

قالت: «غير مهم. هل أستطيع البدء؟ أنا جائعة كثيرًا».

قلت لها: «هيا، ابدأي»، ثم صببت كأسًا من النبيذ ووضعت بعض البطاطس في صحني. أما هي فبدأت بالخضار واللحم.

كانت تحدثني عن المشاريع التي اختارها زملاؤها في الصف، أولئك

الذين لا أعرف أسماءهم رغم أنهم ستة أشخاص فقط. كان الأمر مختلفًا عندما بدأت ليندا الدراسة لأنني كنت ألتقي زملاءها مرات كثيرة سواء في ذلك المقهى في «فيلمهوست» أو في مقاهي أخرى يلتقون فيها. كانت تلك مجموعة من الأشخاص الناضجين نسبيًا لأن فيهم الكثير ممن بلغوا أواخر العشرينيات واستقرت حياتهم. كان واحد منهم، اسمه آنديرس، عضوًا في فرقة «دكتور كوزموس» الغنائية؛ وكان أُوْز ممثلًا كوميديًا معروفًا. لكن ليندا حملت بفانيا فانقطعت عن الدراسة سنة، ثم وجدت نفسها في صف جديد ما كنت راغبًا في التعرف عليه.

كان اللحم طريًا كالزبدة. وكان مذاق النبيذ يذكّر بالأرض وبالغابة. تألقت عينا ليندا في ضوء الشموع. وضعت سكيني وشوكتي على الصحن؛ بقيتْ بضع دقائق حتى الثامنة.

سألتها: «هل تريدين أن أستمع إلى المادة الوثائقية الآن؟».

قالت ليندا: «لست مضطرًا إلى ذلك إن لم تكن راغبًا فيه. يمكنك الاستماع إليه غدًا إن أحببت».

قلت: «لكني أريد الاستماع إليه. وهو ليس طويلًا جدًا، أليس كذلك؟».

هزت رأسها ووقفت. قالت: «سوف أضعه الآن. أين تحب الجلوس؟».

رفعت كتفي، ثم قلت: «ربما هناك». أشرت إلى الكرسي الذي عند رفوف الكتب. أخرجت مشغل التسجيلات الإلكترونية؛ أما أنا فأحضرت قلمًا وورقة وجلست، ثم وضعت السماعات. رفعت حاجبيها مستفهمة فأشرت لها برأسي أن تشغل التسجيل.

أخذت ليندا الأطباق إلى المطبخ ومسحت الطاولة بينما كنت جالسًا أستمع إلى التسجيل وحدي. كنت أعرف قصة والدها، لكن الاستماع إليها من فمه شيء مختلف. اسمه رولاند. وقد وُلد سنة 1941 في بلدة في منطقة نورلاند. ترعرع من غير أب... مع أمه وشقيقه وشقيقته اللذين كانا أصغر منه. ماتت أمه عندما كان في الخامسة عشرة. ومنذ ذلك الوقت، صار مسؤولًا عن الصغيرين. عاشوا وحدهم من غير مساعدة من أي شخص

كبير ما عدا امرأة كانت تأتيهم لتنظف البيت وتطبخ لهم. تابع الذهاب إلى المدرسة أربع سنين بعد ذلك، ثم صار ما يطلقون عليه في السويد اسم «مهندس مدرسة»، أي أنه صار يقوم بأعمال الإصلاح المختلفة في إحدى المدارس. بدأ العمل، وكان يلعب كرة القدم في أوقات الفراغ. كان حارس المرمى في فريقه المحلي. وقد تقدّم كثيرًا في ذلك الفريق. التقى إنغريد في حفلة راقصة. كانت في سنّه تقريبًا، وقد أنهت دراستها في معهد للعلوم المنزلية وصارت تعمل سكرتيرة في مكتب لإحدى شركات المناجم. كان جمالها استثنائيًا. نشأت علاقة بينهما، ثم تزوجا. لكن إنغريد كانت تحلم بالتمثيل. وعندما قبلوها في مدرسة الدراما في ستوكهولم، ترك رولاند حياته الماضية كلها وانتقل معها إلى العاصمة. لم يكن لدى الحياة التي تنتظرها هناك، حياة الممثلة في مسرح الدراما الملكي، أي شيء تقدمه لرولاند. هوة كبيرة فصلت بين حياته كحارس مرمى و«مهندس مدرسة» في البلدة الريفية في نورلاند وبين الحياة التي يعيشها الآن: زوج ممثلة جميلة في أهم مسرح في البلاد. أنجبا طفلين خلال مدة غير طويلة؛ لكن ذلك ما كان كافيًا لبقائهما معًا، فانفصلا بعد وقت قصير. وبعد ذلك مباشرة، أصابه المرض للمرة الأولى. كان مرضه من غير نهاية؛ وقد سبب له تقلبات شديدة بين ذرى هستيرية وهاويات اكتئابية. أحكم المرض قبضته عليه ولم يتركه أبدًا. ومنذ ذلك الوقت صار يدخل المصحات والمستشفيات ويخرج منها. عندما قابلته أول مرة في ربيع سنة 2004، علمت أنه عاطل عن العمل منذ أواسط السبعينيات. كانت لليندا صلة معه خلال سنوات كثيرة. ورغم كوني رأيت بعض صوره، إلّا أنني لم أكن مستعدًا لما ينتظرني عندما فتحت له باب بيتنا. كان وجهه طلقًا منفتحًا تمامًا، كأن لا شيء لديه يقف بينه وبين العالم. ما كانت لديه أي حماية من العالم... كان أعزل من غير أي دفاع. وكانت رؤية ذلك تؤلم الروح عميقًا.

قال لي: «إذن، أنت هو كارل أوفه، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي ومددت له يدي مصافحًا.

قال: «رولاند بوستروم، والد ليندا».

قلت: «سمعت عنك الكثير. تفضل بالدخول».

كانت ليندا واقفة خلفي، فانيا بين ذراعيها. قالت له: «مرحبًا يا أبي، هذه فانيا». وقف ساكنًا، ونظر إلى فانيا التي نظرت إليه بدورها. كانت ساكنة مثله. لمعت عيناه وقال: «أوووه!».

قلت له: «دعني آخذ عنك معطفك، ثم ندخل ونتناول القهوة».

كان وجهه طلقًا، لكن حركاته متيبسة، تكاد تكون ميكانيكية.

سألني عندما صرنا في غرفة المعيشة: «هل أنجزت طلاء الجدران بنفسك؟».

قلت: «نعم».

ذهب إلى أقرب جدار ونظر إليه. قال لي: «هل أنجزت هذا بنفسك يا كارل أوفه؟».

«نعم».

«إنه عمل ممتاز! يجب أن يكون المرء دقيقًا جدًا عندما يقوم بالطلاء، وقد كنت دقيقًا حقًا. إنني أطلي شقتي الآن. تركواز في غرفة النوم وأبيض بلون القشدة في غرفة الجلوس. لكني لم أنجز حتى الآن إلّا جدارًا واحدًا في غرفة النوم».

قالت ليندا: «هذا جيد. سيكون طلاء جميلًا بالتأكيد».

«نعم، سيكون جميلًا. أنا واثق من هذا».

كانت ليندا تتصرف بطريقة لم أرها من قبل. كانت تسايره كأنها خاضعة له... إنها طفلته، تعطيه اهتمامها ورفقتها؛ إلّا أنها أعلى منه أيضًا، بمعنى أنها كانت تحاول إخفاء أنه يسبب لها الخجل (لم تكن ناجحة تمامًا في إخفاء ذلك). جلس على الأريكة. صببت القهوة، ثم ذهبت إلى المطبخ لإحضار لفافات المعجنات بالقرفة التي اشتريناها ذلك الصباح. عدت حاملًا الطبق في يدي. أكل صامتًا. كانت ليندا جالسة إلى جانبه وفانيا في حضنها. جعلته يراها. ما كنت أتخيل أبدًا أن هذا يعني لها الكثير.

قال: «معجنات لذيذة. كانت القهوة جيدة أيضًا. هل أعددتها أنت يا كارل أوفه؟».

«نعم».

«هل لديك آلة لصنع القهوة؟».

وعندما أومأت بالإيجاب، قال: «هذا جيد».

صمت قصير.

تابع يقول: «أتمنى لكما كل خير. ليندا ابنتي الوحيدة. وأنا سعيد وممتن لأنني أستطيع القدوم لزيارتكم».

سألته ليندا: «هل تحب رؤية بعض الصور يا أبي؟ صور فانيا عند ولادتها؟».

أومأ برأسه موافقًا.

قالت لي: «من فضلك، احمل فانيا قليلًا».

صارت تلك الصرة الصغيرة الدافئة بين ذراعي. كانت عيناها محولّتين موشكتين على النوم عندما نهضت ليندا ومضت نحو الرفوف لتأتي بألبوم الصور. كان يقول «ممم» عند كل صورة يراها.

عندما انتهى ألبوم الصور، مد يده إلى فنجان القهوة على الطاولة أمامه، ورفعه إلى فمه بحركة بطيئة حذرة محسوبة جيدًا. أخذ جرعتين كبيرتين.

قال: «لقد ذهبت إلى النرويج مرة واحدة يا كارل أوفه. ذهبت إلى نارفيك. كنت حارس مرمى مع أحد نوادي كرة القدم. ذهبنا لنلعب ضد فريق نرويجي».

قلت له: «أوه، نعم!».

قال وهو يهز رأسه: «نعم».

قالت ليندا: «كان كارل أوفه يلعب كرة القدم أيضًا».

قلت: «مر زمن طويل على ذلك. كنت ألعب في ناد من مستوى شديد التواضع».

«هل كنت حارس مرمى؟».

«لا».

صمت قصير.

أخذ جرعة ثانية من فنجانه بتلك الطريقة الحذرة نفسها.

قال: «لا بأس، كان هذا لطيفًا. لكن من الأفضل أن أعود إلى بيتي الآن».

نهض واقفًا. فقالت له ليندا: «لكنك لم تجلس إلّا قليلًا!».

قال لها: «كان هذا جيدًا. أحب دعوتكما إلى الطعام. إنه دوري الآن. هل يناسبكما يوم الثلاثاء؟».

نظرت إلى عيني ليندا. إنه قرارها.

قالت ليندا: «الثلاثاء مناسب».

قال: «اتفقنا إذن. الساعة الخامسة، يوم الثلاثاء».

عند عبورنا الصالة، ألقى نظرة عبر باب غرفة النوم، ثم توقف: «هل طليت هذه الغرفة أيضًا؟».

قلت: «نعم».

«هل أستطيع رؤيتها؟».

قلت: «بالطبع».

دخلنا الغرفة من خلفه. وقف أمام الجدار ونظر خلف المدفأة الضخمة.

قال: «أرى أن طلاء هذه المنطقة لم يكن سهلًا، لكنها تبدو جيدة!».

أصدرت فانيا صوتًا صغيرًا. كانت راقدة على ذراعيَّ فلم أستطع رؤية وجهها. وضعتها على السرير فابتسمت. جلس رولاند على الفراش وأحاط قدمها بكفه.

سألته ليندا: «ألا تريد حملها؟ يمكنك حملها إن أردت».

قال: «لا. لقد رأيتها الآن».

نهض بعد ذلك ومضى إلى الصالة فارتدى معطفه. احتضنني قبل أن يخرج. احتكت شعرات ذقنه النابتة قليلًا بخدي.

قال: «أسعدني لقاؤك يا كارل أوفه». احتضن ليندا وأمسك بقدم فانيا من جديد، ثم انطلق نازلًا السلم في معطفه الطويل.

تفادت ليندا نظرتي عندما ناولتني فانيا وذهبت إلى غرفة المعيشة لتأخذ فناجين القهوة إلى المطبخ. ذهبت خلفها.

سألتني مبتهجة وهي ذاهبة: «ما رأيك فيه؟».

قلت: «إنه رجل لطيف. لكنه من غير أي شيء يحميه من العالم. لا أظنني رأيت قبل الآن شخصًا تشع منه هذه الهشاشة كلها».

«إنه كالطفل، أليس هذا صحيحًا؟».

«نعم، إنه كذلك. لا شك في هذا أبدًا».

تجاوزتني حاملة الفناجين الثلاثة، واحدها فوق الآخر، في إحدى يديها، وسلة المعجنات في اليد الأخرى.

قلت لها: «يا له من جد لفانيا!».

سألتني: «نعم... كيف سيكون ذلك؟» لم يكن في صوتها أي أثر للسخرية. جاء هذا السؤال مباشرة من بقعة مظلمة في قلبها.

قلت لها: «سيكون أمرًا حسنًا بالطبع».

قالت ليندا وهي تضع الفناجين في آلة غسل الأطباق: «لكني لا أريده في حياتنا».

قلت: «إن كان الرجل مثلما رأيته حقًا، فأنا واثق من أن لا مشكلة في ذلك. لا أجد ضررًا في أن يزورنا من وقت لآخر لتناول القهوة. ثم لدينا تلك الدعوة الغريبة إلى وجبة في بيته. إنه جدها بعد كل حساب!».

أغلقت ليندا باب آلة غسل الأطباق، وأخرجت كيسًا من النايلون الشفاف من الدرج الأسفل فوضعت فيه لفافات القرفة الثلاث الباقية في الطبق، ثم ربطته ومرت بي خارجة من المطبخ لتضعه في الفريزر الموجود في الصالة.

«لكني أعرف أنه لن يكتفي بهذا. لن يتوقّف عن الاتصال بنا بعد أن زارنا. وهو لا يفعل ذلك إلّا عندما يكون في حالة سيئة. ليست عنده حدود يقف عندها. عليك أن تدرك هذا».

خرجت إلى غرفة المعيشة لكي تأتي بالصحون الباقية هناك.

قلت من خلفها: «يمكننا المحاولة على أي حال؛ ثم نرى ما يحدث».

قالت: «لا بأس».

رُنّ جرس الباب في تلك اللحظة. من يمكن أن يكون؟ أهي جارتنا المجنونة من جديد؟

لكنه كان رولاند. كانت عيناه محمومتين، مهتاجتين.

قال لي: «لا أستطيع الخروج! لم أعثر على الزر الذي يفتح قفل الباب. بحثت عنه، وبحثت. لكني لم أجده. هل يمكنك أن تساعدني».

قلت: «أستطيع مساعدتك بالتأكيد. انتظر لحظة حتى أترك فانيا مع ليندا».

أدخلت فانيا، وارتديت حذائي، ثم نزلت خلفه حتى مدخل المبنى. أشرت إلى موضع الزر على الجدار إلى يمين الباب الأول.

قال لي: «سوف أتذكر هذا من أجل المرة القادمة. على يمين الباب الأول».

تناولنا الطعام في شقته بعد ثلاثة أيام من ذلك. أرانا الجدار الذي طلاه، ثم ابتسم راضيًا عندما امتدحت مهارته في العمل. لم يكن قد بدأ الطبخ. كانت فانيا نائمة في عربتها في الصالة، ولهذا، جلست مع ليندا نتحدث وحدنا في غرفة الجلوس بينما كان في المطبخ منهمكًا في العمل. كانت على الجدار صور من طفولة ليندا وشقيقها. وإلى جانب الصور مقالات ومقابلات أجرياها عندما أصدر كل منهما كتابه الأول. كان شقيقها قد نشر كتابًا سنة 1996. إلّا أنه، على غرار ليندا، لم ينتج بعده شيئًا.

قلت لها: «إنه فخور بك».

أطرقت برأسها ونظرت إلى الطاولة.

قالت متسائلة: «هل نخرج إلى الشرفة؟... حتى تكون قادرًا على التدخين!».

لم تكن هنالك شرفة، بل تراس على السطح يمكن للمرء أن يطل منه على أوسترمالم عبر ما يشبه الممر بين سطحين آخرين. تراس على السطح في قلب ستوربلان! كم مليونًا يمكن أن يبلغ ثمن هذا المكان؟ صحيح أن

تراس السطح قاتم اللون ملوّث بالدخان، إلّا أن تنظيفه أمر سهل إلى حد كبير.

سألتها وأنا أشعل سيجارتي وأحمي لهب القداحة من الهواء بيدي: «هل يملك والدك هذه الشقة؟».

«نعم، إنها ملكه».

لم أعش أبدًا في مكان يهتم الناس فيه بالعناوين المناسبة والشقق الممتازة مثلما يهتمون بها في السويد. على نحو ما، كانت هذه المدينة تكثيفًا لكل شيء. إن كنت واحدًا ممن يعيشون خارج هذه الدائرة، فأنت لست واحدًا منهم بكل معنى الكلمة. وبالتالي، كان السؤال عن مكان الإقامة، هو السؤال الذي يتكرر دائمًا، محملًا في ستوكهولم بمعنى مختلف تمامًا عما يحمله السؤال نفسه في بيرغن على سبيل المثال. سرت حتى الحافة حتى أنظر إلى الأسفل. لا تزال هنالك كومات صغيرة من الثلج وبقع من الجليد باقية على الرصيف بعد انتهاء الشتاء. كادت تختفي بفعل الجو اللطيف، لكنها صارت رمادية نتيجة الرمل ودخان السيارات.

كانت السماء من فوقنا رمادية أيضًا، كانت حبلى بمطر بارد تسوط به المدينة على فترات منتظمة. كانت رمادية، لكن فيها ضياء على نحو مختلف عن سماء الشتاء الرمادية لأننا في شهر آذار، ولأن الضياء في آذار يكون واضحًا قويًا يخترق غلاف الغيوم حتى في يوم مدلهمّ مثل هذا اليوم... ضياء كأنه يقتحم بوابات الظلمة كلها. كان الضياء متألقًا على الجدران أمامي وعلى الرصيف في الأسفل. تألقت السيارات المتوقّفة: سيارات حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء داكنة.

قالت ليندا: «احتضنّي».

سحقت سيجارتي في صحن السجائر على الطاولة وأحطتها بذراعي.

عندما دخلنا بعد هنيهة من ذلك، وجدنا غرفة الجلوس خالية كما كانت. فذهبنا إلى المطبخ. كان واقفًا عند الموقد يصب في المقلاة محتويات علبة من الفطر. أصدر السائل هسيسًا عندما لامس معدن الوعاء الحار. ثم أضاف

الكوسا المقطعة على شكل مكعبات صغيرة. كان السباغيتي يغلي في وعاء آخر.

قلت له: «تبدو هذه الأشياء لذيذة».

قال لي: «نعم، إنها لذيذة».

وعلى طاولة العمل، رأيت علبة من الجمبري المحفوظ في ماء مالح، وعلبة أخرى من الكريما المكثّفة.

قال: «أتناول طعامي في الأسفل عادة، في مطعم فايكينغن. لكني أتعشى هنا أيام الجمعة والسبت والأحد لأني أطبخ من أجل بيريت».

كانت بيريت صديقته.

سألته ليندا: «ألا نستطيع مساعدتك في شيء من العمل؟».

أجابها: «لا. اجلسا، وسوف آتي بالطعام عندما يصير جاهزًا».

كان مذاق الطعام يشبه ما اعتدت طبخه عندما كنت طالبًا وآكله وحدي في غرفتي المستأجرة في آبسالون بيرز غيت خلال سنتي الأولى في جامعة بيرغن. تحدّث والد ليندا فكان القسم الأكبر من حديثه عن الفترة التي كان فيها حارس مرمى في فريق نورلاند. ثم حدثنا عن عمله: تخطيط المستودعات وتصميمها. ثم حدثنا عن الحصان الذي كان لديه في وقت ما ثم أصيب عندما بدا أنه موشك على بدء الفوز في السباقات. كان يروي كل شيء بتعابير مسهبة شديدة الدقة كما لو أن كل تفصيل كان شيئًا في غاية الأهمية. وفي مرحلة من مراحل حديثه، نهض ليأتي بقلم وورقة حتى يرينا كيف توصّل إلى حساب العدد الدقيق للأيام الباقية في عمره. حاولت النظر إلى عيني ليندا، لكنها لم تنظر إليّ. اتفقنا قبل مجيئنا على أن زيارتنا يجب أن تكون مختصرة. وهكذا نهضنا بعد أن قدّم لنا التحلية، علبة سعة لترين من الآيس كريم. قلنا له إن علينا الذهاب لأن فانيا في حاجة إلى العودة إلى البيت حتى نطعمها ونغيّر حفّاضها، فبدا أن هذا الإعلان قد سرّه. كانت الزيارة قد طالت دهرًا. خرجت إلى الصالة ووضعت معطفي وحذائي بينما ظل مع ليندا يتبادل بضع كلمات على انفراد. قال شيئًا عن أنها ابنته الصغيرة

التي كبرت كثيرًا. تعالي واجلسي في حضني قليلًا! ربطت شريط حذائي، ثم نهضت ومضيت إلى الباب المشقوق قليلًا فنظرت داخل الغرفة. كانت ليندا جالسة في حضنه وذراعاه يطوقان خصرها بينما راح يقول لها كلمات لم أستطِع فهمها. كان في ذلك المشهد شيء شديد الغرابة لأنها في الثانية والثلاثين ولأن الوضعية البنّاتية التي اتخذتها كانت أصغر من سنها بكثير. كانت تعرف هذا، بالطبع، وكانت شفتاها المزمومتان معبّرتين عن عدم رضاها بذلك. كان شكلها كله صارخًا بالتناقض. ليست راغبة في هذا، لكنها لا تريد أيضًا أن تزعجه برفضها. لن يفهم الرفض، وسوف يكون جارحًا له لذلك كان عليها أن تجلس وتتركه يربّت عليها إلى أن صار النهوض شيئًا لا يوحي بالرفض فوقفت أمامه من جديد.

تراجعتُ عن الباب قليلًا حتى لا يزداد حرَجها إذا اكتشفت أنني كنت شاهدًا على ما جرى. عندما دخلت الصالة، كنت أنظر إلى اللوحات المعلقة على الجدار. وضعت معطفها وحذاءها، وجاء والدها لوداعنا. عانقني مثلما فعل من قبل ونظر إلى فانيا النائمة في عربتها، ثم عانق ليندا ووقف بالباب ينظر إلينا حتى دخلنا المصعد مع عربتنا. رفع يده بالتحية مرة أخيرة، ثم استدار ودخل الشقة لحظة أغلق باب المصعد من خلفنا وبدأنا النزول.

لم أقل أي كلمة في ما يتعلق بذلك المشهد الصغير الذي جرى بينها وبين أبيها. في طريقة إظهارها الخضوع أمامه، رأيت فيها فتاة في العاشرة من عمرها؛ وفي طريقتها في الصراع مع ذلك، رأيت فيها امرأة كبيرة ناضجة. لكن حقيقة اضطرارها، إلى خوض ذلك الصراع، جرّدت، على نحو ما، فكرة النضج من بعض معناها. لا يمكن لأي شخص ناضج أن ينتهي إلى وضع شبيه بهذا! أما هو فما كانت لديه هذه الأفكار! لقد كان من النوع الذي لا يعرف حدودًا: في نظره، هي ابنته ولا شيء غير ذلك، مهما يكن عمرها.

حدث ما توقعته ليندا. بدأ يتصل بنا بعد ذلك. كان من الممكن أن يتصل في أي وقت من أوقات النهار ومهما تكن حالته المزاجية. وهذا ما جعل ليندا تعقد معه اتفاقًا يحدد ساعة الاتصال واليوم. بدا لنا أن الفكرة أعجبته. لكنها

كانت التزامًا أيضًا: إذا لم نرد على الهاتف، فقد يحس بإساءة كبيرة ويعتبر الاتفاق باطلًا ويرى أنه عاد حرًا في الاتصال كلما أراد، أو في عدم الاتصال على الإطلاق. أما عن نفسي، فقد تكلمت معه مرات قليلة. سألني ذات مرة إن كان يستطيع أن يغني لي أغنية. لقد كتب الأغنية بنفسه، فجرى تقديمها على المسارح في ستوكهولم، وفي الراديو أيضًا، هكذا قال لي. لم أعرف إن كان عليّ تصديقه أم لا. لكني لم أجد سببًا لعدم السماح له بالغناء. بدأ الغناء، فكان صوته قويًا وطاقته كبيرة. مع أنه لم يكن موفقًا في أداء النغمات كلها أداء دقيقًا، إلّا أن غناءه ظل جيدًا. كانت أغنية قصيدة من أربعة أبيات تتحدث عن عامل مهاجر يعمل في بناء أحد الطرق في نورلاند. وعندما انتهى لم أجد ما أقوله غير أن الأغنية كانت رائعة. وأظنه كان يتوقّع مديحًا أكثر من هذا لأنه ظل صامتًا بضع ثواني قبل أن يقول: «أعرف أنك تؤلف كتبًا يا كارل أوفه. لم أقرأ كتبك بعد، لكني سمعت عنها أشياء حسنة كثيرة. أريدك أن تعرف هذا. أنا فخور بك كثيرًا يا كارل أوفه. نعم، أنا فخور بك كثيرًا...».

قلت: «يسعدني سماع هذا».

«أنت وليندا، هل تسير أموركما سيرًا حسنًا؟».

«نعم، حسنة».

«وهل أنت لطيف معها؟».

«نعم».

«هذا جيد! يجب ألا تتركها أبدًا. أبدًا، هل تفهمني؟».

«نعم».

قال: «يجب أن تعتني بها. يجب أن تكون لطيفًا معها يا كارل أوفه». ثم انفجر باكيًا.

قلت: « إن علاقتنا ممتازة. لا شيء يدعو إلى القلق».

قال: «لست إلّا رجل عجوز. لكني مررت بالكثير، كما ترى. مررت بأكثر مما يمر به أكثر الناس. ليس في حياتي ما يستحق أن أفخر به، لكني تمكنت من إحصاء الأيام الباقية لي في هذه الحياة. هل تعرف هذا؟».

«نعم. عندما زرتنا في بيتنا، شرحت لنا كيف استطعت فعل ذلك».

«أوه، نعم، نعم. لكنك لم تقابل بيريت بعد، أليس كذلك؟».

«لم أقابلها».

«إنها في غاية اللطف معي».

«هذا ما فهمته».

صار حذرًا على نحو مفاجئ: «حقًا! كيف؟».

«في الحقيقة... أخبرتني ليندا بعض الأشياء عنها. أخبرتني إنغريد كذلك. أنت تعرف...».

«نعم، فهمت. لن أزعجك أكثر من هذا يا كارل أوفه. لا بد أن لديك أمورًا أكثر أهمية».

قلت له: «على الإطلاق. أنت لا تزعجني أبدًا».

«أخبر ليندا بأنني اتصلت. كونوا بخير».

أغلق الخط قبل أن تسنح لي فرصة وداعه. رأيت على شاشة الهاتف أن المكالمة لم تطل أكثر من ثماني دقائق. زفرت ليندا منزعجة عندما أخبرتها.

قالت: «لست مضطرًا إلى الإصغاء إلى هذه الأشياء. لا ترد على الهاتف عندما يتصل مرة أخرى».

قلت لها: «هذا لا يزعجني».

«لكنه مزعج لي».

ما كانت المادة الوثائقية التي أعدّتها ليندا تحتوي شيئًا من هذا. لقد نقّحت كل شيء فيها، عدا صوته. إلّا أن كل شيء كامن هناك، في الصوت! كان يتحدث عن حياته، وكان صوته مليئًا بالحسرة عندما تحدث عن وفاة أمه، وطافحًا بالفرحة عندما تحدث عن أولى سنوات شبابه، ثم انزوت تلك السعادة جانبًا عندما بدأ الكلام عن انتقاله إلى ستوكهولم. تحدث عن المشكلات التي عاناها مع الهاتف: أي لعنة كانها هذا الاختراع بالنسبة إليه! وكم كانت طويلة تلك الفترات التي اعتاد خلالها أن يضع الهاتف في الخزانة. تحدث عن عاداته اليومية، وتحدث عن أحلامه أيضًا، الأحلام التي

كان أكبرها حلم إقامة مزرعة للخيول. هنا صار على طبيعته، وما عاد في حكايته أي شيء مضجر. يمكنك الغوص في عالمه منذ الجملة الأولى. لكن ليندا كانت محور اهتمامي، بالطبع. كان سماع ما أنجزَتْه، وقراءة ما كتبته، يجعلني شديد القرب من الشخص الذي كانته. كان الأمر كما لو أن تلك الخصال الخاصة الحية في داخلها تصير مرئية في ذلك الوقت فقط. أما في حياتنا اليومية فكانت ضائعة في ما نفعله، مهما يكن ما نفعله، مثلما يضيع الجميع في غمرة حياة كل يوم... لم أكن في حياتي اليومية أرى شيئًا من الإنسانة التي وقعت في حبها. وإن لم أكن قد نسيت تلك الأمور فعلًا، فمن المؤكد أنني لا أفكر فيها.

لكن، كيف يكون حدوث هذا ممكنًا؟

نظرت إليها. حاولتْ إخفاء الترقّب في عينيها. خفضت ناظريها إلى الجهاز الذي على الطاولة وإلى مجموعة الأسلاك الممتدة منه.

قلت: «لست في حاجة إلى تغيير أي شيء. إنه مكتمل تمامًا».

«أتظنه جيدًا؟ أتظنه جيدًا فعلًا؟ ما رأيك؟».

«أوه، نعم، هذا شيء لامع».

وضعتُ السماعة على الطاولة، ثم تمطيْتُ وأغمضت عينيَّ ثم فتحتهما، عدة مرات.

قلت لها: «لقد تأثرت».

«بماذا تأثرت؟».

«إن حياته مأساة، على نحو ما. لكنه يتحدث عن تلك المأساة فيملؤها حياة... ندرك أن هذه حياة. حياة لها قيمتها الذاتية بصرف النظر عما جرى فيها. قد يكون هذا أمرًا واضحًا، لكن معرفته شيء وإحساسه شيء آخر تمامًا. أحسسته عندما كنت أستمع إليه الآن».

قالت: «إنني مسرورة كثيرًا. قد يعني هذا أنني لست في حاجة إلى فعل أي شيء غير ضبط مستويات الصوت. يمكنني إنجاز هذا يوم الاثنين. لكن، هل أنت واثق؟».

قلت وأنا أنهض واقفًا: «أنا واثق إلى أقصى حد. والآن، سأخرج للتدخين».

في الأسفل، في الفناء الخلفي، كان الهواء باردًا. رأيت الطفلين الوحيدين في بنايتنا، ولد في التاسعة أو في العاشرة وأخته التي في الحادية عشر أو الثانية عشر، يتقاذفان الكرة قرب البوابة عند النهاية الأخرى من الفناء. أتى صوت الموسيقى مرتفعًا شديدًا من مقهى غلينميلر من الشارع خلفهما. كانت نافذة أمهما مفتوحة. تعيش وحدها مع الطفلين في الطابق العلوي، وتبدو على الدوام شديدة التعب. سمعت قرقعة الأواني المألوفة قادمة من نافذتها فأدركت أنها تجلي. كان الصبيّ ممتلئ الجسم؛ لكن شعره، ربما على سبيل التعويض، كان قصيرًا مما أكسبه مظهرًا خشنًا. له دائمًا انتفاخات زرقاء تحت عينيه. عندما تأتي صديقات أخته إليها، أراه يؤدي حركات صعبة بالكرة أو يتسلق قضبان التمارين الرياضية في الفناء بحركات استعراضية. في أمسيات مثل هذه، عندما يكونا وحيدين ولا تجد البنت شيئًا تفعله أفضل من اللعب من شقيقها، يكون الصبي أكثر سعادة وحيوية، وأكثر حرصًا على أن يلعب جيدًا. ومن وقت لآخر، نسمع صياحهما وزعيقهما في الأعلى (نسمع صياح الثلاثة أحيانًا)، لكن الصوت يكون صوته وصوت أمه أكثر الأحيان. لقد رأيت الأب آتيًا لأخذهما، مرة أو مرتين: رجل قصير نحيل سقيم المظهر له شاربان. من الواضح أنه يشرب كثيرًا.

مضت الأخت إلى السياج، وجلست. أخرجت من جيبها هاتفًا محمولًا. كانت البقعة التي جلست فيها مظلمة إلى حد جعل الضوء الأزرق المنبعث من شاشة الهاتف يضيء وجهها كله. بدأ شقيقها يركل الكرة في اتجاه الجدار. راح يركلها مرة بعد مرة. بووم. بووم. بووم.

مدت أمه رأسها من النافذة. صاحت به: «ألن تكف عن هذا؟».

انحنى الطفل بهدوء، وحمل الكرة بين يديه، ثم جلس إلى جانب شقيقته التي استدارت مبتعدة عنه قليلًا من غير أن ينزاح انتباهها عن الهاتف ثانية واحدة.

رفعت رأسي ناظرًا إلى البرجين المُنارين. سرَت في نفسي طعنة من الرقة والألم.

أوه، ليندا، أوه يا ليندا!

في تلك اللحظة، ظهرت الجارة التي تعيش في شقة ملاصقة لشقتنا؛ أتت خارجة من المدخل. نظرتُ إليها وهي تغلق الباب من خلفها بهدوء. كانت في الخمسينيات. وكان مظهرها مثل مظهر النساء في سنها هذه الأيام: مظهر يوحي بقدر من الشباب الذي تحاول صاحبته إبقاءه بطرق مصطنعة. كان شعرها مصبوغًا بلون أشقر، وتضع سترة من الفرو. سارت تجر من خلفها برسن مشدود كلبًا صغيرًا فضوليًا. لقد أخبرتني ذات مرة بأنها فنانة، لكن ذلك لم يجعلني أكثر معرفة بما تفعله. ليست بالتأكيد فنانة من ذلك النوع الذي يصفه مونك. يمكنها أحيانًا أن تكون شديدة الحب للكلام فتخبرني أنها تعتزم الذهاب إلى منطقة بروفانس في الصيف، أو أنها تخطط لرحلة إلى نيويورك أو لندن في عطلة نهاية الأسبوع. وفي أحيان أخرى، لا تقول شيئًا على الإطلاق بل تمر بي من غير أي كلمة. لديها ابنة مراهقة ولدت طفلًا في وقت ولادة ليندا نفسه. كانت هذه المرأة تحب إلقاء الأوامر.

سألتني من غير أن تبطئ سيرها: «ألم تكن تعتزم الكف عن التدخين؟».

أجبتها: «لم تدق الساعة الثانية عشر بعد!».

قالت: «آه، سوف يهطل الثلج هذه الليلة. تذكر كلامي».

دخلت المرأة إلى البناية. انتظرتُ قليلًا، ثم رميت عقب سيجارتي في أصيص النباتات المقلوب الذي وضعه أحدهم عند الجدار لهذه الغاية، ثم دخلت خلفها. كانت مفاصل أصابعي محمرة من البرد. صعدت السلم قفزًا، كل ثلاث درجات معًا، ثم فتحت الباب وخلعت معطفي ودخلت لأرى ليندا التي كانت أمام التلفزيون مستلقية على الأريكة. انحنيت فوقها وقبلتها.

سألتها: «ماذا تشاهدين؟».

«ليس شيئًا مهمًا. هل نشاهد فيلمًا؟».

«نعم، فليكن».
ذهبت إلى رف الـ«دي في دي».
«ماذا تحبين أن تشاهدي؟».
«لا أدري. اختر أنت!».

مرت عيناي على صف الأفلام. عندما أشتري أفلامًا، تكون في رأسي دائمًا فكرة أنها يجب أن توسّع آفاقي. يجب أن يكون فيها تصوير خاص أستطيع تمثله أو صياغة علاقة تربطه بأماكن فيها عناصرلم أكن أعتبرها موجودة في زمن أو ثقافة غير مألوفين عندي. باختصار، كان اختياري للأفلام غير موفق لأن المساء يأتي ونريد مشاهدة أحدها فلا نجد لدينا استعدادًا للبقاء ساعتين مع فيلم بالأبيض والأسود عن حدث ياباني جرى في الستينيات، أو عن ضواحي روما الكبيرة المترامية حيث لا يحدث شيء غير لقاء بين بضعة أشخاص باهري الجمال مُغرّبين عن العالم، كما كانت الحال في أكثر أفلام تلك الفترة. يأتي المساء، فنجلس ونشاهد فيلمًا نحب أن يكون مسليًا. يجب أيضًا أن تتطلب مشاهدته أقل قدر من الجهد والعناء. هكذا هو الأمر في كل شيء. أكاد لا أقرأ أي كتب الآن؛ وإذا توفرت صحيفة فإنني أفضل قراءتها. كما أن هذه العتبة عندي لا تنفك تزداد ارتفاعًا. كان ذلك غباءً لأن الحياة لا تعطيك شيئًا: إنها تجعل الزمن يمر، فقط. إذا رأينا فيلمًا جيدًا فإنه يثير شيء في نفوسنا ويجعل الأشياء تتحرك... ذلك لأن الأمر هكذا... العالم هو نفسه دائمًا، وأما ما يتغير فهو طريقة نظرنا إليه. الحياة اليومية التي يمكن أن تكون ثقيلة الوطأة علينا مثل قدم تدوس رأسًا، لكنها يمكن أن تأتينا بالبهجة أيضًا. يتوقف كل شيء على العين التي ترى. إذا رأت العين الماء الموجود في كل مكان في أفلام تاركوفسكي مثلًا، تلك الأفلام التي تحول العالم إلى نوع من قفص للحيوانات حيث يقطر كل شيء ويسيل، حيث يعوم وينساق مع التيار، حيث يمكن أن تذوب الشخصيات كلها وتختفي من الصورة فلا يبقى على الطاولة غير فناجين القهوة التي تمتلئ تدريجًا بماء المطر على خلفية من خضرة كثيفة تكاد

تكون مشؤومة، نعم... عندها، يمكن أيضًا أن تكون العين قادرة على رؤية الأعماق الوجودية العاصفة تتكشف في الحياة اليومية. هذا لأننا من لحم ودم وأعصاب وعظام، ومن حولنا تنمو نباتات وأشجار وتطن حشرات وتطير طيور وتجري غيوم في السماء ويهطل المطر. كانت العين التي تستطيع أن تمنح العالم معنى احتمالًا حاضرًا دائمًا، لكننا نكاد نفضّل دائمًا اختيار شيء آخر. على الأقل، هكذا كان الأمر في حياتنا نحن.

التفتّ إليها وسألتها: «هل نشاهد فيلم المطارد لتاركوفسكي؟».

قالت: «لا بأس، من ناحيتي. ضعه، وسنرى».

وضعت القرص في الجهاز وأطفأت مصباح السقف وسكبت كأسًا من النبيذ الأحمر، ثم جلست إلى جانب ليندا وأمسكت بجهاز التحكم لأختار لغة الترجمة. دسّت ليندا نفسها بي واحتضنتني.

سألتني: «هل يزعجك أن أغفو؟».

أجبتها: «لا يزعجني أبدًا». وطوّقتها بذراعي.

لقد رأيت مقدمة الفيلم من قبل. رأيت الرجل الذي يستيقظ في الغرفة المظلمة الرطبة. رأيت ذلك ثلاث مرات على الأقل. الطاولة التي تهتز الأشياءُ الصغيرة عليها مع مرور قطار. والرجل يحلق ذقنه أمام المرآة. والمرأة التي تحاول منعه من ذلك، لكنها تفشل. ولم أتجاوز هذه النقطة من الفيلم أبدًا.

وضعت ليندا رأسها على صدري ونظرت إليّ. قبلتها فأغمضت عينيها. مررت بيدي على ظهرها فاحتضنتني بقوة أكبر، صارت ملتحمة بي تقريبًا. مددتها وقبلت عنقها وخدها وفمها، ووضعت رأسي على صدرها فسمعت قلبها يخفق. خلعت عنها بنطلونها الرياضي وقبّلت بطنها وفخذيها... نظرت إليّ بعينيها الداكنتين، بعينيها الجميلتين اللتين أغمضتهما عندما ولجتها. همست لي قائلة إننا لا نستخدم الآن أي وسيلة من وسائل الوقاية. ألا تريد استخدام الواقي؟ قلت لها، لا. لا. وعندما بلغت تلك اللحظة الكبرى، قذفت في داخلها. كان هذا ما أردته تمامًا.

بعد ذلك بقينا زمنًا طويلًا راقدَيْن متجاورين من غير كلام.

قلت لها بعد ذلك الصمت الطويل: «الآن سيكون لدينا طفل آخر. هل أنت مستعدة لهذا؟».

قالت: «نعم. أوه، نعم. أنا مستعدة».

في الصباح التالي، استيقظت فانيا في الخامسة فجرًا، كعادتها. أتت ليندا بها إلى سريرنا لتنام معها بضع ساعات إضافية، أما أنا فنهضت وأخذت كمبيوتري المحمول وبدأت العمل على مادة مترجمة كنت أعد تقريرًا عنها. كان العمل طويلًا مجهدًا، وكنت قد كتبت ثلاثين صفحة عن تلك الرواية القصيرة التي لا تتجاوز مئة وأربعين صفحة. لكني كنت تواقًا إلى العمل وكنت مستمتعًا بالجلوس هناك. كنت وحدي، وأعمل على نص. لا حاجة بي إلى أي شيء آخر. ثم كانت هناك أيضًا لحظات السعادة الصغيرة: تشغيل آلة إعداد القهوة، وسماع صوت جيشان الماء الذي يقطر فيها، وشذى القهوة المتخمّرة، والوقوف في الخارج في ظلمة الفناء الخلفي قبل أن ينهض أحد من نومه، وشرب الفنجان وتدخين أول سيجارة في ذلك اليوم، ثم العودة إلى الأعلى، إلى العمل بينما تصير الفرجة بين البنايات مضاءة شيئًا بعد شيء وتزداد الحركة في الشارع. كان ألق الفجر مختلفًا هذا الصباح، ومعه صار الجو في الشقة مختلفًا أيضًا بسبب طبقة رقيقة من الثلج الذي هطل في الليل. أغلقت كمبيوتري في الثامنة صباحًا ووضعته في حقيبتي وسرت إلى المخبز الصغير الذي يبعد مئة متر. كانت مظلات المحلات على امتداد صف البنايات تخفق من فوقي. وكان الثلج في الشارع قد ذاب إلّا أن بعضه ظل باقيًا على الرصيف وقد انطبعت عليه آثار أقدام مَن مروا خلال الليل. لا أحد في الشارع هنا. كان مخبزًا صغيرًا تديره امرأتان في مثل سني. وكان دخوله أشبه بدخول فيلم من أفلام هوليوود السوداء في الأربعينيات، تلك الأفلام التي تكون النساء فيها (حتى النساء العاملات في الأكشاك أو اللواتي ينظفن الأرض في المكاتب) باهرات الجمال. كانت إحدى الخبازتين حمراء الشعر لها جلد أبيض ونمش وعينان خضراوان وتقاطيع وجه

قوية. وكان للأخرى شعر طويل داكن ووجه مربع قليلًا وعينان زرقاوان داكنتان ودودتان. كانتا طويلتين رشيقتين، وكانت آثار الطحين منتشرة على جسديهما: على جبهتيهما وخدودهما وأيديهما ومريلتيهما. وعلى الجدار، مقالات صحفية تتحدث عن قصتهما، كيف تركتا مهنتَهيْما الإبداعيتين لتعملا هنا لأنهما كانتا تحلمان بهذا.

جاءت حمراء الشعر من خلف طاولتها عندما سمعت صوت جرس الباب. طلبت ما أردته: واحد من أرغفة العجين الحامض الكبيرة، وست لفافات من دقيق القمح الكامل، وفطيرتين بالقرفة. كنت أشير إلى أنواع الخبز تلك بإصبعي لأن كلمة «ماذا؟» كانت ردًا دائمًا حتى على أبسط كلمة نرويجية أقولها.

وضعت المرأة كل شيء في كيس وظهر المجموع على آلة المحاسبة. عدت مسرعًا إلى الشقة حاملًا الكيس الأبيض في يدي فمسحت قدمي على الحصيرة عند الباب في الصالة. سمعت عند فتح الباب صوتيهما جالستين في المطبخ. كانتا تتناولان الفطور.

كانت فانيا تلوّح بملعقتها في الهواء. ابتسمت لي عندما دخلت المطبخ. كان وجهها ملطخًا كله بالعصيدة. مر زمن طويل منذ بدأت ترفض أن نطعمها بأيدينا. كانت ردة فعلي تلقائية، أردت أن أمسح لها وجهها. ما كنت أحب جلوسها هكذا دبقة كلها. كان هذا شيئًا في دمي. لقد انتقدت ليندا ردة فعلي منذ البداية وقالت إن من المهم عدم وجود أي قواعد أو ضوابط في ما يتعلق بالأكل لأن هذا أمر حساس: يجب تركها تفعل ما تريده بالضبط. كانت ليندا محقة طبعًا، وكنت أفهم هذا. كنت قادرًا أيضًا، على المستوى النظري البحت، على قبول شراهة فانيا وعلى قبول حرية الطفل وصحة السماح له بإصدار الأصوات وإثارة الفوضى عندما يأكل. أما على المستوى العملي، فقد كانت ردة فعلي الأولى ميّالة إلى التدخل وتعديل سلوكها. إنه أبي الموجود في داخلي. ما كان يتسامح حتى مع إسقاط كسرة خبز على الطاولة عندما كنت أكبر هناك. لكني كنت أدرك ذلك، وقد جربته

بنفسي وكرهته بكل خلية من خلايا جسدي؛ فلماذا أجد في نفسي هذه الرغبة التلقائية في الإصرار على الأمر رغم المخاطر كلها؟

قطعت بعض شرائح الخبز ووضعتها في السلة مع لفافات الخبز الأبيض. ملأت غلاية الماء وجلست لأفطر معهما. كانت الزبدة صلبة بعض الشيء. تمزقت قطعة الخبز عندما حاولت مد الزبدة عليها بالسكين. كانت فانيا تنظر إليّ. أدرت رأسي نحوها وثبتّ عينيَّ على عينيها. أجفلت في كرسيها. ثم بدأت تضحك. لحسن الحظ! فعلت ذلك مرة أخرى، نظرتُ إلى الطاولة أمامي، نظرت وقتًا طويلًا حتى بدأتْ تفقد الأمل في حدوث أي شيء وتظن أن ذهني منشغل بأمر آخر، ثم التفتّ إليها بسرعة البرق ونظرت في عينيها فقفزت في مقعدها فزعًا واتسعت عيناها متحفزتين. ثم انفجرت ضاحكة من جديد. ضحكت وضحكت ليندا معها.

قالت ليندا: «كم هي مضحكة هذه الفانيا! أنت مضحكة يا أرنبتي الصغيرة!».

انحنت ليندا وحكت أنفها بأنف فانيا. نظرت إلى القسم الثقافي في الصحيفة الموضوعة على الطاولة أمام ليندا. أخذت قضمة كبيرة من الخبز وبدأت ألوكها وأنظر إلى العناوين. على الطاولة خلفي، بدأ الماء يغلي، ثم توقفت الغلاية تلقائيًا. نهضت ووضعت كيسًا من الشاي في الفنجان، ثم سكبت فوقه الماء الحار وذهبت إلى البراد لأحضر علبة الحليب، ثم جلست. هززت كيس الشاي بضع مرات حتى بدأ السائل البني يخرج منه بطيئًا ويغير لون الماء. سكبت بعض الحليب وتابعت النظر في الجريدة.

قلت وأنا أنظر إلى ليندا: «هل رأيت ما يقولونه عن آرنه؟».

أومأت برأسها وابتسمت ابتسامة صغيرة، لكن ابتسامتها كانت في اتجاه فانيا لا في اتجاهي.

«رأيت. لقد سحب الناشر الكتاب. يا لها من هزيمة».

«نعم، مسكين آرنه، لكنه لا يستطيع لوم أحد غير نفسه».

«أتظنينه يعرف أن ما كتبه أكاذيب؟».

«لا، إطلاقًا. لم يفعل هذا قصدًا. وأنا واثقة من ذلك. لا بد أن يكون قد ظن أن الأمر كان كذلك فعلًا».

قلت: «يا للتعس المسكين!»، ثم حملت الفنجان وأخذت رشفة من الشاي الذي جعله الحليب بنيًا بلون الطين.

كان آرنه واحدًا من جيران والدة ليندا في غنيستا. وقد صدر كتابه عن آستريد ليندغرين هذا الخريف. وكان مستندًا بطريقة فضفاضة إلى أحاديث أجراها معها قبل وفاتها. كان آرنه شخصًا روحانيًا مؤمنًا بالله؛ رغم أن ذلك لم يكن إيمانًا على الطريقة التقليدية. ولا بد أنه أثار دهشة أشخاص كثيرين عندما قال إن آستريد ليندغرين كانت تشاركه إيمانه غير التقليدي. كانت الصحف قد بدأت تهتم بالمسألة. لم يكن أحد شاهدًا على تلك الأحاديث. وبالتالي، وبما أن ليندغرين لم تعبّر أبدًا عن هذه الآراء أمام أحد آخر، فإن من غير الممكن إثبات أنه لم يختلق ذلك كله. لكن الصحف تحدثت عن أشياء أخرى أيضًا. وكان من بين تلك الأشياء أن آرنه قرأ كتابات ليندغرين منذ زمن بعيد جدًا: ذكر أنه قرأ كتابها «ميو، مين ميو» في وقت لم يكن فيه ذلك الكتاب قد صدر بعد. كان كتابه حافلًا بأمور من هذا القبيل. أنكرت عائلة ليندغرين إن آراءها كانت هكذا، ونفت إمكانية أن تكون قد قالت هذا الكلام. فأمعنت الصحف في تقطيع آرنه إربًا؛ وكان ما بين السطور يقول إنه كاذب، بل إنه مريض بالكذب. هذا ما جعل الناشر يقرر سحب الكتاب من السوق. إنه الكتاب الذي جعل آرنه قادرًا على الاستمرار في العيش خلال بضع سنوات من المرض، الكتاب الذي كان محل اعتزازه. لكن ليندا كانت محقة. ليس له إلّا أن يلوم نفسه.

وضعت الزبدة على قطعة خبز أخرى. رفعت فانيا ذراعيها في الهواء فحملتها ليندا من الكرسي وأخذتها إلى الحمام. ومن هناك سمعت صوت الماء الجاري وزعقات ليندا الصغيرة المحتجة.

رن الهاتف في غرفة المعيشة. تجمدت في مكاني. ومع أنني عرفت على الفور أن والدة ليندا، إنغريد، هي من يتصل (لا يتصل أحد غيرها في هذه

الساعة من النهار)، فإن قلبي راح يدق أسرع فأسرع. جلست من غير حركة إلى أن توقف رنين الهاتف. توقف فجأة مثلما بدأ فجأة.

سألتني ليندا عندما عادت من الحمام حاملة فانيا بين ذراعيها: «من المتصل؟».

قلت لها: «لا أعرف. لم أرد على الهاتف. لكني أظنها أمك».

قالت: «سأتصل بها. كنت أعتزم الاتصال بها على أي حال. هل تأخذ فانيا؟».

مدّتها إليّ كأن حضني المكان الوحيد في الشقة الذي يمكنه استقبالها.

قلت لها: «ضعيها على الأرض».

«ستبكي إذا وضعتها».

«دعيها تبكي. إنها ليست مشكلة».

قالت: «لا بأس». قالتها بطريقة تعني العكس، تعني أن هذا ليس شيئًا حسنًا لكني أفعله لأنك تقول ذلك. وسوف ترى ما يحدث.

وبالطبع، بدأت فانيا البكاء لحظة وضعتها ليندا على الأرض. مددت يدي إليها فمدت يديها وسقطت على الأرض. لم تلتفت ليندا. فتحت الدرج الذي كنت قادرًا على الوصول إليه وأنا جالس على الكرسي فأخرجت خفاقة البيض. لم تثر الخفاقة اهتمام فانيا حتى عندما رحت أهزها. مددت يدي إليها بموزة فهزت رأسها بينما كانت الدموع تجري على خديها. رفعتها آخر الأمر وحملتها إلى نافذة غرفة النوم حيث جعلتها تقف على طوارها. نجحت هذه المرة. رحت أذكر لها أسماء الأشياء التي نراها. فبدأت تنظر إليها مهتمة وتشير إلى كل سيارة تمر في الشارع أمامها.

مدت ليندا رأسها من الباب وهي تضغط بسماعة الهاتف على صدرها.

قالت: «أمي تسأل إن كنا راغبين في تناول الطعام عندها يوم غد، ما رأيك؟».

قلت: «نعم، هذا جيد».

«هل أقول لها إننا موافقان؟».

«قولي لها».

أنزلت فانيا برفق إلى الأرض. كانت قادرة على الوقوف، لكنها لا تستطيع المشي. وضعت يديها على الأرض، ثم حبت في اتجاه ليندا. لا تحتمل هذه الطفلة أن تنتظر لحظة واحدة قبل تلبية حاجاتها. ظلت طيلة سنتها الأولى تقريبًا تستيقظ كل ساعة في الليل لأنها تريد أن ترضع. كادت ليندا تجن تعبًا، لكنها لم تكن تقبل أن تضع فانيا في سريرها لأنها ستبكي. كنت مع النهج الخشن في التعامل: فلنضعها في سريرها ونتركها تبكي قدر ما تشاء ولو استمر ذلك طيلة الليل لأنها ستفهم في المرة التالية أن أحدًا لن يكترث بها مهما فعلت. ستغضب كثيرًا، لكنها ستقبل آخر الأمر وستنام وحدها. كنت أيضًا مستعدًا أن أخبر ليندا أنني لا أجد مشكلة في ضربها حتى تهدأ. لكن تسوية الخلاف أتت من خلال اتصالنا بإنغون، شقيقة أمي، التي كانت اختصاصية نفسية للأطفال، وكانت لديها خبرة في هذه الأمور. اقترحت إنغون فطامًا متدرّجًا وشدّدت على أن من الضروري التربيت على فانيا ومداعبتها كثيرًا عندما تريد الرضاعة، أو عندما لا نريد السماح لها بالنهوض عندما تستيقظ من نومها؛ وقالت إن ذلك سيجعل من الممكن شيئًا فشيئًا أن تتقبل الطعام الذي نقدمه إليها في الصباح. وهكذا صرت أجلس عند سريرها في الليل حاملًا دفترًا صغيرًا في يدي لتسجيل المواعيد الدقيقة لاستيقاظها وللتربيت عليها بينما تصرخ وتبكي وتنظر إليّ بعينين غاضبتين. استغرق الأمر عشرة أيام حتى صارت تنام طيلة الليل. كان يمكن تحقيق هذه النتيجة في يوم واحد! هل يؤذيها أن تبكي قليلًا؟ حدث الأمر نفسه في أماكن لعب الأطفال في المقاهي. كنت أحاول أن أجعلها تظل وحدها هناك حتى أستطيع الجلوس على المقعد والقراءة، لكن ذلك كان مستحيلًا: لا تمر إلّا ثواني معدودة قبل أن تبدأ عيناها البحث عني وتمد ذراعيها في اتجاهي.

أغلقت ليندا الهاتف وجاءت حاملة فانيا بين ذراعيها.

سألتني: «هل نذهب في نزهة؟».

قلت: «لا أظن أن لدينا شيء آخر نفعله».
قالت بحذر: «ماذا تعني؟».
قلت: «لا شيء. أين تحبين الذهاب؟».
«ما رأيك في الذهاب إلى سكيبشولمن؟».
«لا بأس، فلنذهب إلى سكيبشولمن!».

بما أنني كنت أرعى فانيا طيلة الأسبوع، فإن ليندا هي من يعتني بها الآن. أجلست فانيا في حضنها وألبستها كنزتها الصغيرة الحمراء التي ورثناها عن أطفال إنغفه، ثم ألبستها بنطلونًا قطنيًا ثقيلًا بني اللون وأوفرولًا أحمر اشترته لها أم ليندا؛ وبعد ذلك، وضعت على رأسها القبعة الحمراء ذات الحافة البيضاء والشريط الذي يربط تحت الذقن، وكذلك قفّازين من الصوف الأبيض. حتى ما قبل شهر واحد من الآن، كانت فانيا تظل هادئة عندما نغيّر ثيابها. لكنها بدأت مؤخرًا تتحرك وتتلوّى بين أيدينا. كان ذلك شيئًا صعبًا، خاصة عندما نريد تغيير حفاضها لأن محتوياته ستتناثر في كل مكان إذا ظلت تتلوى هكذا. رفعت صوتي عليها أكثر من مرة. «اهدأي!» أو «ابقي هادئة بحق الرب!» وعند ذلك، تشتد قبضة يدي عليها أكثر مما هو ضروري. أما من جانبها فقد وجدت متعة في محاولة التملص، وكانت تبتسم دائمًا أو تضحك كلما أفلحَتْ في ذلك... فلم تفهم في البداية معنى صوتي المرتفع المنزعج. كانت تتجاهل ذلك كله أحيانًا، أو تنظر إليّ بدهشة... ما معنى هذا؟ أو تبكي. في البداية، تتدلى شفتها السفلى وترتجف قليلًا، ثم تنهمر الدموع. ما هذا الذي أفعله؟ هكذا كنت أسأل نفسي. هل فقدت عقلي تمامًا؟ إن عمرها سنة واحدة، وهي بريئة كالبراءة نفسها، لكني أصرخ فيها!

كان إرضاؤها هينًا، لحسن الحظ، وكان هينًا أن نجعلها تضحك. ولحسن الحظ أيضًا، كانت ذاكرتها قصيرة الأمد. لكن الأمر كان أسوأ بالنسبة إليّ، من هذه الزاوية.

كانت ليندا أكثر صبرًا. خلال خمس دقائق، صارت فانيا مرتدية ثيابها كلها وعلى ثغرها ابتسامة ترقّب. حاولت أن تضغط الأزرار في المصعد.

لكن ليندا أشارت لها إلى الزر الأيمن، ثم قادت يدها إليه. أضاء الزر، وانطلق المصعد. مضت بها ليندا إلى غرفة الدراجات، حيث كانت عربتها، فخرجتُ وأشعلت سيجارة. لا تزال الريح قوية والسماء رمادية ثقيلة. كانت درجة الحرارة بين الصفر والواحد تحت الصفر. سرنا في شارع ريغيرينغسغاتان، ثم انتهينا إلى كونغزترادغاردن وتجاوزنا المتحف الوطني، ثم انعطفنا يسارًا ودخلنا جزيرة سكيبشولمن. سرنا على امتداد الأرصفة البحرية حيث يجد المرء الزوارق المنزلية كلها. كان هنالك زورقان من أوائل القرن الماضي. في أيام عزهما، كان يبحران بين الجزر الكثيرة حول ستوكهولم. كان في ذلك المكان شيئًا يشبه ساحة لوقوف الزوارق، أو هكذا بدت لي لأن فيها رصيفًا طويلًا داخل حوض كبير له عوارض خشبية مرتبة على هيئة الأضلاع في هيكل عظميّ وفوقه سقف خشبي. ومن حين لآخر، كان وجه ملتحٍ ينظر إلينا خلال سيرنا؛ وفي ما عدا ذلك كانت المنطقة خالية من الناس. وفوق تلة صغيرة، يقوم متحف الفن الحديث حيث أمضت فانيا عددًا من أيام حياتها ما كان متناسبًا مع صغر سنها. لكن الدخول كان مجانيًا، والمطعم جيدًا مناسبًا للأطفال لأن فيه أماكن للعب؛ كما أن بعض الأعمال الفنية المعروضة هناك يستحق المشاهدة.

بدا الماء في الميناء أسود اللون. كانت الغيوم كثيفة منخفضة في السماء. وبدت طبقة الثلج الخفيفة على الأرض كأنها تجعل كل شيء أكثر قساوة وأكثر عريًا، ربما لأنها محت الألوان القليلة الباقية في هذا المشهد المديني. هنا، كانت مباني المتحف كلها منشآت عسكرية في ما مضى، ولا تزال تحمل علامات من ماضيها: كتل منخفضة مغلقة منتشرة على امتداد طرق لا تتحرك فيها سيارات كثيرة أو منتصبة عند نهاية ساحة لا بد أنها كانت ساحة الاستعراض.

قالت ليندا وهي تحيطني بذراعها: «كان ذلك رائعًا يوم أمس».

قلت: «نعم، كان رائعًا. لكن، هل أنت حقًا راغبة في طفل آخر الآن؟».

«نعم، أريد طفلًا. لكن الاحتمال قليل».

قلت: «أنا واثق من أنك حبلى الآن».

«بقدر ثقتك بأن فانيا كانت صبيًا».

«ها ها!».

قالت: «يسعدني كثيرًا أن أكون حبلى. تخيل أنني حبلى! تخيل أن ننجب طفلًا آخر!».

«نعم... ما رأيك في هذا يا فانيا؟ هل تريدين أخًا صغيرًا أو أختًا صغيرة؟».

رفعت فانيا رأسها ونظرت إلينا، ثم استدارت جانبًا وأشارت إلى النوارس المتهادية فوق الأمواج.

قالت فانيا: «دييه!».

قلت لها: «نعم، هناك... إنها ثلاثة نوارس».

كانت فكرة الطفل الوحيد غير مقبولة عندي أبدًا. وكنت أرى أن طفلين أقل مما يجب وأنهما سيكونان أكثر قربًا مما يجب. أما ثلاثة أطفال فهي الحالة المثالية! عند ذلك، سيكون عدد الأطفال أكثر من الوالدين وستنفتح احتمالات كثيرة... سنكون عصبة صغيرة. لم أكن أشعر بغير الازدراء تجاه الخطط الدقيقة لتحديد التوقيت المناسب للحمل، سواء من حيث ما يتعلق بحياتنا أو من حيث تناسب الأعمار بين الأطفال. ليس هذا عملًا تجاريًا نديره! أريد أن يقرر الحظ ذلك وليكن ما يكون؛ وعندها نتعامل مع النتائج كما تأتي. أليست الحياة هكذا؟

عندما أسير في الشوارع مع فانيا، وعندما أطعمها وأغيّر لها ملابسها، مع هذا التوق المجنون إلى حياة مختلفة، التوق الذي يضطرم في صدري... فإن هذا جاء نتيجة قرار؛ وعليّ أن أتعايش مع تلك النتيجة. لا مخرج من هذا غير الدرب القديم المعروف: الصبر والتحمّل! وأما حقيقة أنني أنغّص حياةَ من حولي عندما أصبر وأتحمل... نعم، لا بأس... هذه مجرد نتيجة أخرى لا بد من تحملها. إن صار لدينا طفل آخر، وسوف يصير بصرف النظر عمّا إذا كانت ليندا قد حملت الآن أو لم تكن، وبعده طفل آخر (هذا ما

كان محتومًا أيضًا)، فمن المؤكد أن هذا سوف يتجاوز الواجب، وسوف يتجاوز توقي وينتهي إلى شيء منطلق حر بطبيعته ذاتها. إن لم يكن كذلك، فماذا أفعل؟ أن أكون هناك وأفعل ما يجب أن أفعله! في حياتي، هذا هو الشيء الوحيد الذي يتعيّن عليّ التمسك به، إنه النقطة الثابتة الوحيدة... نقطة محفورة في الصخر.

هل هي كذلك؟

اتصل بي جيبِه منذ بضعة أسابيع. كان في ستوكهولم. هل نلتقي ونشرب بضع زجاجات من البيرة؟ كنت أحترمه كثيرًا، لكني لم أتمكن من الحديث معه في أي مرّة (هكذا كانت الحال مع أشخاص كثيرين). إلّا أن الأمور تراخت بعد أن شربت عددًا كبيرًا من كؤوس البيرة في تتابع سريع. أخبرته عن حياتي كما هي الآن. نظر إليّ وقال بتلك السلطة الطبيعية المألوفة فيه: «لكن عليك أن تكتب يا كارل أوفه».

عندما يجد الجد، وعندما تأتي ساعة الحقيقة، يكون هذا أهم من أي شيء آخر.

لكن لماذا؟

الأطفال حياة؛ فمن الذي يدير ظهره إلى الحياة؟

الكتابة!... ماذا فيها غير الموت؟ الحروف... ما الحروف إن لم تكن مجرد عظام في مقبرة؟

كانت عبّارة ديورغاردن تلتف من حول الزبد الذي في نهاية الجزيرة قادمة في اتجاهنا. على الضفة الأخرى تقع مدينة الألعاب غرونا لوند التي كانت آلاتها الآن متوقّفة فارغة كلها، وكان بعضها مغطى بالتاربولين. وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار، كان المبنى الذي يحتوي على السفينة الشهيرة «فاسا».

سألتني ليندا: «هل نأخذ العبّارة إلى الجزيرة؟ وهناك يمكننا أن نتناول الغداء في مطعم بلابورتن».

قلت: «لقد أفطرنا منذ قليل».

«نشرب القهوة إذًا!».

«نعم، يمكننا فعل ذلك. هل تحملين نقودًا؟».

كان معها نقود. انتظرنا حيث ترسي العبارة. بدأت فانيا تتذمر بعد لحظات من وقوفنا. عثرت ليندا على موزة في الحقيبة فناولتها إياها. جلست فانيا مسرورة في عربتها وراحت تنظر إلى البحر وتأكل الموزة. ذكّرني هذا بأول مرة أخرج معها وحدي لأننا أتينا يومها إلى هذا المكان. كان عمرها أسبوعًا فقط. ويومها، اجتزت الجزيرة شبه راكض وأنا أدفع العربة أمامي خائفًا من أن تكف عن التنفس، خائفًا من أن تستيقظ وتبكي. كان الوضع في البيت تحت السيطرة: هنالك رضاعة ونوم وتغيير حفاضات ضمن تسلسل ناعس لكنه منتصر على نحو هادئ خفيٍّ أيضًا. أما خارج البيت، فما كان لدينا شيء ثابت نتعلق به. أخذناها خارج البيت في يومها الثالث. كان علينا أن نأخذها من أجل الفحص الطبي. فكنا كمن ينقل قنبلة. كانت الملابس التي يجب أن ترتديها أول العقبات لأن الحرارة في الخارج كانت أقل من خمس عشرة درجة تحت الصفر. وكان كرسي الأطفال العقبة الثانية؛ فكيف يثبته المرء في سيارة التاكسي؟ أما عقبتنا الثالثة فكانت عيناها اللتان راحتا تتفحصاننا في ردهة الاستقبال في المستشفى. لكن كل شيء جرى على ما يرام، نجونا رغم كل الارتباك الذي كنا فيه. إلّا أن الأمر كان يستحق هذا العناء لأنها استلقت هادئة على الطاولة بعد بضع دقائق، وراحت تحرك ساقيها بهدوء وهم يفحصونها. كانت في صحة ممتازة وفي مزاج طيب تصعب مقاومته لأنها ابتسمت فجأة للممرضة المنحنية فوقها. قالت الممرضة إن تلك كانت ابتسامة حقيقية وليست تكشيرة. أمر نادر أن يبتسم الأطفال الرضّع في هذا الوقت المبكر! انتشينا لسماع هذا الإطراء لأنه يقول شيئًا طيبًا عنّا أيضًا. لم أفهم إلّا بعد أشهر أن تلك العبارة، «أمر نادر أن يبتسم الأطفال الرضع في هذا الوقت المبكر!» ربما قيلت بقصد إحداث هذا التأثير في هذا الوقت تحديدًا. لكن، أوه، كيف كان ضياء شهر كانون الثاني الخفيض، الخجل على نحو ما، يسقط عبر النافذة فيغمر ابنتنا على الطاولة، ابنتنا التي لم نعتد

وجودها بعد. كان الجليد في الخارج يلمع في ذلك البرد الشديد، وكانت ليندا منطلقة منفتحة تمامًا بوجه مرتاح. هذا ما جعل تلك اللحظات واحدة من الذكريات القليلة الخالية من أدنى أثر من التردد أو التناقض. استمر ذلك الإحساس حتى خرجنا إلى الممر وصرنا مستعدين للذهاب لأن فانيا بدأت تزعق بأعلى صوتها. ماذا نفعل؟ هل نحملها؟ نعم، علينا أن نحملها! هل ترضعها ليندا؟ إن كانت تريد الرضاعة، فكيف؟ كنا قد ألبسناها ثيابًا كثيرة استعدادًا للخروج في طريق العودة إلى البيت حتى صارت منتفخة كالبالون، هل نخلع عنها ثيابها من جديد؟ هل نخلع عنها ثيابها وهي تزعق؟ أهذا ما يفعله الناس؟ ماذا نفعل إذا لم تهدأ بعد ذلك؟

أوه... كم زعقت فانيا عندما كانت ليندا تخفّف عنها ثيابها بحركات عصبية غير واثقة.

قلت لها: «دعيني أفعل هذا!».

رفرفت عيناها عندما التقت عيني.

سكتت فانيا بضع ثواني عندما أطبقت شفتيها على حلمة صدر أمها. لكن رأسها لم يلبث أن ارتد مبتعدًا وتابعت الزعيق بأعلى صوتها.

قالت ليندا: «لا تريد الرضاعة!».

«فما الأمر إذن؟ هل هي مريضة؟».

قالت ليندا: «لا! أشك في هذا. لقد فحصتها الطبيبة قبل قليل».

ظلت فانيا تصرخ وتصرخ. صار وجهها الصغير كله محمرًا متشنّجًا.

قالت ليندا يائسة: «ماذا نفعل؟».

أجبتها: «احمليها قليلًا، وسوف نرى».

خرج الرجل والمرأة اللذين كانا دورهما بعدنا من غرفة الفحص مع رضيعهم المحمول في مقعد السيارة. تعمدا عدم النظر إلينا عندما مرّا بنا.

قلت لليندا: «لا يمكننا البقاء واقفين هنا. فلنذهب! هيا الآن! اتركيها تصرخ».

«هل طلبت سيارة تاكسي؟».

«لا».

«هل أطلبها!».

نظرت ليندا إلى فانيا التي تحتضنها بين ذراعيها. إلّا أن ذلك الاحتضان لم يكن مفيدًا فقد كان الاتصال بينهما غير وثيق نتيجة ملابس فانيا الكثيرة وسترة ليندا المنفوخة السميكة. أخرجت هاتفي المحمول وطلبت الرقم وأنا أحمل كرسي فانيا بيدي الأخرى، ثم سرت صوب السلم في نهاية الممر.

قالت ليندا: «انتظر. يجب أن نلبسها قبعتها».

استمر زعيق فانيا طيلة فترة انتظار سيارة التاكسي. ومن حسن حظنا أن السيارة وصلت بعد بضع دقائق. فتحت الباب الخلفي، ووضعت كرسي فانيا، ثم حاولت تثبيته بحزام الأمان. فعلت ذلك قبل ساعة من غير أي صعوبة، لكن ذلك بدا أمرًا مستحيلا الآن. حاولت تثبيت الحزام بكل طريقة ممكنة، عبر الكرسي ومن فوقه ومن تحته، لكني لم أنجح. جرى ذلك كله تحت وقع زعيق فانيا ونظرات ليندا الغاضبة. وفي النهاية، نزل السائق ليساعدني. رفضت التحرك أول الأمر وقلت له إنني قادر على فعل ذلك وحدي، شكرته؛ لكن دقيقة أخرى من المحاولات الفاشلة انقضت فاعترفت بهزيمتي وتركته يثبت الحزام. كان السائق رجلًا له شاربان... بدا لي عراقيًا. ثبت حزام الأمان في لحظة واحدة.

ظلت فانيا تزعق طيلة طريقنا في ستوكهولم التي كساها ثلج متألق. لم تتوقف إلّا بعد دخولنا البيت، بعد أن صارت عارية مستلقية على السرير مع ليندا.

كان العرق يغمرنا، كلينا.

قالت ليندا وهي تنهض من عند فانيا الغافية على السرير: «كان هذه محنة حقيقية».

قلت: «صحيح. لكنها صاحبة عزم على أي حال!».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، سمعت ليندا تخبر أمها بما جرى خلال

الفحص الطبي. لم تقل كلمة عن ذلك الزعيق كله ولا عن الذعر الذي كنا فيه، أبدًا... كان ما أخبرتها به هو أن فانيا ابتسمت عندما كانت على طاولة الفحص. كم كانت ليندا سعيدة معتزة بذلك! لقد ابتسمت فانيا؛ وهي في صحة ممتازة! كان ضياء الشمس المنخفضة في الخارج، ذلك الضياء الذي زادته جمالًا السطوح التي كساها الثلج، جعل كل شيء في الغرفة ناعمًا لامعًا، حتى فانيا المستلقية عارية على البطانية تحرك ساقيها في الهواء.

أما ما حدث بعد ذلك فلم تقل عنه شيئًا. الآن، ونحن ننتظر العبّارة في الريح، بعد سنة تقريبًا من ذلك اليوم، بدا المشهد كله غريبًا. كيف كنا جاهلَين إلى هذا الحد؟ لكن الأمر كان هكذا، ولا أزال قادرًا على تذكر كيف كان إحساسي الداخلي في ذلك الوقت، وكيف كان كل شيء يبدو لي هشًا سريع العطب، وأيضًا تلك السعادة التي كانت مشعة في كل مكان. ما كان في حياتي شيء يجعلني مستعدًا لأن يكون لدي طفل، بل لم أكد أرى طفلًا رضيعًا من قبل. كانت ليندا مثلي: لم تعرف أي رضيع عن قرب بعد أن كبرت. كان كل شيء جديدًا علينا، وكان علينا أن نتعلم كل شيء، بما في ذلك الأخطاء الكثيرة التي كان لا بد من ارتكابها. سرعان ما بدأت أنظر إلى عناصر كثيرة من تفاصيل رعاية الأطفال باعتبارها تحديات كما لو أنني أشارك في مباراة أو منافسة يتحدد الفوز فيها من خلال القدرة على معالجة أكبر عدد ممكن من الأمور في وقت واحد؛ ثم تابعت ذلك عندما صرت مسؤولًا عن فانيا في فترة النهار إلى أن لم يعد هنالك عناصر جديدة، وإلى أن اكتمل فتح هذا الميدان الصغير ولم يبق فيه إلّا تكرار روتيني للأشياء نفسها.

بدأت العبّارة تتراجع ببطء مجتازة الأمتار الأخيرة في اتجاه الرصيف. فتحت قاطعة التذاكر البوابة فاتضح أننا المسافرون الوحيدون. دفعنا العربة أمامنا وصعدنا إلى العبارة. كانت فقاعات من ماء رمادي مخضرّ تندفع إلى السطح من حول المراوح. أخرجت ليندا محفظتها من الجيب الداخلي في سترتها الزرقاء، ودفعت ثمن التذكرتين. وقفت ممسكًا بالحاجز المعدني

ورحت أنظر إلى المدينة. رأيت الشكل الأبيض لمسرح الدراما الملكي، وسلسلة التلال الفاصلة بين بيرغريارلسغاتان وسفيفاغن حيث كانت شقتنا. كتلة البناء الضخمة التي تكاد تملأ كل مكان. كم كانت نظرتي هذه مختلفة، تلك النظرة التي لا تعرف شيئًا عن الغاية من الطرقات والبيوت بل تعتبرها أشكالًا وكتلًا فحسب، نظرة الحمامات التي تطير فوق المدينة وتحط على الأرض... كيف ترى المدينة، وكيف يجعل هذا النزول كل شيء غريبًا. متاهة عملاقة من الممرات والتجاويف، بعضها تحت سماء مفتوحة، وبعضها مغلق، وبعضها تحت الأرض في قنوات ضيقة تجري فيها القطارات كأنها يرقات.

أكثر من مليون من البشر يعيشون حياتهم هنا.

«قالت أمي إن من الممكن أن ترعى فانيا أيام الاثنين إذا أردنا. في هذه الحالة، ستكون حرًا يوم الاثنين».

قلت: «أريد ذلك، بالطبع».

قالت: «لا يوجد في هذا الأمر شيء اسمه بالطبع».

أحسست انزعاجًا، في عقلي فقط.

تابعت ليندا: «لكننا نستطيع النوم هناك، ثم نعود معًا في الصباح الباكر. يمكننا أن نفعل هذا إذا أردت. وسوف تجلب أمي فانيا بعد الظهر».

قلت: «تبدو هذه خطة جيدة».

عندما رست العبّارة على الشاطئ الآخر، خرجنا إلى الشارع الذي عند المعرض. يملأ الناس هذا الشارع دائمًا في أشهر الصيف فيراهم المرء مصطفين أمام بيع التذاكر أو أكشاك الهوت دوغ، أو يأكلون في مطاعم المأكولات السريعة على امتداد الطريق، أو يتمشون فقط. تكون أرض الشارع مليئة بالتذاكر والنشرات الدعائية وأغلفة الآيس كريم وورق تغليف الهوت دوغ والمناديل الورقية وأكواب الكوكا كولا وعلب العصير وكل شيء آخر مما يرميه الناس المستمتعون بوقت الفراغ. لكن الشارع أمامنا كان الآن نظيفًا خاويًا هادئًا. لا يرى المرء أحدًا في أي مكان، لا في المطاعم

المصطفة على أحد جانبي الشارع، ولا في المنتزه إلى الناحية الأخرى. على تلة صغيرة في نهاية الشارع، يقع «سيركوس» حيث تقام الحفلات الموسيقية. ذهبت مرة مع آنديرس إلى المطعم الذي هناك. كنا نبحث عن مكان نشاهد فيه إحدى مباريات الدرجة الأولى في كرة القدم. وجدنا أنهم يعرضون المباراة التي أردناها على شاشة تلفزيون في عمق المطعم. لم نر هناك إلّا شخصًا واحدًا غيرنا. كانت الإنارة خافتة، والجدران داكنة، لكن ذلك الشخص كان يضع نظارة شمسية. لقد كان تومي كوربرغ! ظهرت صورته على الصفحات الأولى من كل صحيفة في ذلك اليوم لأنه ضُبط وهو يقود السيارة مخمورًا. كان من المستحيل أن تمشي مترًا واحدًا في ستوكهولم من غير أن ترى وجهه. وهو الآن مختبئ عن الناس هنا. يبدو أن العيون التي تتجنب النظر إليه كانت مزعجة له مثل النظرات المباشرة الفاضحة لأنه خرج بعد وقت قصير من دخولنا رغم أن أحدًا منا لم ينظر في اتجاهه ولو مرة واحدة.

بالمقارنة مع ما يعانيه هذا الرجل الآن، تبدو أسوأ هجمات المشاعر الفظيعة التي تأتيني بعد الإفراط في الشرب كأنها لا شيء.

رُنّ هاتفي في جيبي. أخرجته ونظرت إلى الشاشة. إنه إنغفه.

قلت: «مرحبًا».

«مرحبًا، كيف الأحوال؟».

«بخير، وماذا عنك؟».

«أنا بخير».

«جيد. إنغفه... نحن ندخل أحد المقاهي الآن. هل يمكنني الاتصال بك فيما بعد؟ في وقت ما بعد الظهر؟ أم أن هنالك شيئًا تريد قوله الآن؟».

«لا، لا شيء. نتحدث لاحقًا».

«إلى اللقاء».

«إلى اللقاء».

أعدت الهاتف إلى جيبي وقلت: «إنه إنغفه».

سألتني ليندا: «هل هو بخير؟».

رفعت كتفي وقلت: «لست أدري؛ لكني سأتصل به فيما بعد».

بعد أسبوعين من بلوغه الأربعين، ترك إنغفه زوجته كاري آن وانتقل إلى بيت آخر. حدث هذا كله على نحو مفاجئ تمامًا. لم يخبرني عن خططه إلّا عندما زارني آخر مرة. نادرًا ما يتحدث إنغفه عن شؤونه الشخصية فهو يحتفظ في نفسه بكل شيء تقريبًا إلّا إذا طرحت عليه أسئلة مباشرة. هكذا هو إنغفه. لكن هذا لا يحدث دائمًا. كما أنني لا أريد معرفة أنه كان يعيش حياة لا يريدها. وهكذا كان الأمر قد انتهى عندما أخبرني؛ وقد كنت سعيدًا من أجله. إلّا أنني لم أستطِع منع نفسي عن التفكير في أبي لأنه ترك أمي بعد أسابيع قليلة من إتمامه الأربعين. هذا التوافق في السن! لا يكاد الفارق يبلغ شهرًا واحدًا! ليس هذا شيئًا يسري في العائلة، ولا هو مسألة وراثية؛ كما أن أزمة أواسط العمر ليست مجرد أسطورة: لقد بدأت تصيب الناس الذين من حولي؛ بدأت تصيبهم بقوة. كاد بعضهم يجن يأسًا وقنوطًا. من أجل ماذا؟ من أجل مزيد من الحياة. في سن الأربعين، تكون الحياة التي عشتها حتى تلك اللحظة (هكذا تبدو دائمًا في ذلك الوقت)، قد صارت **الحياة** نفسها، لا شيء آخر! يكتسح هذا الاكتشاف أحلامك كلها ويدمّر كل ما لديك من أفكار عن الحياة الحقيقية، الحياة التي يجب أن تكون، الأشياء الكبيرة التي ستحققها... تصير هذه الأشياء كلها في مكان آخر. عندما تصير في الأربعين، تدرك أن ذلك كله موجود في حياتك هذه، في الحياة اليومية المبتذلة التي اكتمل تشكلها، التي ستظل هكذا دائمًا إلّا إذا فعلت شيئًا ما؛ إلّا إذا أقدمت على مقامرة أخيرة.

فعل إنغفه ذلك لأنه أراد حياة أفضل. فعل أبي ذلك لأنه أراد حياة مختلفة اختلافًا جذريًا. هذا ما جعلني غير قلق على إنغفه. لم أشعر بقلق على إنغفه في حياتي كلها: إنه يتدبّر أمره دائمًا.

كانت فانيا قد نامت في عربتها. توقّفت ليندا ووضعتها على ظهرها ثم ألقت نظرة على اللوح الذي على الرصيف أمام مطعم بلابورتن لتعرف وجبة اليوم فيه.

قالت: «إنني جائعة في الحقيقة. ماذا عنك؟».

قلت: «يمكنني أن أتناول شيئًا من أجل الغداء. كرات لحم الخروف».

كان مطعمًا لطيفًا. فيه فسحة مفتوحة في الوسط، مليئة بالنباتات، وفيه نافورة يمكن أن يجلس المرء بالقرب منها في شهور الصيف. وفي الشتاء، يكون المكان الأفضل في المطعم ذلك الممر الطويل ذو الجدران الزجاجية. الزبائن هم نقطة الضعف في هذا المكان لأن أكثرهم من النساء المثقّفات في الأربعينات والخمسينات.

فتحت الباب لليندا فدفعت العربة أمامها ودخلت، ثم أمسكت بالقضيب السفلي بين العجلتين الخلفيتين فحملت العربة ونزلت بها الدرجات الثلاث. كان المكان نصف ممتلئ. اخترنا الطاولة الأخيرة البعيدة عن الناس تحسّبًا لاحتمال أن تستيقظ فانيا. ذهبت لأختار الطعام وأحمله. كانت كورا جالسة في الخلف إلى طاولة عند النافذة. نهضت مبتسمة عندما رأتنا.

«مرحبًا! كم هو لطيف أن أراكما أنتما الاثنين!».

عانقت ليندا، ثم عانقتني.

قالت لنا: «كيف أحوالكما؟».

قالت ليندا: «جيدة، كيف حالك أنت؟».

«جيدة. إنني هنا مع أمي، مثلما ترين».

أومأت برأسي لأمها التي رأيتها مرة واحدة قبل ذلك في حفلة أقامتها كورا، فحيّتني بهزة من رأسها.

سألتنا كورا: «هل أنتما وحدكما هنا؟».

أجابت ليندا: «لا! فانيا معنا».

«أوه، نعم. هل ستبقيان هنا طويلًا».

قالت ليندا: «نعم... أظن هذا...».

قالت كورا: «سأعود بعد قليل. وعند ذلك يمكنني أن أسترق نظرة إلى ابنتكما. ما رأيكما في هذا؟».

قالت ليندا: «بالطبع»، ثم ذهبنا لنتخذ مكاننا في صف الأشخاص المنتظرين.

كانت كورا أول من تعرفت عليها من صديقات ليندا. إنها تحب النرويج وكل شيء نرويجي. وقد عاشت هناك بضع سنوات فصارت ميالة إلى تكلم النرويجية عندما تكون ثملة. إنها الشخص السويدي الوحيد ممن عرفتهم الذي يفهم أن هنالك اختلافات كبيرة بين بلدينا. وقد فهمت هذا بالطريقة الوحيدة التي يمكن فهمه بها: جسديًا. كيف يتصادم الناس في الشوارع والمحلات ووسائل النقل العامة، وكيف يتحدث الناس في النرويج، في الأكشاك وصفوف الانتظار وسيارات التاكسي. اتسعت عيناها دهشة عندما قرأت الصحف النرويجية ورأت نبرة النقاش فيها. يجلد بعضهم بعضًا بلسانه، يجلده حقًا! قالت هذا متحمّسة. إنهم يضعون في النقاش كل ما لديهم! وهم لا يخافون من شيء! والمرء لا يجد عندهم فقط كل رأي من الآراء الموجودة في الدنيا، بل يجد فيهم الشجاعة لقول الأشياء التي لا يقولها السويدي أبدًا. وهم يفعلون ذلك أثناء نقاشهم العنيف مع الآخرين. أوه، كم أجد هذا منعشًا! ردة فعلها هذه جعلت تعرّفي عليها أسهل من تعرّفي على بقية أصدقاء ليندا الذين كانوا اجتماعيين، لكن بطريقة مختلفة، بطريقة رسمية أكثر تهذيبًا، هذا إن لم أقل شيئًا عن جماعة المكتب التي جعلتني أنضم إليها. كانوا لطيفين ودّيين يدعونني إلى الغداء غالبًا، لكني أعتذر أكثر الأحيان باستثناء مناسبتين اثنتين جلست بينهم صامتًا أصغي إلى حديثهم. كانوا في إحدى هاتين المناسبتين يناقشون غزو العراق الوشيك والصراع الأبدي المجاور بين إسرائيل وفلسطين. لعل كلمة «يناقشون» ليست بالكلمة المناسبة هنا لأن كلامهم كان أشبه بالأحاديث الصغيرة عن الطقس أو عن الطعام. التقيت كورا في اليوم التالي فأخبرتني أن صديقتها تركت عملها في الجمعية وأنها كانت شديدة الغضب. من الواضح أن ذلك حدث نتيجة تبادل مضطرم للآراء في ما يتصل بالعلاقة بين إسرائيل وفلسطين. فقدت أعصابها وتركت عملها على الفور. ولا حاجة للتأكيد على أن مكتبها كان قد أخلي في اليوم التالي. لكني كنت حاضرًا! ولم ألاحظ أي شيء! لم ألاحظ هجومًا ولا انزعاجًا... لا شيء! سمعت فقط أصواتهم المثرثرة

الودّية ورأيت مرافقهم ناتئة إلى جانبي كل منهم مثل جناحي دجاجة عندما يستخدمون الشوكة والسكين. لقد كانوا سويديين. وهكذا هم السويديون.

لكن كورا انزعجت ذلك اليوم أيضًا. قلت لها إن غيير قد ذهب إلى العراق منذ أسبوعين لكي يكتب كتابًا عن الحرب. قالت إنه شخص أحمق أناني مغرور. لم تكن كورا سياسية، وهذا ما جعل ردة فعلها العنيفة أمرًا مدهشًا. الحقيقة أنني رأيت دموعًا في عينيها عندما راحت تشتمه. هل كانت متعاطفة إلى هذا الحد؟

لقد ذهب والدها إلى حرب الكونغو في حرب الستينيات. هكذا قالت لي. عمل هناك مراسلًا حربيًا. لقد دمّره ذلك. ليس المقصود أنه أصيب أو أي شيء من هذا القبيل، ولا أن تلك التجارب هزّته بطريقة تركت ندوبًا في عقله؛ بل على العكس تمامًا: لقد أراد العودة إلى الكونغو، وأراد أن يحصل على المزيد من الحياة التي عاشها هناك، قريبًا من الموت... حاجة لا شيء في السويد يستطيع إشباعها. روت لنا قصة غريبة عن قيادته دراجة آلية في السيرك بعد ذلك. وقد أطلقت على ما فعله اسم «دراجة الموت»؛ وقد بدأ الشرب أيضًا، بطبيعة الحال. كان شخصًا ميالًا إلى التدمير، وقد قتل نفسه بنفسه عندما كانت كورا يافعة. كانت الدموع التي رأيتها في عينيها عندما تحدثنا عن غيير، دموعًا على أبيها، كانت حزينة عليه.

من حسن الحظ إذًا أن لها أمًا قوية متسلطة صارمة.

من حسن الحظ؟!... ليس بالضرورة! كان لديّ انطباع يقول إنها لا تنظر نظرة رضا إلى حياة كورا، وأن أثر هذه النظرة على كورا كان أكثر مما ينبغي أن يكون. كانت أمها محاسبة، وكان من الواضح أن تجوُّل كورا هنا وهناك في هذا المشهد الثقافي الغامض لا يتفق تمامًا مع توقّعها لما يجب أن يكون حياة مناسبة لابنتها. كانت كورا تكسب عيشها من عملها كصحفية في عدد من المجلات النسائية رغم أن هذا لم يترك أثرًا كبيرًا على رأيها في نفسها. كانت تكتب القصائد أيضًا. كانت شاعرة. لقد كانت معنا في بيسكوبس آرنو، وقرأت هناك شعرًا جيدًا، بقدر ما أستطيع السماح لنفسي

بتقييم الشعر. سمعتها تقرأ شعرها مرة ففوجئت. لم تكن قصائدها «شعرًا لغويًا» من ذلك النوع الذي يفهم منه المرء ما يريد فهمه، أي ذلك الشعر الذي توجهَ إليه أكثر الشعراء السويديون الشباب؛ ولا كان شعرًا رقيقًا أو حسّاسًا كشعر الآخرين. كان شيئًا آخر، شيئًا منطلقًا مستكشفًا بطريقة ليست شخصية، كان شعرًا مكتوبًا بلغة باذخة يصعب ربطها بها. لكن شِعرها ظل غير منشور. إن الناشرين السويديين، بالتأكيد، أكثر حرصًا على مالهم من زملائهم النرويجيين. وهم أكثر حذرًا أيضًا. إذا لم تلزم نفسك تمامًا بما تريدُه الأوساط الأدبية التي من حولك، فإنك لا تحظى بفرصة أبدًا. لو تماسكتْ وعملتْ بجد أكبر، فسوف تنجح آخر الأمر لأن لديها موهبة. لكنك تنظر إليها فترى أن تحمّل المشاق ليس خصلة بارزة فيها. إنها مستسلمة لنزعة الإشفاق على النفس... تتكلم بصوت منخفض. وغالبًا ما يكون كلامها عن أشياء محبطة رغم أنها يمكن أن تنقلب تمامًا فتكون نشطة حيوية يحلو الكلام معها. عندما تشرب، تصبح قادرة على احتلال مركز الحلبة، وتصير صاحبة حجة قوية. إنها الوحيدة من صديقات ليندا التي يمكنها أن تصير هكذا. ألا يكون هذا ما يجعلني أجدها قريبة من قلبي؟

شعرها طويل منسدل إلى جانبي وجهها. في هاتين العينين خلف نظارة صغيرة شيء يشبه كآبة أعين الكلاب. كلما شربت، وأيضًا عندما تكون صاحية أحيانًا، تعبّر عن إعجابها الكبير بليندا وعن أنها تجد نفسها فيها. أمّا ليندا، فالحقيقة أنها لم تكن تعرف تمامًا كيف تجيب على ذلك.

مسّدتُ ظهر ليندا بلطف. كانت الطاولة التي وقفنا إلى جانبها غاصّة بأنواع من الحلوى، أنواع من كل حجم وشكل. حلوى بالشوكولاته البنية الداكنة، وأخرى بكريم الكاسترد الأصفر، وحلوى باللوز والسكر ضاربة إلى الخضرة تقريبًا، وحلوى الميرينغ الملونة بالأبيض والوردي. وعلى كل نوع منها علم صغير يحمل اسمها.

سألت ليندا: «ماذا تريدين أن تطلبي؟».

«لستُ أدري حقيقة... ربما سلطة الدجاج. ماذا تريد أنت؟».

«كرات لحم الخروف. عند ذلك أعرف ما آكله. يمكنني أن أطلب وجبتك. اذهبي واجلسي».

ذهبت ليندا. طلبتُ، ودفعتُ، وسكبت الماء في كأسين، وقطعت بعض شرائح الخبز من الأرغفة الكبيرة الموضوعة على آخر طاولة المعجنات الضخمة، وأخذت بعض أدوات الطعام. أضفت إلى ذلك كله مغلفات الزبدة الصغيرة وبعض المناديل الورقية، ثم وضعت ما أخذته على صينية ووقفت إلى جانب طاولة البيع منتظرًا وصول الوجبتين من المطبخ الذي كنت قادرًا على رؤية نصفه العلوي عبر الباب المتأرجح القصير. كانت الطاولات والكراسي بين تلك النباتات الخضراء كلها في الباحة المتخذة شكل ممر مسقوف خالية من الناس. وكان امتزاج لون الأرض الإسمنتية الرمادي والسماء الرمادية مع خضرة النباتات رائعًا. يجتذب أنظارك مزيج هذين اللونين تحديدًا، الرمادي والأخضر. ما من فنان يعرف كيف يستخدمهما أكثر من براك. تذكرت لوحاته التي رأيتها في برشلونة عندما زرتها مع تونجه... لوحات فيها بعض القوارب على شاطئ البحر تحت سماء واسعة؛ تذكرت جمالها المدهش الذي يكاد يكون صادمًا. كان ثمن الواحدة منها بضعة آلاف الكرونات. قلت في نفسي يومها إن هذا أكثر مما أستطيع دفعه. وعندما أعدت النظر في ذلك وغيرت رأيي، كان الوقت قد فات لأن اليوم التالي كان آخر أيامنا في برشلونة وكان يوم سبت. ذهبت إلى المعرض الفني فوجدته مقفلًا.

الرمادي والأخضر. لكن، الرمادي والأصفر أيضًا، كما في لوحة الليمونات على الطبق، تلك اللوحة الرائعة لديفيد هوكني. كان فصل اللون عن الموضوع أهم إنجازات نزعة الحداثة في الرسم. قبل الحداثة، ما كان يمكن التفكير في شيء مثل لوحات براك أو هوكني. لكن السؤال هو ما إذا كانت اللوحة تستحق هذا الثمن يجعلني أتذكر الأمتعة الكثيرة التي كانت لدينا يومذاك.

ذلك المقهى الذي كنّا فيه ملكٌ لمعرض ليليفالتش الفني الذي يفصله

جداره الخلفي عن هذه المنطقة الخضراء، وكان الممر الهادئ المعزول في آخر الدرجات الثلاث جزءًا منه. ضم آخر معرض زرته هنا أعمال آندي وارهول التي ما كان عندي ما يؤهلني للحكم عليها من حيث الجودة مهما يكن المنظور الذي أعتمده. جعلني هذا أحس نفسي رجعيًا شديد المحافظة، وهذا شيء ما كنت أريده أبدًا. لكن، ماذا أستطيع أن أفعل.

ليس الماضي إلّا واحدًا من مستقبَلات كثيرة ممكنة، كما اعتاد ثوريه إيريك أن يقول. ليس الماضي هو ما ينبغي أن تتجنبه وتتجاهله، بل هو تكلُّس ذلك الماضي. يصح الأمر نفسه على الحاضر. وعندما تصبح الحركة التي ينميها الفن ساكنة يكون هذا ما يتعيّن عليك تجنبه وتجاهله؛ لا لأنه شيء حديثٌ متفق مع زماننا، بل لأنه لا يتحرّك، لأنه ميت.

سمعتُ صوتًا من خلفي يقول: «كرات لحم الخروف وسلطة دجاج؟».

استدرت. رأيتُ شابًا له غمّازتين وقبعة ومريلة طبّاخ واقفًا خلف الطاولة ينظر من حوله. كان حاملًا طبقًا في كل يد.

قلت: «نعم، هنا».

وضعت الطبقين على الصينية وحملتها عبر الصالة متجهًا إلى طاولتنا حيث كانت ليندا جالسة وفانيا في حضنها. سألتها: «هل استيقظت؟».

لقد استيقظت!

قلت: «يمكنني أن آخذها عنك حتى تأكلي».

قالت لي: «شكرًا».

لم تكن الغيرية من وراء هذا العرض، بل المصلحة الذاتية. غالبًا ما تعاني ليندا من انخفاض سكر الدم فتصير سريعة الانزعاج كلما طال استمرار هذه الحالة. بعد أن عشت معها قرابة ثلاث سنين، صرت أستشعر العلامات قبل أن تنتبه إليها بوقت طويل لأن السر كامن في التفاصيل: حركة مفاجئة، لمحة من نظرة قاتمة، لمسة اقتضاب وجفاف في ردودها. وعند ذلك، يكون من الأفضل أن تضع طعامًا أمامها فتزول تلك الحالة. لم أسمع بهذه الظاهرة قبل مجيئي إلى السويد، ولم أكن أعرف أصلًا بوجود شيء اسمه انخفاض

سكر الدم. أصابتني الحيرة عندما لاحظت حالة ليندا أول مرة: لماذا تكلم عاملة المقهى بهذه الحدة؟ ولماذا تومئ برأسها إيماءة صغيرة ثم تشيح بوجهها عندما أسألها عما بها؟ كان رأي غيير أن هذه الظاهرة (وهي ظاهرة واسعة الانتشار وموثقة جيدًا) ناتجة عن واقع أن السويديين جميعًا يذهبون إلى روضات الأطفال حيث يعطونهم ما يطلقون عليه اسم «ميلانمال»، أي «بين الوجبات»، على امتداد اليوم كله. كنت أعرف أن الناس يسوء مزاجهم لأن شيئًا سيئًا حدث أو لأن شخصًا وجه إليهم ملاحظة مسيئة أو شيئًا من هذا القبيل، أو أي سبب آخر من الأسباب الموضوعية إلى هذا الحد أو ذاك. وكنت أعرف أيضًا أن مزاج الطفل الصغير يتغيّر بين الجوع والشبع. من الواضح أن عليّ تعلم أشياء كثيرة عن سُبل عمل العقل البشري! أو لعله العقل السويدي؟ أو العقل النسائي؟ أو عقل الطبقة الوسطى المثقفة؟

حملت فانيا وذهبت لأجلب واحدًا من الكراسي المرتفعة المصفوفة عند باب الدخول. عدت حاملًا ابنتي في إحدى يديّ والكرسي في اليد الأخرى، ثم نزعت عنها قبعتها وأوفرولها الخارجي وحذاءها، وأجلستها على الكرسي. كان شعرها مشعثًا ووجهها نعسًا، لكني رأيت في عينيها ما أتاح لي أملًا في نصف ساعة من الهدوء.

اقتطعت بضعة أجزاء من كرات اللحم ووضعتها على الطاولة أمامها. حاولت رمي تلك القطع على الأرض بحركة من يدها لكن حافة الطاولة البلاستيكية حالت دون ذلك. أعدت تلك القطع إلى الصحن قبل أن يُتاح لها الوقت الكافي لالتقاطها ورميها على الأرض واحدة بعد أخرى. انحنيت وبحثت في الحقيبة لأرى إن كان لدينا شيء يمكن أن يشغلها بضع دقائق.

علبة الطعام المعدنية. هل تفي بالغرض؟

أخرجت الكعكات الصغيرة من العلبة ووضعتها على حافة الطاولة، ثم وضعت العلبة أمامها وأخرجت مفاتيحي وألقيتها فيها.

أشياء تقرقع ويمكنك أخذها وإعادتها... هذا ما كان يلزمها بالضبط. كنت راضيًا عن هذا الحل الذي توصلت إليه فجلست إلى الطاولة وبدأت الأكل.

كانت الصالة من حولنا ممتلئة بطنين الأصوات وقرقعة أدوات الطعام وضحكات عارضة مكتومة. خلال الوقت القصير الذي انقضى منذ وصولنا، كاد الوافدون بحرًا يملأون المكان. تكون بيورغاردن مزدحمة دائمًا أيام نهاية الأسبوع. هذه هي حالها منذ أكثر من مئة سنة. إنها ليست فقط منطقة الحدائق الواسعة الجميلة الغنية بالأشجار، بل أيضًا منطقة فيها متاحف كثيرة. معرض ثييلسكا الفني الذي يحتوي قناع موت نيتشه، ولوحات لمونك وستريندبيرغ وهيل؛ ومتحف والدمارسوده، المسكن السابق للأمير يوجين الذي كان فنانًا أيضًا؛ والمتحف النوردي، ومتحف الأحياء، وكذلك متحف سكانسين مع حديقة الحيوانات النوردية والمباني التي تمثل تاريخ السويد كله، تلك الأشياء التي صارت معروفة في فترة رائعة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: مزيج غريب من حس الاحترام لدى الطبقة الوسطى، والرومانسية القومية، والتعصب للأشياء الصحية، والانحطاط. لم يبقَ من هذا كله غير التعصّب للأشياء الصحية؛ لقد أبعد السويديون أنفسهم عن البقية، عن الرومانسية القومية خاصة، وصار مَثلُهم الآن المساواة بين البشر لا الفرادة البشرية، والمجتمع التعددي لا الفرادة الثقافية. من هنا، كانت المتاحف هنا كلها «متاحف عن المتاحف». وبالطبع، يصح هذا خاصة على متحف الأحياء الذي ظل من دون تغيير منذ إقامته أوائل القرن الماضي، وظلت معروضاته كما هي: حيوانات مختلفة محنّطة في بيئة تحاكي البيئة الطبيعية؛ أما الخلفية فهي من عمل رسّام الحيوانات والطيور العظيم برونو ليليفورس. في تلك الأيام، كانت هنالك آثار كبيرة باقية للحياة التي لم تتعرض لتأثير البشر، مما جعل إعادة خلقها أمرًا غير نابع عن أي ضرورة غير توفير المعرفة. كما أن الفكرة التي كان يوفرها ذلك لحضارتنا، أي فكرة أنه ينبغي ترجمة كل شيء إلى مصطلحات بشرية، كانت فكرة نابعة لا عن الحاجة بل عن الرغبة، عن الظمأ. ثم إن حقيقة أن هذا الظمأ إلى المعرفة التي كان يُراد منها توسعة العالم، جعل عالمنا أصغر من ذي قبل، جعله أصغر من الناحية المادية أيضًا، فذلك الذي

كان في أولى بداياته آنذاك (وبالتالي كان مفاجئًا) قد اكتمل الآن. هذا ما يجعلني راغبًا في البكاء كلما كنت هناك. كانت جموع الناس السائرة على امتداد القنوات والممرات الحجرية، عبر المروج وخلال أجمات الأشجار في عطلة نهاية الأسبوع هي، من حيث المبدأ، الجموع نفسها التي كانت تتجوّل في هذا المكان في القرن التاسع عشر. هذا ما كان يعزّز إحساسي: نحن مثلهم، لكننا أكثر ضياعًا!

وقف أمامي رجل في مثل سني. كان في هذا الرجل شيء مألوف لي، لكني لم أكن قادرًا على تحديده. كانت له ذقن قوية بارزة، وقد حلق شعر رأسه حتى يخفي حقيقة أنه قد بدأ يُصاب بالصلع. كانت حلمتا أذنيه ثخينتين، وفي وجهه ألق وردي يلوح على نحو غريب. قال الرجل: «هل هذا الكرسي مشغول؟».

قلت: «لا، يمكنك أن تأخذه».

رفع الكرسي بحركة حذرة وحمله إلى الطاولة المجاورة التي كان من حولها رجل في الستينات وامرأتان مع امرأة أخرى في الثلاثينات، إضافة إلى طفلين صغيرين. عائلة تمضي وقتًا في الخارج مع الجد والجدتين.

أطلقت فانيا واحدة من زعقاتها الرهيبة التي بدأت تطلقها في الأسابيع الأخيرة. تخرج تلك الصرخة فتخترق جهازي العصبي كله ولا أستطيع احتمالها. نظرت إليها. كانت المفاتيح والعلبة المعدنية على الأرض إلى جانب الكرسي. رفعتها ووضعتها أمامها من جديد. أمسكت بها ورمتها إلى الأرض مرة أخرى. كان من الممكن أن تكون تلك لعبة لولا ذلك الصراخ.

قلت لها: «لا تصرخي هكذا يا فانيا! أرجوك».

غرست شوكتي في قطعة البطاطس الأخيرة الصفراء في الطبق الأبيض وحملتها إلى فمي. وبينما كنت أمضغها، رحت أجمع بقايا اللحم بحافة السكين وأضعها على الشوكة مع بعض حلقات البصل من طبق السلطة. ابتلعت ما في فمي، ثم رفعت الشوكة باللقمة الأخيرة. كان الرجل الذي أخذ الكرسي ذاهبًا إلى طاولة البيع مع الرجل الآخر الذي خمّنت أنه والد

زوجته لأن شيئًا من ملامح وجهه الخاصة ما كان ظاهرًا لدى الكهل الذي كان وجهه عاديًا.

أين رأيت هذا الرجل؟

زعقت فانيا من جديد. قلت في نفسي والغضب يعلو في صدري إنها قد ملت فحسب. لا سبب يدعوني إلى الغضب!

وضعت الشوكة والسكين في الطبق ونهضت. نظرت إلى ليندا التي كانت موشكة أيضًا على الفراغ من طعامها.

قلت لها: «سوف آخذها في نزهة صغيرة، في الممر فقط. هل تفضلين شرب القهوة بعد الطعام أم أننا يمكن أن نتناول القهوة في مكان آخر؟».

قالت: «قد نشرب القهوة في مكان آخر... أو نظل هنا».

نظرت إليها منزعجًا، ثم انحنيت لأحمل فانيا.

قالت ليندا: «لا تنظر إليّ هكذا».

قلت: «لكني طرحت عليك سؤالًا بسيطًا؛ سؤال إجابته نعم أو لا. هل تريدين، أم أنك لا تريدين؟ لكنك لا تستطيعين الإجابة!».

من غير أن أنتظر ردها، وضعت فانيا على الأرض وأمسكت بيديها وبدأنا المشي. كانت تسير أمامي.

سمعت ليندا تسأل من خلفي: «ماذا تريد أنت؟».

تظاهرت بعدم سماعها لشدة انشغالي مع فانيا. كانت تحرك ساقًا ثم أخرى متحمّسة للمشي من غير أن تكون لها وجهة محددة، وذلك حتى بلغنا الدرجات حيث تركت يديها بحذر. وقفت منتصبة لحظة وهي تتمايل، ثم نزلت على يديها وركبتيها وحبت مجتازة الدرجات. انطلقت صوب الباب الأمامي بأقصى سرعتها كأنها جرو صغير. وعندما انفتح الباب أمامها، جلست على مؤخرتها ورفعت رأسها تنظر إلى القادمين الجدد بعينين متسعتين. إنهما امرأتان متقدّمتان في السن. توقّفت واحدة منهما وابتسمت لفانيا، لكن فانيا خفضت عينيها.

قالت المرأة: «إنها خجولة بعض الشيء، أليس هذا ما يبدو عليها؟».

ابتسمتُ ابتسامة مهذّبة، ثم حملت فانيا وأخذتها إلى الباحة الخارجية. أشارت إلى حمامات تنقر كسرات الخبز المتناثرة على إحدى الطاولات. ثم رفعت رأسها وأشارت إلى نورس يطير منزلقًا مع الريح.

قلت لها: «طيور! انظري هناك أيضًا، خلف النافذة. انظري إلى الناس».

التفتت إليّ، ثم نظرت إلى الناس. كانت عيناها حيتين معبّرتين بقدر ما هما مفتوحتين على تلقّي مختلف الانطباعات. عندما أنظر فيهما، يُخلق لديّ إحساس بطبيعتها... إنها شخص شديد التصميم.

قلت لها: «بررر، الجو بارد جدًا. تعالي نعود إلى الداخل!».

عندما اجتزنا الدرجات الثلاث، رأيت أن كورا قد ذهبت إلى طاولتنا. لم تجلس، لحسن الحظ. كانت واقفة خلف الكرسي واضعة يديها في جيبيها وقد علت ابتسامة شفتيها.

قالت: «كم صارت كبيرة!».

قلت: «نعم، كم صرتِ كبيرة يا فانيا؟».

عادة ما تظهر فانيا اعتزازها فتجيب على هذا السؤال بمد يديها فوق رأسها. لكنها اكتفت الآن بأن مالت برأسها على كتفي.

نظرتُ إلى ليندا وقلت: «نحن ذاهبان إلى البيت، أليس كذلك؟ إذا شربنا قهوة الآن فسوف يستغرق ذلك نصف ساعة أخرى».

أومأت ليندا برأسها موافقة.

قالت كورا: «ونحن أيضًا علينا أن نذهب بعد قليل. لكني اتفقت الآن مع ليندا على أن أمر عليكما ذات يوم. هذا يعني أننا سنلتقي قريبًا».

قلت لها: «هذا جيد». ثم أجلست فانيا في حضني وبدأت ألبسها أوفرولها. ابتسمت لكورا حتى لا أبدو فظًا.

سألتني: «كيف هو إحساسك عندما تبقى في البيت لترعى الصغيرة؟».

أجبتها: «فظيع! لكني قادر على احتماله».

ابتسمت كورا.

قلت: «إنني أعني ما قلته».

أجابت: «لقد فهمت».

قالت ليندا: «كارل أوفه يحتمل هذا. إنه أسلوبه في الحياة».

قلت: «هذه إجابتي الصادقة على السؤال! أم أنك تفضلين إجابة كاذبة؟».

قالت ليندا: «لا. يؤسفني فقط أن الأمر يزعجك كثيرًا إلى هذه الدرجة».

قلت: «لا يزعجني كثيرًا».

قالت كورا: «أمي تنتظرني هناك. لقد سرني لقاؤكم، وسوف أراكم قريبًا».

قلت لها: «سررت بلقائك أيضًا».

ذهبت كورا، فقابلت عيني ليندا الغاضبتين المحدّقتين.

قلت: «لم أقل شيئًا غير لائق، أليس كذلك؟» ثم وضعت فانيا في عربتها وربطت حزامها ورفعت مفتاح الإيقاف ورفعت بقدمي العتلة الصغيرة التي تثبت العجلتين الخلفيتين.

قالت ليندا: «لا»، لكنها قالتها بعنف جعلني أفهم أنها تعني العكس. كانت تشد على شفتيها عندما وصلنا الدرجات، وكانت تشد على شفتيها عندما سارت إلى جانبي فخرجنا من باحة المطعم إلى الطريق وسرنا في اتجاه مركز المدينة. كانت الريح باردة كأنها تنفذ إلى عظامنا، ومن حولنا، كانت الأماكن كلها مزدحمة. رأيت موقفي الباص على جانبَي الطريق غاصَّيْن بأناس غريبين بملابس سوداء. كان شكلهم لا يختلف كثيرًا عن الطيور إذا نظر إليهم المرء من زاوية بعينها، تلك الطيور التي تصطف معًا من غير حركة فوق جرف من الجروف في أنتاركتيكا وتحدق في السماء.

قالت ليندا بعد برهة عندما مررنا بمتحف الأحياء وبدأنا نرى عبر الغصون لمحات عابرة من القناة اللامعة السوداء: «ما جرى البارحة كان جميلًا رومانسيًا. لم يبقَ منه شيء اليوم».

قلت: «تعرفين أنني لستُ من النوع الرومانسي».

«أعرف! لكن من أي نوع أنت تحديدًا؟».

لم تكن تنظر إليّ عندما قالت هذا.

أجبتها: «كفي عن هذا! لا تبدأي قول هذه الأشياء».

نظرتُ في عيني فانيا وابتسمت لها. كانت تعيش في عالمها الخاص المتصل بعالمنا من خلال الانفعالات والإدراك الحسي، من خلال اللمسة الجسدية ونبرة الصوت. كان انتقالي بين العالمين، مثلما أفعل الآن، أمرًا غريبًا: أكون منزعجًا من ليندا في لحظة ما، وأكون سعيدًا مع فانيا في اللحظة التي تليها. كان ذلك كأنني أعيش حياتين منفصلتين تمامًا. أما فانيا، فلديها حياة واحدة. وسرعان ما ستكبر فتدخل الحياة الثانية. حيث تصير البراءة ذكرى بعيدة وتصبح قادرة على فهم ما يجري بيني وبين ليندا في لحظات مثل هذه.

بلغنا الجسر فوق القناة. كان رأس فانيا يتحرّك إلى الأمام والخلف متنقلًا من شخص إلى آخر ممن يمرون بنا. كانت تشير بإصبعها كلما رأت كلبًا أو دراجة آلية.

قالت ليندا: «جعلتني فكرة أننا قد ننجب طفلًا آخر أحس سعادة كبيرة. أسعدتني هذه الفكرة البارحة، وهي تسعدني اليوم. أفكر فيها من غير انقطاع تقريبًا، فتنبثق السعادة في داخلي. لكن إحساسك ليس هكذا. هذا يحزنني».

أجبتها: «أنت مخطئة. لقد كنت سعيدًا أيضًا».

«لكنك سعيد الآن».

أجبتها: «لست سعيدًا الآن. لكن، هل هذا شديد الغرابة؟ لست الآن في مزاج حسن».

«ألأنك في البيت مع فانيا؟».

«نعم، من بين أسباب أخرى».

«هل سيكون الوضع أفضل إذا كنت قادرًا على الكتابة؟».

«نعم».

قالت: «هذا يعني أننا سنضع فانيا في حضانة الأطفال».

سألتها: «هل تعنين هذا؟ لا تزال صغيرة جدًا».

كنا في قلب ساعة ازدحام الأماكن بالمشاة. هذا ما جعلنا مضطرين إلى

السير ببطء على الجسر الذي كان عنق زجاجة في الطريق إلى ديورغاردن. كانت ليندا تدفع العربة بيد واحدة. لم أقل شيئًا رغم كرهي أن تفعل ذلك لأن قول أي شيء سيكون أمرًا تافهًا، الآن خاصة، خلال مناقشتنا.

قالت ليندا: «نعم، إنها صغيرة جدًا. لكن هنالك قائمة انتظار لمدة ثلاثة أشهر. في ذلك الوقت سيصير عمرها ستة عشر شهرًا. ستكون صغيرة جدًا في ذلك الوقت أيضًا، لكن...».

انعطفنا يسارًا عندما انتهى الجسر، وسرنا على امتداد رصيف الزوارق.

سألتها: «ماذا تقولين بالضبط؟ من ناحية أولى تقولين إنها يجب أن تذهب إلى الحضانة. ومن ناحية أخرى تقولين إنها صغيرة جدًا».

«أظنها أصغر مما يجب. لكن إذا كان الأمر ضروريًا جدًا من أجل عملك، فإن عليها أن تذهب. لا أستطيع أبدًا أن أنقطع عن دراستي».

«ليس انقطاعك عن الدراسة أمرًا مطروحًا على الإطلاق. قلت إنني سأعتني بفانيا حتى الصيف. وقلت إنها يمكن أن تذهب إلى الحضانة في الخريف. لم يحدث ما يغيّر هذا».

«لكنك لست سعيدًا».

«صحيح. لكني لا أظن هذا قضية كبيرة. على أي حال، لمصلحتي، لا أود أن أكون السيد سيء فأرسل ابنتي إلى الحضانة في وقت أبكر مما ينبغي خلافًا لإرادة السيدة جيدة».

نظرت ليندا إلي وقالت: «إن كنت قادرًا على الاختيار، فماذا تختار؟».

«لو كنت قادرًا على الاختيار لجعلت فانيا تذهب إلى الحضانة بداية الأسبوع القادم».

«حتى وأنت تراها صغيرة جدًا».

«نعم، لكني أظن أن القرار ليس قراري وحدي».

«ليس قرارك وحدك، لكني موافقة. سأتصل بهم يوم الاثنين لأضع اسمها على قائمة الانتظار».

تابعنا السير صامتين بعض الوقت. كانت إلى يميننا أغلى الشقق السكنية

في ستوكهولم كلها. لا يمكن أن يكون للمرء عنوان متميز راقٍ أكثر من هذا المكان. تعكس البنايات هذه الحقيقة. واجهات لا تكشف عن شيء؛ وجدران لا يخترقها شيء... إنها أكثر ما تكون شبهًا بالقلاع والحصون. وفي الداخل شقق ضخمة تضم الواحدة منها من اثنتي عشرة غرفة إلى أربع عشرة غرفة؛ هذا ما كنت أعرفه. شمعدانات، ونبَالة، وكميات ضخمة من الأموال. هذه حياة غريبة عني كل الغرابة.

يقع الميناء إلى الجهة الأخرى: ماء أسود عند حافة الرصيف، وزبد أبيض على قمم الأمواج خارجه. كانت السماء ثقيلة داكنة، وكانت إنارة كتلة البنايات على الجهة الأخرى تشبه نقطًا في ذلك الامتداد الرمادي.

كانت فانيا تتذمّر وتتحرّك في عربتها. انزلقت قليلًا، ثم انتهى بها الأمر إلى أن صارت راقدة على جنبها مما زاد في انزعاجها. عندما انحنت ليندا فوقها لتصحّح جلستها، ظنّت فانيا لحظة أنها ستحملها من العربة. أطلقت صرخة إحباط عندما اتّضح لها أن الأمر ليس كذلك.

قالت ليندا: «توقّف لحظة سأرى إن كانت لدينا في الحقيبة تفاحة أو شيء ما».

وجدت تفاحة. زال انزعاج فانيا وإحباطها في الثانية التي تلت ذلك. جلست سعيدة تقضم تفاحتها الخضراء. أما نحن فتابعنا السير في اتجاه العبارة.

سنكون في شهر أيار بعد ثلاثة شهور من الآن. هذا يعني أنني لم أكسب كثيرًا... إنهما شهران فقط! لكن هذا أفضل من لا شيء. قالت ليندا: «ربما تستطيع أمي أن تأخذ فانيا يومين في الأسبوع أيضًا».

قلت لها: «سيكون هذا شيئًا عظيمًا».

«سوف أسألها غدًا».

قلت مبتسمًا: «لديّ إحساس يقول إنها ستوافق على هذا الطلب».

كانت والدة ليندا معتادة على ترك كل شيء في الحال عندما يكون ابنها أو ابنتها في حاجة إلى مساعدة. وإن كان لاندفاعها هذا أي حدود من قبل،

فلا بد أن تلك الحدود سقطت الآن بعد مجيء حفيدتها إلى العالم. كانت تعبد فانيا، وكانت مستعدة لفعل أي شيء من أجلها، فعل أي شيء بكل معنى الكلمة.

سألتني ليندا وهي تمر بيدها على ظهري: «هل أنت مسرور الآن؟».

قلت: «نعم».

قالت: «ستكبر فانيا سريعًا. سيصير عمرها ستة عشر شهرًا. هذا يعني أنها ليست صغيرة جدًا».

قلت: «كان عمر تورجه عشرة شهور عندما أرسلوه إلى الحضانة. ولا يبدو أن هذا الأمر خلَّف لديه أي أثر سيء، في الظاهر على الأقل».

«وإذا كنت حبلى، فإن الولادة في تشرين الأول. من المستحسن أن يكون هنالك شيء من النظام في حياة فانيا مع حلول ذلك الوقت».

«أظن أنك حبلى».

«هذا ما أظنه أيضًا. لا... إنني أعرف هذا. عرفته منذ تلك اللحظة يوم أمس».

بدأ تساقط الثلج عندما بلغنا الساحة أمام مسرح الدراما الملكي وتوقّفنا في انتظار تحوّل الإشارة المرورية إلى اللون الأخضر. كانت الريح مندفعة حول الزوايا وفوق سطوح المباني. تمايلت الأغصان العارية من أوراقها وخفقت الأعلام خفقًا عنيفًا. أما الطيور المسكينة التي في السماء فقد جرفتها الريح عن مسارها فوق رؤوسنا. سرنا في اتجاه السوق التي في نهاية بيبليوتيكغاتان حيث جرت مأساة الرهائن التي هزت السويد كلها في وقت ما من فترة السبعينيات البريئة وكانت سببًا في ظهور مصطلح «متلازمة ستوكهولم». ثم سلكنا شارعًا خلفيًا للذهاب إلى متجر NK لنشتري منه ما يلزمنا لهذا المساء.

قلت لأنني أعرف كم تكره ليندا المتاجر والمولات التجارية: «يمكنك أن تأخذيها إلى البيت إذا أحببت بينما أذهب أنا لشراء حاجاتنا».

«لا، أريد أن أكون معك».

وهكذا نزل بنا المصعد إلى قسم المأكولات في القبو فاشترينا سجقًا إيطاليًا وطماطم وبصلًا وحزمة من البقدونس ذي الأوراق الكبيرة وعبوتي باستا ريغاتوني. اشترينا أيضًا الآيس كريم مع توت العلّيق المجمد، ثم صعدنا إلى الطابق الذي فيه متجر سيستمبولاغيت فاشترينا لترًا من النبيذ الأبيض من أجل صلصة الطماطم، ولترًا من النبيذ الأحمر، وزجاجة براندي صغيرة. وفي الطريق، اشتريت الصحف النرويجية التي وصلت لتوها (آفتنبوستن، وداغبلادت، وداغنزنارينغسليف، وفيردينزغانغ)، إضافة إلى الغارديان والتايمز. اشتريت تلك الصحف لأقرأها، لكنه ما كان شيئًا مضمونًا على الإطلاق أن أحظى بساعة حرة من أجل القراءة خلال عطلة نهاية الأسبوع.

وصلنا إلى بيتنا بعد الواحدة ببضع دقائق. استغرق ترتيب الشقة وتنظيفها ساعتين بالضبط. وإضافة إلى هذا العمل، كانت لدينا كومة ضخمة من الملابس التي لا بد من غسلها. لكن لدينا وقت كافٍ، بل أكثر من كاف، لأن فريدريك وكارين لن يأتيا قبل السادسة.

أجلست ليندا فانيا في كرسيها وسخّنت لها في فرن المايكروويف عبوة من طعام الأطفال؛ أما أنا فأخذت أكياس القمامة التي تراكمت لدينا، ومعها كيس القمامة في الحمام حيث كانت حفاضات فانيا قد ملأته إلى حد جعل غطاءه مفتوحًا في وضعية عامودية ووقع بعضها إلى الأرض أيضًا. حملت ذلك كله إلى غرفة القمامة في الطابق السفلي. كانت الحاويات الكبيرة ممتلئة تمامًا لأننا في نهاية الأسبوع. فتحت أغطيتها كلها وبدأت أرمي أنواع القمامة المختلفة، كلًا في مكانه: الكرتون هنا، والزجاج الملون هناك، والزجاج الأبيض هناك، والبلاستيك هناك، والمعدن هناك، والبقية هناك. وكالمعتاد، كان النظر إلى هذه القمامة كافيًا للتثبت من أن شربًا كثيرًا يجري في بنايتنا لأن أكثر الزجاج كان مؤلفًا من زجاجات النبيذ والمشروبات الكحولية القوية. وإضافة إلى هذا، يجد المرء دائمًا كومات من المجلات المصورة: ملاحق الصحف الرخيصة، والطبعات الأكثر سماكة وتخصّصًا.

يهتمون في هذه البناية خاصة بمجلات الأزياء والتصميم الداخلي والبيوت الريفية. كانت في زاوية المكان حفرة عند الجدار القصير (مغلقة موقتًا بألواح خشبية مسمّرة إلى الجدار) حيث كان بعض الرجال قد حفروها للوصول إلى صالون التجميل المجاور. كدت أتعثّر بهم ذلك اليوم: كان واحدًا من الصباحات التي استيقظ فيها عند الخامسة فجرًا وأخرج مع فنجان من القهوة في يدي. سمعت صوت جهاز الإنذار الذي يثقب الآذان منطلقًا من صالون التجميل عندما صرت في مدخل البناية. وفي الأسفل، رأيت واحدة من الحرّاس الأمنيين. كانت تتحدث في الهاتف، لكنها سكتت فور ظهوري وسألتني إن كنت أعيش هنا. قلت لها إنني أعيش في هذا المكان فأخبرتني بأن هنالك من حاول السطو على صالون التجميل، وأن الشرطة قد أبلغت بالأمر. ذهبت معها إلى غرفة الدراجات حيث وجدت بابها محطمًا مفتوحًا، ورأيت في الجدار حفرة عرضها نصف متر. كنت موشكًا على قول عدة نكات عن اللصوص الفاشلين لكني أمسكت لساني. إنها سويدية... قد لا تفهم ما أقوله لها، أو أنها لن تفهم النكتة أصلًا! قلت في نفسي متأمّلًا وأنا أغلق أغطية حاويات القمامة وأفتح الباب لأدخن سيجارة في الخارج إن واحدة من نتائج العيش هنا أنني أتكلم أقل بكثير. كنت قد ألغيت الأحاديث الصغيرة كلها تقريبًا... الحديث مع البائعين في المتاجر والعاملين في المقاهي والجباة في القطارات والغرباء الذين يلتقيهم المرء مصادفة. كان هذا واحدًا من أفضل ما قد تشتمل عليه العودة إلى النرويج: ستعود إليّ سهولة التعامل مع أشخاص لا أعرفهم وأحس باسترخاء كبير. هنالك أيضًا المعرفة التي تكون لديك عن مواطنيك. غمرني الإحساس بهذه المعرفة عندما دخلت مرةً صالة الواصلين في مطار غاردرموين في أوسلو: هذا من بيرغن، وهذه من تروندهيم، أما هذا فيجب أن يكون من آرندال، وهذه... أليست من بيركيلاند؟ ينطبق الأمر نفسه على التلاوين الصغيرة في المجتمع. الأعمال التي يقوم بها الناس، وخلفية كل منهم، يصير كل شيء واضحًا في ثواني معدودة؛ أما في السويد، فقد كان كل شيء خبيئًا

عليّ. بهذه الطريقة يختفي عالم كامل من مجال رؤيتك. كيف يكون الأمر إذا عشت في قرية أفريقية؟ أو في قرية يابانية؟

صرت في الخارج، فصفعتني الريح. شكّل الثلج الذي هطل طبقة سميكة وتراكم على الأرصفة في الزوايا والمنعطفات. وهنا وهناك، كان يندفع مدومًا في الريح كأنه وشاح... كأنني خرجت إلى قمة جبل لا إلى فناء خلفي في مدينة قرب بحر البلطيق. وقفت تحت سقف المدخل الأمامي حيث لا تصلني إلّا هبّات متفرقة من الريح المجنونة وحبّات الثلج اللاسعة. كانت الحمامة واقفة ساكنة تمامًا في الزاوية. لم يظهر عليها أي تأثر نتيجة وجودي أو حركاتي. رأيت المقهى الواقع إلى الناحية الأخرى من الشارع مزدحمًا بالناس، كان أكثرهم من الشباب. أما العابرون القلائل فكانوا يسيرون حانين رؤوسهم، مندفعين في قلب الريح. كان كل واحد منهم يلتفت وينظر في اتجاهي.

كانت محاولة السطو التي كدت أشهدها مثالًا غير معزول. يستخدم بعض المشردين بنايتنا لأنها واقعة في مركز المدينة. صادفت ذات صباح واحد منهم في غرفة الغسيل في القبو. كان في آخر الغرفة نائمًا عند آلة الغسيل. أظنه كان يلتمس الدفء المنبعث منها، مثلما تفعل قطة. أغلقت الباب بخبطة قوية وصعدت، ثم انتظرت بضع دقائق. عدت فلم أرَه هناك. وفي مرة أخرى، صادفت متشرّدًا في القبو نحو العاشرة ليلًا. كنت أريد إحضار شيء ما من غرفة المستودع. رأيته هناك. كان جالسًا عند الجدار، وكان ملتحيًا. نظرتْ إليّ عيناه الحادتان. حييته بهزة من رأسي وفتحت قفل الباب فأخذت ما أردت أخذه وأغلقت الباب. وبالطبع، كان عليّ أن أخبر الشرطة في الحالتين لأن وجود المشردين هنا قد يحمل خطر اندلاع حريق، لكن أحدًا منهما لم يزعجني، فلماذا أزعجهما.

سحقت سيجارتي على الجدار وحملتها إلى سلة القمامة الكبيرة مثلما يجب أن يفعل أي ساكن حسن السلوك، وفكرت في أنني ينبغي أن أكفّ عن التدخين قريبًا. أحس بما يشبه الاحتراق في رئتي هذه الأيام. مرت عليّ

سنوات كثيرة وأنا أستيقظ في الصباح فأجد حلقي مليئًا بمخاط كثيف. لكني لن أتوقّف عن التدخين اليوم... لا يكون ذلك «اليوم» أبدًا... قلت هذا لنفسي بصوت مرتفع مثلما صرت أفعل كثيرًا في الآونة الأخيرة، ثم دخلت.

بينما كنت أنظف الشقة، كنت أسمع دائمًا ما تفعله ليندا مع فانيا. كانت تقرأ لها، وكانت تعطيها ألعابًا فترميها فانيا على الأرض مرة بعد مرة. كنت على وشك التدخل عدة مرات، لكن من الواضح أن جارتنا لم تكن في بيتها فتغاضيت عن الأمر. كانت تغني لها، وكانت تأكل ما بين الوجبات، معها. ومن وقت لآخر كانتا تأتيان لرؤيتي... تأتي فانيا محمولة بين ذراعي ليندا. وفي أحيان أخرى، كانت ليندا تحاول قراءة صحيفة بينما تلعب فانيا وحدها. لكنها تعود فتطالبها بانتباهها الكامل قبل أن تمر دقائق قليلة. وكانت تستجيب لها دائمًا! لكني كنت مضطرًا إلى الحذر في ما يتعلق بقول رأيي في هذا لأنها ستعتبره انتقادًا لها. قد يؤدي وجود طفل آخر إلى تخفيف حدة مجريات الأمور؛ أما وجود طفلين آخرين فمن المؤكد أنه سيغيرها تمامًا.

بعد أن فرغت من التنظيف، جلست على الأريكة مع كومة من الصحف. لم يبقَ لديّ غير كي مفرش الطاولة، ثم وضع الصحون وأدوات الطعام، والطبخ. لكنها كانت وجبة بسيطة لا يستغرق إعدادها أكثر من نصف ساعة. هذا يعني أن لديّ وقتًا طويلًا. كان المساء يقترب. ومن الشقة المقابلة عبر الشارع، جاء صوت غيتار. إنه ذلك الرجل الأربعيني ذو اللحية يتمرّن على أغاني البلوز التي يحبها.

وقفت ليندا بالباب.

قالت لي: «هل يمكنك أن تأخذ فانيا؟ إنني في حاجة إلى استراحة أيضًا».

قلت: «الآن جلست! لقد نظفت الشقة كلها. لا بد أنك لاحظت ذلك!».

قالت: «وأنا كانت معي فانيا. هل تظنها مهمة أقل تطلبًا؟».

الحقيقة أنني كنت أظنها كذلك. كنت قادرًا على تنظيف الشقة وفانيا معي أيضًا. ستبكي قليلًا، لكن ما المشكلة؟ لكني ما كنت أعتزم السير في تلك الوجهة لأن هذا الكلام سيؤدي إلى مواجهة.

قلت لها: «لا، ليس هذا سهلًا. لكن فانيا تكون معي طيلة الأسبوع».

قالت: «وأنا أيضًا، في الصباح، وبعد الظهر».

قلت لها: «ماذا تقولين؟ أنا الذي يكون في البيت معها طيلة النهار».

«وماذا كنت تفعل عندما كنت أجلس معها في البيت طيلة النهار؟ هل كنت تأخذها في الصباح وبعد الظهر؟ أم لعلني أنا من يذهب إلى المقهى كل يوم في طريق عودته إلى البيت مثلما تفعل أنت الآن؟».

قلت لها: «لا بأس. سوف آخذها. اجلسي».

«لا أريد ذلك إن كنت ستتخذ هذا الموقف. سوف أبقيها معي».

«من المؤكد أن لا أهمية للموقف الذي أتخذه! أنا آخذها وأنت تستريحين. الأمر بسيط. والكل مسرور بذلك».

«ثم إنك تأخذ استراحات كثيرة عندما تخرج للتدخين. أنا لا أدخن، هل فكرت في هذا؟».

أجبتها: «ربما عليك أن تبدأي التدخين أيضًا».

قالت: «قد أفعل هذا».

ذهبت في اتجاه فانيا، تجاوزت ليندا من غير أن أنظر إليها. كانت فانيا جالسة على الأرض تنفخ في زمارة تحملها بإحدى يديها وتلوّح باليد الأخرى إلى الأعلى وإلى الأسفل. وقفت عند النافذة وعقدت ذراعي على صدري. لن أحاول إرضاء كل رغبة صغيرة لدى فانيا. يجب أن تتعلم كيف تظل بضع دقائق وحدها من غير أن تكون منشغلة انشغالًا تمامًا بأي شيء، مثلما يفعل بقية الأطفال. كنت أسمع صوت ليندا تقلب الصحف في غرفة المعيشة.

هل أقول لها أن تهتم بإعداد الطاولة وكي مفرشها وطبخ الطعام؟ أم أتظاهر بالدهشة عندما تأتي لتأخذ فانيا من جديد فأقول لها إنها كانت مسؤولة عن ذلك؟ إنها هي المسؤولة عن أداء هذه الأعمال... لقد تبادلنا، أليس كذلك؟ بدأت رائحة لاذعة كريهة تنتشر في الغرفة. كانت فانيا قد توقّفت عن النفخ في الزمارة. رأيتها الآن جالسة ساكنة تحدق في البعيد.

استدرت ونظرت من النافذة. كان الهواء يتقاذف ندف الثلج عبر الشارع في الأسفل حيث ينيرها ضوء المصابيح المعلقة ثم تختفي ولا تظهر إلّا عندما تضرب النافذة بنقرات صغيرة تكاد تكون غير مسموعة. كان باب محل يو إس فيديو يفتح ويغلق باستمرار. وكانت السيارات تتحرّك وتتوقّف بفعل الإشارة الضوئية التي لا أستطيع رؤيتها من النافذة. كانت نوافذ الشقق المقابلة لنا بعيدة بحيث لا يظهر سكانها إلّا على هيئة أشكال غامضة تتحرّك في الضوء الذي تجعله الستائر الرقيقة خافتًا.

استدرت وسألت فانيا: «هل انتهيت الآن؟» نظرت في عينيها فابتسمت. حملتها بيدي ورميتها على السرير. بدأت تضحك.

قلت لها: «سوف أغيّر لكِ حفّاضك الآن. من المهم أن تستلقي هادئة. هل تفهمين هذا؟».

رفعتها ورميتها على السرير من جديد: «هل فهمت هذا أيتها القزمة الصغيرة؟».

ضحكت ضحكًا شديدًا جعلها غير قادرة تقريبًا على التنفس. أنزلت بنطلونها فتلوّت متملصة مني وحاولت أن تزحف مبتعدة على السرير. أمسكت بكاحليها وجذبتها فأعدتها كما كانت.

قلت لها: «عليك أن تستلقي هادئة. هل تفهمين هذا؟» للحظة، بدت كأنها تفهم ما أقول لأنها سكنت وراحت تنظر إليّ بعينيها المدورتين. رفعتُ ساقيها في الهواء بإحدى يدي ونزعت لصاقات الحفاض باليد الأخرى، ثم رفعته. حاولت التخلص من قبضتي في تلك اللحظة؛ تلوّت يمينًا وشمالًا فبدت كأنها شخص أصابه الصرع لأن قبضتي على ساقيها كانت محكمة تمامًا.

قلت لها: «لا، لا، لا». رميتها على السرير من جديد فضحكت. سحبت بضعة مناديل من العلبة بأسرع ما استطعت. لكنها انقلبت من جديد. ضغطتها فثبتها على السرير ونظفتها وأنا أتنفس بعمق من أنفي محاولًا عدم الاستجابة للانزعاج الذي كنت أحسه يزداد في داخلي الآن. نسيت إبعاد

الحفاض المتسخ. وضعت قدمها كلها فيه! أزحته جانبًا ومسحت قدمها، لكني لم أمسحها جيدًا لأني أدركت أن المناديل لن تجدي نفعًا الآن. حملتها إلى الحمام فراحت ترفس وتقاوم الهواء بقدميها. أمسكت برأس الدوش وفتحت الماء ثم عدّلت الحرارة إلى أن صار الماء المنسكب على ظهر يدي دافئًا فبدأت أغسل نصفها السفلي بعناية بينما راحت تشد أطراف ستارة الحمام الصفراء. وبعد الغسل، جففتها بالمنشفة، ثم وضعت عليها حفاضًا جديدًا بعد التغلب على محاولة أخرى للتفلت من بين يدي. لم يبقَ عليّ إلّا التخلص من الحفاض المتسخ بوضعه في كيس من النايلون وربطه جيدًا، ثم قذفه خارج باب الشقة!

كانت ليندا تقلب الصحيفة في غرفة المعيشة. أمسكت فانيا بواحد من المكعبات الكبيرة التي جاءتها في الخريف هدية من أوليغارد فألقته على الأرض. أما أنا فاستلقيت على السرير واضعًا ذراعي خلف رأسي، وفي اللحظة التالية جاء صوت الطرق العنيف على أنابيب التدفئة.

قالت ليندا: «لا تهتم بها. دع فانيا تلعب كما تريد».

لكني لم أستطِع. نهضت وذهبت إلى فانيا وأخذت المكعب منها. أعطيتها بدلًا منه خروفًا قماشيًا. رمت الخروف بعيدًا. لم تبد اهتمامًا حتى عندما رحت أهز الخروف أمامها وأصدر أصواتًا سخيفة. إنها تريد المكعب. أعجبتها قرقعته عندما سقط على الأرض. لا بأس... لها أن تفعل ذلك إن كانت تريده! أخذت مكعبين من الصندوق وبدأت ترميهما على الأرض. دوّى الطرق على الأنابيب من جديد. ما هذا؟ هل هي واقفة هناك منتظرة أي فرصة تسنح لها؟ أخذت مكعبًا من الصندوق وقذفته في اتجاه مشع التدفئة بأقصى قوتي. نظرت فانيا إليّ وضحكت. وفي اللحظة التالية، سمعت صوت الباب في الأسفل يغلق بخبطة عنيفة. خرجت إلى غرفة المعيشة، ومنها إلى باب البيت. عندما قرع الجرس، فتحت الباب على الفور. كانت الروسية واقفة تنظر إليّ وقد اكتسى وجهها تعبيرًا ضاريًا. تقدمتُ خطوة إلى الخارج فلم يبق بيننا إلّا سنتيمترات قليلة.

صحت بها: «ماذا تريدين بحق الجحيم؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ لا أريدك هنا. ألا تفهمين هذا؟».

لم تكن تتوقع شيئًا من هذا. تراجعت وحاولت أن تقول شيئًا، لكن شفتيها لم تفلحا في قول كلمة واحدة قبل أن أتابع هجومي من جديد. صحت بها: «انقلعي الآن! سوف أطلب الشرطة إذا أتيت مرة أخرى».

في تلك اللحظة، كانت امرأة في الخمسينيات تصعد السلم. كانت واحدة من الناس الذي يعيشون في الطابق الذي فوقنا. نظرت إلينا خلال سيرها. لقد كانت شاهدًا! ولعل ذلك زوّد الروسية بشيء من الشجاعة لأنها لم تذهب.

«ألا تفهمين ما أقوله لك؟ أم أنك متخلفة عقليًا. اذهبي، قلت لك اذهبي، اذهبي، اذهبي، اذهبي!».

قلت هذا وتقدمت خطوة أخرى في اتجاهها. استدارت في اتجاه السلم. سارت خطوتين ثم التفتت إلي وقالت: «ستكون لهذا عواقبه».

قلت: «لست أبالي! من الذي ستصدقه الشرطة؟ مدمنة روسية تعيش وحدها أم زوج وزوجة ناجحين لديهما طفلة صغيرة؟».

أغلقت الباب بعد ذلك، وعدت إلى غرفة النوم. كانت ليندا واقفة تنظر إليّ من باب غرفة المعيشة. تجاوزتها من غير أن ألتفت في اتجاهها.

قلت لها: «لعل ذلك لم يكن تصرفًا حكيمًا تمامًا، لكنه منحني إحساسًا طيبًا».

قالت: «أستطيع تخيّل هذا».

دخلت إلى غرفة النوم وأخذت المكعبات من فانيا فوضعتها في الصندوق، ثم وضعت الصندوق على طاولة الزينة بحيث لا تستطيع الوصول إليه. ولكي أبعدها عن الكآبة التي اعترتها، رفعتها ووضعتها على طوار النافذة. نظرت إلى السيارات بعض الوقت. لكن غضبي كان أشد من أن يسمح لي بالوقوف ساكنًا زمنًا طويلًا، وهكذا جعلتها تجلس على الأرض وذهبت إلى المطبخ فغسلت يدي بالماء الدافئ (تكون يداي باردتان جدًا

في الشتاء)، ثم جففتهما ونظرت في المرآة إلى صورتي التي لم تكن تكشف عن شيء من الأفكار والمشاعر المتلاطمة في داخلي. لعل أوضح الأشياء التي ورثتها عن طفولتي خوفي من المواجهة والصوت المرتفع. كنت أكره المشاجرات والمشاهد الصاخبة. ولزمن طويل، تمكنت من تجنبها بعد أن كبرت. لم تشهد أي علاقة عشتها أي نوع من المشاجرات لأن الخلافات كانت تسير وفق أسلوبي، أسلوب السخرية والتهكم والبرودة والتجهّم والصمت. لم يتغير الأمر إلّا بعد أن دخلت ليندا حياتي. وكيف تغير؟ من ناحيتي، كنت خائفًا. لم يكن ذلك خوفًا عقلانيًا لأنني أقوى منها جسديًا، بالطبع. وأما من حيث ميزان العلاقة بيننا، فقد كانت ليندا محتاجة إليّ أكثر من حاجتي إليها بمعنى أنني لا أجد مشكلة في أن أكون وحيدًا، بل إن ذلك كان خيارًا مفضّلًا عندي، كان شيئًا مغريًا؛ أما ليندا فكانت تخاف الوحدة أكثر من أي شيء آخر. رغم تمتعي بوضع أقوى، فقد كنت أخافها عندما تهاجمني. أخافها ذلك الخوف نفسه الذي اعتدته عندما كنت صبيًا، أوه... لست فخورًا بهذا، لكن ماذا؟ ليس هذا شيئًا أستطيع ضبطه بالتفكير أو بقوة الإرادة بل هو شيء مختلف تمامًا مستقر في أعماقي، مستقر في ما قد يكون أساس شخصيتي نفسها. لكن ليندا ما كانت تعرف شيئًا من هذا. ثم إن الخوف لم يكن يظهر على ملامحي. يتكسّر صوتي عندما أدافع عن نفسي لأنني أكون موشكًا على ذرف الدموع، لكني أحسب أنها كانت تظن دموعي ناتجة عن غضبي. لا... عندما أفكر في الأمر الآن أفهم أنها كانت تدرك حقيقة الأمر في مكان ما من عقلها. لكن، لعلها لم تكن تدرك كم أجد هذه التجارب فظيعة.

أظنني تعلمت من هذه التجربة. قبل سنة من الآن، ما كان الصراخ على أحد ما، مثلما فعلت مع الروسية، أمرًا وارد الحدوث على الإطلاق. وفي حالة جارتنا هذه تحديدًا، لن يكون هنالك أي نوع من التنازل أو المصالحة: من الآن فصاعدًا، ستكون النتيجة الوحيدة الممكنة هي المزيد من التصعيد.

وماذا؟

حملت حقائب الإيكيا الزرقاء الأربع المليئة بالملابس المتسخة (كنت قد نسيتها تمامًا) ووضعتها عند باب البيت. وضعت حذائي وقلت بصوت مرتفع إنني نازل إلى القبو من أجل غسل الملابس. جاءت ليندا إلى الباب.

سألتني: «هل من الضروري أن تفعل هذا الآن؟ لم يبق وقت طويل على وصول ضيوفنا. ثم إننا لم نبدأ الطبخ بعد...».

أجبتها: «لا تزال الساعة الرابعة والربع. ولن يأتي دورنا القادم في الغسيل حتى يوم الخميس».

قالت: «لا بأس. هل تصالحنا؟».

أجبتها: «تصالحنا، طبعًا».

أتت إليّ وقبلتني. قالت: «أحبك. أنت تعرف هذا».

أتت فانيا تحبو قادمة من غرفة المعيشة. أمسكت ببنطلون ليندا ورفعت نفسها لتقف معنا.

حملتها وقلت لها: «مرحبًا. هل تريدين الانضمام إلينا؟».

وضعت رأسها بين رأسينا. ضحكت ليندا.

قلت: «جيد! سأذهب الآن لوضع الملابس في الغسالة».

نزلت السلم متثاقلًا حاملًا حقيبتين في كل يد. نحيت عن ذهني الانزعاج الذي اعتراني نتيجة تفكيري في جارتنا، وحقيقة أنها شخص لا يمكن توقع أفعاله على الإطلاق. إضافة إلى أنها مجروحة بعمق الآن. ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ لن تنقضّ عليّ حاملة سكينًا! الانتقام خفية... ذلك هو مكمن قوّتها.

كان السلم خاليًا، وكان مدخل البناية خاليًا، وكانت غرفة الغسيل خالية. أضأت المصباح، ثم فرزت الملابس إلى أربع كومات: ملونة ثقيلة، وملونة خفيفة، وبيضاء ثقيلة، وبيضاء خفيفة. ثم وضعت اثنتين من هذه الكومات في الغسالتين الكبيرتين ووضعت مسحوق الغسيل في الدرج المتحرك في لوحة التحكم في كل منهما، وشغّلتهما.

عندما عدت إلى الشقة، كانت ليندا قد شغّلت تسجيلًا موسيقيًا لتوم

ويتس صدرَ بعد أن فقدت اهتمامي به. لم يكن هذا التسجيل يعني لي شيئًا أكثر من أنه يشبه ما يؤديه توم ويتس عادة. ذات مرة، اشتغلت ليندا على نصوص بعض أغاني ويتس من أجل عرض في ستوكهولم، وقالت وقتها إن ذلك كان واحدًا من أكثر الأشياء التي فعلتها تسلية وإشباعًا. لا تزال لديها الآن علاقة قوية، بل حميمة، مع موسيقاه.

كانت قد أتت من المطبخ بالكؤوس وأدوات الطعام ووضعتها على الطاولة. كان مفرش الطاولة هناك، لا يزال مطويًا، ومعه مجموعة من مناديل الطعام المكرمشة.

قلت لها: «أظن أنها في حاجة إلى الكَي. ما رأيك؟».

قلت: «صحيح. إذا أردنا أن نضع مفرش الطاولة، فلا بد من الكي. هل تفعلين ذلك بينما أبدأ الطبخ؟».

«لا بأس».

أتت بلوح الكي من الخزانة بينما ذهبت إلى المطبخ وبدأت العمل. شغّلت موقد الطبخ، ووضعته عليه قدرًا من الحديد سكبت فيه بعض الزيت. قشّرت الثوم وقطعته. جاءت ليندا عند ذلك لتأخذ رشّاشة الماء من الخزانة التي تحت المجلى. هزّتها قليلًا لترى إن كان فيها ماء.

سألتني: «هل تطبخ من غير وصفة؟».

أجبتها: «صرت أعرفها الآن. كم مرة أعددنا هذه الوجبة؟ عشرين مرة؟».

قالت: «لكنهم لم يأكلوها عندنا من قبل».

قلت: «هذا صحيح»، ثم حملت لوح التقطيع فوق القدر وأسقطت مكعبات الثوم الصغيرة فيه. أما ليندا فعادت إلى غرفة الجلوس.

لا يزال هطول الثلج مستمرًا في الخارج، لكنه صار الآن أكثر هدوءًا. فاجأتني فكرة أنني سأعود إلى مكتبي بعد يومين؛ سرَت في نفسي موجة من السرور. قد تكون إنغريد قادرة على أخذ فانيا ثلاث مرات في الأسبوع، وليس مرتين فقط! ما كنت أريد من الحياة أكثر من هذا! لا أريد إلّا بعض الهدوء، ولا أريد إلّا أن أكتب.

من بين أصدقاء ليندا جميعًا، كان فريدريك الشخص الذي عرفته أطول مدة. تعرفه ليندا منذ كانا يعملان معًا في قسم الملابس في مسرح الدراما الملكي. كانا في السادسة عشرة، واستمرت علاقتهما منذ ذلك الوقت. كان مخرجًا سينمائيًا، لكنه يعمل أكثر الوقت في الإعلانات التجارية منتظرًا فرصة العمل على فيلمه الروائي الأول. إنه ينتج إعلانات لأسماء تجارية كبيرة: أعماله الإعلانية معروضة على التلفزيون دائمًا. وهكذا افترضت أنه ناجح في ما يقوم به وأنه يكسب منه مالًا كثيرًا. لقد أنجز حتى الآن ثلاثة أفلام قصيرة كتبت ليندا نصوصها؛ وكذلك فيلمًا أطول منها قليلًا. إن لفريدريك عينان متقاربتين قليلًا وشعر أشقر. رأسه كبير، وجسده نحيل، وفي شخصيته شيء يبدو مراوغًا، لعله شيء غامض أيضًا. هذا ما يجعل من الصعب أن يعرف المرء حقيقة علاقته معه. كان يقهقه عندما يضحك، وكان صاحب طبع مرح مبتهج: أمران يمكن أن يجعلانك تخرج باستنتاجات متسرّعة في ما يتعلق بشخصيته. إن طبعه المبتهج لا يخفي بالضرورة قدرًا أكبر من العمق والجدية، إلّا أن ذلك لا يكون ظاهرًا لك على الفور. هنالك شيء كامن في فريدريك، لست أدري ما هو؛ لكنه موجود فيه، ولعله يظهر ذات يوم على هيئة فيلم لامع ناجح، ربما لا يحدث ذلك أبدًا... لست واثقًا! كان رجلًا جريئًا لا يهاب، ولا بد أنه اكتشف منذ سنوات طويلة أنه ليس لديه الكثير مما يمكن أن يخسره. على الأقل، هكذا كنت أقرأ شخصيته. تقول ليندا إن أهم نقاط القوة في عمله الإخراجي هو أنه يعرف كيف يتعامل جيدًا مع الممثلين فيعطي كلًا منهم ما يلزمه بالضبط للوصول إلى الأداء الأمثل. كان هذا واضحًا لي عندما رأيته لأنني وجدته صاحب روح ودية يعرف كيف يقول شيئًا يستميل كل من يلتقيه، ثم إن مظهره البريء يسمح لمشاعرك بأن تكون قوية بينما يعرف الجانب الحذر في شخصيته كيف يستفيد من المزايا التي يتيحها ذلك. إنه يرحب بأن يناقش الممثلون شخصيات أدوارهم ويحاولوا العثور على ما يبرزهم؛ لكنه لا يسمح لهم برؤية المشهد كله، أي حيث يكون المعنى كامنًا... لا أحد يعرف ذلك غيره.

كان يعجبني، لكني ما كنت قادرًا على الحديث معه. أتجنّب أن نكون وحيدَيْن معًا! وبقدر ما فهمت، كان فريدريك يفعل الشيء نفسه.

كانت معرفتي بشريكته كارين محدودة بعض الشيء. لقد درست في معهد الدراما، مثل ليندا، لكنها كانت في قسم كتابة النصوص. وبما أنني أكتب أيضًا، فلا بد أن أكون قادرًا على شيء من التواصل مع عملها. لكن الجانب الحِرَفي شديد الوضوح في كتابة النصوص للمسرح والسينما لأن تلك الكتابة تركز على مختلف أنواع التوترات الصاعدة والهابطة، وعلى تطوّر الشخصية، وعلى الحبكات والحبكات الفرعية والمقدمات ونقاط التحول. افترضت أنه ليس لديّ إلّا القليل مما أستطيع المساهمة به في هذا الصدد، وهذا ما جعلني ألتزم حدود إظهار قدر من الاهتمام المهذب. كان لها شعر أسود وعينان ضيقتان بنيتان ووجه أبيض، ضيّق أيضًا. كان شكلها يشع ما يوحي بشخصية عملية وهو ما جاء منسجمًا تمامًا مع شخصية فريدريك الأكثر انطلاقًا وشبهًا بوقاحة الأطفال. لقد أنجبا طفلًا واحدًا، وهما في انتظار الآخر. لكن كل شيء لديهما تحت السيطرة تمامًا، عكسنا تمامًا. لديهما نظام في البيت، وهما يخرجان مع طفلهما وينظمان نشاطات مثيرة للاهتمام. هذا ما يكون أكثر الأحيان موضوع الحديث بيني وبين ليندا بعد أن نزورهما أو بعد أن يأتيا إلينا... كيف يمكن أن يكون ما يبدو شديد البساطة والسهولة عندهما شيئًا خارج قدرتنا تمامًا؟

كان هنالك الكثير مما يوحي بأن من الممكن أن تنشأ صداقة حقيقية بين أسرتينا: نحن متقاربون في السن كثيرًا. نعمل في مجالات متقاربة، وننتمي إلى الثقافة نفسها؛ لدينا طفلة ولديهم طفل. لكن، كان هنالك شيء مفقود دائمًا كأننا واقفين على ضفتين متقابلتين يفصل بينهما صدع صغير. كانت أحاديثنا متردّدة دائمًا، ولم نفلح أبدًا في العثور على النغمة المشتركة حقًا. لكن المرات القليلة التي تمكنّا فيها من ذلك كانت مريحة سارة للطرفين. فما السبب الذي يمنعنا من النجاح في ذلك أكثر الأوقات؟ إنه أنا: فترات صمتي الطويلة، والإحساس البسيط بعدم الراحة الذي ينتابني كلما قلت شيئًا.

سارت هذه الأمسية كما تسير الأمور عادة. وصلوا في السادسة وخمس دقائق فتبادلنا مجاملات مهذّبة. تناولت مع فريدريك الجن والتونيك، وجلسنا، وأكلنا، وطرح كل منا على الآخر أسئلة عن أشياء كثيرة، كيف يسير هذا الأمر، وكيف يسير ذاك؛ وكان واضحًا، كما هو دائمًا، كم يحسنان فعل هذه الأشياء أكثر منا، أو أكثر مني على أقل تقدير. كان القيام بأي مبادرة أمرًا يتجاوز قدراتي لأن أقصى ما أستطيع فعله هو أن أندفع فجأة في حديث عن شيء عشته أو أحاول تنشيط الكلام الدائر بيننا. وما كانت ليندا صاحبة مبادرة بدورها لأن أسلوبها كان قائمًا على التوافق معهما: تسأل عن شيء ما، ثم تستمع إلى الإجابة وتبني عليها إلّا إذا أحست أمانًا وانطلاقًا يسمحان لها بالقبض على ناصية الحديث على نحو لا أستطيعه أنا. عندما يحدث هذا، تكون أمسيتنا عظيمة! ويكون هنالك ثلاثة لاعبين لا يعوقهم شيء عن المضي قدمًا. أثنَيا على الطعام؛ وأخليت الطاولة، ثم أتيت بالقهوة والحلوى بينما وضع كارين وفريدريك طفلهما في الغرفة إلى جانب فانيا التي كانت نائمة في مهدها.

قلت لهما بعد أن نام ابنهما وعادا إلى الجلوس من جديد وشرعا في تناول الآيس كريم: «بالمناسبة، لقد ظهرت شقتكما على التلفزيون النرويجي قبل عيد الميلاد».

كانت «شقتهما» مكتبي في حقيقة الأمر: شقة من غرفة واحدة مع حمام وزاوية مطبخ صغيرة. استأجرتها من فريدريك. قال لي: «أوه، حقًا».

«أجرى معي برنامج داغسريفين مقابلة، إنه برنامج إخباري جيد في التلفزيون النرويجي. أرادوا آخر الأمر إجراء المقابلة هنا، في البيت. فرفضت ذلك طبعًا. ثم عرفوا أنني أرعى طفلتنا في هذه الفترة فسألوني إن كان يمكنهم تصويري مع فانيا، رفضت ذلك من جديد، لكنهم أصروا. لم يطلبوا تصويرها، وقالوا إن تصوير عربتها يكفيهم. ماذا لو سرت في المدينة دافعًا العربة أمامي ثم رفعت فانيا منها وجعلت ليندا تأخذها قبل أن تبدأ المقابلة؟ ماذا أستطيع أن أقول لهم؟».

قال فريدريك: «ما رأيك في قول لا؟».

«لكن... كان عليَّ أن أرمي لهم بعظمة ما. رفضوا رفضًا قاطعًا إجراء المقابلة في أحد المقاهي أو أي شيء من هذا القبيل. يجب أن يكون هنالك موضوع للمقابلة. وهكذا أجرينا المقابلة في مكتبك؛ وذهبت أيضًا أبحث في المدينة القديمة عن دمية على هيئة ملاك لأشتريها من أجل فانيا. أوه، كان ذلك شيئًا غبيًا يمكن أن يجعل المرء يبكي. لكن، هكذا جرت الأمور. كانوا في حاجة إلى مادة ما من أجل البرنامج».

قالت ليندا: «لكن النتيجة كانت حسنة».

قلت: «لا، لم تكن حسنة! لكني، في واقع الأمر، أجد صعوبة في فهم كيف يمكن أن تكون النتيجة أفضل من هذا... بالنظر إلى الظروف...».

قال فريدريك وهو ينظر إليَّ نظرة العارف: «هذا يعني أنك اسم كبير في النرويج، أليس هذا صحيحًا؟».

«لا، لا. هذا فقط لأنني مرشح لنيل جائزة».

قال: «آها!» ثم ضحك... «كنت أمازحك فقط. لكني قرأت مقتطفًا من روايتك في مجلة سويدية. كان ما قرأته شيئًا يثير الخيال إلى حد كبير».

ابتسمت له.

حتى أحرف الانتباه عن حقيقة أن الموضوع الذي طرحته كان فيه قدر من المباهاة، نهضت ثم قلت لهم: «آه، كدت أنسى. لقد اشترينا زجاجة كونياك من أجل عشائنا اليوم. ما رأيكم في هذا؟» ثم ذهبت إلى المطبخ قبل أن يتمكنوا من الإجابة. عند عودتي، وجدت أن الحديث قد انتقل إلى العلاقة بين الكحول والإرضاع الطبيعي، فقد قال أحد الأطباء لليندا إن لا مشكلة إنْ تناولت الكحول بمقادير معتدلة. إلّا أنها لم تكن تريد المخاطرة بشيء لأن السلطات الصحية في السويد توصي بالامتناع الكامل عن تناول الكحول خلال فترة الإرضاع. العلاقة بين الكحول والحمل شيء مختلف لأن الجنين يكون على تماس مباشر بدم الأم. أما الإرضاع فهو أمر آخر. وبعد هذا الموضوع، كانت هنالك قفزة سريعة إلى الحديث عن الحمل بشكل

عام، وبعد ذلك عن الولادة. كنت أشارك بشيء أو بآخر، وأضيف جملة قصيرة هنا وهناك؛ أما في ما عدا ذلك، فكنت أصغي صامتًا معظم الوقت. إن الولادة موضوع شديد الحساسية بالنسبة إلى النساء لأن في هذا الأمر قدر كبير الاعتزاز الخفي بالنفس. وبما أنني رجل فقد كان الخيار الوحيد أمامي هو النأي بالنفس عن هذا الحديث إلى أقصى حد ممكن، والامتناع عن إبداء أي رأي. هذا ما فعلته، وهذا ما فعله فريدريك أيضًا، إلى أن وصل الحديث إلى الولادة القيصرية فلم أعد قادرًا على إمساك لساني.

قلت: «من السخف أن تكون الولادة القيصرية بديلًا عن الولادة الطبيعية. في حال عدم وجود أسباب طبية توجب اللجوء إلى الولادة القيصرية، وإذا كانت الأم قوية معافاة، فلماذا يفتحون بطنها ويخرجون الطفل منها بتلك الطريقة؟ لقد شاهدت ولادة قيصرية على التلفزيون ذات مرة، يا إلهي، كان ذلك شيئًا قاسيًا: في لحظة، كان الطفل في الداخل، ثم صار خارجًا تحت الضوء في اللحظة الأخرى. لا بد أن هذه صدمة فظيعة للطفل. وهي صدمة للأم أيضًا. الولادة حالة تحول، وهي عملية بطيئة. والمراد بها أن تكون سبيلًا لتحضير الأم والطفل من أجل مواجهة شيء جديد. لا أشك لحظة في وجود سبب يجعل الولادة تحدث على هذا النحو. ولا أشك في أن لها معنى. أما بهذه الطريقة، فيجري تناسي العملية كلها ومعها كل ما يتحرك في الطفل خلال زمن الولادة... إنه شيء يحدث من غير أي قدرة على التحكم فيه إذا كانت الولادة قيصرية لأن من الأسهل أن يفتحوا البطن ويخرجوا الجنين. هذا شيء غير سويّ، إن أردتم رأيي».

صمت!

تغيّر مزاج الجميع. بدت ليندا محرَجة. استنتجت أنني تجاوزت، من غير قصد، حدًا لا يصح تجاوزه. كان لا بد من إنقاذ الوضع، لكني لم أعرف الغلطة التي ارتكبتها فكان على أحد غيري أن يتدخّل.

تدخّل فريدريك وقال مع ابتسامة: «نرويجي رجعي حقيقي! وهو كاتب أيضًا. تحية لهامسون!».

نظرت إليه حائرًا، فغمزني بعينه وابتسم لي، ثم ظل يدعوني باسم هامسون طيلة ما بقي من السهرة. مرحبًا هامسون، هل بقي شيء من القهوة؟ هكذا كان يقول على سبيل المثال. أو يقول: ما رأيك أنت يا هامسون؟ هل ننتقل للعيش في الريف أم نظل في المدينة؟

كنا كثيرًا ما نتكلم في موضوع الانتقال إلى الريف: لم نكن وحيدين في التفكير في الانتقال من ستوكهولم إلى إحدى الجزر على ساحل النرويج الجنوبي أو الغربي. بل إن هذه الفكرة كانت تداعب تفكير فريدريك وكارين، أيضًا، فريدريك خاصة، لأن لديه أفكارًا رومانسية عن الحياة في مزرعة داخل غابة في مكان ما. كان يجعلنا أحيانًا نرى أماكن معروضة للبيع عثرا عليها عبر الإنترنت. لكن «قصة هامسون» في آخر المطاف ألقت على دوافع كل منا ضوءًا مختلفًا تمام الاختلاف. أهذا كله لأنني قلت إن العملية القيصرية قد لا تكون السبيل الأمثل لولادة الأطفال؟

كيف يكون هذا ممكنًا؟

وبعد أن ذهبا مردّدين «نشكركما على الأمسية اللطيفة» و«يجب أن نكررها من جديد»، وبعد أن رتّبت الغرفة ورفعت الطاولة وشغّلت آلة غسل الأطباق، سهرت وحدي بعض الوقت بينما كانت ليندا وفانيا نائمتين في الداخل. لم أعد أشرب كما كنت أفعل من قبل، وهذا ما جعلني أشعر بشعلة الكونياك الدافئة مشتعلة خلف أفكاري تلقي فيها وهجًا غريبًا. لكني لم أكن ثملًا! بعد جلوسي على الأريكة ساكنًا نصف ساعة من غير التفكير في أي شيء خاص، ذهبت إلى المطبخ وشربت بضع كؤوس من الماء، ثم تناولت تفاحة وجلست أمام الكمبيوتر. شغّلته وذهبت إلى «Google Earth». رحت أدير الكرة الأرضية ببطء حتى وصلت إلى أقصى أميركا الجنوبية، ثم صعدت إلى الأعلى قليلًا من ارتفاع كبير أول الأمر إلى أن وجدت فيوردًا متوغلًا في الأرض فاقتربت منه. رأيت نهرًا منحدرًا في الوادي، وجبالًا وعرة شديدة الانحدار على أحد جانبيه، أما على الجانب الآخر فقد كان النهر يمضي متفرعًا ضمن ما بدا لي منطقة من المستنقعات والمياه الضحلة. وعلى

مسافة إلى الخارج، عند حافة الفيورد، وجدت مدينة: ريو غاليغوس. كانت الشوارع التي تقسمها إلى مربعات مستقيمة كأنها مرسومة بالمسطرة. ومن حجم السيارات قدّرت أن مباني تلك المدينة ليست مرتفعة. كان لأكثرها سقوف مستوية. شوارع عريضة، ومباني منخفضة، وسقوف مستوية: إنه الريف! تنخفض كثافة العمران، ثم يصير نادرًا مع الاقتراب من البحر. بدت الشواطئ مهجورة ما عدا بعض الموانئ الصغيرة. ارتفعتُ شمالًا من جديد، فرأيت بقعًا متناثرة خضراء من المياه الضحلة داخل البحر، ورأيت الأزرق الداكن حيث تكون المياه أكثر عمقًا. غيوم معلقة فوق سطح البحر. ثم تابعت السير شمالًا على امتداد ساحل ريفي معزول لا بد أن يكون منطقة بتاغونيا. توقفت عند مدينة أخرى، بورتو ديسيادو. كانت مدينة صغيرة فيها شيء ذهبي يوحي بالصحراء. رأيت في وسطها جبلًا عليه بنايات قليلة جدًا، ورأيت بحيرتين أيضًا. بدت لي البحيرتان ميتتين. وعند البحر، كانت هنالك مصفاة للبترول تمتد أرصفتها محاذية ناقلات نفط عملاقة. كانت الأرض حول المدينة جبلية قاحلة غير مسكونة، وكان هنالك طريق كثير المنعطفات مبتعد عن البحر، وبحيرة أو اثنتان، وواد فيه نهر، أو واديان، وأشجار وبيوت. تركت ذلك المكان وقرّبت الصورة من بوينس آيرس في ريو دي لابلاتا قبالة مونتيفيديو، ثم اخترت مكانًا على ساحل البحر وقرّبت الصورة فرأيت مطارًا. كانت الطائرات واقفة عند صالة الركاب كأنها سرب من طيور بيضاء لا يبعد عن البحر أكثر من مرمى حجر. وكان على امتداد شاطئ البحر طريق يحدّه صف من الأشجار. تبعت ذلك الطريق فوصلت إلى ما بدا لي أشبه بثلاثة أحواض سباحة عملاقة في قلب منتزه كبير. ماذا يمكن أن تكون هذه الأحواض. قرّبت الصورة أكبر. آها! إنها حديقة مائية! كنت أعرف أن خلف هذا المنتزه، على الناحية الأخرى من الطريق، في الفضاء المفتوح الكبير، يقوم ملعب ريفر بليت. كان امتداد هذا الملعب مفاجئًا لأن المساحة المحيطة به ليست مقتصرة على مضمار للجري، بل إن فيها نصفا دائرتين، عند نهايتي الملعب، قبل أن تبدأ المدرجات الكبيرة

المرتفعة. كانت المباراة النهائية في كأس العالم بين هولندا والأرجنتين قد جرت هنا عام 1978. إنها واحدة من أولى المباريات التي أذكر أنني تابعتها على التلفزيون... القصاصات الورقية البيضاء، والحشود الضخمة، وقمصان لاعبي الأرجنتين المخططة بالأبيض والأزرق، وقمصان الفريق الهولندي البرتقالية على العشب الأخضر. تذكرت أن الهولنديين خسروا تلك المباراة النهائية، وأنها كانت ثاني بطولة يخسرونها على التوالي. ارتفعت من جديد فوجدت النهر على مسافة قليلة إلى الأعلى. تبعت النهر مبتعدًا عن البحر. صناعات ثقيلة على الضفتين، ومراسي فيها روافع وسفن كبيرة. طرق وجسور تجتاز النهر. وجدت ملاعب كرة قدم كثيرة أيضًا. وعندما صار النهر في مركز المدينة، ازداد عدد قوارب النزهة. ومن خلف ذلك، بدأت منطقة من المباني الخشب الملونة. كنت أعرف اسمها: لابوكا. ومن خلف تلك المنطقة، جاء طريق سريع بعرض ثمانية مسارب تجتاز النهر. تبعت ذلك الطريق. سار على امتداد الميناء، إلى جانب السفن الضخمة. وعلى مسافة نحو عشر بنايات، كان مركز المدينة بحدائقه ونُصُبه وبناياته الرائعة. قرّبت الصورة من المكان الذي يجب أن يكون فيه مسرح «تياترو سيرفانتس»، لكن الصورة صارت غائمة وذابت معالمها فصارت بقعًا متداخلة من الأخضر والرمادي. أطفأت الكمبيوتر وشربت كأسًا أخيرة من الماء في المطبخ، ثم ذهبت إلى غرفة النوم واستلقيت إلى جوار ليندا.

ذهبنا في وقت مبكر من الصباح التالي إلى محطة القطارات المركزية لنأخذ القطار المتجه إلى غنيستا حيث تعيش والدة ليندا. كانت الشوارع وأسطح البنايات مغطاة بطبقة من الثلج تقارب خمسة سنتيمترات. وكانت السماء من فوقنا رمادية ثقيلة فيها لمحات من الضياء في بعض الأماكن. لم نرَ كثيرًا من الناس في الشوارع، وكان هذا أمرًا طبيعيًا لأننا في صبيحة يوم أحد: بعض العائدين إلى بيوتهم من حفلات ليلية متأخرة، وبعض المتقاعدين الخارجين في نزهة مع كلابهم... وعندما اقتربنا من المحطة، كان هنالك بعض المسافرين يجرّون حقائبهم. رأيت شابًا جالسًا على مقعد

عند الرصيف. كان نائمًا وقد استندت ذقنه إلى صدره. ومن خلفه كان غراب ينقر شيئًا في سلة القمامة. وعلى مسافة منه، اقترب قطار، ثم عبر الرصيف كله من غير أن يتوقف. لم تُبدِ اللوحة الإلكترونية أي علامة تشير إلى الحياة، بدأت ليندا تسير جيئة وذهابًا على امتداد الرصيف في معطفها الطويل الأبيض الذي اشتريته لها من لندن في عيد ميلادها الثلاثين؛ وكانت على رأسها قبعة بيضاء مع شال أبيض عليه تطريز على هيئة ورود. أهديتها هذا الشال في عيد الميلاد، وأظن أنه لم يعجبها كثيرًا رغم أنني رأيته مناسبًا لها تمامًا. كان لون الشال (تبدو دائمًا أكثر جمالًا في اللون الأبيض) والتطريز الذي عليه شيئًا رومانسيًا مثلها. كانت وجنتاها محمرتين من البرد، وعيناها نديتين لامعتين. جعلها البرد تفرك يديها قليلًا ثم تقفز مهرولة في مكانها. ومن السلم الكهربائي، أتت امرأة سمينة في الخمسينيات تجر في كل يد من يديها حقيبة لها عجلات. ومن خلفها أتت فتاة في الخامسة عشر تقريبًا. كانت ملابس الفتاة داكنة، وعلى عينيها ماسكارا سوداء وفي يديها قفازين أسودين لهما أصابع، وعلى رأسها قبعة سوداء. أما شعرها فكان أشقر اللون. وقفتا متجاورتين عند حافة الرصيف. لا بد أنهما أم وابنتها رغم عدم وجود أي تشابه بينهما.

قالت فانيا مشيرة إلى حمامتين رفرفتا من فوقها: «تو هو تو هو!» كانت قد تعلمت لتوها تقليد صوت البومة عندما قرأنا لها إحدى القصص. صار ذلك الصوت عندها الآن صوت الطيور كلها.

كانت تقاطيع وجهها صغيرة: عينان صغيرتان وأنف صغير وفم صغير. ليس هذا لأنها لا تزال صغيرة الحجم، بل إن ملامح وجهها ستظل صغيرة دائمًا.. هذا واضح منذ الآن. أرى هذا عندما تكون مع ليندا. ما من تشابه مباشر بينهما، ما من تشابه واضح، لكن اللمحة المشتركة، اللمحة الأسرية، تظل ظاهرة... في تناسب ملامحهما خاصة. إن لليندا عينين صغيرتين أيضًا، وفم صغير، وأنف صغير. أما تقاطيع وجهي، بصرف النظر عن لون العينين والانحناءة اللوزية في الجزء العلوي من العينين، فما كانت ظاهرة

لدى فانيا. إلّا أنني كنت أرى فيها أحيانًا بعض ملامح إنغفه، فقد كانت له تلك النظرة في صغره.

قرفصت أمامها وقلت لها: «نعم، إنهما حمامتان». نظرت إليّ نظرة ترقب فرفعت غطاء الأذن المتدلي من قبعتها الجلدية وهمست شيئًا في أذنها. ضحكت. دبّت الحياة في اللوحة الإلكترونية فوقنا في تلك اللحظة. غنيستا، الرصيف الأول، ثلاث دقائق.

قلت: «لا تبدو عليها رغبة في النوم».

قالت ليندا: «لا. لا يزال الوقت مبكرًا».

كان جلوسها ساكنة مثبتة بالحزام وقتًا مزعجًا لها إلّا إذا كانت جالسة في عربتها وكانت العربة متحركة. هذا ما يجعلنا مضطرين إلى إشغالها طيلة الوقت خلال رحلاتنا إلى غنيستا التي تطول الواحدة منها ساعة كاملة. أتحرك بها في ممر العربة، وأرفعها إلى النوافذ، وإلى زجاج الأبواب عندما لا نستطيع إشغالها بكتاب أو لعبة أو كيس صغير من الزبيب. قد يفلح الزبيب في إشغالها نصف ساعة. لم يكن ذلك كله مشكلة إذا كان القطار غير مزدحم. في تلك الحالة يمكن حتى أن يقرأ المرء الصحف مثلما فعلت اليوم لأنني وضعت صحف الأمس كلها في حقيبتي. أما ساعات الازدحام عندما تكون هذه العربات غاصة بالمسافرين، فإن الرحلة تصبح غير سارة إطلاقًا مع طفلة تبكي ساعة كاملة من غير أن يكون هنالك متسع يسمح لها بشيء من الحركة. كثيرًا ما نذهب إلى غنيستا في واقع الأمر ليس فقط لأن والدة ليندا يمكن أن ترعى فانيا فنحظى ببضع ساعات لأنفسنا، بل أيضًا لأننا نحب كثيرًا أن نكون هناك، أنا أحب ذلك على الأقل. مزارع، وحيوانات ترعى، وغابات مترامية، ودروب ترابية صغيرة، وبحيرات، وهواء نظيف منعش. ليل فاحم السواد، وسماء مرصّعة بالنجوم، وسكون تام.

توقّف القطار عند الرصيف، فصعدنا إليه وجلسنا في مقاعد عند الباب حيث يتوفّر متّسع من أجل العربة. رفعت فانيا وجعلتها تقف على المقعد وتضع يديها على النافذة لتنظر منها بينما كان القطار يعبر النفق ثم يسير على

الجسر فوق سلوسن. كان الماء الذي أحاط به الجليد وكساه الثلج يشع بياضًا على اللون البني الأصفر والمحمر، لون البيوت وسفح جبل ماريا بيرغيت الداكن الذي لم يغطه الثلج بعد. كانت في الغيوم في الجهة الشرقية من السماء مسحة ذهبية كأنها مُنارة من داخلها؛ إنه ضياء الشمس من خلفها. دخلنا النفق تحت سودير، وعندما خرجنا منه سرنا على جسر مرتفع فوق الماء حتى بلغنا اليابسة على الناحية الأخرى: كتلة بنايات مرتفعة في البداية، ثم بلدة صغيرة من بلدات الضواحي، ثم بلدة أخرى، ثم تجمعات سكنية وبيوت منفصلة إلى أن انقلبت نسبة البناء إلى الطبيعة فبدت القرى وحدات صغيرة متناثرة عبر مساحات مترامية من البحيرات والغابات.

أبيض، ورمادي، وأسود، وبقع معزولة من الخضرة الداكنة، تلك هي ألوان الريف الذي كنا نعبره. كنت آتي إلى هذا المكان كل يوم خلال الصيف الماضي. عشنا مع إنغريد وفيدار آخر أسبوعين من شهر حزيران، وكنت أسافر كل يوم بين غنيستا وستوكهولم، حيث أكتب. كانت تلك حياة مثالية. استيقاظ في السادسة، وقطعة خبز للإفطار، وسيجارة مع فنجان قهوة على درجات العتبة، ودفء في الشمس، ومنظر المرج الأخضر ممتدًا حتى حافة الغابة، ثم الذهاب على الدراجة إلى المحطة، وفي حقيبتي الظهرية سندويتشات أعدّتها لي إنغريد، والقراءة في القطار حتى ستوكهولم، والسير إلى المكتب على الأقدام، والكتابة، والعودة ثانية نحو الساعة السادسة مساء عبر الغابات الحية التي يغمرها ضياء الشمس، وركوب الدراجة عبر الحقول من جديد إلى ذلك البيت الصغير حيث أجدهم في انتظاري من أجل العشاء. وربما سباحة مسائية في البحيرة مع ليندا، وبعدها جلوس وقراءة بعض الوقت ثم الذهاب إلى النوم في وقت مبكر.

ذات يوم، كان هنالك حريق في الغابة على امتداد خط القطار. كان ذلك شيئًا لا يصدَّق. سفح كامل، ونار مشتعلة لا تبعد عن القطار إلّا أمتارًا قليلة. ألسنة اللهب تمتد فتلعق جذوع الأشجار، وأشجار أخرى مشتعلة كلها. ألسنة برتقالية ممتدة على الأرض، بين الشجيرات والأجمات، وذلك كله

تحت ضياء شمس الصيف نفسها التي بدت، مع زرقة السماء الخفيفة، كأنها تجعل ما يحدث شفّافًا.

كنت مترعًا بذلك كله، كان شيئًا ضخمًا جليلًا... كان العالم ينفتح أمامي.

* * *

وصل فيدار بسيارته إلى موقف السيارات عند محطة قطار غنيستا لحظة توقف القطار. وجدناه ينتظرنا وابتسامة صغيرة على شفتيه عندما سرنا في اتجاهه بعد لحظة من ذلك. كان قد تجاوز السبعين ببضع سنين، وكانت له لحية بيضاء وشعر أبيض وظهر منحنٍ قليلًا، لكنه معافى قوي الجسم له بشرة لوّحتها الشمس لأنه يمضي قسمًا كبيرًا من حياته في الخارج. كانت عيناه زرقاوين حادتين ذكيتين، لكنهما مراوغتين متهربتين على نحو ما. لم أكن أعرف شيئًا عما فعله في حياته باستثناء القليل الذي أخبرتني به ليندا وما استطعت استنتاجه مما أراه. ورغم حديثه عن أمور كثيرة في مجرى عطلة نهاية الأسبوع، إلّا أنه لا يتحدث عن نفسه إلّا قليلًا جدًا. لقد نشأ في فنلندا، ولا تزال له أسرة هناك، ولكنه يتكلم السويدية كواحد من أبنائها. إنه صاحب حضور يفرض نفسه، لكنه ليس بالرجل المتسلط أبدًا بل شخص يحب مخالطة الناس. كان يقرأ كثيرًا... يقرأ الصحف كلها من أولها إلى آخرها، ويقرأ الأدب الذي كان على دراية جيدة به. ولعل سنّه يظهر قبل كل شيء في الآراء التي يدافع عنها بقوة، رغم عدم كثرتها؛ لكنها، كما رأيت، تحتل مساحة غير قليلة من نفسه. لم يكن لهذه الجوانب من شخصيته أي أثر عليّ، لكنها كانت ذات أثر على إنغريد وليندا اللتين يتعامل معهما كأنهما شخص واحد، وكذلك على شقيق ليندا. أظن أن السبب في هذا راجع في جزء منه إلى أنني كنت جديدًا على العائلة، وفي جزء آخر لأنني أحب سماع حديثه وأجد نفسي مهتمًا بما يقول. وكان يبدو لي شيئًا طبيعيًا أن تكون أحاديثنا من جانب واحد لأن مساهماتي ما كانت تتجاوز طرح بعض الأسئلة مع سلسلة لا تنتهي من الإجابات القصيرة من قبيل «نعم» و«أوه،

نعم» و«حقًا؟» و«اممم» و«فهمت» و«شيء يثير الاهتمام»؛ وهذا لأننا لم نكن متساويَيْن، فسنُّه ضعفي سنّي على الأقل، ومن خلفه حياة تمتد طويلًا. لم تكن ليندا تفهم هذا حقًا. وكم كانت تناديني أو تأتي لتأخذني مقتنعة بأن عليها أن تنقذني من أحاديث مملة يمنعني فرط تهذيبي من الابتعاد بنفسي عنها. يكون الأمر هكذا من وقت لآخر؛ لكن اهتمامي بأحاديثه كان حقيقيًا أكثر الأحيان.

قالت ليندا وهي تدفع بالعربة خلف السيارة: «مرحبًا يا فيدار».

قال: «مرحبًا. تسعدني رؤيتكم من جديد».

رفعت ليندا فانيا من العربة فطويتها ووضعتها في صندوق السيارة بعد أن فتحه فيدار.

قلت: «والآن، جاء دور المقعد». وضعت مقعد فانيا على الكرسي الخلفي، ثم وضعتها فيه وثبّتت الحزام.

كان فيدار يقود سيارته مثلما يفعل كثير من الرجال المتقدمين في السن، فينحني فوق عجلة القيادة كأن اقترابه بضعة سنتيمترات من الزجاج الأمامي كان أمرًا حاسم الأهمية من أجل الرؤية الجيدة. كان سائقًا جيدًا في ضوء النهار، ففي ذلك الربيع مثلًا، قاد بنا السيارة أربع ساعات متواصلة عندما ذهبنا إلى إيدو حيث يقع بيته الصيفي، لكن إحساسي بالأمان تناقص كثيرًا عندما حل الظلام على الطريق. منذ بضعة أسابيع، كدنا ندهس واحدًا من الجيران كان سائرًا على الطريق الترابية. رأيته من بعيد وظننت أن فيدار رآه أيضًا. ظننت أنه لم ينحرف مبتعدًا قليلًا عنه لأنه يريد الانعطاف قبل الوصول إليه ببضعة أمتار. لكن الأمر لم يكن هكذا: لم يره! كاد الحادث يقع لولا صراخي وحضور ذهن ذلك الجار الذي قفز في إحدى الأجمات خارج الطريق.

خرجنا من ساحة وقوف السيارات في المحطة ودخلنا الشارع الرئيسي الذي هو الشارع الوحيد في غنيستا.

قال فيدار متسائلًا: «هل أحوالكم بخير؟».

أجبته: «نعم، لا نشكو شيئًا».

«كان الطقس سيئًا الليلة الماضية، وقد أسقطت الريح عدة أشجار. ثم قطعت الكهرباء عن البيت. لكني أظنهم سيصلحونها هذا الصباح. كيف كان الطقس عندكم في المدينة؟».

قلت: «في الواقع، كان في المدينة بعض الريح أيضًا».

انعطفنا يسارًا، واجتزنا الجسر الصغير، ثم بلغنا حقلًا واسعًا لا تزال حزم القش فيه مكومة عند الطريق. وبعد كيلومتر واحد تقريبًا، انعطفنا من جديد فتركنا الطريق ومضينا في درب ترابية عبر غابة تساقطت أوراق أشجارها ولاح من بين جذوعها عشب أخضر كأنه جزيرة صغيرة إلى جانب الطريق. كانت إلى جانب المرج صخور عارية تحف به ومن بعدها أشجار دائمة الخضرة علت فوق تلك الصخور. ترعى ثيران قوية في هذا المكان على مدار السنة تقريبًا. وعلى مسافة مئة متر أمامنا، امتد ممر معشوشب مؤد إلى بيت إنغريد وفيدار، في حين يستمر الدرب الترابي بضعة كيلومترات أو نحو ذلك، إلى أن ينتهي عند مرج فسيح وسط الغابة.

كانت إنغريد في انتظارنا خارج البيت عندما وصلنا. أسرعت إلى السيارة فور توقفها وفتحت الباب الخلفي حيث كانت فانيا.

قالت وهي تضع يدها على صدرها: «أوه، يا حبيبتي الصغيرة! كم أنا مشتاقة إلى رؤيتك!».

قالت ليندا وهي تفتح الباب من الجهة الأخرى: «احمليها إذا أردتِ». رفعت إنغريد فانيا وأبعدتها عنها بيديها قليلًا حتى تنظر إليها، ثم احتضنتها. أما أنا فأخرجت العربة من صندوق السيارة، وفتحتها ثم دفعتها في اتجاه باب البيت.

قالت إنغريد: «آمل أن تكونوا جائعين لأن الغداء جاهز».

كان البيت صغيرًا قديمًا. وكانت الغابة محيطة به من كل الجهات ما عدا الجهة الأمامية حيث يمتد أمام البيت حقل مفتوح. في الأماسي وعند الفجر، تأتي الغزلان من الغابة المجاورة إلى هذا الحقل وتلعب. رأيت فيه

أيضًا ثعالب تجري وأرانب برية تقفز هنا وهناك. كان المكان في الأصل مزرعة، ولا يزال يحمل آثار تلك الفترة. ورغم إضافة الغرفتين اللتين تشكلان البيت الآن، مع مطبخ وحمام ملحق بهما، فإن إنغريد وفيدار ليس لديهما غرفة معيشة كبيرة. كانت غرفة المعيشة مظلمة مزدحمة بأشياء كثيرة؛ وفي غرفة النوم التي خلفها، كان المكان ضيقًا لا يتسع إلّا لسريرين اثنين وبضعة رفوف للكتب على الجدار. لديهما أيضًا قبو ترابي على مسافة بسيطة خلف البيت، وكوخ خشبي أقاماه مؤخرًا فيه سريران وجهاز تلفزيون. وفي آخر رقعة الأرض تلك، هنالك شيء هو مزيج من مخزن للحطب وورشة للعمل. عندما أتينا للإقامة هنا، انتقل فيدار وإنغريد للعيش في الكوخ حتى يظل البيت لنا وحدنا في المساء. أحب كثيرًا أن أكون هنا وأن أستلقي على السرير قرب العوارض الخشبية الخشنة العتيقة فأرى السماء ونجومها عبر النافذة المرتفعة وتحيط بي الظلمة والصمت. قرأت «البارون بين الأشجار» لكالفينو عندما كنا هنا آخر مرة، وفي المرة التي قبلها قرأت «دريزين» لويكمارك. لا بد أن ما جعل قراءة هذين الكتابين متعة حقيقية شيء له علاقة بالمحيط الذي جعلني أشعر بالإشباع مثلما فعل المحتوى الفعلي للكتابين. أو لعل الإحساس بالفضاء الواسع الذي أوجده هذان الكتابان عندي كان نوعًا من تجاوب خاص مع هذا العالم الذي وجدت نفسي فيه! أقول هذا لأنني قرأت رواية لتوماس برنارد قبل أن أقرأ ويكمارك فلم أكد أجد فيها شيئًا من الشحنة التي وجدتها في كتاب ويكمارك. لم ينفتح لي أي فضاء لدى برنارد، وكان كل شيء مقفلًا، محصورًا في حجرات صغيرة من التأمل رغم أنه كتب رواية مخيفة صادمة أكثر من معظم الأشياء التي قرأتها، إنها «الفناء»... لكني ما كنت راغبًا في النظر في ذلك الاتجاه وما كنت راغبًا في المضي في تلك الطريق. أبدًا، أردت أن أكون بعيدًا كل البعد عما هو مغلق، عما هو إلزامي، إلى أقصى حد ممكن. هيا بنا! تعال إلى الأفق المفتوح يا صديقي! مثلما كتب هولدرلين في مكان ما. لكن كيف؟ كيف؟

جلست على كرسي عند النافذة. تصاعد البخار من قدر حساء اللحم

على الطاولة، وإلى جانبها سلة من الخبز المنزلي الطازج وزجاجة مياه معدنية وثلاثة علب بيرة فولكول السويدية قليلة الكحول. حملت ليندا فانيا ووضعتها في كرسي الأطفال المرتفع عند رأس الطاولة، ثم قطعت لفافة خبز إلى نصفين أعطتها واحدًا منهما وذهبت لتسخين وجبتها الخاصة بالأطفال في المايكروويف. تولت أمها تلك المهمة فعادت ليندا وجلست إلى جانبي. جلس فيدار إلى جهة الطاولة الأخرى وهو يفرك ذقنه الملتحية بين إصبعه وإبهامه وقد ظهرت على وجهه ابتسامة خفيفة.

صاحت إنغريد من المطبخ: «هيا، أبدأوا الأكل، كلكم!».

مرت ليندا بيدها على ذراعي. أشار إليها فيدار برأسه فبدأت تصب الحساء في الصحون العميقة. حلقات شاحبة الخضرة من الكرّاث، وشرائح الجزر البرتقالية، وقطع صفراء من ملفوف الكوهلرابي، وقطع لحم كبيرة رمادية تظهر أليافها الحمراء في بعض المواضع وتظهر لها سطوح لامعة مزرقة في مواضع أخرى. أما العظام المسطحة البيضاء التي تحمل قطع اللحم هذه فكانت ناعمة كأنها من الحجر الصقيل، وكان بعضها خشنًا كثير المسام. يسبح ذلك كله في المرق، في الدهن الذي سيتجمّد عندما يبرد، لكنه يعوم في الحساء الآن مثل حبات وفقاعات صغيرة شفافة على سطح السائل ذي اللون الغائم.

قلت وأنا أنظر إلى إنغريد التي جلست إلى جانب فانيا تنفخ على طعامها حتى يبرد: «شيء لذيذ، كالعادة».

قالت: «هذا جيد»، ونظرت إليّ نظرة سريعة ثم وضعت الملعقة البلاستيكية في الصحن البلاستيكي ورفعتها إلى فم فانيا الذي كان، على غير عادته، مفتوحًا مثلما تفتح فراخ الطيور أفواهها. عندما نأتي إلى هذا المكان، تتولى إنغريد تلقائيًا كل ما يتعلق بفانيا: الأكل، وتغيير الحفاضات، والثياب، والنوم، والنزهة... تكون راغبة في فعل كل شيء. لقد اشترت لها كرسيًا مرتفعًا وصحونًا وأدوات طعام للأطفال، إضافة إلى زجاجات الإرضاع والألعاب، بل اشترت أيضًا عربة إضافية حتى تظل جاهزة للاستخدام

هنا وكذلك علبًا مختلفة من طعام الأطفال الجاهز والحساء المخصّص للأطفال ووضعت ذلك كله في خزانة المطبخ. أما إذا نقصنا أي شيء، إذا طلبت ليندا تفاحة لفانيا مثلًا، أو إذا ارتفعت حرارة فانيا قليلًا، فإن إنغريد تقفز إلى دراجتها وتذهب ثلاثة كيلومترات إلى الدكان أو الصيدلية وتعود بالتفاح أو بميزان الحرارة وأدوية خافضة للحرارة في السلة الصغيرة المعلقة إلى المقود. عندما نأتي إليها، تكون قد وضعت برنامجًا للوجبات واشترت كل ما يلزمها حتى تقدم صنفين من الطعام على الغداء، وثلاثة على العشاء. تنهض من نومها عندما تستيقظ فانيا في السادسة صباحًا، وتخبز لفافات الخبز الطازجة، بل يمكن أن تأخذها في نزهة خارج البيت قبل أن تعود لإعداد طعام الغداء. نستيقظ في التاسعة فنجد طاولة الفطور الغنية جاهزة: الخبز الطازج، والبيض المسلوق، وبيض مقلي أغلب الأحيان إذا تذكرت أنني أحبه، وقهوة وعصير. عندما أجلس إلى الطاولة، تضع أمامي الصحيفة التي اشترتها من أجلي. كانت امرأة إيجابية إلى حد استثنائي، متفهّمة إلى حد استثنائي، وما كانت كلمة «لا» تخرج من فمها وما كان في العالم شيء تعجز عن مساعدتنا فيه. كان الفريزر لديها مليئًا بعدد كبير من دلاء الآيس كريم وبعلب سمك الرنجة البلاستيكية، إضافة إلى وجبات متنوعة أعدتها في وقت سابق ووضعت على كل منها لصاقة: صلصة كرات اللحم، ولحم البقر مع البطاطس، والفلفل المحشو، والكعكات الحلوة المحشوة، وحساء البازلاء، وشرائح لحم الخروف مع البطاطس المحمصة، و«بورغنيون لحم البقر»، و«الريسول»، و«بودينغ السلمون»، وفطيرة الجبن مع الكرّاث... وإذا أخذت فانيا في نزهة ثم أحست برودة في الطقس، فإنها تذهب سريعًا إلى محل الأحذية وتشتري لها حذاء جديدًا.

سألتني: «كيف حال والدتك؟ هل هي بخير؟».

أجبتها: «نعم، أظنها بخير. سوف تنتهي قريبًا من كتابة رسالة التخرج بحسب ما فهمت». مسحت الحساء عن ذقني بمنديل الطعام وأضفت: «لكنها لا تسمح لي بقراءتها».

قال فيدار: «إنني أرفع قبعتي احترامًا لها. من المؤكد أن المرء لا يجد كثيرًا من النساء في الستينات لديهن هذا الدافع للدراسة في الجامعة».

«أظن أن لديها مشاعر مختلطة تجاه هذا الأمر. لقد كانت راغبة في الدراسة طيلة حياتها، لكنها حققت تلك الرغبة بعد أن قاربت حياتها المهنية على الانتهاء».

قالت إنغريد: «بغض النظر عن ذلك... ليس ما تفعله سهلًا. إن أمك امرأة صلبة».

ابتسمت من جديد. كانت المسافة بين السويد والنرويج أكثر مما يتخيلان؛ وللحظة، رأيت أمي بعينين سويديتين.

قلت: «نعم، أظن أنها صلبة».

قال فيدار: «أبلغها تحياتنا. أبلغ بقية العائلة تحياتنا أيضًا. لقد أحببتهم كثيرًا».

قالت إنغريد: «يتكلم فيدار عنهم منذ كنا هناك في عيد الميلاد».

قال فيدار: «إن فيهم بعض الشخصيات الحقيقية! كيارتان، الشاعر، لقد وجدته رجلًا غير عادي، رجلًا يثير الاهتمام حقًا. وماذا كان اسم هؤلاء الذين هم من آلسوند، اختصاصي الأطفال النفساني».

«إنغون ومارْد؟».

«بالضبط. ما ألطفهما! وماغنِه أيضًا، أليس اسمه هكذا؟ إنه ابن عمك، والد جون أولاف، أليس كذلك؟ أليس هو مدير التنمية؟».

قلت: «إنه هو، هذا صحيح».

قال فيدار: «هذا رجل واسع العلم».

قلت: «صحيح».

«وهنالك أيضًا شقيق والدك. المعلم في تروندهيم. كان رجلًا ممتازًا أيضًا. هل يشبه والدك؟».

أجبته: «لا. بل يمكن القول إنه أقل إنسان شبهًا بأبي. إنه يحافظ على مسافة دائمًا، وأظن أن هذا يدل على الذكاء».

حلت فترة قصيرة من الصمت ما كان يقطعها غير أصوات رشف الحساء، وقرع فانيا على الطاولة بكأسها، وضحكاتها.

نظرت إلى إنغريد وقلت: «لا يزالون يتحدّثون عنكما، وعن الطعام الذي أعددتِه خاصة».

قالت ليندا: «الأمر مختلف كثيرًا في النرويج. مختلف حقًا. في يوم السابع عشر من أيار خاصة. يرتدي الناس الملابس التقليدية ويضعون الميداليات على صدورهم». قالت هذا وضحكت.

«ظننت أول الأمر أنهم يفعلون هذا كنوع من السخرية، لكن لا، لم يكن الأمر كذلك. كان شيئًا أصيلًا حقًا. إنهم يحملون تلك الميداليات باعتزاز واضح. لا يمكن أن يفعل هذا أي سويدي، بكل تأكيد».

قلت: «أنا واثق من أنهم كانوا فخورين بها».

«نعم، بالضبط. لكنك لا تستطيع أن تمسك بسويدي واحد يعترف بذلك... في أي مكان؛ لا يعترفون بهذا حتى لأنفسهم».

أملتُ الطبق العميق حتى أملأ الملعقة بآخر ما بقي فيه من الحساء، ونظرت من النافذة إلى الأرض المثلثة المستوية التي كساها الثلج تحت السماء الرمادية وإلى صف الأشجار العارية السوداء عند حافة الغابة خلف تلك الأرض، صف تقطعه من حين لآخر شجرات خضراء باذخة. كنت أرى من هناك أرض الغابة القاتمة التي كستها أغصان صغيرة جافّة أسقطتها الريح.

قلت: «كان هنريك إبسن مهووسًا بالميداليات. وما كان هنالك وسام لا يريد الحصول عليه. كان يكتب الرسائل إلى كل ملك أو حاكم علّه يتلقى وسامًا منه. ثم كان يضع تلك الأوسمة كلها وهو في البيت، في غرفة الجلوس، ويتجول وقد رصّع صدره بها. ها ها ها! وأيضًا، كان يضع مرآة في قبعته المرتفعة حتى يجلس في المقهى وينظر إلى نفسه فيها من غير أن يلاحظ أحد ذلك».

سألتني إنغريد: «هل كان إبسن يفعل ذلك حقًا؟».

«كان يفعله! كان معجبًا بنفسه إلى أقصى حد. أليس هذا شكلًا عجيبًا من الإفراط يفوق ما كان لدى شتينبرغ؟ لم يكن شتينبرغ مهووسًا إلّا بالكيمياء والجنون وشراب الأفسنتين والقبعات النسائية... كانت هذه أسطورة فنية معتادة. أما إبسن فكان عنده ذلك الإعجاب البرجوازي بالنفس مدفوعًا إلى أقصاه. لقد كان أكثر جنونًا بكثير من شتينبرغ».

قال فيدار: «بما أننا في هذا الحديث، هل سمعت آخر أخبار كتاب آرنه؟ لقد سحبه الناشر من السوق».

قلت: «أظن أن الناشر كان محقًا لأن في الكتاب أغلاطًا كثيرة».

قالت فيدار: «نعم، أظنه محق. لكن الناشر كان يجب أن يساعده في تفادي هذه الأغلاط، فقد كان الرجل مريضًا. ما كان قادرًا على رسم الخط الفاصل بين خيالاته ورغباته وبين الحقيقة».

«إذن، أنت ترى أنه كان يظن فعلًا أنه يكتب حقائق؟».

«أوه، نعم، لا شك في هذا. إنه رجل طيب، لكن فيه شيء من الكذب المرَضي. يصل به الأمر حد تصديق قصصه التي يخترعها بنفسه».

«كيف تلقّى هذه الصدمة، وكيف يتعامل مع الأمر الآن؟».

«لست أدري. ليس هذا من الأشياء التي يسهل الحديث عنها مع آرنه، في هذا الوقت خاصة».

قلت مع ابتسامة: «بالطبع». شربت آخر قطرة من بيرة فولكول، وأكلت ما بقيَ من قطعة الخبز، ثم استندت مسترخيًا بظهري على الكرسي. كنت أعرف أن قيامي بالمساعدة في ما يتعلق برفع الأطباق أمر لا مجال للتفكير فيه أبدًا، وهكذا لم أهتم حتى بأن أعرض خدماتي.

نظرت إليّ ليندا واقترحت قائلة: «هل نذهب في نزهة؟ قد تنام فانيا في عربتها».

قلت: «لا بأس».

قالت إنغريد: «يمكنها البقاء معي هنا إن أردتما الذهاب وحدكما».

«لا، لا بأس في ذلك. شكرًا لك. سنأخذها معنا. هيا يا قزمتي الصغيرة!

سنذهب الآن». قالت هذا وهي تحمل فانيا وتذهب بها لتغسل فمها ويديها. أما أنا فارتديت ملابسي الخارجية وجهزت العربة.

سرنا في الدرب الماضية نزولًا حتى البحيرة. كانت ريح باردة تهب عبر الحقول. وإلى الجهة الأخرى، كان بعض الغربان أو طيور العقعق يتقافز هنا وهناك على الأرض. وفوقها، بين الأشجار، وقفت أبقار كبيرة ساكنة تحدق في البعيد. كانت هنالك أشجار بلوط، وقد كانت قديمة، أظنها من القرن الثامن عشر أو أكثر... ما أدراني؟ ومن خلف تلك الأشجار يمتد خط القطار. نسمع هديرًا كلما مر قطار، ثم يتردد الهدير في أرجاء المنطقة كلها. تنتهي الدرب ببيت قرميدي صغير جميل. يعيش في هذا البيت قس عجوز (إنه والد لارس أوهلي، رئيس حزب «فانستر» اليساري السويدي)، ويُقال إنه كان نازيًا ذات يوم. لا فكرة عندي إن كان هذا الكلام صحيحًا أو غير صحيح؛ إلّا أن الشائعات التي من هذا النوع تظهر بسهولة من حول الأشخاص المشهورين. كنت أرى ذلك الرجل من وقت إلى آخر، أراه متجولًا هنا وهناك، محدودب الظهر، منحني الرأس.

رأيت في فينيسيا ذات مرة رجلًا عجوزًا منحني الرأس كثيرًا إلى حد جعله أفقيًا. كانت رقبته تصنع زاوية قائمة مع كتفيه. وما كان قادرًا على رؤية شيء غير الأرض تحت قدميه. استغرق زمنًا طويلًا حتى اجتاز الساحة. كنت في آرسينال، إلى جوار الكنيسة التي كانت جوقة الإنشاد تجري تدريباتها فيها ذلك الوقت. كنت جالسًا أدخن في المقهى فلم أستطِع إبعاد عينيَّ عنه منذ اللحظة التي رأيته فيها. كان الوقت مساء في أوائل شهر كانون الأول. وما كان هناك أحد في الجوار غيري وغيره وثلاثة من عمال المقهى واقفين عند المدخل. كان الضباب معلقًا عند سطوح البيوت. وكان بلاط الشارع يلمع تحت ضوء المصابيح، ومثله الجدران الحجرية القديمة التي كستها رطوبة ندية. توقّف الرجل عند أحد الأبواب وأخرج مفتاحًا، ثم مال إلى الخلف بجسده كله حتى يستطيع أن يرى، على نحو تقريبي، مكان ثقب المفتاح. تحسّست أصابعه طريقها إلى ذلك الثقب. جعل تشوهه حركاته كلها تبدو

كأنها غير منتمية إليه، أو أن ذلك الرأس الناظر إلى الأرض، الرأس الذي لا يتحرك، صار مركزًا يلفت النظر كأنه شيء مستقل عن بقية الجسم رغم كونه جزءًا منه حيث تتقرر الحركات كلها وتصدر الأوامر كلها.

فتح الرجل الباب ودخل. بدا كأنه من غير رأس عندما نظرت إليه من الخلف. وبعد ذلك صفق الباب بحركة عنيفة غير متوقعة كان يمكن تمامًا أن أظنها مستحيلة.

كان هذا غريبًا، غريبًا!

رأينا سيارة طويلة حمراء صاعدة في الطريق على بعد بضع مئات الأمتار أمامنا. كان الثلج يدوّم في الهواء من خلفها. ابتعدنا إلى جانب الطريق عندما اقتربت تلك السيارة. كان فيها كلبان أبيضان في مكان المقعد الخلفي المنزوع. كانا يعويان.

قلت: «هل رأيتهما؟ يبدوان كأنهما من كلاب الهاسكي. لكنهما لا يمكن أن يكونا كذلك. ماذا تظنين؟».

رفعت ليندا كتفيها وقالت: «لست أدري. لكني أظنهما كلبي ذلك البيت عند المنعطف. الكلبان اللذان يعويان دائمًا».

قلت: «لا أرى كلابًا أبدًا عندما أمر هناك. لكني أعرف أنكِ قلتِ هذا من قبل. هل كنتِ خائفة منهما؟ هل كان الأمر كذلك؟».

قالت: «لست أدري. ربما كنت خائفة قليلًا. إنه أمر مزعج حقًا. يكونان مربوطين إلى رسنين طويلين. يقتربان وهما ينبحان...».

عاشت ليندا هنا فترات طويلة عندما كانت مصابة بالاكتئاب الذي جعلتها شدته غير قادرة على رعاية نفسها. كانت تمضي نهارها كله في مشاهدة التلفزيون من فراشها في الكوخ الخشبي المخصّص للزائرين. وما كانت تتكلم مع أمها ومع فيدار إلّا قليلًا جدًا. لم تكن تريد شيئًا، ولم تكن قادرة على فعل شيء... توقف كل شيء في داخلها. لست أدري كم استمرت تلك الحالة. لم تخبرني أي شيء تقريبًا عن ذلك. لكني كنت أرى تلك الفترة في أماكن كثيرة... أراها في الاهتمام والقلق اللذين كنت ألاحظهما في عيون الجيران وأصواتهم.

صرنا في الوادي، ومررنا بالقرب من العزبة التي يعيش فيها القس العجوز. كانت عزبة صغيرة متهالكة الجدران بعض الشيء. كانت النوافذ منارة، لكنني لم أستطِع رؤية أحد في الداخل. كانت ثلاث سيارات واقفة في الممر القصير بين العزبة والبيت لكن إحداها واقفة فوق حجارة بدلًا من العجلات. كانت تلك السيارات مكسوة بالثلج.

لا أكاد أستطيع تصديق أننا جلسنا هناك ذات مرة. جلسنا إلى طاولة عامرة بالقرب من بركة السباحة. كانت أمسية دافئة مظلمة من أماسي شهر آب؛ وكنا نأكل السرطانات. لقد جلسنا هناك فعلًا. كانت من حولنا مصابيح ورقية متألقة في الظلام، وأصوات سعيدة، وكومين من السرطانات الحمراء اللامعة على طرفي الطاولة. علب البيرة، وزجاجات الأكوافيت، وضحك، وغناء. صوت صرصار الليل، وصوت سيارات من بعيد. أذكر أن ليندا فاجأتني تلك الليلة. أفرغت كأسها، ثم وقفت وبدأت تغني واحدة من أغاني الشراب. فعلت ذلك مرتين. قالت إنهم ينتظرون منها أن تغني في ذلك المكان لأنها تغني فيه دائمًا. كانت من ذلك النوع من الأطفال الذين يمثلون ويغنون أمام الكبار. لقد أدت دورًا في «صوت الموسيقى» خلال أكثر من سنة على مسرح في ستوكهولم عندما كانت تلميذة في المدرسة. أظنها كانت تؤديه في الحفلات في البيت أيضًا. كانت تحب الاستعراض، أما أنا فكنت أفضل الاختباء.

كانت إنغريد تحب الظهور أيضًا. عندما تخالط الجيران، وتعانق الجميع، وتجعلهم يرون المأكولات التي حضرتها، وتتحدث وتضحك فتستقطب الأنظار ويكون لدى كل واحد من الحاضرين ما يقوله لها. إنها تقدم مساعدتها دائمًا في أي نشاط اجتماعي في الناحية. تطبخ شيئًا أو تخبز شيئًا؛ وإذا كان هنالك مريض أو شخص بحاجة إلى مساعدة فإنها تذهب بدراجتها وتفعل ما تستطيع فعله.

بدأت الحفلة. كان الجميع جالسين، منحنين فوق أطباق السرطانات التي اصطادوها من البحيرة التي في الأسفل. وكانوا يرفعون رؤوسهم

من حين لآخر عندما يشربون ما يطلق عليه السويديون اسم نُوبِه، نوع من الشنابس. كان الجو احتفاليًا بهيجًا. وعند ذلك جاء صوت صياح مفاجئ من الحظيرة. رجل يصرخ في امرأة. تبخر جو المرح حول الطاولة. نظر البعض في اتجاه الحظيرة، وحاول البعض تجنب النظر. لكن كلًا منهم أدرك ما يجري: هذا ابن العجوز صاحب العزبة. إنه معروف بمزاجه الحاد العنيف؛ وهو الآن يصرخ في ابنته المراهقة التي وجدها تدخن. نهضت إنغريد على الفور ومضت إليه بخطوات سريعة حازمة. كان جسدها كله ينتفض بغضب مكتوم. توقفت أمام الرجل. كان طوله نحو مئة وتسعين سنتيمترًا، قويًا حسن البنية. وكانت له عينان قاسيتان. وبعد ذلك راحت توبّخه بقوة جعلته ينكمش أمامها. وبعد أن انتهت، وانصرف الرجل بسيارته، وضعت يدها على كتف ابنته التي كانت واقفة تبكي إلى جانبها. قادتها إلى الطاولة. لحظة جلست على كرسيها، عادت إلى مزاجها السابق وبدأت تتحدث وتضحك وتجذب الآخرين إلى جو المرح من جديد.

أما الآن فكل شيء ساكن أبيض هنا.

تمضي الطريق من خلف العزبة إلى عدد من أكواخ العطلات. لم تجرِ إزالة الثلج من الطريق هنا لأن أحدًا لا يأتي في هذا الوقت من العام.

خلال عملي على رواية «زمان من أجل كل شيء»، كانت إنغريد في ذهني عندما كتبت عن أخت نوح، آنا. امرأة أقوى من النساء جميعًا، امرأة أخذت العائلة كلها عندما جاء الطوفان فصعدت بهم إلى الجبل، وعندما أدركتهم المياه، أخذتهم إلى نقطة أعلى إلى أن ما عاد هناك مكان أعلى، إلى أن فقدوا كل أمل. امرأة لا تستلم أبدًا؛ امرأة مستعدة للتضحية من أجل كل شيء من أجل أطفالها وأحفادها.

إنها شخصية متميزة. يملأ حضورها الغرفة عندما تدخلها، لكنها تظل متواضعة. قد تعطي انطباعًا بأنها شخصية سطحية، لكن في عينيها عمقًا يخالف هذا الانطباع. تحاول أن تبقي مسافة تفصلها عنا، وتحاول دائمًا أن تكون غارقة في خلفية المشهد، وتهتم دائمًا بألّا تقف في طريق أحد، لكنها تكون الشخص الأكثر قربًا منا.

قالت ليندا وهي ترفع رأسها وتنظر إليّ: «هل تظن أن فريدريك وكارين استمتعا بالسهرة عندنا ليلة أمس؟».

قلت: «نعم، أظن أنهما استمتعا. كانت سهرة لطيفة جدًا».

سُمع هدير في مكان ما، في البعيد.

تابعت أقول: «... رغم أنه ظل زمنًا طويلًا يدعوني هامسون».

«ماذا بك؟ كان الرجل يعبث معك ويمازحك فحسب!».

«لقد فهمت هذا».

«إنهما يحبانك كثيرًا، كلاهما».

قلت: «هذا ما لا أفهمه! لا أكاد أقول شيئًا عندما نكون معهما».

«أوه، بل تقول! على أي حال، أنت حسن الإصغاء إلى درجة تجعلك تبدو مساهمًا في الحديث حقًا».

«ممم».

يؤنبني ضميري أحيانًا لأنني أكون شديد الهدوء ولا أتحدث كثيرًا مع أصدقاء ليندا، ولأنني لا أبدي كبير اهتمام بهم... أعتبر وجودي كافيًا عندما يكونون عندنا، كأنه واجب أقوم به. لقد كان واجبًا في نظري، أما بالنسبة إلى ليندا فقد كان هو الحياة نفسها، وأنا لا أشاركها إياها. لم تشتكِ أبدًا، لكن لديّ إحساس يقول لي إنها تتمنى لو كان الأمر مختلفًا.

اشتد الهدير واقترب. بدأ صوت الأجراس عند التقاطع، دينغ، دينغ، دينغ، دينغ. وعندها، لمحت حركة بين الأشجار. جاء القطار مندفعًا من خلف الأشجار في اللحظة التالية. ثار الثلج وارتفع مثل غمامة من حوله. سار القطار على ضفة البحيرة بضع مئات من الأمتار، خط طويل من عربات الشحن عليها حاويات من مختلف الألوان تلمع وسط الرمادي والأبيض المنتشرين في كل مكان. وبعد ذلك اختفى القطار خلف الأشجار في الغابة بعد البحيرة.

قلت: «كان يجب أن تراه فانيا. لكنها نائمة غافلة عن الدنيا كلها». كان وجهها غارقًا كله تقريبًا تحت القبعة الصوفية الملتصقة برأسها الملتفة حول

رقبتها كأنها ياقة، ومن فوقها قبعة البوليستر الحمراء ذات البطانة البيضاء وواقيتي الأذنين. كان عليها وشاح أيضًا، وكانت في أوفرولها الأحمر المبطن وتحته سترة وبنطلون من الصوف.

قالت ليندا: «كان فريدريك شديد الطيبة معي عندما كنت مريضة. كان يأتي إلى المستشفى ليأخذني. وكنا نذهب إلى السينما. ما كان يتكلم كثيرًا، لكن مساعدته كانت عظيمة... مجرد الخروج كان شيئًا عظيمًا، وكذلك عنايته بي على هذا النحو».

«أظن أن أصدقائك كلهم فعلوا ذلك، أليس هذا صحيحًا؟».

«نعم، كل بطريقته الخاصة. كان هنالك شيء عن... أظنني كنت أفهم أنني اعتدت الوقوف على الضفة الأخرى، اعتدت أن أكون الشخص الذي يساعد الآخرين، الشخص الذي يفهمهم، الشخص الذي يعطي. ليس على نحو غير مشروط، بالطبع، لكن... بشكل عام. كنت أساعد أخي وأهتم به عندما كنا نكبر، وكنت أساعد أبي، وأمي أيضًا، أحيانًا... ثم انقلب كل شيء: صرت الطرف المتلقّي عندما مرضت. وكان عليّ أن أقبل العون. الأمر الغريب هو أنني... نعم، لحظات الحرية الوحيدة التي حصلت عليها، عندما كنت أفعل ما أريد، كانت خلال فترة هوَسي. لكن تلك الحرية كانت هائلة إلى حد جعلني غير قادرة على التعامل معها. كانت مؤلمة. وكان فيها شيء حسن، رغم ذلك. أن يكون المرء حرًا آخر الأمر. لكن الأمر ما كان لينجح، بالطبع... ليس بهذه الطريقة».

قلت: «صحيح».

«فيم تفكر الآن؟».

«أفكر في شيئين. الأول لا علاقة له بك، لكنه متعلق بما قلتِهِ عن التلقي. يفاجئني أنني لو كنت في مكانك لما قبلت من أحد شيئًا. لو كنت مكانك، لما أردت أن يراني أحد، ولا أن يساعدني، بكل تأكيد. هذا الإحساس قوي في داخلي إلى حد يصعب عليك تصوره. ليس الأخذ من طبعي. ولن يكون من طبعي أبدًا. هذا هو الشيء الأول. أما الشيء الثاني الذي كنت أفكر فيه،

فهو أنني أتساءل عما كنت تفعلين خلال فترة هوسك. أعني... أسألك هذا لأنك قلت إنه مرتبط كثيرًا بإحساسك بالحرية. ما الذي فعلته عندما كنتِ حرة إلى هذا الحد؟».

«إذا كنت لا تتلقى شيئًا من أحد، فكيف يمكن أن يصل إليك أي إنسان؟».

«وما الذي يجعلك تظنين أنني أريد أن يصلني أحد».

«لكن هذا ليس بالأمر الحسن أبدًا».

«ماذا بك؟ هيا... عليك أولًا أن تجيبي عن سؤالي».

على يسارنا، صارت الخضرة الاحتفالية تحت أنظارنا. كانت تلك رقعة عشب صغيرة في آخرها بضعة مقاعد وطاولة خشبية طويلة لا تستخدم عادة إلّا ليلة منتصف الصيف عندما يجتمع كل من يعيش في هذه المنطقة ليرقصوا وسط هذه البقعة من حول عمود مكلل بأوراق الأشجار، وليأكلوا الحلوى ويشربوا القهوة ويشاركوا في مسابقة تشتمل على طقوس احتفالية لمنح الجائزة، ثم ينتهي الأمر بحفلة رسمية في المساء. شاركت في هذا الاحتفال أول مرة خلال الصيف الذي مضى، وانتظرت بنوع من الحدس الغريزي، أن يضرم أحدهم النار في العمود. كيف يمكن لاحتفال منتصف الصيف أن يجري من غير نار. ضحكت ليندا عندما قلت لها هذا. لا، لا نار، ولا سحر، أطفال فقط يرقصون على أغنية «الضفادع الصغيرة» من حول قضيب ضخم ويتناولون المشروبات الغازية مثلما يفعل هذه الليلة كل من يعيش في تجمعات سكنية صغيرة على امتداد السويد كلها. لا يزال العمود منتصبًا هناك. صارت أوراقه ذابلة، بنّية محمرّة، وعليها نتف بيضاء من الثلج.

قالت: «لم يكن الأمر متعلقًا كثيرًا بما أفعله، بل بما أحسه. إحساسي بأن كل شيء ممكن. إحساسي بعدم وجود ما يعوقني. كان يمكن أن أكون رئيسة الولايات المتحدة الأمريكية. قلت هذا لأمي ذات مرة. وأسوأ ما في الأمر هو أنني عنيت ما قلته. لم أعد أرى الجانب الاجتماعي عائقًا عندما أخرج من البيت، بل على العكس تمامًا. كان ميدانًا لي، وكان مكانًا أستطيع

فيه أن أجعل الأشياء تحدث وأن أكون نفسي تمامًا... بشكل كامل. كانت نزواتي كلها تبدو لي سليمة، وما كان في نفسي ذرة انتقاد لما أفعله أو أفكر فيه. إنه إحساس بأن كل شيء جائز، صائب، والمهم أيضًا أن كل شيء كان يصير حقيقيًا. هل تفهمني؟ كنت أنجح حقًا في كل ما أفعله. لكني كنت قلقة إلى حد لا يصدق، بالطبع كنت قلقة، ولم يكن كل ما يحدث من حولي يكفيني. كان عندي جوع إلى المزيد. لا يجوز أن ينتهي ذلك، ليس مسموحًا أن ينتهي. ذلك لأنني لا بد أن أكون قد أحسست في مكان ما من نفسي أنه سينتهي، أن تلك الرحلة ستنتهي، وأنها ستنتهي بسقوط، سقوط في شيء لا يتحرك أبدًا. أسوأ أنواع الجحيم».

«يبدو هذا مخيفًا».

«كان مخيفًا بالفعل. لكنه الأمر لم يكن خوفًا فقط... كان الإحساس بهذه القوة كلها رائعًا. إحساس كله ثقة. لقد كان إحساسًا حقيقيًا على نحو ما. أعني أنه كان موجودًا في داخلي. لكنك تعرف ما أعنيه...».

قلت: «في الحقيقة... لا أعرف. لم أصل هذه النقطة أبدًا. أعرف هذا الإحساس. وأظن أنني عشته ذات مرة. لكن ذلك حدث أثناء الكتابة، وأنا جالس بهدوء خلف طاولتي. إنه شيء مختلف كثيرًا».

«لا أظنه مختلفًا. أظنك كنت مهووسًا أيضًا. لم تكن تأكل، ولم تكن تنام، وكانت سعادتك كبيرة لأنك لم تكن تعرف ما تفعله بنفسك. لكن لديك حدودًا، رغم ذلك، لديك شيء من الأمان في داخلك. إن لهذا أهمية كبيرة لأنه يمنعك من تخطي حدٍّ ما لا تستطيع احتمال ما هو واقع خلفه. إذا واصلت فعل شيء ما فترة طويلة من غير تهاون، فإن لهذا عواقب كبرى. عليك أن تدفع الثمن. هذا شيء لا يأتي مجانًا».

دخلنا الدرب الممتدة على طول شاطئ البحيرة، ثم إلى الغابة. كانت الريح قد جعلت سطح الماء يتجمّد على شكل عصابات كبيرة من الجليد. جليد براق كالزجاج في بعض الأماكن، يعكس السماء الزرقاء كأنه مرآة، أما في أماكن أخرى فقد كان رماديًا مخضرًا محبحبًا كأنه طين متجمّد. بعد أن

مر القطار وكفّت أجراس المعبر عن الرنين، ساد الغابة صمت يكاد يكون تامًا. لا يسمع المرء غير حفيف الأوراق وفرقعة بعض الأغصان الصغيرة المتكسرة وأصوات اصطدام مكتومة عارضة عندما يسقط غصن مكسور على الأرض. صرير عجلات عربة فانيا، ووقع أقدامنا الجاف.

تابعت ليندا قائلة: «عندما كنت في المستشفى قالوا لي شيئًا صار مهما عندي. كان ذلك أمرًا بسيطًا. لكنهم قالوا لي إن عليّ محاولة تذكر إنني، في الواقع، ضقت ذرعًا بنفسي عندما كنت مهووسة. هذا يعني أنني كنت في اكتئاب عميق. قالوا إن ذلك وحده، أي فكرة أنني موجودة، أمر مفيد. فما يشكل قسمًا كبيرًا من المشكلة... أن تفقد تمامًا إدراكك من أنت. هكذا هو الأمر في الحقيقة. وأظن أن هذا ربما كان أهم الأسباب التي جعلت مرضي يستمر تلك المدة كلها. قبل المرض، لم أكن حية حقًا. لم تكن عندي حياة داخلية أبدًا. كانت حياتي خارجية دائمًا. سارت الأمور جيدًا زمنًا طويلًا، وكنت أدفعها وأسير بها هكذا أكثر فأكثر. ثم، في النهاية، ما عدت قادرة على الدفع. وجدت نفسي أتوقّف».

نظرت إليّ وقالت: «أظن أنني كنت عديمة الشفقة تمامًا في تلك الأيام، أو أنه كان هنالك شيء في داخلي لا يعرف شفقة ولا رفقًا. قطعت نفسي عن الآخرين تمامًا. لا أعرف إن كنت تفهم ما أقول».

قلت: «أظن أن هذا صحيح. عندما رأيتك أول مرة، كان لك حضور مختلف تمامًا عن حضورك الآن. نعم... عديمة الشفقة... يصح هذا الوصف. يومها، رأيتك جذابة خطيرة، لكني لا أراك هكذا الآن».

«كنت في بداية المنحدر آنذاك. خلال تلك الأسابيع بدأت أفقد السيطرة على نفسي. يسعدني كثيرًا أن علاقتنا لم تبدأ في ذلك الوقت! ما كان يمكن أن ينجح الأمر أبدًا. ما كان يمكن أن ينجح».

«لا، أظنه ما كان لينجح. لكن عليّ القول إنني فوجئت بعض الشيء عندما اكتشفت كم كنت رومانسية. وكم أحببت أن يكون الناس الذين من حولك قريبين منك. رأيت كم كانت أهمية هذا الأمر كبيرة عندك».

بقينا برهة صامتين.
«هل تفضل لو أنك على علاقة معي في حالتي تلك؟».
«لا».

ابتسمتُ وابتسمتْ. كان كل شيء من حولنا ساكنًا تمامًا عدا صوت هبات ريح عارضة تتخلل الغابة. كان السير في ذلك المكان لطيفًا حقًا. كان في روحي شيء من السلام، للمرة الأولى منذ زمن بعيد. مع أن الثلج كثير في كل مكان، ومع أن الأبيض لون ساطع، فإن هذا السطوع ما كان طاغيًا لأن جذوع الأشجار كانت منتصبة وسط هذا الثلج الذي يعكس ضوء السماء ويتألق دائمًا مهما تكن السماء داكنة. كانت جذوع الأشجار كالحة سوداء، ومن فوقها أغصان سوداء أيضًا، أغصان عارية متشابكة متداخلة من غير نهاية. كانت سفوح الجبال سوداء، وكانت بقايا الأغصان والعيدان المتساقطة من الأشجار سوداء، وكانت وجوه الصخور سوداء، وكانت أرض الغابة سوداء تحت المظلة التي حاكتها أشجار الصنوبر الضخمة. كان البياض الناعم والسواد الفاغر فاه ساكنَيْن سكونًا تامًا؛ كانت الحركة منعدمة في كل شيء. من المستحيل ألّا يُذكّر هذا كله المرء بمقدار الموت الكامن في ما يحيط به، وبضآلة ما هو حي فعلًا، وباتساع الفضاء الذي تحتله الحياة في داخلنا. هذا ما يجعلني أتمنى أن أكون قادرًا على الرسم، أتمنى لو أن عندي تلك الموهبةَ، لأن هذا لا يمكن التعبير عنه بغير الرسم. كتب ستاندال أن الموسيقى أسمى الفنون، وأن بقية أشكال الفن كلها تطمح إلى أن تصير موسيقى. كانت هذه فكرة أفلاطونية بالطبع لأن الأشكال الفنية كلها تصوِّر شيئًا غيرها، أما الموسيقى فهي الفن الوحيد الذي هو شيء في ذاته؛ إنها شيء لا يقارن بأي شيء آخر. لكني أردت أن أكون أكثر قربًا من الواقع، وأعني بهذا الواقع المادي، الحقيقة الملموسة. وبالنسبة إليّ، يأتي البصري أولًا على الدوام، حتى عندما أكتب أو أقرأ. ما خلف الحروف هو ما يثير اهتمامي. عندما أكون في الخارج، عندما أمشي مثلما أفعل الآن، فإن ما أراه لا يعطيني شيئًا. الثلج ثلج، والأشجار أشجار. فقط عندما أرى صورة

للثلج أو صورة للأشجار، يكون ما أراه غنيًا بالمعنى. كانت لدى مونيه عينٌ استثنائية تجاه الضوء والثلج، وهي العين التي كانت أيضًا لدى ثاولو الذي قد يكون أكثر الرسامين النرويجيين موهبة. كان ذلك وليمة للعيون، وكان قرب اللحظة اللصيق هائلًا إلى حد جعل قيمة أي شيء يزيد هذا القرب تعلو محلّقةً. فجأة، تصير قيمة كوخ قديم متداعٍ على ضفة نهر، أو مرسى للقوارب في منتجع صيفي، لا تقدر بثمن لأن اللوحات تكون زاخرة بالإحساس، نشعر بأن ما نراه فيها موجود في وقت وجودنا، في هذه اللحظة المحتدمة، الآن، هنا، ونشعر بأننا سنبتعد عنها سريعًا. لكن، عند النظر إلى الثلج، يحس المرء أن الجانب الآخر من هذا التعمق في اللحظة الراهنة يصير مرئيًا، ويحس أن حركة ما يراه ونوره يتجاهلان شيئًا ما تجاهلًا واضحًا، يتجاهلان انعدام الحياة، ويتجاهلان الخواء، يتجاهلان ما لا يحمل معنى وما هو حيادي. هذا أول ملمح يفاجئك عندما تدخل غابة في الشتاء... وفي اللوحة، اللوحة المتصلة بالأبدية والموت، تكون اللحظة غير قادرة على الثبات. كان كاسبار دافيد فريدريش يعرف هذا، لكنه لم يرسمه: لم يرسم إلّا فكرته عنه. هذه مشكلة التمثيلات كلها، بطبيعة الحال، لأنه ما من عين غير ملوثة، وما من نظرة خالية تمامًا من شيء خلفها، ولا شيء يُرى مثلما هو. في هذه المقابلة، يكون السؤال عن معنى الفن بمجمله مرغَمًا على البروز. نعم، لا بأس، أنا أرى الغابة هنا، وأنا أمشي فيها وأفكر فيها. لكن المعنى الذي أستخلصه منها يأتي كله مني، يأتي محملًا بشيء مني أنا. إن كان هنالك أي معنى يتجاوز هذا، فلا يمكن أن يكون آتيًا من عينَي الناظر، بل من الفعل، من خلال شيء يحدث... هكذا هو الأمر. أشجار ينبغي قطعها، وبيوت ينبغي بناؤها، ونيران ينبغي إشعالها، وحيوانات ينبغي اصطيادها، لا من أجل المتعة بل لأن حياتي معتمدة على هذا. عند ذلك يصير للغابة معنى، يصير لها معنى حقًا، يصير للغابة معنى إلى حد يجعلني غير راغب في رؤيتها.

عند المنعطف، أمامنا بمسافة نحو عشرين مترًا، جاء رجل في سترة قصيرة حمراء. كانت في كل يد من يديه عصا تزلج. إنه آرنِه.

قال عندما صار قريبًا منا: «مرحبًا! هذان أنتما تسيران هنا».
قالت ليندا: «مرحبًا يا آرنه، لقد مر زمن طويل».
توقف إلى جانبنا، وألقى نظرة إلى داخل العربة. لا يبدو عليه أن الفضيحة حطمته.
قال: «إنها كبيرة. كم بلغ عمرها الآن؟».
قالت ليندا: «أكملت سنة منذ أسبوعين».
قال وهو ينظر إليّ: «حقًا! يمضي الوقت سريعًا». كانت إحدى عينيه جامدة يغشاها الماء. داهمته أمراض كثيرة في السنوات الأخيرة: أصابه ورم دماغي، وبعد إزالته صار غير قادر على الامتناع عن المورفين فأخذوه بعض الوقت إلى مصح. وعندما تجاوز هذا، أصابته سكتة دماغية. ثم أصابه التهاب رئوي... ألم يكن التهابًا رئويًا؟
رغم أنه يبدو لي أكثر خرابًا كلما رأيته، ورغم أنه يمشي بصعوبة كبيرة، ورغم أن حركاته صارت أكثر بطئًا، إلّا أنه ما كان يبدو أكثر ضعفًا على الإطلاق، وما كان يبدو عليه أي نقص في الطاقة أو اشتهاء الحياة التي لا تزال تضطرم في داخله. لا يزال يسير حاملًا أمراضه كلها، ولا يزال يخزي ما كان يمكن أن يُقال عنه قبل سنة أو سنتين من أنه لم يبقَ لديه زمن طويل يعيشه. لعلها هذه الشرارة، هذه الشهوة إلى الحياة، هي ما يجعله قادرًا على الاستمرار. أظن أنٍ أي شخص يتعرض لما عاشه آرنه سيكون الآن على عمق مترين تحت الأرض.
قال آرنِه: «قال لي فيدار إن كتابك سوف يترجم إلى اللغة السويدية».
أجبته: «نعم، هذا صحيح».
قال: «متى؟ أريد قراءته حقًا».
«يقولون إنه سيصدر في الخريف القادم. لكني أظن أن ذلك سيحدث في الخريف الذي بعده».

قال لي: «إنني أنتظر».
كم كان عمره؟ أفي أواخر الستينيات؟ يصعب تقدير ذلك لأنك لا ترى

فيه شيئًا ينبئك بالتقدم في السن: كانت العين التي لا تزال حية متوقدة شبابًا. ومع أن تلك العين كانت الجزء الوحيد في وجهه الذي يعطي هذا الانطباع، ومع أن بقية الوجه كانت مجعدة متعبة تكثر فيها البقع والمساحات المحتقنة دمًا، إلّا أنه يشع حياة بطرق أخرى كان أقواها صوته ذو النبرة الحماسية، صوته الذي كان مرغَمًا على شيء من البطء الذي لا يناسبه. لكن تلك القوة كانت ظاهرة في الانطباع العام الذي يوحي به، في حضوره الذي يبدو كأنه لا يُقهر رغم كل ما يبديه جسده من ممانعة... شيء غريب! لقد ترعرع في بيت للأيتام، لكنه لم يحِد عن سواء السبيل مثلما فعل زملاؤه. لعب كرة القدم على مستويات عليا (على الأقل، إن كان لك أن تصدق ما يقول)، وعمل عدة سنوات صحفيًا لدى إكسبريسن. ثم إنه أصدر عدة كتب أيضًا.

تنظر إليه زوجته دائمًا نظرات متسامحة عندما يقول شيئًا... مثلما تفعل كل امرأة متزوجة من صبي. كانت ممرضة، وكانت موشكة على بلوغ أقصى حدود احتمالها لأن لديها حفيدين في حاجة إلى خدماتها الكثيرة، إضافة إلى زوجها المريض.

قال: «حسنٌ. سررت برؤيتك يا ليندا، وأنت أيضًا يا كارل».

قلت له: «سررنا برؤيتك أيضًا».

رفع يده بالتحية ثم ذهب. ومع كل خطوة يخطوها، كانت العصاتان في يديه ترتفعان عاليًا.

لعل عينه الدامعة الجامدة التي كانت ثابتة تنظر إلى الأمام خلال حديثنا كله كانت أشبه بعين وحش أو كائن خرافي. ورغم أن منظرها لم يبقَ أمامي، إلّا أن الشعور الذي خلقته عندي دام طيلة النهار.

قلت بعد أن اختفى خلف المنعطف وبدأنا السير من جديد: «لا يبدو عليه أنه محطم، أليس كذلك؟».

قالت ليندا: «لا، لا يبدو محطمًا. لكن ليس من السهل أبدًا أن يرى المرء كيف هو شعور الناس حقًا. ومن جديد، تردّد الهدير في البعيد، لكنه كان قادمًا من الجهة الأخرى. أجلستُ فانيا فراحت تطرف بعينيها. أدرتها حتى

تستطيع الرؤية. وسرعان ما مر القطار مسرعًا بين الأشجار على مقربة منا. رأته فانيا فأشارت إليه وصاحت عند مروره. كان شديد القرب إلى حد جعل موجة من غبار الثلج تمسح وجهي ثم تذوب في لحظة.

بعد أقل من كيلومتر، انتهت الدرب عند حاجز يفصلها عن سكة القطار. في الجهة المقابلة، حيث ترعى الخيول في الصيف، كان الحقل أبيض اللون لم يمسسه أحد. كان ممتدًا بين الأشجار كأنه مفرش طاولة ناصع البياض. إلى يسارنا، في جهة الشرق، كانت مجموعة بيوت ومن خلفها درب. إذا تبعت الدرب فإنك تصل إلى عزبة جميلة كبيرة يملكها شقيق أولاف بالمِه. في أمسية من أماسي الصيف، منذ فترة، خرجت مع ليندا في نزهة على الدراجات فانتهينا إلى ذلك المكان. ضللنا الطريق، ورحنا ندفع دراجتَيْنا على الدرب المفروشة بالحصى بين البيوت حيث كان أشخاص في ملابس احتفالية بيضاء اللون جالسين في الخارج يأكلون، وعلى مسافة كبيرة من خلفهم يلوح منظر البحيرة الكبيرة ومركز بلدة غنيستا. رغم حرصي على عدم النظر إليهم، فإنني لا أزال أذكر صورة ذلك الجمع الاحتفالي: جالسون هناك كلهم، كأنهم من شخصيات بيرغمان، على أثاث الحديقة الأبيض؛ جالسون يأكلون بين بيوت المزرعة البيضاء المتقشّفة ومباني المكاتب الحديثة الحمراء في وسط الخضرة في مكان ما من ريف سودرمانلاند.

رفعت فانيا من العربة وحملتها بين ذراعيَّ عندما استدرنا لنعود أدراجنا.

بعد نصف ساعة، وصلنا إلى الفسحة أمام البيت، فسمعنا أصواتًا مرتفعة آتية من الداخل. وعبر نافذة المطبخ، رأيت إنغريد وفيدار واقفَيْن إلى جانب الطاولة يصرخ كل منهما على الآخر. أظننا عدنا أبكر مما كانا يتوقعان؛ كما أن الثلج على الأرض كان يكتم صوت خطواتنا. لم تتوقف الأصوات إلّا عندما ضربت بحذائي على درجة العتبة عدة مرات. حملت ليندا فانيا، أما أنا فدفعت العربة إلى مرآب السيارة المجاور الذي بناه فيدار خلال الربيع والصيف. عندما عدت وجدته واقف في الصالة يضع ملابس الخروج.

قال لي مبتسمًا: «كيف كانت النزهة؟ هل سرتما مسافة طويلة؟».

أجبته: «لا. سرنا قليلًا فقط. الطقس ليس مناسبًا تمامًا».

قال وهو يضع جزمته المطاطية البنية ذات الساق المرتفعة: «صحيح، إنه ليس جميلًا اليوم. سأخرج قليلًا لإنجاز بعض الأمور». سار فتجاوزني، ثم مضى بخطوات بطيئة صاعدًا في اتجاه ورشته. في المطبخ، الذي يبدأ بعد نصف متر من حيث كنت واقفًا أخلع معطفي وحذائي، كانت إنغريد قد أجلست فانيا على كرسي مرتفع عند طاولة العمل في المطبخ ووقفت إلى جانبها تقشر البطاطس. وضعت قبعتي وقفازيَّ على رف القبعات وخلعت حذائي. وضعت إنغريد أمام فانيا طبقًا عميقًا فيه ماء مع بعض المكاييل البلاستيكية الصغيرة. كنت أعرف أن هذا يمكن أن يلهيها ساعات بأسرها. علقت معطفي بين المعاطف والسترات المعلقة هناك، ودخلت المطبخ.

كان الانزعاج باديًا على إنغريد، لكن حركاتها كانت هادئة محسوبة. كان صوتها عندما تُكلِّم فانيا رقيقًا لطيفًا.

سألتها: «ماذا لدينا على العشاء؟ شيء لذيذ؟».

قالت: «لحم الخروف مع البطاطس. وصلصة النبيذ الأحمر».

قلت: «آه... يبدو هذا شيئًا عظيمًا! أحب لحم الخروف كثيرًا».

قالت: «أعرف هذا».

بدت عينيها ضخمتين خلف نظارتها. ونظرت إليّ مبتسمة.

رمت فانيا مجموعة المكاييل البلاستيكية في الماء.

قلت لها: «أنت مستمتعة هنا يا فانيا، أليس كذلك؟» وضعت يدي على شعرها، ثم نظرت إلى إنغريد: «هل دخلت ليندا لتنام قليلًا؟» أومأت إنغريد برأسها ومن غرفة النوم غير الظاهرة من حيث كنت أقف رغم أنها لا تبعد أكثر من أربعة أمتار، جاء صوت ليندا: «أنا هنا!».

ذهبت إليها. كان السريران متعامدين في الغرفة الصغيرة التي يشغلان القسم الأكبر منها. كانت ليندا مستلقية على السرير البعيد عن الباب وقد شدت اللحاف فوقها حتى ذقنها. وكانت الستائر مفتوحة، لكن النور كان خافتًا. هذه الجدران الخشبية الداكنة الخشنة تمتص الضوء كله. بدت الغرفة شبه مظلمة.

قالت لي: «بررر، هل ستنام قليلًا؟».
هززت رأسي نفيًا وقلت: «أظنني سأقرأ قليلًا. نامي أنت».
جلست على حافة السرير وداعبت شعرها. كانت على أحد الجدران صور لأبناء فيدار وأحفاده. أما الجدار الآخر فكانت رفوف الكتب تغطيه. وعلى طوار النافذة، وقفت ساعة منبهة وإلى جانبها صورة لابنة فيدار الصغرى. أشعر دائمًا بشيء من عدم الراحة في غرف نوم الآخرين. أرى دائمًا شيئًا لا أريد رؤيته، لكن الأمر ليس كذلك هنا.
قالت لي: «أحبك».
انحنيت فوقها وقبّلتها.
قلت لها: «نومًا هانئًا». ثم نهضت وخرجت من الغرفة.
أخرجت الكتب التي وضعتها في حقيبتي. ما كنت قادرًا على مواجهة دوستوفويسكي الآن... من الصعب كثيرًا أن أدخل عالمه في هذه اللحظة. اخترت بدلًا منه سيرة حياة رامبو التي كنت أفكر في قراءتها منذ زمن بعيد. جلست على الأريكة تحت النافذة والكتاب في يدي. كانت حياته الأفريقية تثير اهتمامي. حياته تلك، والزمن الذي عاش فيه. لست شديد الافتتان بشِعره إلّا من حيث ما يمكن أن يقوله عن شخصيته الفريدة غير المعتادة.
في المطبخ، كانت إنغريد تثرثر مع فانيا خلال عملها. كانت ناجحة جدًا معها، وكانت قادرة على تحويل أصعب المهام إلى مغامرة مثيرة، ذلك أنها تُنحّي حاجاتها الخاصة جانبًا عندما تكون معها. كان كل شيء يدور من حول فانيا وما تعيشه. لكنها كانت تفعل ذلك من غير أي إيحاء بأنها تقدم تضحية لأن المسرة التي تجنيها من ذلك تبدو حقيقية عميقة.
أشك في أن هنالك امرأة أكثر اختلافًا عن أمي من إنغريد. تنحّي أمي حاجاتها الخاصة جانبًا، مثلما تفعل إنغريد. لكن المسافة التي تظل بينها وبين فانيا وما تفعلانه معًا تكون أكبر بكثير؛ ومن الواضح أن مسرتها أقل بكثير أيضًا. كنت ذات مرة معهما في حديقة للأطفال فجعلتني نظرتها البعيدة أسألها إن كانت ضجرة. قالت لي إنها ضجرة. كانت ضجرة دائمًا عندما كنا صغارًا.

إن إنغريد قادرة على اجتذاب اهتمام أي طفل، إن أرادت، لأن في طبيعتها شيء يجعل التواصل المباشر أكثر سهولة. إن لها حضورًا قويًا، ولا يمكن أن تدخل غرفة من غير أن يكون لهذا الحضور أثر على من فيها. إنها تأسر الناس. أما أمي، فمن الممكن أن تجلس في غرفة من غير أن ينتبه أحد إلى وجودها. لقد كانت إنغريد ممثلة على أهم مسرح في السويد، وعاشت حياة كبيرة، حياة نشطة. أما أمي فكانت تلاحظ الأشياء من حولها، وتتأمّل، وتقرأ، وتكتب، وتفكر، وتعيش حياة تأملية. تحب إنغريد الطبخ؛ أما أمي فتطبخ على سبيل الواجب

مر فيدار تحت نافذة غرفة النوم. كان منحني الظهر قليلًا في أوفروله الأزرق. سار بخطوات حذرة حتى لا ينزلق في ذلك الممر. وبعد لحظة رأيته عبر نافذة غرفة المعيشة، كان في طريقه إلى المرآب. كانت فانيا واقفة في المطبخ مستندة إلى الخزانة، بينما كانت إنغريد تزيح قدر البطاطس عن النار. تصاعد البخار من القدر. نهضت وذهبت إلى الصالة فوضعت سترتي وقبعتي وحذائي، ثم فتحت الباب وجلست على الكرسي عند الجدار الخارجي حتى أدخن. خرج فيدار من المرآب حاملًا دلوًا في كل يد.

قال لي: «هل يمكنك أن تساعدني قليلًا بعد التدخين؟ بعد عشر دقائق تقريبًا».

قلت: «بالتأكيد».

أومأ برأسه وتابع سيره ملتفًا حول زاوية البيت. نظرت إلى البعيد. كان ألق الضياء في السماء يتراجع شيئًا بعد شيء. وكانت الظلمة المقتربة موزّعة توزيعًا غير منتظم: كانت الأماكن التي صارت مظلمة تمتص الضوء وتبتلعه بشراهة... الأشجار عند أول الغابة، كانت جذوعها وأغصانها سوداء تمامًا. كان ضياء شهر شباط الضعيف يخبو من غير قتال، من غير مقاومة؛ ما كان قادرًا حتى على تألق صغير أخير. انحدار بطيء لا يكاد يُحَسّ إلى أن يصير كل شيء ظلمة وليلًا.

استولى عليّ إحساس مفاجئ بالسعادة.

إنه ذلك الضوء في الحقل، والبرودة اللاذعة في الهواء، والصمت في الأشجار والظلمة التي تنتظر وقتها. إنه مساء يوم شباطي يبث أنفاسه في نفسي. لقد أثار ذكريات الأمسيات الشباطية التي عشتها، كلها، أو يمكنني القول إنه أثار صداها لأن الذكريات نفسها خبت منذ زمن بعيد. كان ذلك شيئًا غنيًا جدًا، شيئًا ممتلئًا، لأن الحياة كلها كانت مجتمعة هناك. أحسست أن هذا الضياء الأخير يشق طريقه عبر السنين؛ ضياء خاص انتشر متوسّعًا مثل أمواج في ذاكرتي.

تحوّل إحساسي بالسعادة إلى إحساس بحزن لا يقل عنه قوة. أطفأت سيجارتي في الثلج ورميتها صوب البرميل تحت المزراب، وقلت في نفسي إن عليّ أن أجمع أعقاب السجائر قبل ذهابنا، ثم سرت صاعدًا إلى الكوخ المقام فوق القبو الذي خلف البيت حيث كان فيدار يثبّت غطاء لفريزر أفقي.

قال لي: «علينا أن نحمله إلى داخل الكوخ. الأرض زلقة بعض الشيء لكننا ستتمكن من نقله إذا كنا حذرين».

هززت رأسي موافقًا. نعق غراب من خلفنا. استدرت ونظرت إلى صف الأشجار في الجهة الأخرى لكنني لم أستطع رؤية مصدر الصوت.

إن آثار الخطوات واضحة على الثلج اليوم. تسير من عتبة البيت، فوق الممرات الممتدة صعودًا في اتجاه الكوخ الصغير والقبو. أما بقية المساحة كلها فبيضاء لم يمسها أحد. بدأ فيدار يثبت المسمار الثالث في غطاء الفريزر. كانت أصابعه رشيقة متناسقة الحركات. إنه يقوم بمختلف أعمال الإصلاح الصغيرة، وكلما كانت أصغر كلما كان أكثر مهارة فيها. هذا ما يبدو لي. أما من ناحيتي، فما عاد عندي صبر على أي شيء لا أستطيع إمساكه بيدي كلها. كانت تجميع قطعة أثاث من آيكيا يصيبني بالجنون.

كانت شفتاه منفرجتين خلال عمله. أسنانه العارية المعوجة، وعيناه الضيقتان، ووجهه المثلثي الذي تزيده اللحية الصغيرة ضيقًا... جعله ذلك كله يبدو أشبه بالثعلب.

كان الدلو الذي أتى به مليئًا بالرمل. وضعه إلى جانبه بلونه الأحمر الشاحب على الخلفية الإسمنتية الرمادية.

«هل جلبت الرمل لترش به الممر؟».
قال: «نعم. هل تحب أن تفعل ذلك أنت؟».
قلت: «لا بأس».

حملت الدلو وغرفت حفنة من الرمل ورششتها على آثار الأقدام. تابعت السير ورش الرمل. خرجت إنغريد من البيت تسير في الثلج بخطواتها المعتادة العجول. كانت في معطف أخضر طويل مفتوح مضاد للريح. إنها متجهة إلى القبو تحت الأرض. حتى في هذه اللحظة التي لا أهمية لها، كانت هالة القوة تلك محيطة بها. قلت في نفسي إن ليندا لا بد أن تكون استيقظت. إلّا إذا كانت فانيا قد ذهبت لتنام معها.

لا تزال هنالك بضع تفاحات على الشجرتين تحت الممر. كان جلد هذه التفاحات متغضنًا وقد كسته بقع سوداء. أما اللون الذي لا يزال على حاله فقد كان مكتومًا، لون أخضر ولون أحمر داكن... بدا اللون كأنه مزروع في التفاحات. كانت الأغصان العارية السوداء المحيطة بها تزيد ذلك اللون ظهورًا. إذا نظرت إلى التفاحات على خلفية المرج والغابة، فلن يكون لها لون... ستجدها متألقة فقط. أما إذا نظرت إليها على خلفية الأكواخ الحمراء البعيدة، فإن لونها يصير كامدًا لا يكاد يُرى.

خرجت إنغريد من القبو حاملة زجاجتي مياه معدنية من سعة ليتر ونصف الليتر، إضافة إلى ثلاثة علب بيرة حشرتها تحت إبطها. وضعت إحدى الزجاجتين في الثلج حتى تدخل الخطاف في مزلاج الباب. كان لون غطاء الزجاجة ولصاقتها شديد الصفرة فوق بياض الثلج. حملت الزجاجة من جديد وعادت إلى البيت. كنت قد بلغت الكوخ، فنثرت بقية الرمل في طريق عودتي. وضعت الدلو على الأرض وتذكرت فجأة ذلك الرجل الذي رأيته في المقهى يوم أمس. تذكرت الشخص الذي يشبهه. إنه تارجي فيساس! إنه شديد الشبه به. الذقن المربعة نفسها، والعينان الرقيقتان نفسهما، وبقعة الصلع نفسها. لكن بشرته مختلفة... ناعمة كبشرة طفل، وردية إلى حد غريب. كان ذلك كأن هيئة فيساس قد أعيد خلقها، أو كأن

الشيفرة نفسها استخدمت من جديد في نزوة من نزوات الطبيعة الكثيرة، لكن مع جلد مختلف هذه المرة.

قال فيدار وهو يضع المفك الصغير على الملزمة المثبتة على الطاولة خلفه: «لقد انتهيت. فلننقله الآن. سوف أميله هذه الناحية، وأنت ترفعه من الناحية الأخرى. اتفقنا؟».

قلت: «لا بأس».

حملنا الفريزر. كان جسد فيدار يتوتّر كلما مال الثقل في اتجاهه. تمنيت لو أنني حملته من الجهة الثقيلة لأن وزنه لم يكن كبيرًا، لكن من الواضح أن هذا كان شيئًا مستحيلًا. سرنا الممر الصاعد بخطوات صغيرة جدًا، ثم استدرنا وسرنا جنبًا إلى جنب حتى بلغنا الكوخ حيث وضعنا الفريزر في وسطه أول الأمر، ثم دفعناه إلى موضعه النهائي في الزاوية.

قال فيدار: «أشكرك. شيء عظيم أن هذا العمل قد أنجز».

نظرًا لعدم وجود من يساعده هنا، فإنني غالبًا ما كنت أجد الأعمال الصغيرة من هذا القبيل في انتظاري كلما أتيت.

قلت له: «مساعدتك تسرني».

وصل الفريزر فبدأ المحرك بالطنين. كان هناك فريزرين آخرين مثله، إضافة إلى فريزرين عموديين كبيرين. كانت كلها ممتلئة طعامًا. لحم الوعل والغزال والبقر والغنم. أسماك الكراكي والفرخ والسلمون. وخضار وثمار. وأنواع مختلفة من الوجبات المصنوعة في البيت. كانت هذه الطريقة في التعامل مع الطعام والمال غريبة عنا تمامًا. ذلك أن إنغريد، إضافة إلى ميلها إلى الاكتفاء الذاتي إلى أقصى حد ممكن، تشتري دائمًا كميات من المواد التي تكون معروضة بأسعار مخفضة، فتضاعف قيمة المال مرتين وتجد نفسها فخورة بذلك. هذا كله لأنها مهتمة بحسن الاستفادة من الموارد. فعلى سبيل المثال، عقدت اتفاقًا مع سوبرماركت في المنطقة لكي تأخذ الفاكهة الفائضة التي يعتزمون رميها فتصنع منها عصيرًا أو مربيات أو كعكات بالفاكهة أو كل ما يخطر في بالها. ومن حين لآخر، تخبرنا خلال

تناول الوجبة بالمبلغ الذي دفعته ثمنًا للحم. تريد بذلك التأكيد على الفارق الكبير بين قيمة هذه الوجبة في الأصل وقيمتها بعد أن مارست عليها مهاراتها المطبخية. كلما كان الثمن أكثر انخفاضًا كلما كانت أسعد حالًا. لكنها ليست بخيلة ولا جشعة على الإطلاق. إنها تمطرنا بكل ما هو ممكن وغير ممكن؛ هدايا كثيرة بصرف النظر عن حالتها المالية. لكن هنالك شيئًا مختلفًا كامنًا في عمق ذلك، لعله اعتزاز ربة المنزل وفخرها بنفسها لأن إنغريد درست الاقتصاد المنزلي. وبعد نهاية عملها في التمثيل، عادت إلى حياتها التي كانت من قبل.

هكذا كانت الغرفة تطن بأصوات الفريزرات، وكان هذا القبو الترابي مليئًا بالخضار والفاكهة والمربيات والمخللات. وهكذا كانت تقدم لنا مأكولات خيالية، كلما أتينا، ووجبات ضخمة اعتاد أهل هذه البلاد تناولها منذ جيل أو جيلين، ومعها أيضًا أطباق فرنسية وإيطالية وآسيوية تجمع بينها سمة مشتركة واحدة: فيها كلها ملمح ريفي على نحو ما.

خلال استعداداتنا من أجل تعميد فانيا، كانت إنغريد راغبة في المساعدة في الطبخ. كان من المقرر أن نقيم احتفال التعميد في بيت أمي في يولستر، وبما أن إنغريد لم تكن تعرف المطبخ، ولا المحلات هناك، فقد اقترحت أن تعد الطعام في بيتها ثم تأخذه معها. في نظري، بدت تلك الفكرة شيئًا غريبًا كل الغرابة: نقل الطعام أكثر من ألف كيلومتر من أجل احتفال تحضره مجموعة من الناس، لكنها أصرت وقالت إنها الطريقة الأكثر سهولة. وهكذا جرى الأمر. نتيجة ذلك، كان على إنغريد وفيدار أن يصلا مطار بيرنغيلاندساسن قرب فوردِه قبل يوم واحد من نهاية شهر أيار الماضي حاملين معهما ثلاث حقائب تبريد ممتلئة إلى آخرها، إضافة إلى حقائبهما الخاصة. كان هنالك احتفالان: عيد ميلاد أمي الستين في البداية، يوم الجمعة؛ ثم تعميد فانيا يوم الأحد. وصلتُ مع ليندا قبل بضعة أيام من ذلك، لكن ليس من غير بعض العناء لأن أمي كانت تجدد غرفة المعيشة من أجل هذين الاحتفالين، ولم تكن قد انتهت منها بعد. وهكذا بدا المكان مثل موقع بناء، وهذا ما أغضب

ليندا وكان خيبة أمل لها. عندما رأت حالة المكان أدركت أنني سأمضي ثلاثة أيام على الأقل من أجل ترتيبه وإنجاز الأعمال كلها. كنت أفهم غضبها، لكني لم أفهم حرارة ذلك الغضب ولم أستطع قبوله. ذهبنا في نزهة على الأقدام مع فانيا في الوادي فكانت ليندا تشتم أمي قائلة إن هذا ليس ما جعلتنا نتوقعه: ألم تكن تعرف أننا نستطيع إقامة التعميد في مكان آخر؟ كان يمكننا فعل ذلك في ستوكهولم!

راحت ليندا تصرخ في الوادي الأخضر الغارق في ضياء الشمس: «سيسيل وضيعة الروح، باردة، منغلقة، لا ترحب بضيوفها. هذه هي حقيقتها. أنت تقول إنني لا أستطيع رؤية أمي كما هي، وتقول إن هداياها ليست هدايا أبدًا وإنها تجعلنا معتمدين عليها. قد تكون محقًا، قد تكون كذلك، لكنك لا تستطيع رؤية أمك أيضًا».

تقلصت معدتي انزعاجًا وقنوطًا كما يحدث دومًا عند مواجهة غضبها الذي أعتبره غير منطقي على الإطلاق، بل هو شيء قريب إلى الجنون في حقيقة الأمر. كنت مضطرًا إلى مواجهته بالحجة وباتخاذ موقف موضوعي.

كنا نسير مسرعين، نكاد نجري، في الطريق المنحدرة إلى الوادي ونحن ندفع عربة فانيا النائمة.

قلت: «إن هذا تعميد ابنتنا. وبالتأكيد، لا بد من ترتيب وضع البيت! أمي تعمل؛ أنت تعرفين هذا. ليست مثل أمك. هذا ما جعلها غير قادرة على إنهاء العمل قبل وصولنا. لا يمكنها إنفاق وقتها كله علينا وعلى شؤوننا. إن لها حياتها».

قالت: «أنت أعمى! تكون دائمًا مضطرًا إلى العمل هنا عندما نأتي. إنها تستغل الوضع. ولا يمكننا أبدًا أن ننفرد بأنفسنا عندما نكون هنا».

قلت: «لكننا وحدنا دائمًا! ليس لدينا شيء غير أن نكون وحدنا. هذا هو الشيء اللعين الوحيد الذي نملكه».

قالت ليندا: «إنها لا تترك أي حيِّز لنا».

قلت: «ماذا؟!. حيِّز؟ إن كان هنالك أحد يتيح لنا حيِّزًا فإنه أمي. أمك

هي التي لا تفسح لنا أي حيز. لا تترك لنا سنتيمترًا واحدًا. هل تذكرين عندما وُلدت فانيا؟ قلت يومها إنك لا تريدين أن يأتي أحد إلينا خلال الأيام الأولى. أردتِ أن نكون وحدنا معها».

لم تجبني ليندا. كانت تحدق في البعيد غاضبة.

«لقد أرادت أمي المجيء، بطبيعة الحال. إنغفه أراد أن يأتي أيضًا، لكني اتصلت وقلت لهما إنهما لا يستطيعان أن يأتيا إلينا خلال الأسبوعين الأولين. يمكنهما المجيء بعد ذلك. فماذا حدث؟ من الذي أتى بناء على دعوتك أنت؟ إنها أمك! وماذا قلت عند ذلك؟ قلتِ... إنها أمي فقط!... يا إلهي! نعم، هكذا كانت كلماتك، بالضبط. إن كلمة فقط هذه تقول كل شيء. أنت لا ترينها. أنت معتادة على أن تأتي وتساعدك، معتادة إلى درجة تجعلك غير قادرة على ملاحظة ذلك. أمك يمكنها المجيء، أما أمي فلا».

«لكن أمك لم تأتِ أبدًا لرؤية فانيا، مرت شهور على ذلك».

«ولماذا لم تأتِ؟ ماذا تظنين؟... أنا قلت لها ألا تأتي!».

«لكن الحب أقوى من أي إحساس بالرفض يا كارل أوفه».

قلت: «أوه، بحق الله!».

ثم صمتنا بعد ذلك.

قالت ليندا بعد قليل: «خذ ما حدث أمس مثالًا: ظلت جالسة معنا إلى أن قمنا لننام».

«وماذا؟».

«هل يمكن أن تفعل أمي هذا؟».

«لا! قد تذهب أمك إلى فراشها في الثامنة إذا ظنت أننا نريدها أن تفعل ذلك. وهي تتولى كل شيء عندما نكون هناك؛ هذا صحيح تمامًا. لكن ذلك لا يعني أبدًا أن هذا من نظام الطبيعة. إنني أساعد أمي في هذه الأشياء الصغيرة المختلفة منذ تركت البيت ولم أعد أعيش معها. كنت أطلي المنزل وأجزّ العشب وأنظف. هل ترين الآن شيئًا خاطئًا في هذا؟ أن يكون المرء مفيدًا، وأن يقدم المساعدة، أهنالك شيء خاطئ في هذا؟ أيه، ماذا تقولين؟

ثم إن المساعدة هذه المرة ليست لها، إنها لنا! إنها من أجل تعميد ابنتنا، ألا تفهمين».

قالت ليندا: «أنت لا تفهم ما أقوله لك. لم نأتِ إلى هنا حتى تعمل وحتى أجلس هنا وأرعى فانيا وحدي. هذا ما تركناه خلفنا، لأن هذا ما نفعله دائمًا في ستوكهولم. كما أن أمك ليست بريئة مثلما تدّعي أنت الآن لقد فكرَت في هذا مسبقًا، واعتمدت عليه».

أوه، يا للجحيم... هكذا قلت في نفسي ونحن نسير في الطريق صامتين بعد أن قيلت الكلمات الأخيرة. ما هذا الوضع الذي أجد فيه نفسي؟ بحق الجحيم، كيف انتهى بي الأمر إلى هذا الخراء؟

كانت الشمس ساطعة في السماء الصافية الزرقاء فوقنا. وكانت الجروف مرتفعة شديدة الانحدار على جانبي النهر الذي فاض بماء الثلج الذائب وراح يجري هادرًا صوب بحيرة يولسترافانيت، لكنه كان صامتًا، ناعمًا كالزجاج، بين الجبلين اللذين تلمع فوق أحدهما واحدة من أذرع جليدية يوستيدال. كان الهواء نقيًا، حادًا، وكانت المروج فوقنا وتحتنا خضراء تنتشر فيها أغنام تجلجل أجراسها. أما أعالي الجبال فكانت مزرقة مرقطة ببقع بيضاء كبيرة من الثلج. كان ذلك جميلًا إلى حد الألم. وكنا نسير مع فانيا النائمة في عربتها نتجادل ونتشاجر حول ما إذا كان يجوز أن أنفق بضعة أيام في إصلاح تلك الأشياء في بيت أمي أو لا يجوز.

عند ليندا، لا يعرف انعدام العقل أي حدود! لا معنى لما تفكر فيه، أبدًا، لا معنى له. لقد مضى الأمر أكثر مما ينبغي.

ما الذي يدور في رأسها؟

أوه، إنني أعرف! إنها تظل وحدها مع فانيا طيلة اليوم، منذ ذهابي إلى المكتب إلى أن أعود. إنها تشعر بالوحدة؛ وقد كانت تترقّب هذين الأسبوعين بفارغ الصبر. كانت تترقّب قضاء أسبوعين مع أسرتها الصغيرة، أن نكون مجتمعين معًا. هذا ما كانت تترقّبه. أما من ناحيتي أنا، فما كنت أترقّب شيئًا ولا كنت أتطلع إلى شيء غير لحظة إغلاق باب المكتب بعد

دخولي لأصير وحدي وأصير قادرًا على الكتابة. الآن خاصة، بعد ست سنين من الفشل، صار عندي شيء أحس أنه لن يتوقف هنا، وهنالك المزيد. هذا ما كنت تواقًا إليه، هذا ما كان يملأ أفكاري... لا ليندا، ولا فانيا، ولا التعميد في يوليستر. هذه أشياء أتعامل معها عندما تأتي. إن صار الأمر حسنًا فهذا حسن، يكون كل شيء جيدًا. أما إذا ساء الأمر فلا بأس... إنه لا يكون جيدًا! ما كانت لهذا الاختلاف أهمية كبرى عندي. عليّ أن أضع جدالنا اليوم ضمن هذه الفئة، لكنني لا أستطيع لأن مشاعري محتدمة كثيرًا... إنها مسيطرة علي.

جاء يوم الجمعة. سهرت طيلة الليل أكتب كلمة من أجل عيد ميلاد أمي. كنت متعبًا عندما مضت السيارة بنا عبر منطقة الفيوردات ذات الجمال الذي يدير الرؤوس: جبال وأنهار ومزارع حتى لوين في نوردفيورد حيث استأجرت أمي بيتًا على نمط العزبات القديمة تملكه جمعية الممرضات ليكون مكان احتفالنا. ذهب الآخرون إلى جليدية بريكسدال؛ أما أنا وليندا فبقينا في غرفتنا مع فانيا حتى ننام قليلًا. كان جمال الطبيعة من حولنا رائعًا، يكاد يكون مخيفًا. هذه الزرقة كلها، وهذه الخضرة كلها، وهذا البياض كله، وهذا العمق كله، وهذا الفضاء كله. لم أكن أعيش جمال المكان هنا بهذه الطريقة من قبل. أذكر هذا... كان المشهد شيئًا اعتياديًا يكاد يكون قليل الأهمية، شيئًا عليك المرور به عندما تذهب من مكان إلى آخر.

صوت النهر المندفع. وجرار زراعي يتحرك في حقل قريب. يعلو هدير محركه، ثم يخفت. ومن حين لآخر، تُسمع أصوات من أمام المبنى. ليندا نائمة إلى جانبي. فانيا على صدرها. عند ليندا، صارت مجادلتنا أمرًا منسيًا منذ زمن طويل. أنا وحدي من يمكن أن يظل جافًا متجهّمًا بضعة أسابيع؛ أنا وحدي من يمكن أن يحتضن استياءه عدة سنوات. لكنني لا أستطيع هذا تجاه أحد غيرها! ليندا هي الشخص الوحيد الذي أخوض مجادلات ومشاجرات معه. إنها الشخص الوحيد الذي أحمل لهضغينة. إن قالت أمي، أو أخي، أو واحد من أصدقائي، شيئًا مسيئًا مزعجًا، فإنني أتغاضى عنه. لا يمسني شيء

مما يقولونه، ولا يعني لي الكثير... لا يعني شيئًا كثيرًا حقًا. كنت أعتبر هذا جزءًا من حياتي بعد أن صرت رجلًا ناضجًا؛ وكنت أرى أنني نجحت في تقليم نتوءات طبعي، وفي ملء ثغراته، لأن طبعي كان متفجرًا أول الأمر. هكذا أستطيع عيش بقية عمري في سلام وصفاء، وأستطيع حل مشكلات العيش المشترك كلها من خلال التهكم والسخرية والصمت العابس الذي أتقنته تمامًا بعد ثلاث علاقات طويلة عشتها. أما مع ليندا، فأحس كما لو أنني عدت إلى ذلك الزمن الذي كانت مشاعري فيه تتقلب بين الفرحة المجنونة والحنق المجنون وتشارف السقوط في هاوية القنوط واليأس، وتمر بأوقات أعيش فيها سلسلة من اللحظات الحاسمة. كانت شدة تلك المشاعر كبيرة إلى حد يجعلني أحس أحيانًا غير قادر على عيش هذه الحياة؛ لحظات لا شيء فيها يمنح ذهني سلامًا غير الكتب بما فيها أماكن مختلفة وأزمان مختلفة وأشخاص مختلفين... الكتب التي أكون فيها لا أحد، والتي لا أحد فيها يكونني. كان ذلك عندما كنت شابًا صغيرًا؛ عندما لم تكن لي أي خيارات.

أنا الآن في الخامسة والثلاثين من عمري، ولست أريد إلّا أقل قدر ممكن من الانزعاج وتعكر المزاج ومن التشوش؛ ألا يجب أن أكون قادرًا على تحقيق على هذا؟ أو على الأقل، أن أكون في وضع يسمح لي بتحقيقه؟

في الحقيقة، لا يبدو الأمر هكذا!

جلست على حجر في الخارج ودخنت سيجارة وأنا أراجع الكلمة التي كتبتها. كنت آمل، حتى اللحظة الأخيرة، أن تسنح لي فرصة الإفلات من هذه الشبكة، لكن ما من مهرب أمامي لأنني اتفقت مع إنغفه على أن يلقي كل منا كلمة من أجل أمنا. كنت مذعورًا من تلك اللحظة... كأنها وباء! أحيانًا، عندما يكون عليّ أن أقرأ شيئًا أمام جمهور، أو أجري مقابلة، أو أشارك في مناقشة على منصة ما أمام الناس، أكون متوترًا إلى حد يجعلني شبه عاجز عن المشي. لكن كلمة «متوتر» لا تعبر عن الحالة تعبيرًا جيدًا لأن التوتر مرحلة عابرة تمر بها الأعصاب، ولأنها انحراف صغير عن حالة المرء

المعتادة، مجرد اضطراب في الروح. أما الحالة التي تصيبني فهي مؤلمة، وهي مستمرة لا تزول. لكنها ستزول، رغم ذلك.

نهضت واقفًا وسرت متثاقلًا في اتجاه الطريق حيث يستطيع المرء رؤية المنطقة كلها. الحقول الخصبة الخضراء الندية بين تلك الجبال، وكُتل الأشجار إلى جانب النهر، ومركز القرية الصغيرة في السهل... حفنة من المتاجر والوحدات السكنية. والفيورد القريب، ماء أخضر ضارب إلى الزرقة ساكن تمامًا، وجبال مرتفعة على الضفة الأخرى، ومزارع قليلة في أعالي السفوح تلوح جدرانها البيضاء وسقوفها المحمرّة وحقولها الخضراء والصفراء، والتماع ضياء شمس ساطعة صارت منخفضة الآن وسوف تختفي في البحر عما قريب، ستختفي في مكان بعيد خلف هذا كله. الجبال العارية فوق المزارع، زرقاء داكنة، سوداء هنا وهناك، والقمم البيضاء، والسماء الصافية من فوقها حيث ستظهر أول النجوم عما قريب، نجوم تظهر على نحو لا يكاد يبين أول الأمر عندما يبدأ لون ضوئها بداية غامضة، ثم تصبح أكثر وضوحًا، ثم أكثر وضوحًا، إلى أن تصير معلقة هناك، مشعة متلألئة في الظلمة فوق هذا العالم.

كان هذا شيئًا يتجاوز حدود فهمنا. قد نعتقد أن عالمنا محيط بكل شيء، وقد نقوم بأشيائنا الصغيرة هنا، على الشاطئ، ونتجول بسياراتنا، ونتكلم بالهاتف ونثرثر، ويزور أحدنا الآخر، ونأكل، ونشرب، ونجلس في البيوت ونتشرب الوجوه والآراء والمعلومات التي تظهر على شاشة التلفزيون في هذا التفاعل الغريب شبه المصطنع الذي نسكُنه ونهدهد أنفسنا فيه زمنًا أطول فأطول، سنة بعد سنة، ونظن أنه كل ما هو موجود. أما إذا ارتفعت أنظارنا، مصادفة، إلى رؤية هذا، فإن الفكرة الممكنة الوحيدة تكون فكرة العجز وعدم الفهم، فكم هو صغير هامشي قليل الأهمية هذا العالم الذي سمحنا لأنفسنا بأن تقنع به وتطمئن إليه. نعم، بالطبع، إن الأعمال الدرامية التي نشاهدها رائعة، والصور التي تدخل أعماقنا سامية، بل مروّعة أيضًا بعض الأحيان؛ لكن كونوا صادقين... أيها العبيد... أي دور نلعبه فيها؟

لا دور لنا!

لكن النجوم تتلألأ فوق رؤوسنا، وتشع الشمس ضيائها، وينمو العشب، وتبتلع الأرض، نعم، الأرض، تبتلع الحياة كلها ولا تبقي على شيء من آثارها، ثم تنبثق منها حياة جديدة، طوفان من الأطراف والعيون والأظافر وأوراق الأشجار والشعر والذيول والفراء والأحشاء، ثم تبتلع ذلك كله من جديد. ما لا نفهمه أبدًا، أو ما لا نريد فهمه، هو أن هذا يحدث خارجنا، وأن لا دور لنا فيه، وأننا لسنا إلّا تلك الأشياء التي تنمو وتكبر ثم تموت، وأننا عميٌ مثلما هي أمواج البحر عمياء.

أتت أربع سيارات هابطة في الطريق من خلفي. هؤلاء ضيوف أمي، أي: شقيقاتها وأزواجهن وأبناؤهن وبناتهن، إضافة إلى إنغريد وفيدار. سرت صعودًا في اتجاه البيت ورأيت كم كانوا مستثارين فرحين عندما ترجلوا من سياراتهم. من الواضح أن منظر الجليدية كان رائعًا. سوف يرتبون أمورهم في غرفهم خلال ساعة من الزمن وبعد ذلك نجتمع في غرفة المعيشة فنأكل لحم الغزال ونشرب النبيذ ونستمع إلى الكلمات ونشرب القهوة معِ الكونياك، ثم نجلس في مجموعات صغيرة ونتحدث ونمضي وقتًا لطيفًا بينما يتحوّل المساء إلى ليل الصيف.

كان إنغفه أول من ألقى كلمته. قدم لأمنا هديتها التي كانت كاميرا احترافية، ثم ألقى كلمته. كنت متوترًا إلى درجة جعلتني لا أفهم شيئًا من كلامه. انتهى بالقول إنها كانت دائمًا شديدة الثقة من مهارتها في التصوير، لكن تلك الثقة ما كان لها شيء يبررها حقًا لأنها لم تكن تمتلك آلة تصوير خاصة بها. ولهذا فإننا نقدم لها هذه الهدية تحديدًا. ثم جاء دوري، لم أستطِع تناول شيء من الطعام قبل ذلك. ورغم حقيقة أنني عرفت طيلة حياتي كل واحد من هؤلاء الجالسين الذين ينظرون إليّ الآن، هؤلاء الذين كانت نظراتهم ودية كلها من غير استثناء. لكن لديّ كلمة لا بد من إلقائها! لم يحدث من قبل أن قلت لأمي إنها تعني لي شيئًا. ولم يحدث من قبل أن قلت لها إنني أحبها أو إنها تعجبني. كان مجرد التفكير في قول أشياء من هذا

القبيل قادرًا على جعل معدتي تنقبض اشمئزازًا. وبطبيعة الحال، لن أقول الآن أيضًا أشياء من هذا القبيل. لكنه عيد ميلادها الستون. عليّ، أنا ابنها، أن أعبر عن احترامي ببضع كلمات.

نهضت واقفًا. نظر الجميع إليّ، وابتسم أكثرهم. كنت مضطرًا إلى حشد قواي كلها من أجل التركيز حتى أتمكن من حمل الورقة وحتى أمنع يدي من الارتعاش. قلت: «أمي العزيزة»، واستدرت صوبها فابتسمت لي ابتسامة تشجيع... «أحب أن أبدأ بأن أشكرك. أحب أن أشكرك لأنك كنت دائمًا أمًا جيدة إلى حد لا يصدق. لكن كونك أمًا جيدة إلى حد لا يصدق ليس إلّا شيئًا واحدًا من أشياء كثيرة أعرفها عنك. لكن ليس من السهل دائمًا أن نصوغ ما نعرفه في كلمات. أجد هذا صعبًا على نحو خاص لأن رؤية الخصال التي لديك ليست بالأمر السهل دائمًا».

ابتلعت ريقي ونظرت إلى كأس الماء أمامي، لكني قررت ألا أشرب الماء. رفعت رأسي ونظرت في العيون المحدقة في اتجاهي.

... «هنالك فيلم لفرانك كابرا يتناول هذه النقطة تحديدًا. اسمه حياة رائعة، وهو من سنة 1946. يتحدث الفيلم عن رجل طيب في بلدة أميركية صغيرة. وفي بداية الفيلم نراه في أزمة عميقة، نراه راغبًا في التخلي عن كل ما لديه. ثم يتدخل ملاكٌ فيجعله يرى كيف سيكون العالم من غيره. في تلك اللحظة فقط، يتمكن الرجل من رؤية أهميته بالنسبة إلى الأشخاص الآخرين. لا أظنك في حاجة إلى مساعدة من ملاك حتى تدركي أهميتك عندنا، لكننا قد نكون في حاجة إلى مساعدة من ذلك الملاك من وقت لآخر. أنت تمنحين كل شخص فسحة لكي يكون هو نفسه. قد يبدو هذا شيئًا عاديًا، لكنه ليس كذلك، بل على العكس تمامًا: إنها خصلة نادرة إلى حد بعيد. وهي خصلة تصعب رؤيتها أحيانًا. من السهل أن يرى المرء أولئك الذي يدفعون بأنفسهم إلى المقدمة دائمًا، ومن السهل أن يرى من يقيمون حدودًا تفصلهم عن الآخرين. لكنك لا تدفعين بنفسك إلى الأمام أبدًا، ولا تضعين حدودًا للآخرين أبدًا: إنك تتقبلينهم مثلما هم وتتكيفين مع هذا.

أظن أن كل واحد من الموجودين في الغرفة الآن يعرف هذا عنك من خلال تجربته الشخصية».

سرت غمغمة من حول الطاولة.

... «عندما كنت في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة، كانت هذه الخصلة فيك شديدة الأهمية بالنسبة إليّ. كنا نعيش وحدنا في تفيت، وكانت تلك فترة صعبة، على ما أظن، لكني كنت أشعر دائمًا بأن لديك ثقة بي، أشعر بأنك تثقين بي حقًا. وكنت أشعر أنك مؤمنة بما أنا قادر عليه. سمحت لي بالتعلم من تجاربي الخاصة. وبطبيعة الحال، لم أدرك أن هذا ما كنت تفعلينه أثناء حدوثه. لم تكن عندي صورة عنك ولا عن نفسي، لا أظن هذا! لكني لديّ هذه الصورة الآن. وأريد أن أشكرك على هذا».

عندما قلت الكلمات الأخيرة التقت عيناي عيني أمي وتكسّر صوتي. أخذت كأس الماء وشربت قليلًا، ثم حاولت أن أبتسم، لكن ذلك لم يكن سهلًا. كان لديّ إحساس أن نوعًا من التعاطف معي قد انبثق في قلوب الناس الجالسين من حول الطاولة. وجدت صعوبة في تقبل ذلك. ما كنت أريد أكثر من إلقاء كلمتي... ما كنت أريد سبر أغوار مشاعري.

قلت: «نعم، إنك في الستين الآن. تقول عنك الكثير حقيقةُ أنك لا تخططين لحياة التقاعد بل أنهيت القسم الأكبر من دراستك منذ فترة وجيزة: أنت حية نشطة قبل كل شيء، وأنت صاحبة فضول ذهني أيضًا؛ ثم إنك لا تستسلمين أبدًا. هذه صفة لك طيلة حياتك، لكنها أيضًا صفة لها علاقة بسلوكك مع الآخرين... إن على كل شيء أن يأخذ وقته. يجب أن تأخذ الأشياء حاجتها من الوقت. عندما كنت في السابعة من عمري، وكنت على وشك دخول المدرسة، لم أكن أعرف كيف أقدّر هذه الصفة حق قدرها. قدت بي السيارة إلى المدرسة في يومي الأول. أذكر هذا جيدًا. لم تكوني متأكدة من طريق المدرسة، لكنك كنت واثقة من أن كل شيء سيتم على خير. انتهت بنا الطريق إلى منطقة سكنية، ثم إلى منطقة سكنية أخرى. كنت جالسًا في ثيابي المدرسية الزرقاء السماوية وحقيبتي المعلقة على ظهري؛

كان شعري مسرّحًا. تابعنا التجول في ترومويا بينما كان رفاقي الجدد واقفين في باحة المدرسة يستمعون إلى تلك الخطابات كلها. كان كل شيء قد انتهى عندما عثرنا على المدرسة آخر الأمر. لديّ الكثير الكثير من القصص التي تشبه هذه. مثلًا، قدت السيارة مسافة طويلة جدًا وأنت ضائعة تمامًا، هكذا حرفيًا... قدتها كيلومترًا بعد كيلومترًا في منطقة لم تألفيها من غير أن تدركي أنك لست على طريق أوسلو إلى أن انتهيت إلى طريق للجرارات الزراعية في حقل قاتم في نهاية وادٍ بعيد. لديّ قصص كثيرة مثل هذه، لكنني لن أذكر إلّا آخرها. منذ أسبوع فقط، يوم أكملت عامك الستين، دعيتِ زملائك إلى بيتك لتناول القهوة. أتوا، لكنكِ نسيت أن تشتري بُنًّا فجلستم جميعًا وشربتم الشاي. يخطر في بالي أحيانًا أن جانب شرود الذهن في شخصيتك هو الشرط الضروري حتى تكوني حاضرة في أحاديثنا وفي أحاديثك مع الآخرين».

ومن جديد، جعلني غبائي أنظر في عينيها. ابتسمت لي فاغرورقت عيناي، وعند ذلك، لا، أوه لا، نهضت وأرادت أن تعانقني.

صفّق الحاضرون. جلست وقد امتلأت تقززًا من نفسي لأنني خجلت كثيرًا من إظهار هذا الضعف رغم أن فقداني السيطرة على مشاعري خلق انطباعًا طيبًا وكان تأكيدًا إضافيًا على ما قلته.

على بعد بضعة أشخاص مني، نهضت كييلاوغ، شقيقة أمي الكبرى، وتحدثت عن خريف عمرنا فقوبلت بصيحات استهجان مرحة. لكن كلمتها كانت جيدة، كلها دفء... فبعد كل حساب، ليست الستون مثل الأربعين من العمر.

وخلال كلمتها، دخلت ليندا الغرفة فجلست إلى جانبي ووضعت يدها على ذراعي. همست لي: «هل كل شيء على ما يرام؟» فأومأت برأسي. همست لها: «هل هي نائمة الآن؟» فأومأت ليندا برأسها وابتسمت لي. جلست كييلاوغ ووقف المتحدث الذي بعدها. وهكذا استمر الأمر إلى أن تحدث كل واحد من الموجودين باستثناء فيدار وإنغريد بطبيعة الحال

لأنهما لا يعرفان أمي على الإطلاق. لكنهما كانا مستمتعَيْن؛ كان فيدار مستمتعًا على الأقل. لقد ذهب عنه بطء التقدم في السن، وذلك التيبس البسيط الذي يلاحظه المرء فيه أحيانًا عندما يكون في بيته. أما هنا فقد كان مرتاحًا مبتسمًا مسرورًا، كانت عيناه متوقدتين، وكان خداه متوهجَيْن. كان لديه شيء يقوله لكل شخص، وكان مهتمًا اهتمامًا حقيقيًا بما يقوله الناس من حوله، وسريع الاستجابة بذخيرة غنية من القصص والطرائف والحجج أيضًا. لكن معرفة كيف كانت إنغريد تشعر في تلك اللحظات كان شيئًا أكثر صعوبة. بدت مرتاحة، مسرورة؛ وضحكت بصوت مرتفع وامتدحت الذين حولها بشيء من الإفراط. كان كل شيء جميلًا رائعًا، لكنها لم تتجاوز هذا: بدت كأنها عالقة عند هذه النقطة، ولم تدخل المزاج العام في تلك الأمسية، أو لم تستطِع دخوله، إما لأنها كانت غير قادرة نتيجة عدم معرفتها هؤلاء الناس، أو لأن سرورها بما حولها كان أكبر من أن يسمح لها بذلك، أو ببساطة لأن المسافة بين هذا وبين الحياة التي تعيشها عادة كانت كبيرة جدًا. رأيت هذا يحدث مرات كثيرة مع أشخاص متقدمين في السن... رأيتهم غير قادرين على إدارة التغيرات المفاجئة بشكل جيد، وكانوا لا يحبون أن يجدوا أنفسهم وقد انتقلوا خارج بيئتهم المعتادة. نتيجة ذلك، يأتيهم أول الأمر شيء من الجمود والانكفاء. لكن هذا لم يكن منطبقًا تمامًا على سلوك إنغريد، بل كان الأمر عكس ذلك، ثم إنها ليست كبيرة السن... ليست كبيرة السن وفق معايير هذه الأيام، على أقل تقدير. استمرت على هذه الحال عندما سافرنا في اليوم التالي من أجل الاستعداد من أجل تعميد فانيا. لكن ذلك كان أقل لفتًا للأنظار لأنها حظيت بفسحة أكبر من حولها. كانت قلقة في ما يتعلق بالطعام، وقد حاولت إنجاز أقصى ما يمكن إنجازه منذ الليلة الماضية. وعندما جاء يوم التعميد، خشيَتْ أن يكون باب البيت مقفلًا فلا تستطيع أن تجعل كل شيء جاهزًا في استقبال الضيوف؛ ثم إنها ستكون وحدها في المطبخ وقد لا تجد فيه كل ما يلزمها.

كانت القسيسة امرأة شابة. وقفنا من حولها، أمام الجميع. حملت ليندا

فانيا بينما بللت القسيسة رأسها بالماء. غادرت إنغريد عندما انتهى طقس التعميد. أما نحن فبقينا جالسين في أماكننا. كان ذلك نوعًا من اجتماع ديني. نهض جون أولاف مع أفراد أسرته ثم ركعوا أمام المذبح، ولسبب ما نهضت وفعلت مثلما فعلوا، ركعت أمام المذبح، وتلقيت قطعة الخبز على لساني، وشربت نبيذ القداس، وتلقيت التبريك، ثم نهضت وعدت إلى مكاني تحت نظرات أعين أمي وكيارتان وإنغفه وغيير غير المصدقة... بدرجات متفاوتة.

لماذا فعلت هذا؟

هل صرت مسيحيًا؟

أنا، مناهض المسيحية المتحمّس منذ بداية سنوات مراهقتي، أنا المادي في أعمق أعماقي، أنا، نهضت في ثانية واحدة، من غير أي تفكير، وسرت في الممر، ثم ركعت أمام المذبح! كانت هذه اندفاعة تلقائية صرفة. وعندما قابلت نظراتهم، ما كان لديّ أي دفاع وما كنت قادرًا على القول إنني مسيحي. نظرت إلى الأرض، خجلًا بعض الشيء.

حدثت أشياء كثيرة.

تحدثت إلى قسيس عندما مات أبي. وكان ذلك أشبه باعتراف بالكنيسة لأن كل شيء تدفق خارجًا مني. كان القسيس هناك ليستمع إليّ وليمنحني العزاء. الجنازة، والطقس في حد ذاته، كانا شيئًا شبه مادي، كانا شيئًا أتمسك به. لقد كان شيئًا حوّل عمر أبي الذي كان بائسًا خربًا في آخر أيامه، حوّله إلى حياة.

ألم يكن هنالك شيء من العزاء في هذا؟

ثم لديّ أيضًا ما كنت أشتغل عليه خلال السنة الماضية كلها، لا أعني ما كنت أكتبه، بل ما كنت أدركه، ببطء، ما أود اكتشافه: المقدّس. لقد سخرت من المقدّس واستعنت به في روايتي، لكن من غير الانجذاب الإنشادي الذي كنت أعرف أنه موجود في تلك النصوص، في النصوص التي بدأت قراءتها. كيف تشدك هذه النصوص، وتلك الكثافة فيها... كثافة ليست بعيدة عن المقدس أبدًا، ليست بعيدة عن المكان الذي لم أكن فيه أبدًا ولن

أذهب إليه، لكني أحسه رغم ذلك. هذا ما جعلني أفكر في يسوع المسيح بطريقة مختلفة... لأن هذا كان شيئًا عن اللحم والدم، كان شيئًا عن الولادة والموت، وكان شيئًا نتصل به من خلال أجسادنا ودمنا ومن خلال الذين ننجبهم والذين ندفهم أمامنا باستمرار، من غير انقطاع. عاصفة تهب عبر عالمنا، عاصفة كانت دائمًا في هبوب... المكان الوحيد الذي كنت أعرف أن هذا ينشأ ويتشكّل فيه، أكثر الأشياء سموًا وأبسطها في الوقت نفسه، إنه موجود في هذه النصوص المقدسة. الشعراء والفنانون الذين يشتغلون على مواضيع مماثلة. تراكل، وهولدرلين، وريلكه. قراءة العهد القديم، سفر موسى الثالث خاصةً بما فيه من وصف تفصيلي لتقديم الأضحيات، والعهد الجديد الذي هو أكثر شبابًا بكثير وأقرب إلينا... شيء يلغي الزمن والتاريخ، شيء كان زوبعة غبار صغيرة فقط لكنه أخذنا إلى ما هو موجود دائمًا هناك، إلى ما لا ينتهي أبدًا.

لقد فكرت كثيرًا في هذا.

ثم كانت هنالك تلك المسألة الصغيرة... القسيسة المحلية التي تردّدت بعض الشيء في تعميد فانيا لأننا لسنا متزوجَين: كنت مطلقًا؛ وعندما سألتنا عن إيماننا، لم أستطِع أن أقول نعم، إنني مسيحي، ولم أستطع القول إنني مؤمن بأن يسوع ابن الرب لأن هذه فكرة جامحة ما كنت قادرًا أبدًا على الإيمان بها، لكني كنت أدور من حولها... التقاليد، وجنازة أبي، والحياة والموت، والطقوس. أحسست فيما بعد أنني منافق... كأننا عمّدنا ابنتنا مدَّعين كذبًا أننا مسيحيون. وعندما اجتمعنا بعد التعميد، أظن أنني أردت إلغاء ما حدث وإنكاره، لكن النتيجة كانت أنني بدوت أكثر نفاقًا! لم أكتفِ بتعميد ابنتي من غير أن أكون مسيحيًا، بل إنني الآن مشارك في اجتماعي ديني أيضًا!

مهما يكن... المقدّس. اللحم والدم. كل شيء يتغيّر، ويبقى هو نفسه.

وفوق هذا كله، منظر جون أولاف عندما مرّ بي وذهب فركع هناك. إنه شخص كامل لا ينقصه شيء، شخص جيد. وهذا ما دفعني، على نحو ما،

إلى السير في ذلك الممر أيضًا والركوع على ركبتي: أردت كثيرًا أن أكون كاملًا. أردت كثيرًا أن أكون جيدًا.

وقفنا على درجات الكنيسة لالتقاط الصور، الأبوين، والطفلة، والعرّابين. كانت فستان فانيا هو نفسه الفستان الذي تلقت فيه أم جدتها عمادها، هنا في يوليستر. كان معنا بعض شقيقات جدتي، ومن بينهم آلفديس وآنفين المفضلتين لدى ليندا. كانت معنا أيضًا شقيقات أمي كلهن، وبعض أبنائهن وبناتهن وأحفادهن، إضافة إلى أصدقاء ليندا من ستوكهولم، وكذلك غيير وكريستينا وبالطبع فيدار وإنغريد أيضًا.

عندما كنا واقفين هناك، جاءت إنغريد تجري في اتجاهنا. كان خوفها من أن تجد باب البيت مقفلًا في محله لأن أمي، التي كانت مشوّشة الذهن إلى حد بعيد، قد أقفلت باب البيت في حقيقة الأمر. أخذت إنغريد المفتاح واندفعت عائدة. عندما وصلنا بعد نصف ساعة من ذلك، كانت محبطة لأنها لم تستطِع العثور على طبق كبير. لكن كل شيء كان على ما يرام، بالطبع. كان الطقس جميلًا فأقمنا الاحتفال في الحديقة وأمامنا مشهد البحيرة والجبال المنعكسة على صفحتها. أثنى الجميع على الطعام. لكن، بعد أن تم تقديم الطعام، وراحت فانيا تنتقل من حضن إلى حضن من غير أن تكون في حاجة إلى شخص محدّد يرعاها، لم يعد لدى إنغريد ما تفعله، ولعل هذا ما كان أمرًا صعبًا عليها حقًا. ذهبت إلى غرفتها وظلت فيها إلى أن بدأنا نتساءل عن سر غيابها في الخامسة أو الخامسة والنصف عندما بدأ أول الضيوف ينصرفون. ذهبت ليندا باحثة عنها. وجدتها نائمة، وكان إيقاظها شبه مستحيل. إنغريد هكذا دائمًا، كنت أعرف هذا. لقد أخبرتني ليندا كم يكون الأمر مخيفًا عندما تكون إنغريد غارقة في نوم عميق فيتعذّر التواصل معها خلال الدقائق الخمس أو العشر بعد إيقاظها. كانت ليندا ترى أن للحبوب المنومة صلة بهذا الأمر. عندما خرجت إنغريد إلى الحديقة آخر الأمر، سارت على العشب بخطوات متثاقلة وكانت تضحك بطريقة غير لائقة بمعنى أن صوت ضحكتها كان مرتفعًا جدًا بالقياس ما يجري

حول الطاولة، ثم إنها كانت تضحك في غير المواضع التي يضحك فيها الآخرون. أقلقني أن أراها هكذا... كان هنالك شيء غير سليم، وكان هذا واضحًا تمامًا. لم تكن إنغريد حاضرة حقًا: كانت مرتفعة الصوت، مستثارة مهتاجة بعينين براقتين ووجه محمر. تكلمنا عن هذا، أنا وليندا، بعد ذهاب الآخرين إلى غرفهم ليناموا. إنه الدواء المنوّم، فضلًا عما سبّبه الاحتفال من إجهاد وتوتر عندها. لقد أعدّت الطعام وقدمته لخمسة وعشرين شخصًا. وكان كل شيء جديدًا عليها، غريبًا عنها.

كان لقائي التالي بهما هنا، في بيتهما. لم أجد أثرًا لذلك التوتر وعدم الارتياح. عاد فيدار إلى روتين حياته المعتاد.

كان الآن واقفًا يتأمل ثمرة عمله وقد وضع يديه على خصره. أتت ليندا في الممر الصاعد في اتجاهنا.

صاحت بنا عندما رأتنا: «الطعام جاهز».

أخذنا فيدار بالسيارة إلى محطة القطار في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. وصلنا قبل انطلاق القطار بلحظات قليلة فلم تسنح لي فرصة شراء تذكرة. كانت إنغريد آتية معنا لترعى فانيا خلال الأيام الثلاثة التالية؛ وكانت لديها بطاقة قطار شهرية. أما ليندا فكانت معها بطاقة تكفي للعودة إلى ستوكهولم. جلست عند النافذة وأخرجت رزمة الصحف التي لم أتمكن من قراءتها حتى الآن. راحت إنغريد تهتم بفانيا بينما جلست ليندا تنظر من النافذة. لم يأتِ مراقب التذاكر إلّا بعد أن غيّرنا القطار في سودرتاليه واجتزنا عدة محطات. أعطته إنغريد بطاقتها، وناولته ليندا تذكرتها. أما أنا فأخرجت نقودًا من جيبي. عندما استدار صوبي، قالت له إنغريد: «لقد ركب القطار في محطة هانينغه».

ماذا؟ هل تحتال لكي تخفض ثمن التذكرة من أجلي؟

ماذا تفعل بحق الجحيم؟

نظرت إلى الرجل وقلت: «إلى ستوكهولم. من هانينغه. كم يجب أن أدفع؟».

لم أستطِع القول إنني ركبت القطار من غنيستا! فكيف سيكون شعور إنغريد إن فعلت ذلك؟ لكني أحرص دائمًا على أن أدفع ما يتوجّب عليّ دفعه. إذا كنت في متجر مثلًا، وأخطأ البائع فأعاد إليّ نقودًا أكثر مما يجب. فإنني أنبّهه إلى ذلك دائمًا. كان التلاعب لدفع ثمن أقل من أجل تذكرة القطار آخر شيء يمكن أن أفعله.

ناولني المراقب تذكرتي وبقية النقود فشكرته. مضى الرجل يتابع عمله في زحام المسافرين إلى أعمالهم في الصباح الباكر.

كنت حانقًا، لكني تابعت القراءة ولم أقل شيئًا. عندما وصلنا إلى محطة القطارات المركزية في محطة ستوكهولم وفتحتُ عربة فانيا على رصيف المحطة، عرضت على إنغريد أن آخذ حقيبتها معي إلى المكتب حتى لا تضطر إلى أخذها إلى شقتنا ثم العودة بها إلى المكتب حيث تمضي الليل عادة عندما تأتي لزيارتنا في ستوكهولم. سرّها هذا العرض. ودّعتهم في صالة المحطة وخرجت من الباب المفضي إلى المطار، ثم سرت حتى السوق حيث ينتصب مبنى نقابات العمال كأنه قلعة. مضيت مسرعًا في شارع دالاغاتان وأنا أجرّ الحقيبة ذات العجلات بإحدى يدي وأحمل بالأخرى حقيبتي التي فيها كمبيوتري. وبعد خمس دقائق، فتحت باب المكتب.

كان هذا المكان قد صار مليئًا بالذكريات. أتتني ذكريات الفترة التي كتبت فيها «زمان من أجل كل شيء». أتت من كل الجهات. أوه، كم كنت سعيدًا في تلك اللحظة.

أخليت مكانًا لحقيبة إنغريد في الخزانة التي تحت المجلى لأنني لم أكن راغبًا في رؤيتها خلال عملي. ثم ذهبت إلى الحمام لأبول.

ماذا رأيت هناك؟ شامبو إنغريد ومُطرّي الشعر الذي تستخدمه. وما هذا الذي في قعر سلة القمامة؟ خيوط تنظيف أسنان إنغريد وتلك العيدان ذات النهايات القطنية التي تستخدمها!

اللعنة على هذا كله! هكذا صحت وأنا أمسك بالزجاجتين وأرميهما

في سلة القمامة في المطبخ. صحت من جديد: هذا ما تستحقه! ثم نزعت الكيس الذي في سلة القمامة في الحمام وانحنيت فوق المغسلة فرفعت كتلة من الشعر كانت عند مصرفها، إنه شعرها... بحق الرب!... هذا مكتبي، إنه المكان الوحيد الذي هو لي، المكان الذي أكون فيه وحدي تمامًا، لكنها تأتي إليه بأشياءها كلها، تغزوني حتى في هذا المكان. قذفت بشعرها في الكيس بأقصى قوتي ثم أغلقت ذلك الكيس ودفعت به في سلة القمامة في المطبخ، دفعت به عميقًا في تلك السلة.

اللعنة على هذا!

شغلت الكمبيوتر بعد ذلك، وجلست إلى مكتبي. وبصبر نافد انتظرت إلى أن أقلع الجهاز. على أرض الغرفة الخشبية، كان يسوع المسيح المكلل بالشوك. وعلى الجدار خلف الأريكة، كان مُلصق المشهد الليلي لبالكه. وعلى المكتب صورتا توماس. وعلى الجدار من خلفي صورة الحوت المُقَطَّع، ورسوم الخنافس الدقيقة كأنها صور فوتوغرافية... كانت من تلك الرحلة نفسها في القرن الثامن عشر.

لا أستطيع الكتابة هنا. هكذا هو الأمر... لست قادرًا على كتابة أي شيء جديد.

لكني لم أكن أعتزم كتابة شيء هذا الأسبوع. سوف ألقي صباح يوم السبت كلمة عن «كتابتي» في منطقة باروم في النرويج؛ وهذا ما سوف أعمل عليه خلال الأيام الثلاثة القادمة. كان هذا عملًا لا معنى له، لكني قبلته منذ زمن طويل. جاءني سؤالهم عما إذا كان يمكنني إلقاء الكلمة في اليوم نفسه الذي صار فيه معروفًا أن كتابي قد جرى ترشيحه لجائزة مجلس الأدب النوردي. كتبوا لي أن هنالك تقليدًا يقضي بأن يذهب الكتاب النرويجيون المرشحون لتلك الجائزة فيلقون كلمة عن كتابهم عن أعمالهم. وبما أن دفاعاتي كانت ضعيفة في ذلك الوقت، فقد وافقت.

وها أنا الآن هنا.

سيداتي وسادتي! لست مهتمًا بكم أدنى اهتمام، ولست مهتمًا بالكتاب

الذي كتبته. ولست أهتم إن نال الجائزة أم لم ينلها... لست أريد إلّا أن أكتب المزيد. فما الذي أفعله هنا؟ لقد سمحت لنفسي بأن تشعر بالإطراء، مررت بلحظة ضعف. تمر بي لحظات ضعف كثيرة؛ أما الآن فهذه نهاية شعوري بالإطراء، وهذه نهاية لحظات الضعف. وحتى أجعل هذه المناسبة واضحة بطريقة لا لبس فيها، فقد أتيت معي ببعض الصحف. سوف أفرش الصحف على الأرض أمام المنصة ثم أتغوط عليها. إنني أدّخر خرائي منذ عدة أيام حتى أتمكن من جعل الأمر واضحًا تمامًا. هذه هي الصحف. تمامًا. أوووه، آآآه. ها قد فعلتها! والآن، سأمسح مؤخرتي فينتهي الأمر. سوف أُخلي هذه المنصة الآن للمرشح التالي، شتينميهرن! شكرًا لكم!

مسحت ما كتبته، ثم ذهبت إلى المطبخ فملأت غلاية الماء وأدخلت الملعقة في علبة البن الجاف المتجمّد. حملت بالملعقة بعض قطع البن المفتتة ووضعتها في الفنجان، ثم سكبت الماء المغلي فوقها. ارتديت ملابس الخروج وذهبت إلى المقعد قبالة المستشفى على الناحية الأخرى من الشارع فدخنت ثلاث سجائر في تتابع سريع بينما رحت أنظر إلى الناس العابرين والسيارات العابرة. كانت السماء رمادية كئيبة، وكان الهواء باردًا لاذعًا. كان الثلج عند حافة الرصيف داكن اللون بفعل دخان السيارات.

أخرجت هاتفي ورحت أنقر على المفاتيح إلى أن تمكنت من كتابة قصيدة أرسلتها إلى غيير.

غيير، يا غيير... لا بد لي من القول
إن قضيبك المنتصب قد حقق نصرًا
وأنت لا يربكك هذا!
لقد أنجبت طفلة.
أنجبت فتاة لا تقول لا لمن يريد مضاجعتها، أبدًا.

عدت إلى المكتب بعد ذلك وجلست أمام الكمبيوتر من جديد. كان الانزعاج الذي داهمني، إضافة إلى حقيقة أن أمامي خمسة أيام بأسرها حتى أنجز كتابة المحاضرة، قد جعل صعبًا علي، بل مستحيلًا، أن أجد دافعًا

يحفزني إلى العمل. ما الذي يجب قوله؟ كذا، كذا، كذا، كتابي «خارج الزمن»، كذا، كذا، كذا؛ وكتابي «زمان من أجل كل شيء»، كذا، كذا، كذا. ما أسعدني وما أشد اعتزازي بنفسي!

اهتز الهاتف في جيبي. أخرجته وفتحت رسالة غيير.

صحيح تمامًا ما تقول. لقد مُتُّ في حادثة سيارة هذا الصباح. لم أعرف أن الخبر قد انتشر. يمكنك أن ترث مجلاتي الإباحية. لست في حاجة إليها بعد اليوم. صرت الآن أكثر انتصابًا من أي وقت مضى. بالمناسبة، كلماتك ممتازة لأن تكون منقوشة على قبري. لكني واثق من أنك قادر على كتابة ما هو أفضل!

أجبته: يمكنني كتابة أحسن منها، بالتأكيد. ما رأيك في هذه؟

هنا يرقد غيير في مستقره الأخير

كان يقود سيارة «ساب» عندما انحرفت وخرجت عن الطريق

انطفأت عيناه، لكن نبض قلبه استمر

لم يعرف أحد أنه رحل حقًا

تحطمت عظامه، وسُحق قفصه الصدري

إلّا أن أحدًا لم يتحدث عن موته

إلى أن أنزِل النعش في الحفرة وصار كل شيء مظلمًا

وطارت روحه محلقة...

ذلك الكاتب الرديء الرائع!

* * *

لم يكن هذا مضحكًا كثيرًا، لكنه ساعدني على تحمل مرور الوقت. ثم إنه أتاح لغيير أن يضحك قليلًا في مكتبه الجامعي. أرسلت ما كتبته، وذهبت إلى السوبرماركت لأشتري بعض الطعام. أكلت، ونمت ساعة على الأريكة. أنهيت قراءة الجزء الأول من الإخوة «كارامازوف»، وبدأت الجزء الثاني فلم أنته منه إلى أن حل الظلام في الخارج وامتلأت الشقة بأصوات أول المساء. أحسست بما كنت أحسه في طفولتي عندما كنت أستلقي في

الفراش وأقرأ عدة ساعات من غير توقف؛ أحسست برأسي باردًا كما لو أنني أستيقظ من النوم، من نوم بارد، أستيقظ في أول الظلمة فتبدو الأشياء المحيطة بي قاسية غير مرحّبة بوجودي. غسلت يديَّ بماء حار، ثم جفّفتهما جيدًا. أغلقت الكمبيوتر ووضعته في الحقيبة ولففت على رقبتي وشاحًا، ثم وضعت قبعتي ومعطفي وحذائي وأقفلت الباب من خلفي. وضعت قفازي وخرجت إلى الشارع. لا تزال أمامي نصف ساعة قبل موعدي مع غيير في مقهى بيليكان. لديّ وقت فائض.

كان الثلج على الرصيف بنيًا مُصفرًّا حُبَيبي القوام مثل السميد. تنزلق بسهولة عندما تخطو فوقه. مشيت حتى رادمانسغاتان، في اتجاه محطة المترو حيث التقاطع مع شارع سفيفاغن. إنها السادسة والنصف الآن. كانت الشوارع من حولي شبه خاوية تكتنفها ظلمة خدّاعة لا تظهر إلّا في ضوء الإنارة الكهربائية المنعكسة هنا على النوافذ كلها وعلى مصابيح الشارع، على الثلج والرصيف والسلالم والحواجز والسيارات المتوقفة والدراجات وواجهات البنايات وأفاريز الشبابيك وأعمدة الكهرباء واللافتات. فكرت خلال سيري أن من الممكن تمامًا أن أكون أي شخص آخر... ليس فيَّ شيء أحسه كبير القيمة إلى حد يكفي لعدم اعتباره شيئًا آخر. عبرت شارع دروتنينغاتان الذي كانت نهايته مزدحمة بأشخاص قاتمين أشبه بالخنافس، ثم سرت هابطًا درجات السلم إلى جانب «حديقة المرصد»، ثم اجتزت ذلك الجزء من الشارع حيث كانت لافتة قبيحة الشكل أمام مطعم صيني تدعونا إلى «الإفراط في الأكل». نزلت إلى محطة المترو. كان على الرصيفين قرابة ثلاثين أو أربعين شخصًا، وكان أكثرهم عائدًا من العمل. عرفت هذا من الحقائب التي معهم.

وقفت في المكان الأقل ازدحامًا ووضعت حقيبتي على الأرض بين ساقيَّ واستندت بكتفي إلى الجدار. أخرجت هاتفي واتصلت بإنغفه.

قال لي: «مرحبًا!».

«مرحبًا. أنا كارل أوفه».

قال: «عرفت هذا».
قلت: «ألم تتصل بي؟».
قال: «نعم، اتصلت يوم السبت!».
«كنت سأتصل بك، لكن الأمور ازدحمت كثيرًا. كان لدينا أناس كثيرون هناك، ثم نسيت».
قال إنغفه: «لا مشكلة في هذا. لم أكن أريد أي شيء خاص».
«هل وصل المطبخ الذي اشتريته؟».
«وصل. لقد وصل اليوم، في الحقيقة. إنه إلى جانبي الآن. وقد اشتريت سيارة جديدة».
«حقًا!».
«كنت مضطرًا إلى شرائها. إنها سيارة سيتروين إكس إم. ليست قديمة كثيرًا. لقد كانت سيارة دفن موتى».
«هل تمزح؟».
«لا، لست أمزح».
هل ستتجول في سيارة دفن موتى؟».
«لقد جرى تعديلها، بالطبع. ليس فيها الآن متسع للنعوش. تبدو طبيعية تمامًا».
«وإن يكن! يكفي أنها كانت تنقل موتى... هذا مخيف أكثر من أي شيء سمعته منذ زمن طويل».
ضحك إنغفه ساخرًا، ثم قال: «أنت مفرط الحساسية. إنها سيارة عادية تمامًا. ثم إنني قادر على دفع ثمنها».
قلت: «ها ها، هكذا إذًا».
حل صمت قصير.
سألته: «هل لديك أخبار جديدة؟».
«لا شيء. ماذا عنك أنت؟».
«لا شيء. كنا عند أم ليندا البارحة».

«أوه، نعم».
«نعم».
«كيف هي فانيا؟ هل بدأت المشي؟».
قلت: «تمشي بضع خطوات. لكنها تقع أكثر مما تمشي... إذا أردت الحقيقة».
ضحك إنغفه.
سألته: «كيف هما تورجِه وإيلفا؟».
قال: «إنهما بخير. بالمناسبة، كتب تورجه لك رسالة. أرسلها من المدرسة. هل وصلتك؟».
«لا».
«رفض إخباري بما كتبه لك. لكنك ستكتشف ذلك بنفسك».
«جيد».
أطّلت مصابيح القطار الأمامية قادمة عبر النفق. اندفع على الرصيف تيار ريح خفيفة. بدأ الناس يتحركون صوب حافة الرصيف.
قلت لإنغفه: «جاء القطار. أكلمك قريبًا».
توقف القطار ببطء أمامي. حملت حقيبتي وسرت بضع خطوات إلى الأمام حتى أقترب من الباب.
قال إنغفه: «لا بأس. اعتنِ بنفسك».
«وأنت أيضًا».
انفتحت أبواب القطار. وبدأ الناس يهبطون منه. عندما خفضت يدي الممسكة بالهاتف، اصطدم أحد الناس بمرفقي من الخلف فطار الهاتف من يدي واختفى بين أرجل الناس عند الباب. لم أرَ مكان سقوطه لأنني استدرت بحركة تلقائية صوب الشخص الذي اصطدم بي.
أين هاتفي؟
لم أسمع صوت اصطدامه بالأرض. لعله سقط على قدم واحد من الناس. انحنيت ونظرت إلى الرصيف من أمامي. لم أجد الهاتف. هل

قذفته قدم أحدهم مسافة أبعد؟ لا، لو حدث هذا للاحظته. هكذا قلت في نفسي وأنا أنهض واقفًا وأنظر إلى الناس المتجهين صوب باب الخروج من المحطة. هل يمكن أن يكون قد سقط في حقيبة أحد ما؟ رأيت امرأة تسير حاملة حقيبة مفتوحة متدلية من ذراعها.

هل سقط الهاتف في حقيبتها؟

لا! لا يحدث هذا النوع من الأشياء. ألا يحدث؟

بدأت السير في اتجاهها. ألا يمكنني أن أربت على كتفها بلطف وأطلب منها أن أبحث في حقيبتها؟... لقد فقدت هاتفي، وأظنه أنه ربما يكون قد سقط في حقيبتك!

لا، لا يمكنني فعل هذا.

سمعت إشارة التنبيه إلى إغلاق أبواب القطار. لن يأتي القطار التالي قبل عشر دقائق. لقد تأخرت على موعدي مع غيير، ثم إن هاتفي من طراز قديم... أتيح لي الوقت الكافي لأفكر في هذا قبل أن أقفز عبر الباب الذي كان نصف مغلق في تلك اللحظة. كان في رأسي ما يشبه الدوار. جلست إلى جانب شاب في العشرين يرتدي ملابس غريبة سوداء. تلاحقت ومضات أنوار المحطة داخل العربة، ثم حلت محلها فجأة ظلمة دامسة في الخارج. بعد خمس عشرة دقيقة تركت القطار في محطة سكانستول. سحبت بعض المال من آلة النقود عند باب المحطة، ثم عبرت الشارع ودخلت مقهى بيليكان. كان المكان مشرب بيرة من النوع التقليدي: فيه مقاعد وطاولات على امتداد الجدران، وكراسي وطاولات على الأرضية البيضاء والسوداء مثل مربعات الشطرنج؛ جدران مغلفة بألواح من الخشب البني، ولوحات على الجدار فوق تلك الألواح وعلى السقف، وأعمدة قليلة تحمل السقف في تلك الصالة. كانت على الأعمدة أيضًا ألواح الخشب البني نفسها، ومن حولها مقاعد تحيط بها، وفي آخر الصالة بار طويل عريض. كان أكثر العاملين في هذا المكان متقدمين في السن. وكانت ملابسهم سوداء وعليها مريلات بيضاء. لا موسيقى في هذا المكان، ورغم ذلك فإن الضجيج مرتفع

دائمًا، كان طنين الأصوات والضحكات وقرقعة أدوات الطعام والكؤوس مخيمة فوق الطاولات مثل غيمة لا تلاحظها بعد أن تمضي هناك بعض الوقت؛ لكنها واضحة تمامًا، بل مزعجة أكثر الأحيان، عندما تفتح الباب وتدخل قادمًا من الشارع يبدو لك الصوت مثل الرعد. يرى المرء أحيانًا بين الناس هنا شخصًا ثملًا من الممكن أنه يشرب البيرة هنا منذ الستينيات. ويرى أحيانًا كهلًا يتناول طعامه... إلّا أن الموت بدأ يلفّ هذا النوع من الزبائن وصار النمط السائد هنا (مثل كل مكان آخر في سودرمالم) مؤلفًا من رجال ونساء من الطبقات الوسطى التي تصنع الثقافة. ليسوا شبابًا تمامًا، وليسوا متقدمين في السن تمامًا؛ ليسوا جذابين تمامًا، وليسوا بشعين تمامًا؛ ثم إنك لا تراهم أبدًا ثملين تمامًا. مراسلون ثقافيون، وخريجون، وطلبة يدرسون العلوم الإنسانية، وموظفون في دور النشر، وموظفون إداريون في الراديو والتلفزيون، وممثل أو كاتب أحيانًا؛ لكنك لا ترى في هذا المكان شخصية بارزة إلّا في أحوال نادرة.

دخلت من الباب وتوقّفت بعد بضعة أمتار، وراحت عينان تجولان بين الناس وأنا أحل وشاحي وأخلع معطفي. كؤوس تتألق، ورؤوس صلعاء تلمع، وأسنان بيضاء تبرق. البيرة أمام الجميع بلونها الأصفر على الطاولات البنية. لكني لم أستطِع العثور على غير.

سرت إلى واحدة من الطاولات المغطاة بمفرش قماش، ثم جلست مستندًا بظهري إلى الجدار. أتت نادلة بعد خمس ثواني ووضعت أمامي قائمة الطعام الثقيلة المغلفة بجلد صناعي.

قلت: « سأنتظر صديقي قليلًا قبل طلب الطعام. هل يمكن أن تأتيني ببيرة ساروسترولر؟».

كانت امرأة في الستين تقريبًا. وجهها ممتلئًا لحيمًا وشعرها بنيًا محمرًا. قالت: «بالطبع، هل تريدها بيرة عادية أم داكنة؟».

«عادية، من فضلك».

أوه، كم هو لطيف هذا المكان! صالة البيرة التقليدية كما هي حملت

ذهني إلى مكان آخر، إلى أزمنة أكثر كلاسيكية... لا أعني أنني رأيت المكان كأنه شيء يشبه متحفًا، ليس كذلك، لأنه ليس في جوّه شيء قسري مفروض. يأتي الناس إلى هذا المكان ليشربوا البيرة وليتحدثوا مثلما يفعلون منذ الثلاثينيات. هذه مزية من مزايا ستوكهولم العظيمة: فيها أماكن كثيرة من أزمان مختلفة لا تزال تعمل كما هي من غير أن تقدم أغنيات عظيمة أو رقصات عظيمة. مثلًا، «قصر فان بير لوتسكا» من القرن السابع عشر حيث يُقال إن بيلمان ثمل أول مرة في حياته، وكان عمر المكان في ذلك الوقت قد بلغ مئة عام. أتناول طعام الغداء هناك أحيانًا. ذهبت إليه أول مرة يوم مقتل وزيرة الشؤون الخارجية آنا ليند؛ فكان الجو العام في المدينة ذلك اليوم ثقيلًا قلقًا. وهنالك أيضًا مطعم «دينغيلدينه فريدن» في المدينة القديمة. إنه من القرن الثامن عشر. وكذلك «بينستوبت» و«بيرنز سالونغر» من القرن الثامن عشر، حيث يمكن العثور على «الغرفة الحمراء» التي وصفها ستيرندبرغ. هذا إذا لم نقل شيئًا عن بار «غوندولن» الجميل ذي «الطراز الجديد» الذي لا يزال على حاله من غير أي تعديل منذ العشرينيات. إنه عند قمة «مصعد كاتارينا» حيث يرى المرء إطلالة بانورامية على المدينة كلها ويشعر كأنه في طائرة أو على سطح سفينة ضخمة من تلك التي تعبر المحيط الأطلسي.

جاءت النادلة بصينية كلها كؤوس فوضعت أمامي كأسًا على رقعة صغيرة مما يوضع تحت كؤوس البيرة رمتها على عجل، ثم ابتسمت لي وتابعت سيرها في اتجاه الطاولات الكثيرة الصاخبة حيث استقبلتها عبارات تحية ظريفة كثيرة لعلها تسمعها في كل ثانية.

رفعت الكأس إلى فمي وأحسست لمسة الرغوة على شفتيّ. ملأ فمي ذلك السائل البارد المر قليلًا (سرت رعشة في جسدي لأنني لم أكن مستعدًا لهذا الطعم اللذيذ كله) ثم انحدر إلى بلعومي.

آآآه!

* * *

عندما تتخيل المستقبل وتحاول استحضار عالم امتدت حياة المدنية إلى كل مكان فيه وحقّق الإنسان التكامل مع الآلة، حقّق ذلك التكامل الذي تمنّاه زمنًا طويلًا، فإنك لا تنتبه أبدًا إلى أبسط العناصر، إلى البيرة مثلًا، إلى هذه البيرة الذهبية القوية ذات النكهة الرائعة. البيرة المصنوعة من الذرة في الحقول ومن أزهار الجنجل في المروج، أو من الخبز، أو من الشمندر، بطعمها القابض الحلو، بطعم الأرض، كل ما نأكله دائمًا وكل ما نشربه على طاولات مصنوعة من الخشب خلف نوافذ يعبرها ضياء الشمس. ماذا كان الناس يفعلون في قصور القرن السابع عشر بخدمها في حللهم الرسمية؛ ماذا كانوا يفعلون وهم متنعلين أحذيتهم العالية وشعرهم المستعار المبودر الجاثم فوق رؤوس مليئة بأفكار القرن السابع عشر... ماذا يفعلون إذا لم يشربوا البيرة والنبيذ، إذا لم يأكلوا الخبز واللحم، إذا لم يبولوا ويتغوطوا؟ يصح الكلام نفسه على الثامن عشر، وعلى القرن التاسع عشر، وعلى القرن العشرين. تتغير مفاهيم البشرية على الدوام، تتغير مفاهيمها عن العالم وعن الطبيعة أيضًا، ويظهر لديها أنواع من الأفكار والمعتقدات الغريبة، ثم تختفي، ويجري اكتشاف أشياء مفيدة وأشياء لا فائدة منها، ويتغلغل العلم أعمق فأعمق في أسرار العالم وغوامضه، وتزداد الآلات عملًا، تزداد السرعات، ويهجر الناس مساحات من أنماط الحياة القديمة لا تنفك تزداد اتساعًا لكن أحدًا لم يفكر قط في الاستغناء عن البيرة ولا تبديلها! المالت، والجنجل، والماء. الحقل، والمرج، والجدول. من حيث الأساس، هكذا هو الأمر في كل شيء. إن جذورنا مستقرة في الماضي العتيق، ولا شيء أصيلًا فينا، لا أجسادنا تغيّرت ولا حاجاتنا تغيّرت منذ أن رأى أول البشر ضوء النهار في مكان ما في أفريقيا قبل أربعين ألف سنة، أو منذ وُجد الإنسان المعروف، هوموسيبيان، مهما يكن بعد تلك اللحظة في الزمن. لكننا نتخيل الأمر بطريقة مختلفة؛ وقد كانت قدرتنا على التخيل قوية إلى حد لم يقف عند إيماننا بأننا شيء أصيل مختلف، بل إننا نظمنا حياتنا وفقًا لهذا التخيل وصرنا نجلس ونثمل في مقاهينا وباراتنا المعتمة ونرقص رقصاتنا التي

أظنها أكثر خراقة من الرقصات التي كان الناس يرقصونها قبل... فلنقل قبل خمس وعشرين ألف سنة على وهج النار في مكان ما على سواحل البحر المتوسط.

كيف يمكن لفكرة أننا حديثون أن تظهر عندما يتساقط الناس في كل مكان من حولنا ويقعون ضحية أمراض لا شفاء لها؟ من ذا الذي يمكن أن يكون حديثًا في وجود الورم الدماغي؟ كيف لنا أن نقتنع بأننا حديثون إذا كنا نعرف أن كل واحد منا سيكون عما قريب مستلقيًا في مكان ما تحت الأرض، يتعفّن؟

رفعت كأسي إلى فمي مرة أخرى وشربت جرعات عميقة، طويلة.

كم أحب الشرب! لا أكاد أشرب نصف كأس قبل أن تداعب عقلي فكرة الذهاب في الشرب إلى آخره هذه المرة. أجلس فقط، وأفرغ كأسًا تلو كأس. لكن، أيجوز هذا؟

لا، لا يجوز!

خلال الدقائق القليلة التي مضت على وجودي هنا، كان تيار مستمر من الناس يمر عبر الباب. فعل أكثرهم مثلما فعلت عندما دخلت: يتوقفون في الداخل على مسافة بضعة أمتار من الباب وتجول أعينهم بين الزبائن بينما يخلعون معاطفهم.

عرفت وجهًا في آخر مجموعة دخلت المكان. نعم، إنه توماس!

لوّحت له بيدي فجاء إليّ.

قلت له: «مرحبًا، توماس».

قال وهو يصافح يدي: «مرحبًا كارل أوفه. لقد مرّ زمن طويل!».

«صحيح، لم أرَك منذ وقت. هل أحوالك على ما يرام؟».

«نعم، أحوالي جيدة تمامًا. ما أخبارك أنت؟».

«كل شيء بخير».

«إنني على موعد مع أشخاص هنا. ها هم جالسون هناك، في الزاوية. يمكنك الانضمام إلينا إن أحببت».

«شكرًا، أنا أنتظر وصول غيير».

«حقًا! نعم، أظنه قال لي إنه سيراك اليوم. تحدثت معه بالأمس. سوف آتي إليكما قليلًا فيما بعد... إن لم يكن لديكما مانع».

«بالطبع! أراك إذن».

كان توماس واحدًا من أصدقاء غيير؛ ولا أشك في أنه أكثر من يعجبني من أصدقائه. إنه في أوائل الخمسينيات. وله شبَه مدهش بلينين: كل شيء، من اللحية، إلى البقعة الصلعاء في رأسه، إلى العينين المغوليتين المشقوقتين. يعمل توماس مصورًا. لقد نشر ثلاثة كتب ضم أولها صورًا لحرس السواحل، وضم الثاني صور ملاكمين (تعرّف على غيير من خلال هذا الإطار)، واشتمل الكتاب الثالث على مجموعات من صور الحيوانات والأشياء والمناظر الطبيعية، إضافة إلى أشخاص يعلوهم ظل قاتم ويشكل الخواء فيهم ومن حولهم سمة مدهشة حقًا. كان توماس ودودًا، وغير متطلب في علاقاته الاجتماعية... على نحو ما، تحس أن لا شيء تخسره عندما تتحدث معه، ربما لأنه لا يعطي نفسه مكانة كبيرة رغم كونه شخصًا واثقًا من نفسه، أو لعل ثقته هي السبب في ذلك. كما أنه يهتم بالآخرين: ذلك هو الانطباع الذي يعطيه. لكنه شخص مفرط الصرامة والتطلب في عمله لأنه ينشد الكمال دائمًا من خلال صوره المتوجهة صوب إرساء نمط واضح لا صوب الارتجال. الصور التي أُحبها أكثر من غيرها هي تلك التي تحتل مكانًا وسطًا: النمط المحدد المرتجل، أو الفرصة التي تجمّدت في الزمن. كانت صوره لامعة حقًا. يذكرني عدد من صور الملاكمين بالتماثيل الإغريقية القديمة: التوازن في الأجساد وحقيقة أنها صورة ملتقطة أثناء فعلهم أشياء خارج حلبة الملاكمة. وهنالك صور أخرى فيها قدر هائل من الكآبة، ومن العنف طبعًا. اشتريت في الشتاء اثنتين من صوره لأنني أردت تقديمهما هدية إلى إنغفه في عيد ميلاده الأربعين. جلست في مختبر ثوماس أقلّب في سلاسل الصور التي شكلت قوام كتابه الأخير، وبقيت مترددًا زمنًا طويلًا، لكني اخترت اثنتين آخر الأمر. عندما قدمت الصورتين إلى إنغفه،

استطعت أن أرى في وجهه أنه لم يحبهما حقيقة. وهذا ما جعلني أقول له إن من الممكن أن يختار اثنتين غيرهما، وإنني سأحتفظ بهما لنفسي. هما معلقتان في مكتبي الآن. صورتان لامعتان متميزتان، لكنهما موحيتان بالشؤم أيضًا لأنهما تنضحان موتًا، وهذا ما جعلني أفهم تمامًا عدم رغبة إنغفه في وضعهما في غرفة المعيشة في بيته رغم أن ذلك أزعجني قليلًا بطبيعة الحال. أزعجني أكثر من قليلًا في حقيقة الأمر! عندما ذهبت حتى آخذ الصورتين اللتين اختارهما إنغفه أخيرًا، قرعت باب القبو ذي الجدران الحجرية الضخمة العائدة إلى القرن السادس عشر في المدينة القديمة حيث كان مختبر توماس، ففتح لي الباب زميله الستيني صاحب الشعر الأشعث والملابس الزرية على نحو ما. لم يكن توماس موجودًا، لكن الرجل قال لي إن في وسعي الدخول لانتظاره إن أحببت. كان ذلك الرجل آنديرس بيترسن، المصور الذي يقاسمه توماس هذا المختبر. كانت معرفتي باسمه عائدة إلى أنه صاحب صورة غلاف ألبوم «رين دوغز» لتوم ويتس؛ إلّا أنه مصوّر معروف منذ السبعينيات عندما حقق شهرة من خلال صور «كافيه ليهميتز». كانت أعماله خشنة، حميمة، فوضوية، قريبة من الحياة الحقيقية إلى أقصى حد. جلس على الأريكة في الغرفة التي فوق غرف العمل وسألني إن كنت راغبًا في تناول القهوة فقلت سأنتظر توماس. عاد إلى ما كان يفعله عند وصولي، وراح يقلب كومة من الصور المطبوعة ويدندن لنفسه بلحن ما. لم أرد أن أعوقه عن عمله، أو أن أبدو متطفلًا عليه، فوقفت أمام لوحة كبيرة غطتها صور كثيرة رحت أنظر إليها بعض الوقت من غير أن أكون بعيدًا عن أثر حضوره الذي قد يتلاشى إن كان هنالك أشخاص أكثر في الغرفة، لكنا كنا وحدنا، وكنت أحس كل حركة من حركاته. كان رجلًا ينضح سذاجة، لكنها ليست سذاجة قلة الخبرة، بل على العكس تمامًا لأنه يوحي بأنه خَبِر الكثير الكثير... كان ذلك كأن تلك الخبرات والتجارب موجودة لديه لكنه لم يستخلص نتائجها، أو كأن تلك الخبرات مرّت به من غير أن تصيبه آثارها، إن صح قول هذا. قد لا يكون الأمر كذلك، لكن إحساسي كان هكذا

عندما أرى عينيه وعندما أنظر إليه جالسًا يعمل هناك. عاد توماس بعد بضع دقائق وبدا مسرورًا برؤيتي مثلما يبدو مسرورًا مع الجميع. أعدّ قهوة، ثم جلسنا على أريكة عند السلم وأخرج الصورتين اللتين طلبتهما فنظر إليهما مليًا، كأنها نظرة أخيرة، ثم وضع كلًا منهما في غلاف من النايلون ووضع الغلافين في مغلف ورقي، أما أنا فوضعت مغلفًا صغيرًا فيه المال ودفعته في اتجاهه على الطاولة، لكني فعلت ذلك بطريقة خفية جعلتني غير واثق من أنه لاحظ ذلك. هنالك ما يحرجني في التعاملات المالية الشخصية لأنني أحس كأن التوازن الطبيعي يضطرب على نحو ما، أو يختل تمامًا، لكني لا أعرف سبب هذا الإحساس، وضعت الصورتين في حقيبتي، ثم تحدثنا قليلًا عن هذا وذاك. إضافة إلى صديقنا المشترك غيير، كنت أعرف ماري: المرأة التي يعيش معها. كانت شاعرة، وقد علّمت ليندا في بيسكوبس آرنو منذ سنوات كثيرة، كما أنها الآن مشرفة على دراسة كورا، صديقة ليندا. كانت شاعرة جيدة؛ شاعرة كلاسيكية على نحو ما. وما كان الجمال والحقيقة في قصائدها شيئين لا يقبلان اتفاقًا، كما أن المعنى أيضًا ما كان لعبة من ألعاب اللغة. لقد ترجمت بعضًا من مسرحيات جون فوس إلى اللغة السويدية، وهي تعمل الآن على قصائد لشتينار آبوستناد، وعلى أشياء أخرى أيضًا. لم ألقَها إلّا مرتين، لكنها بدت لي شخصًا متعدد الجوانب لأن شخصيتها غنية بالتلاوين، كما أن المرء يحس فيها عمقًا نفسيًا من غير أي علامات ظاهرة تشير إلى مشكلات نفسية (الرفيقة الدائمة للشخصية الحساسة)... ليس بشكل مزعج، على الأقل. لكن ذهني لم ينشغل بهذا كله عندما وقفتْ أمامي لأن بؤبؤ عينها اليمنى بدا منزاحًا، منزلقًا إلى الأسفل. كان في مكان ما بين حدقة العين وبياضها؛ وكان هذا شيئًا غريبًا مقلقًا سيطر على انطباعاتي الأولى عنها.

قال توماس إنهما سيدعواننا، أنا وليندا، إلى العشاء ذات يوم. فقلت إن هذا سيكون شيئًا لطيفًا. ثم نهضت وحملت حقيبتي. نهض توماس أيضًا وتصافحنا؛ ولما لم يظهر عليه ما يوحي بأنه رأى مغلف النقود، فقد أخبرته

عنه وقلت إن هذه نقود من أجل الصورتين. أومأ برأسه وشكرني كما لو أنني أجبرته على التعبير عن امتنانه. صعدت درجات السلم خجلًا من نفسي بعض الشيء وخرجت إلى الشوارع الشتوية في المدينة القديمة.

حدث هذا منذ قرابة شهرين. لم يزعجني عدم تلقي أي دعوة منه حتى الآن. لأن من أول الأشياء التي سمعتها عن توماس أنه شديد النسيان. أنا شديد النسيان أيضًا؛ وهكذا لم أحمل عليه شيئًا.

عندما جلس إلى طاولة في آخر الصالة، كان يبدو رجلًا نحيلًا حسن الملبس له قناع لينيني. أخرجت كيس تبغ تيديمانز الأصفر من حقيبتي ولففت سيجارة بأصابعي التي كانت شديدة التعرق لسبب لا أعرفه. فظلت نتف التبغ تلتصق بها. ابتلعت جرعة كبيرة من البيرة، ثم أشعلت لفافتي، ومن النافذة رأيت غيير آتيًا في الشارع.

رآني فور دخوله، لكن عينيه ظلتا تتجولان في المكان خلال سيره في اتجاه الطاولة كأنه يبحث عن خيارات أخرى. يمكن أن يقول المرء في نفسه إنه يشبه ثعلبًا عاجزًا عن اختيار مكانٍ له عدة مخارج.

قال وهو يمد يده ليصافحني وتمر عيناه على عيني بنظرة سريعة: «لماذا لا تردّ على هاتفك الملعون؟».

نهضت وصافحت يده الممتدة إليّ، ثم جلست من جديد.

قلت: «أظن أننا اتفقنا على اللقاء في الساعة السابعة. لقد تجاوزت السابعة والنصف الآن».

«ولماذا تظنني أردت الاتصال بك؟ حتى أحذرك من السقوط في الفجوة بين القطار والرصيف؟».

قلت: «لقد أضعت هاتفي في محطة المترو».

«أضعت الهاتف؟».

«نعم، أضعته. اصطدم أحد بيدي فطار الهاتف من يدي. أظنه سقط في حقيبة لأني لم أسمع صوت اصطدامه بالأرض. كانت هنالك امرأة تحمل حقيبة مفتوحة. مرت في تلك اللحظة تمامًا».

«أنت إنسان عجيب. أظنك لم تسألها إن كنت تستطيع استعادة هاتفك؟».

«لا... لأن القطار وصل في تلك اللحظة تمامًا، ولأنني لم أكن واثقًا مما حدث بالضبط. ثم إنك لا تستطيع أن تذهب وتسأل امرأة إن كانت تسمح لك بالتفتيش في حقيبتها».

سألني: «هل طلبت طعامًا؟».

هززت رأسي نفيًا. التقط قائمة الطعام عن الطاولة ونظر من حوله باحثًا عن النادلة.

قلت له: «إنها هناك، عند العمود. ماذا ستختار؟».

«فيم تفكر أنت؟».

«ربما لحم مفروم مع صلصة البصل، ما رأيك؟».

«نعم، لم لا؟».

كلما قابلت غيير تكون بيننا مسافة ما كأنه لا يستطيع استيعاب حقيقة أنني موجود فيحاول إبقائي على مسافة منه. لا ينظر في عينيّ، ولا يتابع الأحاديث التي أبدأها، بل يبدو كأنه يخنقها بأن يوجه انتباهه وجهةً أخرى، ومن الممكن أيضًا أن يكون ساخرًا متهكمًا وأن يشع كيانه كله غرورًا وتكبرًا. يحبطني هذا أحيانًا. وعندما يحبطني أسكت ولا أقول شيئًا، لكنه لا يجد صعوبة في لومي على ذلك أيضًا... «يا إلهي! حالتك صعبة اليوم، نعم صعبة!»، أو «هل ستظل جالسًا هكذا تحدق في الأبدية طيلة المساء؟»، أو «نعم، كان الجلوس معك ممتعًا الليلة يا كارل أوفه!» كان هذا نوعًا من المناوشات النفسية التي تجري في داخله، لأنه، بعد برهة، قد تستمر ساعة أو نصف ساعة أو خمس دقائق، يلقي بدفاعاته جانبًا ويبدو عليه الانسجام ويصير حسن الإصغاء مراعيًا حاضرًا، وتصير ضحكته دافئة صادقة بعد أن كانت باردة قاسية... تحوّلٌ يشمل صوتَه وعينيه أيضًا. لا تكون الدفاعات موجودة عندما نتحدث على الهاتف. عندها يكون كلامنا على قدم المساواة منذ لحظة رفع السماعة. يعرف عني أكثر من أي شخص آخر، ومن المحتمل أنني أعرف عنه أكثر من أي شخص آخر أيضًا، لكني لست متأكدًا من هذا أبدًا.

ظهر الفارق بيننا بكل وضوحه في الهدية التي قدمها لي غيير عندما فرغت من كتابة «زمان من أجل كل شيء»: فارق تقلص مع مرور السنين، لكنه لم يمّحِ أبدًا لأنه شيء لا علاقة له بآرائي ولا علاقة له بالمواقف... إنه من السمات الأساسية للشخصية، السمات المدفونة عميقًا حيث لا يؤثر فيها شيء. كانت الهدية سكينًا من النوع الذي يستخدمه جنود مشاة البحرية الأميركية؛ سكين لا يمكن استخدامها في أشياء كثيرة غير القتل. لم يفعل هذا على سبيل النكتة، بل لأن تلك السكين كانت أروع هدية يمكن له تخيلها. سررت بالهدية، لكن السكين المخيفة ذات الفولاذ المصقول والنصل الحاد والأثلام العميقة التي تسرّب الدم، ظلت في علبتها خلف بعض الكتب على رف من رفوف المكتب. أظنه أدرك كم كانت تلك الهدية شيئًا غريبًا عني لأنه قدم لي هدية أخرى بعد شهور قليلة عندما صدر «زمان من أجل كل شيء» فكانت نسخة طبق الأصل عن الموسوعة البريطانية في القرن الثامن عشر. وبطبيعة الحال، كانت هذه الهدية شيئًا أقرب إلى طبيعتي. إن في هذه الموسوعة سحر عميق من حيث تلك الموضوعات والظواهر التي لم تتطرق إليها ولم تصفها لأنها لم تكن موجودة بعد. أخرج غيير مغلفًا من النايلون فيه بضع صفحات مطبوعة ثم ناولني إياه.

قال لي: «إنها ثلاثة صفحات فقط. هل يمكنك أن تقرأها وتقول لي إن كانت قد صارت أفضل؟».

أومأت برأسي، وأخرجت الصفحات من المغلف. ثم أطفأت سيجارتي وبدأت القراءة.

كانت تلك افتتاحية المقالة التي كنت أبحث عنها عندما قرأت مخطوط كتابه. لقد أنشأها على فكرة كارل جاسبرز عن «غرينزيتوواتيونن»، «الحالات الحدّية». تلك النقطة حيث تعاش الحياة بأقصى شدة، نقيض الحياة اليومية... بكلمات أخرى، شيء أقرب إلى الموت.

قلت عندما فرغت من القراءة: «إنها جيدة».

«متأكد؟».

«بالطبع».

قال وهو يعيد الأوراق إلى المغلف ويرميها في حقيبته الموضوعة على كرسي إلى جانبه: «جيد. سأعطيك المزيد لقراءته فيما بعد».

«أعرف أنك ستعطيني».

قرّب كرسيه قليلًا واستند بمرفقيه إلى الطاولة، ثم ضم كفيه معًا. أشعلت سيجارة أخرى.

قال لي: «بالمناسبة، لقد اتصل بي ذلك الصحفي اليوم».

سألته: «أي صحفي... أوه، إنه الصحفي من آفتنبوستن».

ذلك الصحفي كان يريد كتابة مقالة «بانورامية» عني، وقد سألني إن كان يستطيع الحديث مع اثنين من أصدقائي. أعطيته رقم هاتف توريه الذي كان شخصًا يصعب توقع تصرفاته في أمور من هذا النوع، وبالتالي فمن المحتمل ألّا يقول عني شيئًا على الإطلاق. وكذلك أعطيته رقم غيير لأنه يعرف الكثير عن وضعي الحالي.

سألته: «ماذا قلت له؟».

«لا شيء».

«لا شيء؟ لماذا لم تقل شيئًا؟».

«لا بأس... ماذا كان يجب أن أقول؟ إن أخبرته الحقيقة عنك فإما أن يعجز عن فهمها أو يشوّهها تمامًا. وهكذا قلت أقل ما أمكنني قوله».

«وما الغاية من ذلك؟».

«وكيف أعرف؟ أنت الذي أعطاه رقم هاتفي...».

«نعم، وهذا يعني أنك كنت قادرًا على قول شيءٍ ما. أي شيء، لقد قلت لك، لا أهمية لما ينشره».

نظر غيير إليّ وقال: «أنت لا تعني ما تقول. في الحقيقة، قلت له عنك شيئًا واحدًا. لعله أهم شيء في حقيقة الأمر».

«ما هو؟».

«قلت له إن لديك أخلاقًا رفيعة. هل تعرف بم أجابني ذلك الأحمق؟

قال: كل شخص لديه أخلاق رفيعة. هل تستطيع تخيل هذا؟ هذا بالضبط ما لا يملكه كل شخص. لا يكاد يوجد شخص واحد لديه أخلاق رفيعة أو يعرف معنى الأخلاق الرفيعة».

«هذا لا يعني إلّا أن لديه فهمًا للأخلاق مختلفًا عن فهمك أنت».

«نعم، لكنه لم يكن يسعى إلّا خلف فضيحة ما. بضع قصص عن أنك سكرت سكرًا شديد ذات مرة، وأشياء من هذا القبيل».

«أوه، لا بأس... سنرى غدًا. لا يمكن أن يكون الأمر فظيعًا إلى هذا الحد. لا تنسَ إنها صحيفة آفتنبوستن».

هز غيير رأسه. كان جالسًا إلى الجهة الأخرى من الطاولة. راحت عيناه تبحثان عن النادلة التي جاءته على الفور.

قال لها بالسويدية: «لحم مفروم مع صلصة البصل، من فضلك. وزجاجة ستاروسترولر، عادية».

قلت لها: «أريد كرات اللحم من فضلك». ثم رفعت كأسي... «وكأسًا أخرى من هذه».

«شكرًا»، قالت النادلة ووضعت دفترها الصغير في جيبها واتجهت إلى المطبخ الذي يمكن للمرء أن يرى لمحات منه عبر الباب المتأرجح باستمرار.

سألته: «ماذا تعني بالأخلاق الرفيعة؟».

«أنت شخص صاحب مبادئ أخلاقية عميقة. إن في عمق شخصيتك أساس من المبادئ الأخلاقية؛ وهو غير قابل للتغير. تكون ردة فعلك جسدية تمامًا تجاه السلوك غير المناسب، كما أن الخجل الذي يطغى عليك ليس خجلًا مجرّدًا ولا عقليًا، بل خجل مادي مئة بالمئة. وأنت لا تستطيع الإفلات من هذا. لست مرائيًا. لكنك لست من دعاة الأخلاق أيضًا. تعرف أن لديّ ميلًا إلى النزعة الفيكتورية، إلى نظامهم الذي يكون كل شيء مرئيًا في واجهته لكن له خلفية يكون كل شيء فيها مخفيًا. لا أظن أن ذلك النوع من الحياة يجعل الإنسان أكثر سعادة. لكن فيه المزيد من الحياة. أنت

بروتستانتي من أولك إلى آخرك. البروتستانتية، إنها الحياة الداخلية، أن تكون أنت نفسك. لا يمكنك أن تعيش حياة مزدوجة، حتى إن أردت... ليس هذا شيئًا تستطيع جعله يحدث لك. إن فيك علاقة مباشرة فردية بين الحياة والأخلاق. وهكذا فإنك حصين من الناحية الأخلاقية. يكون أكثر الناس مثل بيرغونت. إنهم يراوغون ويلفقون طيلة سيرهم على طريق الحياة، ألا تراهم يفعلون ذلك. أنت لا تفعله! أنت تفعل كل شيء بأقصى درجة من الجدية والضمير اليقِظ. على سبيل المثال، هل تخطيت مرة في حياتك سطرًا واحدًا من مخطوط قرأته؟ هل حدث، ولو مرة واحدة، أنك لم تقرأ المخطوط من أول صفحة إلى آخر صفحة فيه؟».

«لا».

«لا. هذا شيء له معنى. لا تستطيع المراوغة في أي شيء. أنت لا تستطيع. أنت بروتستانتي متشدّد. وكما قلت لك من قبل، أنت كثير التدقيق في السعادة. إذا أصبت نجاحًا ما، شيئًا يمكن أن يقتل الآخرون أنفسهم لكي يحصلوا عليه، فإنك تحذفه من السجل. أنت لا يسعدك شيء. عندما تكون أنت نفسك، هكذا تكون طيلة الوقت تقريبًا، فإنك أكثر انضباطًا مني بكثير، بكثير. وأنت تعرف كيف أكون في مجريات حياتي كلها. إن في عقلك مناطق لا خرائط لها، مناطق يمكنك أن تفقد الضبط فيها؛ أما عندما لا تذهب إلى تلك المناطق، ومن الواضح أنك لا تذهب إليها هذه الأيام، فإنك تكون عديم الرحمة تمامًا في ما يتعلق بأخلاقياتك. أنت معرّض للإغراءات، أكثر مني وأكثر من أي شخص آخر أعرفه. لو كنتَ أنا لعشتَ حياة مزدوجة. لكنك لا تستطيع هذا. أنت محكوم عليك بأن تعيش حياة بسيطة. ها ها ها! أنت لست بيرغونت على الإطلاق، وأظن أن هذا هو لب طبيعتك. مثالك الأعلى هو البريء، هو البراءة. وما هي البراءة؟ إنني على النقيض منها تمامًا. لقد كتب بودلير عن هذا، كتب عن فرجينيا، هل تذكر ما كتبه؟ صورة البراءة النقية التي تواجهها بطريقة كاريكاتيرية فتسمع ضحكات فظة وتدرك أن شيئًا مخزيًا قد حدث، لكنها لا تدرك ذلك الشيء، إنها لا تعرفه! إنها تلف نفسها

بجناحيها. أراك في لوحة كارافاجيو، أنت تعرفها «غشاشو الورق»... ذلك اللاعب الذي يخدعه الجميع. إنه أنت. تلك براءة أيضًا. وفي تلك البراءة، التي هي أيضًا كامنة في الماضي في حالتك أنت... تلك الفتاة بنت الثلاثة عشر عامًا التي كتبت عنها في كتابك خارج العالم، ورحلة الحنين المجنون التي عادت بك إلى السبعينيات... إن في ليندا شيء من هذا أيضًا. كيف كان وصفها في الكتاب؟ كأنها مزيج من مدام بوفاري وكاسبار هوسير؟».

«صحيح».

«كاسبار هوسير... إنه اللغز، بالطبع. لم أقابل زوجتك السابقة، تونجه، لكني رأيت صورًا لها. مع أنها ليست مثل ليندا، فإن فيها شيئًا بريئًا، في شكلها. لا أقصد القول إنني أظنها بريئة بالضرورة، لكنها تعطي هذا الانطباع. إن البراءة من هذا النوع أمر مألوف عندك. لا يثير النقاء والبراءة أي اهتمام عندي. لكن ذلك شديد الوضوح عندك. أنت شخص عميق الأخلاق والبراءة. ما البراءة؟ هي ذلك الشيء الذي لم يمسّه العالم، الذي لم يخربه شيء، إنها مثل ماء لم يُلقَ فيه حجر أبدًا. لا يعني هذا أنك من غير شهوات، أو أنك من غير رغبة، لأن لديك رغبات وشهوات؛ لكنه يعني أنك تحافظ على البراءة. إن هذا ظاهر أيضًا في توقك الهائل الجنوني إلى الجمال، وهو جزء من هذا الأمر أيضًا. لم يأت اختيارك الكتابة عن الملائكة مصادفة. الملائكة قمة النقاء، هم نقاء النقاء. لا يمكنك أن تجد ما هو أنقى منهم».

«لكن، ليس في روايتي. يجري الكلام فيها عن الجانب الجسدي، عن الجانب المادي في الملائكة».

«لا بأس، رغم هذا. إنهم رمز النقاء نفسه. وهم رمز السقوط. لكنك جعلتهم بشريين، سمحت لهم بالسقوط، لا في الخطيئة، بل في الصفة البشرية».

«إذا كنت تنظر إلى هذا نظرة مجردة، فإنك محق على نحو ما. الملاك التي في الثالثة عشرة... كان ذلك براءة، فماذا حدث لها؟ كان ضروريًا أن تُجعل ماديةً».

«هذه طريقة غريبة في التعبير عن الأمر!».

«نعم، لا بأس، موافق! كان لا بد أن يضاجعها أحد. وكان على الملائكة أن يصيروا بشريين. إن هنالك صلة بين الجانبين. لكن ذلك كله يحدث في اللاوعي. في مكان عميق. إذن، بهذا المعنى، فالأمر ليس حقيقيًا. ربما كنت سائرًا في تلك الوجهة، لكني غير مدرك لها. بالطبع، ما كنت أعرف أنني كتبت كتابًا عن الإحساس بالخجل والعار قبل قراءة التعليق الذي وضعوه على غلاف الكتاب. لم أفكر في البراءة وفي الطفلة الملاك ذات الثلاثة عشر عامًا إلّا بعد ذلك بوقت طويل».

«لكن هذا موجود في كتابك. إنه واضح وضوحًا تامًا ولا مجال لذرة من الشك في وجوده».

«لا بأس! لكنه لم يكن ظاهرًا لي. ثم... يفاجئني تمامًا أنك تنسى شيئًا آخر. البراءة مرتبطة بالغباء! ما تشير إليه هو الغباء، أليس كذلك؟ إنه الجهل!».

قال غيير: «لا، لا، إنه بعيد عن هذا كل البعد. لقد صار النقاء والبراءة رمزًا للغباء، لكن هذا حدث في زماننا. نعيش في ثقافة يفوز فيها صاحب التجارب الأكثر. هذا شيء مريض. يعرف كل امرئ الوجهة التي تمضي فيها الحداثة... أنت تخلق شكلًا من خلال تحطيم شكل آخر، وذلك في مسار لا نهاية له. دع هذا المسار يستمر فقط... ستصير للخبرة اليد العليا في كل شيء طالما ظل هذا المسار مستمرًا. السمة الفريدة في زماننا، الفعل النقي أو المستقل، هي أن ترفض لا أن تقبل؛ وأنت تعرف هذا جيدًا. القبول شيء أسهل مما ينبغي؛ وهو لا يحقق شيئًا. هكذا أراك، إلى حد ما. بكلمات أخرى، أراك شبه قدّيس».

ابتسمتُ. جاءت النادلة بالبيرة.

قلت: «سكال».

قال: «سكال».

أخذت جرعة طويلة، ثم مسحت رغوة البيرة عن فمي بظهر يدي

ووضعت الكأس على الطاولة أمامي. بدا لي أن في لون البيرة الذهبي الخفيف ما يعلو بالروح. نظرت إلى غيير وكررت ما قاله: «شبه قديس؟».

«نعم. قد يكون القديسون في الإيمان الكاثوليكي قريبين من أسلوبك في الإيمان والتفكير والفعل».

«ألا تظن أنك تبالغ الآن؟».

«لا، على الإطلاق! في نظري، ما تفعله تشويهٌ حقيقي».

«تشويه لماذا؟».

«للحياة، للفرص، للعيش، للإبداع. إبداع الحياة، لا إبداع الأدب. في نظري، أنت تعيش زهدًا يكاد يكون مخيفًا. لا بل إنك تتمرغ في الزهد. أمر غير معتاد إلى حد متطرف، هكذا أراه... منحرف إلى حد التطرف. لا أظن أنني عرفت أحدًا أو سمعت عن أحد... لا بأس، مثلما قلت لك، لأن عليّ أن أعود إلى القديسين أو إلى آباء الكنيسة».

«توقف هنا ولا تزد شيئًا!».

«أنت الذي سألت. لا وجود لإطار مفاهيمي آخر عندك. لا وجود لخصائص خارجية، ولا وجود لأخلاقيات على المحك، ولا وجود لإخلاقيات اجتماعية، لا علاقة لهذا بك. إنه شيء موجود عندك في الدين. لكنه دين من غير رب، وهذا أمر واضح. لا أعرف شخصًا غيرك يمكن أن يشارك في قداس رغم عدم إيمانه بالرب، ولا يجدف أيضًا. أنت الوحيد الذي أعرفه».

«أظن أنك لا تعرف أحدًا غيري فعل هذا».

«بل أعرف، لكن ذلك لم يكن نقيًا. أنا فعلتها عند تعميدي الثاني. فعلتها من أجل المال. ثم أنكرت الكنيسة كلها. وعلى أي شيء تظنني أنفقت ذلك المال؟ لقد اشتريت سكينًا! لكن هذا ليس ما نتحدث عنه الآن. ما الذي كنا نتحدث عنه؟».

«أنا».

«نعم، هذا صحيح. إن لديك شيئًا مشتركًا مع بيكيت، هذه هي الحقيقة.

لا من حيث طريقة كتابتك، لكن في هذه القداسة التي عندكما. إنه ما قاله سيوران في مكان ما: 'بالمقارنة مع بيكيت، أنا عاهِر'. ها ها ها! أظن أن هذا يصيب الهدف تمامًا، ها ها ها! وبالمناسبة، كانوا يعتبرون سيوران واحدًا من أبعد الناس عن المفاسد. إنني أنظر إلى حياتك فأراها مهدورة تمامًا. وإذا أردت الحقيقة، فإنني أرى هذا عند الجميع؛ لكن حياتك مهدورة أكثر من غيرها لأن ما يمكن إهداره فيها أكثر بكثير. لا علاقة لأخلاقياتك بالتصريح الضريبي مثلما كان يظن ذلك المعتوه، بل بطبيعتك أنت. بطبيعتك أنت، ولا شيء أقل من ذلك. إنه ذلك الاختلاف الهائل بيني وبينك هو ما يسمح لنا بأن نتحدث كل يوم. لعل كلمة التعاطف مناسبة هنا. يمكنني أن أحس تعاطفًا تجاه قدَرَك. أقولها هكذا لأن هذا قدر. ولأن المرء لا يستطيع فعل شيء تجاه القدر. أقصى ما أستطيع فعله هو الفرجة عليك. لا يمكن فعل شيء من أجلك. لا شيء يمكن لأحد فعله. أشعر بالأسف عليك. لكني لا أستطيع اعتبار هذا إلّا تراجيديا تجري على مقربة مني. وكما تعرف، التراجيديا هي عندما يمر شخص عظيم بأوقات سيئة. وأما الكوميديا فهي عكسها... عندما يمر شخص سيء بأوقات جيدة».

«لماذا تراجيديا؟».

«لأنها شيء لا بهجة فيه، شيء كئيب إلى حد كبير. لأن حياتك لا بهجة فيها. لديك قدرات لا تصدَّق وموهبة كبيرة جدًا؛ لكن الأمر يتوقف هنا. إنه يصبح فنًا، لكن لا شيء أكثر من ذلك أبدًا. أنت مثل الملك ميداس. كل ما يلمسه يتحوّل ذهبًا، لكنه لا يجني مسرّة من ذلك. أينما ذهب يصير كل شيء لامعًا متألقًا. يبحث الآخرون ويبحثون، وعندما يجدون سبيكة ذهبية، يبيعونها لكي يحصلوا على الحياة، على الروعة والموسيقى والرقص والمتعة والرفاهية، أو على امرأة يضاجعونها على الأقل... صحيح؟... يرمون بأنفسهم على امرأة فقط حتى ينسوا أنهم موجودون، حتى ينسوا هذا ساعة أو ساعتين. أما أنت فتشتهي البراءة، وهذه معادلة مستحيلة الحل. لا يمكن أبدًا الجمع بين البراءة والشهوة. لا يعود النهائي نهائيًا عندما تدخل

قضيبك فيه. لقد أنيط بك دور ميداس؛ يمكنك أن تحصل على كل شيء... فكم تظن عدد الناس الذين يمكنهم هذا؟ لا أحد تقريبًا. وكم عدد الذين يمكن أن يرفضوا هذا؟ أقل من ذلك أيضًا. شخص واحد، على حد علمي. إن لم تكن هذه تراجيديا، فأنا لا أعرف ما التراجيديا. أتظن أن ذلك الصحفي الذي أرسلته قادر على فهم شيء من هذا؟».

«لا».

«إن لديه ميزانه الصحافي، وبه يزن كل شيء. يكيل الصحفيون الناسَ كلهم بالمكيال نفسه. هذا هو أساس النظام كله. لكن هذا أيضًا ما يجعله غير قادر حتى على الاقتراب منك أو مما هو أنت، هذا يعني أننا نستطيع نسيان أمره».

«هكذا هو الأمر بالنسبة للجميع يا غيير».

«لا بأس... ربما، وربما لا. إن صورتك المشوّهة عن نفسك، وتوقك إلى أن تكون مثل الجميع، جزء مما أتحدث عنه أيضًا».

«هذا ما تقوله أنت. أما أنا فأقول إن صورتي التي ترسمها ليست إلّا صورة ترسمها أنت. لن يفكر إنغفه أو أمي أو أي شخص من أصدقائي أو أقاربي في شيء مما تتحدث عنه الآن».

«لكن هذا لا يجعله أقل صدقًا، أليس كذلك؟».

«لا، إنه لا يجعله أقل صدقًا، ليس بالضرورة؛ لكن هذا يذكّرني بما قالته أمي عنك ذات مرة... قالت إنك متفوق على كل من حولك لأن تريد أن تكون حياتك عظيمة».

«لكن حياتي عظيمة. تكون حياة كل شخص عظيمة بقدر ما يجعلها عظيمة. إنني البطل في حياتي، ألست كذلك؟ الناس المعروفون، والمشاهير، والأشخاص الذين يعرفهم كل إنسان، إنهم ليسوا معروفون أو مشاهير في حد ذاتهم، ليسوا مشاهير في أنفسهم، بل جعلهم أحد ما معروفين، كتب أحد ما عنهم، أو صوّرهم، أو تحدث عنهم، أو حللهم، أو أُعجب بهم. هكذا صاروا عظماء في أعين الآخرين. لكن هذا ليس إلّا شيئًا يشبه إعدادًا

مسرحيًا. فلماذا يكون إعدادي المسرحي أقل صدقًا وأقل حقيقية؟ لا، بل على العكس تمامًا، لأن الناس الذين أعرفهم موجودين معي، أستطيع لمسهم، أستطيع النظر في أعينهم عندما أكلمهم، ونحن نلتقي الآن. وبطبيعة الحال، فإننا لا نفعل ذلك مع اسم من تلك الأسماء التي تحوم من حولنا طيلة الوقت. أنا رجل تحت الأرض، أما أنت فإيكاروس».

جاءت النادلة إلينا حاملة طعامنا. قطع اللحم ظاهرة وسط بحر من صلصة البصل البيضاء كأنها جزيرة في الطبق الذي وضعته أمام غيير. أما في طبقي، فكانت كرات اللحم مكومة إلى جانب كتلة لامعة خضراء من البازلاء المهروسة، وكذلك صلصة التوت البري الحمراء، وكل ذلك في صلصة الكريما الكثيفة. أما البطاطس فكانت مقدمة في طبق مستقل.

نظرت إلى النادلة وقلت: «شكرًا لك، هل يمكنني الحصول على واحدة أخرى؟».

قالت: «بيرة؟ نعم...» ثم نظرت إلى غيير الذي كان يفرش منديل الطعام في حضنه، رفع رأسه إليها وقال: «سوف أنتظر قليلًا، شكرًا».

أفرغت آخر قطرة في كأسي. ووضعت ثلاث قطع من البطاطا في صحني.

قال غيير: «لم يكن ما قلته مديحًا... إن كنت تظنه كذلك».

قلت: «ما هو؟».

«صورة القديس. ما من إنسان حديث يود أن يكون قديسًا. ما هي حياة القداسة؟ معاناة، وتضحية، وموت. من الذي يمكن أن يرغب في حياة داخلية عظيمة إذا لم تكن لديه حياة خارجية؟ لا يفكر الناس إلّا في ما قد يُدرّه عليهم الالتفات إلى دواخلهم في ما يتعلق بحياتهم الخارجية ونجاحهم. ما هي النظرة الحديثة إلى الصلاة والدعاء؟ إن لدى البشر الحديثين نوع واحد من الدعاء، ألا وهو التعبير عن رغبة ما. أنت لا تدعو إلّا إذا كان هنالك شيئًا تريده».

«أريد أشياء كثيرة».

«نعم، بالطبع. لكن هذه الأشياء لا تمنحك أي مسرّة. الشيء الأكثر إثارة الذي تستطيع فعله هو عدم السعي من أجل حياة سعيدة. ومن جديد أقول لك إن هذا ليس مديحًا. ليس مديحًا على الإطلاق. أنا أريد الحياة. هذا كل ما له أهمية عندي».

قلت وأنا أضع طبق البطاطس أمامه: «الحديث معك يشبه الذهاب إلى الشيطان طلبًا للعلاج».

قال: «لكن الشيطان يخسر دائمًا في نهاية المطاف».

قلت: «لا نعرف شيئًا عن هذا. لم نبلغ نهاية المطاف بعد».

«أنت محق، هذا صحيح. لكن، ما من شيء يشير إلى أنه سوف يفوز. ما من شيء أستطيع رؤيته على الأقل».

«حتى عندما لم يعد الرب بيننا؟».

«إنه التعبير الصحيح؛ بيننا».

«لم يكن الرب هنا، في ما مضى. كان فوقنا. أما الآن فقد جعلناه داخلنا. أدمجناه فينا».

رحنا نأكل صامتين، بضع دقائق.

قال غيير: «والآن، كيف كان يومك؟».

قلت: «لم يكن يومًا في حقيقة الأمر! حاولت كتابة تلك الكلمة التي سألقيها، أنت تعرف، لكن ما كتبته كان كلامًا فارغًا. وهكذا أمضيت الوقت في القراءة».

«أظن أنه كان في وسعك أن تفعل ما هو أسوأ أيضًا».

«نعم، على الأرجح. لكني لاحظت كم كنت حانقًا من ذلك كله. وبالمناسبة، أنت لن تفهم ذلك كله أبدًا».

سألني غيير وهو يضع كأس البيرة على الطاولة: «ما هو 'ذلك كله'؟».

«إنه، في هذه الحالة تحديدًا، ذلك الشعور الذي يكون في نفسي عندما اضطر إلى الكتابة عن كتابَيّ. أكون مرغمًا على التظاهر بأن ذلك غني بالمعنى، وإلّا فمن المستحيل أن أقول شيئًا عنهما. هذا ما يشبه أن تمتدح

نفسك بنفسك، ألا ترى؟ أمر مقيت. لأنني أكون مضطرًا إلى الوقوف هناك وامتداح الكتابين اللذين كتبتهما بنفسي؛ ويكون من يستمعون إلى هذا الكلام مهتمين بالأمر حقًا! لماذا؟ ثم يأتون إليّ بعد ذلك فيقولون لي إن الكتابين رائعان وإن كلامي عنهما كان رائعًا إلى حد لا يُصدَّق. لا أحب النظر في عيونهم آنذاك، ولا أحب أن أراهم... أريد أن أهرب من ذلك الجحيم لأنني سجين هناك؛ هل تفهم ما أقول؟ ما من قدر أكثر سوءًا من كون المرء موضوعًا للمديح. يتحدث جورج جوهانسن عن 'استحقاق المديح'. إن التمييز أمر زائد عن الحاجة هنا لأنه يوحي بأن المديح الذي له قيمة موجود فعلًا، لكنه غير موجود! وكلما ارتفعت مكانة المرء، كلما كان الأمر أكثر سوءًا. أكون محرَجًا أول الأمر، ولا أجد شيئًا أختبئ خلفه؛ ثم يسوء مزاجي وأفقد أعصابي. عندما يبدأ الناس معاملتي بتلك الطريقة الخاصة... أنت تعرف ما أعنيه. أوه، لا، خراء، أنت لا تعرف ما أعنيه على الإطلاق! أنت واقف في أسفل السلم تمامًا، ألست كذلك؟ وأنت تريد صعوده. ها ها ها!».

«ها ها ها!».

تابعت كلامي: «بالمناسبة، ذلك الكلام عن المديح ليس صحيحًا تمامًا. إذا قلت عن شيء ما أنه جيد، فإن لهذا معنى. إذا امتدحني غيير، فإن لهذا معنى. وكذلك ليندا، بالطبع، وتوره، وإسبن، وثوريه إيريك، كل هؤلاء الذين هم قريبون مني. لكنني أتحدث عن الأشخاص الذين في الخارج، عن أشخاص غرباء. عندما لا أعود قادرًا على ضبط نفسي... لا أعرف ما هو هذا... كل ما أعرفه أن النجاح ليس شيئًا يمكن الركون إليه. ألاحظ أنني أغضب لمجرد الحديث عن هذا».

«هنالك شيئان قلتهما لفتا انتباهي وجعلاني أفكر كثيرًا...» قال غيير هذا وهو ينظر إليّ حاملًا شوكته وسكينه فوق صحنه... «الأمر الأول كان عندما تحدثت عن انتحار هاري مارتنسون. لقد فتح بطنه بعد أن نال جائزة نوبل. قلت إنك قادر تمامًا على فهم السبب».

قلت: «نعم، لكن هذا واضح. نيل جائزة نوبل للآداب أكبر خزي يمكن أن يحلَّ بكاتب. ثم إن جائزته كانت موضع تساؤل. إنه سويدي؛ وقد كان عضوًا في الأكاديمية السويدية. كان واضحًا أن هنالك نوعًا من المحاباة، وأنه لم يكن يستحق الجائزة. وإذا كان لا يستحقها، فإن المسألة كلها تصبح هزءًا. لا بد أن تكون قويًا جدًا حتى تستطيع أن تتجاوز ذلك النوع من الهزء. أما عند مارتنسون، مع كل ما لديه من عقد النقص... لا بد أن ذلك كان شيئًا لا يحتمل».

«إذا كان هذا هو السبب الذي دفعه إلى الانتحار، فما هو الأمر الثاني؟».

«ماذا؟».

«قلت لي إنني قلت شيئين علقا في ذهنك. ما هو الشيء الثاني؟».

«أوه، إنه ياستراو في كتاب 'الخراب' لتوم كريستنسن. ألا تذكره؟».

هززت رأسي نفيًا.

قال غيير: «ما من مكان أكثر أمانًا للأسرار أكثر من رأسك. أنت تنسى كل شيء. عقلك مثل الجبن السويسري، من غير جبن. قلت لي إن 'الخراب' كان أكثر الكتب التي قرأتها رعبًا. قلت لي إن السقوط فيه ما كان سقوطًا. لقد أفلت ياستراو كل شيء، فحسب، ترك نفسه يهوي وتخلّى عن كل ما كان لديه حتى يشرب. وفي الكتاب، بدا ذلك كأنه بديل حقيقي. لقد بدا بديلًا حسنًا! أن تتخلى عن كل ما لديك، وأن تترك نفسك تهوي. كأنك تهوي من رصيف في ميناء».

«إنني أذكر ذلك الآن. لقد كتب بطريقة جيدة جدًا عن كيف يكون السكر. كم يمكن أن يكون رائعًا! وعند ذلك تحس أن الأمر ليس شيئًا كبيرًا. لم أفكر قبل قراءة ذلك الكتاب بالجانب الكسول، غير المقاوم، في السقوط. في ذلك الوقت، كنت أراه شيئًا دراماتيكيًا، شيئًا بعيد المرمى. وقد كانت صدمة أن تنظر إلى ذلك على أنه روتين يوميّ، شيء اعتباطي، بل يمكن حتى أن يكون رائعًا. هذا لأنه رائع في الحقيقة. اليوم الذي يلي السكر... على سبيل المثال. الأفكار التي تأتي إلى رأسك...».

«ها ها ها!».

قلت: «أنت غير قادر على أن تفلت كل شيء هكذا!».

«لا. هل تستطيعه أنت؟».

«لا».

قال غيير: «ها ها ها! لكن، يكاد كل شخص أعرفه يفعل ذلك. يسكر ستيفان طيلة الوقت في مزرعته، أليس كذلك؟ إنه يسكر ويشوي خنزيرًا بأكمله ويقود جرارًا زراعيًا. عندما عدت إلى البلدة هذا الصيف كان أود غونار يشرب الويسكي من كأس كبيرة للحليب. كانت زيارتي ذريعته لملء تلك الكأس إلى حافتها. وهناك توني أيضًا، لكنه مدمن مخدرات، وهذا شيء مختلف قليلًا».

من إحدى الطاولات على الناحية الأخرى من الصالة، نهضت امرأة لم أرَ إلّا ظهرها حتى هذه اللحظة. اتجهت المرأة إلى الحمام فرأيت أنها غيلدا. وخلال الثواني القليلة التي كنت فيها ضمن مجال رؤيتها، خفضت رأسي ورحت أنظر إلى الطاولة. لم أفعل هذا لأن لديّ شيئًا ضدها. لكني لم أكن راغبًا في الحديث معها في تلك اللحظة. لقد كانت من أقرب صديقات ليندا خلال سنوات كثيرة، بل إنهما عاشتا معًا بعض الوقت. كنا نلتقي ونمضي معًا أوقاتًا غير قليلة في أول أيام علاقتي مع ليندا. ولبعض الوقت، كان لها أعمال كثيرة مع دار نشر فيرتيغو، لكني لم أفهم تمامًا ما كانت تفعله هناك. على أي حال، ظهرت صور لها على غلاف مجلتهم، وعلى غلاف كتاب عن فرقة «ماركيز دو ساد». وإضافة إلى ذلك، كانت تعمل لدى مكتبة هيدينغرينز بضعة أيام في الأسبوع. لقد أسست شركة مع واحدة من صديقاتها لها علاقة بالأدب أيضًا. كانت شخصية متقلبة يصعب توقع تحولاتها، لكن ذلك ليس حالة مرضية بل هو شيء أقرب إلى الشبع من الحياة، مما يعني أنك لا تعرف أبدًا ما يمكن أن تقوله أو تفعله. كان في شخصية ليندا جانب متفق تمامًا مع غيلدا. كانت طريقة لقائهما عادية مألوفة: جرى بينهما حديث في الشارع ذات مرة؛ لم ترَ إحداهما الأخرى قبل ذلك،

لكن ليندا أحست أن غيلدا قد أثارت اهتمامها فزارتها في بيتها وصارتا صديقتين. كان لغيلدا ردفان عريضان، وصدر كبير، وشعر داكن، وملامح وجه لاتينية. من حيث مظهرها، كانت شيئًا باقيًا من النموذج الأنثوي في الخمسينيات؛ وقد تودّد إليها عدد من كتّاب ستوكهولم المعروفين، إلّا أن طبعًا بنّاتيًا واضحًا كان يبين مرات كثيرة من خلال الواجهة المعتادة: طبع رديء جامح كالح. قالت كورا ذات مرة (وهي ذات طبيعة أكثر هشاشة) إنها تخافها. كانت غيلدا على علاقة بطالب يدرس الآداب اسمه كيتيل، وكان قد بدأ تحضير الدكتوراه. رُفض اقتراحه بأن تكون رسالته عن هيرمان بانغ، فمضى إلى ما أرادوه، مضى إلى شيء لا يمكن أن يرفضوه، إلى أدب الهولوكوست تحديدًا. وبالطبع، قبلوا ذلك من غير أي مشكلة. التقينا آخر مرة في حفلة في بيتهما. وكان قد عاد لتوّه من ورشة دراسية في الدانمارك حيث التقى شخصًا نرويجيًا درس في بيرغن... سألته: ما اسمه؟ قال إن اسمه يوردال. قلت: «هل يمكن أن يكون بريبن يوردال؟ قال: نعم، هذا هو اسمه، بريبن يوردال. قلت إنه كان واحدًا من أصدقائي وإننا عملنا معًا في تحرير مجلة فاغانت. قلت له إنني أقيّمه تقييمًا عاليًا لأنه صاحب ذوق وذكاء. لكن كيتيل لم يجبني بشيء عندما قلت هذا. ومن طريقته في عدم قول شيء، وذلك الحرج الذي ظهر عليه، وإسراعه فجأة إلى ملء كأسي بحيث يبتعد قليلًا حتى يبدو انقطاع الحديث أقل ظهورًا... فهمت من ذلك كله أن بريبن يمكن أن يكون قد حدّثه عني بكلمات أقل توهجًا. ثم تذكرت فجأة إن بريبن انتقد كتابي الأخير انتقادًا عنيفًا؛ تذكرت أنه انتقده مرتين: الأولى في فاغانت، والثانية في موغنبلاديت. لا بد أن هذا كان موضوع حديثهما في الدانمارك. أصاب الارتباك كيتيل لأن اسمي قد مُرِّغ بالوحل أمامه هناك. صحيح أن هذا لم يكن إلّا نظرية في رأسي، لكني كنت واثقًا تمامًا من أن هنالك شيء ما. غريب أنني لم أتذكر تلك الانتقادات الفظة على الفور، لكن هذا ليس أغرب من إدراكي سبب ذلك: ينتمي بريبن إلى فترة بيرغن في ذاكرتي، إنه موجود هناك؛ أما ذلك الانتقاد الشديد فينتمي

إلى فترة ستوكهولم، إلى الحاضر، وهو مرتبط بالكتاب لا بالحياة التي من حوله. أوه، لقد كان ذلك مؤلمًا، كان مثل طعنة في القلب، أو لعل تعبير «طعنة في الظهر» أكثر دقة لأنني كنت أعرف بريبن. لكني لم أَلُمه كثيرًا لأن كتابي لم يكن معصومًا، لم يكن منيعًا أمام ذلك النوع من النقد... بكلمات أخرى، لم يكن كتابًا جيدًا إلى الحد الكافي، وفي الوقت نفسه خشيت أيضًا أن يظل ذلك الحكم ملتصقًا بالكتاب وأن تظل تلك الكلمات في الذاكرة.

لكني متأكد من أن ذلك لم يكن السبب الذي جعلني غير راغب في الحديث مع غيلدا. أو، لعله كان كذلك؟ في ما يخصني، تظل حوادث من هذا القبيل معلقة مثل ظل فوق من لهم صلة بها. لا، ليس هذا!... شركتها هي التي ما كنت أريد سماع شيء عنها. كانت نوعًا من صلة وصل بين دور النشر والمكتبات، بحسب ما قيل لي. كانت نوعًا من إدارة المناسبات... المهرجانات وتلك الألاعيب...! مهما تكن، لست راغبًا في سماع شيء عنها.

قال غير: «بالمناسبة، كانت ليلة لطيفة في بيتكما».

«هل تعني آخر سهرة لنا؟».

«لماذا تسأل؟».

«لأن ذلك كان منذ خمسة أسابيع. غريب أنك تتحدث عنه الآن».

«آه، فهمت. لقد كنت أتحدث عن تلك السهرة مع كريستينا يوم أمس. ولعل هذا ما جعلني أذكرها الآن. نفكر في دعوتكما عما قريب».

قلت: «فكرة حسنة. صحيح... تذكرت، توماس هنا، هل رأيته؟ إنه هناك، في الخلف».

«أوه، هل تكلمت معه؟».

«قليلًا. قال إنه سيأتي في وقت لاحق».

«إنه يقرأ كتابك الآن، هل قال لك هذا؟».

هززت رأسي نفيًا.

«إنه معجب حقًا بما كتبته عن الملائكة. لكنه يظن أن ذلك يجب أن

يكون أطول. إن من طبعه المألوف ألّا يقول لك شيئًا. أظنه نسيَ أنك من كتب ذلك الكتاب. ها ها ها! إنه كثير النسيان إلى حد عجيب».

قلت: «أظنه غائص في داخل نفسه. يحدث الأمر نفسه معي. ثم، بحق الرب... إنني في الخامسة والثلاثين فقط. هل تذكر عندما جئت إلى هذا المكان مع ثوريه إيريك؟ ظللنا نشرب هنا طيلة النهار والليل. ومع مرور الساعات، بدأ يحدثني عن حياته. أخبرني عن طفولته، وعن أمه وأبيه وشقيقاته، وعن أجيال في عائلته. إنه يجيد حكي القصص، هذا من ناحية. أما من ناحية أخرى، فقد قال بضعة أشياء رائعة تمامًا. إلّا أنني، رغم استماعي بانتباه شديد، ورغم قولي في نفسي إن هذا شيء استثنائي رائع، فقد نسيت الحديث كله في اليوم التالي. لم يبقَ في رأسي إلّا هيكل القصة. تذكرت أنه حدثني عن طفولته وعن أبيه وعن أفراد أسرته، وتذكرت أن ذلك الحديث كان رائعًا. لكني لم أستطِع تذكر ما كانه ذلك الشيء 'الرائع'. لم أستطِع تذكر أي شيء! ثقب أسود!».

«لقد كنت ثملًا».

«لا علاقة لهذا بالأمر. أذكر أن تونجه كانت تتحدّث دائمًا عن شيء فظيع حدث في حياتها منذ سنين كثيرة. ودائمًا كانت تعود إلى الحديث عنه مرة بعد مرة. لكنها لم تكن راغبة في إخباري عما كانه هذا الشيء لأننا لم نكن على معرفة وثيقة بعد. كان ذلك سر حياتها الكبير. هل تفهم هذا؟ مضت سنتان قبل أن تخبرني بالأمر في نهاية المطاف. لم أكن ثملًا وقتها، ولم يكن هنالك أي نوع من الكحول. كنت حاضرًا تمامًا، حاضرًا كليًا، وأصغيت بانتباه إلى كل كلمة قالتها، ثم تحدثنا عن الأمر مطولًا. ثم ذهب كل شيء! لم يبقَ أي شيء في رأسي بعد شهور قليلة! لا أذكر شيئًا. وضعني هذا النسيان في وضع شائك كثيرًا لأن ذلك الأمر كان مؤلمًا جدًا لها. كان موضوعًا حسّاسًا، وكان من الممكن أن تتركني إذا قلت لها إنني آسف، لا أذكر شيئًا. عند هذا، كان عليّ التظاهر بأنني أعرف القصة كلها كلما جرى حديثٌ عن الأمر. يمكن أن يظهر هذا النسيان في أي مكان.

ذات مرة، اقترحت على فريدريك الذي يعمل في مؤسسة «دام» أن ينشروا كتابًا فيه قصص قصيرة نرويجية. وفي رسالته الإلكترونية التالية، تابع الرجل الحديث من غير إشارة مباشرة إلى تلك الفكرة، ولم أفهم أبدًا ما كان يتحدّث عنه. اختفى الأمر من ذهني تمامًا. هنالك كتّاب يخبرونني عما يكتبون وعن مواضيع شغفهم واهتمامهم الشديد؛ وأنا أستجيب لما يقولون ونتحدث في ذلك نصف ساعة أو ساعة كاملة. وبعد بضعة أيام، يغيب كل شيء. لا أزال لا أعرف موضوع الأطروحة التي كتبتها أمي. عند نقطة معينة، لا تعود قادرًا على السؤال عن الأمر من غير أن تكون في ذلك إساءة كبيرة، صحيح... وهكذا فإني أتظاهر. أجلس هناك فأومئ برأسي وأبتسم وأتساءل من جديد عمّا كانه ذلك الأمر. هكذا هي الحال في نواحي الحياة كلها. قد تظن السبب هو أنني لست مهتمًا إلى الحد الكافي، أو أنني لست حاضرًا إلى الحد الكافي، لكن هذا غير صحيح، لأنني مهتم ولأنني حاضر الذهن. رغم ذلك، بووف! لا شيء! أما إنغفه فيستطيع تذكر كل شيء. كل شيء! ليندا تتذكر كل شيء، وأنت تتذكر كل شيء. ومع هذا، وحتى يزداد الأمر تعقيدًا، هنالك أشياء لم تُقَل أبدًا، أو لم تحدث أبدًا، لكني واثق من أنها قيلت فعلًا أو حدثت فعلًا. ثوريه إيريك مرة أخرى: هل تذكر عندما قابلت هنريك هوفلاند في بيسكوبس آرنو؟».

«طبعًا».

«اتضح وقتها أنه من مزرعة شديدة القرب من بلدة ثوريه إيريك. كان يعرفهم جيدًا، وقد تحدثنا قليلًا عن والد ثوريه إيريك. وعند ذلك قلت له إن والد ثوريه إيريك قد مات. قال هنريد هوفلاند: أوه! لم يسمع بالأمر قبل ذلك. لكن صلته بالمنطقة لم تعد نشطة في ذلك الوقت، هكذا قال لي. إلّا أنه فوجئ بالخبر تمامًا. لم يساوره أي شك في ما قلته. لماذا أقول إن والد ثوريه إيريك مات إذا لم يكن قد مات فعلًا؟ لكنه لم يكن ميتًا. وعندما رأيت ثوريه إيريك بعد ذلك، تحدث عن أبيه بطريقة يتضح منها أنه ليس ميتًا. تحدث عنه من غير أي حزن. لقد كان الرجل حيًا، فما الذي جعلني أظن

أن الرجل قد مات؟ هل يكفيني أن أزعم لنفسي بأن الأمر حقيقي؟ لست أدري. لا فكرة عندي أبدًا. لكن النتيجة هي أنني كنت أتوتر كلما قابلت ثوريه إيريك بعد ذلك، فماذا لو صادفه هنريك هوفلاند في مكان ما وقدم له تعازيه. سينظر إليه ثوريه إيريك حائرًا ويسأله عما يقوله. نعم، والدك، لقد توفي بشكل مفاجئ، أليس كذلك؟ أبي، من أين أتيت بهذا الكلام؟ أوه، كناوسغارد قال لي هذا...! لن يصدق أحد أنني قلت ذلك عن طريق الخطأ وأنني كنت أصدّق ما قلته، فلماذا أصدقه أصلًا؟ لم يقل لي أحد ذلك الخبر، ولم يمت والد شخص آخر من معارفي حتى تكون هنالك إمكانية لأن أخلط بين واحد وآخر. كان الأمر خيالًا محضًا، لكني ظننته حقيقة. حدث هذا عدة مرات، لكن ليس لأنني مصاب بحالة من الكذب المرَضي بل لأنني أصدق فعلًا ما أقوله. يعلم الرب وحده كم مرة صدقت أشياء واعتبرتها حقائق لكنها لم تكن إلّا كلامًا فارغًا!».

قال: «أمر حسن أنني متمسك بكذبة واحدة أتحدث عنها طيلة الوقت. وبهذه الطريقة أكون واثقًا دائمًا من أنك لا تستطيع أن ترتكب تلك الأغلاط معي».

سألته: «هل أنت واثق حقًا؟ متى تحدثت مع أبيك آخر مرة؟».

«ها ها».

تابعت كلامي: «إنه نوع من الإعاقة. شيء يشبه قصر النظر. انظر هناك، هل هذا شخص؟ أم شجرة صغيرة؟ أووف، لقد اصطدمت بشيء. طاولة. آها، إنه مطعم! ابق قريبًا من الجدار حتى تبلغ البار. أووف! شيء طري؟ هل هذا شخص؟ آسف، هل تعرفني؟ كنوت آريلد! أوه، خراء! لم أعرفك للوهلة الأولى... الفكرة المخيفة التي يطرحها هذا كله هي أن كل شخص لديه إعاقات من هذا النوع. إنها الثقوب السوداء السرية الخاصة في داخلهم، الثقوب التي ينفقون قدرًا كبيرًا من الطاقة محاولين إخفاءها. العالم مليء بالمعاقين داخليًا، يصطدم واحدهم بالآخر. نعم، خلف الوجوه التي نقابلها كلها، الوجوه الجذابة والوجوه الأقل جاذبية، رغم أنها تبدو طبيعية غير

مخيفة. ليست هذه حقيقة نفسانية أو روحانية، لكنها حقيقة يُظهرها التفرّس في الوجوه على نحو واعٍ مدرك. عيوب في الأفكار، وعيوب في الضمائر، وعيوب في الذاكرة، وعيوب في المفاهيم، وعيوب في الفهم!».

قال غيير: «لكن الأمر هكذا! ها ها ها! هكذا هو الأمر! انظر من حولك يا رجل! استيقظ يا رجل! كم عدد حالات قصور الفهم الموجودة هنا فقط؟ لماذا تظن أننا وضعنا صيغًا وقواعد لكل شيء نفعله؟ صيغ للكلام والخطاب والمحاضرات وتقديم الطعام والشراب والمشي والجلوس، وحتى للجنس. هنالك صيغ لكل ما يخطر في بالك. ولماذا تظن الناس مهتمين بالوصول إلى كل ما يُعد طبيعيًا إن لم يكن لهذا السبب؟ إن هذه الحالة الطبيعية، أو المقبولة، أو المعيارية، هي ما يجعلنا واثقين من قدرتنا على اللقاء في نقطة ما. لكننا لا نلتقي، رغم ذلك. لقد وصف آرنِه ناسْ ذات مرة كيف يبذل جهدًا خارقًا لكي يكون عاديًا، طبيعيًا، كلما كان عليه أن يلتقي شخصًا عاديًا، بينما يبذل ذلك الشخص العادي كل جهد يستطيعه للوصول إلى آرنِه ناسْ. لكن ناسْ يقول إنهما لا يلتقيان، رغم ذلك، لأن الهوة بينهما تظل كبيرة لا سبيل إلى تجاوزها. إنها قابلة للتجاوز رسميًا، أو معياريًا... نعم، لكن ليس في الحقيقة».

«ألم يكن آرنِه ناسْ هو من قال أيضًا إنه مستعد للقفز بالمظلة في أي مكان من هذا الكوكب عارفًا أنه سيُستقبل بالترحاب؟... ويحظى بطعام وفراش في أي مكان».

«نعم، إنه هو، كتبت ذلك في مكان ما من أطروحتي».

«لا بد أنني قرأته هناك. العالم صغير».

قال غيير مبتسمًا: «العالم صغير، عالمنا على الأقل. لكن آرنِه ناسْ محق تمامًا. هكذا تقول تجربتي أيضًا. هنالك حد أدنى من الإحساس البشري المشترك الذي تراه في كل مكان. هكذا كان الوضع في بغداد، إلى حد كبير».

جاءت غيلدا من خلفه سائرة بحذائها المنخفض الكعبين وفستانها الصيفي المزهَّر.

قالت: «مرحبًا كارل أوفه، كيف حالك؟».
قلت: «مرحبًا غيلدا. أنا بخير. ما أخبارك أنت؟».
«جيدة. تعرف أنني أعمل كثيرًا هذه الأيام. كيف هي الأمور في البيت، مع ليندا وطفلتكما الصغيرة؟ كم هو سريع مرور الوقت منذ آخر مرة تحدثنا معًا! هل هي بخير؟ هل تسير أحوالها على ما يرام؟».
«نعم، هي بخير. ومنشغلة بالدراسة حاليًا. وأنا منشغل بفانيا».
«وكيف ترى هذا؟».
رفعت كتفي وقلت: «لا بأس».
«في الحقيقة، إنني أتساءل عن هذا أيضًا. كيف تكون الحياة مع طفل. أظن أن الأطفال شيء مزعج قليلًا. البطن الضخم، والحليب في الصدر، هذا يقلقني، إن أردت الحقيقة. لكني أظن ليندا سعيدة!».
«أوه، إنها سعيدة».
«لا بأس الآن. سلّم لي عليها. سوف أتصل بها ذات يوم. قل لها هذا!».
«سوف أخبرها. سلمي على كيتيل!».
رفعت يدها بالتحية واستدارت عائدة إلى مكانها.
قلت لغيير: «لقد اجتازت امتحان قيادة السيارة منذ فترة بسيطة. هل أخبرتك بهذا؟ عندما قادت السيارة وحدها أول مرة، كانت أمامها شاحنة على الطريق، وكان هنالك مساران يندمجان في مسار واحد بعد قليل فظنت أن لديها وقت لتجاوز الشاحنة. زادت السرعة وبدأت التجاوز لكنها رأت أن الأمر غير ممكن. اصطدمت سيارتها بالحاجز على حافة الطريق ثم انتهى بها الأمر بأن انقلبت على جانبها وانزلقت بضع مئات من الأمتار. لكنها لم تصب بأي أذى».
قال غيير: «ستعيش حتى تصير عجوزًا».
جاءت النادلة لتأخذ الكؤوس الفارغة فطلبنا كأسين جديدتين. جلسنا صامتين بعض الوقت. دخنت سيجارة وجمعت الرماد في كومة صغيرة في وسط صحن السجائر اللامع.

قلت: «أنا من يدفع الحساب اليوم؛ فقط حتى تعرف».

قال غيير: «لا بأس».

لو لم أقل مباشرة إنني سأدفع الفاتورة، لدفعها هو. وعندما يقرر دفعها يصير تغيير رأيه مستحيلًا. كنا معًا ذات مرة، نحن الأربعة، غيير وكريستينا وليندا وأنا، ذهبنا إلى مطعم تايلاندي في آخر شارع بيرغريارلسغاتان. قال غيير إنه سيدفع الفاتورة، لكني اعترضت وقلت إن علينا أن نتقاسمها، على الأقل. رفض ذلك وقال إنه سيدفعها هو. أتت النادلة وأخذت بطاقته المصرفية فأخرجت نقودي ووضعت نصف المبلغ على الطاولة أمامه. لم يأخذ المال، بل لم يبدُ عليه حتى أنه رآه. جاءت القهوة فشربناها. وعندما نهضنا لنذهب بعد عشر دقائق من ذلك، كانت النقود لا تزال في مكانها... لم يمسها غيير. قلت له: «غيير، خذ النقود. إننا نتقاسم الدفع. هيا يا غيير». أجابني: «لا. أنا دفعت الفاتورة. أما هذا فمالك أنت. خذه». ما عاد لديّ خيار غير أن آخذ النقود وأعيدها إلى جيبي. لو لم أفعل ذلك لظلت النقود على الطاولة؛ أنا واثق من هذا. وعند ذلك ابتسم ابتسامته المزعجة التي تقول «كنت أعرف أنك ستأخذها». ندمت لأنني لم أدفع تلك الفاتورة. يمكنني التضحية بكل شيء حتى لا أفقد ماء وجهي أمام غيير. أما كريستينا التي كانت حساسة إلى حد لا يصدق وكان وجهها يفضح أفكارها فقد بدا عليها الخجل من سلوكه؛ أو أنها وجدت الوضع محرجًا على أقل تقدير. لم أدخل أبدًا في مواجهة مفتوحة مع غيير. ولعل في هذا حكمة لأن لدى غيير شيء لا أستطيع هزيمته فيه أبدًا. لو جرت بيننا تلك المباراة حيث يحدق كل واحد في عيني الآخر، مثلما كنا نفعل عندما كنا صغارًا لكان قادرًا على مواصلة التحديق في عينيَّ أسبوعًا كاملًا إن لزم الأمر. كنت سأواصل التحديق في عينيه، لكني كنت سأقول بعد قليل إن هذا أمر لا حاجة إليه، وسأخفض عينَي. أما غيير، فلا يمكن أن تخطر له هذه الفكرة أبدًا.

قلت: «كيف كان نهارك؟».

قال: «كنت اليوم أكتب عن 'الحالات الحَدية'. وإذا شئت الدقة، فقد

كنت أكتب عن ستوكهولم في القرن الثامن عشر. كم كان منسوب الأخلاق لديهم مرتفعًا، وكم كانت أعمارهم قصيرة، وما كانوا يفعلونه بتلك الأعمار بالمقارنة مع ما يحدث الآن. وعند ذلك أتت سيسيليا إلى مكتبي. كانت تريد الحديث معي. ذهبنا لتناول الغداء معًا. لقد سهرت بالأمس مع شريكها وصديقه. قالت إنها غازلت صديقه طيلة الأمسية. وعندما عادا إلى البيت كان شريكها غاضبًا بالطبع».

«كم مضى على علاقتهما؟».

«ست سنين».

«هل كانت تفكر في تركه؟».

«لا، على الإطلاق. بل على العكس تمامًا. إنها تريد أطفالًا منه».

سألته: «ولماذا غازلت صديقه؟».

نظر غيير إليّ وقال: «من الواضح أنها تريد الجمع بين الاثنين».

«وماذا قلت لها؟ أظنها أرادت منك نصيحة».

«قلت لها إن عليها أن تنكر الأمر كله. أن تنكر كل شيء. لم تغازل صديقه بل كانت تحاول أن تبدو لطيفة فقط. قولي لا، لا، لا. وفي المرة القادمة، لا تكوني غبية إلى هذا الحد. انتظري إلى أن تسنح لك فرصة مناسبة فافعلي ما تريدين بهدوء ورباطة جأش. لست ألومها على ما فعلت، بل على تهوّرها، وعلى عدم مراعاتها. لقد جرحَته. كان هذا أمرًا لا مبرر له».

«أظن أنها كانت تعرف أنك ستقول لها هذا الكلام، وإلّا لما ذهبت إليك».

«أتفق معك. أما لو ذهبت إليك، فسوف تنصحها بأن تعترف بكل شيء وأن تركع أمامه على ركبتيها طالبة منه الصفح، ثم تظل مخلصة لزوجها منذ تلك اللحظة فصاعدًا».

«نعم. إما أن تفعل ذلك أو تتركه».

«أسوأ ما في الأمر هو أنك تعني ما تقول».

«بالطبع، أعني ما أقول. كانت السنة التي عشتها بعد عدم إخلاصي

لتونجه وعدم قولي شيئًا عن ذلك أسوأ سنة في حياتي كلها. كانت أسوأ ليل. كانت ليلًا طويلًا فظيعًا لا نهاية له. كنت أفكر في الأمر طيلة الوقت. كنت أقفز مذعورًا كلما رنّ جرس الهاتف. وإذا ذُكر تعبير الخيانة الزوجية في التلفزيون فإنني أحمرّ من رأسي إلى قدمي. كانت النار مشتعلة في داخلي. كنت أتجنب بحذر شديد أن نستأجر أفلامًا فيها أي شيء له علاقة بهذا لأنني كنت أعرف أن تونجه ستلاحظ، عاجلًا أو آجلًا، أنني أرتبك وأتلوّى كالدودة كلما طُرح هذا الموضوع. لقد دمرتْ حقيقة أنني مذنب كل شيء آخر في حياتي، وما عدت قادرًا على قول شيء بصدق كامل... كان كل ما أقوله كذبًا وتظاهرًا. كان ذلك كابوسًا».

«لو حدث ذلك الآن، فهل تعترف؟».

«نعم».

«وماذا عما جرى في غوتلاند؟».

«لم يكن ذلك خيانة».

«لكنها تعذّبك حتى الآن!».

«صحيح، لا تزال تعذّبني».

«لم تكن سيسيليا غير وفية. لم تفعل شيئًا. فلماذا يتعين عليها إخبار شريكها عما كان يدور في ذهنها؟».

«ليس هذا جوهر الأمر. إنه متعلق بالنية. إن كانت النية موجودة لديك فعليك أن تتحمل العواقب».

«وماذا عن نواياك في غوتلاند؟».

«لقد كنت ثملًا! ولو كنت صاحيًا لما فعلت شيئًا».

«لكن، ألم تكن لتفكر في الأمر إن كنت صاحيًا؟».

«ربما، لكن الأمر مختلف اختلافًا ضخمًا، رغم ذلك».

«إن توني كاثوليكي، كما تعلم. لقد قال له القس ذات مرة، أنا أذكر هذا، إن الخطيئة هي أن تضع نفسك في وضع تصير معه الخطيئة أمرًا محتمل الحدوث. الخطيئة هي السُّكْر عندما تدرك ما يجول في رأسك وكم هو

الضغط في داخلك. ليست الخطيئة غير أن تضع نفسك في وضع من هذا النوع، أن تجعل حدوث الخطيئة ممكنًا».

«هذا صحيح، لكني كنت أظن أنني آمن تمامًا قبل أن أبدأ الشرب».

«ها ها ها!».

«هذه هي الحقيقة».

«كارل أوفه، ما فعلته لم يكن شيئًا. إنه شيء لا أهمية له أبدًا. يستطيع كل شخص أن يفهم هذا، كل شخص. ماذا فعلت في الواقع؟ هل قرعت بابًا؟».

«نعم، لمدة نصف ساعة، في منتصف الليل».

«لكنها لم تسمح لك بالدخول، أليس كذلك؟».

«لا، لا. فتحت الباب وأعطتني زجاجة من الماء، ثم أغلقته من جديد».

«ها ها ها! وهذا ما جعلك تجلس مرتعشًا ممتقع الوجه عندما رأيتك. بدوت كأنك قتلت شخصًا ما».

«هكذا كان إحساسي».

«لكن ما حدث في حقيقة الأمر لم يكن شيئًا، أليس هذا صحيحًا؟».

«ممكن. لكني لا أستطيع أن أسامح نفسي. هكذا سيظل الأمر إلى أن يأتي يوم مماتي. لديّ قائمة طويلة من الأشياء التي أفعلها عندما يكون سلوكي غير حسن، هذا هو جوهر الفكرة. بحق الرب... لا يجوز أن يكون المرء غشاشًا أو مخادعًا. قد يظن المرء أن التمسك بهذا المثال أمر سهل. أقول هذا لأنه سهل عند بعض الناس. أعرف بعض الأشخاص، وهم ليسوا كثيرين. لكنهم يفعلون الشيء الصحيح دائمًا. إنهم جيدون دائمًا، أشخاص محترَمون. لست أتحدث عمن لا يفعلون شيئًا خاطئًا لأنهم لا يفعلون شيئًا أبدًا، ولأنهم يعيشون حياة هامشية تافهة ليس فيها ما يمكن تخريبه، لأن هؤلاء الناس موجودون أيضًا! إنني أتحدث عن أولئك الأشخاص المنصفين إلى آخر ذرة من وجودهم، عن الذين يعرفون دائمًا أقوَمَ سبيل للتصرف في كل حالة. أولئك الذين لا يضعون أنفسهم في المقدمة، الذين لا يخونون مبادئهم. أنت تعرف بعضهم أيضًا. إنهم أشخاص جيدون حتى

أعماقهم، أليس ما أقوله صحيحًا؟ لن يفهم هؤلاء ما أتحدث عنه الآن. لن يفهموا ما أتحدث عنه الآن تحديدًا لأنه ليس مما يفكرون فيه. إنهم لا يفكرون بهذه الطريقة ولا يقولون لأنفسهم إن عليهم أن يكونوا أشخاصًا صالحين... إنهم هكذا فحسب، وهم لا يدركون ذلك. يهتمون بأصدقائهم ويراعون شركاءهم، ويكونون طيبين تجاه أبنائهم وبناتهم، لكن ليس بطريقة أنثوية بل إنهم يقومون بالعمل جيدًا طيلة الوقت ولا يريدون إلّا ما هو جيد ولا يفعلون إلّا ما هو جيد. أشخاص جيدون. ابن عمي جون أولاف، مثلًا، أنت تعرفه».

«نعم، لقد التقيته ذات مرة».

لقد كان شخصًا مثاليًا على الدوام، لكن ليس لكي يحقّق شيئًا لنفسه. لا يتأخر أبدًا عن مساعدة أي شخص في حاجة إلى مساعدة منه. وهو خالٍ من أي شيء فاسد مهما يكن صغيرًا. يصح الأمر نفسه على هانز. استقامته... نعم، هذه هي الكلمة التي أبحث عنها. الاستقامة. إن كنت مستقيمًا فإنك تفعل الشيء الصحيح. ليس لديّ إلّا القليل من الاستقامة. وهنالك دائمًا شيء ما، نعم، ليس شيئًا مريضًا على وجه التحديد، لكنه شيء وضيع، شيء متزلّف زاحف يقطر من سلوكي. إذا وجدت نفسي في وضع يتطلّب حصافة وتعقلًا، حيث يعرف كل شخص أن التعقل ضروري، فإن من الممكن أن أندفع من غير تفكير... صحيح، لماذا؟ لأنني لا أفكر إلّا في نفسي، ولا أرى إلّا نفسي، لأن أنانيتي تغرقني. يمكنني أن أكون جيدًا مع الآخرين، لكني في حاجة إلى الاستعداد للأمر أولًا. إنه ليس في دمي. إنه ليس جزءًا من طبيعتي».

«وأين تضعني ضمن هذا النظام الذي تتحدث عنه؟».

«أنت؟».

«نعم، أنا».

«أوه، أنت شخص يرى أن الناس لا يفعلون شيئًا إلّا انطلاقًا من مصالحهم الذاتية. أنت طموح، ومعجب بنفسك. لعلك أكثر من أعرفهم

إعجابا بنفسه. أعرف أنك لا يمكن أبدًا أن تفعل شيئًا مخزيًا على نحو ظاهر صريح، بل إنك تفضّل أن تجوع وتعيش في الشارع قبل أن تفعل ذلك. أنت مخلص لأصدقائك. وأنا أثق بك ثقة عمياء. لكنك، في الوقت نفسه، شديد الاهتمام بنفسك وقادر على أن تكون عديم الشفقة تجاه الآخرين إذا كان لديك شيء ضدهم، لسبب أو لآخر، أو إذا فعلوا لك شيئًا، أو إذا رأيت أنك تكسب من ذلك شيئًا أكثر أهمية منهم. أليس هذا صحيحًا؟».

«نعم، لكني مهتم دائمًا بمن أحبهم وشديد المراعاة لهم. حقًا. قد يكون استخدام تعبير 'شديد التدقيق' أكثر صحة هنا. هنالك فارق هام في حقيقة الأمر».

«فلأقل إنك شديد التدقيق. لكني دعني أذكر مثالًا واحدًا. لقد عشت مع 'الدروع البشرية' وسافرت معهم من تركيا، وشاركتهم كل شيء في بغداد. صار بعضهم من أصدقائك. لقد كانوا هناك نتيجة قناعاتهم التي لم تكن تشاركهم إياها، لكنهم لم يكونوا على علم بذلك».

قال غيير مبتسمًا: «كانت لديهم شكوكهم».

«ثم جاء مشاة البحرية الأميركية فودعت أصدقائك، ببساطة هكذا، وذهبت إلى أعدائهم من غير إلقاء نظرة واحدة إلى الخلف. لقد خنتهم. لا أجد طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. لكنك لم تخن نفسك. إنني أضعك في مكان ما بين الأمرين. إنه مكان حر مستقل، لكن ثمن الوصول إليه ليس قليلًا. كان الناس يتساقطون من حولك كالبيادق. ليس هذا شيئًا أستطيع احتماله. يبدأ الضغط الاجتماعي من كل الجهات فأنهض من كرسي مكتبي وأصير في الشارع فأكون مقيَّدًا من كل ناحية. لا أكاد أستطيع الحركة. ها ها ها! لكن هذا صحيح. في جوهر الأمر ولا أظنك فهمت هذا ليس الأمر نابعًا من القداسة أو الأخلاق الرفيعة، بل من الجبن. إنه الجبن ولا شيء غيره. ألا تظنني راغبًا في قطع ما يربطني بكل إنسان. وفي فعل ما أريد، لا ما يريده الآخرون؟».

«نعم، أظن هذا».

«وهل تظنني أفعله؟».

«لا، لن تفعله».

«أنت حر. وأنا لست حرًا. الأمر بسيط إلى هذه الدرجة».

قال غيير: «لا، إنه ليس بسيطًا، ليس بسيطًا على الإطلاق. قد تكون عالقًا في ضغوط اجتماعية؛ وهذا ما يبدو غريبًا بعض الشيء لأنك لا تكاد ترى أحدًا. لكني أفهم ما تعنيه، وأنت على حق... إنك تحاول إدخال الجميع في الحساب، في وقت واحد. رأيت هذا بعينيَّ هاتين، رأيت كيف تجري طيلة الوقت عندما نكون مدعوين إلى الطعام في بيتك. لكن هنالك طرق كثيرة يمكن أن تجعل المرء عالقًا، وهنالك طرق كثيرة لأن لا يكون المرء حرًا. عليك أن تتذكر دائمًا أن لديك كل ما رغبت فيه. وقد انتقمت ممن أردت الانتقام منهم. إن لك مكانتك. ينتظر الناس ما تفعله ويلوّحون لك بسعف النخيل عندما يرون وجهك. يمكن أن تكتب مقالة عن شيء ما، عن شيء يثير اهتمامك، وسوف تظهر تلك المقالة مطبوعة بعد بضعة أيام في أي صحيفة يقع اختيارك عليها. يتصل الناس بك ويطلبون منك أن تذهب إلى هنا وإلى هناك. تسألك الصحف عن تعليقاتك على هذا الشيء أو ذاك. وسوف تصدر كتبك في ألمانيا وفي إنكلترا. هل تدرك الحرية الموجودة في هذا كله؟ هل تدرك ما هو مفتوح أمامك في الحياة؟ تحدثني عن التوق إلى إفلات كل شيء، وإلى السقوط. أما أنا إذا أفلتُّ كل شيء، فإنني أجد نفسي واقفًا في المكان نفسه. أنا واقف في القعر تمامًا. لا يبدي أحد اهتمامًا بما أكتبه. ولا يهتم أحد بما أفكر فيه. لا يدعوني أحد إلى أي مكان. عليَّ أن أشق طريقي بالقوة؛ صحيح؟ كلما دخلت مكانًا مليئًا بالناس يكون عليَّ أن أثير اهتمامهم بطريقة ما. لست موجودًا قبل دخولي، مثلما أنت موجود؛ ولست أملك الاسم... عليّ أن أخلق كل شيء من الصفر، كل مرة. إنني جالس في قعر حفرة في الأرض أصرخ في مكبّر الصوت. ليس ما أقوله مهمًا لأن ما من أحد يصغي إلى ما أقول. وأنت تعرف أن ما أقوله وأنا في الخارج يحتوي انتقادًا لما هو في الداخل. وبالتالي، فإن هذا يجعلني شخصًا متعنّت الرأي،

بالتعريف. أكون من ذلك النمط النكِد، دائم الشكوى، المشبَع مرارة. وتمر السنين. سوف أبلغ الأربعين عمّا قريب، وليس لديّ أي شيء مما أردتُ تحقيقه. أنت تقول إن ما كتبتُه فريد ولامع، وقد يكون كذلك، لكن... ما فائدة هذا؟ لديك كل ما تريد، ويمكنك التصرف به مثلما تشاء: يمكنك تركه، ويمكنك عدم استخدامه. أما أنا فلا أستطيع. عليّ أن أكون في الداخل أولًا. أمضيت عشرين سنة وأنا أحاول ذلك. لن ينتهي الكتاب الذي أشتغل عليه الآن قبل ثلاث سنوات على الأقل. ويمكنني أن أحس منذ الآن كيف يفقد العالم من حولي ثقته بي، وبالتالي يفقد اهتمامه أيضًا. أتحوّل، أكثر فأكثر، إلى شيء يشبه شخصًا مجنونًا يرفض أن يتخلى عن مشروعه المجنون. ينظر الناس إلى كل ما أقوله انطلاقًا من ذلك، هكذا يجري القياس. عندما أقول شيئًا بعد حصولي على الدكتوراه. يُقاس ذلك الشيء بالدكتوراه... كانت الحال كذلك عندما كنت لا أزال حيًا من الناحية الأكاديمية والعقلية، لكني ميت الآن! كلما انقضى وقت أطول، كلما كان على الكتاب التالي أن يكون أفضل. لا يكفي أن يكون الكتاب الثاني مقبولًا، لا يكفي أن يكون مقبولًا حقًا، ولا حتى جيدًا جدًا، لأني أنفقت فيه زمنًا طويلًا، ولأني أكاد أبلغ الأربعين... لأني صرت - إذا تكلمنا بطريقة نسبية - متقدمًا بشكل يجعل من الضروري أن يكون الكتاب متميزًا. من هذا المنظور، فأنا لست حرًا. وحتى أربط هذا بما كنا نتحدث عنه من قبل، فإنني أعيش حياة مزدوجة على غرار ذلك المثال الفيكتوري الذي لم يكن مثالًا بل حقيقة واقعة. وهنا يكمن الحزن أيضًا لأن تلك الحياة لا يمكن أن تكون كاملة. بالطبع، إنها الحياة التي يحلم بها الجميع: حب واحد، أو الوقوع في حب شخص ما، عندما يغيب كل حساب وكل انتقاد، وعندما يصير كل شيء كلًا كاملًا. نعم، أنت تعرف هذا. الرومانسية. الحياة المزدوجة حل مقبول لمشكلة، لكنها ليست من غير مشكلات إن كنت تظن أن هذا ما أفكر فيه. إن هذا شيء عملي، نفعي، موقت... بكلمات أخرى، إنه جزء من الحياة. لكنها ليست حياة كاملة، وليست حياة مثالية أيضًا. الفارق الأكثر أهمية بيننا لا يكمن في

أنني حر وفي أنك لست حرًا؛ لأنني لا أرى الأمر هكذا. الفارق الأكثر أهمية هو أنني روح فرحة سعيدة. أما أنت فلست كذلك».

«لا أظنني غير سعيد إلى تلك...».

«بالضبط! غير سعيد. أنت فقط من يستطيع استخدام كلمة كهذه! إنها تقول كل شيء عنك».

«غير سعيد تعبير جيد. لقد رأيته في القصة الملحمية النرويجية القديمة 'هيمسكرينغلا'. هذه هي الحقيقة. ثم إن عمر ترجمة ستورم يبلغ الآن مئة عام. لكن... ربما حان وقت تغيير موضوع الحديث!».

«لو قلت هذا قبل سنتين لفهمتك».

«لا بأس! يمكنني الاستمرار. بعد أن انتهى كل شيء مع تونجه. ذهبت إلى جزيرة وعشت فيها شهرين. لقد ذهبت إليها قبل ذلك، وما كان عليّ إلّا أن أتصل هاتفيًا فيصير كل شيء جاهزًا. بيت، وجزيرة صغيرة في البحر، وثلاثة أشخاص يعيشون هناك. كان ذلك في آخر الشتاء؛ أي أن الجزيرة كلها كانت متجمّدة، متيبّسة. كنت أسير في تلك الجزيرة وأفكر. ما كنت أفكر فيه هو أنه سيكون علي فعلُ أي شيء أستطيعه حتى أصير شخصًا جيدًا. يجب أن يكون كل ما أفعله متجهًا إلى تلك الغاية. لكن ليس بالطريقة الخسيسة المخاتلة التي اتسم بها سلوكي حتى ذلك الوقت... أنت تعرف هذا، تعرف كيف يغمرني الخجل والإحساس بالعار إزاء أتفه شيء. الخزي الكامن في هذا! لا، كانت هنالك أيضًا شجاعة وصلابة في الصورة الجديدة التي كنت أرسمها لنفسي. النظر مباشرة في عيون الآخرين، وقول ما أنا مقتنع به. كنت قد صرت منحني القامة، أكثر فأكثر، صرت منطويًا على نفسي كما لو أنني أريد احتلال حيز أقل فأقل. وعلى الجزيرة، بدأت أشد ظهري وأنصب قامتي، بالمعنى الحرفي تمامًا. لست أمزح. قرأت مذكرات هوغ في ذلك الوقت. قرأت صفحاتها الثلاثة آلاف كلها. كان ذلك عزاء كبيرًا لنفسي».

«لقد مر هوغ بأوقات أكثر سوءًا، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، لكن القضية ليست هنا. كان يكافح من غير هوادة من أجل

الشيء نفسه، من أجل المثال الذي يتعين عليه أن يكونه، وذلك بالمقارنة مع الأشخاص الذين كان يراهم. كان لديه تصميم استثنائي على القتال. وذلك في رجل لم يكن يفعل شيئًا في حقيقة الأمر، لم يكن يعيش أي شيء في حقيقة الأمر. يكتب فقط ويقرأ ويخوض صراعه الداخلي في مزرعة غبية صغيرة تقع عند فيورد غبي صغير في بلد غبي صغير على هامش العالم».

«لا عجب في أنه كان ميّالًا إلى أن يجن جنونًا كاملًا».

«يتولد لديك انطباع بأن هذا كان مصدر راحة أيضًا. كان يستسلم، وكان جزء من سرعته في الخروج عن سواء السبيل نابعًا من سعادته. بهذا كان يفلت من القبضة الحديدية على نفسه ويسترخي. هكذا يبدو».

قال غيير: «السؤال هو ما إذا كان ذلك هو الرب، إحساس المرء بأنه مراقب وبأنه مضطر للركوع على ركبتيه أمام ما هو قادر على رؤيته. كل ما في الأمر هو أننا نطلق عليه أسماء مختلفة. الأنا العليا، أو الإحساس بالعار، أو مهما يكن. هذا ما يجعل حقيقة وجود الرب عند بعض الناس أكثر قوة منها عند بعضهم الآخر».

«وهكذا يكون ما يدعوك إلى تسليم نفسك إلى مشاعر وضيعة وإلى التمرغ في الملاذات والخطايا هو الشيطان؟».

«هكذا بالضبط».

لا يجذبني هذا أبدًا... إلّا عندما أشرب! عند ذلك تتساقط الأشياء وتضيع. ما أريد فعله هو السفر والقراءة والكتابة. أريد أن أكون حرًا. أريد أن أكون حرًا تمامًا. وقد حظيت بفرصة الحرية على تلك الجزيرة لأن علاقتي بتونجه كانت قد انتهت. كنت قادرًا على السفر حيث أريد. طوكيو، بوينس آيرس، ميونخ. لكني ذهبت إلى الجزيرة بدلًا من ذلك، ذهبت إلى حيث لا يوجد أحد. لم أكن أفهم نفسي، ولم تكن عندي فكرة عمّن كنته، وهكذا كان كل ما لجأت إليه هو كل ما لديّ، تلك الأفكار كلها عن أنني شخص جيّد هي كل ما لديّ... هكذا، بكل بساطة. لم أكن أشاهد التلفزيون، ولم أكن أقرأ الصحف، ولم أكن آكل إلّا الحساء والخبز الجاف، وعندما أريد

أن أدلّل نفسي هناك، كنت آكل فطائر السمك مع القرنبيط. البرتقال أيضًا. بدأت أمارس تمرينات رياضية. هل تتخيّل هذا؟ كم يمكن أن يبلغ بك اليأس قبل أن تبدأ أداء تمرينات رياضية حتى تحل مشكلاتك؟».

«يدور هذا كله حول فكرة النقاء، ولا شيء أقل من ذلك! النقاء ثم النقاء. الزهد. ألّا يفسدك التلفزيون، وألّا تفسدك الصحف، وأن تأكل أقل ما يمكن. هل كنت تشرب القهوة؟».

«نعم، كنت أشرب القهوة. لكن ما قلته عن النقاء صحيح. إن في هذا شيء يمكن أن يكون فاشيًا».

«لقد كتب هوغ أن هتلر كان رجلًا عظيمًا».

«لم يكن كبير السن آنذاك. لكن أسوأ ما في الأمر هو أنني قادر على فهمه: تلك الحاجة إلى تخليص نفسك من الأشياء المبتذلة كلها ومن مشاغل عقلك الصغيرة التي تتعفن في داخلك، والتوافه كلها، تلك التوافه التي يمكن أن تجعلك غاضبًا أو غير سعيد، ذلك ما يمكن أن يخلق داخلك رغبة في شيء نقيّ عظيم، توقًا إلى شيء تستطيع أن تذوب وتختفي فيه. إنه التخلص من الخراء كله، أليس الأمر هكذا؟ شعب واحد، دم واحد، أرض واحدة. الآن تحديدًا جرى دحض هذا كله مرة وإلى الأبد. لكني لا أجد مشكلة في فهم ما كان كامنًا خلفه. بالنظر إلى شدة حساسيتي للضغط الاجتماعي وشدة تأثري بآراء الآخرين فيّ، يعلم الرب وحده ماذا كان يمكن أن أفعل لو أنني عشت في الأربعينات».

«ها ها ها! استرخِ، أنت لا تفعل الآن ما يفعله الآخرون، وعلى الأرجح، فإنك ما كنت لتفعل ما يفعله الآخرون آنذاك».

«لكن كل شيء تغير عندما انتقلت إلى ستوكهولم ووقعت في حب ليندا. كان ذلك كأنني ارتفعت فوق الأشياء التافهة كلها وما عادت لها أي أهمية عندي، صار كل شيء جيدًا ولا مشاكل في أي مكان. لست أدري كيف أشرح هذا... كأن قوتي الداخلية كانت عظيمة إلى درجة جعلتها قادرة على سحق كل ما هو خارجها. كنت أحس أنني لا أقهر، هل تفهم؟ كنت

ممتلئًا نورًا. كان كل شيء نورًا! كنت قادرًا حتى على قراءة هولدرلين! كان زمنًا رائعًا إلى أقصى حد. لم أعرف سعادة أكبر في حياتي كلها. كنت أشتعل سعادة».

«أذكر هذا. كنت تسير في شارع باستوغاتان وتتوهج روحًا إيجابية. تكاد تكون مضيئًا. وكنت تعيد الاستماع إلى أغنيات مانو تشاو مرة بعد مرة. كان الكلام معك شبه مستحيل. كنت تفيض سعادة. تجلس في السرير كأنك زهرة لوتس حمقاء، تجلس مبتسمًا بوجهك كله».

«الفكرة هنا هي أن هذا كله متعلق بنظرتك إليه. إذا نظرت بطريقة معينة، فإن كل شيء يبدو سعيدًا. انظر بطريقة أخرى فلا ترى فيه إلّا حزنًا وبؤسًا. أتظنني كنت أبالي بكل التفاهات التي يحشون بها التلفزيون والصحف عندما كنت جالسًا هناك، عندما كنت سعيدًا. أتظنني كنت أحس خجلًا أو عارًا تجاه أي شيء؟ كنت أتقبّل كل شيء. وما كان يمكن أن أخسر أبدًا. هذا ما قلته لك عندما أصابك إحباط شديد جعلك تنسى نفسك... في الخريف الذي تلا ذلك. الأمر كله متعلق بمنظورك. لا يتغير في عالمك شيء أو يصير مشكلة ملحّة إلّا إذا رأيته أنت على هذا النحو. لكنك لم تصغِ إلى كلامي، بالطبع، بل ذهبت إلى العراق».

«آخر ما تريد سماعه عندما تكون في ظلمة الاكتئاب هو ثرثرة معتوه سعيد. لكني كنت سعيدًا عندما عدت. لقد أخرجني ذلك من اكتئابي».

«نعم، والآن انقلبت الأدوار من جديد. الآن، أنا جالس هنا أشكو تعاسة الحياة».

قال: «أظن أنه النظام الطبيعي للأمور. هل بدأت تمريناتك الرياضية من جديد؟».

«نعم».

ابتسم. ابتسمت أيضًا.

قلت له: «وماذا أفعل، بحق الجحيم؟».

خرجنا من بيليكان بعد ساعة من ذلك، وذهبنا بالمترو نفسه إلى سلوسن

حيث انتقل غيير إلى الخط الأحمر. وضع يده على كتفي وقال لي أن أنتبه لنفسي وأن أسلّم على ليندا وفانيا. استرخيت في مقعدي بعد ذهابه وتمنيت أن أكون قادرًا على الجلوس هناك ساعة بعد ساعة والسفر عبر الليل، لا كما هي الحال الآن لأن عليَّ أن أنزل في محطة هوتورغيت، أي بعد ثلاث محطات فقط».

كانت العربة شبه خالية. شاب يحمل صندوق غيتار على ظهره ويقف ممسكًا بالعمود عند الباب، نحيل مثل عود تنظيف الأسنان وله شعر أسود مموَّج منحدر تحت حافة قبعته. وعلى المقعد الذي في الخلف فتاتان في السادسة عشرة تقريبًا تُري كل منهما الأخرى رسائل نصية على هاتفها المحمول. وكهل في معطف أسود ووشاح أحمر بلون الصدأ وقبعة من تلك القبعات الرمادية الصوف شبه المربعة التي كانوا يستخدمونها في السبعينات؛ كان جالسًا في الجهة الأخرى. وقبالة ذلك الرجل امرأة قصيرة بدينة لها ملامح أميركية جنوبية. كانت في سترة منفوخة ضخمة وبنطلون أزرق داكن من الجينز الرخيص، وحذاء مستهلك على رقبته بطانة من الصوف الاصطناعي.

كنت قد نسيت أمر هاتفي إلى أن ذكّرني به غيير قبل أن يتركني. أعطاني هاتفه وقال إن عليّ أن أتصل بهاتفي. فعلت ذلك فلم يجبني أحد. اتفقنا على أن يكتب رسالة نصية تطلب من تلك المرأة الاتصال على رقم بيتي. سيرسلها بعد نصف ساعة، أي عندما أكون قد صرت في البيت.

ربما تظن تلك المرأة أن هذا شكل من أشكال التحرّش! ألن تفكر في أنني تعمّدت وضع هاتفي في حقيبتها حتى أتمكن من الاتصال بها في ما بعد؟

كانت محطة المترو المركزية غاصة بالناس. أكثرهم من الشباب، بضع جماعات صاخبة، وعدد من الأشخاص المنفردين الذين يضع بعضهم سماعات على أذنيه ويضع بعضهم الآخر حقائب رياضية بين قدميه.

هؤلاء جميعًا ينامون في بيوتهم، على الأرجح. أتتني هذه الفكرة من لا مكان؛ لسعتني.

هذه هي حياتي. هذه هي حياتي كما هي.

إن عليّ أن أجمع شتات نفسي، عليّ أن أتماسك.

مر قطار على السكة الموازية؛ ولبضع ثواني كنت أنظر في عربة تشبه حوض الأسماك فيها مسافرون جالسين غارقين في أفكارهم، ثم اندفعوا في طريقهم، أما نحن فدخلنا نفقًا حيث ما عدت أرى في النافذة شيئًا غير انعكاس العربة وصورة وجهي الفارغ من أي شيء.

وقفت واقتربت من الباب عندما تباطأ القطار. اجتزت الرصيف وأخذت السلم المتحرك الصاعد إلى تونيلغاتان. المرأة الثلاثينية الشقراء السمينة التي ظلت مجهولة عندي إلى أن حيّتها ليندا ذات مرة وقالت لي إنها كانت معها في بيسكوبس آرنو، كانت جالسة خلف شباك التذاكر. خفضت عينيها عندما التقت نظراتنا. قلت في نفسي إن هذا أفضل، ثم دفعت حاجز المَخرَج بفخذي وقفزت صاعدًا الدرجات الأخيرة.

كلما صعدت السلم الطويل المفضي إلى مالمسكيلنادسغاتان، يخطر في ذهني أن طريق عودتي إلى البيت هو، على الأرجح، المسار نفسه الذي جرى فيه قاتل أولاف بالمه هاربًا. أذكر تفاصيل ذلك اليوم كلها عندما أُعلن نبأ الجريمة. أذكر ما كنت أفعله وأذكر ما كنت أفكر فيه. حدث ذلك يوم سبت. كانت أمي مريضة، وكنت قد ذهبت إلى المدينة بالباص مع يان فيدار. كنا في السابعة عشرة. لو لم يحدث اغتيال أولاف بالمه، لاختفى ذلك اليوم من ذاكرتي مثلما اختفت بقية الأيام. الساعات كلها، والدقائق كلها، والأحاديث كلها، والأفكار كلها، والأحداث كلها، كانت ستسقط في حفرة النسيان مع كل شيء آخر. وعند ذلك، سيكون على القليل الباقي في الذاكرة أن يحل محل الكل. كم من السخرية في أن يكون السبب الوحيد لبقاء ذلك اليوم في ذاكرتي هو أنه مختلف عن بقية الأيام!

في مطعم «KGP»، كان بضعة رجال طويلي الشعر جالسين عند الواجهة يشربون. بدا المطعم خاليًا إلّا منهم. لكن، لعل الزحام في القبو هذا المساء.

مرت سيارتا تاكسي سوداوان مسرعتين في اتجاه مركز المدينة. طارت ندف الثلج عاليًا في دوامات صغيرة، ثم استقرت على وجهي بعد بضع

ثواني فصار مثل الطريق. عبرت الشارع، وجريت الأمتار الأخيرة حتى باب البناية، ثم دخلت. من حسن حظي، لم أرَ أحدًا في صالة المدخل ولا على السلم. كانت الشقة هادئة أيضًا.

خلعت معطفي وحذائي وسرت بهدوء عبر غرفة المعيشة، ثم فتحت باب غرفة النوم. فتحت ليندا عينيها ونظرت في تلك الظلمة الخفيفة. مدت ذراعيها في اتجاهي.

«هل كان مساؤك لطيفًا؟».

قلت وأنا أنحني لأقبلها: «نعم. وهل كل شيء على ما يرام هنا؟».

«ممم. اشتقنا إليك. هل ستنام الآن؟».

«سوف آكل شيئًا، ثم أذهب. لا بأس؟».

«لا بأس».

كانت فانيا مستلقية في سريرها رافعة مؤخرتها في الهواء دافنة وجهها في الوسادة، كعادتها. ابتسمتُ عندما مررت بها. شربت كأسًا من الماء في المطبخ ونظرت في البراد قليلًا قبل أن أُخرج منه الزبدة وعلبة شرائح اللحم. أخرجت الخبز من الخزانة التي إلى جانب البراد. وقبل أن أغلق باب الخزانة، ألقيت نظرة على الزجاجات في الرف العلوي. لم تكن تلك نظرة عابرة فحسب لأن الزجاجات كانت مصفوفة في غير مواقعها المعتادة. كانت زجاجة الأكوافيتا نصف المليئة التي بقيت من ليلة عيد الميلاد في مكان زجاجة الكلافادوس. أما زجاجة الغرابّا التي كانت في الخلف، فقد صارت الآن منزاحة إلى جانب زجاجة الجين الهولندي. لو كان هذا كل شيء لما فكرت في الأمر لحظة، ولما تذكرت أنني نظفت هذا الرف يوم السبت. لكني نظرت فبدت لي الزجاجات أقل امتلاء مما كانت. جاءني هذا الإحساس نفسه منذ أسبوع أيضًا، لكني لم أتوقف عنده. لا بد أننا شربنا أكثر مما أتذكره عندما كان لدينا ضيوف. أما الآن، فإن الزجاجات تبدو ناقصة، إضافة إلى أن مواقعها قد تغيرت.

وقفت برهة وأنا أدير الزجاجات المختلفة في يدي متسائلًا عما يمكن أن

يكون قد حدث. كانت زجاجة الغرابّا مليئة تقريبًا، أليس كذلك؟ لقد سكبت منها بنفسي ثلاث جرعات صغيرة بعد العشاء الذي أقمناه منذ بضعة أسابيع. أما الآن فقد انخفض منسوبها حتى اللصاقة التي في منتصفها. وزجاجة الأكوافيتا أيضًا: أنا واثق من أن ما فيها كان أكثر من هذا المقدار القليل الذي لا يكاد يغمر أسفلها! وزجاجة الكونياك... كان فيها أكثر من هذا أيضًا!

كانت هذه زجاجاتٌ آتي بها معي عندما أعود من السفر، أو تأتينا هدية من الأصدقاء. لم نكن نشرب منها أبدًا إلّا عندما نستقبل ضيوفًا.

أيمكن أن تكون ليندا هي من تشربها؟

هل تتناول جرعة عندما تكون وحدها هنا؟ هل تشرب خفية؟

لا، لا، لا، هذا مستحيل تمامًا. لم تشرب ليندا قطرة كحول واحدة منذ بداية حملها. ولا يمكن أن تمس هذه الزجاجات الآن لأنها ترضع فانيا.

هل كانت تكذب؟

ليندا؟ لا، هذا مستبعد تمامًا. لا يمكن أن أكون أعمى إلى هذه الدرجة!

أعدت الزجاجات إلى أماكنها، ووضعتها مثلما كانت تمامًا، في مواضع أستطيع تذكرها. حاولت أيضًا أن أحفظ المقدار الباقي في كل منها. ثم أغلقت باب الخزانة وجلست حتى آكل. لعل ذاكرتي تلعب معي ألعابًا. ولعلنا شربنا في الأسابيع الأخيرة أكثر مما قدّرت. لم أكن أعرف المقادير الباقية معرفة دقيقة. كما أن أماكن الزجاجات تغيرت عندما نظفت الخزانة يوم السبت. شيء طبيعي تمامًا ألا أتذكر ذلك. ألم يكن تولستوي هو من كتب عن هذا في مذكراته، بحسب ما قاله شيكلوفسكي؟ كتب عن عدم قدرة المرء على تذكر ما إذا كان قد أزال الغبار من غرفة المعيشة أم لا! إن كان قد فعل ذلك، فكيف فعله، وكم الزمن الذي استغرقه ذلك؟ أوه، أيتها الشكلانيات الروسية، أين أنت في حياتي؟

نهضت وهممت بتنظيف الطاولة وإعادة الأشياء إلى أماكنها عندما رن الهاتف في غرفة المعيشة. أطبق قبضة الخوف على صدري. لكني تذكرت رسالة غيير التي بعث بها إلى هاتفي. لا شيء يدعو إلى القلق.

أسرعت إلى الهاتف ورفعت السماعة.

قلت: «مرحبًا، أنا كارل أوفه».

ظل الشخص الذي على الطرف الآخر من الخط صامتًا بضع ثواني، ثم سمعت صوتًا يقول: «هل أنت الشخص الذي أضاع هاتفه المحمول؟».

كان ذلك صوت رجل وكانت لغته السويدية مكسّرة. صحيح أن نبرته لم تكن عدائية، إلّا أنها لم تكن ودية أيضًا.

«صحيح، إنه أنا، هل عثرت على هاتفي؟».

«لقد كان في حقيبة خطيبتي عندما عادت إلى البيت. هل يمكنك إخباري كيف انتهى به الأمر في حقيبتها؟».

انفتح باب غرفة النوم من خلفي. جاءت ليندا ونظرت إليّ نظرة قلقة. رفعت يدي وابتسمت.

«كان الهاتف في يدي على رصيف محطة رادمانسغاتان عندما اصطدم بي شخص من الخلف فأضعته. استدرت في اتجاه الرجل الذي صدمني ولم أرَ أين سقط هاتفي. لكني لم أسمع صوت اصطدامه بالأرض. وبعد ذلك رأيت امرأة تحمل حقيبة مفتوحة معلقة من ذراعها فخمنت أن هاتفي يمكن أن يكون قد سقط فيها».

«ولماذا لم تقل لها شيئًا؟ لماذا طلبت منها أن تتصل بك؟».

«وصل القطار في تلك اللحظة. ولم يكن لديّ وقت. ثم إنني لم أكن واثقًا من أن هاتفي قد سقط في تلك الحقيبة. لم أجد من المناسب أن أذهب إلى امرأة غريبة وأسألها إن كانت تسمح لي بالنظر في حقيبتها. لم أكن قادرًا على فعل هذا».

«هل أنت نرويجي؟».

«نعم».

«لا بأس. إنني أصدّقك. يمكنك استعادة هاتفك. أين تعيش؟».

«أعيش في مركز المدينة، ريغيرينغسغاتان».

«هل تعرف أين تقع بانيرغاتان؟».

«لا».

«أوسترمالم، شارع واحد بعد ستراندغاتان، تمامًا عند كارلابلان. هنالك سوبرماركت ICA. كن هناك في الساعة الثانية عشرة. سوف تجدني في الخارج. وإذا لم تجدني، يمكنك أن تأخذ هاتفك من صندوق المحاسبة في السوبرماركت. ليس عليك إلّا أن تسأل الموظفة. هل اتفقنا هكذا؟».

«ممتاز. شكرًا».

«لا تكن أخرقَ هكذا في المرة القادمة».

أغلق الرجل الهاتف بعد ذلك. كانت ليندا جالسة على الأريكة وقد وضعت بطانية في حضنها. رفعت حاجبيها وسألتني: «ما الأمر؟ من المتصل؟ من الذي يتصل في هذه الساعة المتأخرة؟».

ضحكتْ عندما أخبرتها بما حدث. لم يُضحكها تسلسل الأحداث بقدر ما أضحكها الشك الذي لا بد أن وجود الهاتف قد قوبل به. إذا كنت تريد مقابلة امرأة لا تعرف رقم هاتفها، فأي شيء أفضل من أن تسقط هاتفك في حقيبتها ثم تتصل بها من خلاله؟

جلست على الأريكة إلى جانبها. تعلقت بي واحتضنتني.

قالت: «لقد وضعوا اسم فانيا على قائمة الانتظار في الحضانة. اتصلتُ بهم اليوم».

«حقًا. هذا شيء عظيم».

قالت: «إن مشاعري مختلطة. عليّ أن أعترف بهذا. لا تزال فانيا صغيرة جدًا. لكن، ربما يمكننا إرسالها نصف يوم على سبيل البداية، ما رأيك؟».

«بالطبع».

«فانيا الصغيرة».

نظرت إليها بدا وجهها كأنه متعب من النوم الذي استيقظت منه قبل قليل. عينان ضيقتان، وجلد عجيني. لا يمكن أن تشرب ليندا خفية! لا يمكن أن تفعل هذا بالنظر إلى عاطفتها الهائلة تجاه فانيا وبالنظر إلى جديتها في القيام بدور الأمومة.

لا، بالتأكيد لا. كيف يمكنني حتى التفكير في هذا؟

قلت: «هنالك شيء غريب يجري في خزانة المطبخ. كلما نظرت إلى الزجاجات يبدو لي أن محتوياتها في تناقص. هل لاحظت شيء من هذا؟».

ابتسمت وقالت: «لا. لكن، لعلك تشرب أكثر مما تظن».

قلت: «هذا ما يبدو لي».

وضعت جبيني على جبينها. عيناها، اللتان حدّقتا في عيني مباشرة، أفعمتاني كليًا. كانتا كل ما أراه في هذه اللحظة القصيرة. ظهرت حياتها من عينيها... مثلما تعيشها في داخلها.

قالت لي: «اشتقت إليك».

قلت: «إنني هنا. ما الأمر؟ هل تريدينني كلي؟».

قالت: «نعم، هذا ما أريده». ثم أمسكت بيدي وشدتني إلى الأريكة.

استيقظت في صباح اليوم التالي في الرابعة والنصف، كعادتي. عملت على مراجعة مجموعة القصص القصيرة المترجمة حتى الساعة السابعة ثم تناولت إفطاري مع ليندا وفانيا من غير أن أقول كلمة واحدة. وصلت إنغريد في الثامنة لكي تأخذ فانيا. ذهبت ليندا إلى معهدها، وجلستُ أقرأ الصحف على الإنترنت مدة نصف ساعة قبل أن أبدأ الرد على الرسائل الإلكترونية التي تراكمت عندي. استحممت بعد ذلك، ثم لبست ثيابي وخرجت. كانت السماء زرقاء، والشمس المنخفضة تشع بنورها على المدينة. صحيح أن الطقس لا يزال باردًا، إلّا أن هذا الضياء كان موحيًا بالربيع، حتى في عمق الشوارع الظليلة التي سلكتها في طريقي إلى ستوريبلان. واضح أنني لم أكن الشخص الوحيد الذي يحس هذا: بالأمس فقط، كان الناس يمشون خافضين رؤوسهم، يمشون بأكتاف متهدّلة؛ أما الآن فقد رفعوا وجوههم إلى الشمس وبدا في عيونهم الناظرة إلى العالم فضول وفرح. هل هذه المدينة الفرحة المنفتحة هي نفسها تلك المدينة المنغلقة المكتئبة التي كنت أتجوّل فيها يوم أمس؟ في الأمس، كان ضوء الشتاء المكتوم الذي يشق طريقه عبر السحب يمتص الألوان كلها والسطوح كلها فيقارب بينها ويقلل

تبايناتها ويغمرها برماديته وهشاشته؛ أما ضوء الشمس الواضح المباشر فإنه يعزز تلك التباينات. كانت المدينة تتفجر ألوانًا من حولي. ليست هي ألوان الصيف البيولوجية الدافئة، بل ألوان الشتاء المعدنية الباردة التركيبية. قرميد أحمر، وقرميد أصفر، وسيارات خضراء داكنة، ولافتات زرقاء، وسترة برتقالية، ووشاح قرمزي، ورصيف رمادي مُسودّ، ومعدن بلون الصدأ، وكرومٌ لامع. نوافذ لامعة، وجدران متألقة، ومزاريب متلألئة على جانب من المبنى؛ ونوافذ سوداء، وجدران قاتمة، ومزاريب كامدة لا تكاد تُرى على الجانب الآخر. في بيرغر يارلسغاتان، كان الثلج المكوّم على امتداد حافة الشارع لامعًا أحيانًا، رماديًا كامدًا في أحيان أخرى، بحسب زاوية سقوط أشعة الشمس. سرت في اتجاه ستوربلان ودخلت مكتبة هيدينغرينز حيث كان موظف شاب يفتح الباب لحظة وصولي. نزلت إلى القبو وطفت بين الرفوف فاخترت مجموعة كتب ثم جلست لأتصفّحها. اشتريت كتابًا عن سيرة حياة عزرا باوند لأنني كنت مهتمًا بنظريته عن النقود وأملت أن تشتمل هذه السيرة على عرض لها. اشتريت أيضًا كتابًا عن العلم في الصين بين عامي 1550 و1900، وكتابًا عن التاريخ الاقتصادي للعالم لشخص اسمه روندو كاميرون، وكذلك كتابًا عن الأميركيين الأصليين يتحدث عن قبائلهم المختلفة كلها التي كانت موجودة قبل وصول الأوروبيين؛ كان كتابًا رائعًا في ستمئة صفحة. وفوق هذا كله، وجدت كتابًا لستاروبينسكي عن روسو، وكتابًا عن غيرهارد ريختر اسمه «الشك والإيمان في الرسم»، فاشتريته أيضًا. ما كنت أعرف شيئًا عن عزرا باوند ولا عن الاقتصاد ولا العلم ولا الصين ولا روسو، ولا أعرف إن كنت مهتمًا بهذه الأشياء، لكني على أهبة بداية كتابة رواية: كان عليّ أن أبدأ من مكان ما! في ما مضى، فكرت طويلًا في الهنود الحمر. رأيت منذ بضعة شهور صورة لبعض الهنود في زورق كانُو. كانوا يجذفون في إحدى البحيرات، وكان في مقدمة القارب رجل في ملابس جعلته يشبه طائرًا فاتحًا جناحيه. اخترقت هذه الصورة طبقات الأفكار التي كانت لديّ عن الهنود، اخترقتها كلها، اخترقت كل ما قرأته في

الكتب والمجلات وكل ما رأيته في الأفلام ووصلت إلى الواقع الحقيقي: لقد كانوا موجودين! لقد عاشوا حقًا، عاشوا الحياة مع أعمدتهم الطوطمية ورماحهم وأقواسهم وسهامهم، عاشوا في قارة هائلة هانئين بجهلهم أن حياة أخرى غير حياتهم لم تكن ممكنة فقط، بل موجودة حقًا. كانت تلك فكرة رائعة. الرومانسية التي تستدعيها هذه الصورة ببدائيتها، وبالرجل الطائر، وبالطبيعة البكر. كانت صورة آتية من الواقع، لا واقعًا خلقته صورة مثلما كانت الأشياء التي أعرفها عن الهنود الحمر من قبل. لقد صدمتني. لا أستطيع شرح الأمر بأي طريقة أخرى. لقد صدمتني. عرفت أن عليّ أن أكتب عنها، لا عن الصورة، بل عمّا تضمّنته. وعند ذلك، أتت الحجج المضادة كلها: لعلهم وُجدوا ذات يوم، لكنهم لم يعودوا موجودين. لقد أزيحوا جانبًا منذ زمن بعيد، ومعهم ثقافتهم، فلماذا أكتب عنهم؟ لقد مضى زمانهم ولن يعود. إن خلقتُ عالمًا جديدًا يمكن العثور فيه على عناصر من ثقافتهم، فسيكون هذا إبداعًا فحسب، خيالًا فحسب، شيئًا لا قيمة له. لكني كنت قادرًا على مواجهة ذلك بالقول إن دانتي، على سبيل المثال، لم يكتب إلّا خيالًا، وإن سيرفانتس لم يكتب إلّا خيالًا، وإن هيرمان ميلفيل لم يكتب إلّا خيالًا. لا يستطيع أحد دحض فكرة أن وجودنا البشري ما كان ليكون هو نفسه لولا أن وُجدت هذه الأعمال الثلاثة. فلماذا لا أكتب خيالًا فحسب؟ إن علاقة الحقيقة بالواقع ليست علاقة تطابق، بطبيعة الحال. حجج قوية، لكنها لم تفدني شيئًا لأن فكرة كتابة شيء خيالي، مجرد فكرة شخصيات مفبركة في حبكة مفبركة جعلتني أصاب بالغثيان وخلقت عندي ردة فعل جسدية. لا أعرف سبب هذا، لكنه ما حدث. على الهنود الحمر أن ينتظروا! كنت مدركًا أن إحساسي قد لا يظل هكذا دائمًا.

دفعت ثمن الكتب ونزلت إلى القسم السفلي من سيرغيلزتورغ حيث يقع متجر الأفلام والتسجيلات الموسيقية، فاشتريت ثلاثة أقراص DVD وخمسة أقراص CD، ثم دخلت مكتبة أكاديمي، حيث وجدت رسالة عن ويسيدنبورغ من منشورات أتلانتيس فاشتريتها بالإضافة إلى مجلتين اثنتين.

لن أتمكن من قراءة معظم ما اشتريت، إلّا أن هذا لم يمنعني من الإحساس بشعور طيب. عدت إلى البيت، وأفرغت مشترياتي، ثم أكلت سندويتشين وأنا واقف عند طاولة المطبخ. ثم خرجت من جديد فسرت هذه المرة عبر أوسترمالم في اتجاه ذلك السوبرماركت في بانيرغاتان فبلغته عند الثانية عشرة تمامًا.

لم أجد أحدًا هناك. أشعلت سيجارة وانتظرت. رحت أبحث في وجوه العابرين لكن أحدًا منهم لم يتوقّف أو يأتِ في اتجاهي. قرّرت بعد خمس عشر دقيقة أن أدخل المتجر. دخلت وسألت الموظفة على صندوق المحاسبة إن كان أحد قد ترك عندهم اليوم هاتفًا نقالًا. نعم، إنه موجود لديهم. هل أستطيع وصف الهاتف؟

وصفت هاتفي، فأخرجته المرأة من درج إلى جانب آلة المحاسبة وأعطتني إياه.

قلت لها: «الشكر لك. من الذي وضعه هنا؟ هل تعرفين؟».

«نعم، أعني... لست أعرف اسم الشخص. لكنه رجل في مقتبل العمر. إنه يعمل في السفارة الإسرائيلية هناك، غير بعيد عن هذا المتجر».

«... في السفارة الإسرائيلية؟».

«نعم».

«أوه، لا بأس. أشكرك من جديد. إلى اللقاء».

«إلى اللقاء».

سرت في الشارع مبتسمًا لنفسي. السفارة الإسرائيلية! لا عجب أبدًا في أن تساوره الشكوك! لا بد أنهم فحصوا هذا الهاتف فحصًا دقيقًا. لقد فحصوا الرسائل النصية كلها، وأرقام الهواتف.

شغلت الهاتف واتصلت بغيير.

قلت له: «مرحبًا غيير!».

قال لي: «مرحبًا! ماذا لديك؟».

قلت: «اتصل شخص بالأمس من أجل هاتفي. كان يشك فيّ بشدة، لكنه

وافق على إعادته آخر الأمر. وهكذا، ذهبت واستلمته منذ قليل. لقد تركه عند نقطة المحاسبة في أحد المتاجر. سألت الفتاة الموظفة هناك إن كانت تعرفه. هل تعرف ما قالت لي؟».

«لا أعرف، طبعًا».

«إنه يعمل في السفارة الإسرائيلية».

«أنت تمزح».

«لست أمزح. لم يقع هاتفي على الرصيف عندما سقط مني بل استقر في حقيبة. لم يسقط في أي حقيبة، بل في حقيبة امرأة هي صديقة شخص يعمل في السفارة الإسرائيلية. شيء غريب جدًا، أليس كذلك؟».

«أظن أنك يمكن أن تنسى فكرة أنها صديقة شخص يعمل في السفارة الإسرائيلية. أُرجّح أنها تعمل في السفارة وأنها اتصلت بهم عندما عثرت على هاتفك في حقيبتها. وهكذا فقد جلسوا ينظرون في الهاتف ويتساءلون عن الشخص الذي زرعه هناك. ما هو هذا الهاتف؟ هل هو قنبلة؟ هل هو مايكروفون؟».

«ثم... ما الذي يوحي به كون هذا الهاتف لشخص نرويجي؟ هل للأمر علاقة بقصة الماء الثقيل؟ أم هو انتقام من أجل قضية ليليهامر؟».

«لا أستطيع تصديق كيف تنجح إقحام نفسك في مختلف أنواع الأشياء. عاهرات روسيات، وعملاء مخابرات إسرائيليون! وتلك الكاتبة التي دعوتها إلى العشاء فراحت تزن الطعام قبل أن تأكله، ماذا كان اسمها؟».

«اسمها ماريا، وبالمناسبة، إن لها صلة بروسيا أيضًا!».

«أذكر أنها اتصلت بشخص ما بعد الوجبة وأخبرته بدقة عن أنواع الطعام التي تناولتها. ها ها ها!».

«وما علاقة هذا بموضوعنا؟».

«لست أدري. يبدو أن هذه الأشياء الغريبة تحدث عندما تكون أنت موجودًا! صديقة ليندا التي وقعت في غرام مدمن المخدرات الذي تعيش أخته في بنايتكم؟ والشقة التي عثرت عليها في البناية التي كانت ليندا تعيش

فيها؟ وكمبيوترك الذي غرق بماء المطر وسقط من القطار على السكة ولم يصبه أذى. ثم أضعت هاتفك فاتضح أنه كان في حقيبة امرأة تعمل في السفارة الإسرائيلية... هذا كله يشكل إطارًا منسجمًا».

قلت: «هذا كله يبدو حلوًا ظريفًا. لكن حقيقة حياتي أمر مختلف تمامًا، مثلما تعرف».

«أوه، هيا الآن، ألا نستطيع التظاهر قليلًا؟».

قلت: «لا!» ثم سألته... «ماذا تفعل الآن؟».

«ماذا تظنني أفعل؟».

«يبدو لي أنك تعبث وتضيّع الوقت. وهكذا أظن أنك تكتب».

«أظن أنني أكتب. وماذا تفعل أنت؟».

«إنني ذاهب إلى فيلمهوست. سوف أتناول طعام الغداء مع ليندا. أكلمك لاحقًا».

«اتفقنا».

أغلقت الهاتف ووضعته في جيبي. ثم أسرعت في سيري. مررت بالنافورة الجافة في كارلابلان، وعبرت فيلتوفيرستن إلى فالهالافاغن، ومنها إلى معهد السينما الواقع على حافة منطقة غارديت شبه المكسوّة بالثلوج. كانت تلك المنطقة تتلألأ تحت أشعة الشمس.

بعد الغداء، ذهبت بالمترو إلى أودينبلان وسرت منها إلى مكتبي. كان اهتمامي منصبًّا على الوصول إلى مكان أستطيع الجلوس فيه بهدوء. إن لدى إنغريد مفتاح الشقة، ومن الممكن جدًا أن تكون هناك، مع فانيا. لم أكن في مزاج مناسب للجلوس في المقاهي ورؤية تلك الوجوه الغريبة كلها وتلك العيون القلقة كلها. وهكذا، جلست خلف المكتب وحاولت بعض الوقت أن أكتب الكلمة التي سألقيها؛ لكني شعرت بالإحباط. بدلًا من الكتابة، استلقيت على الأريكة وغرقت في النوم. وعندما استيقظت، كان الشارع في الخارج غارقًا في الظلام. إنها الرابعة وعشر دقائق. سوف يأتي صحفيو آفتنبوستن في السادسة، وهكذا فإنه لا خيار أمامي غير ارتداء

معطفي والعودة إلى البيت إذا كنت أريد أن يكون عندي وقت لرؤية فانيا وليندا اليوم.

سألت عندما فتحت باب البيت: «هل من أحد هنا؟».

جاءت فانيا تحبو عبر الصالة. أتت في اتجاهي بكل سرعتها. كانت تضحك. رفعتها وقذفتها في الهواء عدة مرات قبل أن أحملها إلى المطبخ حيث كانت ليندا تحرك شيئًا في القدر.

قالت لي: «أطبخ البازلاء. هذا أفضل ما توصّلت إليه».

قلت: «هذا جيد. كيف كانت أمور فانيا اليوم؟».

«جيدة على ما أظن. لقد أمضَت فترة الصباح كلها مع أمي في متحف الأطفال. ذهبت أمي قبل قليل. هل صادفتها عند دخولك؟».

قلت: «لا»، ثم أخذت فانيا إلى سريرنا ورحت أرميها على الفراش حتى أصابني التعب. احمرّ وجه فانيا وتعرّقت لكثرة الضحك. أجلستها على كرسي عند طاولة المطبخ وذهبت إلى غرفة المعيشة لتفقد بريدي. قرأت الرسائل ثم أغلقت الكمبيوتر ونظرت إلى الشقة المقابلة عبر الشارع حيث رأيت شاشة كمبيوتر آخر مضاءة. رأيت ذات مرة رجل يستمني أمام الشاشة هناك. ظن أن أحدًا لا يراه، ولم يدرك أنه كان ظاهرًا من نافذتنا. كان وحده في الغرفة آنذاك. لكنه لم يكن وحيدًا في الشقة. كان المطبخ إلى الناحية الأخرى من الجدار. وكان فيه رجل وامرأة جالسين. غريب أن يرى المرء كم تكون الأماكن الخاصة والأماكن المفتوحة متقاربة.

كانت تلك الغرفة خالية الآن. ليس فيها إلّا النقاط الضوئية المتقافزة على الشاشة. وضوء من مصباح في الزاوية ساقط على أحد الكراسي وعلى طاولة صغيرة عليها كتاب مفتوح.

صاحت ليندا من المطبخ: «الطعام جاهز».

نهضت وانضممت إلى ليندا وفانيا. الساعة الآن الخامسة والربع.

سألتني ليندا: «متى يُتوقع وصولهم؟».

لا بد أنها لاحظت التفاتتي إلى الساعة الجدارية.

«في السادسة. لكننا سنخرج فور وصولهم. لستِ مضطرة إلى الظهور. يمكنك السلام عليهم إذا أحببت، لكنك لست مضطرة إلى ذلك».

«أظن أنني سأبقى هنا. خارج مجال الرؤية. هل أنت متوتر؟».

«لا؛ لكني لست في مزاج حسن. تعرفين كيف يكون الأمر».

«لا تهتم بشيء. تحدث معهم فحسب. وقل ما تريد قوله، ولا تكن قاسيًا على نفسك. كن مسترخيًا!».

«لقد تحدّثت مع مايغول آكسيلسون، تعرفين هذا، الكاتبة! كانت مشاركة في المحاضرات في تفيديسترائد وغونتبرغ. لقد وضعتني، بعض الشيء، تحت جناح أمومتها خلال تلك الجولة. قالت لي إنها وضعت لنفسها قاعدة: لا تقرأ ما يُكتب عنها، ولا تشاهد نفسها على التلفزيون ولا تستمع إلى نفسها على الراديو. قالت لي: عاملهم كأنهم غير موجودين. ركّز على اللحظة فقط. في ذلك الوقت، كانت اللقاءات مع بعض الأشخاص، هذا كل شيء. كانت سهلة من غير تعقيدات. وكان لكلامها معنى آنذاك. لكن، هنالك حب الظهور أيضًا، أليس كذلك؟ هل يجري تقديمي على أنني معتوه تمامًا، أو مجرد معتوه عادي؟ وهل المشكلة في التقديم أم هي عندي أنا؟».

قالت ليندا: «أتمنى لو تتخلى عن هذا كله. إنه ليس ضروريًا! وهو يجعلك تبذل جهدًا كبيرًا. يشغلك طيلة الوقت».

«صحيح، أعرف هذا. لكني سأكفّ عن فعله. سوف أرفض كل شيء».

«أنت شخص رائع جدًا. فقط لو تستطيع رؤية ذلك».

«يقول إحساسي عكس هذا. والحقيقة أن هذا الإحساس طاغٍ على كل شيء. لا تقولي لي إن عليّ الخضوع لعلاج ما».

«لم أقل كلمة واحدة».

قلت: «إن لديك الإحساس نفسه. الفارق الوحيد هو أن لديك أيضًا لحظات يكون فيها تقديرك لنفسك سليمًا، ولا تكونين شديدة الإعجاب بنفسك».

قالت ليندا وهي تنظر إلى فانيا: «فلنأمل فقط أن نستطيع أن نوفّر عليها هذا».

ابتسمت فانيا لنا. كانت الطاولة كلها مغطاة بحبات الأرز، وكذلك الأرض تحت الكرسي. كانت الصلصة الحمراء على شفتيها، وحبات من الأرز الأبيض ملتصقة بشفتها.

قلت: «لكنها لن تتعرض لشيء من هذا. أمر مستحيل. إما أن يكون لديها منذ البداية، أو أن تلتقطه خلال مسارها. لا يمكن أن يكون هذا شيئًا خفيًا. لكن، من الممكن ألّا يصيبها هي أيضًا. ليست مضطرة إلى ذلك».

قالت ليندا: «آمل هذا».

كانت عيناها نديّتين.

نهضت واقفًا وقلت: «كان الطعام لذيذًا. سوف أغسل الصحون. يجب رفع المائدة قبل وصولهم».

استدرت إلى فانيا وقلت: «كم هي كبيرة فانيا؟».

رفعت فانيا يديها فوق رأسها باعتزاز واضح.

قلت: «ما أكبرها! هيا! سوف أغسل لك وجهك».

حملتها من الكرسي ومضيت بها إلى الحمام حيث غسلت لها وجهها ويديها. رفعتها أمام المرآة ووضعت خدي على خدها فضحكت.

وبعد ذلك، غيّرت حفاضها في غرفة النوم. وضعتها على الأرض، ثم ذهبت لرفع الأطباق وتنظيف الطاولة. بعد الانتهاء من ذلك، وعندما بدأت آلة غسل الأطباق تصدر طنينها تحت المجلى، فتحت خزانة الزجاجات لأرى إن كان شيء فيها قد تغير.

هنالك تغيّر منذ الأمس!؟ لقد شرب أحد ما من زجاجة الغرابّا. كنت واثقًا من ذلك تمامًا لأن محتوياتها كانت تبلغ حافة اللصاقة. كانت زجاجة الكونياك أيضًا في وضع مختلف، وبدا لي أن أحدًا قد شرب منها، لكني لم أكن متأكدًا من هذا.

ما الذي يجري بحق الجحيم.

كنت أرفض تصديق أن ليندا هي من يفعل هذا. خاصة بعد حديثنا عن الأمر ليلة أمس.

لكن، لا أحد هنا غيرنا. ليس لدينا خادمة ولا أي شيء.

أوه، خراء، لا!

إنغريد!

لقد كانت هنا اليوم. كانت هنا بالأمس أيضًا. لا بد أنها هي، الأمر واضح. لكن... هل تشرب خلال فترة رعايتها فانيا؟ هل تجلس هنا مع حفيدتها التي تلعب حول ساقيها، وتشرب؟

إن كان الأمر هكذا، فلا بد أنها مدمنة على الكحول. إن فانيا كل شيء بالنسبة إليها. وهي لن تكون مستعدة للمغامرة بشيء، من أجل فانيا على الأقل. لكنها إذا كانت تواصل الشرب، فإن حاجتها إلى الكحول مسيطرة عليها؛ لا بد أن الأمر هكذا... إن كانت مستعدة للمغامرة بكل شيء من أجل الشراب.

أوه، أيها الرب في الأعالي، كن رحيمًا بنا!

سمعت صوت خطوات ليندا آتية من غرفة النوم فأغلقت باب الخزانة ومضيت إلى الطاولة. تناولت خرقة وبدأت أمسح سطح الطاولة بها. إنها السادسة إلّا عشر دقائق.

قلت لها: «سوف أنزل لتدخين سيجارة قبل وصولهم. ما رأيك؟ لا يزال لدينا هنا القليل مما يجب القيام به، لكن...».

«بالطبع. اذهب. خذ كيس القمامة معك من فضلك».

رن جرس الباب في تلك اللحظة تمامًا. ذهبت لأفتحه. رأيت شابًا له لحية وحقيبة على كتفه واقفًا بالباب مبتسمًا لي، ومن خلفه كان هنالك رجل آخر أكبر سنًا؛ رجل أسمر قليلًا يحمل كاميرا ضخمة على كتفه وكاميرا أخرى في يده.

قال الشاب وهو يمد يده مسلّمًا: «مرحبًا. أنا كجيتيل أوستلي».

قلت: «كارل أوفه كناوسغارد».

قال الشاب: «تسرني رؤيتك».

صافحت المصوّر أيضًا ودعوتهما إلى الدخول.

سألتهما: «ما رأيكما في فنجان من القهوة؟».
«سيكون هذا لطيفًا. شكرًا لك».
ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت إبريق القهوة وثلاثة فنجانين. كانا ينظران من حولهما في غرفة الجلوس عندما عدت.
قال الصحفي: «لا يجد المرء مشكلة إن حاصره الثلج هنا لأن لديك بعض الكتب!».
قلت: «لم أقرأ معظم هذه الكتب. والكتب التي قرأتها لا أذكر عنها شيئًا».
كان الصحفي أكثر شبابًا مما ظننت، رغم لحيته. لعله لا يتجاوز السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين. أسنان كبيرة، وعينان ودودتان، وشخصية مرحة يسهل التعامل معها. ليس هذا النوع من الناس غريبًا عني لأنني التقيت أشخاصًا كثيرين يذكّرونني به. لكنني لم ألتقِ بهم إلّا في السنوات الأخيرة؛ لم ألتقِ بهم أبدًا عندما كنت أصغر سنًا. قد يكون لهذا علاقة ما بالجغرافيا أو الطبقة الاجتماعية، أو بالجيل. وقد يكون له علاقة بهذه الأشياء كلها. جنوب شرق النرويج، الطبقة الوسطى، هكذا خمّنت، وربما أبوان أكاديميان أيضًا. شاب حسن النشأة، واثق من نفسه، سريع البديهة، صاحب مهارات اجتماعية جيّدة. شخص لم يواجه بعدُ أي صعوبة كبيرة... هكذا كان انطباعي عنه خلال الدقائق الأولى. أما المصوّر فكان سويديًا، وبالتالي فقد أفلتَ من أي فرصة لديّ لتحديد شيء مميز فيه.
قلت: «في حقيقة الأمر، كنت قد قرّرت رفض أي مقابلة منذ الآن فصاعدًا. لكنهم قالوا في دار النشر إنك جيد جدًا؛ وقالوا إن عليّ ألّا أترك هذه الفرصة تفلت من بين أصابعي. آمل أن يكونوا على حق».
لا ضرر أبدًا في شيء من المديح.
قال الصحفي: «آمل ذلك أيضًا».
سكبت لهم القهوة.
قال المصور: «هل يمكنني التقاط بضع صور هنا؟».

عندما بدا عليّ التردّد، أكد المصور أنه سيلتقط صورًا لي فقط، ولا شيء آخر.

كان الصحفي في البداية راغبًا في إجراء المقابلة في البيت، لكني رفضت. وعندما أجرى اتصالًا هاتفيًا من أجل ترتيب مكان للمقابلة، قلت إننا يمكن أن نبدأ المقابلة هنا ثم نتابعها في الخارج. كان واضحًا أن هذا الاقتراح سَرّه.

قلت: «لا بأس الآن. هنا».

وقفت أمام رفوف الكتب حاملًا فنجان القهوة في يدي بينما راح المصوّر يتجوّل في الغرفة ملتقطًا الصور.

أي خراء هذا!

«هل يمكنك أن ترفع يدك قليلًا؟».

«ألن يبدو هذا مصطنعًا بعض الشيء؟».

«لا بأس إذن، لا حاجة إلى هذا».

سمعت فانيا تحبو قادمة من الصالة. جلست في الباب ونظرت إلينا.

قلت لها: «مرحبًا يا فانيا! هل تجدين الكثير من الرجال المخيفين هنا؟ لكنك تعرفينني، أليس كذلك...».

حملتها. وفي تلك اللحظة جاءت ليندا. ألقت عليهما تحية مقتضبة ثم أخذت فانيا وعادت بها إلى المطبخ.

كل ما أردته ألا يكون مرئيًا صار مرئيًا. وصار كل ما هو أنا وكل ما يخصّني متيبّسًا جامدًا. لم أكن أريد أن أبدو هكذا. أسقط في يدي. لكني عدت إلى ما كنت فيه مبتسمًا ابتسامة عريضة كأنني شخص أحمق.

سألني المصور: «هل يمكنني التقاط بضعة صور أخرى؟».

وقفت أمامه من جديد.

قلت: «قال لي أحد المصورين مرة إن تصويري يشبه تصوير جذعٍ خشبي».

قال المصور: «لا بد أنه كان مصورًا فاشلًا».

«لكنك تدرك معنى كلامه، أليس كذلك؟».

توقّف المصور وأزاح الكاميرا عن وجهه، ثم ابتسم وأعادها متابعًا التصوير.

قلت للصحفي: «أظن أن علينا الذهاب إلى مقهى بيليكان. إنه مقهايَ المحلي. ليست فيه موسيقى. أظنه مكانًا مناسبًا لنا».

«هذا اقتراح مناسب لي».

قال المصور: «فلنلتقط بعض الصور في الخارج أولًا. وبعد ذلك أذهب وأترككما تتابعان».

رن هاتف الصحفي في تلك اللحظة. نظر إلى رقم المتصل وقال: «عذرًا، عليّ أن أتلقّى هذه المكالمة».

استمرت المكالمة دقيقة أو دقيقتين بالحد الأقصى، وكانت عن تساقط الثلج ومواعيد القطارات وسيارة ما وكوخ تزلّج. أغلق الهاتف ونظر إليّ.

قال: «سوف أذهب للتزلج مع بعض الأصدقاء خلال عطلة نهاية الأسبوع. كنا نتحدّث الآن عن سفرنا من محطة القطار إلى كوخ التزلج. إنه شخص هناك نعرفه منذ زمن. وهو يساعدنا دائمًا».

قلت: «يبدو هذا شيئًا جميلًا».

كوخ، وتزلج مع الأصدقاء، هذا شيء لم أفعله أبدًا. كانت هذه نقطة مؤلمة عندي أيام كنت في المدرسة الثانوية، ولعدة سنين في الجامعة أيضًا. لم يكن لديّ أي أصدقاء تقريبًا. والقلة الذين كانوا لديّ، ما كان أحدهم يعرف الآخر. أما الآن فقد صرت أكبر سنًا من أن يقلقني هذا النوع من الأمور، لكني أحسست بوخزة ألم، رغم ذلك... آلمني أنني صرت كبيرًا إلى هذه الدرجة.

وضع الرجل هاتفه في جيبه، ثم أعاد الفنجان إلى الطاولة. كان المصوّر يلملم أدواته.

قلت لهما: «هل ننطلق الآن؟».

كان إحساسًا غريبًا مزعجًا بعض الشيء عندما وقفنا معًا نرتدي ملابسنا

قبل الخروج. صالة المدخل ضيقة، وهما قريبان مني كثيرًا. لم يقل أحد منا شيئًا. ودّعت ليندا ونزلنا السلم ثم خرجنا من البناية. أشعلت سيجارة عند الباب الأمامي. كان البرد قارسًا. أخذني المصور إلى درجة إلى الناحية الأخرى من الشارع، حيث وقفت أمامه بضع دقائق مخفيًا السيجارة خلف كفي. لكنه قال إنه يفضل ظهورها في الصورة إن لم يكن لديّ مانع. فهمت ما كان يريده. تضفي السيجارة على الصورة شيئًا من الحياة. وهكذا رحت أدخن واقفًا على تلك الدرجة وهو يطقطق بآلة التصوير ويعطيني تعليمات بالتحرك إلى هذه الجهة وتلك. كان الناس العابرون في الشارع ينظرون إلينا. ثم سرنا إلى مدخل النفق حيث أمضى بضع دقائق أخرى في التقاط الصور إلى أن صار راضيًا تمامًا. ذهب المصور وتركَنا. سرت مع الصحفي صامتًا حتى تجاوزنا التل ونزلنا في اتجاه محطة المترو في الجهة الأخرى. توقّف القطار على الرصيف في تلك اللحظة فصعدنا وجلسنا عند النافذة متقابلين.

قلت: «لا يزال ركوب المترو يذكرني بمباريات كأس النرويج. أتذكر هذا كلما شممت تلك الرائحة الخاصة في صالة المحطة. إنني من بلدة صغيرة، كما تعلم. وفي ذلك الوقت، كان المترو أغرب اختراع موجود. البيبسي كولا أيضًا. كانت جديدة علينا في ذلك الوقت».

«هل لعبت كرة القدم زمنًا طويلًا؟».

«حتى بلغت الثامنة عشرة، لكني لم أكن لاعبًا ماهرًا. كنت ألعب في فريق منخفض المستوى، طيلة الوقت».

«هل كل ما تفعله منخفض المستوى؟ قلت إنك لم تقرأ أي كتاب من الكتب التي عندك. وفي مقابلاتك التي رأيتها، أراك تتحدّث غالبًا عن ضعف الأشياء التي أنجزتها. ألست تبالغ في انتقاد نفسك».

«لا، لست أظن هذا. الأمر معتمد على مقدار ارتفاع الهدف الذي تصبو إليه، بالطبع».

ألقى نظرة سريعة من النافذة عندما كان القطار يخرج من النفق ويدخل المحطة المركزية.

سألني: «أتظن أننا سنفوز بالجائزة؟».
«هل تعني جائزة المجلس النوردي للأدب؟».
«نعم».
«لا».
«فمن سيفوز بها؟».
«مونيكا فاغرهولم».
«تبدو واثقًا من هذا».
«الرواية جيدة جدًا؛ والكاتبة امرأة. ثم إن سنوات كثيرة مضت منذ أن فازت فنلندا بالجائزة آخر مرة. سوف تنال الجائزة، بالطبع».

انقطع الحديث بعد ذلك. دائمًا، لا يكون الوقت سهلا قبل المقابلة وبعدها أبدًا. كان الصحفي موجودًا (رجل لا أعرفه) لكي يثير أفكاري الداخلية ويحرّضها، لكن ليس بعد لأن الوضع المناسب لم يكتمل، ولم يجرِ توزيع الأدوار بعد. لا نزال الآن واقفين على قدم المساواة، لكن من غير نقاط تواصل بيننا. لكن، كان علينا أن نتكلم.

فكرت في إنغريد. ما كنت قادرًا على قول أي شيء لأيٍّ كان، ولا حتى لليندا، قبل أن أكون واثقًا تمام الثقة من صدق ظنوني. ليس عليّ أن أضع علامات على الزجاجات. يجب أن أضعها هذا المساء، ثم أنظر إليها غدًا. سأتابع الأمر إذا نقص مستوى الشراب.

بلغنا محطة سكانستول، ثم سرنا صامتين في البلدة المتلألئة في الظلمة من حولنا إلى بلغنا بيليكان حيث وجدنا طاولة في آخر الصالة. جلسنا وتحدثنا ساعة ونصف الساعة؛ تحدثنا عني وعن عملي. وبعد ذلك نهضت وخرجت. أما هو فظل في مكانه لأن طائرة العودة إلى النرويج تقلع في الصباح التالي. أحسست بالخواء مثلما يحدث دائمًا بعد المقابلات الطويلة، أحسست بأنني أُفرغت من محتوياتي، مثل حفرة. وكعادتي، شعرت بأنني قد خنت نفسي. خنت نفسي لمجرد الجلوس هناك والحديث انطلاقًا من فكرة أولية تقول إن الكتابين اللذين كتبتهما كانا جيدين، وإنهما

كتابان هامان، وإنني (الكاتب) شخص غير اعتيادي، شخص يثير الاهتمام. تلك كانت نقطة بداية الحديث: كل ما أقوله هامّ. وإذا لم أقل شيئًا مهمّا، فلا بد أنني أخفيه وأمتنع عن قوله. هذا لأن من الواضح أنه لا بد أن يكون في مكان ما! وهكذا، عندما ذكرت قصصًا من طفولتي، على سبيل المثال، قصة عادية طبيعية تمامًا يمكن أن يعيشها أي شخص، كانت تلك القصة مهمة لأنني ذكرتها. إنها تقول شيئًا عني، عن صاحب كتابين جيدين هامّين! لم أساير هذه النظرة فحسب، أي النظرة التي شكلت أساس حديثنا، بل فعلت ذلك بحماسة كبيرة أيضًا. جلست هناك أثرثر مثل ببغاء في حديقة حيوانات. وذلك رغم أنني مدركٌ حقيقة الأمر، طيلة الوقت. كم رواية جيدة تظهر في النرويج؟ تظهر رواية جيدة كل عشر سنين أو كل عشرين سنة. كانت آخر رواية نرويجية جيدة «النار واللهب» لكيارتان فلوغستاد، وقد نُشرت سنة 1980، أي قبل عشرين سنة. وكانت آخر رواية جيدة قبلها «الطيور» لفيساس؛ صدرت سنة 1957، أي أن المدة هنا كانت ثلاثة وعشرين عامًا. كم رواية ظهرت في النرويج خلال هذا الزمن كله؟ آلاف! نعم، إنها آلاف! كان بعض هذه الروايات جيدًا، وكان بعضها مقبولًا، وكان أكثرها ضعيفًا. هكذا هو الأمر... لا شيء يستدعي هذا الصياح كله. والجميع يعرف هذا. المشكلة هي ما يحيط بهذه السير الأدبية كلها، والمديح الذي يعيش عليه الكتّاب متواضعو الشأن نتيجة صورتهم الزائفة عن أنفسهم ونتيجة كل ما يجري تشجيعهم على قوله في الصحف والتلفزيون.

أعرف ما أتحدث عنه. إنني واحد من هؤلاء.

أوه، يمكنني أن أقتلع رأسي من مكانه لشدة مرارتي وخجلي من سماحي لنفسي بالوقوع فريسة الإغراء، لا مرة واحدة فقط، بل مرة تلو أخرى! إن كنت قد تعلمت شيئًا خلال هذه السنين، شيئًا يبدو لي بالغ الأهمية في زمان مثل زماننا خاصة، هذا الزمان الذي «يفيض تواضعًا»، فهو التالي:

لا تصدّق أنك أي شيء.

لا تصدق أبدًا أنك أحدٌ ما.

لأنك لست كذلك. لأنك لست أكثر من كومة خراء صغيرة عادية معجبة بنفسها.

إذن، اخفض رأسك واعمل، يا كومة الخراء! عندها، سوف تجني شيئًا من ذلك، على الأقل.

أطبق فمك، واخفض رأسك، واعمل، واعرف دائمًا أنك لست أكثر من كومة خراء.

هذا ما تعلمته. هذه حصيلة تجاربي كلها.

هذه هي الفكرة القيمة الوحيدة التي توصّلت إليها.

ليس هذا إلّا وجهًا واحدًا من وجهَي قطعة نقدية. الوجه الآخر هو أنني أكون منشغل البال دائمًا بأن أكون محبوبًا، منشغل البال إلى درجة كبيرة غير معقولة. هكذا كنت دائمًا، منذ صغري. كنت أضفي أهمية كبرى على ما يظنه الناس فيّ منذ كنت في السابعة. عندما أبدت الصحف بعض الاهتمام بما كنت أفعله وبما كنته، كان ذلك تأكيدًا على أنني محبوب فاستقبل جزء مني ذلك الاهتمام بسعادة كبيرة؛ إلّا أن الأمر صار، من ناحية أخرى، أشبه بمشكلة لا تقبل حلًا لأنني لا أستطيع التحكم بآراء الآخرين، لا أستطيع التحكم بنظرتهم إليّ، لسبب بسيط هو أنني لم أعد أعرفهم، ولم أعد أراهم. لهذا، كلما أجريت مقابلة وكان فيها شيء لم أقله، أو كان فيها شيء قلته لكنه لم يظهر بصورة مناسبة، سعيت بكل ما أستطيع من قوة إلى تغيير ذلك الشيء. وإذا عجزت عن تغييره فإن صورتي في عينيَّ تحترق خجلًا. أما حقيقة أنني واصلت إجراء المقابلات رغم هذا كله، وعدت لأجلس أمام صحفي في مكان ما، فهي ناتجة عن أن رغبتي في المديح تطغى على خوفي من أن أبدو شخصًا أحمق وتطغى على مُثُل الجودة التي هي عندي، إضافة إلى أنها اعتراف بأن المقابلات مهمة حتى يصل الكاتب إلى قرّائه. عندما كتبت «زمان من أجل كل شيء»، قلت لغيير غولكسن إنني لا أريد إجراء أي مقابلات. وبعد حديثي معه، عدت فقررت إجراء المقابلات، رغم ذلك. كان تأثيره عليَّ قويًا إلى هذا الحد، فبررت لنفسي تغيير قراري متذرعًا

بأن من حق دار النشر أن تطلب مني إجراء مقابلة. لكن هذا سيء جدًا: أنا كاتب!... لستُ موظف مبيعات، ولستُ عاهرة!

تحوّل هذا كله إلى فوضى شيطانية. غالبًا ما أشتكي من أن الصحف تقدّمني في صورة شخص أحمق؛ إلّا أن هذا ليس ذنب أحد غيري لأنني أرى كيف يجري تقديم الكتاب الآخرين. تيارتان فلوغستاد، مثلًا: لا يبدو شخصًا أحمق عندما يقدمونه، لا يبدو شخصًا أحمق بكل تأكيد. فلوغستاد رجل مستقيم. إنه يقف ثابتًا مثل شجرة باسقة مهما يكن ما يجري من حوله. أظنه واحدًا من أولئك الأشخاص النادرين، الأشخاص الكاملين.

ثم إنه لا يتحدّث عن نفسه!

فما الذي أفعله أنا إن لم يكن الحديث عن نفسي... الحديث عن نفسي فقط؟

قدمت تذكرة المترو للرجل الأسود الجالس خلف مكتب التذاكر فختمها بقوة وأعادها إليّ من غير أي تعبير في عينيه، ثم عدت فنزلت السلم الكهربائي وعبرت النفق حتى وصلت إلى الرصيف الضيق هناك. جلست على أحد المقاعد بعد التأكد من أن القطار القادم يصل بعد سبع دقائق.

في آخر الخريف، عندما صدر كتابي «خارج الزمن»، أرادت محطة «TV2News» إجراء مقابلة معي. جاؤوا ليأخذوني من بيتي، ثم ذهبنا بسيارتهم إلى محطة هورتيغروتن البحرية حيث قرروا إجراء المقابلة. وفي الطريق، عندما وصلنا «مركز التكنولوجيا» عند نهاية شارع نوغاردسباركن، التفت الصحفي إليّ وسألني عمن أكون.

قال: «من أنت في حقيقة الأمر؟».

أجبته: «ماذا تعني؟».

«تعرف أن إيريك فونيس هانسن شخص عاقل محافظ من الوجهة الثقافية؛ إنه الطفل المعجزة. أما روي جاكبسون فهو كاتب الحزب الاشتراكي. وجيغديس هيورث كاتبة سكّيرة عابثة خليعة. فمن أنت؟ لا أعرف عنك شيئًا».

رفعت كتفي. كانت الشمس متلألئة على الثلج.

قلت: «لا أدري. إنني شخص عادي فحسب».

«هيا! عليك أن تعطيني شيئًا ما. ألم تفعل شيئًا؟».

«عملت في بضع وظائف. ودرست قليلًا. أنت تعرف...» استدار الرجل في مقعده. ثم حل المشكلة في وقت لاحق من ذلك اليوم عن طريق الحركة، لا الكلام: قبيل نهاية المقابلة، قام بتجميع سلسلة من لقطات للحظات التوقف والتردد القصيرة حتى يقدم شخصيتي من خلالها، وأنهاها بجملتي التالية:

«قال هنريك إبسن إن الأقوى هو من يقف وحيدًا. أظنه أخطأ في هذا».

كنت جالسًا على ذلك المقعد في المحطة فرفعت يدي إلى الأعلى وأخذت نفسًا عميقًا عندما غمرني تذكر ما قلته آنذاك.

كيف استطعت قول شيئًا من هذا القبيل؟

هل كنت مقتنعًا بما أقول؟

نعم، كنت مقتنعًا. لكني كنت أعبّر عن فكرة أمي التي كانت مشغولة الذهن دائمًا بالعلاقات بين البشر والتي كانت ترى أن القيمة كلها كامنة هناك. لم تكن الفكرة فكرتي؛ إلّا أنني كنت مقتنعًا بها آنذاك. على أن تلك القناعة ما كانت آتية من تجربة شخصية بل شيئًا من الأشياء التي تكون موجودة فيتبناها المرء. لقد كان إبسن مصيبًا! كل ما أراه من حولي يؤكد هذا. العلاقات بين البشر موجودة لكي تجتثّ الفردانية، حتى تحاصر الحرية وتقمع ما يحاول خرق هذا الحصار. أبدًا لم أرَ أمي غاضبة مثلما كانت عندما ناقشنا فكرة الحرية. عندما عبّرت عن وجهة نظري، أطلقت ضحكة ساخرة وقالت إنها ليست أكثر من فكرة أميركية من غير أي محتوى... فكرة زائفة بلهاء. نحن موجودون من أجل الآخرين! لكن، هذه هي الفكرة التي قادتنا إلى هذا الوجود المرتب بطريقة منهجية حيث يكون كل شيء متوقعًا سلفًا، وحيث يمكنك المضي من حضانة الأطفال إلى المدرسة إلى الجامعة إلى حياة العمل كما لو أنك تعبر نفقًا، وتكون مقتنعًا بأنك قررت خياراتك انطلاقًا من

إرادتك الحرة، لكنك في حقيقة الأمر تمر عبر المراحل المختلفة مثلما تمر حبات القمح أو الرمل عبر سلسلة من الغرابيل. يبدأ هذا منذ يومك الأول في المدرسة: يجري إرسال البعض إلى الوظائف العملية، والبعض الآخر إلى أعمال نظرية؛ يجري إرسال البعض إلى القمة، ويجري إرسال البعض إلى القاع؛ وخلال ذلك يعلّمونهم كلهم أن الجميع متساوون. هذه هي الفكرة التي جعلت لدينا (جيلي أنا على الأقل) تطلعات في الحياة، جعلتنا نعيش مؤمنين بأننا نستطيع أن نطالب، أن نطرح مطالب حقيقية وأن نلقي باللائمة على كل ظرف، أو على كل شيء ممكن، عدا أنفسنا، إذا لم تسر الأمور مثلما تخيّلنا. هذا ما يجعلنا حانقين على الدولة إذا فاجأتنا موجة تسونامي ولم نتلقَ مساعدة فورية. أليس هذا شيئًا حزينًا يثير الشفقة؟ تصيبك المرارة إذا لم تحصل على الوظيفة التي كنت تستحقها. إنه أسلوب التفكير الذي كان يعني أن السقوط ما عاد احتمالًا موجودًا، إلّا عند أضعف الناس على الإطلاق، لأنك تستطيع دائمًا أن تحصل على المال، ولأن مشكلة الوجود في حد ذاتها (المشكلة التي تجعلك واقفًا وجهًا لوجه أمام كارثة مهلكة أو خطر يهدد حياتك) قد أزيلت تمامًا. إنه التفكير الذي ولّد ثقافة تصدَح فيها الأمور العادية متوسطة القيمة، بدفء ومعدة لا تشكو قلة الطعام، تصدح ممتدحة ابتذالها الرخيص. هذا ما يسمح لكاتب من أمثال لارس سابيه كريستنسن، أو غيره، بأن يصير معبود الناس كما لو أنه فيرجيل نفسه جالسًا على الأريكة يخبرنا إن كان يستخدم في الكتابة قلمًا أو آلة كتابة أو كمبيوتر، أو يخبرنا عن الأوقات التي يكتب فيها خلال يومه. كنت أكره هذا، وما كنت أريد أن أعرف عنه شيئًا. لكن... من الذي تحدث للصحفيين كيف كتب كتابَيْه المتواضعَين متوسطي القيمة كما لو أنه واحد من عمالقة الأدب أو بطل من أبطال عالم الكتابة؟ من هو... إن لم يكن أنا، أنا نفسي؟

كيف يمكنك أن تجلس هناك وتتلقى المديح والتصفيق عندما تعرف أن ما فعلته ليس جيدًا إلى الحد الكافي؟

كانت أمامي فرصة واحدة فقط! عليّ أن أقطع كل صلة بعالم الثقافة المداهِن

الفاسد كليًا حيث يكون كل مبتدئ صغير مطروحًا للبيع، وأن أقطع كل صلة بعالم التلفزيون والصحافة الفارغ، وأن أجلس في غرفة وأقرأ بكل جد، أقرأ الأدب الحقيقي رفيع الجودة، لا الأدب المعاصر؛ وبعد ذلك أكتب كما لو أن حياتي متوقفة على تلك الكتابة. سأظل هكذا عشرين عامًا إن لزم الأمر.

لكني ما كنت قادرًا على اقتناص الفرصة. إن لي أسرة، ومن حقها عليّ أن أكون هنا. ولديّ أصدقاء. لديّ أيضًا ضعف في شخصيتي يجعلني أقول نعم نعم نعم عندما أريد أن أقول لا لا... أخاف كثيرًا أن أجرح الآخرين، وأخاف المواجهة والنزاع كثيرًا، وأخاف كثيرًا ألّا أكون محبوبًا... أخاف إلى حد يجعلني أتغاضى عن المبادئ كلها، وعن الأحلام كلها، وعن الفرص كلها، وعن كل ما له طعم الحقيقة، حتى أمنع هذا من الحدوث.

إنني عاهرة! هذا هو التعبير المناسب الوحيد.

بعد نصف ساعة، بعد أن وصلت وأغلقت باب البيت من خلفي، سمعت أصواتًا في غرفة المعيشة. مددت رأسي من الباب فرأيت أن ميخائيلا عندنا. كانتا جالستين على الأريكة وفي يد كل منهما فنجان شاي. وعلى الطاولة أمامهما شمعدانًا فيه ثلاث شمعات مشتعلة، وطبقًا فيه ثلاث قطع من الجبن، وسلة فيها معجنات متنوعة.

قالت ليندا: «مرحبًا يا كارل أوفه. كيف جرت الأمور؟».

ابتسمتا لي.

قلت وأنا أرفع كتفي: «لا بأس. لا شيء يستحق الحديث عنه على أي حال».

«ألست راغبًا في فنجان شاي وشيئًا من الجبن».

«لا، شكرًا».

فككت وشاحي وأنا واقف هناك، ثم علقته في الخزانة مع سترتي، وحللت رباط الحذاء ثم وضعته على الرف عند الجدار. كانت الأرض في الخارج رمادية بفعل الرمل والحصى. قلت في نفسي عليّ أن أجلس معهما قليلًا حتى لا أبدو غير اجتماعي. دخلت غرفة المعيشة.

كانت ميخائيلا تتحدث عن لقاء جرى بينها وبين ليف باغروتسكي، وزير الثقافة. كان رجلًا ضئيلًا، وكان جالسًا على أريكة ضخمة، كما قالت، مع وسادة ضخمة في حضنه. كان يعانق تلك الوسادة وهو جالس هناك، بل غرس أسنانه فيها، بحسب كلامها! إلّا أنها كانت تحترمه كثيرًا. إنه صاحب ذهن حاد الذكاء، وقدرة هائلة على العمل. ما كنت واثقًا إن كانت ميخائيلا تتمتع بهذه الصفات لأنني لم أرَها ضمن إطار عملها. لكن، ومهما تكن صفاتها، فمن الواضح أنها تخدمها جيدًا: لا يكاد عمرها يبلغ ثلاثين عامًا، لكنها ما فتئت تنتقل من وظيفة عليا إلى أخرى. وعلى غرار كثير من النساء اللواتي التقيتهنّ، كانت ميخائيلا قريبة من والدها الذي له صلة ما بعالم الأدب. أما علاقتها بأمها فكانت أكثر تعقيدًا... إنها امرأة متطلبة تعيش وحدها في شقة في غوتنبرغ... هذا ما فهمته. تغيّر ميخائيلا شركاءها كثيرًا، لكن بينهم جميعًا عنصرًا مشتركًا، مهما تغيروا: هم أقل منها دائمًا! من بين القصص الكثيرة التي سمعتها منها خلال ثلاث سنوات منذ عرفتها، علقت في ذهني قصة واحدة بعينها. كنا جالسين في بار في فولكوبيران، فحكت لنا حلمًا جاءها في منامها: كانت في حفلة، لكنها ذهبت إليها من غير بنطلون. وهكذا فقد كان نصفها الأسفل عاريًا، مثل «بَطوط» في أفلام الكارتون. قالت إن هذا جعلها تشعر بالانزعاج والخجل، لكن ذلك الإحساس لم يكن كل شيء لأن هنالك شيئًا مثيرًا مغريًا في الأمر أيضًا. وعند ذلك، استلقت على الطاولة رافعة مؤخرتها العارية في الهواء.

ماذا يمكن أن يعني هذا الحلم، في رأيي؟

نَعْـ عَـم، ماذا يمكن أن يعني؟

عندما أخبرتنا عن هذا الحلم، لم أكن أظن أنها صادقة، ولم أكن أظن أيضًا أن الآخرين الجالسين من حول الطاولة آنذاك يعرفون شيئًا لا أعرفه، وذلك بالتأكيد لأن هذا الحلم يقول عنها شيئًا لا تريد أن يعرفه الجميع. ومنذ ذلك الوقت، كانت هذه اللمحة من السذاجة التي تبدّت بطريقة غير متوقعة على الإطلاق ضمن إطار سلوكها المثقف المتمرس عادة، صرت أنظر إليها

بمزيج من العاطفة والعجب. هل كان هذا ما رمت إليه؟ مهما يكن السبب، فقد كانت ميخائيلا تقدّر ليندا كثيرًا وتلجأ إليها طالبة النصح أحيانًا لأنها تعرف، مثلي، أن ليندا تملك حدسًا وذوقًا لا يخطئان. لم يكن يفاجئني أن تبالغ ميخائيلا، في مناسبات من هذا النوع، في التركيز على نفسها... كان هذا شيئًا أستطيع مسامحتها عليه تمامًا. كما أن ما كانت تخبرنا إياه عن دهاليز السلطة كان مثيرًا للاهتمام دائمًا (مثيرًا لاهتمامي أنا على الأقل لأنني أعيش على الهامش بعيدًا عن هذا كله). أما إذا اتخذتَ منظورًا آخر ووضعت نفسك مكانها، فقد كانت تزور صديقة قريبة منها، لكنها شديدة الهشاشة، وزوجها الصموت؛ فماذا يكون لديها من خيار غير أن تبادر إلى منح هذه الأسرة الصغيرة شيئًا من سعادتها وطاقتها؟ إن ميخائيلا عرّابة فانيا، وقد شاركت في التعميد وكان لحضورها أثر طيب عند أمي جعلها تسأل عنها باستمرار، حتى الآن. كانت مهتمة بما تقوله أمي، وذهبَت إلى المطبخ للمساعدة في غسل الأطباق عندما قاربت الحفلة نهايتها، فكانت تكشف بهذا عن قدر من التفهم لم تفلح ليندا أبدًا في إظهاره إلى هذا الحد مع كل ما سببه هذا من احتكاك خفي كامن بينها وبين أمي. هذا هو سبب امتلاكنا المعايير الاجتماعية، لأنها تساعدنا في التعايش، ولأنها في حد ذاتها إشارات إلى الصداقة أو حسن النوايا التي يصير تحمل التباعدات الشخصية ممكنًا عند استخدامها فيُتاح مجال أكبر للخصائص الفردانية. إلّا أن من يشاء حظهم العاثر أن تبعدهم فردانيتهم عن الآخرين لا يفهمون الوظيفة التي تقوم بها تلك المعايير لأن من طبيعة هذه الفردانية ألّا يفهموا. ما كانت ليندا تحب أن تَخدُم، بل تحب أن تُخدَم؛ والنتيجة هي أنها لا تُخدَم. أما ميخائيلا فتخدُم، وهذا ما يجعلها تُخدَم أيضًا، الأمر على هذه الدرجة من البساطة. كان يؤلمني أيضًا أن تظل أمي بعيدة هكذا عن ليندا لأن في شخصيتها نوع مختلف من الغنى والمفاجآت، هاويات مفاجئة، وهبّات ريح غير متوقعة، وجدران مقاومة ضخمة. إن التعامل السلس مع الأمور والعمل على الوصول إلى غياب المقاومة بحيث يصير كل شيء سهلًا هينًا هو نقيض جوهر الفن، وهو نقيض الحكمة، لأن

هذا التعامل قائم على وضع القيود أو قبولها. وهكذا يكون السؤال: ماذا تختار؟ أتختار السهولة التي هي قريبة من الحياة، أم المنطقة حيث يقع الفن، لكن حيث يقع الموت أيضًا، بمعنى من المعاني؟

قلت: «سأتناول فنجان شاي. غيّرت رأيي».

قالت ليندا: «إننا نشرب شاي الأعشاب. وأنت لا تحبه، أليس كذلك؟ لكني أظن أن الماء لا يزال حارًا».

قلت: «لا، لا أظنه حارًا». ثم ذهبت إلى المطبخ. وفي انتظار غليان الماء، أخرجت قلم رصاص ووقفت على كرسي أمام الخزانة فوضعت علامات على الزجاجات كلها. نقطة صغيرة على كل لصاقة ولا شيء أكثر من ذلك؛ نقطة صغيرة لا تراها إلّا إذا كنت تعرف أنها موجودة. كنت أتصرف كأنني أبٌ لأحد المراهقين. شعرت بشيء من الغباء في وقفتي هذه على الكرسي. لكني لم أرَ سبيلًا آخر. لا أريد أن تشرب المرأة التي تعتني بابنتي، والتي هي أقرب شخص إليها بعدنا أنا وليندا، لا أريد أن تشرب عندما تكون معها.

ألقيت كيس الشاي في الفنجان وسكبت عليه الماء الحار. نظرت من النافذة إلى مطعم نالين حيث كان الطبّاخون يرشّون الأرض بخرطوم الماء، وحيث كان البخار يتصاعد من آلة غسل الأطباق. سمعت من غرفة الجلوس أصواتًا فهمت منها أن ميخائيلا ذاهبة إلى بيتها. خرجت إلى الصالة فودعتها. ثم جلست أمام الكمبيوتر وتفقدت بريدي فلم أجد شيئًا. تجولت بين عدة مواقع على الإنترنت ثم بحثت عن اسمي في غوغل. وجدت أكثر من تسعة وعشرين ألف نتيجة. كان الرقم يرتفع وينخفض كأنه مؤشر ما. بحثت في النتائج ونقرت على بعضها عشوائيًا. ابتعدت عن المقابلات والمراجعات، ونقرت على بعض المدوَّنات التي عثرت عليها. كتب أحدهم أن كتابي لا يستحق حتى أن يمسح المرء به مؤخرته. وفي مكان آخر وجدت صفحة لمجلة أو دار نشر صغيرة ظهر اسمي فيها تحت صورة لأولِه روبرت سوندِه. كان يقول لكل من يحب الإصغاء إليه إن كتاب كناوسغارد الأخير كان في غاية الرداءة. ثم وقعت في الصفحة نفسها على وثائق تتحدث عن خلاف

على الحدود بين اثنين من الجيران. من الواضح أن أحدهما من أقارب صاحب المدوَّنة. وكان سبب الخلاف جدار مرآب للسيارة ممتد أكثر مما ينبغي أو أقل مما ينبغي بعدة أمتار.

سألتني ليندا من خلفي: «ماذا تفعل؟».

«أبحث عن اسمي في غوغل. هذا يشبه صندوق باندورا ملعون. لا يمكنك تصديق ما يقوله الناس».

قالت: «عليك ألا تفعل هذا. تعال هنا واجلس».

قلت: «سوف آتي. عليَّ أن أتحقّق من بعض الأشياء أولًا».

في الصباح التالي، خرجت متوجهًا إلى المكتب عندما جاءت إنغريد لتأخذ فانيا عند الساعة الثامنة. جلست هناك حتى الساعة الثالثة أكتب الكلمة التي سألقيها ثم عدت في الثالثة والنصف. كانت ليندا في الحمام. إنها ذاهبة لتناول الطعام في الخارج مع كريستينا. دخلت المطبخ ونظرت إلى الزجاجات. لقد شرب أحد ما من زجاجتين.

ذهبت إلى ليندا وجلست على غطاء مقعد المرحاض في الحمام.

قالت مع ابتسامة: «مرحبًا. لقد اشتريت لنفسي اليوم رغوة من أجل الحمام».

كان حوض الاستحمام مليئًا بالرغوة. عندما رفعت ليندا ذراعها لكي تنهض نفسها وتجلس في الحوض، تدلى منها شريط من فقاعات الرغوة.

أجبتها: «أرى هذا. هنالك ما يجب أن نتحدث عنه».

«ماذا؟».

«إنها أمك! هل تذكرين ما قلته لك من أن مستوى الشراب في الزجاجات قد انخفض بشكل واضح في الآونة الأخيرة؟».

«نعم أذكر هذا».

«لقد وضعت علامات على الزجاجات يوم أمس، وذلك حتى أكون واثقًا. لقد انخفض منسوب الشراب من جديد. إذا لم يكن ذلك أنت، فإنها أمك».

«أمي؟».

«نعم. إنها تشرب عندما تكون هنا مع فانيا. الأمر متواصل طيلة الأسبوع؛ ولا أظن أن هنالك ما يجعلنا نظن أن الأمر قد بدأ الآن».

«هل أنت واثق مما تقول؟».

«نعم، واثق تمامًا».

«ماذا نفعل؟».

«نقول لها إننا نعرف ما يحدث. ونقول إننا لا نقبل هذا».

قالت: «هذا طبيعي»، ثم صمتت.

سألتها بعد قليل: «متى تعودان؟».

نظرت إليّ وقالت: «في الخامسة تقريبًا».

«ماذا تقترحين؟».

قالت: «علينا أن نخبرها. ببساطة، علينا أن نعطيها إنذارًا. إذا فعلت ذلك من جديد فإننا لا نستطيع تركها وحدها مع فانيا».

«نعم».

قالت ليندا، وكان من الواضح أنها غارقة في أفكارها: «لا بد أن هذا مستمر منذ عدة سنوات. إنه يفسر أشياء كثيرة. صار الحديث معها صعبًا إلى حد لا يصدق. يكاد يكون التواصل الحقيقي معها شيئًا مستحيلًا».

نهضت وقلت: «قد لا يكون هذا بسبب الشرب. لعله شيء بينها وبين فيدار. لعلها عالقة في وضع لا ترى مخرجًا منه. وهذا يصيبها بالتعاسة».

«بعد أن تتجاوز الستين، لا يمكن أن تبدأ الشرب لأنك تشعر بالتعاسة. لا بد أن تكون هنالك طريقة للتأقلم. أظن أن هذا الأمر جارٍ منذ زمن طويل».

قلت: «سوف تصلان بعد نصف ساعة تقريبًا. هل نتناسى الأمر الآن ونؤجل معالجته إلى وقت لاحق، أم نتكلم معها مباشرة؟... ننتهي من الأمر على الفور».

قالت ليندا: «لا أرى سببًا يحملنا على الانتظار. لكن، كيف نقول لها ذلك؟ لا أستطيع فعل هذا بمفردي. سوف تنكر الأمر وتجعل الأمر كله متعلقًا بي، على نحو ما. هل نحدثها معًا؟».

«هل تعنين أن ذلك سيكون نوعًا من اجتماع عائلي؟».

رفعت ليندا كتفيها ثم أدارت كفيها إلى الأعلى في حوض الاستحمام.

قالت: «الحقيقة، لست أدري».

«الأمر معقد حقًا. ثم إننا اثنان في مواجهتها وحدها. شيء كأنه محاكمة. يمكنني أن أفعل هذا بنفسي. سوف أخرج معها وأكلمها».

«هل أنت راغب في فعل هذا؟».

«ماذا؟ هذا آخر شيء في الدنيا أريد فعله. إنها حماتي، فماذا تظنين؟ لا أريد إلّا شيئًا من اللياقة والاحترام والسلام والهدوء».

قالت ليندا: «يسرّني أنك ستتولى الأمر».

قلت: «عليّ القول أيضًا إنك تتعاملين مع الموضوع بطريقة جيدة».

«تكاد هذه تكون الحالة الوحيدة التي أحافظ فيها على هدوئي، عندما يحدث شيء غير متوقّع، عند حدوث أزمة ما. هذا شيء باقٍ عندي من أيام طفولتي. كان هذا هو الوضع المعتاد في ذلك الوقت. لقد ألفته تمامًا. لكني غاضبة أيضًا، حتى تعرف حقيقة مشاعري! نحن في حاجة إليها الآن. وعليها أن تكون شخصًا مقرَّبًا من أطفالنا. ليس لديهم عائلة، تقريبًا، كما تعلم. لا يمكنها أن تخذلنا الآن. لا يمكنها أن تفعل هذا بنا حتى إذا اضطررت إلى إجبارها على ذلك».

قلت: «أطفالنا؟ هل تعرفين شيئًا لا أعرفه».

ابتسمت وهزت رأسها: «لا. لكن، أظنني أحس شيئًا».

خرجت وأغلقت الباب من خلفي، ثم وقفت أمام نافذة غرفة المعيشة. سمعت صوت إفراغ الماء من حوض الحمام، ونظرت إلى الشعلة المتراقصة أمام المقهى على الناحية الأخرى من الشارع الضيق، والشخوص الداكنة ذات الوجوه البيضاء كأنها أقنعة تسير على الرصيف. في الطابق الذي فوقنا، كان أحد الجيران يعزف الغيتار، أتت ليندا إلى الصالة وقد لفّت رأسها بمنشفة حمراء كأنها عمامة، ثم اختفت خلف باب الخزانة المفتوح. ذهبت لأتفقد بريدي. وجدت رسالة من توريه، ومن جينا وينيه. بدأت أكتب ردًا

على رسالتها، ثم حذفت ما كتبته. ذهبت إلى المطبخ وشغّلت آلة القهوة. ثم شربت كأسًا من الماء. كانت ليندا واقفة أمام المرآة في الصالة تضع الماكياج.

سألتها: «متى تصل كريستينا؟».

«في السادسة. لكن من الأفضل أن أستعد الآن، ونحن وحدنا. بالمناسبة، كيف كان نهارك؟ هل أنجزت شيئًا؟».

«أنجزت القليل. عليّ إنجاز ما بقيَ مساء الغد ويوم الجمعة».

سألتني وهي تميل برأسها إلى الخلف وتمر على رموش عينيها بفرشاة صغيرة: «هل أنت مسافر يوم السبت؟».

«نعم».

سمعت صوت المصعد في الخارج. ليس في البناية سكان كثيرون. وهذا يعني على الأرجح أن فانيا وجدّتها قد وصلتا. نعم، لقد وصلتا. توقّف المصعد وانفتح باب الممر. ثم تبعه مباشرة صوت حركة العربة عندما تتراجع إلى الخلف.

فتحت إنغريد الباب ودخلت الصالة التي امتلأت على الفور بحضورها الحيوي النشط.

قالت: «نامت فانيا في الطريق. لقد تعبت كثيرًا، حبيبتي الصغيرة المسكينة. لكنها فعلت الكثير اليوم! ذهبنا إلى متحف الأطفال، اشتريت بطاقة موسمية يمكنكما الاحتفاظ بها حتى تدخلوا مجانًا حتى آخر هذه السنة...».

وضعت الأكياس التي تحملها، وأخرجت محفظتها من جيب سترتها، ثم أخرجت منها بطاقة صفراء قدمتها إلى ليندا.

«وقد اشترينا أيضًا أوفرولًا جديدًا مثل الأوفرول القديم الذي صار صغيرًا عليها... آمل ألا يزعجكما هذا!».

نظرت إنغريد إليّ فهززت رأسي.

«واشترينا أيضًا زوجًا من القفازات وجدناه هنا».

بحثت في الأكياس، ثم أخرجت زوجًا من القفازات الحمراء.

«إن لها خطافات من أجل وصلها بالكمَّيْن. زوج من القفازات اللطيفة الدافئة الكبيرة».

نظرت إلى ليندا وسألتها: «هل أنت خارجة؟ أوه، نعم، ستخرجين الليلة مع كريستينا...» ثم نظرت إليّ... «هكذا سيكون عليكما، أنت وغيير، أن تفكرا في شيء ما. لكني لن أعطلك. سأذهب الآن». استدارت إلى فانيا التي كانت مستلقية في العربة خلفها وقد غطت قبعتها عينيها.

«أظنها ستنام ساعة أخرى. لم تنم كثيرًا هذا الصباح. هل أضعها في غرفة المعيشة؟».

قلت: «يمكنني فعل هذا. هل أنت عائدة إلى غنيستا، أم ماذا؟».

نظرت إليّ ورفعت حاجبيها: «لا. إنني ذاهبة إلى المسرح مع باربرو. كنت أعتزم استعارة مكتبك ليلة أخرى. ظننت أن... لقد أخبرت ليندا. هل أنت في حاجة إلى المكتب هذه الليلة؟».

قلت: «لا، لا. كنت أتساءل فقط. في الحقيقة، أريد أن أتحدث معك. هنالك شيء يجب أن أقوله لك».

راحت عيناها الكبيرتان من خلف نظارتها السميكة تتفحصاني بنظرة فيها شيء من عدم الارتياح.

قلت لها: «ألا تحبين أن نتمشى قليلًا؟».

قالت: «لا بأس».

«فلنذهب الآن. لن يستغرق الأمر طويلًا».

حللت المسامير الملولبة التي تثبت الباب المزدوج، ثم فتحت الباب على اتساعه وأدخلت عربة فانيا. بينما كنت أفعل هذا، ذهبت إنغريد إلى المطبخ لتشرب كأسًا من الماء. صرت جاهزًا فوقفت على مسافة بضعة أمتار وانتظرت. كنت غارقًا في أفكاري، وكانت ليندا قد دخلت غرفة المعيشة».

قالت إنغريد عندما أغلقت باب البيت من خلفنا: «لا تقل لي إنكما ستنفصلان! أرجوك، لا تقل لي إنكما ستنفصلان و...».

كان وجهها شاحبًا عندما قالت هذه الكلمات.

«لا، لن ننفصل. يا إلهي، لا! لا، لن ننفصل. أريد أن نتحدث في أمر مختلف تمامًا».

«أوووف، لقد ارتحت تمامًا الآن».

مضينا إلى الفناء الخلفي، ثم عبرنا البوابة إلى شارع دافيد باغاريس غاتا فسرنا فيه حتى مالمسكيلسغاتان. لم أقل شيئًا لأنني لم أعرف كيف أشرح ما أريد، لم أعرف كيف أبدأ الكلام. لم تقل إنغريد شيئًا أيضًا، التفتت إلي مرة أو مرتين بترقب ودهشة.

قلت عندما اقتربنا من تقاطع الطرق وبدأنا السير في اتجاه جوهانسكيرك: «لست أعرف تمامًا كيف أقول هذا».

صمت قصير.

«لكنه... حسنٌ يمكنني الدخول في الموضوع مباشرة. أعرف أنك كنت تشربين خلال وجودك مع فانيا اليوم. كنت تشربين بالأمس أيضًا. وأنا... نعم، لا يمكنني التسامح في هذا الأمر. هذا ليس جيدًا أبدًا. لا يمكنك فعله».

كانت عيناها مثبتتين عليّ طيلة سيرنا.

تابعت الكلام: «لا أريد أن أفرض قيودًا عليك بأي طريقة. من ناحيتي، يمكنك أن تفعلي ما تشائين، بطبيعة الحال. لكن ليس عندما ترعين فانيا. عليّ أن أضع حدودًا. هذا سيء جدًا. هل تفهمين؟».

قال بدهشة: «لا. لا أعرف ما تتحدث عنه. لم أشرب أبدًا خلال رعايتي فانيًا. أبدًا. ولا يمكن أن يخطر لي هذا، على الإطلاق. من أين أتيت بهذا؟».

حدث انهيار في داخلي مثلما يحدث دائمًا عندما أكون في مواقف حساسة، مواقف معذِّبة، فأهرب إلى الأمام، أو أجد نفسي مرغمًا إلى الذهاب إلى أكثر ما أريد. وفي هذه الحالات، أرى كل ما يحيط بي (بما في ذلك نفسي) بوضوح متميز يكاد يكون أكثر من حقيقي. السطح المعدني الأخضر على برج الكنيسة أمامنا، والأشجار العارية من أوراقها في المقبرة التي كنا نسير بالقرب منها، والسيارة، السيارة الزرقاء اللامعة المنطلقة على

الناحية الأخرى من الطريق. قامتي المنحنية قليلًا، وخطوات إنغريد الأكثر حيوية إلى جانبي. وعيناها اللتان تنظران إلي. عينان فيهما حيرة، وقدر طفيف من اللوم، ظل يكاد يكون غير محسوس.

«لاحظت أن مستويات السائل في الزجاجات تنخفض. وحتى أكون واثقًا، وضعت علامات على الزجاجات يوم أمس. عندما عدت إلى البيت، رأيت أن مزيدًا من النقص قد حدث. لم أشرب شيئًا. ولم يكن في البيت أحد آخر اليوم إلّا ليندا. أعرف أنها ليست ليندا. وهذا يعني أنك أنت التي شربت من الزجاجات. ما من تفسير آخر».

قالت: «يجب أن يكون هنالك تفسير آخر لأنني لم أشرب شيئًا. آسفة يا كارل أوفه، لكني لم أشرب شيئًا من مشروباتكم».

«استمعي! أنت حماتي. لا أتمنى لك إلّا الخير. لا أريد هذا. لا أريده أبدًا. آخر ما أفكر فيه هو أن أتهمك بأي شيء. لكن، ما الذي يمكنني فعله عندما أكون واثقًا مما حدث؟».

قالت: «لكنك لست واثقًا. فأنا لم أفعل هذا».

آلمتني معدتي. وجدت نفسي أسير في الجحيم.

قلت لها: «عليك أن تفهمي يا إنغريد... مهما قلتِ، فإن لهذا الأمر نتائجه. أنت حماة رائعة، وأنت تفعلين الكثير من أجل فانيا. إنك تمثلين بالنسبة إلى فانيا أكثر مما يمثله أي شخص آخر. وأنا سعيد جدًا بهذا. وأريده أن يستمر. ليس لنا أقارب كثر من حولنا، كما تعرفين. لكننا لا نستطيع أن نثق بك إذا لم تتوقفي عن هذا. هل تفهمين ما أقول؟ لا أعني أنك لن تكوني قادرة على رؤية فانيا، لأنك سترينها مهما حدث. لكن، إذا لم تتوقفي، إذا لم توافقي على وضع هذا الشيء خلف ظهرك، فلن تكوني قادرة على قضاء الوقت معها بمفردك. لن تكوني معها وحدك أبدًا. هل تفهمين ما أقول؟».

«نعم، إنني أفهم. هذا مخجل كثيرًا. لكني لا أجد طريقة أخرى للإجابة. لا يمكنني الاعتراف بفعل شيء لا أفعله. حتى إذا كنت راغبة في الاعتراف... لا أستطيع».

قلت: «لا بأس. لا حاجة إلى الاستمرار في هذا الحديث الآن. أقترح ترك الأمر بعض الوقت. وعند ذلك يمكننا العودة إلى مناقشته من جديد والتوصل إلى ما يجب فعله».

قالت: «لا بأس. لكن هذا لن يغير شيئًا وأنت تعرف هذا».

«لا بأس».

هبطنا الدرجات الحجرية أمام المدرسة الفرنسية، ثم سرنا في دوبلنسغاتان حتى جوهانسكان، وعبرنا مالمسكينادسغاتان، ثم انحدرنا إلى دافيد داغاريس غاتا. لم نقل أي كلمة خلال الطريق. كنت أسير منحني القامة، بخطوات واسعة؛ وكانت تكاد تهرول إلى جانبي. لا يجوز أن يكون الأمر هكذا لأنها حماتي؛ وما من سبب في العالم يجعلني أحاول تقويمها، أو معاقبتها، إلّا هذا السبب! كنت أشعر بالتفاهة، ثم ازداد شعوري بالتفاهة عندما أنكرَتْ كل شيء.

وضعت المفتاح في القفل وفتحت البوابة أمامها. ابتسمت لي ثم دخلت.

كيف يمكنها أن تكون هادئة إلى هذا الحد وأن تجيبني بهذه الثقة كلها؟ هل يمكن أن تكون ليندا؟ لا، هذا غير ممكن بالطبع.

لكن، هل أنا مخطئ؟ هل ارتكبت غلطة ما؟ لا. أم ماذا؟

كانت المرأة ذات الثوب الأبيض التي تعمل في محل الحلاقة واقفة تدخن في الفناء. حيّيتها فابتسمت. توقفت إنغريد أمام الباب الخارجي الذي فتحته أمامها.

قالت لي عندما كنا صاعدَيْن إلى السلم: «أنا ذاهبة الآن، نستطيع مواصلة الحديث لاحقًا كما اقترحت. وفي ذلك الوقت ربما تكون قد توصلت إلى اكتشاف ما يحدث».

أخذَتْ حقيبة اليد واثنين من أكياسها البلاستيكية، ثم ابتسمت كعادتها عندما ودعتني. إلّا أنها لم تعانقني!

أتت ليندا إلى الصالة بعد ذهاب أمها.

«كيف كان الأمر؟ ماذا قالت؟».

«قالت إنها لم تكن تشرب خلال وجودها مع فانيا. لم تشرب شيئًا اليوم أيضًا. ولم يكن لديها تفسير لانخفاض مستوى الشراب في الزجاجات».

«إذا كانت مدمنة كحول فإن الإنكار جزء من الصورة كلها».

قلت: «هذا ممكن. لكن، ما الذي أستطيع فعله؟ إنها تقول لا، لم أفعل هذا. وأنا أقول بلى، أنت من فعله. فتقول لا، لم أفعله. لا أستطيع إثبات شيء. ليست لدينا كاميرا مراقبة في المطبخ».

«بما أننا نعرف ما يحدث، فإن كلامها ليس مهمًا كثيرًا. إذا كانت تريد أن تلعب ألعابًا فعليها أن تتحمل النتائج».

«وما هي النتائج؟».

«لا نستطيع تركها وحدها مع فانيا».

قلت: «أوه، يا للجحيم! يا للخراء! تخيلي أنني كنت أسير في الشارع مع حماتي مصرًا على أنها تشرب. ما هذا؟!».

«يسعدني أنك فعلت هذا. سوف تعترف بالأمر في النهاية، على الأرجح».

«لا أظنها تفعل».

كم هي الحياة سريعة في مد جذور جديدة! وكم تنتقل سريعًا من كونك غريبًا في مدينة إلى أن تمتصك تلك المدينة. منذ ثلاث سنوات، كنت أعيش في بيرغن، وما كنت في ذلك الوقت أعرف شيئًا عن ستوكهولم. ما كنت أعرف أحدًا فيها. ثم ذهبت إلى ستوكهولم، المجهولة، التي يسكنها غرباء؛ وتدريجيًا، يومًا بعد يوم، وعلى نحو غير محسوس، بدأت أشبك حياتي بحياتهم إلى أن صارت غير قابلة للانفصال. لو ذهبت إلى لندن (كان يمكن تمامًا أن أذهب إليها)، لحدث مثلما حدث هنا، لكن مع أشخاص آخرين. كان الأمر عشوائيًا إلى هذه الدرجة، ضخمًا إلى هذه الدرجة.

اتصلت إنغريد بليندا في اليوم التالي واعترفت بكل شيء. قالت إنها لا ترى خطورة في الأمر، لكنها (بما أننا نراه خطيرًا) ستفعل كل ما يلزم لضمان ألّا يسبب هذا أي مشكلة من جديد. لقد رتبت موعدًا مع أحد أحصائيي

معالجة الإدمان الكحولي وقرّرت إنفاق مزيد من الوقت على نفسها وعلى حاجاتها لأنها ترى أن جزءًا من المشكلة كامن هنا، كامن في الضغط الكبير الذي تفرضه على نفسها.

كانت ليندا محبَطة بعد تلك المكالمة لأن أمها، كما قالت لي، بدت لها شديدة التفاؤل. ظلت تقول لي إن التواصل الحقيقي معها مستحيل، لأن الأمر كان كأنها فقدت إدراك الواقع وبدأت تعيش في مستقبل مضيء خالي البال.

«لا أستطيع الحديث معها! ليس لي تواصل حقيقي معها. كلامها كله تفاهات وكلمات، وما أروع هذا، وما أروع ذاك! أنت مثلًا... لقد أغدقت عليك الثناء لكيفية تعاملك مع الموقف. وأنا عظيمة، وكل شيء رائع. لكن هذا كله يأتي بعد يوم واحد من قولك لها إننا لا نقبل أن تشرب وهي ترعى فانيا! إنني قلقة عليها قلقًا حقيقيًا يا كارل أوفه. يبدو الأمر كأنها تعاني، لكنها لا تعرف أنها تعاني، إن كنت تفهم ما أقول. إنها تكتم كل شيء. من حقها أن تستمتع بغسق حياتها. ولا يجوز أن تتعرض لمعاناة أو عذاب؛ لا يجوز أن تشرب لكي تُغرِق أحزانها. لكن، ماذا نستطيع أن نفعل؟ من الواضح أنها لا تريد أي مساعدة. بل إنها غير مستعدة حتى للاعتراف بأن لديها مشكلات في حياتها».

قلت: «لكنك ابنتها. ليس غريبًا ألّا تريد منك مساعدتها. وليس غريبًا أن ترفض الاعتراف لك بأن هنالك شيء ما ليس مثلما ينبغي أن يكون. كانت حياتها كلها متجهة نحو مساعدة الآخرين. أنت، وشقيقك، ووالدك، والجيران. إذا صرتم تساعدونها، فسوف يتفكك كل شيء في حياتها وينهار».

«أنا واثقة من أنك على حق. لكنني لا أريد أكثر من التواصل معها. هل تفهمني؟».

«نعم، أفهمك».

بعد خمسة أيام، تلقيت رسالة إلكترونية من آفتنبوستن. وكانت المقابلة

في الملف الملحق بتلك الرسالة. جعلتني قراءة المقابلة حزينًا. إنها حالة لا أمل فيها. وليس لي أن ألوم أحدًا غير نفسي. لكني كتبت للصحفي ردًا طويلًا حاولت فيه التوسع في ما يخصني من الأمر، أي أنني حاولت كتابة ما يشبه نظرتي الجدية إلى الموضوع. وبطبيعة الحال، قادني هذا إلى التورط أكثر. اتصل بي الصحفي بعد ذلك بوقت قصير واقترح إضافة ردي إلى المقابلة على موقعهم الإلكتروني. لكني رفضت هذا الاقتراح. ليس هذا ما أريده. ما كنت قادرًا على فعل شيء غير نسيان الصحيفة في ذلك اليوم والكف عن التفكير في السبب الذي جعلني أظهر غبيًا إلى هذا الحد. نعم، لقد كنت غبيًا، لا بأس، عليّ أن أتعايش مع هذا.

تشتمل البانوراما الشاملة على صور تبيّن شيئًا من الحياة الخاصة للشخص. وبما أنني لا أملك صورًا من هذا النوع، فقد طلبت من أمي إرسال بعض منها. لم تصل الصور في الموعد، وكان الصحفي يطالبني بها، فاتصلت بإنغفه الذي أرسل لي بعض الصور عن طريق البريد الإلكتروني في حين وصلت صور أمي بعد أسبوع من ذلك مغلفة بألواح كرتونية سميكة ملصقة بعناية وبمعلومات تفصيلية كتبتها بخط يدها تحت كل صورة. كان مقدار اعتزازها واضحًا، فازداد القنوط في داخلي وارتفع كأنه جدار. شعرت برغبة في الاختفاء في أعماق غابة من الغابات في مكان ما حيث أبني كوخًا من جذوع الأشجار وأظل هناك بعيدًا عن المدنية، أظل جالسًا أحدق في النار. الناس!... أُف... من عساه يحتاج إليهم؟

لقد كتب الصحفي: «شاب من سورلاند بأصابع صبغها النيكوتين وأسنان تغير لونها قليلًا». انحفرت هذه الجملة في ذهني على نحو لا يُمحى.

لكني نلت ما أستحقه. ألم أكتب منذ سنين طويلة، أنا نفسي، مقابلة مع يان كجارستاد عنونتها: «رجل من غير ذقن»؟ فعلت ذلك من غير أن أدرك مقدار الإساءة في هذا العنوان.

ها ها ها!

لا، إلى الجحيم! هذا لا يستحق القلق. كان عليّ أن أرفض كل شيء، وأن أحتمل شهوري الأخيرة في البيت مع فانيا، وأن أستأنف العمل في شهر نيسان. عليّ أن أكون مُجِدًا، منهجيًا، وأن تظل عيني مفتوحة من أجل أي شيء يأتي بالبهجة والطاقة والنور. عليّ أن أحتفي بما لديّ وأرعاه، وأن أتجاهل كل ما عداه.

في تلك اللحظة، استيقظت فانيا في غرفة النوم. رفعتها وحملتها على صدري، ثم سرت بها بضع دقائق إلى أن كفّت عن البكاء وصارت مستعدة للطعام. سخنت البطاطا مع بعض البازلاء في المايكروويف، ثم هرست ذلك مع شيء من الزبدة وبحثت عن لحم في البراد فوجدت صحنًا فيه قطعتين من السمك سخنتهما أيضًا، ثم وضعت ذلك كله أمامها. كانت جائعة. وبما أنني كنت قادرًا على رؤيتها من غرفة المعيشة، فقد ذهبت لأتفقد بريدي من جديد وأجيب على بعض الرسائل بينما تظل أذني منتبهة إلى أي صوت يوحي بالانزعاج.

قلت عندما عدت إليها: «هل أكلت كل شيء؟!».

ابتسمت فرحة ورمت فنجان الماء على الأرض. رفعتها فتناثر فُتات الخبز على ذقني. أدخلت إصبعها في فمي. ضحكت وقذفت بها في الهواء عدة مرات، ثم أحضرت حفاضًا من الحمام وبدّلت حفاضها. وضعتها على الأرض وذهبت لأرمي الحفاض المتسخ في سلة المهملات تحت المغسلة. عندما عدت، كانت واقفة في وسط الغرفة، تتمايل. بدأت تمشي في اتجاهي.

عددت خطواتها: «واحد! اثنان! ثلاثة! أربعة! خمسة! ستة!... رقم قياسي جديد!».

لاحظت فانيا أن شيئًا استثنائيًا قد حدث لأن وجهها كان مبتسمًا كله. لعلها كانت مفعمة بالمتعة الحسية، متعة المشي.

ألبستها ثياب الخروج وحملتها إلى العربة في غرفة الدراجات في الأسفل. كان نهارًا مضيئًا يشبه الربيع رغم أن الشمس لم تكن ظاهرة. وكان

الرصيف جافًا. كتبت لليندا رسالة نصية أخبرها فيها عن المشية الطويلة الأولى. أتتني إجابتها: «رائع! أكون في البيت عند الثانية عشرة والنصف. أحبكما!».

دخلت السوبرماركت في محطة المترو عند ستوربلان، واشتريت دجاجة مشوية، وخسة، وبعض الطماطم، وخيارة، وزيتونًا أسود، وبصلتين، ورغيف خبز فرنسيّ. ثم عرّجت على هيدنغرينز في طريق عودتي فوجدت كتابًا عن ألمانيا النازية، ووجدت الجزءين الأولين من رأس المال، وكذلك رواية 1984 لجورج أورويل، لم أقرأ هذه الرواية. وجدت كتابًا فيه مجموعة مقالات لجورج أورويل أيضًا، وكتابًا آخر عن سيلين من تأليف إكروالد، وكذلك آخر كتاب لدون ديليلو. لكن فانيا وضعت حدًا لذلك، فكان عليّ أن أذهب لأدفع ثمن الكتب قبل الانصراف. ندمت على شراء كتاب ديليلو فور خروجي لأنني، رغم كوني معجبًا به وبروايتيه «الأسماء» و«ضوضاء بيضاء» خاصة، لم أتمكن من قراءة أكثر من نصف «العالم السفلي»؛ وبما أن كتابه الأخير كان سيئًا، فقد كان واضحًا لي أنه في انحدار. كنت على وشك العودة لاستبدال الكتاب لأنني رأيت كتابين آخرين بديا لي جيدين... رواية إيسترهازي الأخيرة «تناغمات سماوية» التي يتحدث فيها عن أبيه. لكنني كنت أفضل عدم قراءة الروايات باللغة السويدية لأنها شديدة القرب من لغتي، وهذا ما يهدد دائمًا بالتأثير على لغتي النرويجية وإفسادها. إذا كان الكتاب متوفرًا بالنرويجية فإنني أقرأه بالنرويجية، خاصة وأنني لا أقرأ بلغتي الأم إلّا قليلًا. هنالك سبب آخر لعدم عودتي لاستبدال الكتاب... لا أملك الوقت الكافي للعودة وإعداد الطعام قبل وصول ليندا إلى البيت. وكان من الواضح أيضًا أن فانيا أحست أنني نظرت إلى ما يكفي من الكتب في تلك المكتبة.

صعدنا إلى الشقة. وفي المطبخ، أعددت سلطة الدجاج، وقطعت الخبز، ووضعت أدوات الطعام على الطاولة، أما فانيا فكانت جالسة على الأرض تُدخِل كرات خشبية صغيرة في ثقوب لوحة خشبية مستخدِمةً مطرقة صغيرة فتجري الكرات على منزلق صغير ثم تسقط إلى الأرض.

كان عليها أن تتوقّف عن ذلك بعد خمس دقائق لأن المرأة الروسية بدأت تدق على أنابيب التدفئة. كنت أكره ذلك الصوت، وأكره انتظاره، رغم أن ردة فعلها لم تكن غير مبررة هذه المرة. لكن هذا الطرق على الأنابيب يمكن أن يدفع أي شخص إلى الجنون. وهكذا أخذت اللعبة من فانيا ووضعتها على الكرسي وربطت منديلًا على عنقها وبدأت أعطيها بعض الخبز مع الزبدة عندما ظهرت ليندا في الباب.

قالت وهي آتية لتعانقني: «مرحبًا!».

قلت: «مرحبًا».

قالت وهي تنظر إليَّ بعينين لامعتين: «ذهبت إلى الصيدلية هذا الصباح».

قلت: «نعم».

«اشتريت اختبار الحمل».

«نعم، ما الذي تحاولين إخباري به؟».

«سوف يكون لدينا طفل جديد يا كارل أوفه».

«هل هذا صحيح؟» طفرت الدموع إلى عيني.

أومأت برأسها. صارت عيناها نديتين أيضًا.

قلت لها: «أنا في غاية السعادة».

«نعم، لم أستطِع الحديث عن شيء آخر خلال جلسة المعالجة. ولم أفكر في شيء آخر طيلة اليوم».

«هذا رائع! هل أخبرت معالجتك قبل أن تخبريني؟».

«نعم، ماذا؟».

«ماذا لديك بين أذنيك؟ هل تتخيلين أن هذا طفلك وحدك؟ لا يمكنك إخبار أشخاص آخرين قبل إخباري! هل بك شيء أم ماذا؟».

«أوه، يا كارل أوفه، إنني آسفة جدًا. لم أفكر. لقد طغى هذا على تفكيري. لم أقصد. أرجوك، لا تدع هذا يعكر ما بيننا».

نظرتُ إليها وقلت: «لا بأس. لا أظن أن للأمر أهمية شديدة... أعني، ضمن الصورة الكبيرة».

استيقظت على بكائها في الليل. كانت تبكي بقوة، تبكي بكاء شديدًا. وضعت يدي على رقبتها.

«ماذا حدث يا ليندا؟ لماذا تبكين؟».

اهتز كتفاها واستدارت فواجهتني.

قالت: «كنت شديدة الالتزام بما يتعيّن عليّ فعله، فقط... هذا كل ما في الأمر».

سألتها: «كل ما في أي أمر؟ ماذا تقولين؟».

«هذا الصباح. ذهبت إلى الصيدلية واشتريت الاختبار لأنني أردت أن أعرف. لم أستطع الانتظار! وهكذا، بعد أن صارت لديّ الإجابة، كان عليّ أن أذهب إلى جلسة المعالجة. لم يخطر في ذهني أنني أستطيع الذهاب إلى البيت! ظننت أن عليّ أن أذهب إلى الجلسة».

بدأت تذرف الدموع من جديد.

«كان يمكنني أن أعود إلى البيت وأبلغك بالخبر الرائع! على الفور! لم يكن عليّ أن أذهب إلى جلسة المعالجة، أليس كذلك؟».

مسّدت ظهرها، ومرّرت أصابعي في شعرها.

قلت: «لكن يا ليندا، يا حبيبتي، هذا ليس شيئًا. لا أهمية للأمر. لقد انزعجتُ قليلًا، هذا كل شيء. ماذا بك؟ الشيء المهم الوحيد هو أننا سننجب طفلًا!».

نظرت إليّ وابتسمت من خلال دموعها.

قالت: «هل تعني هذا؟».

قبّلتها. كان لشفتيها طعم الملح.

كنت جالسًا في الظلام على شرفة شقتنا في مالمو في تلك الأمسية من شهر تشرين الثاني بعد أن أخذت فانيا إلى حفلة عيد الميلاد؛ لقد مر عامان تقريبًا! والطفلة التي كانت في أول الحمل آنذاك، لم تُولد فحسب بل صار عمرها الآن سنة كاملة. لقد عمّدناها باسم هيدي. بنت سعيدة، شقراء الشعر، أكثر قوة من أختها من بعض النواحي، وحسّاسة مثلها في نواحي أخرى.

خلال تعميدها، صرخت فانيا «لا! لا! لا!» صرخت بقوة فترددت صرختها في الكنيسة عندما كان القس موشكًا على رش رأس أختها بالماء، فكان مستحيلًا ألّا نضحك. كان ذلك كأنه ردة فعل جسدية على الماء المقدس، كأنها مصاصة دماء صغيرة، أو شيطانة صغيرة. انتقلنا إلى مالمو عندما بلغ عمر هيدي تسعة شهور، وكان انتقالنا مفاجئًا لأن أيًا منا لم يزر مالمو من قبل، ولأننا ما كنا نعرف أحدًا هناك. لكننا ذهبنا إلى تلك المدينة حتى نلقي نظرة على شقة فيها فاتخذنا القرار بعد أن قضينا هناك خمس ساعات كاملة. سوف نعيش في هذه المدينة. كانت الشقة في الطابق الأخير في بناية سكنية في مركز المدينة. شقة كبيرة، مئة وثلاثون مترًا مربعًا! وبما أنها مرتفعة، فهي تفيض ضياءً من الفجر إلى المغيب. لا شيء يناسبنا أكثر من هذا لأن حياتنا في ستوكهولم صارت مظلمة أكثر فأكثر إلى أن لم يعد لدينا من خيارٍ غير الخروج. ابتعدنا عن الروسية المجنونة التي تورطنا معها في نزاع لا حلَّ له، والتي واصلت إرسال شكاويها إلى مالكي البناية الذين تدخلوا آخر الأمر واستدعونا إلى اجتماع. لم يفضِ هذا إلى شيء، فمع أنهم صدقونا (صدقونا في النهاية)، فإنهم لم يكونوا قادرين على فعل شيء. تولينا الأمر بأنفسنا. وبعد حادثة أخرى مع جارتنا، عندما صعدت إلى شقتنا فوقفت أمامها حاملًا فانيا وهيدي بين ذراعيَّ وقلت لها أن تنصرف من غير مشاكل فأجابتني بأن لديها رجل في شقتها وأنها ستقول له أن يأتي ويضربني، فاستدعينا الشرطة وقدمنا ضدها بلاغًا بالإزعاج والتهديد. لم أكن أبدًا أظن أنني يمكن أن أصل إلى هذا الحد، لكنني فعلت. لم تستطِع الشرطة فعل شيء، لكن هذا لم يكن كبير الأهمية لأنهم أرسلوا موظفي الخدمات الاجتماعية لدراسة وضعها. جاء شخصان للتحقق من شروط معيشتها، وما كان هنالك شيء أكثر إذلالًا من هذا. أوووه، كم استمتعت بتلك الفكرة! لكن هذا لم يفد في تحسين العلاقات مع الجيران. وفي ظل وجود طفلتين، في قلب مدينة كبيرة حيث لا وجود لأماكن لا تحوي سيارات إلّا في الحدائق، وحيث نأخذهما إلى النزهة هناك مثلما يأخذون الكلاب، لم يكن السؤال ما إذا كنا

سننتقل، بل متى سننتقل. كانت ليندا راغبة في الذهاب إلى النرويج، أما أنا فلم أرد الذهاب. وهكذا انحصر الاختيار بين مدينتين في السويد: غوتنبرغ ومالمو. وبما أن لليندا ذكريات سلبية في غوتنبرغ حيث قطعت دراستها في مدرسة الكتاب، لترايير غيستالتينينغ، بعد أسابيع قليلة من بدايتها لأن المرض أصابها، فقد كان الأمر محسومًا: انتقالنا إلى مالمو لأننا أحببنا إحساسنا فيها خلال الساعات القليلة التي أمضيناها هناك. مالمو مدينة مفتوحة، السماء عالية فوقها، والبحر قريب، وهنالك شاطئ طويل لا يبعد إلّا دقائق قليلة عن مركزها، ولا تبعد كوبنهاغن عنها أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، إضافة إلى أن الجو في المدينة مريح لأنك تحسها في مزاج يوم العطلة تمامًا... شيء مختلف تمامًا عن جو ستوكهولم الصارم المهتم بالعمل. كانت الشهور الأولى في مالمو رائعة، وكنا نذهب للسباحة كل يوم ونجلس على الشرفة لنأكل عندما تكون الطفلتان في السرير، كنا غارقين في التفاؤل متقاربين أكثر مما كنا طيلة سنتين كاملتين. لكن الظلمة بدأت تزحف هناك أيضًا، بطيئًا، على نحو لا يكاد يحسه المرء، فملأت النواحي الأخرى في حياتي كلها، وتلاشى أثر الجِدّة، وانزلق العالم بعيدًا تاركًا من خلفه جزعًا مرتعشًا.

انزلق مثلما فعل هذا المساء! كانت ليندا وفانيا تأكلان في المطبخ وكانت هيدي نائمة نومها المفضّل في سريرها في غرفة نومنا. وكنت على وشك الاختناق لتفكيري بالأطباق التي تنتظر غسلها، وفي الغرف التي تبدو كأنها تعرّضت لتفتيش دقيق كأن أحدًا أخرج كل شيء من الدروج والخزانات وبعثره على الأرض، وفي التراب والرمل المتناثرين في كل مكان، وكومة الملابس المتسخة في الحمام. وأيضًا تفكيري في «الرواية» التي أكتبها؛ الرواية التي لم تكن تأخذني إلى أي مكان. كنت قد أنفقت سنتين على لا شيء. أفكر في حياة الظُّلم في شقتنا. في مجادلاتنا التي كانت في تزايد والتي صارت تخرج عن السيطرة أكثر فأكثر. وفي الفرحة التي غابت.

كانت انفجارات غضبي تافهة، وكانت تندلع من أجل أمور تافهة... ما أهمية التساؤل عمن يقوم بغسل الثياب، ومتى، وماذا، عندما تنظر خلفك

إلى حياة كاملة، عندما تلخّص حياة كاملة؟ كانت ليندا تتقلب بين أمزجتها المختلفة، وعندما تبلغ أسوأها، تذهب فتستلقي في السرير أو في الأريكة. ما كان يثير في نفسي العطف عليها في بداية علاقتنا صار الآن يثير انزعاجي: هل يُنتظر مني أن أقوم بكل شيء بينما تستلقي هناك باكية؟ نعم، يمكنني فعل هذا، لكن ليس من غير شروط. كنت أفعله، وكنت أشعر بالمقابل أن من حقي أن أكون سيء المزاج متجهمًا ساخرًا متهكمًا، بل حانقًا أحيانًا. ينتشر انعدام البهجة هذا ويتمدد بعيدًا خارجي فيغمر مركز حياتنا معًا. كانت ليندا تقول إنها تريد شيئًا واحدًا فقط. تريد أن نكون أسرة سعيدة كلنا. هذا ما كانت تريده، وهذا ما كانت تحلم به... أن نكون أسرة واحدة سعيدة راضية. أما أنا فما كنت أحلم إلّا بأن تقوم بقسطها من أعمال البيت. كانت تقول إنها تفعل ذلك! وهكذا كنا في هذا الوضع، مع اتهاماتنا المتبادلة وغضبنا وتوقنا، في وسط الحياة، في وسط حياتنا، حياتنا نحن لا حياة أشخاص غيرنا.

كيف يكون ممكنًا أن تهدر حياتك في الحنق جراء الأعمال المنزلية؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟

أردت أقصى قدر من الوقت لنفسي، مع أقل ما يمكن من الإزعاج والمنغصات. وأردت أن تتولى ليندا، وهي في البيت أصلًا، العناية بهيدي، وأمر العناية بكل ما يتعلق بفانيا حتى أستطيع العمل. لم تكن ليندا تريد هذا. أو لعلها أرادته، لكنها لم تكن قادرة على تحمله. كانت خلافاتنا ومجادلاتنا كلها متعلقة بهذا الأمر على نحو أو آخر، متعلقة بآليات حياتنا. إذا صرت غير قادر على الكتابة بسببها وبسبب مطالبها، فسوف أتركها. بهذه البساطة! وعلى نحو ما، كانت ليندا تعرف هذا. كانت تضغط عليّ كثيرًا، بحسب ما تحتاجه في حياتها، لكنها لم تكن تبلغ النقطة التي أنفجر عندها. لكني كنت قريبًا من تلك النقطة على الدوام. وكان أسلوبي في الانتقام أن أعطيها كل ما تريد، هكذا تمامًا... كنت أعتني بالطفلتين، وأنظف الأرض، وأغسل الملابس، وأشتري الطعام، وأطبخ، وأكسب المال حتى لا تكون لديها

شكوى من شيء ملموس، بقدر ما يتعلق الأمر بي وبدوري في الأسرة. الشيء الوحيد الذي لم أعطِها إياه، والذي كان الشيء الوحيد الذي أرادته، هو حبي. هكذا كان انتقامي. صرت باردًا لا أتأثر، وكنت أراقبها وهي تزداد قنوطًا إلى أن تصير غير قادرة على الاحتمال فتصرخ فيّ غضبًا وإحباطًا. أسألها: «ما الأمر؟ ألا تظنين أنني أقوم بما فيه الكفاية؟ تقولين إنك مرهقة! حسنًا أستطيع أن آخذ البنتين غدًا. يمكنني أن آخذ فانيا إلى الحضانة، ثم أذهب مع هيدي بينما تنامين وترتاحين. ثم آتي بفانيا من الحضانة بعد الظهر وأهتم بهما معًا في المساء. هذا جيد، أليس كذلك؟ عندها، ستحظين بالراحة لأنك مرهَقة!» وفي النهاية، عندما تنفد الحجج منها، تبدأ رمي الأشياء وتحطيمها. كأس، أو صحن، أو أي شيء آخر في متناول يدها. يجب أن تكون هي من تقوم بهذه المهام من أجلي حتى أستطيع العمل، لكنها لا تفعل هذا. وبما أن مشكلتها ليست في أنها تفعل أكثر مما يجب، بل في حقيقة عدم وجود الحب، الغلُّ فقط، وتقلّب المزاج، والإحباط، وسوء الطبع في الرجل الذي أحبته، سوء الطبع الذي ما كانت لديها طريقة للتعامل معه... كان أفضل انتقام عندي أن أحاسبها على كلامها. أوه، كم أستمتع عندما أوقعها في الفخ ثم أأقف هناك موافقًا على مطالبها كلها! وبعد الانفجار (الذي كان شيئًا محتومًا)، بعد أن نذهب إلى الفراش، تبكي أكثر الأحيان وتريد أن أواسيها. كان هذا يمنحني فرصة لمزيد من الانتقام لأنني لا أستجيب لها.

إلّا أن العيش على هذا النحو كان مستحيلًا، وما كنت أريد هذا. لذلك، عندما يهدأ غضبي القاسي العنيد، ولا يبقى من بعده شيء غير روحي المعذّبة هذه كأن كل ما كان لديّ قد تحطم شذرًا، نتصالح ويصير واحدنا قريبًا من الآخر ونعيش مثلما كنا نعيش ذات يوم. ثم تبدأ العملية كلها من جديد. كانت عملية دورية، كما في الطبيعة.

أطفأت سيجارتي، وشربت آخر جرعة من الكوكا كولا، ونهضت فاستندت على الدرابزين وحدّقت في السماء حيث كان ضوء معلق من غير

حركة في مكان ما خارج المدينة، ضوء أكثر انخفاضًا من أن يكون نجمًا، وأكثر سكونًا من أن يكون طائرة.

ما هذا؟

تابعت النظر إلى الضوء عدة دقائق. وفجأة، انحرف إلى اليسار فأدركت أنه كان طائرة. لم أكن أرى الضوء يتحرك لأن الطائرة كانت آتية في اتجاهي فوق أوريسوند؛ كانت تتحرك في اتجاهي مباشرة.

نقر أحد على النافذة، فاستدرت. كانت فانيا. ابتسمت لي ولوّحت لي بيدها. فتحت باب الشرفة.

«هل أنت ذاهبة إلى الفراش الآن؟».

أومأت برأسها وقالت: «أردت أن أقول لك تصبح على خير يا بابا».

انحنيت فقبلتها على خدها: «تصبحين على خير. نومًا هانئًا!».

«تصبح على خير».

جرت عبر الصالة فدخلت غرفتها. كتلةٌ من الطاقة حتى بعد هذا النهار الطويل.

والآن، من الأفضل أن أذهب لغسل تلك الأطباق اللعينة.

سأرمي بقايا الطعام في سلة القمامة، وسأفرغ الكؤوس من بقايا الحليب والماء، وسأفرغ حوض المجلى من قشور الجزر والتفاح والأغلفة البلاستيكية وأكياس الشاي، وسأغسل الكؤوس والأطباق والملاعق وأضعها في آلة التجفيف، ثم أفتح الماء الحار، وأضيف إليه قليلًا من سائل الجلي، ثم أسند جبهتي إلى الخزانة وأبدأ الغسل، كأسًا بعد كأس، فنجانًا بعد فنجان، وصحنًا بعد صحن، وبعد ذلك أزيل الصابون عنها. ثم تصير الصينية ممتلئة فأبدأ التجفيف حتى أفسح مكانًا للمزيد. وبعد هذا يأتي تنظيف الأرض التي لا بد من فركها جيدًا حيث كانت هيدي جالسة. سأربط كيس القمامة وأنزل بالمصعد إلى القبو وأسير في الممرات الدافئة التي تشبه متاهة حتى أصل إلى غرفة حاويات القمامة بأرضها المتسخة الزلقة وأنابيبها المعلقة من السقف كأنها طوربيدات مزينة بربطات بلاستيكية وقطع من

شريط عازل ولوحة على الباب تعلن أن هذه هي «غرفة النظافة»... واحد من التعابير السويدية الملطفة! سأرمي أكياس القمامة في واحدة من الحاويات الخضراء الضخمة... وفجأة، سيذكرني هذا بإنغريد التي وجدتْ في آخر مرة نزلت فيها إلى هذه الغرفة مئات من لوحات الرسم القماشية الصغيرة في واحدة من الحاويات فأتت بها متخيلة أن هذا سيملؤنا سرورًا مثلما ملأها: فكرة أن طفلتينا صار لديهما الآن مواد رسم تكفيهما سنوات كثيرة في المستقبل. وبعد هذا سأغلق الغطاء وأعود إلى الشقة حيث أجد ليندا في تلك اللحظة تسير على رؤوس أصابعها خارجة من غرفة الطفلتين.

أسألها: «هل هي نائمة؟».

تومئ ليندا برأسها وتقول: «لقد قمتَ بعمل عظيم!» تتوقف عند باب المطبخ... «ما رأيك في كأس من النبيذ؟ لا تزال لدينا تلك الزجاجة التي أتت بها سيسيل عندما جاءت آخر مرة».

جعلتني ردة فعلي الأولى موشكًا على قول لا... لا أريد نبيذًا. لكن، من الغريب أن ذلك الوقت القصير الذي أمضيته خارج الشقة قد رقّق موقفي تجاهها. أومأت برأسي وقلت: «جيد، لمَ لا؟».

مر أسبوعان.

وبعد ظهر ذات يوم، بينما كانت هيدي وفانيا تجريان من حولنا وتقفزان على الأريكة زاعقتين، كنا جالسين معًا متلاصقين ننظر للمرة الثالثة في حياتنا إلى الخط الأزرق الصغير على شريحة الاختبار البيضاء الصغيرة. وكنا مفعَمين بمشاعر الفرح. إنه جون معلنًا عن وصوله. لقد وُلد في آخر الصيف الذي تلا ذلك. كان لطيفًا صبورًا منذ اللحظة الأولى، صاحب ضحكة قريبة دائمًا حتى عندما تشتد العواصف من حوله. وغالبًا ما كان يبدو كأن أحدًا قد جرّه عبر أجمة شائكة... خدوش تكسوه!... أظافر هيدي التي تنشبها فيه كلما سنحت لها فرصة، عادة ما يكون هذا تحت ذريعة معانقته أو مداعبة خده مداعبة ودّية. ما كان يغيظني في يوم من الأيام، عندما أسير في المدينة دافعًا العربة أمامي، صار الآن من الماضي، صار منسيًا وصار

بعيدًا عني. أسير في الشوارع دافعًا العربة الزرية التي تحمل أطفالي الثلاثة. ويتدلى من يدي أكثر الأحيان كيسين من أكياس التسوق، أو ثلاثة. غضون عميقة انحفرت في جبيني وعلى خديّ. تشتعل في عينيَّ ضراوة فارغة ما عادت لي صلة بها منذ زمن بعيد. لم تعد تزعجني الطبيعة الأنثوية لما أقوم به لأن المسألة الآن صارت إيصال الأطفال إلى حيث نكون ذاهبين من غير مواجهة احتجاجاتهم، ومن غير مواجهة أي أفكار أخرى يمكن أن يحلموا بها حتى يحرموني من صباح هيّن أو من أمسية سهلة. ذات مرة، توقفت مجموعة سائحين يابانيين على الرصيف المقابل. راحوا يشيرون في اتجاهي كأنني أدير حلبة سيرك أو شيء ما. كان يشيرون! هناك يمكنكم رؤية رجل اسكندنافي! انظروا وأخبروا أحفادكم عما رأيتموه!

كنت شديد الاعتزاز بأطفالي. فانيا جامحة جريئة، ولا يمكن أن يصدّق المرء أبدًا أن جسمها النحيل يمتلك هذه الشهية الهائلة للنشاط وأنه يمكن أن يلتهم العالم المادي بهذه الشراهة كلها، العالم بأشجاره وأجماته وملاعبه ومسابحه. أما تحفّظها وصمتها اللذان ظهرا عليها خلال شهورها الأولى في الحضانة الجديدة، فقد اختفيا تمامًا، اختفيا إلى حد جعل محور اهتمام «حديث التقدم» التالي في روضة الأطفال يركز على عكس ذلك. لم تعد المشكلة الآن أن فانيا تختبئ بعيدًا أو تتجنب التواصل مع الكبار أو لا تبادر في الألعاب، بل على العكس تمامًا: لعلها الآن تأخذ دورًا مركزيًا أكثر مما ينبغي، بعض الأحيان! هكذا كان تعبيرهم «الذكي» عن الأمر... إنها شديدة الحرص على أن تكون الأولى في كل شيء. قال مدير الحضانة: «سأكون صريحًا معك. إنها تتنمّر على بعض الأطفال أحيانًا. الجانب الإيجابي في هذا هو أن الطفل لا يستطيع فعله إلّا إذا كان قادرًا على فهم الوضع وكان لديه الذكاء اللازم للاستفادة منه. لكننا نعمل الآن على جعلها تفهم أنه لا يجوز لها أن تفعل هذا. هل لديك فكرة من أين يمكن أن تكون قد أتت بصيحتها التي تكررها دائمًا: نااا نا نا نااا نا؟ هل رأتها في فيلم، أم ماذا؟ إذا كانت قد رأتها في فيلم، فمن الممكن أن نعرض الفيلم هنا ونشرح للأطفال معنى

هذه الصيحة». بعد الاجتماع الأخير الذي تحدثوا فيه إلى إمكانية ذهابنا إلى اخصائي في المعالجة الكلامية، عندما تعاملوا مع خجلها على أنه نقص أو عيب في شخصيتها، لم يعد لديّ أي اهتمام بما يفكرون فيه. لقد أتمت سنتها الرابعة قبل فترة وجيزة، وسوف تتخلص من هذا خلال شهور قليلة... لم تكن هيدي جموحًا مثل أختها؛ كان نظام الضبط الجسدي لديها مختلفًا، وكانت تبدو حاضرة في جسدها بطريقة مختلفة عن فانيا تمامًا، وكان الخيال بالنسبة إليها لا يعدو أن يكون نسخة أخرى من الواقع... كانت تترك مخيلتها تمضي بها بعيدًا. من الممكن أن تفقد فانيا هدوءها وتجن يأسًا وقنوطًا إذا لم تتمكن من فعل شيء ما من المرة الأولى؛ وهذا ما يجعلها تقبل المساعدة شاكرة. أما هيدي فتريد أن تفعل كل شيء بنفسها، بل إنها تحس إساءة إذا عرض عليها أحد مساعدة. تحاول وتحاول إلى أن تنجح. أوه، تعبير النصر الذي يظهر على وجهها في تلك اللحظات! نجحت قبل فانيا في التسلق إلى قمة الشجرة الكبيرة في حديقة الأطفال. في المرة الأولى، لفت ذراعيها حول بداية أعلى غصن في الشجرة. وفي المرة الثانية، دفعها غرورها الصغير إلى التسلق أعلى من ذلك. كنت جالسًا على المقعد أقرأ صحيفة فسمعت صراخها: كانت ملتصقة بآخر الغصن من غير شيء تتمسك به... ستة أمتار فوق الأرض. حركة خاطئة واحدة وتسقط. تسلقت الشجرة وأمسكت بها. كنت غير قادر على منع نفسي من الضحك... ماذا تفعلين هناك؟ عادة ما تقفز قفزات زائدة عندما تمشي؛ وكنت أقول في نفسي إنها قفزات السعادة. هيدي هي الشخص الوحيد السعيد حقًا في هذه الأسرة، هكذا تبدو، أو أنها الشخص الوحيد الذي لديه هذا المزاج المشمس. وهي مستعدة لتحمل كل شيء إلّا أن ينهرها أحد ما ويطلب منها الابتعاد. عند ذلك، تلتوي شفتاها وتنبع الدموع من عينيها، وتقتضي مراضاتها ساعة أو أكثر. إنها تحب اللعب مع فانيا، ويمكن أن تندمج في أي شيء، كما أنها تحب القراءة كثيرًا. عندما ركبت الحمار في مدينة الملاهي التي ذهبنا إليها في الصيف، كان وجهها يتألق اعتزازًا. لكن، حتى مظهر هيدي هذا ما كان كافيًا لتغيير رأي فانيا: لا

تريد ركوب الحمار، ولا تريد الركوب بعد ذلك أبدًا. دفعت نظارتها فوق أنفها وألقت بنفسها أمام جون فجأة وأطلقت صرخة جعلت كل من حولنا ينظر إلينا. أعجب جون بهذه الحركة، فصرخت من جديد، ثم ضحكا معًا.

صارت الشمس منخفضة فوق أشجار السرو إلى جهة الغرب. وكانت زرقة السماء العميقة لونًا أذكره وأحبه منذ طفولتي. ارتاح شيء ما في داخلي، وحلّق عاليًا. لكني ما كنت قادرًا على الاستفادة منه. كان الماضي لا شيء.

حملت ليندا هيدي وأنزلتها عن الحمار. لوّحت صغيرتي بيدها للحيوان وللمرأة التي تبيع التذاكر.

قلت: «ها نحن. الآن سنتخذ طريقنا إلى البيت مباشرة».

كانت السيارة واقفة وحدها الآن في موقف السيارات الكبير. جلست على حافة الرصيف واضعًا هيدي في حضني، وغيرت لها حفاضها، ثم وضعت جون في كرسيه على المقعد الأمامي وثبّته بالحزام بينما أجلست ليندا البنتين في المقعد الخلفي.

كنا قد استأجرنا سيارة فولكس فاغن كبيرة حمراء. إنها المرة الرابعة التي أقود فيها سيارة منذ حصولي على رخصة قيادة. وهكذا كان كل شيء متعلق بها يمنحني سرورًا من نوع خاص. تشغيل السيارة، وتغيير السرعة، والانطلاق، والتراجع، والاتجاه يمينًا وشمالًا. كان ذلك كله ممتعًا. لم أفكر من قبل في أنني يمكن أقود سيارة، وما كان ذلك جزءًا من الصورة التي أتخيلها لنفسي. وهكذا كان سروري كبيرًا عندما وجدت نفسي أقود السيارة عائدًا إلى البيت على الطريق السريع منطلقًا بسرعة مئة وخمسين كيلومترًا في الساعة ضمن إيقاع منتظم ناعس... أعطي إشارة التجاوز، ثم أتجاوز، ثم أعطي إشارة العودة إلى المسار، ومن حولي طبيعة تكثر فيها الغابات. نسير في الطريق الذي يرتفع تدريجيًا متسلقًا تلة كبيرة فنرى حقول القمح على مد النظر وبيوت المزارع الواطئة وأجمات رائعة وغابات صغيرة تساقطت أوراق أشجارها، والبحر يشكل حدودًا متواصلة في جهة الغرب.

قلت عندما بلغنا قمة التل وصار سهل سْكانيا منبسطًا تحتنا: «انظروا! جمال لا يصدق!».

حقول الذرة الذهبية، وغابات الزان الخضراء، والبحر الأزرق. وكل ذلك يبدو واضحًا متألقًا في ضياء الشمس المائلة في اتجاه الغروب.

لم يجبني أحد.

كنت أعرف أن جون نائم. لكن، ماذا عن الجالسين في المقعد الخلفي؟ هل ناموا؟».

التفت لكي أنظر إليهم من فوق كتفي. نعم، لقد ناموا. ثلاث فتيات نائمات، أفواه مفتوحة وأعين مغمضة.

تفجرت السعادة في داخلي.

استمر ذلك ثانية واحدة، استمر ثانيتين، ربما ثلاث ثواني. ثم جاء الظل الذي يعقب ذلك دائمًا، الظل الداكن الذي يعقب سعادتي.

رحت أنقر بيدي على عجلة القيادة وأغني مع الموسيقى. كان ذلك آخر CD لفرقة غولدبلاي؛ أغنيات لا أستطيع احتمالها، لكني وجدتها مناسبة عند قيادة السيارة. جاءني ذات مرة هذا الإحساس نفسه الذي أعيشه الآن. عندما كنت في السادسة عشر، عندما كنت عاشقًا، عندما كنت في طريقي عبر الدانمارك في ساعة مبكرة من صباح صيفي متجهًا إلى معسكر تدريب كرة القدم في نوكوبينغ. كان كل من في السيارة نائمًا عدا السائق وأنا. شغّل السائق CD «أخوة السلاح» لفرقة داير ستريتس الذي صدر في ذلك الربيع فكان، إلى جانب «حلم سلحفاة زرقاء» لستينغ و«إنها حياتي» لفرقة توك توك، الموسيقى التي صاحبت تجاربي الرائعة خلال الشهور التي سبقت ذلك. الأرض المنبسطة من حولنا، والشمس التي بدأت ترتفع في السماء، والسكون في الخارج، والمسافرون النائمون، كل ذلك زاد من سعادتي التي كانت قوية إلى حد يجعلني أتذكرها الآن، بعد خمسة وعشرين عامًا. لكن تلك السعادة ما كان لها ظل يعقبها، كانت سعادة نقية لا يداخلها شيء، لا يفسدها شيء. في ذلك الوقت، كانت الحياة ممتدة عند قدمَيّ. يمكن أن يحدث أي شيء. كل شيء ممكن. لم يعد الأمر هكذا الآن. لقد حدث الكثير، وصار ما حدث أساسًا لما يمكن أن يحدث بعده.

ليس الأمر هكذا لأن الفرص صارت أقل فحسب، بل لأن المشاعر التي

أعيشها صارت أضعف. صارت الحياة أقل كثافة. وصرت أعرف أنني في منتصف الطريق، بل ربما بعد منتصف الطريق. سأكون في الثمانين عندما يصير جون في عمري الآن. ستكون إحدى قدمَيَّ في القبر، إن لم تكن القدمان معًا. سأبلغ الخمسين بعد عشر سنين، وسأبلغ الستين بعد عشرين سنة.

أهو غريب أن يكون ذلك الظل معلقًا ممتدًا فوق السعادة؟

أعطيت إشارة لتجاوز شاحنة كبيرة. كانت خبرتي في قيادة السيارة قليلة إلى حد يجعلني غير مرتاح عندما تهتز السيارة بفعل تيار الهواء خلال التجاوز. لكني لم أكن خائفًا! لقد خفت مرة واحدة منذ أن بدأت قيادة السيارة، وكان ذلك يوم امتحان القيادة. جلست في المقعد في ساعة مبكرة من صباح في منتصف الشتاء. كان الظلام مخيمًا، ولم أكن قد قدت السيارة في الظلمة أبدًا. كان المطر شديدًا، ولم أكن قد قدت السيارة في المطر أبدًا. كان الشخص الذي يجري الامتحان رجلًا ذا مظهر غير ودّي، وكان حضوره غير وِدّي أيضًا. من الطبيعي أنني كنت أعرف إجراءات السلامة الإلزامية عن ظهر قلب. لكن أول ما قاله ذلك الرجل هو أن عليّ أن أتغاضى عن إجراءات التفقد تلك. قال إن عليّ فقط أن أزيل البخار المتكثف على النوافذ، وسوف يعتبر أن كل شيء سار على ما يرام. لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك خارج التسلسل الذي تمرنت عليه. مرت دقيقتان وأنا أعبث بالمفاتيح على لوحة العدادات، ونسيت أن أضغط زر إزالة الغبش عن الزجاج. نظر الرجل إليّ وقال: «أنت تعرف كيف تقود السيارة، أليس كذلك؟» ثم هزّ رأسه وضغط على ذلك المفتاح. بعد هذه البداية السيئة، صرت عاجزًا على السيطرة على ساقاي المرتجفتين المرتعشتين، وصار فقداني تناسق الحركات أمرًا واضحًا. وهكذا قفزت بنا السيارة قفزًا بدلًا من أن تدخل حركة المرور بطريقة سلسة. ظلام مطبق. ساعة الازدحام الصباحية. مطر غزير. بعد مئة متر سألني الرجل عن عملي. قلت له إنني كاتب. وعند ذلك صار الرجل مهتمًا حقًا. قال لي إنه فنان. لقد أقام معرضًا لأعماله، وهكذا دواليك. سألني عما أكتبه. وعندما بدأت أخبره عن كتابي «زمن من أجل كل شيء» أعطاني اسم البلدة التي ينبغي أن نذهب في اتجاهها. كانت أمامنا

عقدة مرورية ضخمة على الطريق السريع. لم أستطع رؤية لافتة عليها اسم تلك البلدة. سألني إن كان كتابي قد صدر باللغة السويدية. أومأت برأسي. ها هي! ها هي اللافتة. لكنها أمامي على يمين الطريق! وهكذا، اتجهت بالسيارة صوبها وزدت السرعة فضغط الرجل على الفرامل بكل قوته. توقفت السيارة فجأة.

قال لي: «الإشارة حمراء! ألم ترها؟ إنها حمراء مثل سيارة الإطفاء!».

لم أكن منتبهًا إلى وجود الإشارة أصلًا.

قلت: «أوه، انتهى الأمر إذن، أليس كذلك؟».

قال: «أخشى أنه انتهى فعلًا. إذا كان علينا أن نتدخل، فقد فشلت في الامتحان. تلك هي الأنظمة. هل تريد الاستمرار في القيادة قليلًا؟».

«لا، فلنعد».

استمر الامتحان كله ثلاث دقائق. ووصلت إلى البيت في التاسعة والنصف. نظرت إليّ ليندا بعينين متوترتين.

قلت لها: «لقد فشلت».

قالت: «أوه، لا! يا مسكين! ماذا حدث؟».

«تجاوزت إشارة مرور حمراء».

«حقًا؟».

«نعم! من كان يتخيّل عندما استيقظت في وقت مبكر هذا الصباح أنني سأتجاوز إشارة حمراء خلال الامتحان. لكن سيسير الأمر جيدًا في المرة القادمة! لن أفعلها مرة أخرى في الامتحان القادم».

لم تكن تلك قضية كبيرة. ليست لدينا سيارة. وليس مهما إن حصلت على رخصة القيادة في كانون الثاني أو في آذار. ثم إنني أنفقت حتى الآن مالًا كثيرًا على دروس القيادة، ولن تكون لمبلغ صغير إضافي أهمية كبيرة. كنت قد وافقت على القيام بعمل في سوغنه، في جنوب النرويج. وكانت الفكرة أن نذهب معًا، الأسرة كلها، ثم نعود عن طريق ساندويا القريبة من تفيديستراند، فنقيم في بيت ضيافة هناك بضعة أيام حتى نتعرّف على المكان. الواقع أنني بحثت عن معلومات عن ساندويا منذ بضع سنوات

وفكرت أنها يمكن أن تكون مكانًا مثاليًا لعيشنا. جزيرة يسكنها قرابة مئتي شخص، وفيها حضانة، ومدرسة للأطفال حتى العاشرة. ليس فيها سيارات. كانت الطبيعة هناك شديدة الشبه بالمنطقة التي ترعرعت فيها والتي كنت أحس حنينًا عميقًا تجاهها. لكن سوغنه ليست ترومويا، وليست آرندال أو كريستيانساند التي لن أعود إليها مهما يكن السبب؛ إنها شيء مختلف، شيء جديد. أفكر أحيانًا في أن حنيننا إلى الأرض التي ترعرعنا عليها شيء بيولوجي متجذر فينا على نحو ما، شيء يشبه الغريزة التي تجعل قطة تتجول بضع مئات من الكيلومترات حتى تعثر على المكان الذي عاشت فيه؛ فهل هي غريزة موجودة فينا أيضًا، نحن الحيوانات البشرية، مثل ميول عميقة أخرى موجودة فينا؟

كنت أنظر أحيانًا إلى صور ساندويا على الإنترنت فأحس نحوها ميلًا شديدًا يغطي تمامًا على احتمال أن تكون الحياة هناك معزولة كئيبة. لم يكن الأمر هكذا في ما يتعلق بليندا لأنها أكثر تشككًا مني، إلّا أنها لم ترفض الفكرة تمامًا. سوف يكون العيش في غابة عند البحر مناسبًا لنا أكثر بكثير من العيش في الطابق السادس في مركز مدينة. وهكذا رحنا نمضي ساعات في التفكير والتخمين، ساعات طويلة إلى الحد الكافي لجعلنا راغبين في الذهاب إلى ذلك المكان لنراه بأنفسنا. لكني لم أفلح في الحصول على رخصة القيادة، فكان علي أن أسافر إلى سوغنه وحدي مما يعني أن الغاية الأساسية من قبولي ذلك العمل قد ضاعت. ما الذي سأتحدث عنه هناك؟

في ذلك المساء، اتصل غيير بينما كنت أبحث لحجز الطائرة على الإنترنت. كنا قد تحدثنا خلال النهار، لكنه لم يكن على طبيعته خلال الأسابيع الماضية، لم يكن مسيطرًا على نفسه كالعادة؛ وهكذا ما كان في اتصاله مجددًا اليوم شيء غريب. جلست في الكنبة ووضعت قدمي على المكتب. أخبرني غيير بعض الأشياء عن السيرة التي كان يكتبها، عن الممثل مونتغومري كليفت وكيف كان يبذل دائمًا أقصى جهده للحصول على أقصى ما في الحياة، بكل طريقة ممكنة. لم أكن أعرف شيئًا عن مونتغومري كليفت إلّا من خلال فرقة «ذا كلاش»، لأن عبارة «مونتغومري

كليفت، حبيبي» ترد في أغنيتهم «لندن كولينغ»؛ واتضح لي أن غيير أيضًا يعرف اسمه بطريقة مماثلة، وإن يكن ضمن سياق مختلف: لقد عاش في العراق مع روبن بانكس في محطة للمياه. كان روبن بانكس من أصدقاء الفرقة المقربين (سافر معهم في إحدى جولاتهم، بل إنهم أهدوه واحدة من أغنياتهم أيضًا)، وهو الذي أخبره أن مونتغومري كليفت يشغل موقعًا هامًا في حياة تلك الفرقة. هذا ما دفع غيير إلى محاولة معرفة المزيد عنه. هنالك سبب آخر، وهو أن فيلم «اللامنسجمون» كان من الأفلام المفضلة لدى غيير. تحدثت مع غيير عن كتاب «بودنبروك» لتوماس مان الذي كنت قد باشرت قراءته، وعن كمال جمله وجودة الكتابة الرفيعة فيه، الجودة التي جعلتني مستمتعًا بالكتاب، مستمتعًا حقًا بكل صفحة (وهي حالة نادرة عندي). تحدثت أيضًا عن كيف أن هذا الكمال كان منتميًا إلى زمن مختلف عن زمن توماس مان مما جعل الكتاب أقرب إلى أن يكون تقليدًا أو إعادة إنشاء لشيء سابق عليه. ما الذي يحدث عندما تتفوق المعارضة الأدبية على الأصل؟ وهل يمكنها أن تتفوق عليه؟ هذه مسألة كلاسيكية لا بد أن الكتّاب يفكرون فيها، منذ عهد فيرجيل. كم يكون ارتباط الأسلوب أو الشكل وثيقًا بحقبة بعينها وثقافة بعينها عند ظهور الكتاب؟ وهل ينهار الأسلوب فور ظهور الكتاب؟ لم ينهر الأسلوب بين يدي توماس مان، لا، ليست هذه بالكلمة المناسبة، بل لعله يصير أسلوبًا «متضاربًا» ملتبسًا، متضاربًا من غير نهاية وهو يفيض سخرية، تلك السخرية القادرة على زعزعة الحدود الفاصلة كلها. ثم انتقلنا إلى الحديث عن «عالم الأمس» لستيفان زفايغ، وعن الصورة المذهلة لمنعطف القرن الماضي عندما كان السن والثقل موضع رغبة، لا الشباب والجمال، حين كان الشباب يحاولون الظهور بمظهر من هم في أواسط العمر بشواربهم وسلاسل ساعاتهم والبقع الصلعاء في رؤوسهم، والسيجار أيضًا. تحطم هذا كله وتفتت بفعل الحرب العالمية الأولى ثم الحرب العالمية الثانية اللتان خلقتا هوّة بيننا وبينهم. بعد ذلك، عاد غيير إلى الحديث عن مونتغومري كليفت، وعن حياته الصاخبة، ونزعته الحيوية الجامحة. لقد أدرك الآن أن السيَر التي قرأها خلال السنة

الماضية كانت تجمعها هذه النقطة المشتركة: كلها سِيَر عن أصحاب النزعة الحيوية، لا في النظرية بل في الممارسة... كانوا كلهم منطلقين إلى جني أقصى ما يمكن من الحياة. جاك لندن، وأندريه مالرو، ونوردال غريف، وإرنست هيمنغواي، وهانتر س. ثومبسون، وماياكوفسكي.

قال غيير: «يمكنني أن أفهم، بسهولة، ما جعل سارتر يتعاطى الأمفيتامينات. إنها الحياة على المسار السريع، أنجِزْ أكثر، واحرق! هكذا هو الأمر. لكن الأكثر انسجامًا بينهم جميعًا كان ميشيما. إنني أعود إليه دائمًا. كان في الخامسة والأربعين عندما أنهى حياته بنفسه. كان كاتبًا منسجمًا. يجب أن يكون البطل وسيمًا دائمًا. ولا يمكن أن يكون كبير السن. هنالك أيضًا يونغر الذي مضى في الاتجاه الآخر. لقد جلس في عيد ميلاده المئة يشرب الكونياك ويدخن السيجار، كان حاد الذهن تمامًا. القوة هي كل شيء. هذا ما يثير اهتمامي. القوة، الشجاعة، التصميم. الذكاء؟ لا، ليس الذكاء! أظن أنك يمكن أن تصبح ذكيًا، إذا أردت. ليس هذا بالأمر الهام؛ ليس مما يثير الاهتمام. أما الفترة التي ترعرعنا فيها، السبعينات والثمانينات، فهي نكتة، لا أكثر. نحن لا نفعل شيئًا. أما ما نفعله فهو ليس أكثر من كلام فارغ. أكتبُ لكي أستعيد ثقلي المفقود، هذا ما أفعله. لكن هذا لا يخدم أي غاية، بالطبع. تعرف أين أنا، وتعرف ما أفعله. حياتي تافهة كثيرًا. وأعدائي أيضًا... إنهم تافهون كثيرًا. شيء لا يستحق أن تهدر قواك عليه. لكن هنالك شيئًا آخر. وهكذا تراني جالسًا هنا أجلد نفسي في غرفة نومي».

قلت: «النزعة الحيوية. هنالك نزعة حيوية أخرى كما تعرف، النزعة المرتبطة بالأرض والأقارب. النرويج في العشرينات».

«أوه، لست مهتمًا بهذا. لا وجود لأي أثر من النازية في الحيوية التي أتحدث عنها. ليست مشكلة كبيرة إن كان فيها أثر من النازية، لكنه ليس موجودًا. ما أتحدث عنه هو الثقافة المضادة لليبرالية».

«لم يكن هنالك أثر من النازية في الحيوية النرويجية أيضًا. الطبقة الوسطى هي من استورد النازية. لقد حولتها إلى شيء مجرد، إلى مثال، أي إلى شيء لا وجود له. كان الأمر كله متعلقًا بالتوق إلى قطعة من الأرض،

بالتوق إلى عائلة. ما يجعل هامسون معقدًا إلى هذا الحد هو أنه شخص من غير جذور، من غير مرساة. هو أنه شخص شديد الحداثة، بالمعنى الأميركي للكلمة. لكنه كان يكره أميركا، يكره الإنسانية الجماهيرية، ويكره انعدام الجذور. كان يمقت نفسه أيضًا. والمفارقة الساخرة الناتجة عن هذا أكثر أهمية بكثير مما لدى توماس مان لأنها مفارقة لا علاقة لها بالأسلوب، إنها تتناول الوجود الأساسي».

قال غير: «أنا لست كاتبًا. إنني فلاح. ها ها ها! لكن، لا! لست فلاحًا! يمكنني الاستغناء عن الأرض أيضًا. لست مهتمًا إلّا بالعالم الاجتماعي. لا شيء آخر. يمكنك أن تقرأ لوكريتوس وتصرخ مسبّحًا بمجد الرب. يمكنك الحديث عن الغابات في القرن السابع عشر. لا شيء يثير اهتمامي أقل من هذا. لا أهمية عندي إلّا للناس».

«هل رأيت تلك اللوحة لآنسليم كيفر؟ إنها لوحة غابة. لا ترى فيها إلّا أشجارًا وثلجًا، وبقعًا حمراء في بعض الأماكن. وفيها أيضًا أسماء بعض الشعراء الألمان، مكتوبة بالأبيض، هولدرلين وريلكه وفيخته وكليست. إنها أعظم عمل فني منذ الحرب، بل لعلها أعظم عمل فني في القرن العشرين كله. ما الذي تصوره هذه اللوحة؟ غابة! وما موضوعها؟ نعم، إنه معسكر أوشفيتز، بالطبع. لكن، ما الصلة؟ إنها ليست لوحة عن الأفكار، بل لوحة تصل مباشرة إلى أعماق الثقافة، ولا يمكن التعبير عنها بالأفكار».

«هل شاهدت فيلم شواه؟».

«لا».

«غابات، وغابات، ومزيد من الغابات. ووجوه أيضًا. غابة وغاز ووجوه».

«كان اسم الفيلم فاروس. وبحسب ما أذكر، فقد كان فاروس أحد قادة الجيش الروماني، وقد خسر معركة حاسمة في ألمانيا. هنالك خط ممتد مباشرة من السبعينيات إلى أيام تاسيتوس. يتتبع شاما هذا الخط في كتابه 'المشهد الطبيعي والذاكرة'. يمكننا إضافة أودين أيضًا لأنه يشنق نفسه من غصن شجرة. لعله يشنق نفسه، لست أذكر تمامًا. لكنها غابة أيضًا».

«أستطيع أن أرى ما ترمي إليه».

«عندما أقرأ لوكريتوس أجد أنه لا يتحدث إلّا عن روعة العالم. وهذا الشيء، روعة العالم، فكرة باروكية بالطبع. لقد ماتت مع موت عصر الباروك. إنها فكرة عن الأشياء. عن مادية الأشياء. الحيوانات. الأشجار. الأسماك. إذا كنت حزينًا لأن الفعل قد اختفى، فأنا حزين لأن العالم قد اختفى. مادية العالم اختفت. ليس لدينا إلّا صور عنه. هذا ما ننتسب إليه اليوم. لكن، نهاية العالم، ما هي الآن؟ أشجار تختفي في أميركا الجنوبية؟ جليد يذوب ومياه ترتفع؟ إذا كنت تكتب لكي تستعيد ثقلك، فأنا أكتب لكي أستعيد العالم. نعم، لا أريد العالم الذي أنا فيه. لا أريد العالم الاجتماعي تحديدًا. أريد 'غرفة العجائب' في عصر الباروك. أريد حجرات التحف الغريبة التي تثير الفضول. أما العالم الذي تراه في أشجار كيفر، فإنها هي الفن. لا شيء غيرها».

«لوحة؟».

«لقد أمسكت بي هنا. نعم، إنها لوحة».

سمعت نقرة على الباب فقلت له: «سأعاود الاتصال بعد قليل».

«ادخلي!».

فتحت ليندا الباب.

قالت لي: «هل تتحدث على الهاتف؟ أردت أن أقول لك إنني ذاهبة لكي أستحم. انتبه فقط إلى الأطفال... إذا استيقظوا. لا تضع السماعة».

«لا بأس. هل ستنامين بعد الحمام؟».

أومأت برأسها.

«سوف أنضم إليك».

قالت: «لا بأس».

اتصلت بغيير. قلت له متنهدًا: «حسنٌ... وما أدراني أنا».

قال: «أو أنا!».

«ما الذي تفعله هذا المساء؟».

«أستمع إلى موسيقى البلوز. وصلتني عشرة أقراص CD بالبريد اليوم. وقد طلبت أيضًا ثلاثين، أربعين، خمسين غيرها».

«أنت مجنون».

«لا، لست مجنونًا. ماتت أمي اليوم».

«ماذا؟».

«ماتت وهي نائمة. وهكذا فقد انتهى قلقها الآن. ما فائدة هذا القلق؟ قد يتساءل المرء عن هذا. لكن أبي محطم. وكذلك أُود شتينار، بالطبع. سوف نسافر بعد بضعة أيام. الجنازة بعد أسبوع. ألم تكن ذاهبًا إلى سورلاند في ذلك الوقت تقريبًا؟».

قلت: «بعد عشرة أيام. لقد حجزت تذكرة الطائرة قبل قليل».

«هذا يعني أنني سأراك هناك. لا بد لنا من البقاء بضعة أيام».

ساد صمت قصير.

قلت له: «لماذا لم تخبرني منذ البداية؟ تحدثنا نصف ساعة قبل أن تقول شيئًا. هل كنت تحاول الإيحاء بأن كل شيء طبيعي؟».

«لا. أوه، لا. لقد أخطأت فهمي. لا، لا. كل ما في الأمر أنني لا أريد الذهاب. عندما أتحدث معك أكون بعيدًا عن ذلك كله. الأمر بهذه البساطة. لا يستحق الحديث عنه. أنا واثق من أنك تفهم هذا. شيء لا فائدة منه أبدًا. هكذا هي موسيقى البلوز أيضًا. إنها مكان لكي يهرب المرء إليه. الحقيقة... لا أقصد أنني أحس كثيرًا. لكنني أظن أن هذا إحساس أيضًا!».

«إنه إحساس».

بعد انتهاء المكالمة، ذهبت إلى الممر بين المطبخ وغرفة المعيشة. أخذت تفاحة ووقفت هناك أقضمها وأنظر إلى المطبخ الذي بدا عاريًا من كل شيء. جص على الجدار حيث كان المجلى، وألواح خشبية طويلة مستندة إلى جدران عارية، وأرض كساها الغبار، وأدوات وأسلاك، وقطع أثاث سيجري تركيبها قريبًا... إنها مغلفة بالنايلون الآن. من المنتظر أن تستغرق أعمال التجديد أسبوعًا أو اثنين. لم نكن نريد إلّا آلة لغسل الأطباق، لكن الحيز المتاح ليس مناسبًا لمقاساتها. قال المقاول إن من الأسهل أن نغير المطبخ كله. وهذا ما نفعله. سوف يدفع أصحاب البناية الفاتورة.

سمعت صوتًا فالتفتّ. هل هو آت من غرفة الأطفال؟

ذهبت وألقيت نظرة. كانتا نائمتين، كلتاهما: هيدي في السرير العلوي، قدمها على الوسادة ورأسها على اللحاف المتجمع في مكان واحد؛ وفانيا في السرير السفلي، نائمة على اللحاف أيضًا وقد فتحت ذراعيها وساقيها فصار جسدها مثل حرف X. كانت تحرك رأسها من جانب لآخر.

قالت: «ماما».

لقد فتحت عينيها. سألتها: «هل أنت مستيقظة يا فانيا؟».

لم تجبني. لا بد أنها نائمة.

من وقت لآخر، تستيقظ فانيا في وقت متأخر من الليل وتبكي؛ تبكي بقوة، لكن التواصل معها يكون مستحيلًا... تزعق وتزعق محبوسة داخل نفسها، هذا ما يبدو، كأننا غير موجودين، وكأنها وحدها تمامًا، حيث تكون. إذا حملناها واحتضناها، فإنها تقاوم مقاومة عنيفة وترفس وتضرب ولا تريد إلّا أن نضعها من جديد حيث لا يمكن الوصول إليها. لا تكون نائمة في هذه الحالات، لكنها لا تكون مستيقظة أيضًا. كانت تلك حالة بين النوم واليقظة. يتمزق قلبي عندما أراها هكذا. لكنها تستيقظ مبتهجة في الصباح التالي. كنت أتساءل إن كانت تذكر ذلك العناء اليائس في الليل، أو لعله يمضي مثلما يمضي الحلم!

على أي حال، سيسرها سماع أنها قالت «ماما» في نومها. عليّ أن أتذكر إخبارها.

أغلقت الباب وذهبت إلى الحمام حيث كان الضوء الوحيد منبعثًا من شمعة على حافة الحوض تتراقص شعلتها في تيار الهواء الخفيف الآتي من النافذة. كان البخار كثيفًا في الداخل. وكانت ليندا مستلقية مغمضة العينين، مغمورة بالماء حتى منتصف رأسها. جلست ببطء عندما لاحظت وجودي.

«ها أنتِ جالسة في كهفك».

قالت: «إنه شيء جميل. ألا تريد أن تقفز في الماء أيضًا».

هززت رأسي.

قالت: «كنت أعرف أنك لا تريد. بالمناسبة، من الذي كنت تتحدث معه على الهاتف؟».

قلت: «غيير. لقد ماتت أمه اليوم».
«أوه، خبر حزين... وكيف حاله هو؟».
«لا بأس».
استلقت في الحوض من جديد.
قلت: «أظن أننا بلغنا تلك السن الآن. توفي والد ميخائيلا منذ بضعة شهور. وأصابت أمك نوبة قلبية. توفيت أم غيير».
قالت ليندا: «لا تقل هذا. سوف تعيش أمي سنوات كثيرة. وأمك أيضًا».
«ربما. إذا تجاوزن الستينات، فمن الممكن أن يعشن حتى سن متقدمة. هكذا يكون الأمر دائمًا. لكن، لن يمتد الزمن كثيرًا قبل أن نصير الجيل الأكبر سنًا».
قالت: «كارل أوفه! أنت لم تتم الأربعين بعد! وأنا في الخامسة والثلاثين!».
قلت: «تحدثت في هذا الأمر مع جيبِه ذات مرة. لقد فقد أبويه. قلت له إن أسوأ شيء في نظري هو أنه لا يعود عندي من يشهد على حياتي. لم يفهم ما كنت أعنيه. ولست أدري حقًا إن كنت أعني ذلك. أو ربما لا أريد أن يشهدوا حياتي، بل حياة أطفالنا. أريد أن ترى أمي كيف يسيرون في الحياة، لا عندما يكونون صغارًا فقط بل عندما يكبروا أيضًا. أريد أن تعرفهم من الداخل ومن الخارج. هل تفهمين ما أعنيه؟».
«طبعًا. لكني لا أعرف إن كنت راغبة في الحديث عن هذا».
«هل تذكرين عندما أتيتِ إلى الغرفة وسألتني إن كنت أعرف أين هي هيدي؟ خرجت معك لكي نبحث عنها. كانت بيريت عندنا. وكانت قد فتحت باب الشرفة. عندما رأيت ذلك، عندما رأيت الباب المفتوح، استولى عليّ ذعر فظيع. تجمد الدم في وجهي. كاد يغمى عليّ. الخوف، أو الذعر، أو الرعب، أو مهما يكن، كان داهمًا كان مفاجئًا. ظننت أن هيدي قد خرجت إلى الشرفة بمفردها. في تلك اللحظات، كنت واثقًا من أننا فقدناها. لا بد أنها أسوأ لحظات في حياتي كلها. لم أعرف أبدًا انفعالًا عنيفًا هذا العنف كله إلى هذه الدرجة. الغريب أنني لم أعش هذا من قبل، لم أفكر في أن شيئًا

يمكن أن يحدث فنفقدهما حقًا. كنت، على نحو ما، أتخيلهما خالدتين. أوه، نعم، هذا هو ما كنتِ غير راغبة في الحديث عنه».

«شكرًا لك».

ابتسمت لي. عندما يكون شعرها مرتدًا إلى الخلف ملتصقًا برأسها، وعندما تكون من غير مكياج، تبدو ليندا صغيرة جدًا.

قلت: «من المؤكد أنك لا تبدين أنك في الخامسة والثلاثين. شكلك الآن كأنك في الخامسة والعشرين».

«هل هذا صحيح؟».

أومأت برأسي.

«في الحقيقة، لقد طلبوا بطاقتي الشخصية عندما ذهبت إلى متجر سيستمبولاغيت للمشروبات. أظن أن هذا يجب أن يجعلني أشعر بشيء من الإطراء. لكن، في الوقت نفسه، فإن أعضاء مختلف أنواع المنظمات المسيحية يستوقفونني عندما أسير في الشارع. دائمًا، أكون الشخص الذي يجذب اهتمامهم. عندما أكون مع أشخاص آخرين، أجدهم لا يلقون إليهم بالًا. يأتون إليّ جميعًا. لا بد أن لهذا علاقة بالإيحاء الذي أعطيه. يقولون: ها هي واحدة يمكننا إرشادها إلى الخلاص. إنها في حاجة إلى الخلاص. ألا تظن هذا؟».

رفعت كتفي وقلت: «قد يكون السبب أنك تبدين بريئة تمامًا!».

«ها! هذا أسوأ!».

أغلقت أنفها بإصبعيها وغمرت جسدها كله تحت الماء. عندما خرجت، هزت رأسها أولًا، ثم نظرت إليّ مبتسمة.

سألتني: «ماذا حدث؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟».

قلت: «هذا، مثلًا... هذا ما كنت تفعلينه عندما كنت صغيرة».

«ما هو؟».

«تغمرين رأسك بالماء».

في غرفة النوم التي كانت إلى جوار الحمام مباشرة، بدأ جون يبكي.

«اذهب وربِّت على ظهره قليلًا. سوف آتي بعد دقيقة».

ذهبت إلى غرفة النوم. كان مستلقيًا على ظهره، وكان يبكي ويلوّح بذراعيه. قلبته على بطنه كأنه سلحفاة، ورحت أمسد ظهره براحة يدي. إنه يحب هذا كثيرًا. يهدأ دائمًا إلّا إذا لم يستمر ذلك زمنًا كافيًا.

غنيت له تهويدات الأطفال الخمس التي أعرفها. جاءت ليندا فاستلقت إلى جانبه وشدته إليها. أما أنا فذهبت إلى غرفة المعيشة وارتديت سترة الخروج ووشاحًا وقبعة، ثم وضعت حذائي الذي كان بالقرب من باب الشرفة، وخرجت. جلست على كرسي في الزاوية وسكبت فنجان قهوة وأشعلت سيجارة. كانت الريح تهب من جهة الشرق. وكانت السماء عميقة كثيرة النجوم. تلألأت أضواء الطائرات فيها.

خلال الصيف الذي بلغت فيه العشرين، اتصلت أمي ذات يوم، وقالت لي إن لديها ورمًا كبيرًا في معدتها. قالت إنها ستدخل المستشفى في اليوم التالي لإجراء عملية جراحية. لم تكن تعرف إن كان الورم خبيثًا أم لا، وما كان تخمين كيف ستجري الأمور بالأمر الممكن وقتها. قالت إن الورم كبير إلى حد يجعلها غير قادرة على الاستلقاء على بطنها زمنًا طويلًا. كان صوتها ضعيفًا متعبًا. كنت في ذلك الوقت عند صديقتي من المدرسة الثانوية، هيلدِه، في سوم بالقرب من كريستيانساند. وكنت في تلك اللحظة واقفًا منذ بضعة دقائق قرب السيارة في الممر أمام البيت منتظرًا خروجها حتى نذهب للسباحة. أدركت خطورة الموقف على الفور عندما نادتني من الشرفة قائلة: أمك على الهاتف يا كارل أوفه. لكن ذلك لم يثر في نفسي أي انفعالات. بل كنت باردًا تمامًا معها. وضعت سماعة الهاتف، ولحقت بهيلده التي كانت جالسة في السيارة. فتحت الباب وجلست وقلت إن أمي ستجري عملية وإن عليّ أن أذهب إلى فورده في اليوم التالي. كان إحساسي أن ذلك يشبه مناسبة عليّ أن أذهب وأشارك فيها، دورًا أستطيع أن ألعبه... الابن الذي يطير عائدًا إلى أمه لكي يعتني بها. تخيّلت جنازتها، وتخيّلت الجميع يقدمون تعازيهم ويظهرون حزنهم وأسفهم. فكرت أيضًا في الميراث الذي ستتركه لي، ثم فكرت، آخر الأمر، أنني حصلت على شيء له معنى يمكنني الكتابة عنه. وفي حين كان هذا كله جاريًا في دماغي، بدا لي أن هنالك صوتًا

آخر يجري موازيًا له يقول لا، إن هذا الأمر جِدّي، ماذا بك؟ إن التي تحتضر أمك، وهي تعني لك الكثير، وأنت تريدها أن تعيش، تريدها أن تعيش يا كارل أوفه. أحسست أيضًا أن إخبار هيلده سيجعلني أكثر أهمية في نظرها.
في اليوم التالي، أوصلتني إلى المطار. حطت الطائرة في بيرنغيلانساسن، فأخذت باص المطار إلى مركز فوردِه، ثم نقلني باص محلي إلى المستشفى حيث أعطوني مفاتيح بيت أمي. كانت قد انتقلت لتوها إلى هذا البيت، وكان كل شيء لا يزال مغلّفًا في صناديقه. قالت لي أمي إنني لست مضطرًا إلى الاهتمام بذلك، وإن عليّ أن أترك الأشياء كما هي لأنها سترتبها بنفسها عندما تعود. قلت في نفسي: إذا عدتِ!

سار بي الباص إلى أعالي الوادي، عبر ذلك الريف ذي الخضرة العنيفة. كنت وحدي في البيت كله طيلة المساء وطيلة الليل. عدت إلى المستشفى في اليوم التالي فوجدتها ضعيفة ناعسة بعد العملية التي جرت على نحو جيد. وبعد عودتي إلى البيت القائم في آخر منبسط صغير تحيط به حقول منحدرة انحدارًا لطيفًا من الجبل، ونهر من الجهة الأخرى، وغابة وجبل آخر، بدأت أرتب تلك الصناديق فوضعت ما يحتوي على أدوات الطبخ في المطبخ، وهكذا دواليك. حل الظلام، وتضاءل عدد السيارات العابرة، وازدادت همهمة النهر علوًا، وراحت ظلال جسدي تتراقص على الجدران والصناديق. من أنا؟ شخص وحيد! كنت قد بدأت أتعلم كيف أتصالح مع هذه الحقيقة، وكيف أقلل من أهميتها؛ لكن الطريق إلى ذلك لا يزال طويلًا. وهكذا، كنت أحس قشعريرة في رأسي كلما توقفت عن العمل، أحس هذا البرد الشرير، وتنتابني رغبة في ارتداء ملابسي والسير على العشب والخروج من بوابة الحديقة والمضي على الطريق صوب النهر الذي كان يجري قريبًا في ظلمة الصيف، نهر رمادي أسود بين أشجار البتولا البيضاء اللامعة. كنت راغبًا في الوقوف هناك والنظر إلى الماء الذي يهدئ مشاعري، على نحو ما... الماء متناسب مع تلك المشاعر... ما أدراني؟ لا بد أن في هذا شيئًا ما، لأنني فعلته عند ذلك... خرجت في الليل وبحثت عن الماء. البحر، والأنهار، والبحيرات، لا فرق عندي! أوه، كنت شديد الانشغال بنفسي، وكنت كبيرًا

عظيمًا، لكني، في الوقت نفسه، كنت لا أحد، كنت مجرد شخص من غير أصدقاء. كنت شخصًا وحيدًا إلى حد يدعو إلى الخجل، شخص تملؤه أفكار عن ذلك الشيء، عن المرأة، عن النساء، رغم أنني لم أكن أعرف ما يجب أن أفعله معها إذا حظيت بها لأنني لم أذهب إلى الفراش مع امرأة بعد. بالنسبة إليّ، فرج المرأة! كان هذا موجودًا في النظرية فقط. وما كان ممكنًا أبدًا أن أستخدم كلمة كهذه. الحضن، الصدر، المؤخرة، تلك هي الكلمات التي أستخدمها لوصف رغباتي. كانت تراودني فكرة الانتحار، كانت تراودني منذ كنت صغيرًا، وكنت أستسخف نفسي لهذا السبب... لن يحدث هذا أبدًا لأن لديّ الكثير مما يحملني على الانتقام، ولأن لديّ أشخاص كثيرون أكرههم، ولأن أشياء كثيرة تنتظرني. أشعلت سيجارة؛ وعندما انتهت، عدت إلى البيت الخالي وصناديقه الكثيرة. في الثالثة صباحًا، فرغت من نقل الصناديق إلى أماكنها. بدأت أنقل اللوحات الموضوعة في الممر إلى غرفة المعيشة. وعندما وضعت واحدة منها على الأرض، خرج منها طائر واندفع أمام وجهي. أوه، يا إلهي! لا بد أنني قفزت مترًا إلى الخلف. لم يكن طائرًا، بل خفاشًا. راح يندفع في الغرفة هنا وهناك بحركات مضطربة جامحة. أصابني الذعر. جريت خارجًا وأغلقت الباب خلفي. ثم صعدت إلى غرفة النوم في الطابق الأول حيث أمضيت بقية الليل. غفوت قرابة الساعة السادسة، ونمت حتى الثالثة بعد الظهر. ارتديت ملابسي وذهبت إلى المستشفى بذلك الباص. كانت أمي في حالة أفضل، لكنها لا تزال مجهَدة بسبب الأدوية المسكنة. جلسنا على إحدى الشرفات. كانت في كرسي متحرك. أخبرتها عن بعض التجارب الفظيعة التي مررت بها خلال ذلك الربيع. لكن فكرة أنه لا يجوز أن أسبب لها القلق بعد العملية الجراحية مباشرة لم تخطر في ذهني إلّا بعد سنوات كثيرة من ذلك. عندما عدت إلى البيت، رأيت الخفاش متدليًا من الجدار. أخذت دلو الغسيل فوضعته فوق الخفاش. سمعته يطير داخل الدلو ويصطدم بجدرانه. فكدت أتقيأ لشدة تقززي. سحبت الدلو على الجدار حتى صار على الأرض من غير أن أسمح للخفاش بالإفلات. هكذا صار محبوسًا آخر الأمر، إن لم يكن ميتًا. فعلت مثلما فعلت في الليلة الماضية. أغلقت باب غرفة المعيشة

وصعدت إلى غرفة النوم. استلقيت ورحت أقرأ في رواية «الأحمر والأسود» لستاندال إلى أن سقطت نائمًا. وفي الصباح التالي، وجدت قطعة قرميد في السقيفة. رفعت الدلو بحذر فوجدت الخفاش ساكنًا. ترددت لحظة... أما من طريقة لإخراجه من البيت؟ ربما أدفعه إلى داخل الدلو ثم أغطيه بجريدة؟ لم أكن أريده سحقه بقطعة القرميد إذا لم أكن مضطرًا إلى ذلك. وقبل أن يستقر قراري، هويت بالحجر على الخفاش بأشد ما استطعت من قوة فسحقته على الأرض. ضغطت على القرميدة ورحت أحركها أمامًا وخلفًا إلى أن لم يبق فيه أثر للحياة. ظل إحساسي باللحم الطري تحت الحجر القاسي مستوطنًا ذهني عدة أيام بعد ذلك، بل عدة أسابيع في واقع الأمر. حملته بمجرفة الكناسة ورميته في خندق إلى جانب الطريق. وبعد ذلك، غسلت مكانه، غسلته جيدًا، ثم ذهبت بالباص إلى المستشفى. عادت أمي إلى البيت في اليوم التالي، وكنت ابنًا جيدًا طيلة أسبوعين. وسط خضرة الوادي الوارفة، وتحت السماء الرمادية، كنت أحمل قطع الأثاث وأفرغ الصناديق إلى أن جاء وقت التحاقي بالكلية. سافرت بالباص إلى بيرغن.

كم بقي فيّ الآن من ابن العشرين الذي كنته؟

ليس بالشيء الكثير، هذا ما قلته في نفسي وأنا أنظر إلى النجوم المتلألئة فوق المدينة. كان إحساسي بنفسي على حاله. الشخص الذي استيقظ فأكونه كل صباح، والذي أنام فأكونه كل ليلة. لكن ذعري المرتعش قد ولّى. وكذلك ولّى تركيزي الشديد على الآخرين. كما أن نقيض ذلك التركيز، الأهمية الكبرى التي أضفيها على نفسي، صار أصغر أيضًا. لعله ليس أصغر بكثير، لكنه أصغر على أي حال.

عندما كنت في العشرين، لم تكن قد مرّت إلّا عشر سنوات منذ كنت في العاشرة. كان كل شيء في طفولتي لا يزال قريبًا مني. كان لا يزال نقطتي المرجعية التي أدرك الأشياء من خلالها. ليس الآن، لم يعد هكذا الآن.

نهضت ودخلت. كانت ليندا نائمة مع جون متلاصقَيْن في ظلمة غرفة النوم. كان جون كأنه كرة صغيرة. استلقيت إلى جوارهما ورحت أنظر إليهما بعض الوقت إلى أن نمت.

في الصباح الباكر بعد عشرة أيام، حطت بي الطائرة في مطار كييفيك القريب من كريستيانساند. صحيح أنني عشت على مسافة عشرة كيلومترات من هذا المكان، من الثالثة إلى الثامنة عشرة، وصحيح أن المكان مليء بالذكريات، إلّا أنه لم يثِر في نفسي شيئًا هذه المرة؛ ربما لأنني كنت هنا آخر مرة منذ سنتين فقط، وربما لأنني صرت أكثر بعدًا من ذي قبل. نزلت سلم الطائرة وكانت توبدال سفيورد على يساري تلمع في ضوء شمس شهر شباط، وكانت رينسليتا على يميني، هناك حيث جرجرنا نفسينا، أنا ويان فيدار، وسط عاصفة ثلجية في واحدة من ليالي رأس السنة.

دخلت مبنى المطار ومررت بركن استلام الأمتعة، ثم ذهبت إلى أحد الأكشاك فاشتريت فنجان قهوة أخذته معي إلى الخارج. وقفت أنظر إلى الناس يخرجون فرادى وجماعات متجهين إلى باص المطار أو إلى صف سيارات التاكسي. وفي كل مكان كنت أسمع لهجة جنوب النرويج التي كانت مشاعري متضاربة تجاهها: إنني منتمٍ إلى هذا المكان، واللهجة هي مؤشر هذا الانتماء من الناحيتين الثقافية والجغرافية، لكني لا أزال أسمع فيها نبرة الصلف والعجرفة التي كنت أسمعها فيها دائمًا. لعل ذلك كان تفسيري الخاص لما أسمعه لأنني لا أنتمي إلى هذا المكان ولم أنتمِ إليه من قبل.

إن فهم حياتي أمر بسيط لأن عناصر تعريفها قليلة. في حياتي عنصران: أبي، وحقيقة أنني لم أنتمِ إلى أي مكان أبدًا.

شغّلت هاتفي المحمول ونظرت إلى الساعة. بضع دقائق بعد العاشرة. من المقرر أن ألقي كلمتي الأولى لهذا اليوم في إحدى الجامعات الجديدة في آغدير، وهذا يعني أن لديّ متسع من الوقت. كانت الكلمة الثانية في سوغنه، قرابة عشرين كيلومترًا خارج البلدة؛ إنها الساعة السابعة والنصف. كنت قد قررت أن أتحدث من غير نص مكتوب. لم أفعل هذا من قبل. كان الخوف يقبض على أعصابي كل عشر دقائق، أو نحو ذلك. كانت ركبتاي خائرتين أيضًا، وأحسست كما لو أن اليد التي تمسك فنجاني مرتعشة. لكنها كانت ثابتة، أكدت هذا لنفسي! سحقت سيجارتي على الشبكة الملوَّثة بالرماد فوق سلة القمامة وعبرت الباب الأوتوماتيكي عائدًا إلى الكشك

فاشتريت ثلاث صحف وجلست على واحدة من كراسي البار المرتفعة لأقرأ. كتبت عن هذه الصالة قبل عشر سنوات. إنها المكان الذي ذهب إليه بطل روايتي «خارج العالم»، هنريك فانكل، للقاء ميريام في المشهد الأخير من الرواية. لقد كنت أكتب في فولدا، على الساحل الغربي، حيث كان منظر الفيورد وسفن العبّارات الآتية والذاهبة وأنوار الميناء، وحيث كان على الناحية الأخرى ظل فحسب، في الغرف، وفي المنطقة الريفية التي وصفتها، كريستانساند هذه التي كنت أتجول فيها ذات يوم، التي أزورها الآن من جديد، بعقلي. قد لا أذكر ما كان الناس يقولونه لي، وقد لا أذكر ما حدث هناك، إلّا أنني أذكر تمامًا كيف بدا ذلك لي وأذكر الجو المحيط به. كنت أذكر الغرف التي حللت فيها كلها، وكنت أذكر مشاهد الطبيعة كلها. إذا أغمضت عيني، يمكنني استحضار تفاصيل البيت الذي نشأت فيه، يمكنني استحضارها كلها، وكذلك تفاصيل بيت الجيران، والمنطقة المحيطة ضمن دائرة لا يقل نصف قطرها عن كيلومترين. أذكر المدارس وحمامات السباحة وصالات الرياضة ونوادي الشباب ومحطات الوقود والمتاجر وبيوت أقاربي. يصح الأمر نفسه على الكتب التي قرأتها. ضاع محتواها في غضون أسابيع، لكن الأماكن التي جرت فيها أحداثها ظلت في ذاكرتي سنين طويلة، بل لعلها باقية في ذاكرتي إلى الأبد... وما أدراني؟

تصفحت داغبلادت، ثم آفتنبوستن، ثم فادريلاندسفينن، ثم جلست أنظر إلى الناس العابرين. كان عليّ أن أمضي هذا الوقت في التحضير. لكني لم أفعل حتى تلك اللحظة إلّا قراءة بعض الأوراق القديمة في الليلة السابقة وطباعة بضعة نصوص اعتزمت قراءتها. عندما كنت في الطائرة، كتبت عشر نقاط يجب أن تشتمل عليها كلمتي. لم أستطع حمل نفسي على فعل المزيد لأن فكرة أنني سأتحدث فقط وأن لا شيء أبسط من هذا كانت فكرة شديدة القوة، شديدة الإغراء. كان منتَظرًا مني أن أحدثهم عن الكتابين اللذين كتبتهما. ما كنت قادرًا على ذلك؛ وكان معنى هذا أنني سأخبرهم كيف أبصر هذان الكتابان النور، أخبرهم عن سنوات اللاشيء التي استمرت إلى أن بدأ شيء محدد يتكون ويتخذ شكلًا، وكيف واصل مسار ولادته، ببطء

لكن بخطى واثقة، على نحو جعل كل شيء يأتي من تلقاء نفسه آخر الأمر. أن تكتب رواية يعني أن تضع لنفسك هدفًا، ثم تسير نحوه في نومك. لقد قال لورنس دوريل إن الأمر يحدث هكذا، وقد كان مصيبًا. إننا قادرون على النفاذ لا إلى حياتنا فحسب بل إلى كل حياة أخرى، تقريبًا، في دائرتنا الثقافية؛ لا ننفذ إلى ذاكرتنا وحدها، بل أيضًا إلى ذاكرات ثقافتنا الملعونة كلها، لأنني أنا أنت، ولأنك كل إنسان. نحن آتون من الشيء نفسه وذاهبون إلى الشيء نفسه، ونسمع في طريقنا الشيء نفسه في الراديو، ونرى الشيء نفسه في التلفزيون، ونقرأ الشيء نفسه في الصحافة، وفي داخل كل منا الحشد نفسه من وجوه المشاهير وابتساماتهم. حتى إذا جلستَ في غرفة صغيرة في بلدة صغيرة على بعد مئات الكيلومترات من مركز العالم ولم تقابل روحًا واحدة هناك، فإن جحيم الناس جحيمك، وفردوسهم فردوسك. عليك أن تفجر البالون الذي هو العالم وتدع كل ما فيه ينسكب على جوانبه.

هذا ما كنت في سبيلي إلى قوله اليوم، إلى هذا الحد أو ذاك.

اللغة مشتركة، ونحن نكبر في داخلها، والصيغ التي نستخدمها بها مشتركة أيضًا. هذا يعني أنك، في الأدب، غير قادر على تحرير نفسك من صيغ الآخرين مهما تكن نسيج وحدك، ومهما تكن أفكارك فردانية تخصك أنت وحدك. الأمر على العكس من هذا تمامًا، فالأدب هو ما يقرّب بيننا، من خلال لغته التي لا يمتلكها أحد منا والتي لا نكاد نمتلك أي نفوذ عليها في واقع الأمر. يفعل الأدب ذلك من خلال صيغه التي لا يستطيع أحد أن يتحرر منها وحده؛ وإذا فعل امرؤ ذلك، فإن فعلته لا يكون لها معنى إلا إذا اقتفى أثره الآخرون سريعًا. إن الصيغ تشدك خارج نفسك وتبعدك عن نفسك، وهذه المسافة، هذا البعد، هي الشرط المسبق الذي لا بد منه للقرب من الآخرين.

من أجل الكلمة، كنت أعتزم البدء بحكاية عن هوغ، العجوز النكد الذي يتحدث غمغمة، الذي كان منغلقًا على نفسه معزولًا تمامًا طيلة تلك السنين كلها، لكنه ربما كان أكثر قربًا إلى مركز الثقافة والمدنية أكثر من أي شخص آخر في زمانه. ما الأحاديث التي كانت لديه؟ وما الأماكن التي حل فيها؟

انزلقت عن الكرسي وذهبت إلى طاولة البيع لأملأ فنجاني من جديد.

أبدلت قطع نقود معدنية بخمسين كرونًا. كان عليّ أن أتصل بليندا قبل الذهاب، وما كنت قادرًا على استخدام هاتفي المحمول للاتصال من خارج السويد.

قلت في نفسي إن كل شيء سيسير على ما يرام. قلت هذا وأنا ألقي نظرة سريعة على ورقتيّ النقاط العشر التي كتبتها في الطائرة. ليس أمرًا شديد الأهمية أن تكون هذه الأفكار قديمة، وليس مهمًا أنني ما عدت مقتنعًا بها. الأمر المهم هو أن أقول شيئًا.

فقدت إيماني بالأدب خلال السنوات الماضية؛ فقدته على نحو متزايد. كنت أقرأ وأقول في نفسي إن هذا شيء اختلقه أحد ما. لعل هذا لأننا غرقنا تمامًا في الخيال والقصص. خرج الأمر من أيدينا. تجد خيالًا أينما نظرت. ملايين الكتب وأقراص الـ DVD والمسلسلات التلفزيونية، كلها عن أشخاص مختلقين وعن عالم مختلق وإن يكن عالمًا واقعيًا. كما أن الأخبار في الصحافة، وأخبار التلفزيون والراديو، لها الصيغة نفسها تمامًا، وكذلك البرامج الوثائقية لها الصيغة نفسها. إنها قصص أيضًا، ولا أهمية لأن يكون ما تقوله لك قد حدث فعلًا أم لم يحدث. هذه أزمة، أزمة أحسّها بكل خلية من خلايا جسدي، شيء مُغرِق ينتشر عبر وعيي ويسد مسامه كأنه نوع من الدهن، على الأقل لأن جوهر هذا الخيال كله، سواء كان حقيقيًا أو غير حقيقي، هو مجرد احتمال، ولأن المسافة التي تفصله عن الواقع تظل ثابتة. بكلمات أخرى، إنه هو نفسه دائمًا. هذا التماثل، الذي هو عالمنا، يصير نوعًا من الإنتاج بالجملة. الفرادة التي يتحدثون عنها جميعًا (وهي بالتالي شيء لا يمكن إبطاله أو نفيه) ليست موجودة؛ إنها كذبة. إن العيش على هذا النحو، أن تعيش وأنت واثق من أن كل شيء كان يمكن أن يكون مختلفًا، عيش يدفع بك إلى اليأس. ما كنت قادرًا على الكتابة بهذه الطريقة، لن ينجح الأمر. كلما كتبت جملة يقابلها عقلي بفكرة تقول: لكنك اختلقت هذا، فحسب. ليست له قيمة. ليست للكتابة القصصية والروائية أي قيمة، وليست للأعمال الوثائقية أي قيمة. الجنس الأدبي الوحيد الذي أرى فيه قيمة، الذي لا يزال يحمل معنى، هو المذكرات واليوميات والمقالات، أي ذلك النوع من الأدب الذي يتعامل مع السرد، ولا يتحدث عن شيء بل هو

مؤلف من صوت فقط، من صوت شخصيتك أنت، من حياة، من وجه، من نظرة يمكن أن تقابلها عيناك. ما هو العمل الفني إن لم يكن نظرة شخص آخر؟ شيء غير موجه إلي ما هو أعلى، وغير موجه إلى ما هو أخفض منا، بل على مستوى نظرتنا نفسه. لا يمكن أن يُعاش الفن جماعيًا، لا يمكن أن يعاش أي شيء جماعيًا، فالفن شيء تكون وحيدًا معه. تقابل نظرته وحيدًا.

لم تمضِ الفكرة أكثر من هذا الحد؛ اصطدمت بجدار. إذا كانت القصص والروايات خيالًا لا قيمة له، فإن العالم لا قيمة له لأننا نرى العالم هذه الأيام من خلال القصص والروايات.

أستطيع الآن، طبعًا، أن أجعل هذا الأمر نسبيًا أيضًا. وأستطيع التفكير في أن ذلك كان ناتجًا عن حالتي الذهنية، عن حالتي النفسية الشخصية، أكثر مما كان ناتجًا عن حالة العالم الفعلية. إن تحدثت عن هذا مع إسبن أو توره (هما أقدم أصدقائي الآن، وقد عرفتهما قبل زمن طويل من ظهور العمل الأول لكل منهما) فسوف يرفضان رأيي رفضًا قاطعًا. سيرفضه كل منهما بطريقته الخاصة. كان لإسبن نزعة نقدية، إلّا أنه في الوقت نفسه يمتلك ذلك الفضول الحارق. كان صاحب شهية ضخمة شرهة تجاه العالم؛ وعندما يكتب تكون طاقته كلها متركزة في اتجاه الخارج، السياسة، والرياضة، والموسيقى، والفلسفة، وتاريخ الكنيسة، والعلوم الطبية، والبيولوجيا، والرسم، والأحداث الكبرى في الحاضر، والأحداث الكبرى في الماضي، والحروب وميادينها؛ لكن أيضًا بناته ورحلاته في العطلات والأحداث الصغيرة التي يعيشها. كان يكتب عن كل شيء ويحاول الفهم، يكتب بالخفة التي تميّز شخصيته، الخفة التي هي موجودة لديه لأنه ليس مهتمًا بالتأمل وبالنظر إلى الداخل حيث يمكن لنزعته النقدية (التي هي خصبة مثمرة عندما تتجه إلى الخارج) أن تدمّر كل شيء بكل سهولة. إن هذه المساهمة في العالم هي ما يحبه إسبن ويتوق إليه. عندما عرفته أول مرة، كان منطويًا خجولًا منحصرًا داخل نفسه، ولم يكن سعيدًا جدًا. لقد رأيت الطريق الطويلة التي اجتازها إلى الحياة التي يعيشها الآن حيث نجح حقًا في التعاطي معها وحيث ذهب عنه كل ما كان يحبطه. لقد حطّ واقفًا على قدميه وصار سعيدًا. إذا كان ينتقد العالم كثيرًا، فهذا ليس لأنه يمقته وليس

لأنه يزدريه. أما خفة توره فهي من نوع مختلف. إنه يحب الحاضر وينظر إليه باهتمام كبير لعله نابع من افتتانه العميق بموسيقى البوب، وبتشريح قوائم الأغاني الأكثر نجاحًا... أكثر الأغاني نجاحًا في أحد الأسابيع تحل معها أغاني أخرى في أسبوع بعده؛ وجماليات موسيقى البوب كلها: المبيعات الضخمة، والظهور المكثف في وسائل الإعلام، وجولات تقديم الأغاني. لقد حوّل هذا كله إلى أدب، وبالطبع، فقد عرّضه هذا إلى انتقادات شديدة، لكنه واصل ما يفعله بتصميم نموذجي. إن كان هنالك شيء يكرهه فهو الحداثة لأنها ليست تواصلية، ولأنها غامضة يصعب الوصول إليها، ولأنها مهتمة بنفسها إلى حد لا نهاية له من غير حتى أن تهتم بتوضيح أي شيء. لكن، أي أثر يمكن أن يكون لما تقوله على رجل كان معجبًا بسبايس غيرلز؟ كيف لك أن تمارس تأثيرًا على رجل كتب ذات مرة مقالة حماسية على مسلسل كوميديا الموقف «فريندز»؟ كانت تروقني الوجهة التي اتخذها، صوب رواية ما قبل الحداثة، بلزاك وفلوبير وزولا وديكنز، لكني لم أشاطره قناعته بأن هذه الصيغة تقبل النقل إلى زماننا. من هنا، كانت الصيغة الأدبية الشيء الوحيد الذي أفعلُه فينتقده، ينتقده حقًا لأنه يراه ضعيفًا. كانت تروقني أيضًا الوجهة التي اتخذها إسبن: المقالات الأكاديمية، لكن الاستطرادية الفيّاضة أيضًا، الشاملة، التي فيها شيء باروكي. لكني ما كنت معجبًا بموقفه، مثلًا، عندما يكيل المديح للواقعية ويهزأ من الرومانسية. إلّا أن إسبن وتوره، كليهما، ما كانا من الناس الذين ينجزون نصف عمل أو يمضون إلى منتصف الطريق، وكان هذا شيئًا يعجبني، بل هذا ما يجب أن أفعله أنا أيضًا: التأكيد على الحياة، بالمعنى الذي عند نيتشه، لأنه لا وجود لشيء آخر. هذا كل ما لدينا، هذا كل ما هو موجود، فهل نقول له لا؟

أخرجت هاتفي المحمول وفتحته. تألّقت صورة هيدي وفانيا في عيني، هيدي بوجهها مضغوطًا على الشاشة، وابتسامتها الكبيرة، وفانيا خلفها بابتسامة متردّدة بعض الشيء. صارت الساعة الحادية عشرة إلّا ربعًا.

نهضت وذهبت إلى الهاتف ذي الحصالة فأدخلت قطعة أربعين كرونًا وطلبت رقم هاتف ليندا.

سألتها: «كيف هو الوضع هذا الصباح؟».

قالت: «فظيع! فوضى مطلقة! شيء خارج السيطرة تمامًا! خمشت هيدي وجه جون من جديد. ثم تشاجرت فانيا وهيدي. وانتابت فانيا نوبة غضب مزاجية في الشارع عندما خرجنا من البيت».

قلت: «أوه، لا. أوه، لا. يؤسفني أن أسمع هذا».

«وعندما وصلنا إلى الحضانة، قالت فانيا: 'أنتِ وبابا غاضبان دائمًا، أنتما غاضبان دائمًا' أحزنني هذا! أحزنني إلى حد لا يصدق».

«يمكنني فهم هذا. إنه شيء فظيع. علينا أن نجد حلًا يا ليندا. ينبغي أن نجد حلًا. ما نفعله سيء جدًا. إن عليّ أن أتمالك نفسي. أنا المخطئ في معظم ما يحدث».

قالت ليندا: «صحيح، علينا أن نفعل. يجب أن نتحدّث عنه عندما تعود إلى البيت. ما يدفعني إلى اليأس هو أنني لا أريد شيء غير أن نكون سعداء، هذا كل ما أريد. وأنا لا أستطيع تحقيقه. إنني أم فظيعة تمامًا. لا أستطيع حتى أن أكون وحدي مع أطفالنا».

«لا، هذا ليس صحيحًا. أنتِ أم ممتازة. ليس الأمر هكذا. لكننا سنجد حلًا. سنجد حلًا».

«نعم... كيف كانت رحلتك؟».

«جيدة. إنني في كريستيانساند الآن. سأذهب إلى الجامعة بعد قليل. وأنا خائف من ذلك. إنني أكره هذا الأمر. لا أظن أن هنالك شيء أسوأ منه. لكني أذهب وأفعله مرة بعد مرة».

«إلّا أن الأمر يسير على نحو جيد في كل مرة».

«إنها نصف الحقيقة فقط. يسير على نحو جيد بعض الأحيان، لكني لا أريد مواصلة التذمّر والشكوى. سيجري كل شيء على ما يرام؛ وأنا بخير. سوف أتصل بك الليلة مرة أخرى. اتفقنا؟ اتصلي بهاتفي المحمول إذا حدث شيء. إنني أستطيع استقبال المكالمات هنا».

«لا بأس».

«ماذا تفعلين الآن؟».

«أتمشى في حديقة بيلداميز مع جون. إنه نائم. كل شيء لطيف هنا، ويجب أن أكون سعيدة. لكن... لقد دمّرني هذا الصباح».

«سيمر هذا، سيزول. سوف تمضون أمسية لطيفة معًا. ليندا، عليّ أن أذهب الآن، إلى اللقاء».

«إلى اللقاء. أتمنى لك حظًا طيبًا!».

وضعت السماعة، ثم حملت حقيبتي وخرجت لأدخن سيجارة أخيرة.

خراء. خراء. خراء. خراء.

استندت إلى الجدار ونظرت إلى الغابة وإلى الواجهة الصخرية الرمادية التي تلوح بين خضرة الأشجار وصفرتها.

كنت حزينًا على أطفالنا. إنني شديد الغضب والتهيّج في البيت. من السهل كثيرًا أن أطرد هيدي وأبعدها عني، من السهل كثيرًا أن أُخرسها. وفانيا، فانيا... عندما تستبد بها نوبات الغضب والعصيان وترفض كل شيء وتصرخ وتزعق وتضرب، فماذا أفعل؟ إنني أصرخ فيها وأمسك بها وألقيها على السرير. أفقد أعصابي تمامًا. وبعد ذلك يأتي الندم، وتأتي محاولاتي لأن أكون صبورًا، لطيفًا، ودودًا، جيدًا.

جيد! هذا ما أردته، هذا كل ما أردت أن أكونه، أن أكون أبًا جيدًا لأطفالي الثلاثة.

ألست أبًا جيدًا؟

خراء. خراء. خراء. خراء.

ألقيت بسيجارتي وحملت حقيبتي وتحركت. بما أنني لم أكن أعرف مكان تلك الجامعة (لم تكن موجودة عندما عشت هنا) فقد أخذت سيارة تاكسي. مضت السيارة من ساحة الوقوف وأنا جالس في المقعد الخلفي فسارت حتى تجاوزت مدرج المطار، ثم عبرت النهر ومرت بمدرستي القديمة التي لم تثر أي اهتمام في نفسي، ثم راحت تصعد التلال وتهبط من جديد وتجاوزت هامريساندن، ثم المعسكر، ثم الشاطئ، ثم التلال التي تقع خلفها المنطقة السكنية التي عاش فيها معظم زملائي في الصف.

عبرنا الغابة بعد ذلك، ثم خرجنا منها إلى تقاطع الطرق في تينينز وسرنا على الطريق رقم 18 إلى كريستيانساند.

كانت الجامعة على الناحية الأخرى من النفق، على مسافة غير بعيدة من المدرسة الثانوية التي كنت أذهب إليها، لكنها معزولة عنها تمامًا. إنها أشبه بجزيرة صغيرة في الغابة. مباني كبيرة جذابة جديدة. لا شك في أن تدفّق المال في النرويج قد ازداد منذ أن كنت أعيش هنا. صار الناس أحسن ملبسًا، وصارت سياراتهم أغلى ثمنًا. والعمل جار في مشاريع البناء في كل مكان.

قابلني عند المدخل رجل بنظارة له هيئة المحاضرين. كان ملتحيًا. تصافحنا، ثم جعلني أرى الصالة التي سأتحدث فيها، ثم ذهب إلى عمله. أما أنا فتبعت الناس الذاهبين في اتجاه المطعم حيث أكلت قطعة خبز، ثم خرجت وجلست في الشمس أدخّن وأشرب القهوة.

كان هنالك طلاب في كل مكان. بدوا لي أصغر سنًا مما توقّعت؛ كانوا كأنهم طلاب مدرسة ثانوية. وفجأة رأيت نفسي بينهم: رجل متقدم في السن غائر العينين معه حقيبة، رجل جالس وحده. أربعون سنة؛ سأبلغ الأربعين قريبًا. ألست أنا الذي كاد أن يسقط عن الكرسي ذاك اليوم عندما أخبرنا هانز، صديق بال، أنه في الأربعين؟ لم أصدّقه أول الأمر، لكن حياته بدت في ضوء مختلف تمامًا بعد ذلك... ما الذي يفعله هذا العجوز بيننا؟

إنني في عمره الآن.

«كارل أوفه؟».

رفعت رأسي فرأيت نورا سيمونهييل واقفة أمامي وقد علت وجهها ابتسامة كبيرة.

«مرحبًا يا نورا! ماذا تفعلين هنا؟ هل تعملين هنا؟».

«صحيح. لقد رأيتك آتيًا. كنت أعرف أنني سأجدك هنا. إنني مسرورة بلقائك!».

نهضت وعانقتها.

قلت لها: «اجلسي!».

قالت: «تبدو في وضع جيد تمامًا! أخبرني عن حياتك».

أعطيتها لمحة سريعة عني. ثلاثة أطفال، أربع سنين في ستوكهولم، سنتان في مالمو. كل شيء على ما يرام. قابلت نورا أول مرة في حفلة في شقة في جامعة بيرغن ليلة كانوا يحتفلون بانتهاء موضوع دراستهم الرئيسي. ثم صادفتها في فولدا حيث كانت معلمة وحيث كتبتُ روايتي الأولى التي قرأتها نورا وكانت أول من علق عليها. عاشت زمنًا في أوسلو وعملت في مكتبة هناك. عملت أيضًا في صحيفة مورغنبلادت، ونشرت مجموعتها الشعرية الثانية، وحصلت على وظيفة هنا. قلت لها إن كريستيانساند كانت كابوسًا في نظري. لكن، لا بد أن أشياء كثيرة تغيرت خلال عشرين سنة. أن يكون المرء طالب مدرسة ثانوية هنا شيء مختلف عن أن يعمل في الجامعة.

قالت إنها تحب كريستيانساند. بدت لي سعيدة. لقد ألقت مرساتها هنا، لكن ليس إلى الأبد... لا يعرف المرء أبدًا ما يمكن أن يحدث. جاءت إحدى صديقاتها، أميركية، فتحدثنا قليلًا عن الاختلافات بين بلدها القديم وبلدها الحالي، ثم ذهبنا إلى المدرج. بقيت عشر دقائق حتى موعد بدء حديثي. آلمتني معدتي، بل آلمني جسمي كله، آلمني كل شيء.

كانت يداي ترتجفان في اللاوعي طيلة النهار، أما الآن فقد صارتا مرتعشتين حقًا. جلست خلف الطاولة وقلبت صفحات الكتب ونظرت إلى المدخل. شخصان في الصالة فقط. أنا وذلك المحاضر! هل سيستمر هذا النهار هكذا؟

في كريستيانساند، قرأت أمام الجمهور للمرة الأولى. كان ذلك بعد أسابيع قليلة من صدور روايتي الأولى. وكان عدد الحضور أربعة. أحدهم (أرضاني هذا كثيرًا) كان معلم التاريخ في مدرستي القديمة. إنه روزنفولد؛ لقد صار مدير المدرسة. ذهبت لأتحدّث معه بعد أن انتهيت. اتضح لي أنه لا يكاد يذكرني، لكنه جاء للقاء بيارده بريتيغ والحديث معه... إنه المتحدّث الثاني بعدي.

هذا كثير جدًا على العودة إلى مدينتي. كثير جدًا على الانتقام من الماضي.

قال المحاضر: «حسن، أظن أننا نستطيع البدء الآن، أليس كذلك؟» نظرت إلى صفوف الكراسي. كان سبعة أشخاص جالسين عليها.

عندما انتهى ذلك، بعد ساعة، قالت نورا إنها تأثرت كثيرًا. ابتسمت لها وشكرتها على كلماتها اللطيفة لكني كرهت نفسي وكرهت وجودي كله. أردت الانصراف بأسرع ما أستطيع. من حسن حظي أن غيير وصل قبل عشرين دقيقة من الموعد الذي اتفقنا عليه. وجدته واقفًا في وسط صالة المدخل الكبيرة عندما نزلت درجات السلم. لم أرَه منذ أكثر من سنة.

قلت له: «لم أكن أظن أنك يمكن أن تفقد المزيد من شعرك. لكني كنت مخطئًا».

تصافحنا.

قال غيير: «صارت أسنانك صفراء جدًا. سوف تلحق بك الكلاب في المدينة لأنها ستظنك واحدًا منها. كيف جرت الأمور هنا؟».

«جاء سبعة أشخاص».

«ها ها ها!».

«لا أهمية لهذا. في ما عدا ذلك سارت الأمور جيدًا. هل نذهب الآن؟ هل سيارتك معك؟».

قال: «إنها معي».

بالنظر إلى أنه دفن أمه في اليوم السابق، كان غيير في مزاج حسن إلى حد مدهش.

قال عندما كنا نجتاز الساحة في اتجاه السيارة: «آخر مرة أتيت إلى هذا المكان، كنت مع متطوعي الحرس الوطني في أحد التدريبات. استلمنا ملابسنا الموحدة في مكان قريب من هنا. لكن الجامعة لم تكن موجودة بالطبع».

ضغط غيير على جهاز مفتاح التحكم فأومضت أضواء سيارة ساب حمراء على مسافة عشرين مترًا منا. رأيت كرسيًا للأطفال في المقعد الخلفي، إنه لابنه نيال الذي وُلد بعد يوم واحد من ولادة هيدي. إنني عرّاب نيال.

سألني غيير مبتسمًا: «هل تريد قيادة السيارة؟».

لم أستطِع العثور على إجابة قوية سريعة، فاكتفيت بالابتسام. فتحت الباب وجلست، ثم دفعت المقعد إلى الخلف ووضعت الحزام ونظرت إليه.

قلت: «ألسنا ذاهبين؟».

«إلى أين تريد الذهاب؟».
«إلى المدينة، على ما أظن. ماذا يمكن أن نفعل غير هذا؟».
وضع المفتاح وشغل السيارة ثم تراجع وخرج بها من الموقف إلى الطريق.
«تبدو منكمشًا بعض الشيء. ألم تسِر الأمور على نحو جيد؟».
«كان ذلك جيدًا. لا أريد الإثقال عليك بما هو ليس جيدًا».
«لم لا؟».
«لا بأس، أنت تعرف... هنالك مشكلات صغيرة، وهنالك مشكلات كبيرة أيضًا».
قال: «لم يكن دفن أمي البارحة من مجموعة 'المشكلات'. ما حدث، حدث. هيا الآن! ما الذي يتأكلك هكذا؟».
عبرنا النفق القصير وخرجنا منه إلى السهل عند كونغسغارد الذي بدا جميلًا، تقريبًا، تحت الضياء الشتوي الحاد الذي يغمره.
قلت: «تكلمت مع ليندا في وقت سابق من هذا اليوم. كان صباحها شاقًا. نعم، أنت تفهم ما أعنيه. النوبات المزاجية، والفوضى. وقد قالت فانيا إننا غاضبان دائمًا. إن ما قالته صحيح. أستطيع رؤية هذا عندما أكون بعيدًا عنهم. الحقيقة أنني أحس رغبة في العودة في هذه الدقيقة لتصحيح الوضع. هذا ما يتأكلني».
قال غيير: «لا جديد في هذا، أليس كذلك؟».
«لا جديد».
بلغنا الطريق رقم 18، فتوقّف غيير أمام أكشاك الدفع وفتح النافذة ووضع قطعة نقدية في فتحة الآلة الرمادية، ثم دخل الطريق وتجاوزنا كنيسة أودرينز ومن خلفها الكنيسة الصغيرة حيث دُفن أبي، وكذلك مدرسة كاتدرائية كريستيانساند التي أمضيت فيها ثلاث سنوات.
قلت: «هذا المكان مليء بذكرياتي. إن جدي وجدتي مدفونان هنا. وأبي...».
«إنه في مستودع ما هنا، أليس كذلك؟».
«صحيح. هل كان من الممكن ألّا ننجز المهمة على الوجه الصحيح؟!».

«أحيانًا، يكون الدم أخف من الماء».
«ها ها ها! رغم ذلك، أنا جاد في هذا، سوف أتولى الأمر قريبًا وأجعلهم يدفنونه تحت التراب، عليّ أن أفعل هذا».
قال غيير: «عشر سنين في مستودع لا يمكن أن تزعج أحدًا».
«أنت مخطئ، إنها مزعجة، لكنها لا تزعج رماد شخص ميت».
«ها ها ها!».
صمت. تجاوزنا مركز الإطفاء ودخلنا النفق.
سألته: «كيف كانت الجنازة أمس؟».
قال: «كانت عظيمة. جاء أناس كثيرون. كانت الكنيسة غاصة بهم. أعداد من الأقارب وأصدقاء الأسرة الذين لم ألتقِ بهم منذ سنين، بل منذ كنت صغيرًا في حقيقة الأمر. كان ذلك شيئًا عظيمًا. بكى أبي، وبكي أود شتينار. كانا حزينين تمامًا».
سألته: «وأنت؟».
التفت إليّ وقال: «لم أبكِ. تعانق أبي وأود شتينار أما أنا فكنت جالسًا خلفهما، وحدي».
«لم يزعجك ذلك؟».
«لا، لماذا يزعجني؟ إنني أشعر بما أشعر، وهما يشعران بما يشعران».
قلت له: «انعطف يسارًا هنا».
«يسارًا؟ هل أنعطف هناك؟».
«نعم».
صرنا في مركز المدينة. تابعنا السير نازلين في اتجاه فيستنينغسغاتن.
قلت: «هنالك موقف سيارات متعدد الطوابق، إلى اليمين، بعد قليل. هل نتوقّف هناك؟».
«لا بأس».
سألته: «ما رأي والدك في ذلك، بحسب ما تظن؟».
«هل تعني رأيه في أنني لم أكن حزينًا؟».
«نعم».

«لم يلقِ بالًا إلى هذا. سيقول في نفسه 'هكذا هو غيير'. هذا ما يفعله دائمًا. إنه يتقبلني دائمًا كما أنا، تمامًا. هل أخبرتك عن تلك المرة عندما جاء لأخذي من إحدى الحفلات ذات يوم؟ كنت في السادسة عشرة، وكنت أريد التقيؤ لكثرة ما شربت. أوقف أبي السيارة، تقيأت. تابع القيادة. لم يقل كلمة واحدة. ثقة تامة. وهكذا، إذا لم أبكِ في جنازة أمي، وإذا لم أحتضنه بين ذراعي، فإن هذا لا يعني شيئًا بالنسبة إليه. له شعوره، وللآخرين شعورهم».

«يبدو لي رجلًا جيدًا».

نظر غيير إليّ وقال: «نعم. إنه رجل جيد، وهو أب جيد أيضًا. لكننا نعيش في كوكبين مختلفين. هل هذا هو المكان الذي تريد التوقف فيه، هناك، أمامنا؟».

«نعم».

نزلنا إلى موقف السيارات في القبو، فأوقفنا السيارة هناك. تجوّلنا في المدينة. أراد غيير الذهاب إلى بعض محلات التسجيلات للبحث عن ما يمكن أن يجده من موسيقى البلوز التي تشغل اهتمامه الآن. ثم ذهبنا إلى مكتبتين كبيرتين قبل أن نبحث عن مكان للأكل. وقع اختيارنا على محل «بيتزا بيبيس» الواقع إلى جوار المكتبة العامة. بدا لي غيير غير متأثر بما جرى في حياته خلال الأسبوع الماضي. جلسنا نأكل ونتحدّث، وكنت أتساءل في نفسي عما كان ذلك لأنه غير متأثر حقيقة (إن كان غير متأثر، فلماذا؟) أو أنه يريد إخفاء مشاعره. خلال أيامي الأخيرة، في ستوكهولم، كان غيير قد كتب بعض القصص القصيرة. قرأت تلك القصص وكانت متسمة، قبل أي شيء آخر، بالمسافة الكبيرة بينها وبين الأحداث التي تصفها. أتذكر قولي له إن ذلك يشبه سفينة ضخمة غارقة على المرء أن ينتشلها؛ سفينة غارقة عميقة في وعيه. لم يكن مباليًا بالأمر، وما كان ذلك مهمًا في نظره. لكن هذا لا يعني طبعًا أنه أمر لا دلالة له: لم يقر غيير بالأمر، وكان يعيش تبعًا لذلك. لكن، كيف كان الوضع في حقيقة الأمر؟ هل كان يكبت شيئًا؟ هل كان يدفعه بعقله إلى خارج الوجود؟ أم أن الأمر ليس جديدًا، مثلما قال لي. كان للبعد الذي بينه وبين أسرته صلة بهذا: إنه يبقي كل ما له علاقة

بالماضي على مسافة منه. كانت حياة أبويه (هكذا قال لي) مؤلفة من سلسلة منتظمة من أحداث الحياة اليومية التي تمثل الرحلات إلى مراكز التسوق خارج المدينة ذروتها، وكذلك تناول طعام الغداء أيام الأحد في نزل ما إلى جانب الطريق. كما أن الأحاديث بينهم نادرًا ما تتجاوز الطعام والطقس، فتجعله يجن انزعاجًا. وأظنه كان منزعجًا أيضًا لأن ما يفعله لا مكان له في هذه الحياة. لم يكن أبوه وأمه مهتمَّيْن أدنى اهتمام بما يفعله. إن كان للعلاقة بينه وبينهم أن تكون ناجحة فإن عليه أن يقبلها وفق شروطهما؛ وهذا ما لم يكن راغبًا فيه. إلّا أنه كثيرًا ما يمتدح دفأهما واهتمامهما بعالمه المباشر، بالعناق والاحتضان؛ إلّا أنه لا يتحدث عن ذلك إلّا بعد أن يكون قد أفاض بالحديث عما لا يحبه فيهما، أي أنه لا يقوله إلّا كنوع من التعبير عن الندم، ولكي يوجّه إليّ بعض الوخزات أيضًا لأنني كنت حظيت بكل ما لم يكن موجودًا في أسرته: الفضول العقلي، والأحاديث الكثيرة... هذا ما كان يدعوه قيم الطبقة الوسطى! لم يكن في أسرتنا الدفء والقرب اللذين كان يعتبرهما من مميزات الطبقة العاملة التي ينحدر منها، ولا الرغبة في خلق الجو الدافئ الذي تزدريه الدوائر الأكاديمية ازدراء شديدًا لأنها تنظر إلى التعبير عنه باعتباره شيئًا وضيعًا، بل شيئًا ينبئ ببساطة العقل. كان غيير يمقت الطبقات الوسطى وقيم الطبقات الوسطى، لكنه كان مدركًا تمامًا أنها القيم التي اعتنقها هو نفسه خلال حياته الجامعية بكل ما يستتبعه ذلك: في مكان ما هناك، كان غيير عالقًا مثلما تعلق ذبابة في شباك العنكبوت.

كان سعيدًا برؤيتي، هذا ما لاحظته، ولعله أحس شيئًا من الراحة أيضًا لأن أمه قد ماتت: ليس لأن هذا مريح له، بل لأنه أكثر راحة لها. ما أهمية خوفها وقلقها الآن؟ كان هذا من أول الأشياء التي تساءل عنها: لا شيء... لكن تلك هي الفكرة... نحن عالقون، أحدنا بالآخر، مثلما نحن عالقون في أنفسنا... لا نستطيع الفرار؛ ومن المستحيل أن تحرر نفسك. حياتك هي الحياة التي لديك.

تحدثنا عن كريستيانساند. في نظره، كانت كريستيانساند مدينة فحسب، أما في نظري فكانت مكانًا لا أستطيع العيش فيه من غير أن تنبع المشاعر

القديمة متدفقة. كان أكثرها مشاعر كراهية، لكن هنالك أيضًا إحساسي بالعجز أو بعدم الكفاية، إحساسي بأنني لا أستطيع أن أكون أي شيء مما هو مطلوب مني. كان رأي غيير أن هذا كله ناتج عن أنني نشأت في هذا المكان، ولأن ذلك الزمن يضفي ألوانه على كل شيء. لكنني كنت أخالفه هذا الرأي لأن هنالك اختلافًا كبيرًا بين آرندال وكريستيانساند، بل إن العقلية مختلفة أيضًا. إن للمدينة شخصيتها المميزة دائمًا، ولها نفسيتها وعقليتها وشخصيتها وروحها، سواء أحببتها أم لم تحبها، وهذا ما تلاحظه فور دخولك إياها. إنه ما يميز الناس الذين يعيشون فيها. كريتسيانساند مدينة تجارية. ولها روح جشعة. إن لبيرغن روحًا جشعة أيضًا، لكن عندها ذكاء وروح سخرية أيضًا بمعنى أنها قد استوعبت العالم الموجود خارجها وصارت تعرف تمامًا أنها ليست المدينة الوحيدة.

قلت له: «بالمناسبة، لقد قرأت 'تربة ضحلة' هذا الصيف، هل قرأته؟».

«قرأته منذ زمن بعيد».

«يعبّر هامسون في هذا الكتاب عن احترامه الكبير لرجل الأعمال. يراه شابًا، ديناميكيًا، مستقبل العالم، البطل العظيم. وليس عنده غير الازدراء تجاه الفنانين. الكتّاب والرسامون... لا أهمية لهم. أما رجل التجارة! إنه رائع! هل تدرك كم صار مختلفًا عن هذا فيما بعد؟».

قال غيير: «ممم. هنالك فصل في سيرة حياته يتحدّث عن الفترة التي كان مهتمًا فيها بفتيات الخدمة في المطاعم والمقاهي. لقد اتخذت 'كلمة الناشر' في الكتاب موقفًا محتشمًا إزاء هذا الأمر، أو أنهم لم يستطيعوا فهمه، لكن هامسون كان منحدرًا من أسفل السلم الاجتماعي. هذا ما تنساه. إنه كاتب من الطبقة العاملة. لقد جاء من أكثر المناطق فقرًا. بالنسبة إليه، كانت الفتيات النادلات قفزة إلى الأعلى، على السلم الاجتماعي! لا يمكن فهم شيء من هامسون إذا لم يفهم المرء هذه النقطة».

قلت: «لم يكن ينظر إلى الخلف. يبدو الأمر كما لو أن والديه ليسا جزءًا من شخصيته، إن كنت تفهم ما أعنيه. كان انطباعي عنهما أنهما عجوزان رماديان ملتصقان بالجدار في غرفة ما في مكان ما في شمال النرويج،

عجوزان رماديان إلى درجة تجعلك غير قادر على تمييزهما عن بقية قطع الأثاث. لكن، لا يمكن أن يكون الأمر هكذا».

«ألا يمكن؟».

«في الواقع... أظن أنه ممكن، لكنك تعرف ما أعنيه، أليس كذلك؟ لا تجد لدى هامسون أي صورة عن طفولته، إلّا في 'أُغلقت الدائرة'. لا تجد أيضًا أي صورة لأبويه. تنبثق الشخصيات في كتبه من لا شيء. لا تحمل شخصياته بقية من ماضٍ ما. هل هذا لأن بقايا الماضي ليس لها معنى أو لأن معناها كان مقموعًا؟ وهكذا، تصير هذه الشخصيات، على نحو ما، أول البشر المنتجين بالجملة... أي أول بشر من غير أي أصول تحددهم. لا يحددهم إلّا الحاضر».

أخذت قطعة بيتزا وقطعت خيوط الجبن الطويلة التي امتدت منها، ثم قضمت لقمة.

قال لي: «جرب الصلصة، إنها جيدة».

«يمكنك الاحتفاظ بها».

سألني ونحن ننهي طعامنا: «بالمناسبة، متى يجب أن تكون هناك؟».

«في السابعة، سنبدأ في السابعة والنصف».

«هذا يعني أن لدينا ساعة أو ساعتان. هل نتجوّل بالسيارة قليلًا؟ حتى ترى أماكن ذكرياتك القديمة! إن لي ذكريات في بعض الأماكن في كريستيانساند أيضًا. يعيش عم أمي وأسرته في لوند. أود المرور بذلك المكان».

«دعنا قبل ذلك نشرب قهوة في مكان آخر، وبعد ذلك نذهب، ما رأيك؟».

«هنالك مقهى قريب من المكان الذي كنت أتنزّه فيه عندما كنت صبيًا. نستطيع الذهاب إن كان لا يزال موجودًا».

دفعنا الحساب وخرجنا. مررنا بفندق كاليدونيان. فأخبرته عن الحريق الذي نشب فيه ذات يوم. وكيف وقفتُ خلف حواجز الشرطة أنظر إلى الواجهة السوداء التي احترقت كلها. مررنا بجوار الحاويات في الميناء ووصلنا إلى موقف الباص، ثم عبرنا البورصة واجتزنا ماكنزغيت ووصلنا

إلى مقهى له طابع فني. على الرغم من البرد، جلسنا في الخارج حتى أستطيع التدخين، وبعد ذلك، سرنا عائدَيْن إلى السيارة. انطلقنا بها أولًا إلى حيث البيت في إلفاغاتن، البيت الذي عشت فيه خلال الشتاء الذي شهد طلاق أبي وأمي. كان البيت قد بيع، ثم جرى تجديده. ذهبنا بعد ذلك إلى بيت جدي وجدتي، البيت الذي مات فيه جدي. درنا في الساحة أمام مرسى القوارب. ثم أوقفنا السيارة في الشارع الصغير ونظرنا إلى البيت في الأعلى. لقد أعيد طلاؤه بلون أبيض. جدّدوا الطاولات أيضًا. كانت الحديقة مرتّبة أنيقة.

قال غيير: «أهذا هو؟ إنه بيت رائع! بيت جذّاب، غالي الثمن، بيت أشخاص من الطبقة الوسطى. ما كان يمكن أن أصدق هذا قبل أن أراه. كنت أتخيّل شيئًا مختلفًا تمامًا».

قلت: «نعم. هكذا هو الأمر. لكن، ليست لديّ مشاعر تجاه هذا البيت. إنه بيت فحسب. لم يعد يعني لي شيئًا. أدرك هذا الآن».

بعد ساعتين من ذلك، توقفنا أمام المدرسة الثانوية التي سيجري فيها لقائي الثاني اليوم. كانت واقعة في وسط غابة قريبة من سوغنه. كانت السماء سوداء تمامًا، والنجوم تلمع في كل مكان منها. نهر قريب، وحفيف أشجار. رددت الجدران صوت إغلاق باب السيارة. ثم خيّم الصمت من جديد.

سألني غيير: «هل أنت واثق من أنه هنا؟ هنا، في قلب الغابة؟ بحق الله، من يمكن أن يأتي إلى هذا المكان ليلة الجمعة من أجل الاستماع إليك؟».

قلت: «من يدري؟ لكن، هذا هو المكان. مكان لطيف، ألا ترى هذا؟».

«أوه، نعم. إن له جوًا مميزًا».

كان الحصى المتجمّد يفرقع تحت خطواتنا عندما دخلنا المكان. رأينا بيتًا ضخمًا من الخشب الأبيض يبدو كأنه مشيّد منذ بداية القرن الماضي؛ كان غير مُنار. أما المبنى الآخر الواقع على مسافة عشرين مترًا من الأول، متعامدًا معه، فكانت فيه ثلاثة نوافذ مضاءة. رأينا شخصين عبر واحدة من تلك النوافذ. كانا يعزفان البيانو والكمان. وبعد ذلك، يأتي إلى جهة اليمين ما يشبه من الخارج مستودعًا قديمًا؛ كان مطفأ الأنوار أيضًا. من المقرّر أن أتحدّث في هذا المكان. تجوّلنا هناك بضع دقائق. ونظرنا عبر النوافذ

المظلمة فرأينا قاعة مكتبة وشيئًا بدا لنا أشبه بغرفة معيشة. تبعنا دربًا أوصلتنا إلى جسر حجري فوق جدول أو نهر صغير. ماء أسود وغابة كأنها جدار أسود على الضفة الأخرى.

قال غيير: «يجب أن نشرب قهوة، أو شيئًا ما. هل نسأل هذين اللذين يعزفان هناك إن كان لديهما مفتاح المكان؟».

قلت: «لا، لن نسأل أحدًا عن أي شيء. ننتظر أن يأتي منظّمو اللقاء عندما يأتون».

قال غيير: «لكننا في حاجة إلى شيء يدفئنا قليلًا، على الأقل. لا أظنك تمانع في هذا؟».

«لست أمانع».

دخلنا المكان الذي تتردّد فيه النغمات الموسيقية الصادرة عن العازفَين الشابَّيْن. لا بد أنهما في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة. فتاة ناعمة جميلة الوجه. وشاب في مثل سنها لكنه قبيح، وجهه محمرّ وفيه بثور. لم يظهر على الشاب أي سرور برؤيتنا.

«هل لديكما مفاتيح هذه المباني؟ سيلقي صديقي كلمة اليوم، وأظننا وصلنا أبكر مما يجب».

هزت الفتاة رأسها. ليس لديهما مفاتيح، لكننا نستطيع الجلوس في الغرفة المجاورة حيث توجد آلة صنع القهوة أيضًا.

ذهبنا إلى الغرفة الأخرى.

قال غيير: «يذكرني هذا المكان برحلات المدرسة. الضوء هنا، والظلمة والبرد في الخارج. والغابة أيضًا. وحقيقة أن أحدًا لا يعرف مكان وجودي. لا يعرف أحد ما أفعله. نعم، يعطي هذا نوعًا من الإحساس بالتحرر. لكن في المكان قدر كبير من الظلمة... هذا الجو الذي نحن فيه!».

قلت: «أفهم ما تريد قوله، أما عن نفسي فإنني متوتر، هكذا، ببساطة. يؤلمني جسدي كله».

«هل متوتر بسبب هذا؟... لأنك ستتحدّث هنا؟ استرخ يا رجل، ستسير أمورك على أحسن وجه».

رفعت يدي أمامه وقلت: «هل ترى؟».
كنت أرتعش كأنني رجل عجوز.
بعد نصف ساعة من ذلك، أخذوني إلى القاعة التي سأتحدث فيها. استقبلني هناك رجل ملتحٍ آخر له هيئة المحاضرين. كان في أواخر الخمسينيات. يضع نظارة.
قال الرجل عندما دخلنا المكان: «أليس مكانًا جميلًا؟».
أومأت برأسي، كان مكانًا جميلًا حقًا. في داخل المستودع كان هنالك ممر متسع طويل، كأنه كبسولة. كان مبنيًا هكذا من أجل إتاحة خيارات مختلفة للتحكم بالصوت. يتسع المكان لجلوس نحو مئتي شخص. أعمال فنية على الجدران كلها. قلت في نفسي من جديد إن مالًا كثيرًا يجري في هذه البلاد الآن. وضعت حقيبتي على المنصة. وأخرجت أوراقي وكتبي. صافحت بضعة أشخاص ممن كان عليّ أن أحييهم. كانت من بينهم بائعة الكتب التي جاءت لإقامة نوع من «متجر كتب» بعد أن ينتهي دوري. كانت امرأة ساحرة نشطة في سن الكهولة. خرجنا لنتمشّى في الظلمة قليلًا. مشينا في اتجاه النهر حيث دخّنت سيجارتين. وبعد ذلك جلست على كرسي المرحاض واضعًا رأسي بين كفَّيَّ. وجدت في القاعة جمهورًا معقولًا عندما عدت. أربعون شخصًا، أو ربما خمسون شخصًا؟ هذا جيّد! وجدت أيضًا فرقة موسيقى نحاسية، كانت ستعزف شيئًا من الموسيقى الباروكية. استمر العزف نصف ساعة، في وسط الغابة، في أمسية الجمعة. ثم جاء دوري. وقفت على المنصة تحت أعين الجميع. شربت ماء وقلّبت أوراقي، ثم بدأت الكلام متردّدًا، كنت أبتلع الكلمات، وكان صوتي واهيًا مرتجفًا إلى أن استعدت إيقاعي وصرت قادرًا على الكلام بحرية. كان الحاضرون يصغون بانتباه. كان اهتمامهم منصبًا على ما أقول. استرخت أعصابي أكثر فأكثر، وكانوا يضحكون عندما يكون منتظرًا منهم أن يضحكوا. غمرني إحساس بالسعادة. قليلة هي الأشياء التي تحسّن مزاج المرء أكثر من الحديث إلى جمهور يفهمك جيدًا، جمهور ليس مكتفيًا بأن يتمنى لك الخير: إنهم جزء مما أتحدث عنه. كنت قادرًا على رؤية هذا، قادرًا على

رؤية الحماسة تدب فيهم. وعندما جلست فيما بعد للتوقيع على نسخ من كتابي، أراد كلهم مناقشة ما قلته لأنه لمس شيئًا في حياتهم: لمس شيئًا كانوا متحمسين لإخباري عنه. لم أعد إلى الأرض من جديد إلّا عندما صرت في الخارج، سائرًا في اتجاه السيارة مع غيير. نزلت إلى الأرض، إلى حيث أكون عادة، إلى حيث أفيض ازدراء لنفسي. لم أقل شيئًا. جلست في السيارة وحدّقت في الطريق الممتدة أمامنا عبر الغابة المظلمة.

قال غيير: «كان هذا جيدًا. لقد بلغت به مستوى الفن الرفيع. لست أدري لماذا كنت تئن وتشتكي. يمكنك أن تسافر هنا وهناك لتجني المال من هذا».

قلت: «سار الأمر على نحو جيد. صحيح. لكني أعطيتهم ما أرادوه. قلت لهم ما أرادوا سماعه. إنني أسير على هواهم مثلما أسير على هوى كل شخص وكل شيء».

قال غيير: «كانت في الصف الذي أمامي امرأة. بدت لي كأنها مُدرّسة. لقد تجمّدتْ عندما بدأت الكلام عن سوء معاملة الأطفال. ثم قلتَ كلمةً أرادوا سماعها. معاملة الناس كالأطفال. أومأت برأسها. كانت هذه فكرة يمكنها قبولها. لقد غطت على كل شيء. أما لو أنك لم تقل ذلك، إذا تابعت الكلام ورحت تخوض في التفاصيل، فأنا لستُ واثقًا من أنهم كانوا سيأتون جميعًا للحديث معك في النهاية؛ لست واثقًا من ذلك. ثم، ما هي البيدوفيليا إن لم تكن معاملة الناس كالأطفال؟».

وضحك غيير. أما أنا فأغمضت عيني. وتركته يكمل.

«الفرقة النحاسية تعزف في قلب الغابة. موسيقى باروكية. من الذي يمكن أن يتخيّل هذا، ها ها ها! كانت أمسية رائعة يا كارل أوفه؛ أمسية تكاد تكون سحرًا: الظلمة والنجوم وحفيف أشجار الغابة».

قلت: «صحيح».

مضينا بالسيارة في أرجاء كريستيانساند وعبرنا جسر فارود، ثم مررنا بحديقة الحيوان وبنورهولم وليليساند وغيرينستاد. تحدّثنا عن هذا وذاك، ثم وصلنا إلى آرندال حيث تجوّلنا في شبه جزيرة تيهولمن. شربت زجاجة بيرة في أحد المقاهي وشعرت، من غير سبب على الإطلاق، بأن هنالك شيء غير

صحيح، أو غير طبيعي. أن أكون هنا، بين هذه المباني المألوفة حول الميناء، مع شبح جزيرة ترومويا يلوح عند ضفة الماء الأخرى، في عالم مزدحم بالذكريات إلى هذا الحد. كان إحساسًا طيبًا، لكنه غريب، على الأقل لأن غير الذي هو جزء من حياتي في ستوكهولم كان معي في تلك اللحظة. قاربت الساعة الثانية عشرة فذهبنا إلى جزيرة هيلسويا حيث جعلني أرى بعض الأماكن التي لم أفلح في النظر إليها باهتمام كبير. كان من بينها رصيف لرسو القوارب كانوا يتنزهون عليه في شبابه. وبعد ذلك أخذني إلى المنطقة السكنية التي ترعرع فيها. أوقف السيارة أمام المرآب فأخذت من صندوقها حقيبتي وباقة الورد التي قُدّمت لي في المدرسة الثانوية، ثم سرت خلفه فدخلت البيت الذي كان من نمط بيتنا نفسه، أو من الفترة نفسها على أقل تقدير. كان الممر مليئًا بالزهور والأكاليل.

قال: «كانت لدينا جنازة كما يمكنك أن ترى. يمكنك أن تضع أزهارك في أحد أوعية الزهور إذا أحببت».

فعلت ما اقترحه. دلني على الغرفة التي سأنام فيها، وكانت في حقيقة الأمر غرفة شقيقه أود شتينار، لكنه رتبها من أجلي. كان لديه سندويتشين في المطبخ. تجوّلت في غرفة المعيشة. كان يقول لي دائمًا إن والديه ينتميان إلى الجيل الذي سبق جيل أهلنا. فهمت ما كان يعنيه عندما رأيت أسلوب ترتيب البيت. مفارش الطاولات، والسجادات، والبسط في الممرات: كان في هذا كله شيء من عمق النرويج في الخمسينات. قطع الأثاث، واللوحات على الجدران، تعطي الانطباع نفسه. بيت من السبعينات مؤثث مثل بيوت الخمسينات... هكذا بدا لي. صور عائلية على الجدران، ومجموعة ضخمة من تحف التزيين عند النوافذ.

لقد دخلت قبل فترة وجيزة بيتًا توفي فيه شخص. كان ذلك البيت في حالة فوضى شاملة. أما هنا فكان كل شيء جيدًا كأنه لم يتأثر بما حدث.

أحببت أن أخرج للتدخين في الحديقة. وبعد ذلك ذهبنا إلى النوم. مضيت إلى الفراش، لكنني لم أكن راغبًا في إغماض عينيّ. لم أكن راغبًا في ملاقاة ما التقيته هناك. إلّا أنه عليّ أن أنام... استجمعت قواي كلها حتى أفكر في موضوع محايد، ثم غفوت بعد دقائق.

في السابعة من صباح اليوم التالي، أيقظتني أصوات وحركة في الطابق العلوي. كان ابن غيير، نيال، وكريستينا قد استيقظا. اغتسلت وارتديت ملابسي، ثم صعدت إليهم. خرج من المطبخ رجل في السبعين تقريبًا له وجه لطيف وعينان ودودتان فحياني. إنه والد غيير. تحدثنا قليلًا عن نشأتي هنا وعن جمال تلك الأيام. كان الرجل ينضح طيبة، لكن ليس بالطريقة المنفتحة من غير حدود التي عند والد ليندا. لا، إن في وجهه صلابة أيضًا. ليست صلابة بالضبط، لكن... قوة شخصية. إنها قوة شخصية! ثم جاء أود شتينار، شقيق غيير. تصافحنا، ثم جلسنا نتحدث عن هذا وذاك. إنه من النوع اللطيف أيضًا، لكن في شخصيته خجل غير موجود عند أبيه، ولا عند غيير أيضًا. أعدّ الأب الطاولة من أجل الفطور، ثم جلسنا لنأكل. كنت أفكر باستمرار في أن زوجة، وأمًا، قد دُفنت بالأمس وأن من غير المناسب أن أكون موجودًا هنا. لكنهم كانوا يعاملونني بلطف واهتمام: صديق غيير صديقهم، والبيت مفتوح دائمًا.

رغم ذلك، تنفّست الصعداء عندما خرجنا بعد الطعام.

تقلع طائرتي بعد الظهر. وقد اتفقنا على التجوّل بالسيارة والذهاب إلى ترومويا التي لم أزرها منذ زمن بعيد، لكني لم أرد الذهاب إلى توباكن حيث نشأت. وبعد ذلك نذهب إلى المطار مباشرة. إلّا أن والد غيير أصر على أن نعود إلى البيت أولًا لأن اليوم السبت، ولأنه سيشتري بعض الجمبري من الميناء. قال إن عليّ تذوّق ذلك الجمبري قبل ذهابي إلى مالمو لأننا لا نستطيع فيها أن نحصل على جمبري جيد مثل هذا.

وهكذا ركبنا السيارة وانطلقنا إلى ترومويا. كان غيير يحدّثني عن الأماكن التي نمر بها. ويروي قصصًا متّصلة بتلك الأماكن. انبعثت حياة كاملة من هذه المنطقة. ثم أخبرني عن أسرته. أخبرني عن أمه، وكيف كانت، وعن والده وعن أخيه.

قلت له: «كان لقاؤهما مثيرًا للاهتمام لأنني صرت الآن أفهم ما تقوله لي على نحو أفضل. أبوك وأخوك، لا أكاد أجد نقاط تشابه بينك وبينهما. أنت، بطبعك هذا! بعقلك وفضولك! بحالة عدم الاستقرار لديك! لا يرى المرء

في أبيك وأخيك إلّا الطيبة والود. فأين هي الصلة بينك وبينهم. هنالك شيء مفقود. كان هذا واضح تمامًا. لا بد أن أمك كانت مثلك. أليس ما أقوله صحيحًا؟».

«نعم، أنت محق. كنت أفهم أمي. لكن هذا أيضًا كان من الأسباب التي جعلتني أرحل. بالمناسبة، من المؤسف أنك لم تعرفها».

«لم أصل إلّا بعد أن انتهى كل شيء».

«قد يكون نيال الصلة الأكثر وضوحًا بين الأجيال الثلاثة. أنا وهو وأبي لدينا الرأس نفسه إذا نظرت إلينا من الخلف».

هززت رأسي.

سرنا في اتجاه التلال الواقعة قبل جسر ترومويا. لقد فجّروا الجبال، وبنوا الطرق، وأقاموا المصانع مثلما يحدث في كل مكان من هذه المنطقة.

رأيت تحتنا جزيرة غييرستادهولمن الصغيرة، ومن بعدها خليج أوبيكلن. بيت هافارد إلى اليمين. وموقف الباص، والغابة في الأسفل، حيث كنا نذهب للتزلج في الشتاء ونهبط حتى الصخور في الصيف لكي نسبح.

قلت: «إنه هناك».

«أين؟ إلى اليسار؟ يا إلهي، هل كنت تعيش هنا حقًا؟».

بيت سورين العتيق، وشجرة الكرز البرّي. وهناك، ها هي المنطقة السكنية، وطريق نورداسن الدائري.

يا إلهي، إنه صغير جدًا!

«ها هو. أمامنا مباشرة».

«أين؟ هل هو البيت الأحمر؟».

«نعم. كان بنيّ اللون عندما عشنا هنا».

أوقف غيير السيارة. كم كان كل شيء صغيرًا! وكم كان قبيحًا!

قلت: «لا يوجد الكثير لنراه هنا. هيا، فلنتابع. فوق هذا التل».

كانت امرأة في سترة بيضاء تسير في الطريق المنحدرة دافعة أمامها عربة أطفال. أما غير ذلك، فلم تكن في المكان كله أي إشارة تدل على وجود حياة.

بيت أولسن. الجبل. كنا ندعوه جبلًا، لكنه ليس إلّا تلة صغيرة. بيت سيف خلفه. وبيت سفيرِه، وبيوت الآخرين.

لا أحد هنا. نعم هنالك أحد ما. مجموعة أطفال.

قال غيير: «أراك صمتت! هل طغت عليك الذكريات؟».

«طغت عليّ! لا، يفاجئني أنها أقل مما توقّعت. هذا كله صغير جدًا. لا شيء هنا. لم أعرف هذا من قبل. لا شيء هنا على الإطلاق. وفي وقت ما، كان هذا كل شيء عندي».

قال مع ابتسامة: «نعم يا كارل أوفه. هل نتابع السير؟».

«فلنتجوّل في الجزيرة. ما رأيك؟ كنيسة ترومويا؟ إنها رائعة. من القرن الثالث عشر. هنالك حجارة رائعة من القرن السابع عشر، وعليها جماجم وساعات رملية وأفاعي. لقد استخدمت جملة منقوشة على واحد منها في أول قصة قصيرة مقبولة كتبتها. جعلتها العبارة الافتتاحية فيها».

مرت الأماكن التي أحملها في داخلي كلها، الأماكن التي تصوّرتها في عقلي مرات كثيرة جدًا خلال حياتي، مرت خلف نوافذ السيارة، من غير أي هالة تحيط بها، حيادية تمامًا، رأيتها مثلما هي على حقيقتها، بضعة بيوت مهملة، وخليج صغير، ورصيف قديم عائم متهالك، وشريط شاطئي ضيّق من خلفه بيوت قديمة. وأرض مستوية تنحدر في اتجاه الماء. هذا كل شيء.

خرجنا من السيارة وذهبنا إلى المقبرة. تجوّلنا هناك ونظرنا إلى البحر. لكن، حتى ذلك، حتى مشهد أشجار السرو النامية عند الشاطئ الحجري، تلك الشجرات التي تغدو أصغر فأصغر كلما صارت أقرب إلى مواجهة الريح العنيفة... لم تثر في نفسي شيئًا.

قلت لغيير: «هيا بنا، فلنذهب!».

رأيت الحقول التي عملت فيها أيام الصيف، والطريق المؤدية إلى الماء حيث كنا نذهب للسباحة منذ السابع عشر من أيار. خليج ساندوم. وبيت معلمتي، ماذا كان اسمها؟ هيلغا تولغيرسن؟ لا بد أنها في الستين الآن؟ فارفيك، ومحطة الوقود، والبيت على الجهة الأخرى حيث كانت فتيات

صفي مستشارات كثيرًا في الحفلة التي أقمناها في الليلة التي سبقت رحيلي، والسوبر ماركت الذي أتذكر بناءه.

لم يكن هنالك شيء. لكن الحياة لا تزال جارية في هذه البيوت. لا تزال هي كل شيء للناس الذين فيها. يولد الناس، ويموت الناس، ويمارسون الحب، ويتجادلون، ويأكلون، ويتبرزون، ويشربون، ويحتفلون، ويقرأون، وينامون. يشاهدون التلفزيون، ويحلمون، ويأكلون تفاحة وهم يحدقون من فوق سطوح البيوت، وتأتي ريح الخريف فتهز أشجار السرو الرشيقة الطويلة.

مكان صغير قبيح، لكنه كل ما هو هنا.

بعد ساعة من ذلك، كنت جالسًا وحدي إلى الطاولة في غرفة المعيشة آكل الجمبري بأقصى سرعتي. قدم والد غيير لي الطعام، لكنه لم يأكل شيئًا. أراد أن أمر بهذه التجربة السورلاندية قبل ذهابي. وبعد ذلك ودعته وشكرته على استضافتي. ذهبت إلى السيارة وجلست إلى جانب غيير من جديد وانطلقنا إلى المطار. سلكنا الطريق المارة ببيركيلاند لأنني أردت رؤية بيت طفولتي الآخر، ذلك البيت في تفيت. أردت أن أرى شكله الآن.

توقف غيير أمام البيت. ضحك، ثم ضحك.

«هل عشت هنا حقًا؟ في وسط الغابة؟ إنه بيت معزول تمامًا! لا أحد هنا! مكان مهجور جدًا... شيء مثل ذلك الرجل في فيلم توينبيكس، إذا أردت رأيي. أو لعله شيء مثل مسلسل بيرميل والسيد نيلسون، إن كنت تستطيع تذكر هذا المسلسل التلفزيوني. لقد سبب لي خوفًا كبيرًا عندما كنت طفلًا».

تابع غيير الضحك عندما رحت أشير إلى الأماكن هناك. كان عليّ أن أضحك أيضًا لأنني رأيت تلك الأماكن بعينيه. هذه البيوت العتيقة المهملة كلها، وهذه السيارات الميتة أمام البيوت، والشاحنات الصغيرة المتوقفة خارجها، والمسافات بين البيوت، والفقر الواضح. حاولت أن أشرح له كم كان هذا البيت لطيفًا، وكم كان العيش فيه جيدًا، وأن كل شيء كان هنا...».

قال غيير: «هيا الآن! لا بد أن العيش هنا كان أشبه بالأشغال الشاقة».

لم أجبه... أحسست بوخزة، وأحسست بالحاجة إلى دفاع ما. لكني لم

أنزعج. لا يزال هذا المكان على حاله، لا يزال تجربة داخلية جعلت كل شيء متألقًا بالمعنى من غير أن يكون له ما يقابله من حيث المظهر الخارجي.

ودعته في ساحة السيارات في المطار. عاد إلى سيارته، أما أنا فسرت صوب صالة المغادرين. تذهب طائرتي إلى أوسلو حيث علي أن آخذ طائرة أخرى إلى بيلولد في الدانمارك، ثم أغير الطائرة من جديد في مطار كاستروب في كوبنهاغن. لم أصل البيت حتى الساعة العاشرة من تلك الليلة. عانقتني ليندا عندما وصلت. عانقتني عناقًا طويلًا مشبوب العاطفة. جلسنا في غرفة المعيشة. كانت قد أعدت الشاي. أخبرتها عن رحلتي. وقالت لي إن اليوم الأخير كان أفضل من سابقه. لكنها أدركت أن علينا أن نفعل شيئًا لكسر الدائرة المفرغة التي ندور فيها. وافقتها، وقلت إن الأمر لا يجوز أن يظل هكذا، لا يمكن أن يستمر، وعلينا أن نجد سبيلًا للخروج والسير في طريق جديدة. ذهبت إلى غرفة النوم في الحادية عشرة والنصف. شغلت الكومبيوتر وفتحت ملفًا جديدًا وبدأت الكتابة.

في النافذة التي أمامي، أرى صورة وجهي غائمة. لا تظهر إلّا عين واحدة ملتمعة مع المنطقة التي تحتها تمامًا، إنها تعكس ضوءًا صغيرًا خافتًا. وأما جانب وجهي الأيسر فهو كله في الظل. ينحدر على جبهتي تغضّنان عميقان، ويقطع كل وجنة تغضن عميق آخر... غضون كأنها مليئة ظلمة. مع هاتين العينين المحدقتين الجادتين وزاويتي الفم المتهدلتين، يصير من المستحيل عدم اعتبار هذا الوجه حزينًا.

ما الذي حفر نفسه فيك؟

واصلت الكتابة في اليوم التالي. كنت أريد أن أقترب من حياتي إلى أقصى حد ممكن؛ وهكذا كتبت عن ليندا وجون النائمَيْن في الغرفة المجاورة، وعن فانيا وهيدي اللتين كانتا في الحضانة، وعن المنظر من النافذة والموسيقى التي أستمع إليها. ذهبت في اليوم الذي بعده إلى الكابينة التي استأجرناها، وكتبت أكثر هناك، كتبت مقاطع بأسلوب ما بعد حداثي تتحدث عن الوجوه وعن الأشكال المتكررة الموجودة في الأنظمة الكبيرة، في كثبان الرمل، وفي الغيوم، وفي الاقتصاد وحركة المرور. وكنت أذهب إلى الحديقة من حين إلى

آخر حتى أدخن وأنظر إلى الطيور تطير مندفعة هنا وهناك في السماء. كان ذلك في شهر شباط، ولم يكن من حولي أحد في ذلك المكان... صف بعد صف من البيوت الصغيرة حسنة الترتيب كأنها بيوت الدمى مع حدائقها الصغيرة المعتنى بها إلى حد جعلها تبدو كأنها غرف معيشة. وفي المساء، مر سرب ضخم من الغربان. لا بد أنها كانت بالمئات: سحابة داكنة من أجنحة تصطفق مارة بي مندفعة إلى الأمام. حل الليل، وصار كل شيء من حولي ظلامًا عدا ذلك الجزء الصغير الذي يضيئه النور المنسكب من الباب المفتوح. كنت ساكنًا تمامًا حيث جلست. مر بي قنفذ على مسافة نصف متر من قدمي.

قلت له: «مرحبًا يا قنفذ!» ثم انتظرت إلى أن بلغ نهاية الحديقة قبل أن أنهض وأدخل. بدأت في اليوم التالي أكتب عن الربيع الذي انتقل فيه أبي وتركني مع أمي. قررت الاستمرار رغم أني كرهت كل جملة. كان عليّ أن أواجه هذا، أن أحكي القصة التي أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أحاول أن أحكيها. وعندما عدت إلى البيت، تابعت الكتابة انطلاقًا من الملاحظات نفسها التي سجلتها عندما كنت في الثامنة عشرة، تلك الملاحظات التي لم أتخلص منها، لسبب ما... وقعت عيني على عبارة «كيسَي البيرة في الخندق»: إشارة إلى ليلة رأس سنة عندما كنت مراهقًا. يمكنني الاستفادة من هذا طالما أنني أبعدت عن ذهني أي فكرة عن الكتابة عن شيء سامٍ مقدّس. انقضى الأسبوع، وكنت أكتب وآخذ البنتين إلى الحضانة، أو أعيدهما، وأمضي بعد الظهر معهما في حديقة من الحدائق الكثيرة، وأطبخ طعام العشاء، وأقرأ لهما، ثم أضعهما في السرير، ثم أعمل على تقارير القرّاء وغيرها من الأعمال المختلفة في المساء. أركب الدراجة كل أحد وأذهب إلى ليمهامنسفالتيت لألعب كرة القدم مدة ساعتين. كان ذلك وقت الفراغ الوحيد، أما كل شيء غيره فكان عملًا أو أطفالًا. كانت ليمهامنسفالتيت رقعة عشبية ضخمة خارج المدينة قرب البحر. ومنذ نهاية الستينيات، صارت مجموعةٌ من رجال متنوعين تلتقي هناك في العاشرة والربع من صباح كل يوم أحد. أصغر اللاعبين في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة، أما أكبرهم فقريب من الثمانين. كان اسمه كاي، وكان يلعب في الجناح. يجب أن تصير الكرة

عند قدميه، لكنه لا يزال يمتلك القدرة على تسديدها، بل كان يحرز هدفًا من وقت لآخر. إلّا أن أكثر اللاعبين كانوا بين الثلاثين والأربعين. إنهم آتون من مختلف مشارب الحياة ولا يجمعهم في الحقيقة إلّا هذه المتعة التي يجدونها في لعب كرة القدم. في آخر أحد من شهر شباط، أتت ليندا مع الأولاد. أطلقت فانيا وهيدي صيحات التشجيع بعض الوقت، ثم ذهبتا للعب في مساحة مخصّصة للأطفال عند الشاطئ. أما أنا فتابعت اللعب. كانت الأرض متجمّدة، وكان العشب الطري عادة قد صار صلبًا كالصخر. اندفعت طائرًا بعد اصطدامي بأحد اللاعبين، ثم سقطت على كتفي فأدركت على الفور أن شيئًا قد حدث. بقيت مستلقيًا على الأرض، واجتمع الآخرون من حولي. ألم شديد وغثيان. سرت مترنحًا ممسكًا بكتفي ومضيت إلى خلف المرمى. أدرك الآخرون أن الأمر لم يكن صدمة بسيطة فأنهوا اللعبة. تجاوزت الساعة الحادية عشرة على أي حال.

أخذني فريدريك إلى المستشفى (كاتب في الخمسينيات، يمارس الصيد غير القانوني ولا يزال يلعب في فرق كرة قدم سويدية غير رسمية)، في حين ذهب مارتين، عملاق دانماركي يتجاوز طوله مترين تعرفت عليه من خلال الحضانة، فأخبر ليندا والأطفال بما حدث لي. كانت غرفة الاستقبال في قسم الإسعاف مليئة بالناس فأخذت رقمًا من الآلة وجلست أنتظر. كان كتفي يحترق، فضلًا عن وخزات ألم شديدة كلما حرّكته. لكنني استطعت تحمل هذا الألم ريثما جاء دوري. شرحت الوضع لممرضة مكتب الاستقبال التي أتت لتفحصني فحصًا سريعًا. أمسكت بذراعي وحركتها ببطء إلى جهة اليمين. صرخت بأعلى صوتي. آآآآآههههه! نظر الجميع إليّ: رجل يقارب الأربعين في قميص الفريق الأرجنتيني وحذاء لكرة القدم، شعره طويل مربوط خلف رأسه بحلقة مطاطية مثل ثمرة الأناناس، وعصابة قماشية على رأسه؛ رجل يصرخ ألمًا.

قالت الممرضة: «من الأفضل أن تأتي معي حتى نستطيع فحصك جيدًا».

دخلت الغرفة المجاورة حيث طلبت مني الممرضة الانتظار قليلًا. مضت بضع دقائق ثم دخلت ممرضة أخرى حرّكت ذراعي بالطريقة نفسها. صرخت من جديد.

قلت لها: «إنني آسف، لكني لا أستطيع منع نفسي من الصراخ».
قالت: «لا مشكلة في هذا». نزعت عني سترتي الرياضية... «علينا نزع قميصك أيضًا. هل يمكنني فعل ذلك؟».
جذبَتْ كمّ القميص فصرخت. توقفتْ لحظة ثم حاولت من جديد. تراجعت خطوة إلى الخلف ونظرت إليّ. أحسست أنني طفل كبير الحجم جالس أمامها.
«علينا أن نقصّ كم القميص».
الآن، جاء دوري في النظر إليها... هل ستقص قميصي الأرجنتيني؟
عادت الممرضة حاملة مقصًا. قصت كم القميص، ثم طلبت مني أن أجلس على السرير وغرست إبرة في ذراعي. قالت إنها أعطتني قليلًا من المورفين. لم ألاحظ أي تغير بعد تلك الحقنة. دفعت الممرضة السرير المتحرك فأخذتني إلى غرفة أخرى لعلها تبعد خمسين مترًا ضمن متاهة الممرات في هذا المبنى. وهناك تركتني وحدي أنتظر تصوير ذراعي بالأشعة. كنت خائفًا بعض الشيء لأنني ظننت أن كتفي مخلوع. إن كان كذلك، فأنا أعرف أن إعادته إلى وضعه الطبيعي ستكون مؤلمة. لكن الطبيب أكد لي أنني أصبت بكسر، وقال إن شفائي سوف يستغرق ما يتراوح بين ثمانية أسابيع واثني عشر أسبوعًا. أعطوني بعض الأدوية المضادة للألم، وكتبوا وصفة من أجل أدوية أخرى، ثم شدوا ذراعي وكتفي بضماد متصالب يمر من فوق كتفي ومن تحته، وعلقوا سترتي الرياضية على كتفيّ وأرسلوني إلى البيت.
عندما فتحت باب الشقة، جاءت فانيا وهيدي راكضتين لملاقاتي. كانت إثارتهما كبيرة: بابا كان في المستشفى؛ إنها مغامرة كبرى! جاءت ليندا حاملة جون بين ذراعيها فأخبرتها بأنني مصاب بكسر في عظم الترقوة، وبأنهم وضعوا لي جبيرة. ليس الأمر خطيرًا، لكني لن أكون قادرًا على رفع أو حمل أي شيء ولا على استخدام ذراعي خلال الشهرين القادمين.
سألتني ليندا: «هل هذا صحيح؟ شهران كاملان؟».
قلت: «قد تكون ثلاثة شهور في أسوأ الأحوال».
قالت ليندا: «لا يجوز أن تلعب كرة القدم بعد الآن، لا يجوز أبدًا».

قلت: «أوه؟ هذا يعني أنك أنت من يتخذ القرار، أليس كذلك؟».

قالت: «إنني أنا من سيتحمل النتائج. كيف أعتني بالأطفال وحدي مدة شهرين؟ هل يحق لي طرح هذا السؤال؟».

قلت: «اهدأي! لن يكون الأمر سيئًا. لاحظي أنني مصاب بكسر أيضًا. إنه مؤلم. ثم إنني لم أتعمّد هذا».

ذهبت إلى غرفة المعيشة لأجلس على الأريكة. كان عليَّ أن أكون حذرًا في كل حركة، وأن أخطط لها مسبقًا. كانت أي غلطة صغيرة تسبب لي ألمًا. أوف، أوه، أوه... كنت أتألم وأنا أجلس ببطء على الأريكة. وكانت فانيا وهيدي تنظران إليَّ بعيون متسعة.

ابتسمت لهما، وحاولت وضع الوسادة الكبيرة خلف ظهري. اقتربتا مني. مرت هيدي بيدها على صدري كأنها تفحصني.

سألتني فانيا: «هل نستطيع رؤية الضمادة؟».

قلت لها: «فيما بعد. إن خلع الملابس وارتداءها مؤلم قليلًا».

صاحت ليندا من المطبخ: «الطعام جاهز».

كان جون جالسًا في كرسيه المرتفع يضرب على الطاولة بشوكته وسكينه. وقفت فانيا وهيدي تنظران إليَّ وإلى حركاتي البطيئة المتأنية عندما جلست إلى الطاولة.

قالت ليندا: «يا لهذا اليوم! لم يكن مارتين يعرف شيئًا. قال فقط إنهم أخذوك إلى قسم الإسعاف. لقد أعادنا إلى البيت، بسيارته، لحسن الحظ. ثم انكسر المفتاح عندما كنت أفتح الباب. تخيلت أننا سنضطر إلى المبيت عندهم. لكني بحثت في حقيبتي فوجدت المفتاح الثاني. كان هذا حظًا طيبًا. نسيت أن أعلقه في مكانه. ثم عدت أنت إلى البيت بعظم مكسور...».

نظرت إليّ وقالت: «إنني مرهقة».

أجبتها: «وأنا آسف. أظن أنني لن أكون قادرًا على فعل شيء خلال بضعة أيام فقط. وبعد ذلك سأكون قادرًا على استخدام ذراعي الأخرى من غير أي مشكلة».

بعد فراغنا من الطعام، استلقيت على الأريكة واضعًا الوسادة خلف

ظهري ورحت أتابع مباراة كرة قدم إيطالية في التلفزيون. لم أفعل هذا إلّا مرة واحدة خلال أربع سنوات، أي منذ أن صار لدينا أطفال. في ذلك الوقت، كنت مريضًا إلى درجة جعلتني غير قادر على الحركة. استلقيت طيلة اليوم. تابعت الجزء الأول من فيلم جيسون بورنه لمدة عشر دقائق، ثم نمت قليلًا، ثم تابعت الفيلم عشر دقائق، ثم نمت قليلًا. كنت أتقيأ من وقت إلى آخر، وكان جسدي يؤلمني كله. كان ذلك وضعًا غير محتمل على الإطلاق، لكني استمتعت بكل ثانية من ذلك اليوم. الاستلقاء على الأريكة ومشاهدة فيلم في وسط النهار! ليس مطلوبًا مني أن أفعل شيئًا! لا غسل الملابس ولا تنظيف الأرض ولا جلي الأطباق ولا رعاية الأطفال!

كان لديّ ذلك الإحساس في هذه اللحظة. لست في وضع يسمح لي بفعل أي شيء. صحيح أن كتفي يؤلمني ألمًا حارقًا لاسعًا، لكن متعة الاستلقاء في سلام هكذا كانت أكبر من الألم.

أحاطت بي فانيا وهيدي. راحتا تمسّدان كتفي برقة. ثم خرجتا من الغرفة لتلعبا. ثم عادتا. قلت في نفسي إن هذا حدثٌ غير مسبوق بالنسبة إليهما... أن ترياني هكذا، راقدًا، ساكنًا تمامًا. كأنهما تكتشفان الآن جانبًا جديدًا في أبيهما.

ذهبت لأستحم عندما انتهت المباراة. ليس لدينا حاملٌ لرأس الدوش في الحمام. لا بد من حمله باليد. لكني لا أستطيع فعل هذا الآن. فتحت الماء في الحوض، ثم جلست فيه بصعوبة. وقفت فانيا وهيدي تنظران إليّ.

سألتني فانيا: «هل تريد مساعدة في الاستحمام يا بابا؟ هل نستطيع أن نساعدك؟».

قلت: «نعم، سيكون هذا شيئًا لطيفًا. هل ترين ليفة الحمام هناك؟ خذيها وضعيها في الماء ثم ضعي عليها بعض الصابون».

نفّذت فانيا التعليمات بدقة. كانت هيدي تتابعها خطوة بخطوة. وقفتا إلى جانبي منحنيتين فوق حافة الحوض. راحتا تدعكان جسمي بليفة الحمام. كانت هيدي تضحك، أما فانيا فكانت جادة مهتمة بأداء العمل على الوجه الصحيح. غسلتا ذراعي ورقبتي وصدري. فقدت هيدي اهتمامها بعد ثواني معدودة فجرت خارجة إلى غرفة المعيشة. أما فانيا فظلت فترة أطول.

سألتني بعد قليل: «هل هذا جيد؟».
ابتسمت لها. أنا من يسألها هذا السؤال عادة. قلت: «نعم. هذا عظيم. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لولا وجودك معي».
أشرق وجهها، ثم جرت خارجة إلى غرفة المعيشة مثلما فعلت هيدي.
بقيت مستلقيًا في الماء إلى أن صار باردًا. مباراة كرة قدم على التلفزيون، ثم حمام طويل. يا سلام! يوم عطلة حقيقي!
أتت فانيا عدة مرات لتنظر إليّ. لقد كانت تترقب مشاهدة عملية وضع الضماد. كانت تتكلم اللغة السويدية، بالطبع. لا تزال لهجة ستوكهولم واضحة لديها. لكن، عندما أكون معها في الصباح أو بعد الظهر، أو عندما تريد التقرب مني لسبب أو لآخر، فإن كلمات بلهجتي أنا تظهر في حديثها. تقول لي: «لوفت أوب مي!» احملني! فأضحك كل مرة.
قلت لها: «اذهبي ونادي ماما».
أومأت برأسها وانطلقت راكضة. خرجت من حوض الحمام بحذر شديد. كنت قد جفّفت جسمي بالمنشفة عندما دخلت ليندا.
قلت لها: «هل تستطيعين مساعدتي في وضع الضماد؟».
قالت: «طبعًا».
شرحت لها كيف يجب أن تضعه وقلت لها أن تشده بإحكام وإلّا فإنه لن يؤدي وظيفته.
«شديه أكثر!».
«ألا يؤلمك هذا؟».
«يؤلمني قليلًا، لكن الألم عند الحركة يصير أخف إذا كان الضماد مشدودًا بقوة».
قالت: «لا بأس... إن كنت تقول هذا».
وعند ذلك، شدته من الخلف بقوة.
صرخت: «آآآآه!».
«هل كان هذا أقوى مما ينبغي؟».
قلت: «لا، كان هذا جيدًا». استدرت إليها.

قالت: «آسفة لأنني كنت غاضبة كثيرًا. لكني ذعرت عندما تخيّلت كيف سيكون الوضع. عليّ أن أقوم وحدي بكل شيء، شهرًا بعد شهر».

قلت: «لكن الأمر لن يكون هكذا، سوف أستطيع بعد بضعة أيام أن آخذهما إلى الحضانة، ثم الذهاب لأخذهما كالمعتاد. أنا واثق من هذا».

«أعرف أنك تتألم وأن الذنب ليس ذنبك. لكنني مرهقة كثيرًا».

«أعرف هذا. سيجري الأمر على ما يرام، سنجد حلًا لكل شيء».

جاء يوم الجمعة. كانت ليندا متعبة كثيرًا فذهبت مع جون لآتي بهيدي وفانيا من الحضانة. كان الذهاب إلى الحضانة سهلًا لأنني دفعت عربة جون بيدي اليمنى وسرت خلفها بحذر شديد. لكن طريق العودة كان أكثر صعوبة. كنت أجرّ عربة جون خلفي بيدي اليمنى وقد ألصقت ذراعي المصابة إلى جسدي ورحت أدفع عربة فانيا وهيدي المزدوجة بجسدي كله. كانت طعنات الألم تسري في جسدي من حين إلى آخر. فأطلق صرخات صغيرة. لا بد أن منظري كان غريبًا لأن الناس كانوا ينظرون إلينا طيلة الطريق. كانت هذه الأسابيع تجربة غريبة بالنسبة إليّ: انعدام القدرة على الحمل والرفع، وصعوبة الجلوس والوقوف... جعلني ذلك أحس عجزًا يتجاوز القيود الجسدية. فجأة، لم تعد لديّ قوة ولا سلطة، واختفى ذلك الإحساس بالسيطرة الذي كنت أعتبره شيئًا مفروغًا منه. كنت ساكنًا، هادئًا، سلبيًا، فبدا الأمر كأنني فقدت كل سيطرة على ما يحيط بي. هل يعني هذا أنني كنت أشعر دائمًا أنني صاحب سلطة عليهم وبأنني قادر على التحكم بهم؟ نعم، لا بد أن الأمر كان هكذا! ما كنت محتاجًا إلى استخدام سلطتي وقدرتي على التحكم؛ كانت معرفة أن تلك السلطة موجودة كافية لي، وكانت تتخلل كل شيء أفعله وكل شيء أفكر فيه. لكن السلطة ذهبت الآن فرأيتها للمرة الأولى. بل كانت أغرب من ذلك أيضًا حقيقة أنني أحسست الأمر نفسه في ما يتعلق بالكتابة. كان لدي إحساس بالسلطة وبالقدرة على الضبط؛ لكن هذا الإحساس اختفى عندما انكسرت ترقوتي. صرت فجأة تحت النص، وصارت له سلطة مفاجأة عليّ. لا بد لي من جهد كبير حتى أتمكن من كتابة الصفحات الخمس التي كان إنجازها هدفًا يوميًا. لكني أفلحت في تجاوز

ذلك أيضًا. كرهت كل مقطع وكل كلمة وكل جملة، لكن انعدام سروري بما أفعله لم يكن يعني عدم فعله. سنة واحدة وينتهي الأمر، وأكون عندها قادرًا على الكتابة عن شيء آخر. تزايد عدد الصفحات، وسارت القصة قُدُمًا. وفي أحد الأيام، وصلت إلى مكان أستطيع فيها استخدام ملاحظة سجلتها على كتاب منذ عشرين سنة، ملاحظة عن حفلة أقامها أبي لزملائه وأصدقائه في الصيف الذي بلغت فيه السادسة عشرة: تجمّعٌ في ظلمة أواخر الخريف حين امتزج سروري العارم ببكاء أبي فكان ذلك وقتًا مفعمًا بالعواطف، أمسية مستحيلة تلاقى فيها كل شيء. الآن، صرت قادرًا على الكتابة عنها. وبعد أن أنتهي منها، سيكون عليَّ أن أكتب عن موت أبي. كان هذا بابًا ثقيلًا يصعب فتحه، وكان من الصعب دخوله أيضًا، لكني تعاملت معه بأسلوبي الجديد: خمس صفحات كل يوم بصرف النظر عن كل شيء. أنجز صفحاتي الخمس ثم أنهض وأغلق الكمبيوتر وأحمل كيس القمامة فأضعه في القبو، ثم أذهب لجلب البنتين من الحضانة. يتبدد الجزء الجاثم على صدري عندما تجريان في اتجاهي عبر الملعب. تتنافسان لتعرفا من تستطيع أن تصرخ بصوت أعلى من صوت أختها ومن تستطيع احتضاني قبل أختها. إن كان جون معنا، فإنه يجلس مبتسمًا ويصيح أيضًا. شقيقتاه أعظم شيء في العالم عنده. إنهما تنثران حياتيهما من حوله، وهو يبتلع ذلك كله ويقلّد ما يستطيع تقليده من سلوكهما. لا تزال هيدي تغار منه أحيانًا، ولا يزال من الممكن أن تضربه أو تخمشه إذا لم نكن منتبهين، لكنه لا يخشاها ولا ينظر إليها بعين الخوف أبدًا. لعله ينسى ما تفعله به! أم أن طيبته تجعله قادرًا على تجاوز ذلك كله!

في يوم من أيام شهر آذار، رن الهاتف بينما كنت أعمل. كان رقمًا لا أعرفه، لكن ليس رقمًا نرويجيًا، إنه سويدي. رفعت السماعة. كان ذلك واحدًا من زملاء أمي. إنهما في ندوة دراسية في غوتنبرغ. فقدت أمي وعيها فجأة في أحد المتاجر، وأخذوها إلى المستشفى. إنها الآن في وحدة العناية المركزة. اتصلت بالمستشفى فقالوا إن نوبة قلبية أصابتها. قالوا إنها في غرفة العمليات الآن، لكن الوضع ليس خطيرًا. اتصلتْ بي بنفسها في وقت متأخر من الليل. كان واضحًا من صوتها أنها متعَبة، بل أنها مشوّشة بعض

الشيء أيضًا. قالت إن الألم كان شديدًا فظنت أنها تموت. لم تفقد وعيها، لكنها سقطت على الأرض. لم يكن ذلك في أحد المتاجر، بل في الشارع. قالت لي إنها كانت مستلقية على الأرض مقتنعة بأن نهايتها قد أتت، فكانت الفكرة التي ملأت رأسها في تلك اللحظة هي أن حياتها كانت رائعة.

تجمدتُ عندما قالت ذلك. إن في هذا شيئًا رائعًا!

قالت أيضًا إن ذكريات طفولتها مرت بذهنها في تلك اللحظة عندما كانت مستلقية هناك؛ جاءتها كأنها بصيرة مفاجئة: كانت طفولتها رائعة، كانت حرة سعيدة، كانت أيامًا في غاية الجمال.

في الأيام التي تلت ذلك، ظلت كلماتها تعاودني باستمرار. كنت مصدومًا، على نحو ما. ما كان يمكن أن أفكر على هذا النحو. إن سقطتُ الآن، إن كانت لدي بضع ثوانٍ فقط، أو ربما بضع دقائق فقط، للتفكير قبل أن ينتهي كل شيء، لفكرت عكسها تمامًا. لو حدث هذا لفكرت في أنني لم أنجز شيئًا في حياتي، في أنني لم أر شيئًا، في أنني لم أعِش شيئًا. أريد أن أعيش. لكن، لماذا لا أعيش؟ لماذا؟ عندما أكون في طائرة أو في سيارة وأتخيل أنها موشكة على السقوط، أو أكون في سيارة وأتخيل أنها موشكة على اصطدام، لماذا أظن أن هذا ليس سيئًا جدًا؟ لماذا أظنه ليس مهمًا؟ لماذا أظن أن موتي وحياتي سواء؟ أقول هذا لأنني غالبًا ما أفكر بهذه الطريقة. اللامبالاة واحدة من أكبر الخطايا، بل هي أكبر الخطايا على الإطلاق. لأنها الخطيئة الوحيدة التي نرتكبها في حق الحياة نفسها.

في وقت لاحق من ذلك الربيع عندما اقتربت من نهاية قصة موت أبي، عندما كنت أكتب عن تلك الأيام الفظيعة في بيت كريستيانساند، جاءت أمي لزيارتي. كانت آتية من أجل المشاركة في ندوة دراسية أخرى في غوتنبرغ. وقد أتت لرؤيتنا بعد انتهاء الندوة. انقضى شهران بعد أن أصابتها تلك النوبة القلبية في المدينة نفسها. لو أنها سقطت في البيت، لكان من المستبعد أن تنجو لأنها تعيش وحدها. وحتى إذا تمكنت من طلب المساعدة، فإن بيتها بعيد عن المستشفى أربعين دقيقة بالسيارة. أسعفوها بسرعة كبيرة في غوتنبرغ، وأدخلوها غرفة العمليات على الفور. اتضح لي الآن أن تلك

النوبة القلبية لم تأت على نحو مفاجئ. كانت تصيبها آلام. آلام متقطعة إلّا أنها شديدة. لكنها ظنتها ناتجة عن الإرهاق والتوتر؛ أبعدتها عن ذهنها قائلة لنفسها إنها ستذهب لرؤية الطبيب عندما تعود. لكنها سقطت هناك.

كانت تحوك الصوف ذات صباح؛ وكنت جالسًا أعمل. ليندا مع جون في الخارج. وهيدي وفانيا في الحضانة. ذهبت إليها بعد قليل فبدأت تتحدث عن أبي من غير أن أسألها شيئًا. قالت إنها تسأل نفسها دائمًا عما جعلها تظل معه. لماذا لم تأخذنا وتتركه؟ ألأنها لم تجرؤ على ذلك؟ أخبرتني أنها كانت تتحدث في الأمر مع إحدى صديقاتها قبل بضعة أسابيع؛ وفجأة سمعت نفسها تقول إنها لم تتركه لأنها كانت تحبه.

نظرت إلي وقالت: «كنت أحبه فعلًا يا كارل أوفه. كنت أحبه كثيرًا».

لم تقل هذه الكلمات قبل الآن أبدًا. بل لم تقترب من هذا الموضوع. في الحقيقة، لا أتذكر أنني سمعت كلمة «حب» من فمها قبل الآن.

فوجئت كثيرًا. ماذا يجري؟ قلت في نفسي: ماذا يجري؟ هنالك شيء يتغير من حولي. أو لعله يتغير في داخلي فيجعلني قادرًا على رؤية أشياء ما كنت قادرًا على رؤيتها قبل الآن؟ أو... ربما أنا من حرك شيئًا كان ساكنًا زمنًا طويلًا؟ لأنني تحدثت معها ومع إنغفه عن أيامنا مع أبي، تحدثت كثيرًا. صارت تلك الأيام قريبة مني، من جديد.

أخبرتني في ذلك الصباح عن لقائهما الأول. كانت تعمل في فندق في كريستيانساند في فترة الصيف. كان عمرها ستة عشر عامًا. وفي يوم من الأيام، في مطعم له شرفة كبيرة في أحد المنتزهات، في ظل شجرة، عرفتها واحدة من رفيقاتها على صديقها وزميلٍ له.

قالت: «لم أسمع اسمه جيدًا أولَ الأمر. بقيت فترة طويلة أظن أن اسمه كنودسن، وليس كناوسغارد. في ذلك الوقت، أعجبني الشاب الآخر أكثر منه. لكني وقعت في حب أبيك بعد ذلك... إنها ذكرى جميلة جدًا. الشمس، والعشب في الحديقة، والأشجار، والظلال، والناس هناك... كنا صغيرين... نعم، كانت تلك مغامرة. كانت بداية مغامرة. هكذا كنت أشعر».

المؤلف: كارل أوفه كناوسغارد (Karl Ove Knausgård)

كاتب روائي نرويجي ولد في أوسلو سنة 1968

اشتهر بسداسيته الضخمة "كفاحي ـ Min Kamp" التي اعتمد فيها أسلوب السيرة الذاتية. وقد حققت هذه الرواية نجاحاً لم يحققه أي كتاب في النرويج إذ بيع منها 450000 نسخة في بلد لا يتجاوز عدد سكانه خمسة ملايين. وترجمت إلى لغات كثيرة.

فازت روايته الأولى "خارج العالم" الصادرة سنة 1998 بجائزة النقاد النرويجيين للآداب.

ثم فازت روايته الثانية "زمان من أجل كل شئ" الصادرة سنة 2004 بعدة جوائز من بينها "جائزة مجلس الآداب النوردية".

له عدد كبير من المقالات، إضافة إلى مقابلات هامة مع شخصيات أدبية كبيرة. وأسس سنة 2010 دار نشر باسم "بيليكانن".

المترجم: الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: "سنة 501، الغزو مستمر"
- هوارد زِن: "ماركس في سوهو" - مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: "اختراع التقاليد"
- تشارلز تايلر: "المتخيلات الاجتماعية الحديثة"
- إيفان كليما: "حب وقمامة" - رواية
- جورج أورويل: "1984" - رواية
- جون ستيوارت مِل: "سيرة ذاتية"
- سول بيلو: "مغامرات أوجي مارتش" - رواية
- سينكلير لويس: "بابيت" - رواية
- باولا هوكينز: "فتاة القطار" - رواية.



رواية مفعمة بحيوية بالغة الكثافة... نرى كناوسغارد حاداً صادقاً كل الصدق لا يتهيب التعبير عن شجون تخص الجميع...

يلسع الكتاب الثاني القارئ لسعاً لأن كناوسغارد مثالي متقد يريد محاربة ما في الكينونة البرجوازية الحديثة من تماثل وانصياع.

جيمس وود، ذا نيويوركر

ممتعة في كل خطوة، ينيرها صدق مروّع وبصيرة مذهلة. تقدم رواية "كفاحي" إلى الأدب العالمي شخصية مفردة ثم تجعلنا نغرق في تلك الشخصية.

فيليب لوبات، روائي، ناقد سينمائي أميركي

حبل يلتف حول العنق، ونصل سكين في القلب. كتاب كله سحر. عالم يتفتح...

كريستيليت داغبلاد (الدانمارك)

جمال لا يعرف الرحمة.

آفتنبوستن (النروج)

جودة تقطع الأنفاس.

ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو

في الكتاب الثاني من سداسية "كفاحي" الرائعة الفذّة، ينتقل بطل الرواية كارل أوفه كناوسغارد إلى ستوكهولم منفصلاً عن زوجته في النرويج. وهناك يبحث عن ليندا التي التقاها في ورشة للكتّاب قبل سنوات فكان مسحوراً بها.

هذا الجزء قصة حب في جوهره. وقصة مصاعب الحياة الأسرية واضطراباتها، وما في كل يوم من خيبات وإيقاع متكرر ومن ألهيات تمنعه من الكتابة.

ISBN: 978-9938-941-21-0





تونس - بيروت - القاهرة